

تاريخ الأدب العربي

تأليف

المفكر والأديب

أحمد حسن الزيات

المتوفى 1388 هـ

الناشر

مكتبة الثقافة العربية



مكتبة الثقافة الدينية ، القاهرة

البريد الإلكتروني:

Alsakafa_aldinaya@hotmail.com

هاتف : +2025922620

فاكس: +2025936277

فهرست الهيئة المصرية العامة

لدار الكتب والوثائق القومية:

تاريخ الادب العربى

تأليف: احمد حسن الزيات

1- الادب العربى تاريخ ونقد

ا- العنوان

رقم الإيداع: 2018/17970

الترقيم الدولي: 4-728-341-977-978

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

مُقَدِّمَةٌ

الحمد لله، وبحمده يستفتح الكلام، والحمد لله حمده من أفضل ما تحركت به الألسن وجرت الأقلام، أحمده تعالى على الدوام، وأشكره على ما هدانا للإسلام، وأبان لنا الحلال والحرام، وشرع لنا الشرائع وأحكم الأحكام، وأمرنا بالبر والاجتماع على الحق والاعتصام، ونهانا عن الجفاء وسائر الآثام، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، الملك القدوس السلام، ولي كل إنعام، ذو الآلاء الجسام، والمنن العظام، وأشهد أن نبينا محمداً عبد الله ورسوله، هو للأمة بدر التمام، وللأنبياء مسك الختام، المصطفى من الرسل والمجتبى من الأنام، صلى الله وسلم وبارك عليه وعلى آله البررة الكرام، وصحبه الأئمة الأعلام، والتابعين، ومن تبعهم بإحسان.

أما بعد:

يعتبر الأستاذ أحمد حسن الزيات أحد رواد الفكر والأدب، فهو أديب موهوب من أئمة البيان في لغة القرآن، يختار أسلوبه المتميز به، والحافل بألوان موسيقية متنوعة مع اهتمامه باللغة وحرصه على الوضوح والتشويق والربط بين القديم والحديث والصور الخيالية، وهو يرى أنها مظهر قوة العاطفة وصدقها.

لقد كان الزيات من أرباب البلاغة ويوصف أسلوبه بأنه السهل الممتنع وصاحب ديباجة ناصعة نقية تشع أناقة وجمالاً، وقد كان فارساً من فرسان البيان وصاحب قلم يجذب القلوب بأسلوبه الجميل وبيانه الساحر وثروته الأدبية مع المحافظة على اللغة وبنائها، فهو بحق من عمالقة البيان ورواد الأدب والذوق الأدبي الرفيع والأسلوب المشرق الجميل، فله من الشعر خياله المجنح وعواطفه ووشيه وجرسه العذب، ومن النثر أسلوب متسق بارع في فنه وانسجامه وبلاغته وعمقه مما يذكرنا بقول ابن المقفع: (البلاغة هي التي إذا سمعها الجاهل ظن أنه يحسن مثلها فإذا حاول عجز)، وأسلوب الزيات نقرأه في كتبه ومؤلفاته بالغ الأثر مبنًى ومعنى، لقد أخرج لنا عددًا من المؤلفات تفيض بعلمه وفكره وطبعه وحسه وبيانه وفنه حتى صدق عليه ما قاله ابن الأثير في

البحثري من أنه أراد أن يشعر فغنى، وذلك يعود إلى قوة بيانه وجرس ألفاظه وتصيد جمال العبارات وحسن المعاني ودقائق الألفاظ والأفكار.

ولقد احتل أدبه حائلاً من دراسات المستشرقين والاهتمام بتاريخ المسلمين في الأندلس فنراه مفسراً قوة الإسلام في الأندلس خلال القرون الأربعة الأولى من دخوله إياها أنه كان ينبثق من مصدر متحد ويشرق في صحو شامل فلا غيوم كانت تحجب ضوءه ولا عواطف كانت تبدد سناه. وهكذا دواليك تراه في كتبه ومؤلفاته وكتابات يجلد لوحات فنية يوزع ظلالها وينسق ألوانها لتأخذ بمجامع القلوب وتأسر الأفتدة والنفوس والوجدان لما لها من جمال أخاذ وتوهج وتألق.

ولقد كان الزياد في الأدب إماماً من أئمة النثر الفني مولعاً بجمال التعبير وقوته، أصدر "مجلة الرسالة" فكانت ميداناً للأدب والفن واللغة والاجتماع، ومن مؤلفاته التي عُرف بها "وحي الرسالة" وذلك في أربعة أجزاء، و"دفاع عن البلاغة" و"في أصول الأدب" ومن مترجماته "آلام فارتر" و"رفائيل" وغيرها، ومن أهم مؤلفاته كتابه: "تاريخ الأدب العربي" الذي نحن بصددده فقد قسمه خمسة أبواب:

الباب الأول: العصر الجاهلي مشتملاً على عدة فصول:

الفصل الأول: نشأة اللغة العربية.

الفصل الثاني: النثر وأنواعه ومميزاته.

الفصل الثالث: الشعر تعريفه وأنواعه ومميزاته.

الفصل الرابع: الشعراء الجاهليون وطبقاتهم ومكانتهم.

أما الباب الثاني: فهو عن عصر صدر الإسلام والدولة الأموية، ومصادر الأدب الإسلامي والشعراء وطبقاتهم والخطباء والكتاب.

والباب الثالث عن العصر العباسي مستعرضاً اللغة والكتاب والشعراء ونماذج من الشعر العباسي في الحكم والحماسة والرئاسة والهجاء والشعراء في الشام والعراق والأندلس ومصر، وأشار إلى الأدباء والنحاة والمحدثين والفقهاء والفلاسفة والمقامات والقصص في الأدب العربي.

أما الباب الرابع فقد تحدث فيه المؤلف عن العصر الحديث ووسائل النهضة الحديثة كالجامعات والصحافة والطباعة والمجامع الأدبية واللغوية والفن القصصي

والروائي مستعرضاً أساطين النهضة الحديثة في مصر والشام والعراق والمغرب من أدباء وخطباء وشعراء، وخاتمة عن الاستشراق والمستشرقين وأشهرهم.

وهذا الكتاب يدل دلالة واضحة على جهد كبير في البحث، وهو من الكتب الأدبية الرائعة التي تستحق التقدير واهتمام الباحثين والدارسين، فمن يلق نظرة على هذا الكتاب يلمح في ثناياه أصالة الأديب وأمانة المؤرخ وإبداع الكاتب وبراعة الأديب ودقة الباحث؛ حيث استعرض فيه تاريخ الأدب العربي في شتى العصور منذ العصر الجاهلي حتى العصر الحديث، ولنستشهد بنص من نصوص نشره حيث كتب عن الحياة قائلاً:

(الحياة جميلة وليس جمالها مقصوراً على قوم دون قوم ولا عن طبقة دون طبقة وإنما الجمال وضاعة الفن الإلهي أشاعه الله في الأرض والسماء، وحباه المدارك للاستغراق فيه والاستمتاع، فإن كان ذا سمع وبصر وقلب وجده في منظر وأحسه في كل حالة، فهؤلاء الذين يمرون عليه وهم معرضون عنه وقد فسدت فيهم طبيعة الحياة، وتبلدت فيهم ملكة الحس فانقطع ما بينهم وبين الوجود الحق والوجدان الصحيح، إن الجمال وسيلة الطبيعة لحفظ الحياة وبقاء النوع وهو سرور النفس ونور القلوب وسلام الروح كن جميلاً ترى الجمال في كل شيء حتى في الدمامة، فالسعادة بالجمال إضعاف السعادة بالمال،.... إلخ).

وأخيراً فإن الزيات بمؤلفاته وكتبه مفكر أديب له أثر وأياد غر على اللغة العربية وآدابها وكتبه في هذه الميادين كثر ليس إلى حصرها من سبيل، هذا وبالله التوفيق.

ترجمة المؤلف



اسمه:

هو أحمد حسن الزيات باشا، من كبار رجال النهضة الثقافية في مصر والعالم العربي، ومؤسس مجلة الرسالة. اختير عضوًا في المجامع اللغوية في القاهرة، ودمشق، وبغداد، وحاز على جائزة الدولة التقديرية في الآداب عام 1962 م في مصر.

مولد الزيات ونشأته:

ولد الزيات في قرية كفر دميرة القديم التابعة لمركز طلخا بمحافظة الدقهلية بمصر في 16 جمادى الآخرة 1303 هـ/ 2 إبريل 1885 م، ونشأ في أسرة متوسطة الحال، تعلم الزراعة. تلقى تعليمه في كتاب القرية، فحفظ القرآن وتعلم القراءة والكتابة، ثم أرسل إلى أحد العلماء في القرية المجاورة ليتعلم القراءات السبع وأجاده في سنة واحدة.

تعليمه الجامعي وعمله:

التحق الزيات بالجامع الأزهر وهو في الثالثة عشرة من عمره، وظل فيه عشر سنوات، وتلقى في أثناءها علوم الدين واللغة العربية، إلا أنه كان يفضل الأدب فتعلق بدروس الشيخ سيد علي المرصفي الذي كان يدرس الأدب في الأزهر، كما حضر شرح المعلقات للشيخ محمد محمود الشنقيطي، أحد أعلام اللغة العربية البارزين آنذاك.

اتصل بطه حسين، ومحمود حسن الزناتي، وكانوا يقضون أوقاتاً طويلة في دار الكتب المصرية لمطالعة عيون الأدب العربي، ودواوين فحول الشعراء. ولكن لم يكمل الزيات دراسته بالأزهر وإنما التحق بالجامعة الأهلية فكان يدرس بها مساء ويعمل صباحاً بالتدريس في المدارس الأهلية. والتقى الزيات في عمله بالعديد من رجال الفكر والأدب في عصر النهضة، مثل: العقاد، والمازني، وأحمد زكي، ومحمد فريد أبو حديد. ولقد اختير من قبل الجامعة الأمريكية بالقاهرة رئيساً للقسم العربي بها في عام 1922م، وفي أثناء ذلك التحق بكلية الحقوق الفرنسية، وكانت الدراسة بها ليلاً، ومدتها ثلاث سنوات، أمضى منها سنتين في مصر، وقضى الثالثة في فرنسا حيث حصل على ليسانس الحقوق من جامعة باريس في سنة 1925 م. في عام 1929 م اختير أستاذاً في دار المعلمين في بغداد، فترك العمل في الجامعة الأمريكية وانتقل إلى هناك. ولم ينتمي الزيات طيلة حياته لأي حزب سياسي. وظل الزيات محل تقدير وموضع اهتمام حتى وفاته في القاهرة في صباح الأربعاء الموافق 16 ربيع الأول 1388 هـ/12 مايو 1968 عن عمر ناهز 83 عاماً. وقد نقل جثمانه إلى قرية كفر دميهر ودفن فيها.

مجلة الرسالة:

بعد عودة الزيات من بغداد عام 1933 م ترك التدريس، وانتقل للصحافة والتأليف. وفي 18 رمضان 1351 هـ/15 يناير 1933 م قام بإصدار مجلة الرسالة، التي صار لها أثراً قوياً على الحركة الثقافية الأدبية في مصر.

استمر صدور "الرسالة" نحواً من عشرين عاماً، وكانت مدرسة أدبية ومجالاً لظهور كتاب وشعراء من الجيل الجديد بنوا شهرتهم على صفحاتها. وقد أصدر الزيات بعد ذلك مجلة أخرى اسمها "الرواية" وكانت تختص بالقصة القصيرة أو الرواية المطولة تنشرها مسلسل، واستمر صدورها عامين وكتب فيها كبار القصصيين، كما كانت تشجع القصصيين الشبان وبينهم كاتب ناشئ هو الأديب نجيب محفوظ، وكانت أول قصة نشرها بعنوان "ثمن الزوجة"، ثم أدمجت "الرواية" بالرسالة وأخيراً اضطرت الزيات إلى التوقف عن إصدار "الرسالة الرواية" بسبب الظروف الاقتصادية، وتولى رئاسة مجلة الأزهر. ولما أمت الصحافة في مصر، حاولت وزارة الإرشاد القومي إحياء "الرسالة"

وعينت الزيات رئيساً لتحريرها مرة أخرى، ولكن المحاولة لم تنجح لأن الزمن كان قد تغير، وأذواق القراء قد تطورت، والصحافة اتجهت وجهات جديدة، فلم يكتب للرسالة أن تستعيد مكانتها السابقة أو تجدد مجدها القديم، وتوقفت مرة أخرى بعد بضعة أعداد، وكان صدورها في مرحلتها الثانية دليلاً صارخاً على أن الصحافة لا يمكن أن تكون جزءاً من الجهاز الحكومي، ولا تعيش إلا في جو الحرية وهوائها الطلق.

الزيات أدبياً:

يُعد الزيات صاحب أسلوب خاص في الكتابة، وهو أحد أربعة عُرف كل منهم بأسلوبه المتميز وطريقته الخاصة في الصياغة والتعبير، والثلاثة الآخرون هم: مصطفى صادق الرافعي، وطه حسين، والعقاد، ويقارن أحد الباحثين بينه وبين العقاد وطه حسين، فيقول: «والزيات أقوى الثلاثة أسلوباً، وأوضحهم بياناً، وأجزهم مقالة، وأنقاهم لفظاً، يُغنى بالكلمة المهندسة، والجملة المزدوجة، وعند الكثرة الكاثرة هو أكتب كتابنا في عصرنا».

امتاز أسلوب الزيات بنصاعة الديباجة وروعة البيان، وكان يولي دقة اللفظ وموسيقى الجملة وإيقاعها عناية كثيرة، وكان يعتمد إلى السجع من وقت لآخر دون تكلف ولا إملا. وقد اتهمه البعض بتغليب الأسلوب على الفكرة والشكل على الموضوع، ولكنه كان أديباً مترسلاً يتحرى المعنى النبيل في اللفظ الجميل، وكان له أثر كبير في رعاية سلامة اللغة العربية، وكان يحرص على الأسلوب العربي السليم في كل ما ينشره في "الرسالة". وكان يفتح كل عدد من أعدادها بافتتاحية من طول واحد، متخيرة الألفاظ، يستوحي موضوعاتها من أحداث الساعة، وقد جمعها فيما بعد في كتاب من أربعة أجزاء بعنوان "وحي الرسالة".

ما قاله النقاد عنه:

الزيات أحد أعلام كثيرين أنجبهم الريف المصري وأطلعهم على الحياة الأدبية مشاعل مضيئة، كان لها في تاريخنا الأدبي المعاصر أثر كبير، ودور لن تغفى عليه الأيام.

يقول (العقاد): الزيات كاتب متأنق لا يكتب الصفحة الواحدة إلا في يومين أو أيام، ولولا اضطراره إلى مسايرة (الرسالة) لشغل نفسه بالصفحة الواحدة أسابيع،

وتألق الزيات تألق مقبول .. ولكنه حرم أسلوبه من قوة الحركة ، فهو يقهر القارئ على الوقوف من وقت إلى وقت ليسأل عن الطريق .

وفي أسلوبه يقول (محمد مندور) : أسلوب الزيات مصنوع صنعة محكمة ، صنعة كاملة ، ولكن الصنعة تبعدها عن الحياة ، ولكن الكمال يمل . وهناك في أساليب كبار الكتاب ما يحسه البلاغيون والنحويون ضعفاً وعبثاً ولكنه أمانة الأصالة ودليل الطبع ، وإذا كان في جلال أسلوب (شكسبير) أو (فاليري) ما يسمونه كسر البناء ، فكيف لا يطمئن جهد الزيات حتى يقيم الموازين ، ويقيس المسافات .

من مؤلفاته:

- تاريخ الأدب العربي
 - في أصول الأدب
 - دفاع عن البلاغة
 - وحي الرسالة" وجمع فيه مقالاته وأبحاثه في مجلة الرسالة.
 - ومن أعماله المترجمة من الفرنسية:
 - آلام فرتر" لغوته.
 - رواية روفائيل للأديب الفرنسي لامارتين.
 - بالإضافة لذلك له مجموعة قصصية بعنوان "من الأدب الفرنسي".
- وفاته:

توفي في صباح الأربعاء الموافق 16 من ربيع الأول 1388 هـ = 12 من مايو 1968م عن ثلاثة وثمانين عاماً .

مصادر ومراجع الترجمة:

- نعمة رحيم الغزاوي . أحمد حسن الزيات كاتباً وناقداً . الهيئة المصرية العامة للكتاب . القاهرة 1986م.
- نعمات أحمد فؤاد . قمم أدبية . عالم الكتب . القاهرة - 1984م.
- محمد مهدي علام . المجمعون في خمسين عاماً . مطبوعات مجمع اللغة العربية . القاهرة . 1406 هـ = 1986م.

عملنا في الكتاب

سار عملنا في الكتاب وفق المنهج التالي:

- 1- نسخ الكتاب نسخًا علميًا دقيقًا.
 - 2- مطابقة النص ومراجعته.
 - 3- تخريج الآيات القرآنية وفق مواضعها من المصحف الشريف.
 - 4- إضافة تعليقات المؤلف وحواشيه.
 - 5- ترقيم النص حسب قواعد الترقيم الحديثة.
 - 6- صنع ترجمة وافية للمؤلف المفكر والأديب أحمد حسن الزيات.
 - 7- وضع تعليقات على بعض المواضع الهامة التي تحتاج إلى شرح وبيان وبدأنها بـ(قلت) للتفرقة بينها وبين حواشي المؤلف.
 - 8- عمل فهرس تفصيلية لأبواب الكتاب.
- وأخيرًا فهذا هو جهد المقل، والمرجو ممن يطلع على كتابنا فيجد فيه عيبًا أن يبادرنا بالنصيحة، والتصويب، فكلُّ معرض للخطأ، ولا كمال إلا لله سبحانه وتعالى.
- وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين، وصلى الله على سيدنا محمد وآله وسلم.
- المحقق

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

كتبنا هذا الكتاب على خير ما رجونا من التمهيص والتلخيص، وحجزنا القلم عن وجهه ومَرَادُ القول رحب ومجال البحث مستفيض؛ فأجملنا على رغمنا حال الأدب في العصور الخمسة، ولا سيما في العصر العباسي وهو أرقى عصور الإسلام، ومشرق نور الحضارة، ومهبط وحي العلم، وريق شباب اللغة، وقوفاً بالطالب عند درسه، وترفيهاً منا عن نفسه، واجتزاء ببسط الفرض ونهج السبيل ليمعن فيها الناشئ البار بلغته مُسَدِّد الخطى مؤيد العزيمة، حتى يقف على أطوار لسانه، ويكشف عن أسرار بيانه. ولا نَكْذِبُ الله فقد كان لمنهاج التعليم في هذا البلد وزهادة الناشئين في الإفاضة، أثر قوي في هذا الإيجاز. فكلمتنا للمتعقب، إذا رأى في هذا الموجز إجمالاً أو إغفالاً ألا يبسط بالنكير لسانه، فإن هذا العلم في العربية وليد، والبحث فيه طريف جديد. ونحن إنما كتبناه لناشئة الأدب لا لفحوله، وألمنا فيه بأصوله لا بفصوله. كلمتنا للمتعلم، إذا استوعاه بالدرس، واستقرأه بالحفظ، ألا يقف في الطلب عنده، وألا يُقْصِرَ عليه جهده، فإنما هو عجالة لهفان وبُلاله صَادٍ وعلالة مُشَوِّق.

* * * * *

ذلك ما قدمناه به الطبعة الأولى لهذا الكتاب منذ خمسة وأربعين عاماً. وإنه ليثلج صدورنا أن نقول اليوم إن دراسة تاريخ الأدب في الديار المصرية وفي غيرها من الأقطار العربية، قد أخذت تنتشر وتتسع وتعمق؛ فمناهجه تنفتح وتعدل، ومباحثه تحقق وتحلل، ومدرسه يتقصون في تفصيله، ودارسوه يتبارون في تحصيله. لذلك نزعنا في هذه الطبعة إلى شيء من التعمق والبسط، راجين أن يكون في هذا العمل بعض الغناء لشباب العرب في العراق ولبنان وشرقي الأردن والسعودية واليمن والجمهورية العربية المتحدة والسودان وليبيا وتونس والجزائر والمغرب.

أ/ الزيات

مقدمة

أدب اللغة

أدب اللغة ما أُثِرَ عن شعرائها وكتّابها من بدائع القول المشتمل على تصور الأخيصة الدقيقة، وتصوير المعاني الرقيقة، مما يهذب النفس ويرقق الحس ويثقف اللسان. وقد يطلق الأدب على جميع ما صنف في كل لغة من البحوث العلمية والفنون الأدبية، فيشمل كل ما أنتجته خواطر العلماء وقرائح الكتاب والشعراء.

والآداب العربية أغنى الآداب جمعاء؛ لأنها آداب الخليفة منذ طفولة الإنسان إلى اضمحلال الحضارة العربية. فما كانت لغة مُضَرَّ بعد الإسلام لغة أمة واحدة، وإنما كانت لغة لجميع الشعوب التي دخلت في دين الله أو في كنفه. أودعوها معانيهم وتصوراتهم، وأفضوا إليها بأسرار لغاتهم؛ ثم جابت أقطار الأرض تحمل الدين والآداب والحضارة والعلم، فصرعت كل لغة نازلتها ووسعت علوم الأولين وآداب الأقدمين، من يونان وفُرس ويهود وهنود وأحباش، واستمسكت على عَزك الخطوب تلك القرون الطويلة، فشهدت مصارع اللغات حولها وهي مرفوعة الرأس رابطة الجأش ترث نتاج القرائح وثمار العقول من كل أدب ونحلة، فكانت لغات الأمم على اختلافها كالجداول والأنهار، تتألف، ثم تتشعب، ثم تتجمع، ثم تصب في محيط واحد هو اللغة العربية.

تاريخ الأدب

تاريخ الأدب علم يبحث عن أحوال اللغة وما أنتجته قرائح أبنائها من بليغ النظم والنثر في مختلف العصور، وعما عرض لهما من أسباب الصعود والهبوط والدثور، ويعني بتاريخ النابهين من أهل الكتابة واللّسن ونقد مؤلفاتهم وبيان تأثير بعضهم في بعض بالفكرة والصناعة والأسلوب⁽¹⁾.

ذلك تعريف تاريخ الأدب بمعناه الأخص، أما تعريفه بمعناه الأعم فهو وصف مسلسل مع الزمن لما دُوّن في الكتب وسجل في الصحف ونقش في الأحجار تعبيراً عن عاطفة أو فكرة، أو تعليماً لعلم أو فن، أو تخليداً لحادثة أو واقعة. فيدخل فيه ذكر من نبغ من العلماء والحكماء والمؤلفين وبيان مشاربهم ومذاهبهم وتقدير مكائهم في الفن الذي تعاطوه ليظهر من كل ذلك تقدم العلوم جميعاً أو تأخرها.

(1) تاريخ الأدب بهذا المعنى عام حديث النشأة، ابتدعه الإيطاليون في القرن الثامن عشر وظل مجهولاً في الشرق حتى اشتد خلّاطه بالغرب، فكان أول من نقله إليه المغفور له الأستاذ حسن توفيق العدل على أثر عودته من ألمانيا وقيامه بتدريسه في دار العلوم.

أما العرب فقد توسعوا في تأليف كتب التراجم للأدباء والشعراء والعلماء وذهبوا في ذلك مذاهب شتى تدل على تعزيزهم في هذا النوع. ككتاب وفيات الأعيان لابن خلكان، وفوات الوفيات للكتي، وبغية الوعاة للسيوطي، ومعجم الأدباء لياقوت، وتاريخ الحكماء للقفطي، وكتاب الأغاني لأبي الفرج الأصفهاني، وبيتمة الدهر للشعالبي، ودمية القصر للباخري، وخريدة القصر للكاتب الأصفهاني، وقلائد العقيان للفتح بن خاقان، ونفح الطيب للمقري؛ ولكن نسبة هذه الكتب إلى تاريخ الأدب كنسبة الحجارة إلى القصر المشيد؛ لأنها أخبار مفردة غير مرتبطة لا تظهر ما بين الشعراء أو الكتاب من علاقة في الصناعة والغرض والأسلوب، ولا نذكر ما عرا النظم والنثر من تحول وتقلب. وما نجده من ذلك في كتاب العمدة لابن رشيّق، والمثل السائر لابن الأثير، والمقدمة لابن خلدون، والفهرست لابن النديم، ليس إلا نبذاً يسيرة ولمحاً وجيزة وردت مبعثرة لا صلة بينها ولا رابط، ولذلك أسباب سنذكرها عند الكلام على مذاهب العرب في التاريخ. راجع تفصيل ذلك في كتابنا: (في أصول الأدب)، القاهرة سنة 1650.

فائدة تاريخ الأدب

لتاريخ الأدب الأثر البالغ في حياة الأمة. فإن المحافظة على اللغة وما فيها من ثمار العقل والقلب أحد الأساس التي يبنى عليها الشعب وحدثه ومجده وفخره. فإذا حرمت شعباً آدابه وعلومه الجليلة الموروثة فقطعت سياق تقاليده الأدبية والقومية حرمة قوام خصائصه ونظام وحدثه، وقدرته إلى العبودية العقلية وهي شر من العبودية السياسية، لأن استعباد الجسم مرض يمكن دواؤه، ويُرجى شفاؤه، أما استعباد الروح فموت للقومية التي لا يقدر على إحياؤها طبيب.

تقسيم تاريخ الأدب

التاريخ الأدبي وثيق الصلة بالتاريخ السياسي والاجتماعي لكل أمة، بل قل إن كليهما يلزم للآخر مؤثر فيه ممهد له. غير أن الأول إنما يسبق الثاني كما تسبق الفكرة بالعمل والرأي العزيمة: فكل ثورة سياسية أو نهضة اجتماعية إنما تعدها وتمدها ثورة فكرية تظهر أولاً على ألسنة الشعر وأقلام العلماء لقوة الحس فيهم، وصفاء النفس منهم؛ ثم ينتقل تأثيرهم وتطورهم إلى سائر الناس بالخطابة والكتابة فتكون الثورة أو النهضة.

لذلك أثرنا أن نجاري كثرة كتابنا في تقسيم تاريخ آدابنا إلى خمسة أعصر على حسب ما نال الأمم العربية والإسلامية من التقلبات السياسية والاجتماعية وهي:

(1) العصر الجاهلي، ويتدئ باستقلال العدنانين عن اليمنيين في منتصف القرن الخامس للميلاد، وينتهي بظهور الإسلام سنة 622م.

(2) عصر صدر الإسلام والدولة الأموية، ويتدئ مع الإسلام وينتهي بقيام الدولة العباسية سنة 133هـ.

(3) العصر العباسي، ومبدؤه قيام دولتهم ومنتهاه سقوط بغداد في أيدي التتار سنة 656 هـ.

(4) العصر التركي، ويبتدئ بسقوط بغداد وينتهي عند النهضة الحديثة سنة

1220 هـ.

(5) العصر الحديث، ويبتدئ باستيلاء محمد علي على مصر ولا يزال.

العرب ومواطنهم وطبقاتهم وقبائلهم المشهورة

العرب أمة من الأمم التي اصطلح المؤرخون⁽¹⁾ على أن يسموها سامية (نسبة إلى سام ابن نوح) وهي البابلية والآشورية والعبرانية والفينيقية والآرامية والحبشية. امتهدت هذه الشعوب في الأصل مهداً واحداً نشأت فيه وتفرقت منه. وتعيين هذا المهد لا يزال موضع الخلاف وموضوع البحث: فبعض يقول إنه العراق، وبعض يرجح أنه جزيرة العرب، وآخرون يزعمون أنه الحبشة. ومهما يكن الخلاف في مهد الساميين فقد نزحوا منه في غابر الدهر، فسكن البابليون والآشوريون العراق، والفينيقيون سواحل سورية. والعبرانيون فلسطين، والأحباش الحبشة، والعرب شبه جزيرتهم. وهي واقعة إلى طرف الجنوب الغربي من آسيا. ويحدها من الشمال سورية، ومن الشرق الفرات وجهة من المحيط الهندي أيضاً، ومن الغرب البحر الأحمر. ثم يقسمها جبل السراة الممتد من اليمين إلى أطراف بادية الشام قسمين: غربياً وشرقياً؛ فالغربي يهبط من سفح ذلك الجبل إلى شاطئ البحر الأحمر فيسمى الغور لانخفاضه أو تهامة لحره والشرقي يصعد إلى أطراف العراق والسماوة فيسمى نجداً لارتفاعه، وما فصل بين الغور ونجد يدعونه الحجاز لحجزه بينهما. أما ما ينتهي به نجد في الشرق حتى يصل إلى الخليج العربي من بلاد اليمامة الكويت والبحرين وعمان فيسمى بالعروض لاعتراضه بين اليمن ونجد؛ وما يمتد وراء الحجاز إلى الجنوب يسمى اليمن إما لوقوعه على يمين الكعبة، وإما ليمنه.

وفي هذه الأقسام توزع الشعبان العريان: شعب قحطان، وشعب عدنان. فأما القحطانيون فسكنوا اليمن وكانت لهم فيه عمارة عظيمة وحضارة زاهرة. فلما نَبَتْ بهم مرابعه تمزقوا في البلاد، فذهب من كهلان ثعلبة بن عمرو نحو الحجاز فغلب اليهود على يثرب، وكان من أعقابه الأوس والخزرج. ثم احتل حارثة بن عمرو وهو خزاعة، الحرم. ومال عمران بن عمرو نحو عمان، فبنوه أزد عمان. واستوطنت قبائل نصر بن الأزد تهامة وهم أزد شنوءة؛ ووقف رواد

(1) أول من استعمل هذا الاصطلاح هو المؤرخ الألماني فردريك سلوسر في كتابه التاريخ العام وقد توفي سنة 1860.

جفنة بن عمرو بالشام فأقام بها هو وبنوه فكان منهم الغساسنة. ونزل بنو لحم بالحيرة ومنهم نصر بن ربيعة أبو المناذرة.

وأما العدنانيون فسكنوا الحجاز وما يأسره إلى ريف العراق، فأقامت بطون قريش في مكة وضواحيها، وبطون كنانة في تهامة، واحتلت ذبيان ما بين تيماء وحوران. وسكنت ثقيف الطائف، وهوازن شرقي مكة، ونزل بنو أسد شرقي تيماء وغربي الكوفة، وبنو تميم بادية البصرة. واستوطنت قبائل تغلب الجزيرة الفراتية. وحلت سائر بكر بن وائل طوال الأرض من اليمامة إلى البحر، فأطراف سواد فالأبلة، فهيت.

والمؤرخون يرجعون إلى ثلاث طبقات:

بائدة: وهم الذين درست أخبارهم وطمست آثارهم، فلم يسجل لهم التاريخ إلا صفحات مشوهات لا تنفي ظناً ولا تثبت حقيقة. وأشهرهم قبائلهم: عاد وثمود وطسّم وجديس. ﴿فَأَمَّا ثَمُودُ فَأُهْلِكُوا بِالطَّاغِيَةِ ۝٥﴾ وَأَمَّا عَادُ فَأُهْلِكُوا بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ ﴿٦﴾ [الحاقة: 5 - 6] وأما طسّم وجديس ففتنونا كما يزعمون في حادثة نسائية خرافية.

وعاربة: وهم اليمنيون المتممون إلى يعرب بن قحطان المذكور في التوراة باسم يارح بن يقطان. ويزعم أنه أصل لسانهم، ومصدر بيانهم، وبذلك يفتخر حسان بن ثابت في قوله:

تعلمتم من منطق الشيخ يعرب أينما قصرتم معربين ذوي نفرٍ

وكنتم قديماً ما لكم غير عجمه كلام وكنتم كالبهائم في القفرِ

ومن اليمنيين بطون حمير - وأشهرهم زيد الجمهور وقضاعة والسكاسك. وبطون كهلان - وأشهرهم همدان وطى ومذحج وكندة ولحُم. ومن لخم بنو المنذر في الحيرة والأزد. ومن الأزد الأوس والخزرج في المدينة والغساسنة في الشام. وكانت لحمير السيادة على اليمن فمنهم الملوك والأقبال.

ثم مستعربة: وهم ولد إسماعيل عليه السلام، نزل بالحجاز حوالي القرن التاسع عشر قبل الميلاد، ثم صاهر ملوك جرهم، فكان له بنون وأعقاب ضلوا

في مجاهل الزمن فلم يعرف التاريخ منهم على التحقيق إلى عدنان، وإليه ينتهي عمود النسب العربي الصحيح. وأشهر قبائل هذه الطبقة ربيعة ومضر وأنمار وإياد. فمن ربيعة عبد القيس، ومنها بكر وتغلب ابنا وائل. ومن مضر انشعبت قيس عيلان وبطون إلياس بن مضر. فأما قيس عيلان فأشهر بطونها هوازن وغطفان؛ ومن غطفان عبس وذبيان ابنا بغيض. وأما أولاد إلياس فافترقوا، فمنهم بطون تميم بن مر، وهذيل بن مدركة، وبنو أسد بن خزيمة، وبطون كنانة ابن خزيمة، ومن كنانة قريش: ثم انقسمت قريش إلى بطون شتى. فمنهم جُمح وسهم ومخزوم وعبد الدار وعبد مناف. ثم كان من عبد مناف عبد شمس ونوفل والمطلب وهاشم. ومن هاشم عبد المطلب: وبنوه عشرة منهم عبد الله أبو الرسول صلى الله عليه وسلم، وأبو طالب والد علي رضي الله عنه ثم العباس، فالعلويين ينتسبون إلى علي، والعباسيون إلى العباس. وأما الأمويون فليسوا من بني هاشم وإنما هم من بني عبد شمس أخيه.

وإلى هذه الطبقة يرجع الفضل فيما نتكلم به من لغة، وما نتجمل به من بيان، وما ندرسه من أدب، وما نعتقد من دين.

أحوال العرب

الاجتماعية والسياسية والدينية والعقلية في الجاهلية

إن لجو الإقليم أثراً طبعياً قوياً في حياة أهله، فهو الذي ينهج لهم سَنَنَ معاشهم ونظام اجتماعهم، ويكون الكثير الغالب من أخلاقهم وطباعهم. والعربية شبه جزيرة جافة قاحلة قلما يجودها الغيث وتوانها العيون؛ فهي لا تصلح للزروع الدورية، ولا تلائم الحياة الحضرية. ومن ثَمَّ كان أهلها بدواً⁽¹⁾ بالفطرة يعيشون تحت الخيام على رعي الأنعام فيطعمون من لحمها ولبنها، ويكنسون بصوفها ووبرها، ويتبعون بها مواقع القطر ورياض الأرض يُسيمونها فيها، ويرددونها بين أوديتها وفيافها؛ إلا قريشاً فتحضروا لقيامهم على البيت الحرام، وإيلافهم رحلة اليمن والشام؛ وإلا القحطانيين لحظ ديارهم من الخطب والمطر، ووفرة ما تغله أرضهم من الحب والتمر. فإذا أخلقت السماء وأمحلت وجوه الأرض أكل بعضهم بعضاً بالإغارة والغزو. وجزيرة ذلك عليهم فساد القلوب ودوام الحروب وذهاب الأمن وتشعث الألفة. ولم ينكب الجاهليون بمثل الحرب والجذب، فهم لذلك يتمدحون بالبأس والسماحة، ويتبجحون باللسن والفصاحة، ويؤثرون الذكر ويندون⁽²⁾ الأنثى، ويتكاثرون بالنفر العديد، ويعتزون بالقرابة الواشجة.

ثم كان من إلفهم حياة الظعن والتجوال؛ وتوزع همهم بين الجدل والقتال، أن غلبت عليهم الحرية والعصية والوحشية، فلم تكن لهم مدنية اجتماعية ولا حكومة سياسية ولا أنظمة عسكرية ولا فلسفة دينية. وإنما كان مجتمعهم مجتمع القبيلة والخيمة، لا مجتمع الشعب والأمة؛ والحكومة كانت

(1) يدل على أن البداوة خصيصة العرب في التاريخ القديم أن لفظ العرب يراد به في اللغات السامية معنى البدو والبادية.

(2) لم يكن وأد النبات عاماً في جميع العرب وإنما كان خاصاً ببعض قبائل تميم وأسد، يفعله من يفعل منهم خشية الفقر وإلى ذلك أشار الكتاب في قوله: ﴿وَلَا تَقُولُوا أَوْلَدَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَاقٍ نَحْنُ نَرْزُقُهُمْ

وَأَيَّاكُمْ﴾ [الإسراء: 31]

لرؤساء العشائر يملكون بالإرث ويحكمون بالعرف، فلم تكن الجرشيّة⁽¹⁾ كحكومة الإغريق، ولا ملكية كحكومة المصريين والفرس: اللهم إلا في الحيرة والشام فقد كان لهم ملوك متوجون ولكنهم غير مستقلين: فاللخميون في الحيرة يتبعون الأكاسرة، والغسانيون في الشام يتبعون القياصرة. وإذن فمعاني الحضارة والرأي العام والأرستقراطية والديمقراطية والإقطاع لا ألفاظ لها عند العرب والساميين جميعاً. والنظام العسكري حتى بعد الإسلام كان غير ثابت ولا منظم، لأن المرءوسية والتجرد عن الشخصية - وهما الركنان الأساسيان في العسكرية - يضادان إعجاب العربي بنفسه واعتداده بشخصه. والدين كان دين بساطة وسذاجة وتقشف، فلم يكن للعرب ما كان للإغريق من تعدد الآلهة وضخامة الهياكل وإقامة التماثيل ووفرة الأساطير وفلسفة العقائد، وإنما كان بقية أثرية من دين إبراهيم جاءتهم من وراء القرون عن طريق الوراثة مشوهة لتطاول العهد ونحكم الجاهلية وعدم القرار، فحالت في نفوسهم إلى عبادة الأصنام وتعظيم الأوثان⁽²⁾ ونصبها على الكعبة تقرباً بها إلى الله على زعمهم. وهذه الوثنية كانت دين الكثرة من العرب. أما القلة فكان بعضها على اليهودية في اليمن وفي يثرب وما جاورها من أرض خيبر وتيماء، وبعضها على النصرانية بنجران والحيرة وفي قبائل طيء والغساسنة بالشام.

أما الأسرة وهي نواة القبيلة فقد كان حالها أشبه بحال الأسرة المصرية الريفية اليوم: تتألف من الأبوين والأولاد والحفدة والرقيق. وكان سلطان الأب مطلقاً على أهله: يملك عليهم الموت والحياة والبيع والانتفاء، وربما وأد ابنته خوف الفقر، وانتفى من ابن أمته خوف العار. وكان للزوجة المكانة السامية الثانية في الأسرة، يجلس الزوج في نفسه، ويشاركها في أمره، ويتغنى باسمها في شعره، ويفخر الابن بنسبته إلى أمه كما يفخر بنسبته إلى أبيه. وكان عقد الزواج هو الرباط الغالب بين الرجل والمرأة، وللرجل وحده حق الطلاق ما لم

(1) الجرشيّة Oligarchie حكومة ينحصر السلطان فيها بيد بعض الأسر القوية.

(2) الصنم ما كان على صورة إنسان من حجر أو فضة أو ذهب، والوثن ما كان حجراً عملاً من

يشترط عند العقد خلاف ذلك. ثم كان لهم أنواع أخرى من الزواج هي أشبه شيء بالمسافحة لا يعقدها إلا أولو الدعارة من الشباب. ويقرب من هذه الأنواع رواج كانت تعقده السيوف والأسنة. وذلك أن أحدهما يلقي رجلاً معه ظعينة وليس من قبيلته ولا من أحلافها، فيتقاتلان، فإذا قهره أخذها منه سبية واستحلها بذلك. وكانوا يعددون بين الزوجات إلى حد غير معروف، ويحلون الزواج من امرأة الأب، ويحرمون البناء بالبنت والأخت والعمة والخالة. أما علاقة أبناء الأسرة بأبناء القبيلة فجماعها مدلول هذه الكلمة الجاهلية: (انصر أخاك ظالماً أو مظلوماً) على ما بين أبناء العم من تنافس وتباغض. ولكن الواحد للقبيلة والقبيلة للواحد.

وأما حالهم العقلية فقد كان التبابعة في اليمن والمناذرة والغساسنة في الشمال على حظ من العلوم يدل عليه ما أقاموه من السدود، وأحيوه من الأرض، وعمره من المدن. ولكن درجة رقيهم، وحقيقة علومهم، لا تزال سراً مطوياً في جوف الأرض ربما كشف عنه التنقيب عن الآثار بعد قليل⁽¹⁾.

أما العدنانيون فقد كسبتهم قوة الملاحظة، وكثرة التجارب، واضطرار الحاجة، طائفة من العلم المبني على التجربة والاستقراء والوهم. فعرفوا الطب والبيطرة والخيال لاتصالها بالحرب؛ ولاحظوا الأنواء والنجوم والرياح لعلاقته بالكلاء والغيث، وليهتدوا بها في ظلمات البر والبحر؛ وبرعوا في الأنساب والأخبار والأشعار، محافظة على عصبيتهم، وتحديثاً بمفاخرهم، وتخليداً لمآثرهم؛ ومهروا في الفراسة⁽²⁾ والقيافة ووصف الأرض، لكشف الدّعى فيهم،

(1) تدل الدلائل على أننا الآن في بدء عهد موفق لكشف آثار المتقدمين. فقد كان من نتائج الحرب العالمية الأولى أن البسط النفوذ الإنجليزي والفرنسي في بلاد العرب. وهب الأثريون المؤرخون من رجالهم ينقبون عن آثار الشرق القديم في خرائب فلسطين وسورية ولبنان والعراق. وقد بدت تبشير النجاح في كشف الأستاذ مونتيه الفرنسي آثار جبيل وهي أقدم مدينة فينيقية.

(2) الفراسة هي الاستدلال بالأمور الظاهرة على الأمور الخفية، كالاستدلال بشكل المرء ولونه وقوله على خلقه، فيستدلون باتساع الجبين على الذكاء، وبعرض القفا على الغباء، وبضيق العين على الشح، وبغلظ الشفتين على الإسراف في الحب والبغض إلخ.

وطلب الهارب منهم. ثم قادهم الجانب الروحي فيهم إلى الاعتقاد بالكهانة⁽¹⁾ والعرافة والزجر، ففزعوا إلى الكهان في أمراضهم، واستفتوا العرّافين في أغراضهم، حتى ذهب الإسلام بكل ذلك.

وجملة القول أن المجتمع العربي خارج القبيلة كان مفككاً من الجهات السياسية والاقتصادية واللغوية، مرتبطاً من الجهات الخلقية والعقلية والأدبية. ولو ساغ لنا أن نحكم على العرب بمقتضى لغتهم وأدبهم لوجدنا لهم نفوساً كبيرة وأذهاناً بصيرة وحنكة خبيرة ومعارف واسعة كَوَّنوا أكثرها من نتاج قرائحهم وثمار تجاربهم؛ فإن لغتهم وهي صورة اجتماعهم لم تدع معنى من المعاني التي تتصل بالروح والفكر والجسم والجماعة والأرض والسماء وما بينها إلا استوعبت أسماءه ورتبت أجزائه⁽²⁾. ووضع اللفظ للشيء دليل على وجوده وعلمه. ولعمري ما يكون التمدن اللغوي إلا بعد تمدن اجتماعي راقٍ في حقيقته وإن لم يَزَق في شكله، عام في أثره وإن لم يعم في أهله.

=

والقيافة قسمان: قيافة الأثر، وهي الاهتداء إلى الهارب بآثار قدمه. وقيافة البشر، وهي الاستدلال بهيئة الإنسان وشكل أعضائه على نسبه

(1) الكهانة والعرافة مطالعة الغيب والإخبار بالحوادث الماضية والآتية وقد يخصون الكاهن بعلم المستقبل. والعراف بعلم الماضي. وكانوا يزعمون أن لهم أتباعاً من الجن يسترقون السمع ويأتونهم بالأخبار، فاشتد اعتقاد العرب فيهم وكثر التجاؤم إليهم. يستشيرونهم في المعضلات، ويستقصونهم في الخصومات، ويستطبونهم في العلل، ويستعيرونهم في الرؤى. ومن أشهرهم الكاهنان شق وسطيح، والعرافان الأبلق الأسدي عراف نجد ورباح بن عجلة عراف اليمامة.

والزجر هو الاستدلال بصوت الحيوان وحركته وحالته على الحوادث، فكان الرجل يعمد إلى الطائر مثلاً فيرميه بحصاة أو يصيح به فإن ولاه في طيرانه ميامنه تفاعل به، وإن ولاه مياسره تشاءم منه وتطير.

(2) تجد الأمثلة على ذلك في كتاب فقه اللغة للثعالبي وكتاب المخصص لابن سيده .

الباب الأول: العصر الجاهلي

الفصل الأول

نشأة اللغة العربية

اللغة العربية إحدى اللغات السامية، انشعبت هي وهن من أرومة واحدة نبتت في أرض واحدة. فلما خرج الساميون من مهدهم لتكاثر عددهم اختلفت لغتهم الأولى بالاشتقاق والاختلاط، وزاد هذا الاختلاف انقطاع الصلة وتأثير البيئة وتراخي الزمن حتى أصبحت كل لهجة منها لغة مستقلة.

ويقال: إن أحبار اليهود أول من فطن إلى ما بين اللغات السامية من علاقة وتشابه في أثناء القرون الوسطى، ولكن علماء المشرقيات من الأوروبيين هم الذين أثبتوا هذه العلاقة بالنصوص حتى جعلوها حقيقة علمية لا إبهام فيها ولا شك.

والعلماء يردون اللغات السامية إلى الآرامية والكنعانية والعربية، كما يردون اللغات الآرية إلى اللاتينية واليونانية والسنسكريتية. فالآرامية أصل الكلدانية والآشورية والسريانية، والكنعانية مصدر العبرانية والفينيقية، والعربية تشمل المضربية الفصحى ولهجات مختلفة تكلمتها قبائل اليمن والحبشة. والراجح في الرأي أن العربية أقرب المصادر الثلاثة إلى اللغة الأم، لأنها بانعزالها عن العالم سلمت مما أصاب غيرها من التطور والتغير تبعاً لأحوال العمران.

وليس في مقدور الباحث أن يكشف عن أطوار النشأة الأولى للغة العربية، لأن التاريخ لم يسايرها إلا وهي في وفرة الشباب والنماء. والنصوص الحجرية التي أخرجت من بطون الجزيرة لا تزال لندرتها قليلة الغناء؛ وحدث هذه الأطوار التي أتت على اللغة فوحدت لهجاتها وهذبت كلماتها معلوم بأدلة العقل والنقل، فإن العرب كانوا أميين لا تربطهم تجارة ولا إمارة ولا دين، فكان من الطبيعي أن ينشأ من ذلك ومن اختلاف الوضع والارتجال، ومن كثرة

الحل والترحال، وتأثير الخلطة والاعتزال، واضطراب في اللغة كالترادف، واختلاف اللهجات في الإبدال والإعلال والبناء والإعراب، وهنات المنطق كعجعة⁽¹⁾ قُضاعة، وطمطمانية حُمير، وفحفحة هذيل، وعننة تميم، وكشكشة أسد، وقطعة طيء، وغير ذلك مما باعد بين الألسنة وأوشك أن يقسم اللغة إلى لغات لا يتفاهم أهلها ولا يتقارب أصلها.

ولغات العرب على تعددها واختلافها إنما ترجع إلى لغتين أصليتين: لغة الشمال ولغة الجنوب. وبين اللغتين بون بعيد في الإعراب والضمائر وأحوال الاشتقاق والتصريف، حتى قال أبو عمرو ابن العلاء: (ما لسان حمير بلساننا ولا لغتهم بلغتنا). على أن اللغتين وإن اختلفتا لم تكن إحداهما بمعزل عن الأخرى، فإن القحطانيين جلوا عن ديارهم بعد سيل العرم - وقد حدث عام 447م كما حققه غلازر الألماني - وتفرقوا في شمال الجزيرة واستطاعوا بما لهم من قوة، وبما كانوا عليه من رقي، أن يخضعوا العدنانيين لسلطانهم في العراق والشام، كما أخضعوهم من قبل لسلطانهم في اليمن. فكان إذن بين الشعبين اتصال سياسي وتجاري يُقرب بين اللغتين في الألفاظ، ويجانس بين اللهجتين في المنطق، دون أن تغلب إحداها على الأخرى، لقوة القحطانيين من جهة، ولاعتماد العدنانيين بالصحراء من جهة أخرى. وتناول الأمد على هذه الحال حتى القرن السادس للميلاد، فأخذت دولة الحميريين تدول وسلطانهم يزول بتغلب الأحباش على اليمن طوراً وتسلبت الفرس عليه طوراً آخر. وكان العدنانيون حينئذ على نقیض هؤلاء تنهياً لهم أسباب النهضة والألفة والوحدة والاستقلال، بفضل الأسواق والحج، ومنافستهم للحميريين والفرس، واختلاطهم بالروم والحبشة من طريق الحرب والتجارة، ففرضوا لغتهم وأدبهم على حمير الذليلة المغلوبة، ثم جاء الإسلام فساعد العوامل

(1) العجعة: قلب الياء جيماً بعد العين وبعد الياء المشددة فيقولون في الراعي: راعج، وفي كربي: كرسج. والطمطانية: جعل أم بدل أل في التعريف فيقولون في البر. أمبر، وفي الصيام: أمصيام. والفحفحة: جعل الحاء عيناً فيقولون: أهل الله العلال، بدل: أهل الله الحلال. والنعنة: إبدال العين من الهمزة إذا وقعت في أول الكلمة. فيقولون في أمان: عمان. والكشكشة: جعل الكاف شيئاً في الخطاب المؤنث فيقولون في عليك: عليش. والقطعة: حذف آخر الكلمة فيقولون يا أبا الحسا في الحسن.

المتقدمة على محو اللهجات الجنوبية وذهاب القومية اليمنية، فاندثرت لغة حمير وآدابهم وأخبارهم حتى اليوم.

لم تغلب لغات الشمال على لغات الجنوب فحسب، وإنما استطاعت كذلك أن تبرأ مما جنته عليها الأمية والهمجية والبداءة من اضطراب المنطق واختلاف الدلالة وتعدد الوضع، فتغلبت منها لغة قريش على سائر اللغات لأسباب دينية واقتصادية واجتماعية أهمها:

(1) الأسواق: وكان العرب يقيمونها في أشهر السنة للبياعات والتسوق وينتقلون من بعضها إلى بعض، فتدعوهم طبيعة الاجتماع إلى المقارضة بالقول، والمفاوضة في الرأي، والمبادهة بالشعر، والمباهاة بالفصاحة، والمفاخرة بالمحامد وشرف الأصل، فكان من ذلك للعرب معونة على توحيد اللسان والعادة والدين والخلق، إذ كان الشاعر أو الخطيب إنما يتوخى الألفاظ العامة والأساليب الشائعة قصداً إلى إفهام سامعيه، وطمعاً في تكثير مشاييعه. والرواة من ورائه يطبسون شعره في القبائل وينشرونه في الأنحاء فتنتشر معه لهجته وطريقته وفكرته.

وأشهر هذه الأسواق عكاظ⁽¹⁾ ومجنة وذو المجاز. وأولاهن أشهر فضلاً وأقوى أثراً في تهذيب العربية. كانت تقوم هلال ذي القعدة وتستمر إلى العشرين منه، فتفد إليها زعماء العرب وأمراء القول للمتاجرة والمنافرة ومفاداة الأسرى وأداء الحج. وكان كل شريف إنما يحضر سوق ناحيته إلا عكاظ فإنهم كانوا يتوافدون إليها من كل فج، لأنها متوجّههم إلى الحج، ولأنها تقام في

(1) عكاظ: قرية بين نخلة والطائف. بينها وبين مكة ثلاث مراحل اتخذت سوقاً سنة 540 الميلاد، ثم بقيت في الإسلام إلى أن نهبها الخوارج سنة 129هـ. ومجنة: موضع أسفل مكة على أميال منها. وذو المجاز: بمنى خلف عرفات. وقد سبق الإغريق العرب إلى أمثال هذه المجامع باحتشادهم في الجمناسيوم للألعاب البدنية الأولمبية التي كانوا يقيمونها كل أربع سنين كلما حجوا هيكل المشتري Jupiter في أولمبية. وكانوا يحرمون القتال على أنفسهم في أثنائها على نحو ما يفعل العرب في الأشهر الحرم. فلما استوثق لهم الأمر وتأييد الملك كانت عاقبة أمرها أن أصبحت أندية لإنشاد أشعارهم وعرض أفكارهم. ومن أثر ذلك إطلاق لفظ الجمناسيوم على دور التعليم في أوروبا وعلى الأخص في ألمانيا.

الأشهر الحرم، وذلك ولا ريب سر قوتها وسبب شهرتها. وكان مرجعهم في الفصل بينهم إلى محكمين اتفقوا عليهم وخضعوا لهم فكانوا يحكمون لمن وضح بيانه وفصح لسانه.

(2) أثر مكة وعمل قريش: كان لموقع مكة أثر بالغ في وحدة اللغة ونهضة العرب، لأنها كانت في النصف الثاني من القرن السادس محطاً للقوافل الآتية من الجنوب تحمل السلع التواجد من الهند واليمن فيبتاعها المكيون ويصرفونها في أسواق الشام بمصر. وكانت جواد مكة التجارية آمنة لحرمة البيت ومكانة قريش، فكان تجارهم يخرجون بقوافلهم الموقرة وعيرهم الدثر آمنين، فينزلون الأسواق ويهبطون الآفاق فيستفيدون بسطة في العلم، وقوة في الفهم، وثروة في المال، وخبرة بأمور الحياة. وهي مع ذلك متجرة للعرب ومثابة للناس يأتون إليها من كل فج عميق رجالاً وعلى كل ضامر ليقضوا مناسكهم ويشتروا مرافقهم مما تنتجه أو تجلبه. ذلك إلى أن قريشاً أهلها وأمراءها كانوا لمكانتهم من الحضارة وزعامتهم في الحج، ورياستهم في عكاظ، وإيلافهم رحلة الشتاء إلى اليمن ورحلة الصيف إلى حوران أشد الناس بالقبائل ارتباطاً، وأكثرهم بالشعوب اختلاطاً. كانوا يختلطون بالحبشة في الجنوب، وبالفرس في الشرق، وبالروم في الشمال. ثم كانوا على إثارة من العلم بالكتب المنزلة: باليهودية في يثرب وما جاورها من أرض خيبر وتيماء، وبالنصرانية في الشام ونجران والحيرة، فتهيأت لهم بذلك الوسائل لثقافة اللسان والفكر. ثم سمعوا المناطق المختلفة، وتدبروا المعاني الجديدة، ونقلوا الألفاظ المستحدثة، واختاروا لغتهم من أفصح اللغات، فكانت أعذبها لفظاً، وأبلغها أسلوباً، وأوسعها مادة⁽¹⁾، ثم أخذ الشعراء يؤثرونها وينشرونها حتى نزل بها القرآن الكريم فأتى لها الذبوع والغلبة.

(1) ذكر صاحب العقد الفريد أن معاوية قال يوماً لجلسائه: أيُّ الناس أفصح؟ فقال رجلٌ من السِّمَّاط: يا أمير المؤمنين، قوم قد ارتفعوا عن رُتَّة العراق، وتياسروا عن كَشْكشة بكر، وتيامنوا عن شَنْشَنَة تَغْلِب، ليس فيهم غَمْغمة فُضاعة، ولا طمطمانيَّة حِمْير. قال: مَنْ هم؟ قال: قومك يا أمير المؤمنين قُريش. قال: صدقت، فمن أنت؟ قال: من جَزْم. قال الأصمعي: جَزْم فُضْحى الناس.

الفصل الثاني

النثر

النثر أسبق أنواع الكلام في الوجود لقرب تناوله، وعدم تقيده، وضرورة استعماله. وهو نوعان: مسجّع إن التزم في كل فقرتين أو أكثر قافية، ومرسل إن كان غير ذلك. وقد كان العرب ينطقون به معرباً غير ملحون لقوة السليقة، وفعل الوراثة، وقلة الاختلاط بالأعاجم. اللهم إلا هيئات المنطق فقد اختلفت لأسباب طبيعية في الترقيق والتفخيم والإبدال والإمالة. ولم يُعن الرواة من منشورهم على كثرته إلا بما علق بالذهن لنفاسته وبلاغته وإيجازه، كالأمثال والحكم والوصايا والخطب والوصف والأقاصيص.

فالمثل جملة مقتطعة من القول أو مرسلة بذاتها تنقل عمن وردت فيه إلى مشابهه بدون تغيير. وهذا النوع خاص بالعرب لانتزاعه من حياتهم الاجتماعية وحوادثهم الفردية، كقولهم: وافق شَنْ طَبَقَةً. ولأمر ما جدع قَصِيرُ أنفه. ويداك أو كتافك نفخ. وقد تعاقب العلماء على جمعها وشرحها. وأشهر هؤلاء الميداني المتوفى سنة 518هـ، فقد جمع كتابه: (مجمع الأمثال) من نحو خمسين كتاباً، وكاد يستوعب فيه المأثور من القديم والمشهور من الحديث ورتبه على حروف المعجم.

والحكمة قول رائع موافق للحق سالم من الحشو. وهي ثمرة الحُنْكة ونتيجة الخبرة وخلاصة التجربة، كقولهم: الخطأ زاد العَجول. من سلك الجدد أَمِن العثار. عِي صامت خير من عي ناطق.

والخطبة والوطنية كلتاها يزداد بها الترغيب فيما ينفع وعما يضر، إلا أن الأولى تكون على ملأ من الناس في المجامع والمواسم. والأخرى تكون لقوم معينين في زمن معين، كوصية الرجل لأهله عند النقلة أو الموت.

مميزات النثر الجاهلي

يمتاز النثر في الجاهلية بجريانه مع الطبع، فليس فيه تكلف ولا زُخْرُف ولا غُلُو. يسير مع أخلاق البدوي وبيئته، فهو قوي اللفظ، متين التركيب، قصير الجملة، موجز الأسلوب، قريب الإشارة، قليل الاستعارة، سطحيّ الفكرة. وربما تساوّقت فيه الحُكم واطّردت الأمثال من غير مناسبة قوية ولا صلة متينة.

الخطابة

الخطابة كالشعر لِحُمُتُها الخيال وسُدّاها البلاغة. وهي مظهر من مظاهر الحرية والفروسية، وسبيل من سُبُل التأثير والإقناع. تحتاج إلى ذلاقة اللسان، ونَصاعة البيان، وأناقَةِ اللهجة، وطلاقة البديهة. والعرب ذوو نفوس حساسة وإباء، وأولو غيرة ونجدة. فكان لهم فيها القدم السابقة والقُدْحُ المُعَلَّى. وقد دعاهم إليها ما دعا الأمم البدوية في الفخر بحسبها وتجارها، والدُّود عن شرفها وذمارها، وإصلاح ذات البين بين الحيين، والسفارة بين رءوس القبائل وأقيالهم، أو بين الملوك وعمالهم. وكانوا يدربون فتيانهم عليها منذ الحداثة، ويحرصون على أن يكون لكل قبيلة يشد أزرها، وشاعر يرفع ذكرها. وربما اجتمع الصفتان في واحد.

أما أسلوبها فكان رائع اللفظ، خلاب العبارة، واضح المنهج، قصير السجع، كثير الأمثال. وهم إلى قصارها أميل لتكون أعلق بالصدر وأذيع. ومن عاداتهم فيها الوقوف على نشر من الأرض أو القيام على ظهر دابة، ورفع اليد ووضعها، والاستعانة على العبارة بالإشارة، واتخاذ المخاصر بأيديهم، والاعتماد على الصفاح والرماح أو الإشارة بها.

وكانوا يحبون من الخطيب أو يكون حسن الشارة، جهير الصوت، سليم المنطق، ثبت الجنان. وأشهر خطبائهم في هذا العصر قُص بن ساعدة الإيادي، وعمرو بن كلثوم التغلبي، وأكثم بن صيفي التميمي، والحارث بن عباد البكري، وقيس بن زهير العبسي، وعمرو بن معد يكرب الزبيدي، وحسبنا أن نترجم لخطيبين من أعلامهم وقوفاً بالطلب عند الغرض من هذا المختصر.

الخطباء

قس بن ساعدة الإيادي

(المتوفى سنة 600م)

حياته: هو أسقف نجران وخطيب العرب وحكيمها وحكُمها. كان يؤمن بالله ويدعو إليه بالحكمة والموعظة الحسنة. ويقال: إنه أول من خطب على شرف، واتكأ على سيف، وقال في خطبه أما بعد. سمعه النبي صلى الله عليه وسلم في عكاظ فأثنى عليه. ويروى أنه قال فيه: (رحم الله قساً! إنني لأرجو يوم القيامة أن يُبعث أمة وحده). وكان يفد على قيصر من حين إلى حين فيكرمه. ولكنه صدف عن الدنيا وعاش على الكفاف يعبد الله ويعظ الناس حتى توفي سنة 600م، وقد عمّر طويلاً.

أسلوبه: إن صح ما أُثِرَ عنه من النثر فقد كان أسلوبه مطبوعاً مسجوعاً، شديد الروعة، متخير اللفظ، قصير الفواصل. يعمد فيه إلى ضرب الأمثال واستنتاج العبر من مصارع الطغاة وظواهر الكون. وله شعر يجمع إلى الجزالة رقة التعبير وقوة التأثير كما يتجلى ذلك فيما سنورده من كلامه.

قال من خطبته في سوق عكاظ:

أيها الناس! اسمعوا وعوا، إنه من عاش مات، ومن مات فات، وكل ما هو آت آت. ليل داج، ونهار ساج، وسماء ذات أبراج، ونجوم تزهـر، وبحار تزجر، وجبال مرساة، وأرض مُدحاة، وأنهار مجرأة. إن في السماء لخبراً، وإن في الأرض لعبراً. ما بال الناس يذهبون ولا يرجعون؟ أرضوا فأقاموا؟ أم تركوا فناموا؟ يا معشر إياد، أين الآباء والأجداد، وأين الفراعنة الشداد؟ ألم يكونوا أمكث منكم مالاً وأطول أجالاً؟ طحنهم الدهر بكلكه، ومزقهم بتطاوله.

في الذاهبين الأولين	من القرون لنا بصائر
لما رأيت موارداً	للموت ليس لها مصادر
ورأيت قومي نحوها	يسعى الأصاغر والأكابر

لا يرجع الماضي إليّ ولا من الباقيين غابر

أيقنت أنني لا محالاً حيث صار القوم صائر

ومن حكمه: مَنْ عَيَّرَكَ شَيْئاً ففِيهِ مِثْلُهُ. وَمَنْ ظَلَمَكَ وَجَدَ مِنْ يَظْلِمُهُ. وَإِذَا
نَهَيْتَ عَنِ الشَّيْءِ فابْدَأْ بِنَفْسِكَ. وَكَنْ عَفَّ الْعَيْلَةَ مُشْتَرِكُ الْغَنَى. وَلَا تَشَاوِرْ
مَشْغُولاً وَإِنْ كَانَ حَازِماً، وَلَا جَائِعاً وَإِنْ كَانَ فَهْماً، وَلَا مَذْعُوراً وَإِنْ كَانَ
نَاصِحاً. وَمَنْ شَعَرَهُ قَوْلُهُ يَرِثُنِي أَخَوَيْنِ لَهُ وَقَدْ وَقَفَ عَلَى قَبْرِيهِمَا بِدِيرِ سَمْعَانَ:

خَلِيلِي هُبَا طَالَمَا قَدْ رَقَدْتَمَا أَجَدَّ كَمَا لَا تَقْضِيَانِ كِرَاكَمَا!

أَلَمْ تَعْلَمَا أَنِّي بِسَمْعَانَ مَفْرُودٌ وَمَالِي فِيهِ مِنْ حَبِيبٍ سَوَاكَمَا؟

أَقِيمْ عَلَى قَبْرِي كَمَا لَسْتَ بَارِحاً طَوَالَ اللَّيَالِي أَوْ يَجِيبُ صَدَاكَمَا

حَرَى الْمَوْتِ مَجْرَى اللَّحْمِ وَالْعَظْمِ مِنْكَمَا كَأَنَّ الَّذِي يَسْقِي الْعَقَارَ سَقَاكَمَا!

فَلَوْ جُعِلَتْ نَفْسٌ لِنَفْسٍ وَقَايَةً لَجُدْتُ بِنَفْسِي أَنْ تَكُونَ فِدَاكَمَا

سَأُبْكِيكَمَا طَوَالَ اللَّيَالِي وَمَا الَّذِي يَرُدُّ عَلَى ذِي عَوْلَةٍ إِنْ بَكََاكَمَا!

عمرو بن معد يكرب الزبيدي

(المتوفى سنة 643م)

حياته: عمرو بن معد يكرب الزبيدي فارس اليمن وخطيب العرب وبطل القادسية، ينتهي نسبه إلى قحطان ويكنى أبا ثور. لقي لنبي صلى الله عليه وسلم لدى منصرفه من تبوك سنة تسع من الهجرة فأسلم هو وقومه، ولكن قلباً شاب في الجاهلية الجهلاء، ورتع في الدماء والأشلاء، واستهتر في اللهو والصهباء، لا يُقبل على الدين بإخلاص وصدق، فارتدّ بعد إسلامه. ثم رجع إلى الحق وجاهد في سبيل الله حق جهاده. ثم شهد القادسية وعمره على ما قيل عشر سنين ومائة، فأبلى فيها بلاء حسناً. ثم توفي في أواخر خلافة عمر ابن الخطاب سنة 643م.

صفته ومنزلته: كان قوياً بديناً أكولاً، وكان سيداً مطاعاً وبطلاً شجاعاً وخطيباً شاعراً؛ يعد في الطبقة الثانية من الشعراء، وفي الأولى من الخطباء، ويغلب في شعره التحدث عن نفسه بالشجاعة. يقال: إن النعمان بن المنذر أرسله فيمن أرسل من سراة العرب إلى أنوشروان بالمدائن ليكون كلامهم بين يديه مصداقاً لدعواه في العرب وافتخاره بهم وتفضيله إياهم، فألقى هذه الخطبة:

إنما المرء بأصغريه: قلبه ولسانه، فبلاغ المنطق السداد، وملاك النجعة الارتداد، وعفو الرأي خير من استكراه الفكرة، وتوقيف الخبرة خير من اعتساف الحيرة. فاجتنب طاعتنا بلفظك؛ واكتظم بادرتنا بحلمك، وألن لنا كنفك يكن لك قيادنا. فإننا أناس لم يُوقَّض صفاتنا قراغ مناقير من أراد لنا قضمًا، ولكن منعنا جمانا من كل من رام لنا هضمًا.

ومن شعره قوله في أبي المُرادي وقد توعده:

أعاذلُ شِكتي بدني ورمحي	وكلُّ مُقلَّصٍ سلس القياد
أعاذلُ إنما أفنى شبابي	وقرَّح عاتقي ثقل النجاد
تمناني ليلقاني أبِي	وددت وأينما مني ودادي

ولو لاقيتني ومعى سلاحى
أريد حياته ويريد قتلى!
وقوله:

ليس الجمال بمئزر
إن الجمال معادن
أعددت للحدثان سا
نهذاً وذا شطْبٍ يُقَدِّ
كم من أخ لي صالح
ما إن جزعت ولا هلعت
ذهب الذين أحبهم
فأعلم وإن ردَّيت بُردا
ومناقب أورثن مجدا
بغاة وعَداءَ علندي!
البيض والأبدان قدا
بؤأته بيدي لحدا
ولا يرد بكاي رشدا
وبقيت مثل السيف فردا

نماذج من النثر الجاهلي من الأمثال

قالت العرب في أمثالها:

(إذا سَلِمَتِ الجَلَّةُ فَالْتَيْبَ هَدَرٌ) أي إذا سلم ما ينتفع به هان ما لا ينتفع به.
(إن كنت ريحاً فقد لاقيت إعصاراً) يضرب للمدل بنفيه إذا مُني بمن هو أدهى منه.

(إنك لا تجني من الشوك العنب) أي لا تجد عند ذي المنبت السوء جميلاً.
(ذكرني فوك حماري أهلي) أصله أن رجلاً خرج يطلب حمارين ضالاً له، فرأى امرأة فأعجبته، فنسى الحمارين. فلما أسفرت عن وجهها رأى فمها قبيحاً فقال هذا المثل.

(تَجَشَّأَ لَقْمَانُ مِنْ غَيْرِ شَبَعٍ) يضرب لمن يدّعي ما ليس يملك.
(رمتني بدائها وانسلت) يضرب لمن يُعير الآخر بما يُعير هو به.
(ربّ كلمة تقول لصاحبها دعني) يضرب في النهي عن الإكثار مخافة الإهجار
(أَسْرَ حَسَوّاً فِي ارْتِغَاءٍ) يضرب لمن يريك أنه يعينك وهو يجر النفع إلى نفسه.
وأصله أن الرجل يؤتى باللبن فيظهر أنه يريد الرغوة خاصة فيشربها وهو في ذلك ينال من اللبن.

(أَوْسَعَتْهُمْ سَبّاً وَأَوْدَوْا بِالْإِبِلِ) أصله أن رجلاً أُغِيرَ عَلَى إِبِلِهِ فَأُخِذَتْ، فلما توارى المغيرون بها صعد أكمةً وجعل يسبهم، ثم رجع إلى قومه فسألوه عن إبله، فقال هذا المثل.

(أَحْشَفَا وَسُوءَ كَيْلَةٍ؟) يضرب لمن يجمع بين خصلتين مكروهتين.
(قد يحمل الغير من دعر على الأسد) يضرب لمن يأخذه الدهش والرّوع فحمله على ما ليس من طبعه.

(قبل الرّمي يُرَاشُ الشَّهْمُ...) يضرب للاستعداد للأمر قبل نزوله.

من الحكم

ومن حكم العرب قولهم:

مصارع الرجال تحت بروق الطمع. كلّم اللسان أنكى من كلم السنان. رب عَجلة تهب ريثاً. العتاب قبل العقاب. التوبة تغسل الحوبة. من سلك الجدد أمن العثار. أول الحزم المشورة. رب قول أنفذ من صول. أنجز حرماً وعد. أترك الشر يتركك. من ضاق صدره اتسع لسانه. يدك منك وإن كانت شلاء. رب ملوم لا ذنب له. من مأمنه يؤتي الحذر.

الخطب

قال هانئ بن قبيصة الشيباني لقومه يحرضهم، وهو يدلّك على مذهب الجاهلين في الشر من تفكك المعاني وضعف ارتباط الجمل:

يا معشر بكر! هالك معذور، خير من ناج فرور. إن الحذر لا ينجي من القدر، وإن الصبر من أسباب الظفر. المنية ولا الدنية. استقبال الموت خير من استدباره. الطعن في ثغر النحر، أكرم منه في الأعجاز والظهور. يا آل بكر، قاتلوا فما من المنيا بدا!

وخطب عبد المطلب عند سيف ابن ذي يزن بعد انتصاره على الحبشة قال:

وإن الله تعالى أيها الملك أحلك محلاً رفيعاً، باذخاً شامخاً، وأنبتك منبتاً طابت أرومته، وعزت جرثومته، ونبل أصله، وبسق فرعه، في أكرم معدن وأطيب موطن، فأنت أبيت اللعن رأس العرب وربيعها الذي به تخلص، وملكها الذي به تنقاد، وعمودها الذي عليه العماد، ومعلقها الذي إليه تلجأ العباد. سلفك خير سلف، وأنت لنا بعده خير خلف، ولن يهلك من أنت خلفه، ولن يخمل من أنت سلفه. نحن أيها الملك أهل حرم الله وذمته وسدنة بيته، أشخصنا إليك الذي أبهجنا بكشف الكرب الذي فدحنا، فنحن وفد التهئة، لا وفد المرزئة.

من الوصايا

أوصى زهير بن جناب الكلبي بنيه قال:

يا بني قد كبرت سني، وبلغت حرصاً من دهري، فأحكمتني التجارب، والأمور تجربة واختبار. فاحفظوا عني ما أقول وعوه: إياكم والحدود عند المصائب، والتواكل عند النوائب، فإن ذلك داعية للغم، وشماتة للعدو، وسوء ظن بالرب، وإياكم أن تكونوا بالأحداث مغترين، ولها آمين، ومنها ساخرين، فإنه ما سخر قوم قط إلا ابتلوا، ولكن توقعوها، فإن الإنسان في الدنيا غرض تعاوره الرماة. فمقصر دونه، ومجاوز لموضعه، وواقع عن يمينه وشماله، ثم لا بد أن يصيبه.

وأوصت أعرابية ابنتها ليلة زفافها قالت:

أي بنية! إن الوصية لو تركت لفضل أدب تركت لذلك منك. ولكنها تذكرة للغافل، ومعونة للعاقل. ولو أن امرأة استغنت عن الزوج لغنى أبيها، وشدة حاجتهما إليها، لكنت أغنى الناس.

أي بنية! إنك فارقت الجو الذي خرجت، وخلفت العش الذي فيه درجت، إلى وكر لم تعرفه، وقرين لم تألفه. فاحملي عني عشر خصال تكن لك ذخراً: اصحبه بالقناعة، وعاشريه بحسن السمع والطاعة، وتعهدني موقع عينيه فلا تقع عينه منك على قبيح، ثم اعرفني وقت طعامه، واهدئي عند منامه. فإن حرارة الجوع ملهبة، وتنغيص النوم مبغضة. ثم اتقي مع ذلك الفرح أمامه إن كان ترحاً، والاكتئاب عنده إن كان فرحاً، فإن الخصلة الأولى من التقصير، والثانية من التكدير. وكوني أشد الناس له إعظاماً، يكن أشدهم لك إكراماً. واعلمي أنك لا تصلين إلى ما تحبين حتى تؤثري رضاه على رضاك، وهواه على هواك، فيما أحببت أو كرهت. والله يخير لك.

وأوصت أعرابية ولدها قالت:

أي بني! إياك والنميمة، فإنها تزرع الضغينة، وتفرق بين المحبين. وإياك والتعرض للعيوب فتتخذ غرضاً. وخليق ألا يثبت الغرض على كثرة السهام، وقلما اعتورت السهام غرضاً إلا كلمته حتى يهيي⁽¹⁾ ما اشتد من قوته. وإياك والجود بدينك والبخل بمالك. وإذا هزرت فاهرز كريماً يلن لهزتك، ولا تهزز لئماً فإن الصخرة لا ينفجر

(1) يهي: يضعف.

ماؤها. ومثّل لنفسك مثال ما استحسنت من غيرك فاعمل به، وما استقبحت من غيرك فاجتنبه، فإن المرء لا يرى عيب نفسه.

ومن كانت مودّته بشره وخالف منه فعله، كان صديقه منه على مثل الريح في تصرفها. والعذر أقبح ما تعامل به الناس بينهم. ومن جمع الحلم والسخاء فقد أجاد الحلة رَيطَها وسربالها⁽¹⁾.

(1) كل ثوب رقيق يشبه الملحفة. السربال القميص.

الفصل الثالث

الشعر

تعريفه وأوليته

الشعر هو الكلام الموزون المقفى المعبر عن الأخيلة البديعة والصُّور المؤثرة البليغة وقد يكون نثراً⁽¹⁾ كما يكون نظماً. والشعر أقدم الآثار الأدبية عهداً لعلاقته بالشعور وصلته بالطبع، وعدم احتياجه إلى رقي في العقل، أو تعمق في العلم، أو تقدم في المدنية. ولكن أوليته عند العرب مجهولة، فلم يقع في سماع التاريخ إلا وهو محكم مُقَصَّد وليس مما يسوغ في العقل أن الشعر بدأ ظهوره على هذه الصورة الناصعة الرائعة في شعر المهلهل بن ربيعة وامرئ القيس، وإنما اختلفت عليه العُصُر وتقلبت به الحوادث وعملت فيه الألسنة حتى تهذب أسلوبه وتشعبت مناحيه⁽²⁾. والمظنون أن العرب خَطُّوا من المرسل إلى السجع⁽³⁾ ومن السجع إلى الرجز، ثم تدرجوا من الرجز إلى القصيد.

(1) العرب يعرفونه بهذا المعنى كما عرفه العبران واليونان والفرنج فقالوا: "الشعر شيء تجيش به صدورنا فنقذه على ألسنتنا". وقال حسان لابنه: "شعر ورب الكعبة" حين سمعه يصف زنبوراً لسعه بقوله: "كأنه مُلْتَفٌّ في بُرْدِي حَبْرَة" فهم يطلقون الشعر على النثر المسجوع المشتمل على الخيال المؤثر في الوجدان. وعلى هذا النحو سمو القرآن شعراً والرسول شاعراً.

(2) مما يدل على أن الشعر قديم العهد لول امرئ القيس:

عوجا على الطلل القديم لعلنا نبكي الديار كما بكى ابن حزام

وقول عنتره:

هل غادر الشعراء من متردم

وقول زهير:

ما أراننا نقول إلا معاراً أو معاداً من قولنا مكرورا

(3) قال الباقلائي في كتابه إعجاز القرآن: إن العرب بدأوا بالنثر وتوصلوا منه إلى الشعر وكان عثورهم عليه في الأصل بالاتفاق غير مقصود إليه فلما استحسنوه واستطابوه ورأوا الأسماع تألفه والنفوس تقبله تتبعوه وتعلموه وتكلفوا له.

فالسجع هو الطور الأول من أطوار الشعر توخاه الكهان مناجاة للآلهة، وتقييداً للحكمة، وتعمية للجواب، وفتنة للسامع. وكهان العرب ككهان الإغريق هم الشعراء الأولون، زعموا أنهم مهبط الإلهام، وأنجياء الآلهة، فكانوا يسترحمونهم بالأناشيد، ويستلهمونها بالأدعية، ويخبرون الناس بأسرار الغيب في جمل مقفأة موقعة أطلقوا عليها اسم السجع تشبيهاً لها بسجع الحمامة لما فيها من تلك النغمة الواحدة البسيطة.

فلما ارتقى فيهم ذوق الغناء، وانتقل الشعر من المعابد إلى الصحراء، ومن الدعاء إلى الحداء، اجتمع الوزن والقافية فكان الرجز⁽¹⁾.

ثم تعددت الأوزان بتعدد الألحان، فكان للحماسة وزن، وللغزل وزن، وللهزج وزن، وهكذا إلى سائر الأوزان التي حصرها الخليل بن أحمد في خمسة عشر وزناً⁽²⁾ سماها بحوراً.

فأنت ترى أن الشعر مصدره الغناء، وفي أخذهم السجع من هديل الحمامة، والرجز من إيقاع مشي الناقة، ولفظ الشعر من (شير) العبرية بمعنى الترتيلة أو التسيحة، وقولهم إلى الآن: أنشد الشعر بمعنى ألقاه، ما يؤيد ذلك.

(1) الرجز أول ما نظمته العرب للحداء: والغالب في الظن أنه مأخوذ من سير الجمل وهزته، لشدة الموافقة بين تقطيعه وخطوفه. ويزعم العرب أن أول من قاله مضر بن نزار حين سقط عن جمل فانكسرت يده فحملوه وهو يقول: وايداه! وايداه! وكان من أحسن خلق الله صوتاً، فأصغت الإبل إليه وجدت في السير. فقطعوا على هذا الوزن لحن الحداء وسموه الرجز. ومن أمثلته قول الراجز:

دع المطايا تنسِمُ الجَنُوبَا	إن لها لنبأ عجيبا
حينئها وما اشتكت لغوبا	يشهد أن قد فارقـت حبيبا
ما حملت إلا فتى كئيبا	يسر مما أعلنت نصيبا
لو ترك الشوق لنا قلوبا	إذن لأثارنا بهن النيبا

إن الغريب يُسعد الغريبا

(2) زاد الأخفش عليه بحرا بعد ذلك سماه المتدارك.

الشعر والعرب

العرب أشعر الساميين فطرة، وأبلغهم على الشعر قدرة، لاتساع لغتهم للقول، وملائمة بيئتهم للخيال، وصفاء قريحتهم، وسذاجة معيشتهم، وقوة عصبيتهم، وكمال حريتهم، وخلو جزيرتهم مما يصد الفكر عن التأمل، ويعوق الذهن عن التفكير، فهم بين الصحراء والسماء في فضاء من اللانهاية يملأ الذهن والنفس خيالاً وجلالاً وروعة. وهم فوق ذلك ذوو نفوس شاعرة، وطباع ثائرة، يستفزهم الرغبُ والرهبُ، ويزدهيهم الطرب والغضب، فلم يتركوا شيئاً يجول في النفس أو يقع تحت الحس إلا نظموه، فكان الشعر ديوان علومهم وحكمهم، وسجل وقائعهم وسيرهم، وشاهد صوابهم وخطأهم، ومادة حوارهم وسمرهم. وكانوا كلهم يروونه، وجلهم يقرضونه عفو البديهة وفيض الخاطر⁽¹⁾ حتى رُوِيَ عنهم من الشعر الوجداني ما لم يرو عن أمه من أمم الأرض مثله. فلا بدع إذا كان الشاعر يغويهم ويرشدهم، والبيت الواحد يقيمهم ويقعدهم. والأمثال في التاريخ مستفيضة على تأثير الشعر في نفوسهم ومنزلة الشاعر من قلوبهم، كحديث الأعشى مع المخلّق وحسان مع بني عبد المدان، والحطيئة مع بني أنف الناقة.

(1) على أن من الشعراء من كانوا يروون وينقحون فسموهم عبيد الشعر لذلك. كزهير وعدي ابن الرقاع والحطيئة. قال عدي بن الرقاع:

وَقَصِيدَةٌ قَدْ بَتُّ أَجْمَعُ بَيْنَهَا حَتَّى أَقْوَمَ مِيلَهَا وَسَنَادَهَا
نَظَرَ الْمُثَقَّفُ فِي كَعُوبِ قَنَاتِهِ حَتَّى يَقِيمَ ثِقَافَهُ مَنَادَهَا

وقال سويد بن كراع:

أَبَيْتُ بِأَبْوَابِ الْقَوَافِي كَأَنَّمَا أَصَادِي بِهَا سِرْبًا مِّنَ الْوَحْشِ نُزْعَا

أنواع الشعر وأغراضه

أنواع الشعر ثلاثة: شعر غنائي أو وجداني Lyrique وهو أن يستمد الشاعر من طبعه وينقل عن قلبه ويعبر عن شعوره. وشعر قصصي Eptque وهو نظم الوقائع الحربية والمفاخر القومية في شكل قصة، كالإلياذة والشاهنامة. وشعر تمثيلي Drqmatique وهو أن يعتمد الشاعر إلى واقعة فيتصور الأشخاص الذين جرت علي أيديهم وينطق كلا منهم بما يناسبه من الأقوال. وينسب إليهم ما يلائمه من الأفعال. والغنائي أسبق هذه الأنواع إلى الظهور؛ لأن الشعر أصله الغناء كما علمت. والإنسان إنما يشعر بنفسه قبل أن يشعر بغيره، ويتغنى بعواطفه قبل أن يتغنى بعواطف سواه⁽¹⁾.

ولما كان الشعر مادته الخيال، والخيال غذاؤه الحس؛ والعربي لا يرى من المناظر غير وجوه البادية، ولا يسمع من الأقايص إلا البطولة والحرب، ولا يعرف من الجمال إلا جمال المرأة، أبدع في وصف ما شاهده من حيوان وسهل وجبل، وأجاد التعبير عن عاطفة الحماسة يوم الخصومة والجدل، وتفنن ما شاء له الحب في التشبيب والغزل. فالشعر العربي غنائي محض، لا يُعنى الشاعر فيه إلا بتصوير نفسه، والتعبير عن شعوره وحسه. والعواطف تتشابه في أكثر القلوب ويكاد التعبير عنها يتفق في أكثر الألسنة. ومن ثم نشأ فيه التكرار، وتوارد الخواطر، والسرقة، ووحدرة الأسلوب، وتشابه الأثر. وكان من الحق أن يقول زهير:

ما أراننا نقول إلا معاراً أو معاداً من لفظنا مكروراً

أما الشعر القصصي والتمثيلي فلا أثر لهما فيه، لأن مزاويلتهما تقتضي الروية والفكرة، والعرب أهل بديهة وارتجال؛ وتطلب الإلمام بطبائع الناس، وقد شغلوا بأنفسهم عن النظر فيمن عداهم؛ وتفتقر إلى التحليل والتطويل،

(1) جاء في كتاب تاريخ آداب اللغة العربية لزيدان، وكتاب (في الأدب الجاهلي) والمجمل في تاريخ الأدب العربي: أن الشعر القصصي أسبق من الغنائي، وهو زعم لا مصدر له ولا دليل عليه. فإن العلماء يكادون يجعلون الغنائي أصلاً والقصصي والتمثيلي شكل من أشكاله.

وهم أشد الناس اختصاراً للقول وأقلهم تعمقاً في البحث. وقد قلَّ تعرضهم للأسفار البعيدة والأخطار الشديدة، وحرمتهم طبيعة أرضهم، وبساطة دينهم، وضيق خيالهم، واعتقادهم بوحداية إلههم، كثرة الأساطير وهي من أغزر ينابيع الشعر القصصي، فزخرت بحور الشعر العربي بالفخر والحماسة والمدح والهجاء والرثاء والعتاب والغزل والوصف والاعتذار والحكمة، وخلا مع اتساعه وتشعب أغراضه من الملاحم المطولة⁽¹⁾ التي تعلن المفاخر القومية وتشيد بذكر الأبطال والفروسية كالإلياذة⁽²⁾ لليونان، والإنياد للرومان، ومهابهاراته للهند، والشاهنامه للفرس.

(1) قال صاحب المثل السائر في معرض كلامه عن الإطالة وعجز الشاعر عنها: (إني وجدت العجم يفضلون العرب في هذه النكتة المشار إليها، فإن شاعرهم يذكر كتاباً مصنفاً من أوله إلى آخره شعراً، وهو شرح قصص وأحوال، ويكون مع ذلك في غاية الفصاحة والبلاغة في لغة القوم، كما فعل الفردوسي في نظم الكتاب المعروف بشاه نامه، وهو ستون ألف بيت من الشعر، يشتمل على تاريخ الفرس، وهو قرآن القوم، وقد أجمع فصحاؤهم على أنه ليس في لغتهم أفصح منه¹، وهذا لا يوجد في اللغة العربية على اتساعها وتشعب فنونها وأغراضها، وعلى أن لغة العجم بالنسبة إليها كقطرة من بحر).

(2) الإلياذة: ملحمة يونانية نظمها هوميروس في حروب طروادة، وهي تمثل الحضارة اليونانية القديمة أصدق تمثيل.

والإنياد: L'eneide ملحمة نظمها فرجيل أكبر شعراء الرومان (70 - 190 قبل الميلاد) قلد بها إلياذة هوميروس فأبدع.

والمهابهاراته: ملحمة هندية نظمها (فياسا) أحد كهان الهنود باللسان السنسكريتي قبل الميلاد بقرون يصف فيها الحروب التي نشبت بين البانفادس والكوروس؛ وهي تبلغ مائتي ألف بيت.

والشاهنامه: ملحمة فارسية نظمها الحسن بن إسحاق الفردوسي المتوفى سنة 411هـ في تاريخ الأكاسرة وأخبارهم، ووصف الحرب التي اشتعلت بين أهل إيران وأهل طوران. وقد نقلها إلى العربية نثراً الفتح بن علي البنداري الأصبهاني وقدمها إلى خزانة أحد الملوك الأيوبيين. وقد نشرها وقدم لها وأتمها وعلق عليها الدكتور عبد الوهاب عزام سنة 1932 بالقاهرة.

مميزات الشعر الجاهلي

وعوثة الصحراء وخشونة العيش، وحرية الفكر، وطبيعة الجو، وسذاجة البدو كل أولئك طبع الشعر الجاهلي بطابع خاص ومازه بسمه ظاهرة. فمن خصائصه الصدق في تصوير العاطفة، وتمثيل الطبيعة، فلا تجد فيه كلفاً بالزخرف ولا تكلفاً في الأداء؛ فكثير لذلك الإيجاز، وقَلَّ المجاز، وندرت المبالغة. وضعفت العناية بسياق الفكر على سنن المنطق واقتضاء الطبع: فعلائق المعاني واهنة واهية، ومساق الأبيات مفكك مضطرب. فإذا حذفت أو قدمت أو أخرت لا تشعر القصيدة بتشويه أو نقص؛ وذلك لأن البدو بطبيعتهم يعوزهم النظر الفلسفي فلا يرون الحوادث والأشياء إلا مجردة لا ينظمها سلك ولا تجمعها علاقة، ومن ثَمَّ كانت وحدة النقد عند أدباء العرب البيت لا القصيدة. ومنها استعمال الغريب ومتانة التركيب وجزالة اللفظ؛ لتأثرهم بمظاهر الغلظة والقوة البادية في طباعهم ونظام اجتماعهم. والابتداء بذكر الإطلال والديار، لأنهم أهل خيام ومضارب، وألأف انتجاع وظعن، فلا يكاد الشاعر يمر بمكان حتى يذكر عهداً قضاه فيه، وأحبة ترحلوا عنه. فتهيجه الذكرى فيحييه ويكيه. والشعر الجاهلي على الجملة كثير التشابه قليل التنوع يجري في حلبة واحدة من السماع والتقليد.

الرواية والمعلقات

المروئي من الشعر الجاهلي على قصر عهده المعروف يفوت الجمع وتضييق عنه الحافظة. على أن كثيرين من رواته ذهبت بهم حروب الفتح فذهب معهم شطر كبير منه. قال أبو عمرو ابن العلاء: " ما انتهى إليكم مما قالت العرب إلا أقله. ولو جاءكم وافراً لجاءكم علم وشعر كثير " ولكن هذه الكثرة متهمه وروايتها مريبة، فإن الشعر لم يدون إلا في أوائل القرن الثاني للهجرة وإن في نقله على الألسنة، طوال هذه الأزمنة، مظنة للتبديل والاختلاق والتزويد. وفيما رُوي عن حماد الراوية وخلف الأحمر من عَْبَهما بالشعر وافتعالهما إياه مساغ لهذا الظن. ولعل القصائد التسع والأربعين التي جمعها أبو زيد القرشي في جمهرة أشعار العرب أصح الشعر القديم رواية وأصدق تمثيلاً لأسلوبه

ومنهاجه. وأبعد هذه القصائد مدى في الرواية، وأوفرها حظاً من الحفظ والعناية، المعلقة أو المذهبات أو السُموط. وهُنَّ على الرأي الغالب سبع قصائد يزعم جمهور المؤرخين أن العرب اختارنها فكتبتها بماء الذهب على القباطي، ثم علقتها بالكعبة إعجاباً بها وإشادة بذكرها. وقد بقي بعضها إلى يوم فتح مكة وذهب بالبعض الآخر حريق أصاب الكعبة قبل الإسلام: وأصحابها هم امرؤ القيس، وزهير ابن أبي سُلمي، وطرفة بن العبد، ولييد بن ربيعة، وعنترة بن شداد، وعمرو بن كلثوم، والحارث بن حارة. ومن الناس من ينكر تعليقها على الكعبة بغير دليل قائم ولا حجة مقنعة، فمن المتقدمين أبو جعفر النحاس⁽¹⁾ المتوفى سنة 338هـ. ومن المتأخرين المستشرق الألماني⁽²⁾ نولديكي Noeldeke على أن تعليق الصحائف الخطيرة على الكعبة كان سنة في الجاهلية بقي أثرها في الإسلام. فمن ذلك تعليق قریش الصحيفة التي وكدوا فيها على أنفسهم مقاطعة بني هاشم والمطلب لحمايتهم رسول الله (ص) حين أجمع على الدعوة؛ وتعليق الرشيد عهده بالخلافة من بعده إلى ولديه الأمين والمأمون. فلم لا يكون الأمر كذلك في هذه القصائد مع ما علمت من تأثير الشعر فيهم ومكانة الشعراء منهم؟ على أن لهذا الأمر نظائر في أدب الإغريق، فإن القصيدة التي قالها بُنْدَار زعيم الشعر الغنائي يمدح بها دياجوراس قد كتبوها بالذهب على جدران معبد أثينا في لمنوس.⁽³⁾

(1) قال أبو جعفر النحاس في شرحه للمعلقات: واختلفوا في جمع هذه القصائد السبع، فقليل: إن العرب كان أكثرهم يجتمع بعكاظ ويتناشدون الأشعار، فإذا استحسنت الملك قصيدة قال: علّقوها وأثبتوها في خزائني. وأما قول من قال: إنها علقت في الكعبة فلا يعرفه أحد من الرواة

(2) وضع الأستاذ نولديكي كتاباً في هذا الموضوع رجع فيه أن المعلقة معناها المنتخبات؛ وإنما سماها حماد الراوية بهذا الاسم تشبيهاً لها بالقلائد التي تعلق في النحور؛ واستدل على ذلك بأن من أسماها السُموط ومن معاني السُموط القلائد. وشايعة على هذا الرأي الأستاذ كليمان هيار الفرنسي مؤلف كتاب الأدب العربي بلغته.

(3) انظر دائرة معارف لاروس في كلمة (بندار) .

نماذج من الشعر الجاهلي

قال امرؤ القيس:

وَقَدْ أَغْتَدِي وَالطَّيْرُ فِي وُكُنَاتِهَا
تَحَامَاهُ أَطْرَافُ الرِّمَاحِ تَحَامِيَاءُ
بِعَجَلَزَةٍ قَدْ أَتَرَزَ الْجَرِيُّ لَحْمَهَا
ذَعَرْتُ بِهَا سِرْبًا نَقِيًّا جُلُودَهُ
كَأَنَّ الصُّوَارَ إِذْ تَجَاهَدَنَ عَدُوَّهُ
فَجَالَ الصُّوَارَ، وَاتَّقَيْنَ بِقَرْهَبٍ
فَعَادَيْتُ مِنْهُ بَيْنَ ثَوْرٍ وَنَعْجَةٍ
كَأَنِّي بَفَتْخَاءِ الْجَنَاحَيْنِ لِقْوَةٍ
تَخْطُفُ خِزْرَانَ الْأَنْعَمِ بِالضَّحَى
كَأَنَّ قُلُوبَ الطَّيْرِ رَطْبًا وَيَابَسًا
فَلَوْ أَنَّ مَا أَسْعَى لِأَدْنَى مَعِيشَةٍ
وَلَكِنَّمَا أَسْعَى لِمَجْدٍ مُؤَثَّلٍ
وَمَا الْمَرْءُ مَا دَامَتْ حُشَاشَةُ نَفْسِهِ

وقال النابغة الذبياني من قصيدته التي يمدح بها النعمان ويعتذر إليه:

أَتَانِي - أَبَيْتَ اللَّعْنَ - أَنَّكَ لُمْتَنِي
مَقَالَةٌ أَنْ قَدْ قُلْتَ: سَوْفَ أَنَالُهُ،
لِعَمْرِي - وَمَا عَمْرِي عَلَىٰ بِهِيْنِ -
أَقَارِعُ عَوْفٍ، لَا أَحَاوِلُ غَيْرَهَا
أَتَاكَ امْرُؤٌ مُسْتَبْطِنٌ لِي بُغْضَةً
وَتِلْكَ الَّتِي تَسْتَكُ مِنْهَا الْمَسَامَعُ
وَذَلِكَ مَنْ تَلْقَاهُ مِثْلُكَ رَائِعُ
لَقَدْ نَطَقْتُ بُطْلًا عَلَى الْأَفَارِعِ
وُجُوهٌ قُرُودٌ تَبْتَغِي مَنْ تَجَادِعُ
لَهُ مِنْ عَدُوٍّ مِثْلُ ذَلِكَ شَافِعُ

أتك بقول هَلْهَلِ النّسج كاذبٍ ولم يأت بالحق الذي هو ناصعُ
 أتك بقول لم أكن لأقوله ولو كُلبت في ساعديّ الجوامع
 حلفتُ فلم أترك لنفسك ربيّةً وهل يَأْتَمُنْ ذو أَمّة، وهو طائع
 بمصطحبات من لِصاف وثبيرةٍ يرون إلّا، سَيْرُهُنَّ التدافع
 سماماً تُباري الرّيحَ خوصاً عيونها لهُنَّ رزايَا بالطريق وذائعُ
 عليهنَّ شعثٌ عامِدُون لحجّهم فهنَّ كأطراف الحنّي خواضعُ
 لكلفتنّي ذنب امرئ، وتركتّه كذي العُرّ يُكوى غيره وهو راتع
 فإن كنت لا ذو الضّغن عني مُكذّبُ ولا حلفي على البراءة نافعُ
 ولا أنا مأمونٌ بشيء أقوله وأنت بأمر - لا محالة - واقِعُ
 فإنك كالليل الذي هو مُدركي وإن خلتُ أنّ المتأى عنك واسع
 خطاطيفُ حُجن في جبال متينةٍ تُمدُّ بها أيديّ إليك نوازِعُ
 أتوعِدُ عبداً لم يُخنك أمانةً ويترك عبداً ظالمٌ وهو ضالع
 وأنت ربيعٌ يُنعشُ النَّاسَ سَيّبه وسيفٌ أُعيرتُه المنيّة قاطع
 أبى الله إلا عدله ووَفاءه فلا النُّكرُ معروفٌ ولا العُرف ضائع
 وتُسقى إذا ما شئتَ غيرَ مُصرّدٍ بزوراء في حاناتها المسكُ كانع
 وقال دُرَيْد بن الصّمة⁽¹⁾ في رثاء أخيه:
 أرثُ جديداً الحبل من أمٍّ مَعْبِدٍ بعاقبة، أم أخلفت كلَّ موعِد
 وكانت، ولم أحمداً إليك نوالها ولم ترجُ منّا ردّة اليوم أو غد

(1) دريد بن الصمة شاعر فارس سيد، أدرك الإسلام ولم يسلم. قتل بنو غطفان أخاه عبد الله لأن دريداً أغار عليهم واستاق إبلهم، فنزل عبد الله في بعض الطريق ليقسم الغنيمة فنهاه دريد مخافة أن تلحق بهم غطفان المنهوبة، فأبى؛ وبقي حتى أدركته الخيل فقتله عبس. وأراد دريد إنقاذه فلم يغن عنه، وبقي دهره حزناً يرثيه حتى لامته في ذلك امرأته أم معبد فطلقها، وقال فيها وفي رثاء أخيه القصيدة.

بناصية الشَّحْناء عَضْبَةٌ مِذْوَدٍ
 بكابةٍ لم يُخْبِطْ، ولم يتعضدِ
 ورهط بني السَّوداء والقومُ شُهْدَى
 سَرَاتِهِمْ فِي الْفَارِسِيِّ الْمُسَرِّدِ
 مطبَّبةٌ بَيْنَ السَّاتِرِ وَتَهْمِدِ
 جَرَادٌ يُبَارِي وَجْهَةَ الرِّيحِ مُغْتَدِي
 فلم يستينوا الرُّشْدَ إِلَّا ضَحَى الْغَدِ
 غَوَايَتِهِمْ أَنِي بِهِمْ غَيْرُ مُهْتَدِي
 غَوَيْتُ وَإِنْ تَرَشَّدَ غَزِيَّةٌ أَرُشِدِ
 فلما دَعَانِي لَمْ يَجِدْنِي بَقْعُدِ
 بَشْدِي صَفَاءَ بَيْنِنَا لَمْ يُجِدِدِ
 كَوَقَعَ الصَّيَاصِي فِي النِّسِيجِ الْمُؤَدِّدِ
 إِلَى قِطْعٍ مِنْ جِلْدِ بَوٍّ مُجَلَّدِ
 وَحَتَّى عَلَانِي حَالُكَ اللَّوْنُ أَسْوَدِ
 وَيَعْلَمُ أَنَّ الْمَرْءَ غَيْرُ مُخْلَدِ
 فَقُلْتُ: أَعْبُدُ اللَّهَ ذَلِكَمِ الرَّدِي؟
 فَمَا كَانَ وَقَافًا وَلَا طَائِشُ الْيَدِ
 بَرَطِبِ الْعِضَاءِ وَالضَّرِيعِ الْمُنْضَدِ
 وَطُؤْلِ السَّرَى دُرِّيَّ عَضْبٍ مُهْنَدِ
 صَبُورٌ عَلَى الضَّرَاءِ طَلَاغٌ أَنْجَدِ
 مِنْ الْيَوْمِ أَعْقَابَ الْأَحَادِيثِ فِي غَدِ

كَأَنَّ خَمُولَ الْحَيِّ إِذْ مَتَعَ الضُّحَى
 أَوِ الْأَثَابُ الْعَمُّ الْمُحَرَّمُ سُوقُهُ
 فَقُلْتُ لِعَارِضٍ وَأَصْحَابِ عَارِضٍ
 عَلَانِيَةً: ظَنُّوا بِالْأَلْفَى مُدَجَّجِ
 وَقُلْتُ لَهُمْ: إِنَّ الْأَحَالِيفَ هَذِهِ
 وَلَمَّا رَأَيْتَ الْخَيْلَ قُبْلًا كَأَنَّهَا
 أَمَرْتُهُمْ أَمْرِي بِمُنْعَرَجِ اللَّوَى
 فَلَمَّا عَصَوْنِي كُنْتُ مِنْهُمْ وَقَدْ أَرَى
 وَهَلْ أَنَا إِلَّا مِنْ غَزِيَّةٍ؟ إِنْ غَوَتْ
 دَعَانِي أَخِي وَالْخَيْلَ بَيْنِي وَبَيْنَهُ
 أَخْ أَرْضَعْتَنِي أُمُّهُ مِنْ لَبَانِهَا
 فَجِئْتُ إِلَيْهِ وَالرَّمَاخُ تَنْوُشُهُ
 وَكُنْتُ كَذَابِ الْبَوْرِ رِيعَتْ فَأَقْبَلْتُ
 فِطَاعَنْتُ عَنْهُ الْخَيْلَ حَتَّى تَنْهَيْتُ
 قِتَالَ امْرَأَتِي أَسَى أَخَاهُ بِنَفْسِهِ
 تَنَادَوْا فَقَالُوا: أَرَدْتَ الْخَيْلُ فَارِسًا!
 فَإِنْ يَكُ عَبْدُ اللَّهِ خَلَى مَكَانَهُ
 وَلَا بَرْمًا إِمَّا الرِّيَاخُ تَنَاوَحَتْ
 وَتَخْرُجُ مِنْهُ صِرَّةُ الْقَرِّ جَزَاةً
 كَمِيشِ الْإِزَارِ خَارِجُ نَصْفُ سَاقِهِ
 قَلِيلٌ تَشْكِيهِ الْمَصِيبَاتِ ذَاكُرٌ

ذَا هَبَطَ الْأَرْضَ الْفَضَاءَ تَزَيَّنْتُ
 وَكَمْ غَارَةً بِاللَّيْلِ وَالْيَوْمِ قَبْلَهُ
 سَلِيمَ الشَّظَى عَبْلُ الشَّوَى شَنُجُ النَّسَا
 يَفُوتُ طَوِيلَ الْقَوْمِ عَقْدُ عَذَارِهِ
 وَكُنْتُ كَأَنِّي وَاثِقٌ بِمُصَدَّرِ
 لَهُ كُلُّ مَنْ يَلْقَى مِنَ النَّاسِ وَاحِدًا
 وَهَوْنٌ وَجُدِي أَنَّنِي لَمْ أَقُلْ لَهُ:
 وَقَالَ عُلْقَمَةُ بْنُ عَبْدِ التَّمِيمِ⁽¹⁾:

طَحَا بِكَ قَلْبٌ فِي الْحَسَانِ طَرُوبُ
 يَكْلُفُنِي لَيْلَى، وَقَدْ شَطَّ وَلِيْهَا
 مُنْعَمَةٌ، مَا يُسْتَطَاعُ كَلَامُهَا
 إِذَا غَابَ عَنْهَا الْبُعْلُ لَمْ تُفَشِّ سِرَّهُ
 فَلَا تَعْدِلِي بَيْنِي وَبَيْنَ مَغْمَرِ
 سَقَاكِ يَمَانُ ذُو حَبِيٍّ وَعَارِضِ
 وَمَا أَنْتَ؟ أَمْ مَا ذَكَرْهَا؟ رَبِيعَةٌ
 فَإِنْ تَسْأَلُونِي بِالنِّسَاءِ فَإِنِّي
 إِذَا شَابَ رَأْسٌ أَوْ قَلَّ مَالُهُ
 يُرَدُّ ثَرَاءُ الْمَالِ حَيْثُ عَلِمْنَهُ
 فَدَعُهَا وَسَلِّ الْهَمَّ عَنْكَ بِجَسْرَةٍ
 إِلَى الْحَارِثِ الْوَهَابِ أَعْمَلْتُ نَاقَتِي

بُعِيدَ الشَّبَابِ عَصْرَ حَانَ مَشِيبُ
 وَعَادَتِ عَوَادِ بَيْنَنَا وَخُطُوبُ
 عَلَى بَابِهَا مِنْ أَنْ تُزَارَ رَقِيبُ
 وَتُرْضَى إِيَابَ الْبَعْلِ حِينَ يُؤُوبُ
 سَقَتِكَ رَوَايَا الْمُزْنِ حِينَ تَصُوبُ
 تَرُوحُ بِهِ جُنْحَ الْعَشِيِّ جَنُوبُ
 يُخْطُ لَهَا مِنْ ثَرَمَدَاءَ قَلِيبُ
 بِصِيرٍ بِأَدْوَاءِ النَّسَاءِ طَيِّبُ
 فَلَيْسَ لِمَنْ وَدَّهَنْ نَصِيبُ
 وَشَرَحُ الشَّبَابِ عِنْدَهُنَّ عَجِيبُ
 كَهْمُكِ فِيهَا بِالرَدَافِ خَيْبُ
 بِكُلِّكُلِهَا وَالْقُضْرَيْنِ وَجِيبُ

(1) شاعر جاهلي من طبقة امرئ القيس ومعاصريه، وتوفي قبل الإسلام بزمان طويل.

وقال عبد يغوث الحارثي اليمني⁽¹⁾:

ألا لا تلوماني كفى اللوم ما بيا
ألم تعلمنا أن الملامة نفعها
فيا راكباً إمّا عرضت فبلّغن
أبا كرب والأيهمين كليهما
جزى الله قومي بالكلاب ملامة
ولو شئت نجتبي من الخيل نهدة
ولكنني أحمي ذمار أبيكم
أقول وقد شدوا لساني بنسعة
أمعشر تيم قد ملكتم فأسججوا
إن تقتلونني تقتلوا بي سيداً
أحقاً عباد الله أن لست سامعاً
وتضحك مكني شيخة عبشيمة
وقد علمت عرسي مليكة أنني
وقد كنت نحار الحزور، ومعمل
وأنحر للشرب الكريم مطيتي
وكنْتُ إذا ما الخيل شَمَصَهَا القَنَا
وعادية سَوْمَ الجراد وزعتها
كأنني لم أركب جواداً ولم أقل
ولم أسبأ الزَّق الروي، ولم أقل

فما لكما في اللوم خير ولا ليا
قليل، وما لومي أخي من شماليا
نداماي من نجران أن لا تلاقيَا
وقيساً بأعلى حضر موت اليمانيا
صريحهم والآخرين المواليا
تري خلفها الحو الجياد تواليا
وكان الرماح يختطفن لمحاميا
أمعشر تيم أطلقوا عن لسانيا
فإن أحاكم لم يكن من بوائيا
وإن تطلقوني تحزبوني بماليا
نشيد الرعاء المغزيين المتاليا
كأن لم ترى قبلي أسيراً يمانيا
أنا الليث معدوًا عليه وعاديا
المطى، وأمضي حيث لا حيي ماضيا
وأصدع بين القيتسين القناة ردائيا
ليبقاً بتضريف القناة بنائيا
يكفى وقد أنحوا إلي العواليا
لخيلي: كرى نفسي عن رجاليا
لأيسار صدق أعظموا ضوء ناريا

(1) شاعر فارسي من طرائق قومه، أسرته تيم الرباب يوم الكلاب وهو يوم بين تيم واليمن.

وقال ذو الإصبع العدواني:

مختلفان: فأقليله، ويقليني
 فخالني دونه، وخلته دوني
 أضربك، حتى تقول الهامة: اسقوني
 عني، ولا أنت ديانني فتحزوني
 ولا بنفسك في العزاء تكفيني
 عن الصديق، ولا خيري بممنون
 بالفاحشات، ولا فتكي بمأمون
 هوناً فلسْتُ بوقاف على الهون
 ترعى المخاض، وما رأيي بمغبون
 وإن تخلّق أخلاقاً إلى حين
 وابن أبي أبي من أبيين
 فأجمعوا أمركم كلاً فكيّدوني
 وإن جهلتم سبيل الرشد فأتوني
 ألا أحبكم إن لم تحبوني
 ولا دماؤكم جمعاً ترؤبني
 والله يجزيكم عني، ويجزيني
 وُدّي على مُثبت في الصدر مكنون
 ولا ألين لمن لا يتبغي ليني

لي ابن عمّ على ما كان من خلق
 أزرى بنا أننا شالت نعائناً
 يا عمرو إلا تدع شتمي ومنقصتي
 لاه ابن عمك! لا أفضلت في حسب
 ولا تقوت عيالي يوم مشغبة
 إنني لعمرك ما بابي بذى غلق
 ولا لساني على الأدنى بمنطلق
 عفّ بؤوس إذا ما خفت من بلد
 عنى إليك، فما أمي براعية
 كل امرئ راجع يوماً لشيئته
 إنني أبي أبي ذو محافظة
 وأنتم معشر زيد على مائة
 فإن علمتم سبيل الرشد فانطلقوا
 ماذا عليّ وإن كنتم ذوي رحمة
 لو تشربون دمي لم يرو شاربكم
 الله يعلمني، والله يعلمكم
 قد كنت أوتيكم نصحي، وأمنحكم
 لا يخرج الكزة مني غير مأية

وقال الأفوه الأودي:

ولا عماد إذا لم تُرس أوتاد
 وساكناً بلغوا الأمر الذي كادوا

البيت لا يبنى إلا له عمد
 فإن تجمّع أوتاد وأعمدة

ولا سَراة إذا جَهَّالهم سادُوا
فإنْ تَوَلَّتْ فبالأشْرار تنقَادُ
نمأَ على ذاك أمر القوم فازدادوا

لا يصلحُ الناس فوضى لا سَراة لهم
تهدي الأمور بأهل الرأي ما صلحت
إذا تولى سَراة الناس أمرهم
وقال وذاك بن ثُميل المازني:

تُلاقوا غداً خيلي على سفوان
إذا ما غدتْ في المأزق المتداني
ليوث طعان عند كل طعانٍ
على ما جنتْ فيهم يد الحدثانِ
بِكُلِّ رَقِيق الشفرتين يمان
لأية حرب أم بأيِّ مكان

رويد بني شيبان بعض وعيدكم
تلاقوا جياداً لا تحيد عن الوغي
عليها الكمأة الغرُّ من آل مازن
تلاقوهم فتعرفوا كيف صبرهم
مقاديم وصّالون في الزوع خطوهم
إذا استنجدوا لم يسألوا من دعاهم

وقال زهير بن أبي سلمى يمدح هَرم بن سنان:

على مُعْتَفِيهِ مَا تُغِبُّ فواضِلُهُ
ولكنه قد يهلك المال نائله
كأنك تعطيه الذي أنت سائله

وأبيض فيأض يَدَاهُ غمامة
أخي ثقة لا يهلك الخمر ماله
تراه إذا ما جئته متهللاً

وقال أيضاً:

وأنديةً يتتابها القول والفعل
مجالس قد يُشْفَى بأحلامها الجهل
وعند المقلين السماحة والبذل
فلم يفعلوا ولم يليموا ولم يألوا
توارثه آباء آبائهم قبل
وتُعْرِسُ إِلَّا فِي مَنَابِتِهَا النُّحْلُ؟

وفيهم مقاماتٌ حسانٌ وجوهم
وإن جئتهم ألفيت حول بيوتهم
على مكثريهم رَزَقٌ من يعترِيهم
سعى بعدهم قوم لكي يدركوهم
فما كان من خير أتوه فإنما
وهل يُنْبِتُ الخَطِيَّ إِلَّا وَشِيجُهُ

وقال الأعشى يمدح المحلق:

لعمري لقد لاحت عيونٌ كثيرة إلى ضوء نار باليفاع تحرَّق
 تُشَبَّ لمَقْرُورَيْنِ يَضْطَلِيَانَهَا بَاتَ عَلَى النَّارِ النَّدَى وَالْمُحَلَّقُ
 رضي عني لبانٍ ثديٍّ أم تقاسما بأسحم داج عَوْضٌ لا تنفرك
 ترى الجود يجري ظاهراً فوق وجهه كما زان متن الهندواني رونق
 يدها يدا صدق فكفٌ مُبِيدَةٌ وكفٌ إذا ما ضَنَّ بالمال تُنْفِقُ

وقال تأبط شراً يمدح ابن عم له ويمدحه بما يتمدح به الجاهليون من الصفات:

إني لمُهَدٍ من ثنائي فقاصدُ به لابن عم الصدق شمس بن مالك
 أهزُّ به في ندوة الحي عِطْفُهُ كما هز عطفي بالهجان الأوارك
 قليل التشكي للمهم يصيبه كثير الهوى شتى النوى والمسالك
 يظل بمومة ويمسي بغيرها جُحِشاً وَيَعْرُورِي ظُهور المِهالك
 ويسبق وفد الريح من حيث يتحي بمنخرق من شدِّه المتدارك
 إذا حاص عينيه كرى النوم لم يزل له كاليٍّ من قلب شِيحَانٍ فاتك
 ويجعل عينيه ربيَّة قلبه إلى سلَّةٍ من حدٍ أخلق صائك
 إذا هزه في وجه قرن تهللت نواجذ أفواه المنايا الضواحك
 يرى الوحشة الإنس الأنيس ويهتدي بحيث اهتدت أمُّ النجوم الشوابك

وقال عمرو بن الهذيل العبدى:

ولا تَرْجُ خيراً عند باب ابن مَسْمَعٍ إذا كنت من حيِّي حنيفة أو عَجَل
 ونحن أقمنا أمر بكر بن وائل وأنت (بشاج) ما تمرُّ وما تحلى
 وما تستوي أحساب قوم تُورَثُ قديماً وأحساب نبتنَ مع البقل

وقال لبید بن ربیعۃ یرثی النعمان:

ألا تسألان المرء ماذا يحاول أنخب فيقضى أم ضلالاً وباطل؟

أرى الناس لا يدرون ما قدر أمرهم
 ألا كل شيء ما خلا الله باطل
 وكل أناس سوف تدخل بينهم
 وكل امرئ يوماً سيعلم غيّه
 إذا المرء أسرى ليلة حال أنه
 فقولاً له إن كان يقسم أمره
 فتعلم أني لست مدرك ما مضى
 فإن أنت لم يفعل علمك فانتسب
 وإن لم تجد من دون عدنان والداً
 وقال عديّ بن زيد العبادي:

أيها الشامت المعير بالدهر
 أم لديك العهد الوثيق من الأيام
 من رأيت المنون خلدن أم من
 أين كسرى كسرى الملوك أبو
 وأبو الخضر إذ بناه وإذ دجلة
 شاده مرمراً وجلله كلساً
 وتبين رب الخوزنق إذ أشرف
 سره حاله وكثرة ما يملك
 فارعوى قلبه فقال وما غبطة
 ثم بعد الفلاح والملك والأمة م
 ثم أصبحوا كأنهم ورق جفّ م

أأنت المبرراً الموفور؟
 أم أنت جاهل مغرور؟
 ذا عليه من أن يضام خفير؟
 ساسان أم أين قبله سابور؟
 تجبى إليه والخابور
 فللطير في ذراه وكور
 يوماً وللهدى تفكير
 والبحر معرضاً والسدير
 حي إلى الممات يصير؟
 وارتهم هناك القبور
 فاللوت به الصبا والدبور

وقال امرؤ القيس في معلقته يصف الليل:

وَلَيْلٍ كَمَوْجِ الْبَحْرِ أَرْخَى سُدُولَهُ
فَقُلْتُ لَهُ لَمَّا تَمَطَّى بِضُلْبِهِ
أَلَا أَيُّهَا اللَّيْلُ الطَّوِيلُ أَلَا أَنْجَلِي
فَيَا لَكَ مَنْ لَيْلٍ كَأَنَّ نُجُومَهُ
عَلَيَّ بِأَنْوَاعِ الْهُمُومِ لِيَبْتَلِي
وَأَرْدَفَ أَعْجَازاً وَنَاءً بِكُلِّ كَلٍ
بِضُبْحٍ، وَمَا الْإِصْبَاحُ مِنْكَ بِأَمْثَلٍ
كُلُّ مُغَارِ الْفَتْلِ شُدَّتْ بِيذْبَلٍ

وقال فيها يصف جواده:

وَقَدْ أَغْتَدِي وَالطَّيْرُ فِي وَكُنَاتِهَا
مَكْرٍ مَفَرٍّ مُقْبِلٍ مُدْبِرٍ مَعَاً
لَهُ أَيُّطَلَا ظَنِّي، وَسَاقَا نَعَامَةٍ.
مُنْجَرِدٍ قَيْدِ الْأَوَابِدِ هَيْكَلٍ
كَجُلْمُودٍ صَخْرٍ حَطَّ السَّيْلُ مِنْ عَلٍ
وإِرْخَاءِ سَرْحَانٍ، وَتَقْرِيْبُ تَنْفُلٍ

وقال طرفه بن العبد يصف السفينة:

كَأَنَّ حُدُوجَ الْمَالِكِيَةِ غَدُودَةٌ
عَدُولِيَّةٌ أَوْ مِنْ سَفِينِ ابْنِ يَامِنٍ
يَشُقُّ حَبَابَ الْمَاءِ حَيْرُومُهَا بِهَا
خَلَايَا سَقِينٍ بِالنَّوَاصِفِ مِنْ (دَدٍ)
يَجُورُ بِهَا الْمَلَاخُ طَوْرًا وَيَهْتَدِي
كَمَا قَسَمَ الثُّرُبُ الْمُفَايِلَ بِالْيَدِ

وقال أبو صعتره البولاني:

فَمَا نَظْفَةٌ مِنْ حَبِّ مَزَنٍ تَقَاذَقَتْ
فَلَمَّا أَقْرَتَهُ اللَّصَابُ تَنَفَسَتْ
بِأَطْيَبِ مِنْ فِيهَا وَمَا ذَقْتُ طَعْمَهُ،
بِهِ جَنْبَتَا الْجُودِيِّ وَاللَّيْلِ دَامَسَ
شِمَالٌ لِأَعْلَى مَائِهِ فَهُوَ فَارَسَ
وَلَكِنِّي فِيمَا تَرَى الْعَيْنُ فَارَسَ

وقال الأعشى:

مَا رَوْضَةٌ مِنْ رِيَاضِ الْحَزَنِ مَعْشَبَةٌ
يُضَاحِكُ الشَّمْسُ مِنْهَا كَوْكَبَ شَرْقٍ
يَوْمًا بِأَطْيَبِ مِنْهَا نَشْرَ رَائِحَةٍ
خَضْرَاءُ جَادَ عَلَيْهَا مَسِيلٌ هَظَلٍ
مَوْزَرٌ بِعَمِيمِ النَّبْتِ مَكْتَهَلٍ
وَلَا بِأَحْسَنِ مِنْهَا إِذْ دَنَا الْأُضْلُ

وقال المتلمس جرير بن عبد العزى من قصيدة:

وَكُنَّا إِذَا الْجَبَّارُ صَعَّرَ خَدَّهُ
أَقْمَنَّا لَهُ مِنْ خَدِّهِ فَتَقَوَّمَا

لذي الحلم قبل اليوم ما تفرع العصا
ولو غير أحوالي أرادوا نقيصتي
وما كنت إلا مثل قاطع كفه
فلما استقاد الكف بالكف لم يجد
يداه أصابت هذه حتف هذه
فأطرق إطراق الشجاع ولو يرى
وما غلّم الإنسان إلا ليعلما
جعلت لهم فوق العرائن ميسما
بكف له أخرى فأصبح أجذما
له دركا في أن تبينا فأحجما
لم تجد الأخرى عليها مقدا
مساغا لنابئة الشجاع لصمما

الفصل الرابع

الشعراء الجاهليون وطبقاتهم

كل قبيلة كانت تحرص على أن يكون لها شاعر وقائد وخطيب، ولكن الشاعر كان أكرم عليها وأحب إليها من هذين. فكانت إذا نبغ فيها شاعر تصنع الولايم وتقيم الأفراح وتهنتها القبائل. وذلك لأن الشعراء يقودون قومهم بقولهم، وينضحون عنهم يوم حفلهم، ويخلدون مآثرهم على الدهر، وينقشون مفاخرهم في الصدور، لا يبتغون على ذلك جزاء ولا صلة. على أن نفراً منهم تكبوا بالشعر فغض ذلك من أقدارهم، وإن لم يغض من أشعارهم، كالنابغة مع النعمان، وزهير مع هرم بن سنان، والأعشى مع الملوك والسوقة⁽¹⁾ وكان لكل شاعر راية يلازمه ملازمة التلميذ لمعلمه. ينهج طريقه وينشر شعره. ونابغو الشعراء قضوا عهد الثقافة والمرانة في الرواية، فكان امرؤ القيس راية أبي دؤاد الإيادي، وزهير راية أوس بن حجر، والأعشى راية المسيب بن علس.

والشعراء باعتبار الزمان أربع طبقات:

جاهليون: وهم من عاشوا قبل الإسلام أو أدركوه ولم يقولوا فيه شيئاً يُذكر، كامرئ القيس وزهير وأمية ابن أبي الصلت ولييد.

ومخضرمون: وهم الذين اشتهروا بالشعر في الجاهلية والإسلام، كالخنساء، وحسان بن ثابت.

وإسلاميون: وهم الناشئون في الإسلام الباقون علي سليقتهم في العربية، وهم شعراء بني أمية.

ومولدون: وهم الذين فسدت فيهم ملكة اللسان فعالجوها بالصناعة وهم شعراء بني العباس.

(1) انتجع الأعشى أطراف البلاد بشعره حتى قصد ملوك العجم فأثابوه. وفي ذلك يقول:

وطوفت للمال آفاقه عمان وحمص وأورشليم

أتيت النجاشي في أرضه وأرض النبط وأرس العجم

وهم باعتبار الإجابة في رأي النقاد ثلاث طبقات: امرؤ القيس وزهير والنابعة، وهم رجال الطبقة الأولى. والأعشى وليد وطرفة؛ وهم رجال الطبقة الثانية، وعنترة ودريد بن الصمة وأمّية ابن أبي الصلت، وهم رجال الطبقة الثالثة. وهذا التقسيم لا يخلو من ضلال وتحكم، لاختلاف الذوق وجهل القدماء بقواعد النقد.

امرؤ القيس

نشأته وحياته

هو الملك الضِّلِيل ذو القروح جندح ابن حجر الكندي، ولد أُثِيلَ المنبت كريم الأبوة والأمومة: فأبوه سليل الملوك من كندة، وملك بني أسد. وأمه أخت كليب ومهلhelل ابني ربيعة. فشب في حجر النعيم ودرح في مهد السراوة؛ إلا أنه نشأ نشأة الغواة يعاقر الراح ويغازل النساء ويعشق اللهو ويقول الشعر. ثم أطلق لنفسه العنان في المجون، وقعد عما تسمو إليه النفوس الكبيرة فطرده أبوه، وكان أصغر أولاده. فخرج في زمرة من أخلاط العرب وذؤبانهم يرتادون الرياض والغُدُر. فإذا صادفوا غديراً خيموا عليه وطفقوا يلعبون ويعاقرون ويصيدون؛ حتى إذا نضب الماء وذوى العشب تحولوا عنه إلى غيره. ولم تزل تلك حاله حتى بلغ بهم دمون من أرض اليمن. وهناك أتاه نعي أبيه وقد قتله بنو أسد غيلة لاستبداده بهم وسوء سيرته فيهم. فقال امرؤ القيس: "ضيعني أبي صغيراً، وحمّلني دمه كبيراً. لا صحو اليوم ولا سكر غداً. اليوم خمر، وغداً أمر" ثم ألى ألا يأكل لحماً ولا يشرب خمرأً ولا يدّهن بدهن حتى يقتل من بني أسد مائة ويجز نواصي مائة. فلما أجنه الليل شام برقاً فقال:

أَرِقْتُ لِبَرْقِ بَلِيلِ أَهْلٍ يُضِيءُ سَنَاهُ بِأَعْلَى الْجَبَلِ
أَتَانِي حَدِيثُ فَكْذَبْتُهُ بِأَمْرِ تَزْعَزُعٍ مِنْهُ الْقُلُلِ
بِقَتْلِ بَنِي أَسَدٍ رَبَّهُمْ أَلَّا كُلَّ شَيْءٍ سِوَاهُ جَلَلِ

فلما كان من الغد استنجد أخواله بكرةً وتغلب وسار إلى بني أسد فأوقع بهم. ثم طلبوا أن يفدوه بمائة من وجوههم فأبوا، فتخاذلت عنه بكر وتغلب. وطلبه المنذر ابن ماء السماء لموجدة كانت في نفسه على قومه، وأمدّه كسرى أنوشروان بجيش من الأساورة ففرقت جموعه خوفاً من المنذر. وسار هو في القبائل يطلب النصر حتى سارت عليه وجوهه. فلجأ إلى السموأل بن عادياء اليهودي فاستودعه دروعه وطلب منه كتاباً إلى الحارث ابن أبي شمر الغساني ليوصله إلى قيصر. فلما بلغ قيصر الروم وهو يومئذ جستنيان أكرم وفادته

وطمع أن يكون امرؤ القيس قوة له في العرب، يربص له الأمور ويضعف نفوذ الأكاسرة. فجهزه بجيش وسيره، ثم بدا له فأعاده. ونزلت بامرئ القيس علة جلدية فتقرح جسمه وتهرأ لحمه. والمؤرخون يزعمون أنه لما فصل بالجنود دخل الطماح الأسدي على قيصر فوشى به وحمله عليه انتقاماً منه لقتله أباه. فبعث إليه قيصر بحلة وشى مسمومة وقد بلغ أنقرة من بلاد الروم فأصابه ما أصابه. ويستدلون على ذلك بقوله:

لقد طمح الطماح من نحو أرضه ليلبسني من دائه ما نلبسا
وبدلت قرحاً دامياً بعد صحة فيالك نعمى قد تحولت أبؤسا
فلو أنها نفس تموت سوية ولكنها نفس تساقط أنفسا

ولما غشيته سكرة الموت قال: رَبُّ جَفْنَةٍ مُتَعَنِّجَةٍ ، وَطَعْنَةٍ مُسَحْنَفَةٍ⁽¹⁾؛ وخطبة محبرة، تبقى غداً بِأَنْقَرَةَ! ثم مات ودفن بجبل عسيب سنة 590م.⁽²⁾

شعره

نشأ امرؤ القيس نجدياً وإن كان يمينياً، فترعرع بين بني أسد في صميم العرب الخُلص، فسمع الأشعار ورواها، وتطلعت نفسه إلى مساجلة الشعراء فقال الشعر على حداثة سنه. وكان جزل الألفاظ كثير الغريب جيد السبك سريع الخاطر بديع الخيال بليغ التشبيه. وقد فتقت الأسفار والأخطار والمخالطة قريحته فاستنبط المعاني الجديدة، ونهج المذاهب الحديثة. وارتسمت في شعره مُحدثات عصره فنسبت إليه لنبوغه وتفوقه وجاهه. فقالوا إنه أول من وقف على الأطلال وبكى على الديار وشبَّ بالنساء، وشبههن بالمها والظباء، وأجاد وصف الليل والخيال لإدمان ركوبه وكثرة أسفاره. وإنك

(1) قلت: الْمُتَعَنِّجَةُ : الْمَلَأَى تُفَيِّضُ وَذَكَهَا .

وَالْمُسَحْنَفَةُ : السَّيْلُ الْكَثِيرُ؛ وَاتَّعَنَّجَتِ السَّحَابَةُ بِقَطْرِهَا وَاتَّعَنَّجَرَ الْمَطَرُ نَفْسَهُ يَتَّعَنِّجُ اتَّعَنَّجَاراً.

(2) من الغلو أن تحدد التواريخ لوفيات الشعراء والخطباء من الجاهلين فإن القوم لم يكونوا على شيء من العلم بتاريخ ولا بغيره، وإنما كانوا يؤرخون بحوادثهم المعروفة.

لتجد في شعره صورة كاملة من حياته وخلقه. ففيه عزة الملوك، وتبذل الصعلوك، وعريضة الماجن، وحمية الثائر، وشكوى الموتور، ودلة الشريد. وهو بإجماع الرواة زعيم الجاهليين للأسباب التي مرت بك.

نماذج من شعره

من خير ما أثّر عنه معلقته التي سارت في الناس مسير المثل. نظمها في حادثة وقعت له مع ابنة عمه عنيزة، ثم استطرد إلى وصف الليل ونعت الفرس وذكر المجون والصيد. قال في مطلعها:

قِفَا نَبْكَ مِنْ ذِكْرِي حَبِيبٍ وَمَنْزِلِ بِسِقْطِ اللَّوَى بَيْنَ الدَّخُولِ فَحَوْمَلِ

وقد مر شيء منها في النماذج. ومنها في الغزل:

أَفَاطِمَ مَهْلًا بَعْضَ هَذَا التَّدَلِّ وَإِنْ كُنْتُ قَدْ أَزْمَعْتَ صَرْمِي فَأَجْمَلِي

أَغْرِكَ مِنِّي أَنْ حَبَّكَ قَاتِلِي وَأَنْكَ مَهْمَا تَأْمُرِي الْقَلْبَ يَفْعَلِ

وَمَا ذَرَفْتَ عَيْنَاكَ إِلَّا لِتَضْرِبِي بِسَهْمِيكَ فِي أَعْشَارِ قَلْبٍ مَقْتَلِ

فَإِنْ كُنْتَ قَدْ سَاءَتْكَ مِنِّي خَلِيقَةٌ فَسُلِّي ثِيَابِي مِنْ ثِيَابِكَ تَنْسَلِ

تَسَلَّتْ عَمَائَاتُ الرِّجَالِ عَنِ الصَّبَا وَلَيْسَ فَوَادِي عَنْ هَوَاهَا بِمَنْسَلِ

وقال من قصيدة يذكر فيها رحلته مع عمرو بن قميئة إلى قيصر:

إِذَا قُلْتُ هَذَا صَاحِبٌ قَدْ رَضِيَتْهُ وَقَرَّتْ بِهِ الْعَيْنَانِ بُدِّلْتُ آخِرَا

كَذَلِكَ جَدِّي: لَا أَصَاحِبَ وَاحِدًا مِنَ النَّاسِ إِلَّا خَانَنِي وَتَغْيِرَا

تَذَكَّرْتُ أَهْلِي الصَّالِحِينَ وَقَدْ أَتَتْ عَلَى جَمَلِ بَنَى الرِّكَابِ وَأَعْفَرَا

وَلَمَّا بَدَتْ حُورَانُ وَالْأَلْ دُونَهَا نَظَرْتُ فَلَمْ تَنْظُرْ بَعِينِيكَ مَنْظَرَا

تَقْطَعُ أَسْبَابُ اللَّبَانَاتِ وَالْهَوَى عَشِيَّةَ غَادَرْنَا حِمَاةَ وَشَيْرَا

بَكَى صَاحِبِي لَمَّا رَأَى الدَّرْبَ دُونَهُ وَأَيُّقِنُ أَنَا لِاحْقَانٍ بِقِيصَرَا

فَقُلْتُ لَهُ: لَا تَبْكِ عَيْنُكَ إِنَّمَا نَحَاوِلُ مُلُكًا أَوْ نُمُوتُ فَنُغْذَرَا

النابغة الذبياني

نشأته وحياته

هو أبو أمامة زياد بن معاوية، ولُقِبَ بالنابغة لأنه لم يقل الشعر حتى احتنك، ثم فجئ الناس بشعر بدَّ به الشعراء وكان له منه مادة لا تنقطع فشبهوه بالماء النابغ. وهو أحد سَرَاة بني ذبيان ومن ذوي مثالتهم، ولكن تكسبه بالشعر غرض من قدره وطأطأ من إشرافه. اتصل بالنعمان بن المنذر فاستخلصه إليه وأسبغ نعمته حتى أكل وشرب في آنية الذهب والفضة من جوائزه. وما زال النابغة يَبْسُط على النعيم، وَيَقْفِي ظلال الخَفْض، حتى دَرَج بالنميمة بينهما بعض حساده متذرعين إلى الوشاية بقصيدته في وصف المتجردة زوج النعمان. فوَقَرَت السعاية في نفس الملك فتوعده، فنجأ الشاعر بنفسه إلى الشام ولاذ بعمر بن الحارث الأصغر الغساني، فنزل منه جناب مريع وأمن شامل، فزاد ذلك في حقد النعمان عليه لالتجائه إلى أعدائه ومنافسيه. وما زال النابغة عند بني غَسَّان يصلهم بالدر ويصلونه بالذهب حتى بلغه أن النعمان عليل، فرجع يطلب الشفاعة إليه، ويرجو البراءة عنده، مقدماً بين يديه مع شفيعه تلك القصائد الخالدة في الاعتذار، فاستلَّت ما في نفس الملك وأحَلَّتْه منه في المكان الأول، وبقي في حال حسنة حتى أَرعشه الكبر وقيده الهرم وسئم الحياة وقال:

المَرءُ يَأْمُلُ أَنْ يَعِيشَ	وطولُ عيشٍ قد يضرُّه
تَفْنَى بِشَاشَتِهِ، وَيَبْقَى	بعدَ حلوِ العيشِ مره
وَتَخُونُهُ الْأَيَّامُ، حَتَّى	لَا يَرَى شَيْئاً يَسُرُّه
كَمْ شَامِتٍ بِي، إِنْ هَلَكْتُ	وَقَائِلٍ : لِلَّهِ دَره

وكانت وفاته في السنة الثامنة عشرة قبل الهجرة.

شعره

النابعة أحد فحول الشعراء الثلاثة الذين لا يُشَقُّ غبارهم، ولا تلحق آثارهم، وهم: امرؤ القيس، وهو، وزهير. ويمتاز من صاحبيه ببديع كنياته، ودقيق إشارته، وصفاء ديباجته، وقلة تكلفه، وموافقة شعره لهوى النفوس. ولهذا لم يغنّ الناس بشعر أحد في الجاهلية وصدر الإسلام بمثل ما غدوا به من شعره. وقد أحاد في وصف ليل الخائف، واعتذار الجاني، ومدح المنعم، إجادة لا يتعلق بها درك، إلا أنه كان يُقوي⁽¹⁾ في شعره ويقول: إن في شعري عاهة لا أدريها؛ حتى سمع مغنياً بأبيات من شعره فيها إقواء، ففطن إلى ذلك ولم يعد إليه. وقد عرف شعراء العرب له تلك المكانة السامية في الشعر فقدموه في عكاظ واحتكموا إليه في الخصومات الأدبية فكان يقضي بينهم موثق القضاء مطاع الحكم.

نموذج من شعره

قال من قصيدته في مدح عمرو بن الحارث الغساني:

كَلِينِي لَهُمَّ يَا أُمَيْمَةَ نَاصِبٍ	وَلَيْلٍ أَقَاسِيهِ بَطِيءٍ الْكَوَكِبِ
تَطَاوَلَ حَتَّى قُلْتُ لَيْسَ بِمُنْقَضٍ	لَيْسَ الَّذِي يَرَعَى النُّجُومَ بِأَبٍ
وَصَدْرٍ أَرَاخَ اللَّيْلِ عَازِبٌ هَمِّهِ	تَضَاعَفَ فِيهِ الْحُزْنُ مِنْ كُلِّ جَانِبٍ
عَلَى لَعْمَرُو نَعْمَةٍ بَعْدَ نَعْمَةٍ	لِوَالِدِهِ لَيْسَتْ بِذَاتِ عَقَارِبٍ
وَتَقَتْ لَهُ بِالنَّصْرِ إِذْ قِيلَ قَدْ غَزَتْ	كَتَائِبُ مَنْ غَسَّانَ غَيْرَ أَشَائِبِ
إِذَا مَا غَزَوْا الْجَيْشَ حَلَقَ فَوْقَهُمْ	عَصَائِبُ طَيْرٍ تَهْتَدِي بِعَصَائِبِ
فَهُمْ يَتَسَاقُونَ الْمَنِيَةَ بَيْنَهُمْ	بَأَيْدِيهِمْ بَيْضَ رِقَاقِ الْمَضَارِبِ

(1) أقوى الشاعر إذا خالف بين القوافي برفع بيت وجر آخر، كقول النابعة في قصيدة المتجردة

سَقَطَ النَّصِيفُ، وَلَمْ تُرَدِّ إِسْقَاطُهُ فَتَنَاوَلْتُهُ، وَاتَّقَنَّا بِالْيَدِ
بِمُخَضَّبٍ رَخِصٍ كَأَنَّ بَنَانَهُ عَنَّمْ يَكَادُ مِنَ اللَّطَافَةِ يُعَقَّدِ

ولا عيب فيهم غير أن سيوفهم
لهم شِمةٌ لم يعطها الله غيرهم
رقاق النعال طيبٌ حُجراتهم
ولا يحسبون الخير لا شرَّ بعده
بهنَّ فلولٌ من قراع الكتائب
من الجود، والأحلام غير عواذب
يُحيون بالريحان يوم السباب
ولا يحسبون الشرَّ ضربةً لازب

زهير بن أبي سلمى

نشأته وحياته

نشأ زهير بن أبي سلمة بن ربيعة بن رباح المزني في أقارب أبيه من بني غطفان، ولزم بشامة بن الغدير خال أبيه، وكان رجلاً مقعداً عقيماً حكيماً قد اشتهر بسداد الرأي وجودة الشعر ووفرة المال، فاغترف من شعره وتأثر بعلمه وحكمه، وظهر ذلك جلياً فيما رصع به من درر الحكمة. ولما مشى الحارث ابن عوف وهرم ابن سنان المزيان بالصلح بين عبس وذبيان وأطفأ نار الحرب باحتمالهما ديات القتلى عن الحيين، وقد بلغت ثلاثة آلاف بعير، استفزته هذه الأريحية فمدحهما بمعلقته. ثم تابع مدحه لهرم بن سنان وأطنب في ذلك حتى أقسم هرم ألا يمدحه زهير ولا يسأله ولا يسلم عليه إلا أعطاه عبداً أو وليدة أو فرساً. فاستحيا زهير من كثرة ما كان يقبل منه، وأصبح إذا رآه في ملاً من الناس قال: (عُمُوا صباحاً إلا هرمأ، وخيركم استنيت). وقال عمر بن الخطاب لبعض أولاد هرم: أشدني بعض مدائح زهير في أبيك، فأنشده. فقال عمر: إنه كان ليحسن فيكم القول. فقال: والله ونحن كنا نحسن له العطاء. فقال عمر: قد ذهب ما أعطيتموه وبقي ما أعطاكم. وكان زهير على جدته رحب الأناة راجح الحصاة سديد الرأي شديد الورع مؤثراً للسلم مؤمناً بالله واليوم الآخر. يشهد بذلك قوله في معلقته:

فلا تَكْتُمَنَّ الله ما في صدوركم ليخفى ومهما يُكْتَم الله يُعْلِم

يؤخَّر فيوضع في كتاب فيدَّخر ليوم حساب أو يعجَّل فيُنْقَم

وقد عمَّر زهير حتى تَيْف على المائة كما يؤخذ من قوله:

بدا لي أني عشت تسعين حجة تباعاً وعشراً عشتها وثمانيا

وتوفي قبل الهجرة بإحدى عشرة سنة وقد أسلم ولداه كعب وبُجير.

شعره

بيت زهير عريق في الشاعرية: فأبوه وخاله، وأختاه سلمى والخنساء، وولداه كعب وبجيرة، من الشعراء المذكورين، وذلك ما لم يكن لغيره. وهو كما علمت أحد الثلاثة الفحول. وفي الناس من يفضله على امرئ القيس والنابغة، لأن شعره يمتاز بصدق اللهجة، وخلوه من الحوشى والتعقيد، وبعده عن سخف القول وهجر الحديث، وجمعه الكثير من المعاني في قليل من الألفاظ. وهو واحد من الشعراء في إجادة المدح وضرب المثل وإرسال الحكمة. وزهير من عبيد الشعر الذين تعملوه ونقحوه. وله قصائد تُعرف بالحوليات يزعمون أنه كان ينظمها في أربعة أشهر ويهذبها في أربعة، ثم يعرضها على خاصة الشعراء في أربعة، فلا ينشدها الناس إلا بعد حول.

تحليل موجز لمعلقته

موضوع معلقته كما علمت مدح الحارث بن عوف وهرم بن سنان المرّيين على سعيهما بالصلح بين عبس وذبيان. ولكنه افتتحها على عادة الجاهلين بالوقوف على أطلال الأحبة وتحيتها ونعته وتنشيم الذكريات من خلال آثارها، فوقف على الدمن البكم الدوارس من ديار أمّ أوفى بعد أن أتى على عهده بها عشرون سنة فلم يعرفها إلا بعد مشقة:

فَلَمَّا عَرَفْتُ الدَّارَ قُلْتُ لِرَبْعِهَا أَلَا عِمَ صَبَاحاً أَيُّهَا الرِّبْعُ وَاسْلَمَ

ثم تمثلت في خاطره طعائن الحبائب متحولات تغشيهن سدول صفيقة النسيج، وكلّه وردية الحواشي، فيتبعهن ببصره الحزين وقلبه الواله، فيصف ما سلكه من طُرُق وما نزلنه من منازل حتى يبلغن المنزل الذي أردنه، وما أجمل أسلوبه في استحضار هذه الذكرى، حتى وكأنها ماثلة للعيون فلو تَبَصَّرَ صاحبه قليلاً لرآها:

تَبَصَّرَ خَلِيلِي هَلْ تَرَى مِنْ طَعَائِنٍ تَحْمَلْنَ بِالْعُلْيَاءِ مِنْ فَوْقِ جُرُئِمِ

عَلَوْنَ بِأَنْمَاطٍ عِتَاقٍ وَكَلَّةٍ وَرَادٍ حَوَاشِيهَا مُشَاكِهَةَ الدَّمِ

بَكْرُنَ بَكُوراً وَاسْتَحَرْنَ بِسَحْرَةٍ فَهَنَ لَوَادِي الرِّسِّ كَالْيَدِ فِي الْفَمِ

وفيهن ملهى للصدى ومنظرٌ أنىق لعين الناظر المتوسم

فلما ورذن الماء زُرْقاً جمائمه وضغن عصي الحاضر المتخيم

ثم انتقل على طريقة الاقتضاب إلى الرجلين اللذين حقنا بالصلح دماء
العشيرة فقال لهما:

يميناً لنعم السيدان وجدتما على كل حال من سحيل ومبرم

تداركتما عبساً وذبيان بعد ما تفانوا ودقوا بينهم عطر مُشيم

وقد قلتما إن ندرك السلم واسعاً بمال ومعروف من الأمر نسلم

فأصبح يجري فيهم من تلادكم مغانم شتى من إفال المزئم

ثم قطع المدح مؤقتاً ليدعو الخصوم إلى السلم في لين ورفق، ولكنه ذكر
الحرب فاشتد وأنكر ما تجر على الناس من أوزار وأضرار:

وما الحرب إلا ما علمتم وذقتم وما هو عنها بالحديث المُرجم

متى تبعثوها تبعثوها ذميمة وتضر إذا ضريرتموها فتضرم

فتعركم عرك الرحا بئفالهها وتلقح كشافاً ثم تحمل فتشيم

فتغلل لكم ما لا تغل لأهلها قرى بالعراق من قفيز ودرهم

ثم عاد إلى رجليه فمضى في مدحهما على ما رأيا من صدع لم يحدثاه،
ووصف هم ابن ضمضم بالجناية وعزمه عليها:

وكان طوى كشحاً على مستكنة فلا هو أبداها ولم يتجمجم

وقال سأقضي حاجتي ثم أتقي عدوي بألف من ورائي ملجم

فشد ولم تفزع بيوت كثيرة لدى حيث ألفت رحلها أم قشع

لدى أسد شاكي السلاح مُقذِف له لبدا أظفاره لم تُقَلَّم

رعوا ما رعوا من ظمئهم ثم أوردوا غماراً تسيل بالماح وبالدم

فقضوا منايها ثم أصدروا إلى كلاً مُستوبل متوخم

ثم غلبت عليه نزعتة الإنسانية وطبيعته الفلسفية فوقف موقف الحكيم
يتبرم بالحياة ويفكر في الموت ويعظ بالتجارب:

رأيت المنايا خبط عشواء من تصب	تمته ومن تُخطئ يعمر فيهرم
ومن هاب أسباب المنايا ينلنه	ولو نال أسباب السماء يسلم
ومن يجعل المعروف من دون عرضه	يفره، ومن لا يتق الشتم يشتم
ومن يجعل المعروف في غير أهله	يعد حمده ذماً عليه ويندم
ومهما تكن عند امرئ من خليقة	وإن خالها تخفى على الناس تُعلم
وكائن ترى من معجب لك شخصه	زيادته أو نقصه في التكلم
لسان الفتى نصف، ونصف فؤاده	فلم يبق إلا صورة اللحم والدم
وإن سفاه الشيخ لا حلّم بعده	وإن الفتى بعد السفاهة يحلم

الأعشى

نشأته وحياته

هو أبو بصير ميثمون بن قيس بن جندل أحد أمراء الشعر المتكسبين به القائلين في أكثر ضروبه. نشأ باليمامة في قرية تسمى منفوحة، وثقف الشعر من طريق الرواية على خاله المسيّب ابن علس، حتى إذا حصف عقله وارتاض لسانه، انتجع أطراف البلاد وغشى أبواب الملوك يمدحهم ويستجديهم. وفد على بني عبد المدان ملوك نجران فأكرموا ثواه وأجزلوا عطاءه، واكتسب من خلاطهم إدمان العقار، والتأثر ببعض الأفكار، فظهر شيء من ذلك في شعره ولاسيما وصف الخمر. وطال عمر الأعشى حتى ابيضت عيناه من الكبر. وسمع بأمر الرسول صلى الله عليه وسلم فصنه في مدحه قصيدة وعزم الرحلة إليه بالحجاز، فأوجس القرشيون خيفة من إسلامه: وقال لهم أبو سفيان: والله لئن أتى محمداً أو اتبعه ليُضَرَّ مَنْ عليكم نيران العرب بشعره، فأجمعوا له مائة من الإبل، ففعلوا، وأخذها الأعشى ورجع؛ حتى إذا دنا من اليمامة سقط من فوق ناقته فدقت عنقه.

شعره

من الرواة وذوي البصر بالشعر من يجعل الأعشى رابعاً لأمريئ القيس وزهير والنابغة. ويقولون: أشعر امرؤ القيس إذا ركب، وزهير إذا رغب، والنابغة إذا رهب، والأعشى إذا طرب. وهذا وإن كان موضعاً للخلاف يدل على مكانة الرجل. وفي الحق أنك تجد في شعره ما لا تجد في شعر غيره من رونق الحسن، وطلاوة الأسلوب، والبراعة في وصف الخمر والإجادة مع الطول... وكان لشعره جَلْبَةٌ في السمع وروعة في النفس وأثر في الناس، فسمى لذلك صَنَاجَةَ العرب. ولقد أعز بشعره وأذل؛ وقصته مع المحلق⁽¹⁾، وفرق القرشيين من إسلامه يدلان على ذلك.

(1) المحلق رجل من مغموري العرب وفقراهم، كان أبا لثماني بنات عوانس لم يتقدم لخطبهم أحد لمكان أبيهن من الخمول والفقر. فاقترحت عليه امرأته أن يضيف الأعشى عليه يشيد بذكره في

نموذج من شعره

من جيد شعره قصيدته اللامية التي عدّها بعضهم من المعلقات ومطلعها:
ودّع هريرة إن الركب مرتحل وهل تطيق وداعاً أيها الرجل؟
ومنها:

أبلغ يزيد بني شيان مألّكة أبا ثيبت أما تنفك تأكل
ألست متتهياً عن نحت أثلتنا ولست ضائرها ما أطت الإبل
كناطح صخرة يوماً ليوهنها فلم يضرها وأوهى قرنه الوعل
لقد زعمتم بأننا لا نقاتلكم إنا لأمثالكم يا قومنا قتل
قالوا الطراد، فقلنا تلك عادتنا، أو تنزلون فإننا معشر نُزل

ومن قصيدته التي أعدها لمدح الرسول قوله:

ألم تغتمض عيناك ليلة أربدا وبتّ كما بات السليم مسهداً
وما ذاك أرى الدهر الذي هو خائن إذا أصلحت كفّاي عاد فأفسدا
شباب وشيبيّ وافتقار وثروة فله هذا الدهر كيف تردّدا!

ومنها:

فآليت لا أرني لها من كلاله ولا من وجيّ حتى تلاقي محمدا
متى ما تناحى عند باب ابن هاشم تُراحي وتلقى من فواضله ندى
نبيّ يرى ما لا يرون وذكره أغار لعمرى في البلاد وأنجدا
له صدقات ما تُغبّ وليس عطاء اليوم يمنعه غدا

=

شعره فينبه. فأضافه ونحر له ناقة على فقره، فمدحه الأعشى بقصيدة بليغة مرشّية منها في النماذج وأنشدها في عكاظ فلم يمض عام حتى لم تبق جارية من بناته إلا وهي زوج لسيد كريم.

عنتره العبسي

نشأته وحياته

هو أبو المغلس عنتره ابن عمر ابن شداد العبسي، نجله اب شريف وأم حبشية تدعى زبيبة، فهو من هُجناء العرب وأغربتهم، فانتفى منه أبوه منذ ولادته على عاداتهم في أبناء الإماء، ولكنه نزع بنفسه عن حال العبودية، وأخذ يروض نفسه على الطرد والفروسية حتى غدا مسعر حرب وقائد كتيبة. واتفق أن بعض أحياء العرب أغاروا على عبس فاستقوا إبلهم، وتبعهم العبسيون وعنتره فيهم. فقال له أبوه: كرّ يا عنتره. فأجابه وهو يحقد عليه استعباده إياه: العبد لا يحسن الكر؛ وإنما يحسن الحلب والضر. فقال: كر وأنت حرّ. فكر وقاتل قتالا شديداً حتى هزم المغيرين واسترجع الإبل، فاستلحقه أبوه. وأخذ اسمه منذ يومئذ يسير وذكره يطير حتى أصبح مضرب المثل في الإقدام والجرأة وله في تعليل شهرته وشجاعته رأي حصيف لا بأس بذكره. قال له قائل: أنت أشجع الناس وأشدّهم، فقال له: لا. قال فلماذا شاع لك هذا في الناس؟ قال: كنت أقدم إذا رأيت الإقدام عزماء، وأحجم إذا رأيت الإحجام حزماً، ولا أدخل موضعاً لا أرى لي منه مخرجاً. وكنت أعتمد الضعيف الجبان فأضربه الضربة الهائلة يطير لها قلب الشجاع فأثنى علي فأقتله.

قاد عنتره كتائب عبس في حرب داحس والغبراء فأحسن القيادة، وبلغ أرج السيادة. ثم تنفس به العمر حتى وهن عظمه ورق جلده وقتل حوالي سنة 615م.

شعره

لم يرو عن عنتره في حال رقه من الشعر جيد ولا رديء. لأن العبودية ترين على القلوب وتطفئ ضرام العواطف، فلما استحلفه أبوه وحالفه الفوز في حربه، واستولى حب عبلة على قلبه، جاش الشعر في صدره وجرى على لسانه في الفخر والحرب والحب، فجاء بالمعجب المطرب. تجد لشعره حلاوة الغزل ومتانة الفخر، إلا أن أكثره مدخول النسب لا يمت إليه إلا بتشابه

الأسلوب والغرض. فمن شعره الذي لا دَخَلَ في أصله معلقته الرقيقة الفخمة التي نظمها دفاعاً عن شاعريته وإثباتاً لفصاحته: فقد حدثوا أن رجلاً من عبس سابه فذكر سواده وأمه. فقال له عنترة "إنني لأحضر البأس، وأوفي المغنم، وأعف عند المسألة، وأجود بما ملكت يدي، وأفضل الخطة الصماء". فقال ل الساب. أنا أشعر منك. فقال: ستعلم ذلك. ثم غدا على الناس بمذهبه المشهورة فقطع خصمه ونقض حكمه.

نموذج من شعره

قال من معلقته:

ولقد شربت من المدامة بعد ما	ركد الهواجر بالمشوف المَعْلَم
فإذا سكرت فإنني مستهلك	مالي، وعرضي وافر لم يكلم
وإذا صحوت فلا أقصّر عن ندَى	وكما علمت شمائي وتكرمي
ومدجج كره الكماة نزاله	لا مُمعنٍ هرباً ولا مستسلم
جاءت يداي له بعاجل طعنة	بمَثَقِبٍ صدق الكعوب مقوم
فشكت بالرمح الأصم ثيابه	ليس الكريم على القنا بمحرّم
فتركته زر السباع ينشئه	يقضن حسن بنانه والمعصم
لما رأيت القوم أقبل جمعهم	يتذامرون كررت غير مذمّم
يدعون عترة والرماح كأنها	أشطان بئر في لبان الأدهم
ما زلت أرميهم بثغرة نحره	ولبانه حتى تسربل بالدم
فازور من وقع القنا بلبانه	وشكا إلى بعبرة وتحمّم
لو كان يدري ما المحاورة اشتكى	ولكان لو علم الكلام مكلمي
ولقد شفى نفسي وأبرأ سقمها	قيل الفوارس ويك عترة أقدم!
والخيل تقتحم الغبار عوابساً	ما بين شَيْظمة وأجرد شَيْظم

وقال أيضاً:

بكَرْتُ تَخَوَّفَنِي الْحَتُوفَ كَأَنِّي
 فَأَجَبْتُهَا إِنْ الْمَنِيَّةُ مِنْهُلٌّ
 فَأَقْنَيْ حِيَاءَكَ لَا أَبَالُكَ وَاعْلَمِي
 إِنْ الْمَنِيَّةُ لَوْ تَمَثَّلُ مَثَلْتُ
 إِنِّي أَمْرٌ مِنْ خَيْرِ عِبَسٍ مَنْصَباً
 وَإِذَا الْكَتِيبَةُ أَجَحَمْتُ وَتَلَا حَظْتُ
 وَالْخَيْلُ تَعْلَمُ وَالْفَوَارِسُ أَنَّنِي
 وَالْخَيْلُ سَاهِمَةُ الْوَجْوهِ كَأَنَّمَا
 وَلَقَدْ أَبَيْتُ عَلَى الطَّوِيِّ وَأَظْلَهُ
 أَصْبَحْتُ عَنْ غَرَضِ الْحَتُوفِ بِمَعَزَلٍ
 لَا بَدَّ أَنْ أَشَقَى بِكَأْسِ الْمَنْهَلِ
 أَنِّي أَمْرٌ سَأَمُوتُ إِنْ لَمْ أَقْتُلْ
 مَثَلِي إِذَا نَزَلُوا بِضَنْكَ الْمَنْزَلِ
 شَطْرِي، وَأَحْمَى سَائِرِي بِالْمُنْضَلِ
 أَلْفَيْتُ خَيْراً مِنْ مُهِمٍ مُخُولِ
 فَرَقْتُ جَمْعَهُمْ بِضَرْبَةٍ فَيُصَلِّ
 تَسْقَى فَوَارِسَهَا نَقِيْعَ الْحَنْظَلِ
 حَتَّى أَنْالَ بِهِ كَرِيمَ الْمَأْكَلِ

طرفة بن العبد

نشأته وحياته

نشأ طرفة بن العبد بن سفيان البكري يتيماً من أبيه، فكفله أعمامه. فأهملوا تربيته وأساءوا أدبه. فشب ميالاً إلى الدعة والتبطل، عاكفاً على اللهو والخمر، مولعاً بالوقوع في أعراض الناس. وقد دعاه نزق الشباب أن يهجو الملك عمرو ابن عند على اضطراره إلى رصائه، واقتقاره إلى حبائه. فاحتقدها عليه عمرو وأضمر له سوء. حتى إذا جاءه مع خاله الملتمس يستجديان فضله - وكان الملتمس قد هاجاه أيضاً - هش للقاءهما يريد أن يؤمنهما، وأمر لكل منهما بصلة وأحالها بكتابين على عامله بالبحرين ليستوفياها منه. فلما كانا في طريقهما إلى العامل، داخل الملتمس من الصحيفة وسواس وهم، فالتمس من يقرأها له فإذا فيها: "باسمك اللهم، من عمرو ابن هند إلى المكعبر، إذا أتاك كتابي هذا مع الملتمس فاقطع يديه ورجليه ثم ادفنه حيّاً" فألقى الصحيفة في النهر، ثم قال لطرفة: معك والله مثلها. فقال: كلا. ما كان ليكتب لي مثل ذلك. وأخذ وجهه حتى أتى العامل بالبحرين فقتله وعمره ست وعشرون سنة⁽¹⁾.

شعره

كان طرفة منذ الحداثة متوقد الذهن، مضطرم الشعور، حاد الباردة؛ فنبغ في الشعور وغد من فحوله وهو دون العشرين. ولكنه كعمرو ابن كلثوم لم يشتهر إلا بمعلقته. ولعله كان مكثراً وجهل الرواة أكثر شعره. يمتاز طرفة بصدق الوصف، والبعد عن الغلو فيه، إلا أنه كان معقد التراكيب مبهم المعنى غريب اللفظ، وتجد ذلك كله واضحاً في معلقته التي ابتدأها بالغزل، واستطرد إلى وصف ناقته فوصفها بخمسة وثلاثين بيتاً من عيون الشعر ومبتكره، ثم

(1) بدليل قول أخته الخرق تربيته:

عددنا له ست وعشرين حجة	ولما توفاهما استوى سيداً ضخماً
فجعنا به لما رجونا إيا به	على خير حال لا وليدا ولا قحماً

أمعن بعد ذلك في الفخر بنفسه، وهي من أمتن الشعر وأبلغه، وهاك تحليلها بإيجاز.

تحليل موجز لعلته

ابتدأها طرفة بذكر أطلال (خولة) وتشبيهها ببقية الوشم في ظاهر اليد؛ ثم وقف بها وقفة قصيرة تخيل فيها قباب الحبيبة غداة ظعنها فوصفها وصفاً موجزاً، ثم نعتها هي نعتاً جميلاً هاج في صدره لهم فنجاً من تذكاره واحتضاره على ناقة وصف أعضائها وأوضاعها في إسهاب وإغراب وإجادة:

وإني لأمضي الهم عند احتضاره	بهوجاء مرقال تروح وتغتدي
تُباري عتاقاً ناجياتٍ، وأتبعُ	وظيفاً وظيفاً فوق مؤر مُعبَدٌ
مُهايَّبةُ المُشَنونِ مُوجدةُ القرا	بعيدة وخُد الرّحل مؤارة اليد
وأتلُعُ نهائِضَ إذا صعدت به	كسكانَ بُوصي بدجلة مُصغِد

ثم يفرغ لنفسه فيصفها باللهو في السلم وبالمخاطرة في الحرب فيقول:

إذا القوم قالوا: من فتى؟ خلت أني	عُنت فلم أكسل ولم أتبلد
ولست بحلال التلاع مخافة	ولكن متى يسترفد القوم أرفد
فإن تبغني في حلقة القوم تُلّغني	وإن تلتمسنني في الحوانيت تصط
وما زال تشرابي الخمر ولذتي	وبيعي وإنفاقي طريقي ومُتلدي
إلى أن تحامثنني العشيرة كلها	وأفردت أفراد البعير المعبد
رأيت بني غبراء لا ينكرونني	ولا أهل هذاك الطرف الممدد
ألا أيهذا الزاجري أحصر الوغى	وأن أشهد اللذات هل أنت مُخلدي؟
فإن كنت لا تستطيع دفع منيتي	فدعى أبادرها بما ملكت يدي

ثم يعلن في صراحة وصدق أن غايته من الدنيا إنما هي الخمر والحب والنجدة؛ ولولا هذه اللذات الثلاث ما رغب الحياة ولا رهب الموت.

ولولا ثلاث هن من عيشة الفتى لعمرك لم أحفل متى قام عُودي

فمنهن سبقي العاذلات بشره كُئِيت متى ما تُغَلّ بالماء نزيد
وتقصير يوم الدجن والدجن معجب بهكنة تحت الخباء المعمد
وكري إذا نادى المضاف مُجَنَّباً كسيد الغضى ذي السوَّرة المتورد

ثم يدعوه استعجاله اللذة ومبادرته اللهو وإتلافه المال واقتحامه الخطر
انتهازاً لفرصة الحياة واستمتاعاً بقصر العمر إلى نوع من الفلسفة في البخل
والموت فيقول:

أرى قبرَ نَحَامٍ بخيل بماله كقبر غويٍّ في البطالة مفسد
أرى الموت يعتام الكرام ويصطفى عقيلة مال الفاحش المتشدد
أرى العيش كنزاً ناقصاً كل ليلة وما تنقص الأيام والدهرُ ينفد
لعمرك إنَّ الموتَ ما أخطأ الفتى لكا الطول المُرخى وثنياه باليد
متى ما يشأ يوماً يقده لحفنه ومن في حبل المنيّة ينقذ

ويمضي الشاعر بعد ذلك زارياً على ابن عمه، شاكياً من ظلم قومه،
مفتخراً بحسن بلائه وقوة عزمه:

فما لي أراني وابن عمي مالكاً متى أذن منه يُنأ عني ويبعد
وظلم ذوي القربى أشد مضاضةً على النفس من وقع الحسام المهند
أرى الموت أعداد النفوس ولا أرى بعيداً غداً، ما أقرب اليوم من غد!
أنا الرجل الضرب الذي تعرفونه خشاش كراس الحية المتوقد
إذا ابتدر القوم السلاح وجدتني منيعاً إذا بلّت بقائمه يدي
فلو كنتُ وغلاً في الرِّجال لضرّني عداوة ذي الأصحاب والمتوحد
ولكن نفى عني الرِّجال جراتي عليهم وإقدامي وصدقي ومحتدي
ستبدي لك الأيام ما كنت جاهلاً ويأتيك بالأخبار من لم تزود

عمرو بن كلثوم

نشأته وحياته

نشأ عمرو بن كلثوم بن مالك التغلبي بالجزيرة الفراتية بين ذوي الحسب الباب من تغلب، وشبَّ على خلال العظماء عزيز النفس أبي الضيم ذَرَبَ اللسان. وما كاد يناهز الخامسة عشرة من عمره حتى كان طريقة قومه وقائد قبيلته. وكان قطباً لرحا الحروب التي دارت بين بكر وتغلب من جرّاء البسوس وأبلى فيها البلاء الحسن حتى تصالح الحيان لآخر مرة على يد عمرو ابن هند أحد ملوك الحيرة من آل المنذر. على أن أمدَّ ذلك الصلح لم يطل، فانشقت العصا بين وجوههم ونَزَتْ في رءوسهم الحفيظة، وتلاحوا في مجلس عمرو ابن هند، فقام الحارق ابن حلزة شاعر بكر وألقى معلقته المشهورة فعطفت هوى الملك إلى قومه، وكانت صلعه مع التغليبين. فانصرف ابن كلثوم موغر الصدر على ابن هند. وحدث بعد ذلك أن الملك قال لبعض خاصته: أتعلمون أحداً من العرب تأنف أمه من خدمة أُمي؟ فقالوا لا نعلمها إلا ليلي أم عمرو ابن كلثوم، فإن أباه مهلهل ابن ربيعة، وعمها كليب وائل، وبعلمها كلثوم ابن عتاب فارس العرب، وابنها عمرو ابن كلثوم سيد قومه. فأرسل عمرو ابن هند إلى عمرو بن كلثوم يستزيه ويسأله أن يزيّر أمه أمه. فأقبل عمرو وأمّه من الجزيرة في جماعة من تغلب وأمر الملك برواقه فضرب ما بين الحيرة والفرات، وأرسل إلى وجوه مملكته فحضرُوا. وكان عمرو ابن هند قد أغرى أمه أن تستخدم ليلي بنت مهلهل في قضاء أمر. فلما دخلت عليها الرواق واطمأن بها المجلس، قالت لها: ناوليني الطبق. فأجابتها: لتقم صاحبة الحاجة إلى حاجتها. فلما ألحت صاحت ليل: واذا له! فسمعها ولدها فثار به الغضب وقتل ابن هند في مجلسه. ثم عاد تَوّاً إلى الجزيرة فأشد قصيدته المعلقة. استهلها بذكر الخمر والغزل، ثم وصف فيها أمره مع عمرو ابن هند، وافترخ بنفسه وقومه. ولقد تجاوبتها المجامع وتناقلتها الألسنة وأكثر بنو تغلب من إنشادها وروايتها حتى قال فيهم الشاعر:

ألّهي بني تغلب عن كل مكرمة قصيدةً قالها عمرو ابن كلثوم
يفأخرون بها مد كان أولّهم يا للرجال لشعر غير مسثوم!
وكانت وفاته في أواخر القرن السادس للميلاد.

شعره

عمرو ابن كلثوم شاعر غمر البديهة، رائق الأسلوب، نبيل الغرض؛ إلا أنه مُقلٌّ. لم يتقلب في فنون الشعر فلم يرخ العنان لسليقته، ولم يطع سلطان قريحته. وكل ما رو عنه معلقته وبعض مقطوعات لا تخرج عن موضوعها.

نموذج من شعره

قال من معلقته:

أنا هند فلا تعجل علينا	وأَنْظَرْنَا نَخْبَرَكَ الْيَقِينَا
بأننا نورد الرايات بيضا	وصدرهنّ حمراً قد روينَا
ورثنا المجد عن عليا معدّ	فطاعن دونه حتى بينا
كأن سيوفنا منا ومنهم	مخاريق بأيدي لا عينا
ألا لا يجهلن أحد علينا	فنجهل فوق جهل الجاهلينا
بأي مشيئة عمرو ابن هند	تطيع بنا الوشاة وتزدرينا؟
فإن قناتنا يا عمرو أعيت	على الأعداء قبلك أن تلينا
وقد علم القبائل من معدّ	إذا قُبِبْ بِأَبْطَحِهَا بُيُنَا
بأننا المُطْعَمُونَ إذا قَدَرْنَا	وأنا المهلكون إذا ابتلينا
وأنا المانعون لما أردنا	وأنا النازلون بحيث شينا
وأنا التاركون إذا سخطنا	وأنا الآخذون إذا رضينا
ونشرب إن وردنا الماء صفواً	ويشرب غيرنا كدراً وطينا
إذا ما المَلِكُ سام الناس خسفاً	أيينا أن نقر الخسف فينا

لنا في الدنيا ومن أمسى عليها ونبطش حين نبطش قادرينا
ملأنا البر حتى ضاق عنا وماء البحر نمأه سفينا
إذا بلغ الفطام لنا صبئ تخر له الجبابر ساجدينا

الحارث بن حلزة

نشأته وحياته

هو أبو الظليم الحارث بن حلزة الشكري البكري. كان في بني بكر مكان عمرو ابن كلثوم في بني تغلب. وقد اشتهر مثله بمعلته التي يقال إنه ارتجلها عفو الساعة في حضرة الملك عمرو ابن هند يستدنى بها عطفه، وينضح فيها عن قومه. وكان من أمرها أن بكرًا وتغلب بعد أن وضعوا أسلحتهم أمام عمرو ابن هند على أن يأخذ من الفريقين رهائن ليقيد منها للمبغى عليه من الباغي، تراشق الحيان بالتهم⁽¹⁾ ورمت تغلب بكرًا بالغدر، وتدافع الفريقان إلى عمرو ابن هند وتلاحوا أمامه، وكان هواه مع التغليين. فاستفز ذلك الحارث ابن حلزة - وكان حاضراً - فابتده قصيدته ابتداها وأنشدها وهو متكئ على قوسه. فيقولون أن كفه اقتطعت وهو لا يشعر من الغضب. وقد أجاد في مدح الملك حتى استولى على رأيه، ومال به إلى حربه، واستل من قلبه سخيمة غرسها تهور النعمان ابن هرم زعيم قومه وعمر الحارث طويلاً حتى زعم الأصمعي أنه أنشد هذه القصيدة وله من العمر خمس وثلاثون ومائة سنة.

شعره

كل ما بين أيدينا من شعره معلته وبعض مقطوعات يسيرة لا تعلل شهرته ولا تعيين طبقته. فهو في هذا كما قلنا أشبه بطرفة وعمرو ابن كلثوم. على أن مطولته بلغت مكان الإعجاب لإحكام نسجها وتشعب فنونها، وارتجالها في موقف واحد. وقد قال أبو عمرو الشيباني. " لو قالها في حول لم يلم " ويقولون. إنه أنشدها من وراء ستور ليرصه، فأمر الملك برفعها استحساناً لها وتكرمة له. بدأها بالغزل ثم وصف ناقته وعير التغليين مواقع ظهورها عليه فيها،

(1) وسبب هذه التهم أن الملك بعث في بعض حاجه يركب من تغلب فهلكوا. فادعت تغلب أن فتياتهم نزلوا على ماء لبكر فشلوهم عنه وحملوهم على البداء فماتوا عطشاً. وعارضت بكر بأنهم سقوهم وهدوهم الطريق فضلوها وهلكوا

وأتى على كثير من أيام العرب، ومدح عمرو ابن هند، وافتخر بقومه وحسن بلائهم عنده.

نموذج من شعره

قال من معلقته:

إن إخواننا الأراقم يعلو
ن علينا في قيلهم إخفاء
يخلطون البرىء منّا بذى الذنب
ولا ينفع الخلى الخلاء
أيها الناطق المرقش عنّا
عند عمرو وهل لذاك بقاء؟
لا تخلنا على غراتك إنا
قبل ما قد وشى بنا الأعداء
فبقينا على الشنّاء تيناً
حصونٌ وعزّة قعساء
ملكٌ مقسطٌ وأفضل من
يمشي ومن دون ما لديه الثناء
أيما خطية أردتم فأدوها
إلينا تسعى بها الأملاء
فاتركوا الطيخ والتعاشي وإما
تتعاشوا ففي التعاشي الدّاء
واذكروا حلف ذي المجاز وما قدم
فيهِ العهد والكفلاء
واعلموا أننا وإياكم فيما
اشترطنا يوم اختلفنا سواء
أعلينا جناح كنّدة أن
يغمم غازيهم ومنّا الجزاء؟
ومنها في وصف التأهب للرحيل:

أجمعوا أمرهم عشاء فلمّا
أصبحوا أصبحت لهم ضوضاء
من مناد ومن مجيب ومن تصهال
خيّل خلال ذاك رُغاء
ومنها:

لا يقيم العزيز بالبلد السهل
ولا ينفع الذليل النّجاء
ليس ينجى موثلاً من حذارٍ
رأس طودٍ وحرّة رجلاء

لبيد بن ربيعة

نشأته وحياته

هو أبو عقيل لبيد بن ربيعة العامري. نشأ ربيب الندى والبأس. فأبوه ربيعة المعترين، وعمه مُلاعب الأُسنة فارس مصر. وسبب قوله الشعر أن الربيع ابن زياد أمير عبس، وهم أخواله، دخل على النعمان ابن المنذر فذكر بالسوء بني عامر وهم قومه. فلما دخل العامريون على الملك وعلى رأسهم مُلاعب الأُسنة غَضَّ منهم، وذوى وجهه عنهم، فنال ذلك من بني عامر وشق عليهم. وكان لبيد يومئذ صغيراً فسألهم أن يشركوه في أمرهم فاستصغروه. ولما ألح في المسألة أجابوه. فوعدهم أن ينتقم لهم بهجاء الربيع حتى يحول بينه وبين منادمة الملك. فقالوا له إنا نبلوك. فقال: وماذا ذاك؟ قالوا: تشتم هذه البقلة. وأمامهم بقلة دقيقة القضبان، قليلة الورق، لاصقة بالأرض، تُدعى الثَّربة. فقال: "هذه التربة لا تذكي ناراً ولا تؤهل داراً، ولا تسر جاراً؛ عودها ضئيل، وخيرها قليل، وفرعها قليل أقبح البقول مرعى، وأقصرها فرعاً، وأشدّها قلعا " فأذنوا له فهجاه بأرجوزة مُقَدِّعة أولها: مهلا أبيت اللعن لا تأكل مع: الخ.

فنفر منه الملك ومقتته وطرده وأكرم العامريين وأدناهم. قالوا وكان هذا أول ما اشتهر به لبيد. ثم أخذ يقول الشعر قصاره وطواله، حتى ظهر الإسلام فأقبل على الرسول في وفد من قومه فأسلم، وحفظ القرآن وهجر الشعر، حتى زعموا أنه لم يقل بعد الإسلام إلا بيتاً واحداً وهو:

الحمد لله إذ لم يأتني أجلي حتى لبست من الإسلام سربالا

ولذلك عُدَّ جاهلياً وإن عمّر في الإسلام طويلاً.

ولما مُصرت الكوفة ذهب إليها في خلافة عمر وأقام بها حتى توفي في أول خلافة معاوية سنة 41 من الهجرة. وقد عاش كما قيل خمسا وأربعين سنة ومائة حتى قال بحق:

ولقد سئمتُ من الحياة وطولها وسؤالِ هذا الناس كيف لبيد

شعره

كان ليبد ضافي الجود، وافر اللب، نبيل النفس، جم المروءة، مُشيع القلب. فسألت أخلاقه وعواطفه في شعره، وتمثلت معاني النبيل والكرم في فخره؛ وجاء نظمه فخم العبارة، منضد اللفظ، قليل الحشو، مزداناً بالحكمة العالية والموعظة الحسنة والكلم النوابغ. ولعله أحسن الجاهلين تصرفاً في الرثاء وأقدرهم على تصوير عواطف المحزون الصابر بلفظ رائق وأسلوب مؤثر.

وأما معلقه فهي قوية بالألفاظ متينة الأسلوب، تصور حياة البادية وأخلاق البدو، وتصف هوى النفوس الماجنة ومطمح القلوب الكبيرة. بدأها بوصف الطلول وذكرى الحبيب، ثم أطال في وصف ناقته على نحو ما فعل طرفه، ثم مضى يصف حياته وملذاته وجوده وبأسه حتى انتهى إلى الفخر بقومه، وكل ذلك في صدق وإخلاص وقصد.

نموذج من شعره

قال في معلقته:

مَنَّا لِرَازٍ عَظِيمَةٍ جَشَامُهَا	إِنَّا إِذَا التَقَتِ الْمَجَامِعُ لَمْ يَزَلْ
وَمُعْذِمِرٌ لِحَقُوقِهَا هَضَامُهَا	وَمُقَسِّمٌ يُعْطِي الْعَشِيرَةَ حَقَّهَا
وَلِكُلِّ قَوْمٍ سَنَّةٌ وَإِمَامُهَا	مَنْ مَعِشَرٍ سَنَّتْ لَهُمْ آبَاؤُهُمْ
إِذَا لَا تَمِيلُ مَعَ الْهَوَى أَحْلَامُهَا	لَا يَطْبَعُونَ وَلَا يُبْورُ فَعَالُهُمْ
قَسَمُ الْخَلَائِقِ بَيْنَنَا عِلَامُهَا	فَاقْنَعْ بِمَا قَسَمَ الْمَلِيكُ فَإِنَّمَا
أَوْفَى بِأَوْفَرِ حِظْنَا قَسَامُهَا	وَذَا الْأَمَانَةُ قُسِّمَتْ فِي مَعِشَرٍ
فَسَمَا إِلَيْهِ كَهْلُهَا وَغِلَامُهَا	فَبَنَى لَنَا بَيْتاً رَفِيعاً سَمَكُهُ
وَهُمْ فَوَارِسُهَا وَهُمْ حُكَامُهَا	وَهُمُ السَّاعَةُ إِذَا الْعَشِيرَةُ أَفْطَعَتْ
وَالْمَرَمَلَاتِ إِذَا تَطَاوَلُ عَامُهَا	وَهُمْ رِبِيعٌ لِّلْمَجَاوِرِ فِيهِمْ

وقال يرثي أخاه أربد:

بكينا وما تُبلى النجوم الطوالع	وتبقى الديارُ بعدنا والمصانعُ
وقد كنت في أكنافٍ جارٍ مَضْنَّة	ففارقني جارٍ بأربَدٍ نافع
فلا جزع إن فرق الدهر بيننا	فكل امرئ يوماً به الدهر فاجع
وما الناس إلا كالديار وأهلها	بها يوم خلّوها وراحوا بلا قع
وما المرء إلا كالشهاب وضوئه	يُحَرِّمُ ما دأب بعد إذ هو ساطع
وما المال والأهلون إلا ودائع	ولا بد يوماً أن تردّ الودائع
وما الناس إلا عاملان فعاملٌ	يُتَبَّرُ ما بيني وآخر رافع
فمنهم سعيد آخذ بنصيبه	ومنهم شقي بالمعيشة قانع
لعمرك ما تدري الضوارب بالحصى	ولا زاجراتُ الطير ما الله صانع

حاتم الطائي

نشأته وحياته

حاتم بن عبد الله بن سعد بن الحشرج الطائي توفي أبوه وهو وليد فنشأته أمه وكانت كثيرة المال، نفّاحة اليدين بالنوال، لا تليق مما تملك شيئاً. فحجر عليها أخواتها وحبسوها سنة عليها تذوق طعم البؤس، وتذكر فضل الغنى. فلما أطلقوها وملكوها قطعة من مالها أتها امرأة من هوازن مستجدية فمنحتها إياها وقالت: مسني من الجوع ما آليت معه ألا أمنع سائلاً شيئاً.

ربته هذه الأم الوهوب، فورثته هذا الخلق وغذته بلبانه، فشبَّ على الندى يهتز له ويغلو فيه حتى بلغ منه حد السفه. فكان وهو غلام عند جده يُخرج طعامه، فإذا وجد من يؤاكله أطل وإلا طرحه. فساء منه هذا التبذير فألحقه بالإبل، فمر به ذات يوم عبيد ابن الأبرص وبشر ابن أبي خازم والنابعة الذبياني وهم في طريقهم إلى النعمان فاستقروه، فنحر لكل منهم بعيراً هو لا يعرفهم. فلما تسمّوا له فرق الإبل وكانت قرابة ثلاثمائة! وجاء جده مبتهجاً يقول له: " طوقتك مجد الدهر طوق الحمامة " وحدثه بما صنع، فقال له: إذن لا أساكنك. فقال: إذن ي أبا لي. ثم قال من أبيات:

وإني لعفُّ الفقر مشترك الغنى وتارك شكل لا يوافقه شكلي
وأجعل مالي دون عرضي جنة لنفسي وأستغنى بما كان من فضلي
وما ضرني أن سار سعداً بأهله وأفردني في الدار ليس معي أهلي

وفشا ذكر حاتم في الجود، وجرت سماحته مجرى المثل، وروى عنه في ذلك الأعاجيب وأكثرها من صرف الحديث⁽¹⁾. وما سبيل الرواة في أخبار

(1) نفس عليك من تلك الأخبار خبرا يسند إلى إحدى زوجتيه النوار أو ماوية؛ ويمتاز ببلاغة تعبيره وحسن تصويره، وهو أشبه شيء بقصيدة لهو جو في ديوانه (سير الدهور) عنوانها (الناس الفقراء)

Lee Pquvres gens وقد ترجمتها في كتابي: (مختارات من الأدب الفرنسي) قالت الرواية:

" أصابتنا سنة اقشعرت لها الأرض واغبر أفق السماء. وراحت الإبل حدبا حدابير، وضنت المراضع على أولادها فما تبس بقطرة. وحلقت السنة المال وأيقنا بالهلاك. فإنا لفي ليلة صبر بعيدة ما بين

حاتم في الجود إلا سبيلهم في أشعار أمية في الدين، وعترة في الحماسة، وأبي العتاهية في الزهد، وأبي نواس في المجون: يفعلون الشيء من ذلك لغرض من الأغراض ثم يعزونه إلى من هو أشبه به من هؤلاء.

وكان حاتم كما قال ابن الأعرابي مظفراً. إذا قاتل غلب، وإذا سابق سبق، وإذا ضرب بالقداح فاز. وكان إذا أهل الشهر الأصم (رجب) - وكانت مصر تعظمه في الجاهلية - نحر كل يوم عشرة من الإبل فأطعم الناس واجتمعوا إليه.

ثم بنى حاتم على النوار ثم على ماوية بنت عفزر إحدى بنات الملوك من اليمن، فولد له منهما عبد الله وسفانة وعدي، وقد أدرك هذان الإسلام فأسلما. ولم يزل حاتم حاله في إطعام الطعام وإنهاب المال حتى مضى لسبيله سنة 605م.

أخلاقه

كان حاتم على خلق عظيم قل من أؤنيه في الجاهلية: كان طويل الصمت رقيق القلب جم المروءة لم يقتل قط واحداً أمه، ولم يظلم ضعيفاً من بني عمه:

فإني وحدي رُبّ واحدٍ أمه أجرتُ فلا قتلٌ عليه ولا أسر

ولا أظلم ابن العم إن كان إخوتي شهوداً وقد أودي بإخوته الدهر

الطرفين إذ تضاعى سببنا جوعاً: عبد الله وعدي وسفانة، فقام حاتم إلى الصبيين وقمت أنا إلى الصبية. فوالله ما سكتوا إلا بعد هدأة من الليل. وأقبل يعللى بالحديث فعرفت ما يريد، فتناومت. فلما تهورت النجوم إذا شيء قد رفع كسر البيت ثم عاد فقال. من هذا؟ فقالت أنا جارتك فلانة. أنا أتيتك من عند صبية يتعاونون عواء الذئاب من الجوع. فما وجدت معولاً إلا عليك ابا عدي! فقال احملهم فقد أشبعك الله وإياهم. فأقبلت المرأة تحمل اثنتين ويمشي جانبها أربعة كأنها نعامه حولها رثالها فقام إلى فرسه فوجأ لبته بمديّة، خر ثم كشف عن جلده ودفع المديّة إلى المرأة فقال لها: شأنك فاجتمعنا على اللحم لشوي وتأكّل ثم جعل يمشي في الحي يأتيهم بيتاً بيتاً فيقول: هبوا أيها القوم! عليكم بالنار. فاجتمعوا والتفّع في ثوبه ينظر إلينا، فوالله منه مضغو وإنه لأحوج إليه منا. فأصبحنا وما على الأرض من الفرس إلا عظم وحافر ". وموضع المشقة في هذا الصنيع أن حاتماً كان وجود بكل شيء ما عدا فرسه وسلاحه.

وقد وصفته سقانة ابنته يوم قامت بين يدي الرسول صلى الله عليه وسلم ترجو أن يخلى عنها وهي سبيّة قالت: كان أبي يفك العاني ويحمي الذمار ويقرى الضيف ويفرج عن المكروب ويطعم الطعام وينفسي السلام ولم يرد طالب حاجة قط. فقال لها الرسول (ص) يا جارية هذه صفة المؤمن، لو كان أبوك إسلامياً لترحمنّا عليه. خلو عنها فإن أباهّا كان يحب مكارم الأخلاق.

شعره

لا جرم أن اللسان ترجمان القلب، والشعر مرآة الشعور. وما قدمناه لك من أخلاق حاتم تجده متمثلاً في شعره، مؤثراً في قُرْضه؛ فلفظه سهل رقيق، وأسلوبه محكم وثيق، وغرضه سامٍ شريف، على غير ما نعهد في شعراء البادية. ولذلك قال ابن الأعرابي: "جوده يشبه شعره" ومعنى ما يقول أنه غزير البحر فياض بالأمثال والحكم الداخلة في باب الجود والعذل فيه، وجمال الذكر والحرص عليه. وما ترى من التفاوت في شعره إنما يرجع إلى كثرة المدسوس عليه والمنسوب زوراً إليه، وهو من شعراء الطبقة الثانية. وقد جمع شعره في ديوان وطبع بليدن وبيروت.

نموذج من شعره

قال من قصيدة له:

أماويّ إن المال غادٍ ورائح	ويبقى من المال الأحاديث والذكر
أماويّ إما مانعٌ فمبيّن	وإما عطاء لا ينهه الزجر
أماويّ ما يغني الثراء عن الفتى	إذا حشرجت يوماً وضاق بها الصدر
أماويّ إن يصبح بقفزة	من الأرض لا ماء لدي ولا خمر
تَرَى أن ما أنفقت لم يك ضرني	وأن يدي مما بخلت به صفر
أماويّ إن المال إما بذلته	فأولاه شكر وآخره ذكر
وقد يعلم الأقوام لو أن حاتما	أراد ثراء المال كان له وفر
وقال أيضاً:	

تحلم عن الأذنين واستبق ودّهم
 ونفسك أكرمها فإنك إن تهّن
 أهّن في الذي تهوى التلاد فإنه
 قليلا به ما يحمدنك وارث
 متى تزق أضغان العشيرة بالأنى
 وعوراء قد أعرضت عنها فلم تضر
 وأغفر عوراء الكريم ادّخاره
 ولن يكسب الصعلوك مجدا ولا غنى
 لحا الله صعلوكاً مناه وهّمه
 ومن معانيه الجميلة قوله:

إذا كان بعض المال ربّاً لأهله
 فإني بحمد الله مالي معبّد

أمية ابن أبي الصلت

نشأته وحياته

أبو عثمان أمية ابن أبي الصلت الثقفي كان يمارس التجارة طوال عمره، فتارة إلى الشام وتارة إلى اليمن. وكان مفطوراً على التدين، فلقي في بعض أسفاره بعض القسيسين والرهبان فسمع شيئاً من الأسفار الأولى فالتمس الدين ولبس المسموح وحرم الخمر وشك في الأوثان وطمع في النبوة، وقال في دين إبراهيم:

كل دين يوم القيامة عند الله إلا دين الحنيفـة زور

فلما بُعث الرسول صلى الله عليه وسلم سُقط في يده وكفر به حسداً وقال: إنما كنت أرجو أن أكونه. فنزل فيه قوله تعالى: ﴿وَأَتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِي ءَاتَيْنَاهُ ءَايَاتِنَا فَٱنْسَلَخَ مِنْهَا فَٱتَّبَعَهُ الشَّيْطَٰنُ فَكَانَ مِنَ ٱلْغَٰوِيكِ﴾ (الأعراف: 175). ثم أخذ يحرض على الرسول ويرثي قتلى أعدائه في واقعة بدر، فنهى عن رواية شعره في ذلك. وكان إذا سمع الرسول شعره في التوحيد يقول: آمن لسانه وكفر قلبه. ثم فرمى بابتته إلى أقصى اليمن وعاد إلى الطائف فعلقته هناك أو هاق المنية. وقد قال لما أخذته غشية الموت وأفاق منها: لييكما لبيكما! ها أنذا لديكما لا مال يفديني، ولا عشيرة تنجيني! إن تغفر اللهم تغفر جما، وأني عبد لك لا ألما؟ ثم اقبل على من حضر وقال:

كل عيش وإن تطاول دهرأً منتهى أمره إلى أن يزو

ليتني كنت قبل ما قد بدا لي في رءوس الجبال أرعى الوعولا

اجعل الموت نضب عينيك واحذر غولة الدهر، إن للدهر غولا

وأكثر تاريخ هذا الشاعر من زور الحديث وتلفيق الرواة.

شعره

انصرفت قريحة أمية إلى المعاني الدينية فاشتهر بها أمره، واصطبغ بها شعره، فوصف الله وجلاله، وذكر الحشر وأهواله، ونعت الجنة والنار والملائكة، ونظم حوادث التوراة كخراب سدوم وقصة إسحاق وإبراهيم،

وأدخل في الشعراء ولم يعرفها العرب بعض ذلك من العبرية وبعضه من محدثاته. فكان يسمى الله عز اسمه بالسُّلَيط والتغرور، والسماء بالصاقورة والحاقورة، ويزعم أن للقمر غلافاً يدخل فيه يوم الخسوف اسمه الساهور؛ ولذلك كان اللغويون لا يحتجون بشعره.

ومذهب ابن أبي الصلت في شعره لم يعهد في عصره، فنحله العلماء ما جاء على شاكلته ولم يعرفوا قائله. ورواة الشعر يعدونه في الطبقة الأولى، ولكن ما بين أيدينا من شعره لا يؤيد هذا الرأي، فإن أكثره قلق اللفظ سخيّف النسج نابي القافية، إلا أن يكون الزمان قد عفى على أجوده. فقد قال الحجاج على المنبر: "ذهب قوم يعرفون شعر أمية، وكذلك الدراس الكلام".

نموذج من شعره

قال يعاتب ابناً له كان قد عقه:

غذوتك مولوداً ومُتُّك يافعاً	تُعَلِّ بما أجنى عليك وتنهل
إذا ليلة نابتك بالشجو لم أبت	لشكواك إلا ساهراً أتململ
كأنني أنا المطروق دونك بالذي	طرقت به دوني، فعيني تهمل
تخاف الردى نفسي عليك وإنني	لأعلم أن الموت حتم مؤجل
فلما بلغت السن والغاية التي	إليها مدى ما كنت فيك أو مل،
جعلت جزائي غلظة وفضاظة	كأنك أنت المنعم المتفضل

ومن قوله:

الحمد لله مُمَسَّانا ومُصْبِحنا	بالحمد صبَّحنا ربي ومَسَّانا
رب الحنيفة لم تنفد خزائنه	مملوءة، طَبَّقَ الآفاق سلطانا
ألا بي لنا منا فيخيرنا	ما بعد غايتنا من رأس محيانا
وقد علمنا لو أن العلم ينفعنا	أن سوف يلحق أحرانا بأولانا

نشأة الخط في بلاد العرب

الخط مظهر من مظاهر الحضارة، وأثر من آثار الاجتماع والتجارة. لذلك كان أسبق الأمم إليه المصريون والفينيقيون. وأجهل الناس به البدويون، فلم يعرفه العرب إلا في الجهة التي عرفتها الحضارة وارتقت فيها العمارة وهي اليمن. كان اليمنيون يستعملون خطأً يسمونه المسند باسم لغتهم، يكتبونه حروفاً منفصلة ويزعمون أن الوحي نزل به على كاتب هود. ولكن المكتشفات الأثرية وعلم مقارنة اللغات أثبتت أن الخط الفينيقي مصدر الخطوط السامية، وأن الآرامي والمسند بأنواعه⁽¹⁾ مشتقان منه، ومن الآرامي اشتق الخط النبطي في حوران، والسطر نحيلي السرياني في العراق، وهذان الخطان هما الأصلان للخط العربي، فمن الأول تولد الشكل النسخي، ومن الثاني تولد الشكل الكوفي، وكان يعرف قبل الإسلام بالحيروي نسبة إلى الحيرة. وقد تعلم عرب الشمال الأول أثناء رحلاتهم إلى الشام، وعلموا الآخر من الأنبار: تعلمه بشرُّ ابن عبد الملك الكندي أخو أكيدر ابن عبد الملك الكندي صاحب دومة الجندل؛ وخرج إلى مكة فصاهر حرب ابن أمية جد معاوية، فعمله جماعة من القرشيين فكثرت من يكتبه منهم. ولما مُصِّرت الكوفة⁽²⁾ وشاع استعماله في الكتابة على مسجدها وقصورها ناله شيء من النظام والزخرف فسمى بالكوفي.

(1) أنواع الخط المسند هي الصفوى والثمودي واللحياني في الشمال، والحميري في الجنوب.

(2) أمر بتصيرها الخليفة عمر حين رأى العرب قد أكفت وجوههم وخذدتها وخومة المدائن ودجلة: أمر سعد ابن أبي وقاص أن يرتاد للعرب منزلاً برياً بحرياً لا يحول بينه وبينهم فيه بحر ولا جسر. فوق اختياره على موضع الكوفة فعكر به في المحرم سنة 18هـ. ثم أذن الخليفة أن يبني بيوتاً من القصب فأحرقت، فأعاد بناءها بالبلن عن إذنه. وفي هذا العام نفسه بنيت الأبنية بالبصرة وقد نزلها المسلمون سنة 14هـ، فصار البلدان منذ يومئذ مركبين حربيين تجاريين لهما في تاريخ الإسلام والأدب مكان ظاهر.

الباب الثاني

عصر صدر الإسلام والدولة الأموية

الأدب الإسلامي

عوامله، مصادره، أنواعه، طبائعه

تركنا العصر الجاهلي والجزيرة العربية يهدر جوفها من ضرم الحياة هدير الحميم المكظوم. ونريد بجوفها الحجازَ بعد ما خمد النشاط العربي في الجنوب باستيلاء الفرس على اليمن، وفي الشمال بإلغائهم إمارة اللخمين في العراق، فارتد تيار النهضة العربية إلى الحجاز وتدفق في مدنه، ولاسيما مكة؛ لأن مكة يومئذ كانت مثابة العرب لوجود البيت، ومعقل العروبة لاعتصامها بالصحراء من النفوذ الأجنبي، ومجمع الثروة لوقوعها في طريق القوافل الآتية من الجنوب تحمل متاجر الهند واليمن إلى الشام ومصر؛ فهي سوق تجارية ومَحَجَّة دينية يؤمها العرب من أطراف الجزيرة يشترون منها السلع الأهلية والأجنبية، ويقضون مناسك الحج، ويشهدون موسم عكاظ، ويتذوقون في ظلال الأشهر الحرم - وهي الهدنة العامة المقدسة - نعمة السلام ولذة الهدوء، ويصلون بينهم ما قطعت أسنة الرماح في الغارات والحروب. وكانت قریش قطب الرحا لهذه الحركة الدينية والاقتصادية والاجتماعية لولايتها على الكعبة، ورياستها في عكاظ، وزعامتها في التجارة، وغناها من الإيلاف، وتقلبها في البلاد، وتمرسها في الأمور، وصلتها بمختلف الشعوب، فأخضعت العرب لسلطانها بالدين والشرف والمال، وفرضت عليهم لغتها وأدبها، فكادت اللهجات بفضلها تتحد، والقلوب بدليلها تتجه نحو غاية واحدة. وكان اليهود في يثرب واليمن فوق نشاطهم الصناعي والزراعي يشيعون أكل الربا وينشرون تعاليم التوراة وأخبار النبوات. وكانت النساطرة واليعاقبة من المسيحيين يبشرون بالإنجيل، ويدعو إلى الحياة الأخرى، ويحملون معهم تأثير اليونان والرومان في الفلسفة والتشريع، ويهيئون الأذهان لكلمة الله. وكان الشعراء ينتقلون من سوق إلى سوق، ومن ماء إلى ماء، ينشدون أهازيج الحماسة على أوتار العصبية، فيؤرثون نار العداوة والخلاف بين القبائل من جهة، وبذيعون وحدة الخلق والعادة

واللغة من جهة أخرى، ويمهدون للنفوس الرغبة السجينة سبيل النهوض إلى الغاية التي يدعوهم إليها الله. ثم كانت الأعراب في قفار البادية يفتك بهم الجهل والجذب والحرب، ويعانون إلى ذلك عنت الكبراء، وأثرة الشيوخ، وفقد الأمن، وتوزع الثروة على مقتضى السيادة والقوة. ناهيك بما يقاسونه في أرزاقهم من فحش الربا وأكل السحت وتطفيف الكيل وكلب الزمان. فكان من جراء هذه المادية القبيحة، والطبيعة الشحيحة، والنظام الفاسد، أن تهيات الطبائع السليمة إلى حياة أرقى ومثل أعلى مما هم فيه. ولكن العرب كما قال ابن خلدون: "أصعب الأمم انقياداً بعضهم لبعض، للغلظة والأنفة وبعد الهمة والمنافسة في الرياسة، فقلما تجتمع أهواؤهم. ومن أجل ذلك لا يحصل لهم الملك إلا بصبغة دينية من نبوة أو ولاية أو أثر من الدين على الجملة". وكان ذلك فعلاً طريق الإصلاح الذي خرج منه العرب إلى العالم ليلغوه الرسالة ويحكموه، فقد كان ظهور الإسلام في ذلك الحين نتيجة محتومة لتلك الحال، ونقضاً صريحاً لتلك الحياة. تعرف ذلك جلياً من تسمية القرآن للدين بالإسلام ولما قبله بالجاهلية. ففي تلك التسمية كل الفروق بين الحياتين والعقليتين في المبدأ والغاية، إذ الجهل معنا السفه والحمية والأنفة - وهي ملاك الأخلاق في الجاهلية، والإسلام معناه السلام والتسامح والانقياد إلى الله - وهي قوام الدين الجديد الذي يقول: ﴿وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْسُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا﴾ [الفرقان 63]. وبمعنى ذلك قول عمرو ابن الأهتم يفاخر الأحنف ابن قيس، وقد اجتمعاً للرياسة بين يدي عمر ابن الخطاب: "إنا كنا وأنتم في دار جاهلية، فكان الفضل فيها لمن جهل، فسفكنا دماءكم، وسببنا نساءكم؛ وإنا اليوم في دار الإسلام والفضل فيها لمن حلم. فغفر الله لنا ولك" فغلب على الأحنف.

فالإسلام إذن قد قلب العقلية العربية قلباً، وشن على الجاهلية حرباً، ورسم للاجتماع مثلاً أعلى يخالف ما ألفوه، ويناقض ما عرفوه.

فالشجاعة، والشهامة، والكرم الموفي إلى السرف والتلف، والتفاني في الإخلاص للقبيلة، والقسوة في الانتقام، والثأر ممن تعدى على النفس أو على الأهل بالقول أو بالفعل، هي أصول الفضائل عند الجاهلية. أما الإسلام فقد جعل المثل الأعلى للإنسان الخضوع لله والانقياد لأمره، والقناعة والتواضع، ومجانبة التكاثر والتفاخر، ثم الصبر.

وقد قال الله تعالى: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ﴾ [الحجرات: 13] وقال الرسول صلى الله عليه وسلم في خطبة الوداع: "إن الله تعالى قد أذهب عنكم نخوة الجاهلية وفخرها بالآباء. كلكم لآدم؛ وآدم من تراب. ليس لعربي على عجمي فضل إلا بالتقوى" فماتت بذلك العصبية القومية والجنسية، وأصبحت السيادة للدين لا للنسب، والإخاء في الله لا في العصب. وهذا التغير في العقلية يستلزم حتماً تغير ما يصدر عنها من فكر وتصوير وقول: فالشاعر الذي كان يستلهم شيطانه قصائد المفاخرة والمنافرة والهجاء؛ والخطيب الذي كان يستقطر من لسانه سموم العداوة والبغضاء؛ والفارس الذي كان يرتع ليله ونهاره في الدماء والأشلاء؛ والرئيس الذي كان يعيش على امتياز الرؤساء؛ والغنى الذي كان ينحر ويشري بدماء الفقراء، وقفوا جميعاً صامتين منصتين لدعوة الإسلام لا يقولون ولا يفعلون إلا ما يأمر به الله أو يقره الرسول. وأصبح القرآن والحديث دستور الأمة، يسنان الشرائع، ويرسمان الآداب، ويهذبان الأخلاق، ويقرآن في القلوب المشتركة المجرمة كلمة التوحيد وحقيقة البر، ويضيفان نظاماً جديدة للأسرة والأمة تغاير ما كان عليه العرب من قبل، وتسائر ما سيكونون عليه من بعد. فضاقت دائرة الشعر في عهد الرسول لموت العصبية وقوة الروح الدينية، وانضوت الخطابة تحت لواء القرآن تدعو إليه، وتقابل الوافدين عليه، وتسير على هديه وتقتبس من نوره. واقتضت الدعوى الكبرى نظام الرسائل فشأت على نمط جديد. وقلت الأمة لحاجة الدين إلى الكتابة وتشجيع النبي عليها بعد موقعة بدر، ونقل الدواوين كلها إلى العربية. وأخذ المعادون للدين يعارضون القرآن ويجادلونه، والموالون له يحفظونه ويدارسونه. ودعا اتساع رقعة الإسلام إلى استنباط أصول الأحكام من مصادر الدين، والاجتهاد بالرأي فيما لم يرد فيه نص. فتجلى صفاء العبقرية العربية ذات المنطق الموهوب فيما قضى به علي وعمر وزيد بن ثابت وعبد الله بن عباس وعبد الله بن مسعود وأبي بن كعب ومعاذ ابن جبل؛ وازدادت هذه الروح الفقيهة المنطقية صفاء وجلاء بعد ذلك فيما شجر من الخلاف بين العلويين والأمويين والخوارج على أثر الخصومة بين علي ومعاوية.

على أن من الغلو أن نقول إن تعاليم الإسلام قد بلغت إلى كل نفس وأثرت في كل قلب حتى يكون تغير العقلية العربية تاماً من كل وجه، فإن ذلك إن صدق على السابقين الأولين من المهاجرين والأنصار الذين أسلموا قبل

الفتح لا يصدق على من أسلم من بعده، ولا على الأعراب المتمردين بطبيعتهم على كل قيد من دين أو قانون أو سلطان، فكانوا لجفائهم وغلظ قلوبهم أشد كفراً ونفاقاً وأجدر ألا يعلموا حدود الله على رسوله. وكان من زعمائهم من يُقبل على الإسلام كقيس ابن عاصم، لا على أنه الدين الحق، ولكن على أن يكون له الأمر بعد الرسول. قال النبي صلى الله عليه وسلم: "إِنَّ مَثَلَ مَا بَعَثَنِي بِهِ اللَّهُ مِنَ الْهَدْيِ وَالْعِلْمِ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَصَابَ أَرْضاً، فَكَانَ مِنْهَا طَائِفَةٌ طَيِّبَةٌ قَبِلَتِ الْمَاءَ فَأَنْبَتَتِ الْكَلَأَ وَالْعُشْبَ الْكَثِيرَ. وَكَانَ مِنْهَا أَجَادِبُ أَمْسَكَتِ الْمَاءَ فَفَنَعَ اللَّهُ بِهِ النَّاسَ فَشَرِبُوا مِنْهَا وَسَقَوْا وَزَرَعُوا. وَأَصَابَ طَائِفَةٌ مِنْهَا أُخْرَى إِنَّمَا هِيَ قَيْعَانٌ لَا تَمْسُكُ مَاءً وَلَا تَنْبِتُ كَلَأً". ومصادق هذا الحديث الكريم ثابت في بقاء البدو على نزعتهم الجاهلية من مهاجرة وحمية وشراب، وحدث الردة على أثر وفاة الرسول، وشيوع الغناء والشراب والغزل في مدن الحجاز، وانبعاث العصية ونزاعها بين القحطانيين والعدنانيين، وبين الهاشميين والأمويين، واشتدادها في عهد بني أمية. وهذا يفسر لنا بقاء الشعر الأموي على نمط الشعر الجاهلي في طريقتيه وطبيعته دون أن يتأثر بروح الإسلام لا كثيراً ولا قليلاً، إذ كان جمهور الشعراء إنما يصعدون عن البادية ويعبرون عن نوازي العصية في الأحزاب والقبائل.



لم يكن تأثير الإسلام في العقلية العربية والفنون الأدبية آتياً من جهة عقيدته وشريعته وروحه فحسب، وإنما أثر فيها كذلك من جهة ما نشأ عنه من الفتوح والنزاع على الإمامة. فمن أثر الفتوح خروج العرب من جزيرتهم إلى الجهاد، وانتشارهم في مختلف البلاد، واستيلاؤهم على ممالك كسرى وقيصر، وامتزاجهم بالأجناس المتعددة، وتأثرهم بالمدنيات والعقليات المختلفة؛ فقد فتحوا العراق وهو وارث حضارة قديمة وموطن أمم عظيمة ونحل كثيرة، ومصر في البصرة والكوفة. وفتحوا فارس وهي إحدى الدولتين اللتين حكمتا العالم القديم يومئذ وأثرتا في عقله وأهله. وفتحوا الشام وقد سادت فيه الثقافة الرومانية والديانة النصرانية بعد ما خاف فيه الفينيقيون والكنعانيون والمصريون

واليونان والغسانيون آثاراً ظاهرة في العادات والاعتقادات والنظم؛ وفتحوا مصر وهي مهد المدنية والفن، ومجمع الحضارتين اليونانية والرومانية، ومُلْتقى الفلسفتين الشرقية والغربية؛ وفتحوا بلاد المغرب إلى جبل طارق، ثم ما وراء النهر إلى كشغر. وسكان هذه الممالك يرجعون إلى أصول سامية وحامية وآرية، ويدينون بأديان سماوية وأرضية، ويتكلمون بلغات فارسية وقبطية وعبرية وسريانية ويونانية ولاتينية، فأخضعهم العرب إخضاعاً مادياً وأدياً وروحياً من طريق الفتح واللغة والدين، وخضع العرب لهم خضوعاً عقلياً وجنسياً باقتباس مدنيّتهم وعقليّتهم وجنسيّتهم من طريق المجاورة والمصاهرة والاسترقاق، وكان من ذلك التفاعل هذا الامتزاج العجيب الذي تولدت منه العلوم الشرعية والفنون الأدبية والحضارة الإسلامية التي طبقت الأرض ومهدت لرقى الإنسان الحديث.

هذا أثر الفتوح. وأما أثر الخصومة في الإمامة فذلك الجدل العنيف بين الفرق الأربع التي نجمت عن الخلاف في الخلافة بين علي ومعاوية، وذلك الجدل الذي اتسع به أفق الذهن العربي بالاحتجاج والاستنتاج، إذ كان اعتماده على تأويل القرآن، وافتعال الأحاديث، واستخدام الشعر في إثارة العصبية وتحبير الرسائل في القضايا السياسية والوصايا الدينية، وعقد المناظرات وإلقاء الخطب. ففي الحجاز حزب يؤيد ابن الزبير وفي الشام حزب يعضد بني أمية، وفي العراق الشيعة يدعون إلى بيت الرسول، والخوارج ينكرون ويفكرون هؤلاء جميعاً ولكل حزب من هذه الأحزاب كما قلت رأي في الخلافة، ونظر في الدين، وحجة من الكتاب والسنة. وعدة من الخطابة والشعر. وحسبك أن تقرأ بعض جدلهم في الطبري والعقد الفريد وشرح النهج لابن أبي الحديد والكمال للمبرد، لتعلم أثر هذا الخلاف في عقلية العرب، وأثر هذه العقلية في فنون الأدب.

نستخلص مما تقدم أن أهم العوامل المؤثرة في الأدب الإسلامي هي: خمود العصبية الجاهلية في عهد الرسول، ثم استعارها في عهد بني أمية، ونشوء الروح الدينية، وتغير العقلية العربية، وتحسن الأحوال الاجتماعية والاقتصادية، وظهور الأحزاب السياسية، واتساع الفتوح الإسلامية، وتأثير

الأمم الأجنبية بلغاتها وعاداتها واعتقاداتها وأدبها، ثم أساليب القرآن والحديث، والمأثور الصحيح من الشعر الجاهلي والأمثال. وقد أجملت القول في آثاره هذه العوامل اعتماداً على تفصيلها حينما نعرض لكل فن على حدة، فلندع ذلك الآن ولنتقل إلى مصادر الأدب الإسلامي.

مصادر الأدب الإسلامي

نستطيع أن نحصر هذه المصادر في:

القرآن، والحديث، والأدب الجاهلي، وما نُقِلَ من الأدب الأجنبي.

1- القرآن الكريم

القرآن الكريم أول كتاب دَوَّن في اللغة العربية؛ فدراسته ضرورية لتاريخ الأدب؛ لأنه مظهر الحياة العقلية والحياة الأدبية عند العرب في أواخر القرن السادس وأوائل القرن السابع للمسيح. وهو واضع النثر الفني ومنبع المعاني والأساليب والمعارف التي شاعت في أدب ذلك العصر. نزل بأسلوب بديع للأذان ولا للأذهان بمثله؛ فلا هو موزون مقفى، ولا هو سجع يتجزأ فيه المعنى في عدد من الفقر، ولا هو مرسل يطرد أسلوبه دون تقطيع ولا تسجيع؛ إنما هو آيات مفصلة متزاوجة يسكت عندها الصوت ويسكن الزهن لاستقلالها بالمعنى وانسجامها مع روح القارئ ووجدانه. فلما سمعه العرب وهم زعماء القريض وأمراء البيان أكرهه وأنكروه، وعجزوا عن أن يردوه إلى نوع من أنواع الكلام المعروفة؛ فقالوا مضطربين: إنه شعر شاعر أو فعل ساحر أو سجع كاهن. ووصفهم إياه بأنه نوع من هذه الأنواع التي تشترك في فتنة العقل دليل على فعله القوي في نفوسهم.

والقرآن باعتباره كتاباً أحكمت آياته ثم فصلت من لدن حكيم خبير، لا يجرؤ النقد البياني على أن يطير في جنباته، وباعتباره معجزة الرسول تحدى به العرب أن يأتوا بسورة من مثله، تورع المسلمون عن أن يقلدوه فراراً من تهمة المعارضة، وتنزيهاً لكلام الخالق أن يشبه به كلام المخلوق. ومما لا ريب فيه أن بعض المشركين والمتبئين قد عارضوه إبطالا لحجته، أو انتهاجا لخطته، على نحو ما ورد عم مسيلمة: "يا ضفدع نقي ما تنقين، فلا الماء تكدرين، ولا الشاب تمنعين"، ولكن الرواة أغلفوا ذلك إما تورعاً وإما ترفعاً، كما فعلوا بمعارضة ابن المقفع والمتنبي وأبي العلاء إن صح أنهم فعلوا ذلك. وهناك طائفة من متأخري الكتاب حاولوا الجري على أسلوب القرآن إعجاباً به فما

حركوا في النفوس غير السخر والضجر لنزولهم عن رتبته وعجزهم عن لحاقه فكفوا. لذلك لم يكن تأثير القرآن كبيراً من جهة إحدائه مذهباً كتابياً يتبعه الناس ويدور عليه النقد. أما تأثيره القوي فكان في نقله النثر من تلك الجمل القصيرة المسجوعة المفككة إلى تلك الصور الأنيقة التي تقرأها في أحاديث الرسول وخطبه وكتبه، وفي خطب الصحابة والتابعين ورسائلهم؛ جُمِلَ متزاوجة، متناسقة، متطابقة، متخيرة الألفاظ، حسنة التأليف، رائعة التشبيه، منطقية الغرض، تنفذ من العقل والقلب إلى الصميم. كذلك أثر في النثر بوضعه المُثَلَّ لمعالجة القصص والوصف والاشتراخ والجدل المنتج والموعظة الحسنة، واستحدثاته ألفاظاً وتراكيب وموضوعات لا يعرفها العرب، فظلت آية على طوال القرون قوة للخطيب وحلية للمنشئ، يرصع بها كلامه فتميز بطلاوته ونفاستها كما تتميز اللؤلؤة الفريدة في عقد من الجزع.

أسلوبه

نزل القرآن منجماً⁽¹⁾ في نحو ثلاث وعشرين سنة على حسب ما يعرض من الحوادث؛ منها ثلاث عشرة سنة في مكة نزل في خلالها ثلاث وتسعون

(1) قلت: نزل منجماً: نزل على فترات متباعدة ومفرقا .

فالقرآن -على الأصح- كما يقول السيوطي في الإتقان: نزل إلى سماء الدنيا ليلة القدر جملة واحدة، ثم نزل بعد ذلك منجماً في عشرين سنة أو ثلاث وعشرين أو خمس وعشرين على حسب الخلاف في مدة إقامة النبي صلى الله عليه وسلم بمكة بعد البعثة.

ومعنى نزوله منجماً أنه نزل مفزاً أي لم ينزل دفعة واحدة، وإنما نزل على رسول الله صلى الله عليه وسلم مجزئاً حسب الوقائع والأحداث، والعرب تقول للمفرق: منجماً.

وأما لماذا نزل كذلك، ولم ينزل دفعة واحدة؟ فقد تولى الله جواب ذلك، فقال سبحانه: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً﴾ [الفرقان: 32].

قال السيوطي: يعنون كما أنزل على من قبله من الرسل. فأجابهم الله بقوله "كذلك" أي أنزلناه كذلك مفزاً "لنثبت به فؤادك" أي لنقوي به قلبك، فإن الوحي إذا كان يتجدد في كل حادثة كان أقوى بالقلب، وأشد عناية بالمرسل إليه، ويستلزم كثرة نزول الملك إليه، وتجدد العهد به وبما معه من الرسالة الواردة من ذلك الجناب العزيز؟، فيحدث له من السرور ما تقصر عنه العبارة. انتهى

ومن فوائد إنزاله منجماً تسهيل حفظه، ولأن منه الناسخ والمنسوخ، ولأن فيه جواب من يسأل عن أمور ووقائع وغير ذلك.

سورة، وعشرة بالمدينة بعد الهجرة نزل فيها إحدى وعشرون. هذه السور الأربع عشرة ومائة تختلف في موضوعها وأسلوبها باختلاف الزمان والمكان والحادث، فكان من الحوادث والقضايا ما ينزل فيه الآية والآيات، ومنها ما ينزل فيه السورة. وكان الصحابة يحفظون أو يكتبون ما ينزل كلاً على حدة، فلم يكن القرآن إذن خاضعاً لقانون التأليف من وحدة الموضوع ووحدة الأسلوب وعقد الأبواب على مقتضى الأغراض، وإنما تجتمع على هذه الصورة ودون بعد وفاة الرسول تبعاً لما كان يجده الكاتبون أولاً فأولاً محفوظاً في الصدور أو مسطوراً في الصحف. ثم رتب بوجه التقريب على حسب الطول والقصر لا على حسب تنزيله ولا على حسب موضوعه، فتكررن بعض القصص لتأكيد الإنذار أو لتشابه الأسباب، وتشتت وحدة الموضوع والأسلوب لنزوله متفرقاً في مكانين مختلفين وأزمان متراخية وأغراض متجددة، وهو في ذلك يختلف عن التوراة والإنجيل.

تشمّل السور المكية - وهي ثلثا القرآن - على أصول الدين وتشتمل المدنية على أصول الأحكام. وأصول الدين جُمّاعها الإيمان بالله ورسوله واليوم الآخر، والالتزام بالمعروف والإنهاء عن المنكر؛ وهي أمور تتصل بالعاطفة والوجدان؛ فالدعوة إليها والحث عليها يقتضيان الأسلوب الشعري القوي المؤثّق الفعال بالقلب بقصصه الواعظة، وحكمه البالغة، وأمثاله السامية، ووعد الخالب، ووعيده المخيف، ولذلك تجد أسلوبها قصير الآي، كثير السجع، رائع التشبيه، قوي المجاز. وأما أصول الأحكام من عبادات ومعاملات فهي موضوع السور المدنية، والتعبير عنها يقتضي الأسلوب المحكم الجزل الهادي؛ وهُدوء البيان يستلزم طول الجمل، وتفصيل الآي، ووضوح الغرض. على أن القرآن لا يصطنع في التشريع أساليب الفقه ولا تعريفات القانون، وإنما يسوق الأحكام في معارض الدعاية والهداية، لأن قصده الأول إنما هو إعلان التوحيد وإظهار الدين، وتطهير القلوب من أضرار الضلالة والجهالة والشرك؛ ولأن الدولة الجديدة لم تكن في عهد الوحي من الاتساع وتشعب الاجتماع بحيث تطلب التشريع المفصل.

إعجازه

تناصرت الأدلة وانعقد الإجماع على أن القرآن معجز، وإنما الخلاف في سبب إعجازه. فمن قائل إنه شرف الغرض، وتتنوع القصد، والإخبار بالغيب. ومن قائل إنه الفصاحة الرائعة، والمذهب الواضح، والأسلوب الموثق ونحن إلى هذا الرأي أميل. فإن القوم الذين تُحَدِّثُوا به لم يكونوا فلاسفة ولا فقهاء حتى يكون عجزهم عن الإتيان بمثله معجزة؛ إنما كانوا بُلْغَاء مَصَادَعٍ، وخطباء مَصَاقِع، وشعراء فحولاً. وفي القرآن من دقة التشبيه والتمثيل، وبلاغة الإجمال والتفصيل، وروعة الأسلوب، وقوة الحجاج، ما يُعْجِز طَوَقَ البشر، ويرمي المعارضين بالسكات والحصر.

لغته

لغة قريش هي الأصل في لغة القرآن، لأن النبي وُلِدَ فيها وبُعِثَ منها، ولأن لغتها تفضل سائر اللغات بحلاوة الجرس ودقة الوضع وإحكام النظم، وقيلتها تشرف سائر القبائل بجوار البيت وسقاية الحاج وعمارة المسجد، ولكنه نزل كذلك بلغة بني سعد ابن بكر؛ لأن الرسول (ص) استرضع فيهم، وهي إحدى لغات العجز⁽¹⁾ من هوازن وأفصحها، لقوله صلى الله عليه وسلم: أنا أفصح العرب بيد أبي من قريش، وأني نشأت في بني سعد ابن بكر.

وجاء في القرآن بعض ألفاظ من لغات عربية أخرى كقوله تعالى: ﴿لَا يَلْتَكُم مِّنْ أَعْمَالِكُمْ شَيْئًا﴾ [الحجرات: 14] أي لا ينقصكم بلغة بني عبس. ثم وقع فيه من غير لسان العرب أكثر من مائة كلمة ترجع إلى لغات الفرس والروم والنبط والحبشة والعبران والسريان والقبط، كالجبت والاستبرق والسندس والقسطاس والزنجبيل، وقد صقلها العرب على لسانهم، وأجروها على أوزانهم، فصارت بذلك عربية.

(1) يقال لهؤلاء أيضاً غلبا هوازن؛ وهم: سعد بن بكر ونصر بن معاوية وثقيف، وفيهم يقول أبو عمرو بن العلاء: أفصح العرب غلبا هوازن وسفلى تميم.

أغراضه ومعانيه

علمت أن من القرآن ما نزل بمكة ومنه ما نزل بالمدينة. فالمكي من سوره يشتمل على أهم ما جاء الرسول من أجله: ففيه توحيد الله بذكر صفاته وتمجيد آياته، وتأييد الرسول بتحدي المكابرين، وضرب الأمثال بأحوال الغابرين، ورفض الأوثان وما يتصل بها من عادات واعتقادات، وإثبات اليوم الآخر وما يتعلق به من جنة ونار وتبشير وإنذار، ثم الإذن لرسول الله أن يجاهد الشرك بالسيف.

وأما المدني منها فيمتاز بوصف المغازي وذكر أسبابها، وما يستفيدة المؤمنون من نتائجها وأعقابها، وسن الشرائع الدينية كالصلاة والزكاة والصوم والحج، والاجتماعية كالأحوال الشخصية والمعاملات المدنية والحقوق الجنائية، وما تستتبعه من قصاص وحدود، وفي كل ذلك ترى الألفاظ مؤتلفة مع المعاني، والمعاني متفقة مع الأغراض، اتفاقاً ودونه الفن والمنطق وليس فوقه إلا قدرة الله.

تأثيره

شغل المسلمون بالقرن وفرغوا له؛ فكان دعاءهم في المسجد، ونظامهم في البيت، ومنهاجهم في العمل، ودستورهم في الحكومة. فسرى هديهم فيهم مسرى الروح ونزل وحيه منهم منزلة الطبع، وأثر في ألسنتهم وأفئدتهم وأنظمتهم ما لم يؤثره كتاب سماوي آخر في أهله. فأما تأثيره في اللغة وأدبها - وهو ما يعيننا الآن ذكره - فبأنه خالط من القوم قلوباً قاسية فألأنها، وطباعها جافية فأرقها، وأحلاماً طافية فأقرها، فكسب ذلك اللغة عذوبة في اللفظ، ورقة في التركيب، ودقة في الأداء، وقوة في المنطق، وثروة في المعاني، ووسع دائرة اللغة باستحدثاته الألفاظ الدينية كالصلاة والزكاة والقيام والركوع والسجود والوضوء والمؤمن والكافر الخ، واقتضائه علوماً جديدة كالنحو والصرف والاشتقاق لدفع اللحن عنه، والمعاني والبيان والبديع لتقرير الإعجاز فيه، وعلمي اللغة والأدب لتفسير غريبه وتوضيح مشكله، والحديث والأصول والفقه والتفسير لاستنباط أحكام الشرع منه. وهو الذي ضمن بقاءها تلك

القرون العديدة، ونشرها في مجاهل الأصقاع البعيدة، مصداقاً لقول الله تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ (الحجر: 9) وحفظ القرآن يستلزم حفظ لغته.

قراءاته

لم يكن امتزاج اللغات ولا اتحاد اللهجات تاماً من كل وجه عند انبثاق نور الإسلام⁽¹⁾؛ وإنما بقى على نواحي الألسنة لُحون مختلفة كالفتح والإمالة، والإظهار والإدغام، والمد والقصر، وتحقيق الهمز وتخفيفه، وترقيق الحرف وتفخيمه، وضم الهاء والميم في نحو عليهم واليهم. فلما نزل القرآن بلغة قریش ولهجتهم لم يستطيع من عداهم من العرب أن يتغلبوا في الزمن اليسير على الفطرة اللغوية، واللهجة الأمية، فقرءوه بلحونهم وأقرهم⁽²⁾ الرسول على ذلك تيسيراً للقراءة وتسهيلاً على الناس.

فلما اختبلت الألسنة، واضطربت السلائق، وزاغت القلوب بعد اتساع الفتوح وانتشار العرب وانشعاب الفرق، نشأ من جهلهم بالهجاء، ومن شدة اختلافهم في المنطق والأداء، ومن جرأة ذوي العلل والمراء، وقراءات لم

(1) يدل على ذلك خطب الوفود الذين وفدوا على الرسول (ص) فقد بلغ من اختلافها من لغة قریش أن قال على (رضه) لرسول الله وقد سمعه يخاطب وفد بني نهد: يا رسول الله نحن بنو أب واحد ونراك تكلم وفود العرب بما لم نفهم أكثره! فقال عليه الصلاة والسلام: أدبني ربي فأحسن تأديبي.

(2) روى عن عمر ابن الخطاب قال سمعت هشام ابن حكيم يقرأ سورة الفرقان في حياة رسول الله (ص) فاستمعت لقراءته فإذا هو يقرأها على حروف كثيرة لم يقرئها رسول الله (ص) كذلك، فكدت أساوره في الصلاة. فصبرت حتى سلم. فلما سلم لبيته بردائه. فقلت من أقرأك هيه السورة التي سمعتك تقرأها؟ قال: أقرأنيها رسول الله (ص) فقلت: كذبت فوالله إن رسول الله (ص) فهو أقرأني هذه السورة. فانطلقت به أفوده إلى رسول (ص) فقلت. يا رسول الله أني سمعت هذا يقرأ سورة الفرقان على حروف لم تقرئنيها، وأنت أقرأني سورة الفرقان: فقال رسول الله (ص): أقرأها يا هشام. فقرأ يا هشام. فقرأ عليه القراءة التي سمعته يقرأها فقال: هكذا أنزلت، ثم قال: اقرأ يا عمر. فقرأت القراءة التي أقرأني رسول الله (ص) فقال: هكذا أنزلت، ثم قال: إن هذا القرآن نزل على سبعة أحرف فاقرأوا ما تيسر منها. والمراد بالأحرف اللغات التي تختلف بها لهجات العرب.

تظاهرها العربية ولا صحة السند ولا رسم المصحف، فتجرد قوم في المائة الأولى لضبط القراءات وحصر وجوهها وتبيين مذهبها، وجعلوها علماً كما فعلوا يومئذ بالحديث والتفسير. واشتهر من هؤلاء ومن طبقة التي وليتهم سبعة تنسب إليهم القراءات إلى اليوم وهم: أبو عمرو ابن العلاء (154) وعبد الله ابن كثير (120) ونافع ابن نعيم (169) وعبد الله ابن عامر (118) وعاصم ابن بهدلة الأسدي (128) وحمزة ابن حبيب الزيات (156) وعلي ابن حمزة الكسائي (189) وتلك هي سبع القراءات المتفق على صحتها إجماعاً. وهناك ثلاث قراءات تليها في الصحة والتواتر وهي قراءة أبي جعفر المدني (132) وقراءة يعقوب ابن إسحاق الحضرمي (185) وقراءة خلف ابن هشام. وما سوى هذه العشر فشاذ.

جمعه وتدوينه

نزل القرآن منجماً كما قلنا في ثلاث وعشرين سنة لوقائع موجبة وأحوال داعية. وأعلن ختامه في السنة العاشرة من الهجرة قبل وفاة الرسول صلى الله عليه وسلم بثلاثة أشهر، وبعد أن رتبت آية وتمت سوره؛ إلا أنها لم تجمع في مصحف واحد في حياته، وإنما توفي رسول الله والقرآن إما مسطور في العُصْب واللِّخاف والأكتاف، وإما مذكور على السنة الصحابة. ولما قتل من قرائه سبعون في غزوة اليمامة، فزع المسلمون وأشفق عمر أن يذهب القرآن بذهاب حُفَاطِه، فتقدم إلى أبي بكر في جمعه. فتردد الخليفة وقال: "كيف أفعل أمراً لم يفعل رسول الله ولم يعهد إلينا فيه عهداً!" فما زال عمر يداوره حتى أقنعه. وعهد بذلك إلى زيد ابن ثابت أحد كتبة الوحي وصاحب العرضة الأخيرة على الرسول، فجمعه من السطور والصدور. وكتبه صحفاً أودعت عند أبي بكر وعند عمر من بعده. ثم كانت هذه الصحف في خلافة عثمان عند حَفْصَة بنت عمر زوج النبي. فلماذا اتسعت رقعة الدولة وانتشر القراء في الأرض اختلفوا في قراءتهم اختلفا في لهجاتهم، وفخر بعضهم على بعض بحسن قراءته وصدق روايته؛ فخشي عثمان أن يختلفوا في دلالته كما اختلفوا في تلاوته، فأمر زيد بن ثابت وعبد الله بن الزبير وسعيد ابن العاص وعبد الرحمن ابن

الحارث بن هشام، فنسخوا تلك الصحف في مصحف واحد ورتبوا سوره على الطول والقصر، واقتصروا فيه على لغة قريش لنزول القرآن بها، وأمر عثمان الناس أن يكتبوا مصاحف من هذا المصحف، وبعث في كل أفق بواحد منها، وكانت سبعة فأرسلها إلى مكة والشام واليمن والبحرين والبصرة والكوفة وحبس بالمدينة واحداً، وهو مصحفه المسمى بالإمام، ثم أمر بجمع ما عدا ذلك فأحرق.

قبس من نوره

قال الله تعالى: ﴿أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنْسَوْنَ أَنْفُسَكُمْ﴾ [البقرة: 44] ﴿وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ﴾ [البقرة: 216] ﴿كَمْ مِنْ فِتْنَةٍ فُلِيلةً غَلَبَتْ فِتْنَةً كَثِيرَةً يَأْذِنُ اللَّهُ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾ [البقرة: 249] ﴿قَوْلٌ مَعْرُوفٌ وَمَغْفِرَةٌ خَيْرٌ مِنْ صَدَقَةٍ يَتْبَعُهَا أَذًى﴾ [البقرة: 263] ﴿وَمَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ وَتَثْبِيتًا مِنْ أَنْفُسِهِمْ كَمَثَلِ جَنَّتٍ بِرَبْوَةٍ أَصَابَهَا وَابِلٌ فَثَأَتْ أَكْطُلَهَا ضِعْفَيْنِ فَإِنْ لَمْ يُصِبْهَا وَابِلٌ فَطُلٌّ وَاللَّهُ يَمَّا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ [البقرة: 265] ﴿لَنْ نَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ﴾ [آل عمران: 92] ﴿وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَأَقْنَصُوا مِنْ حَوْلِكَ﴾ [آل عمران: 159] ﴿إِنْ يَنْصُرْكُمُ اللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ وَإِنْ يَخْذَلْكُمْ فَمَنْ ذَا الَّذِي يَنْصُرْكُم مِّنْ بَعْدِهِ﴾ [آل عمران: 160] ﴿مَنْ يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ بِهِ وَلَا يَجِدْ لَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا﴾ [النساء: 123] ﴿قُلْ لَا يَسْتَوِي الْخَبِيثُ وَالطَّيِّبُ وَلَوْ أَعْجَبَكَ كَثْرَةُ الْخَبِيثِ﴾ [النساء: 100] ﴿مَا عَلَى الْمُحْسِنِينَ مِنْ سَبِيلٍ﴾ [التوبة: 91] ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ﴾ [الرعد: 11] ﴿قُلْ كُلُّ يَعْمَلْ عَلَى شَاكِلَتِهِ﴾ [الإسراء: 84] ﴿لِلَّهِ الْأَمْرُ مِنْ قَبْلُ وَمِنْ بَعْدُ﴾ [الروم: 4] ﴿مَا جَعَلَ اللَّهُ لِرَجُلٍ مِنْ قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِهِ﴾ [الأحزاب: 4] ﴿وَلَا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِ﴾ [فاطر: 43] ﴿إِنَّمَا بَغْيُكُمْ عَلَى أَنْفُسِكُمْ﴾ [يونس: 23] ﴿فَمَنْ تَكَلَّفَ فَإِنَّمَا يَنْكُثُ عَلَى نَفْسِهِ وَمَنْ أَوْفَى بِمَا عَاهَدَ عَلَيْهِ اللَّهُ فَمَسِيئَتُهُ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ [الفتح: 10] ﴿وَلَا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ﴾ [فصلت: 34] ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ﴾ [آل

عمران: 185]. ﴿كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ ۖ﴾ [المدثر: 38]. ﴿تَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّى ۖ﴾ [الحشر: 14]. ﴿كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ ۖ﴾ [المؤمنون: 53]. ﴿وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ وَإِنْ يَقُولُوا تَسْمَعُ لِقَوْلِهِمْ كَأَنْهُمْ خُشْبٌ مْسَنْدَةٌ ۖ يُحْسِبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ ۖ﴾ [المنافقون: 4]. ﴿فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ ۖ﴾ [٧] وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ ۖ﴾ [الزلزلة: 7 - 8]. ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ ۚ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا ۖ إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِنْدَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُلْ لَهُمَا آفٍ وَلَا نَهْرُهُمَا ۚ وَقُلْ لَهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا ۖ﴾ [٣٢] وَأَخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ ۚ وَقُلْ رَبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا ۖ﴾ [٢٤] رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا فِي نُفُوسِكُمْ ۚ إِنْ تَكُونُوا صَالِحِينَ فَإِنَّهُ كَانَ لِلْأَوَّابِينَ غَفُورًا ۖ﴾ [٥٥] وَءَاتَ ذَا الْقُرْبَىٰ حَقَّهُ ۚ وَالْيَسِيرَ ۚ وَابْنَ السَّبِيلِ ۚ وَلَا تَبْذُرْ تَبَذِيرًا ۖ﴾ [٦٦] إِنَّ الْمُبَذِّرِينَ كَانُوا إِخْوَانَ الشَّيْطَانِ ۖ وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِرَبِّهِ كَفُورًا ۖ﴾ [٢٧] وَإِمَّا تَعْرِضْ عَنْهُمْ ابْتَغَاءَ رَحْمَةٍ مِّنْ رَبِّكَ تَرْجُوهَا فَقُلْ لَهُمْ قَوْلًا مَّيْسُورًا ۖ﴾ [٢٨] وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا ۖ﴾ [٢٩] إِنَّ رَبَّكَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ وَيَقْدِرُ ۚ إِنَّهُ كَانَ بِعِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا ۖ﴾ [٣٠] وَلَا تَقْنَلُوا أَوْلَادَكُمْ خَشْيَةً إِمَّا لَقِيَنَّ تَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ ۖ إِنَّ فَلَاحَهُمْ كَانَ خِطًا كَبِيرًا ۖ﴾ [٣١] وَلَا تَقْرَبُوا الرِّبَا ۖ إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلًا ۖ﴾ [٣٢] وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ ۖ وَمَن قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لَوْلِيهِ سُلْطَانًا فَلَا يَسْرِفُ فِي الْقَتْلِ ۖ إِنَّهُ كَانَ مَنصُورًا ۖ﴾ [٣٣] وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُ ۖ وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ ۖ إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْئُولًا ۖ﴾ [٣٤] وَأَوْفُوا الْكَيْلَ إِذَا كِلْتُمْ وَزَنُوا بِالْقِسْطَاسِ الْمُسْتَقِيمِ ۖ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا ۖ﴾ [٣٥] وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ ۖ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَٰئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا ۖ﴾ [٣٦] وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا ۖ إِنَّكَ لَنْ تَخْرِقَ الْأَرْضَ وَلَنْ تَبْلُغَ الْجِبَالَ طُولًا ۖ﴾ [٣٧] كُلُّ ذَلِكَ كَانَ سَيِّئُهُ عِندَ رَبِّكَ مَكْرُوهًا ۖ﴾ [الإسراء: 23 - 38].

2- الحديث

الحديث هو قول رسول الله أو حكاية فعله أو حديث الصحابة عنه. فهو في المنزلة الثانية من كتاب الله فيما يتعلق بالدين والثقافة، وأغزر ينابيع التشريع في العبادات والحقوق، وأقوم طريق يؤدي إلى فهم القرآن: يوضح إشكاله، ويفصل إجماله، ويقيد إطلاقه، ويخصص عمومه. والأحاديث التي صحت عن رسول الله قليلة، ولكنها موسومة بطابع البيان والإلهام والعبقرية، لنشأته في قريش. واسترضاعه في بني سعد وهي أفصح القبائل العربية، وتضلعه من لغة القرآن واطلاعه على لغة العرب، وقدرته الفطرية على ابتكار الأساليب العالية، ووضع الألفاظ الجديدة لما استحدث من المعاني الدينية والفقهية، ولكن قيمتها اللغوية ودلالاتها التاريخية لا تسموان إلى مكان القرآن في ذلك، لأن القرآن كان يدونه عند نزوله كتبه الوحي، وكونه كلام الله جعل الاحتفاظ بنصه فرضاً على المسلمين، " فمن بدله بعد ما سمعه فإنما إثمه على الذين يبدلونه " أما الحديث فلم يدون إلا حوالي منتصف القرن الثاني للهجرة، وكان قبل ذلك إنما يُروى من الذاكرة، والذاكرة كثيرة ما تخون، فناله من تغيير الكلمات واختلاف الروايات أكثر مما نال الشعر الجاهلي. وزاد في تلك أن العلماء أجازوا رواية الحديث بالمعنى لاستحالة المحافظة على اللفظ في نقله مشافهة طوال هذه السنين. وقامت الخصومات السياسية، ونجمت الفرق الدينية، فاستجاز أولو الأهواء الكذب على الرسول، فوضعوا ألوف الأحاديث تأييداً لدعوتهم وترجيحاً لنزعتهم. واستباح قوم وضع الأحاديث الموافقة لمبادئ الدين وقواعد الفضيلة. وحجتهم أن الناس لا يأخذون إلا بنص الكتاب أو مأثور السنة؛ فملئوا الكتب بأحاديث الترغيب والترهيب وتعدوا ذلك إلى وضعها في فضائل الأشخاص والمدن والسور لدعوة سياسية أو نزعة عصبية أو غاية دينية، كالأحاديث الموضوعة في فضل قريش على العرب، وفضل العرب على العجم، وتفضيل بعض الصحابة على بعض، والمنقولة في بعض التفاسير في فضائل السور ترغيباً للناس في دراسة القرآن حين لهوا عنه بالفقه والسير. ومن طريق الوضع أدخلوا في الحديث طائفة كبيرة من الحكم المأثورة

عن العرب، والآراء المنقولة عن العجم، فأثرت في الخطابة والجدل والشعر تأثيراً غير قليل.

كان عمر وبعض الصحابة لا يرون التوسع في رواية الحديث اتقاء لخطر الوضع وحرصاً على كتاب الله أن يجر هذا الوضع إلى الاختلاف فيه أو الانشغال عنه. وقد قال عمر لقرطبة ابن كعب ولمن حوله من الصحابة حين خرجوا إلى العراق: إنكم تأتون أهل قرية لهم دوى بالقرآن كدوى النحل، فلا تصدوهم بالأحاديث فتشغلوهم. جودوا القرآن وأقلوا الرواية عن رسول الله (ص). ونظن أن ذلك الخوف هو الذي صرفه أيضاً عن الإشارة بجمع الحديث كما أشار بجمع القرآن حتى لا يكون بجانب كتاب الله كتاب آخر يشاركه العناية؛ فقد روى الزهري عن عروة ابن الزبير أن عمر أراد أن يكتب السنن واستشار أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم فأشار عليه عامتهم بذلك، فلبث شهراً يستخير الله في ذلك شاكاً فيه. ثم أصبح يوماً وقد عزم الله له فقال: إني كنت قد ذكرت لكم من كتاب السنن ما قد علمتم، ثم تذكرت فإذا ناس من أهل الكتاب من قبلكم قد كتبوا مع كتاب الله كتباً فأكبوا عليها وتركوا كتاب الله، وإنني والله لا ألبس كتاب الله بشيء.

فكان من جراء ذلك الخوف هذه الفوضى التي شوهت جمال الدين، وموهت حقائق التاريخ، وساعدت على نشر الفتنة، ولم يفتنوا إلى درئها إلا حين استفحل الشر وانتشرا الأمر وأصبح الطب لدائها مستحيلاً.

ليس من هم الأديب أن يعني عناية الفقيه واللغوي والنحوي والمؤرخ بما نال الحديث من اختلاف وتبديل، ولا بما نال المحدثين من جرح وتعديل، فإن الأدب إنما يعتبر الأحاديث صادقها وكاذبها مذهباً من مذاهب القول ومصدراً من مصادر المعنى لهما الأثر البالغ فيه. وليس من شك في أن الوضعاء كانوا يقلدون أسلوب الرسول ويتوخون استعمال كلماته واصطلاحاته، حتى لا تجد بين أكثر الأحاديث إلا فرق ما بين صدق النسبة إلى الرسول وكذبها. هذا من جهة الشكل، أما من جهة الموضوع فإن الأحاديث الصحيحة كانت طريف العلم والإرشاد، والأحاديث الموضوع كانت طريق الرأي والاجتهاد؛ لأنها آراء

فردية اجتهادية نسبها أصحابها إلى الرسول لتحل من قلوب الناس محل الثقة، فكانت طريقاً لبسط الفقه، وتهذيب الخلق، ونشر الثقافة، ونشوء الرأي المجتهد بجانب السنة الصحيحة في التشريع.

أسلوب الحديث

الحديث كما يدل عليه اسمه لا يخرج عن هذا النوع العادي المألوف الذي يملأ كل مجلس ويتناول كل موضوع. ومن مستلزماته عدم التحضير وقلة التفكير واختلافه باختلاف المقامات والأحوال؛ ولكن أحاديث الرسول وإن كانت فيض الخاطر وعفو البديهة، يبدو عليها اثر الإلهام وسمة العبقرية وطابع البلاغة. وأسلوبها أقرب إلى أسلوب عصر النبوة إلى أسلوب القرآن، وإنما يمتاز بإشراق ديباجته واتساق عبارته وتساوق ألفاظه وفقره لأداء معنى واضح معين، ومطابقة مدلوله لمقتضى الحال، وملائمة لغته للغة المخاطب. وأشد ما يكون ذلك ظهوراً حين يخاطب الوفود، فالرسول يستعمل الغريب، ويلتزم السجع، ويذكر ألفاظاً من مهجور اللغات تبعاً لما جرى على لسان الوافدين عليه: من ذلك حديثه مع طهفة ابن أبي زهير النهدي، ومع لقيط ابن عامر ابن المنتفق، وذلك من حسن أدبه وسمو بلاغته وقوة تأثيره⁽¹⁾.

أما أكثر الأحاديث فإن عليها رواء الطبع وجلال النبوة ورونق الفصاحة وللرسول قدرة عجيبة على التشبيه والتمثيل وإرسال الحكمة وإجادة الحوار، وتلك ميزة الرسل من قبل ولاسيما المسيح، لأن المرسلين في مقام المعلمين، وأنجع ما يكون في التعليم طريقة التمثيل والمحاورة، كقوله عليه السلام: "إن المُنبِتَّ لا أرضاً قطع ولا ظهراً أبقى. المؤمن هين لين كالجمل الأنف إن قيد انقاد، وإن أنيخ على صخرة استناخ أصحابي كالنجوم، بأيهم اقتديهم اهتديتم لو توكلتم على الله حق توكله لرزقكم كما يرزق الطير: تغدو خماصاً وتروح بطانا. مثل المؤمن كالنحلة، لا يأكل إلا طيباً ولا يطعم إلا طيباً. إنكم لن تسعوا الناس بأموالكم فسعوهم بأخلاقكم. المؤمن ألف مألوف. ولا خير فيمن لا يألف ولا يؤلف. إن أحبكم إلي وأقربكم مني مجالس يوم القيامة، أحاسنكم

(1) انظر: العقد الفريد ص 181 ج 1 .

أخلاقاً، الموطأون أكتافاً، الذين يألّفون ويؤلفون. وإن أبغضكم إلي وأبعدكم مني مجالس يوم القيامة، الثرثارون المتشدقون المتفيهقون. إياكم وخضراء الدّمن: المرأة الحسناء في المنبت السوء. المرأة كالضلع إن رُميت قوامها كسرتها. الناس كلهم سواسية كأسنان المشط. جنة الرجل داره. إن قوماً ركبوا سفينة فاققسموا، فصار لكل رجل منهم موضع، فنقر رجل منهم موضعه بفأس، فقالوا له ما تصنع؟ قال هو مكاني أصنه فيه ما أشاء. فإن أخذوا على يده نجا ونجوا، وإن تركوه هلك وهلكوا".

وأثر الأسلوب النبوي فاش في كلام الصحابة وخطبهم، وعلى الأخص في أسلوب من اشتد خلّاطهم به أو كثرت روايتهم عنه، كالإمام عليّ وأبي هريرة.. فمن قول الإمام عليّ كرم الله وجهه: "ألا وإن الخطايا خيل شمس حُمِلَ عليها أهلها وخُلعت لجمها فتقحمت بهم النار. وإن التقوى مطايا ذُلّ حمل عليها أهلها وأعطوا أزمتهما فأوردتهم الجنة. حق وباطل، ولكلّ أهل. شغل من الجنة والنار أمامه. ساع سريع نجا، وطالب بطيء رجا، ومقصر في النار هوى. اليمين والشمال مَضَلَّة، والطريق الوسطى هي الجادة".

وأما أبو هريرة فأكثر الناس حديثاً عن الرسول حتى بلغ ما رواه أربعة وسبعين وثلاثمائة وخمسة آلاف، أكثر لفظها وأسلوبها له وإن كانت جارية على أسلوب السنن. وقد ارتاب بعض الصحابة في كثرة ما روى فقال: "إنكم تزعمون أن أبا هريرة يكثر الحديث عن رسول الله، والله الموعِد. كنت رجلاً مسكيناً أخدم رسول الله على ملء بني، وكان المهاجرون يشغلهم الصفاق في الأسواق، وكان الأنصار يشغلهم القيام على أموالهم؛ وكنت ألزم رسول الله فاشهد إذا غابوا، وأحفظ إذا نسوا!".

3- الشعر الجاهلي

وجد الشعر في القرآن الكريم والحديث الشريف خطة جديدة ومنبعاً فياضاً فجعلها دليلاً ومدده، ومضى في طريق الاستقلال والاكتمال والتطور. وانتقل الشعر إلى الإسلام مع العرب فلم يجد منه قبولاً حسناً ولا صدراً رحيماً، مخافة من عصبيته وجاهليته على وحدة المسلمين وألفه العرب، فظل ينافق كالأعراب وهواه كله في البادية، ينتزع منها أخيلته وطرقه وصوره. وإذن لا نستطيع أن نفهم الشعر الإسلامي إلا بالرجوع إلى منبعه ومشرعه، وقد ألممنا بالشعر الجاهلي إلمامة تغنيا عن استئاف البحث فيه، فلنتقل إلى المصدر الرابع وهو:

4- الأدب الأجنبي

تقع جزيرة العرب بين مدينتين من أعظم مدنيات العالم وهما: مدينة الفرس في شرقها، ومدينة الرومان في غربها، وبينها وبينهما اختلاط من قديم الزمن خلف بعض الآثار في اللغة والأدب من طريق التبادل المادي والمعوي؛ ولكن هذا الاختلاط أصبح بعد أن فتحهما الإسلام امتزاجاً شديداً تداخلت به اللغات والأفكار والعقائد حتى صار مورداً فياضاً من موارد الأدب؛ فقد دخل القوم في دين الله، ودخل كثير من سباياهم في بيوت العرب، واضطروا إلى تعلم العربية والتكلم بها، ولكن هؤلاء وأمثالهم لم يغيروا إلا ألسنتهم، أما أخيلتهم وتصوراتهم وتعبيراتهم فقد ظلت على الجبلية الأولى: يفكرون بالفارسية أو الرومية، ويتكلمون أو يكتبون بالعربية، ولغاتهم مرسومة القواعد، وآدابهم واضحة المناهج، وحضاراتهم مشرقة الجوانب؛ فلم يكن بد من تأثر الآداب العربية بالآداب الأعجمية والعقلية الآرية، وأظهر ما يكون هذا التأثير في اللغة والتشريع والأخلاق والشعر والسائل والقصص.

فاللغة قد اتسعت مادتها بما اقتبسته من الألفاظ الفارسية للتعبير عما لم يعرفه البدو في تدوين الدواوين، وتنظيم الحكومة، وسياسة الملك، ومقتضيات الحضارة، من أداة وطعام وزينة، ووضعت قواعدها على منهج النحو السرياني، وقام على ضبطها وبسطها الأعاجم. وقد عقد السيوطي في كتابه المزهرة فصلاً

لما أخذ العرب من الفارسية والرومانية والسريانية والقبطية، ولكن اللغويين خلطوا في ذلك لجهلهم بهذه اللغات، فنسبوا إلى بعضها ما ليس منها. وغالى الفرس في رد أكثر المعربات إلى لغتهم عصبية أو جهالة، حتى زعموا أن الرسول تكلم بالفارسية، ورووا في ذلك حديثين أحدهما قوله: إن جابرا صنع لكم سوراً، أي ضيافة والآخر قوله. العنب دو، والتمر يك: أي في تناولهما مثنى وفادي. وذلك في تحقيق العلماء ل أصل له. وقد ذكر الجاحظ في البيان والتبيين أن أهل المدينة عرفوا ألفاظاً من قوم الفرس نزلوا فيهم، فيسمون البطيخ: خربز، والسميط أي المنتوف الصوف: رُودَق. وإن أهل الكوفة يسمون المسحاة بال، والسوق: بازار، وذلك كله فارسي. وقد حكى أبو مهدي الأعرابي بعض ألفاظ أعجمية كانت فاشية للعهد فأنكرها، وذكر منها على سبيل المثال قوله:

يقولون لي شنبذ وُلست مشنبذاً طوال الليالي ما أقام ثبير
ولا قائلا زودا ليعجل صاحبي ويشتان في قولي على كبير
ولا تاركا لحني لأتبع لحنهم ولو دار صرف الدهر حيث يدور

والتشريع ثائر في تفاصيله بفقهاء الرومان، والأخلاق اعتمدت كثيراً على ما نقل من حكم اليونان عن طريق السريان، والشعر والنثر قد أخذ يتعاطاها جماعة من الموالى، كزياد الأعجم، وأبي العباس الأعمى، وموسى شهوات، وإسماعيل ابن يسار من الشعراء؛ وسالم مولى هشام؛ وتلميذه عبد الحميد ابن يحيى، وصديقه ابن المقفع من الكتاب. وقد قال أبو هلال العسكري: "من تعلم البلاغة بلغته من اللغات ثم انتقل إلى لغة أخرى أمكنه فيها من صنعة الكلام ما أمكنه في الأولى. وكان عبد الحميد الكاتب قد استخرج أمثلة الكتابة التي رسمها من اللسان الفارسي فحولها إلى اللسان العربي".

وأما القصص، وهو هنا حكاية التفسير والأثر والخبر تعليماً وموعظة، فقد شابه شيء مما كانوا يسمونه العلم الأول. ويريدون به ما أخذوه من أخبار الأمم وأحوال الأنبياء، والنذر الأولى عمن أسلم من أهل الكتاب، كعبد الله ابن سلام الذي أسلم عند هجرة النبي إلى المدينة، وكعب الأخبار الذي أسلم في

خلافة عمر؛ أو من الموالي كوهب ابن مُتَبِّه أحد الأبناء الذين عاشوا في اليمن فعرفوا أخبار اليهود، واتصلوا بالحبشة فعرفوا أخبار النصارى. وكان هو يعرف اليونانية. فأتسع بذلك علمه، وكان أول من صنف قصص الأنبياء في الإسلام. ثم طاووس ابن كيسان التابعي، وموسى ابن سيار الأسواري. وقد قال الجاحظ في موسى هذا إنه من أعاجيب الدنيا: كانت فصاحته في وزن فصاحته بالعربية، وكان يجلس في مجلسه المشهور فيقعد العرب عن يمينه والفرس عن يساره، فيقرأ الآية من كتاب الله ويفسرهما للعرب بالعربية، ثم يحول وجهه إلى الفرس فيفسرها لهم بالفارسية، فلا يُدرى بأي لسان هو أبين.

وتأثير أدب الموالي في أدب العرب أكبر وأظهر من تأثير أدب اليونان والرومان فيه؛ لأن اليونان والرومان لم يدخلوا في الدين ولا في العربية حتى يكون تأثيرهم مباشراً؛ بل ظلوا مستقلين غير متصلين إلا بمقدار الصلات الاقتصادية. والعرب لقرب عهدهم بالبداءة وجهلهم باللغات، واشتغالهم بالفتوح والخصومات ن وتعصبهم لأدبهم لم يفكروا في نقل شيء من أدب هؤلاء وأولئك وأما الفرس فقد انتقلوا إلى العرب ذاتاً ومعنى ووطناً، فاندمجوا فيهم وامتزجوا بهم وأثروا بأنفسهم في دينهم ولغتهم من ير طلب ولا وساطة. وانصرف العرب إلى سياسة الملوك وقيادة الجند وأقصوا عنهما الموالي، فعطف هؤلاء على تحصيل العلوم الشرعية واكتساب الفنون الأدبية، فكان منهم رواة الحديث، وحملة الفقه، وكتبة الدواوين، وقالة الشعر، وعلماء النحو واللغة، وبذلك اتصلوا بسببنا، وفنى أدبهم في أدبنا، كما تفنى شآبيب المطر في عباب المحيط.

أنواع الأدب الإسلامي

الشعر

الشعر في عهد الرسول:

ظهر الإسلام وقد تحكم في حياة العرب جاهلية قاسية وعقلية جافية وعصية مفرقة فكان الشعر مظهر هذه الصفات وباعثها. فلما أعلن الرسول الحرب على هذه الأخلاق تمهيداً لألفة القلوب ووحدّة العرب، كان من الطبيعي أن يُنفذ الإسلام رأسه إليه، وألاّ يشجع الناس عليه؛ ففي القرآن: ﴿وَالشُّعْرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ﴾ [الشعراء: 224]. ﴿وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشُّعْرَ وَمَا يَنْبَغِي لَهُ﴾ [يس: 69]، وفي الحديث: "لأن يمتلئ جوف أحدكم قيحاً حتى يريه خيرٌ له من أن يمتلئ فمه شعراً" فازور جانب المسلمين عن قرض الشعر وروايته، على علمهم بأن الدين لم يكرهه على إطلاقه، وإنما كره منه ذلك النوع الذي يمزق الشمل ويشير دفائن القلوب. ثم شغل الإسلام العرب جميعاً بالدعوة العظمى: فمن مؤيد ومن معارض واشتدت الخصومة بين الرسول وبين قريش، فحرضوا عليه الأسنة والألسنة، ولكن شعراء العرب وقفوا موقف الحياد والترصص ينتظرون نتيجة المعركة بين التوحيد والوثنية، وبين الديمقراطية والارستقراطية، وبين محمد وقريش، فلم يغامر في الخصومة إلا الشعراء القرشيون، وقد كانوا قلائلاً قبل الإسلام لشواغل الحضارة والتجارة، فصاروا كثراً بعده لدواعي النزاع والمعارضة. بدأ هذه الحملة منهم عبد الله ابن الزبيري وعمرو ابن العاص وأبو سفيان، فأذوا الرسول وأتباعه بقوارص الهجاء، فهاج ذلك من شاعرية المسلمين وودوا لو يأذن لهم الرسول بمساجلتهم؛ فما هو إلا أن قال لهم: "ماذا يمنع الذين نصوا الله ورسوله بأسلحتهم أن ينصروه بألسنتهم؟" حتى نهض للقرشيين نفر من الصحابة، فيهم حسان ابن ثابت وكعب ابن مالك وعبد الله ابن رواحة، وشبّوها حرباً كلامية جاهلية لم يهاجم المهاجرون فيها بفضائل الوثنية، ولم يدافع المدافعون بفضائل الإسلام، حتى نقول إن الشعر قد خطا في مذاهب الفن خطوة جيدة، بل كانوا يتهاجون على النمط المعروف من الفخر بالأنساب والتبجح بالسؤدد. يدل على ذلك قول الرسول لحسان: "أذهب

إلى أبي بكر فهو أعلم بمثالب القوم " وقوله: " كيف نهجو قريشاً وأنا منها؟ " فقال: " أسلك كما أسل الشعرة من العجين ".

فليس من شك في أن الشعر ظل على عهد الرسول جاهلياً. فلما خضعت قريش وسائر العرب للدين الجديد بعد لأي، خرست الألسنة اللاذعة وفر الشعر الجاهلي ثانية إلى البادية. وانصرف المسلمون إلى حفظ القرآن ورواية الحديث وجهاد الشرك، فَخَفَّتْ صوف الشعر لقلّة الدواعي إليه، فما كان يظهر إلا الحين بعد الحين في صادق المدح والرثاء. وتساهل الرسول في سماعه حتى أناب عليه، وحتى قال فيه: " إن من البيان لسحرا وإن من الشعر لحكمة ".

الشعر في عهد الراشدين:

تلك كانت حالة الشعر في عهد النبوة، وأما حاله بعدها فأقل شأنًا وأحط مكانة لذهاب المعارضة ولشدة الخلفاء في تأديب الشعراء، وانصراف همم العرب إلى الفتوح. ولكن الدين قد بدأ يفعل في النفوس، ومظاهر الحضارة قد أخذت تؤثر في الأذهان، فظهر أثر ذلك ضئيلاً في شعر المخضرمين ككعب ابن زهير والحطيئة ومغن ابن أوس والنابعة الجعدي، ولكنه أثر لا يتعدى بعض الألفاظ الإسلامية كال معروف والمنكر والصلاة والزكاة والجنة والنار والمهاجرين والأنصار. ولذلك نرى من المبالغة جعل المخضرمين طبقة ممتازة؛ فإن شعرهم استمرار للمذهب الجاهلي لم يتأثر بالإسلام إلا تأثراً عريضاً كضعف الأسلوب في شعر حسان، أو قلة الإنتاج في قريحة لبید، أو كثرته في الحطيئة والنابعة الجعدي مثلاً. والأشبه بالحق أن تقرر ما أشرنا إليه من قبل، وهو أن الشعر العربي ظل في الجاهلية والإسلام واحداً في مظهره وجوهره ونوعه حتى أواخر عهد بني أمية. والتأثير الذي ناله من الموالي والسياسة والحضارة والدين لم يعطفه إلى طرق جديدة وإنما وسع في معانيه ومناحيه، فقوّى بعض أغراضه كالهجاء، وميز بعضاً آخر كالغزل. وهل يمكن التجديد في الشعر وجل الشعراء إنما يأتون من البادية، والخلفاء يتعصبون للبادية، والرواة والأدباء واللغويون يطلبون اللغة والشعر في البادية؟ فضلاً عن أن العرب بطبيعتهم يميلون إلى التقليد ويجلون القديم المأثور من سؤدد وخلق

وأدب: فليس من سبيلنا أن نتكلف البحث المقيم في القرن الأول عن مذهب شعري جديد يصح أن يكون أساساً لأدب عربي جديد، فإن مذهب عمر ابن أبي ربيعة في الغزل لا يختلف عن مذهب امرئ القيس إلا في المعاني الحضرية؛ ومذهب جرير والفرزدق في الهجاء لا يختلف عن مذهب الحطيئة والشماع إلا في المعاني السياسية. فلنقصر الجهد إذن على تحليل نهضة الشعر في العراق والحجاز على عهد بني أمية وبيان خطرهما وأثرهما في الإنتاج العقلي للعرب.

* * * * *

كانت القحطانية والعدنانية، والعلوية والبكرية، والهاشمية والأموية، والعروبة والشعوبية، تضطرم في نفوس المسلمين اضطرام البركان قبيل أن يثور. ولكنها كانت تضعف حيناً وتشتد حيناً تبعاً لسياسة القائم بالأمر ونظام حكمه؛ فالقبائل كانت تنزل تضعف منازلها في البلاد على هذه الفكرة، والبصرة والكوفة تخططان على هذه الفكرة، والخلاف ينجم في فارس والشام والعراق والأندلس من هذه الفكرة، وكلها تدور على الزعامة والإمامة، فمن كان سيداً في الجاهلية يريد أن يكون سيداً في الإسلام! كأن العرب لم يفهموا من الدين الجديد إلا أنه طريق إلى السلطان وسبيل إلى الغلبة والثروة والحكم ليس غير. ولعلك تذكر أن بعضاً من شيوخ القبائل كقيس ابن عاصم والأحنف ابن قيس كانوا يعرضون على الرسول أن يدخلوا في دين الله لا على أنه الدين الحق، بل ليكون لهم الأمر من بعده!

ظلت هذه الروح العصبية مكظومة في عهد الشيخين لأخذهما الأمور بالجزم والعدل، ولانصراف العرب إلى المغنم عن طريق الجهاد والفتح. فلما ولي الأمر عثمان وهنت اليد المصروفة فسندتها يد أخرى، وتشتت الرأي فلم يصدر عن الخليفة وحده، وحكم آلِه الناس بعصبيتهم الأموية لا بقوميتهم العربية. وكان المسلمون يومئذ قد أفاءت عليهم الفتوح والمغانم الثراء إلى حد البطر؛ فاستيقظت الفتنة وقامت الثورة وانتهت بمقتل عثمان، وتجددت الخصومة على أثر ذلك بين علي ومعاوية. وقتل الإمام فتحرج الأمر وانشقت

العصا. وانصرف العرب عن جهاد العدو إلى جهاد أنفسهم باللسان والسيف. وتفرقوا أحزاباً وشيعاً بعضها للدين وبعضها للدنيا. ففي الشام حزب يشايح بني أمية، يريض لهم الأمر ويمكنهم في الملك. وفي الحجاز حزب يناصر ابن الزبير، ويؤيده في دعواه وينصره في دعوته. وفي العراق حزب يشايح أهل البيت ويطلب لهم يحقهم في الخلافة. وهنالك حزب ديمقراطي ينكر الأحزاب ويكفر الزعماء ويقول بالشورى في الخلافة. وفي هذه الأحزاب الأربعة توزعت أهواء المسلمين وآراؤهم إلا طائفة قليلة لزمت الحياد وأرجأت الحكم بين المختلفين إلى قضاء الله يوم الدين وهم المرجئة. واتصلت بين الأحزاب الخصومة، وأعنف فيها الخصم؛ ولكن معاوية بعد أن تم له الأمر كان يصانع معارضيه بالدهاء والعطاء والإغضاء والحزم، حتى استوثق له الأمر طيلة حياته إلا من جهة الخوارج. فلما مات أفاق خصومة من خدّر سياسته فزعزعوا عرشه؛ حتى إذا وهي أدركه مروان وبنوه فسندوه واقتعدوه. وفي زمن عبد الملك اشتدت المعارضة واستعرت الحروب، وكثر المطالبون بالخلافة، وانبسط سلطان العرب، وزخرت موارد الفيء، واكتمل شباب الذي نشأ في الإسلام، واغتنى بثمر الفتوح، واستمتع بجمال الحضارة، واختلط بأنماط شتى من الناس، وساهم بيده ولسانه في هذه الفتن، فبلغ الأدب العربي غاية ما قدر له أن يبلغ. فهل يمكن أن يظل الشعر بنجوة عن هذه الحياة الصاخبة، والعصبية الغالبة، والأحزاب المتحاربة، والأهواء المتضاربة. والشعر العربي ربيب الخصومة والجدل، تبعته الحزبية ويقويه الهراش وتوحيه شياطين الفرقة؟ الواقع أنه كان وقود هذه الفتن ولسان هذه الأحزاب، يصطنعونه كما نصطنع نحن الصحف اليوم، فيناضل عن زعمائه، ويدافع عن آرائه، ويصطبغ بصبغة العقيدة التي يدعو إليها وينافح عنها. وإذا علمت أن العرب جميعاً ساهموا في هذه الخصومات، وأن أكثرهم يقول الشعر وخصوصاً في هذه الأزمات، وأن الأمويين استمالوا بالمال هوى الشعراء، وأوقدوا بينهم نار التنافس والهجاء، وأن الشعر أصبح صناعة متميزة يعيش عليها بعض الناس، أدركت سبب وفرة الشعر وكثرة الشعراء في عصر عبد الملك، إذ بلغ عدد الفحول المائة. وليس من شك في أن الشعر وإن حافظ على طريقته وطبيعته

قد تأر بهذه الحياة الجديدة تأثراً ظاهراً في معانيه وأغراضه، ولكن هذه الحياة لم تكن كلها نزاعاً سياسياً ولا جدالاً دينياً حتى يقف تأثره عند هذا الحد، وإنما كان لها مظاهر أخرى يحسن أن نشير إليها قبل أن ندل على آثارها في الشعر.

نظرة عامة

في العراق:

كان من الطبيعي أن تختلف مظاهر هذه الحياة في العواصم العربية لاختلاف الأحوال السياسية والاجتماعية فيها. فالعراق كان منذ القدم منتجع الخواطر العربية لخصبه ونمائه، ووفرة ظله ومائه. وقد لاذ العرب قبل الإسلام بأطرافه وأريافه واللسان والسيد فيه للفرس فأنشئوا إمارة المناذرة. فلما فتحوه في عهد عمر نزحوا إليه وأنشئوا على حدود البادية البصرة والكوفة. وكان في العراق ميراث وفُر من العلم والأدب والدين خلفته الأمم الغابرة، ولم يؤت العراق ما أوتيت مصر من قوة الهضم والتمثيل حتى يحيل سكانه إلى جنسية واحدة وعقلية واحدة، فانطبعت الأهواء فيه على الفرقة، والنفوس على التنافر. وأتى إليه العرب بالعصبية اليمنية والنزارية، ووقعت فيه الأحداث الإسلامية الجلى كواقعة الجمل ومصرع الأئمة والقادة، وما نجم عن ذلك من قيام لشيعه والخوارج، واشتداد المعارضة لبنى أمية، واستحكام الخلاف بين البصريين والكوفيين في السياسة والدين والعلم، فكانت البصرة عثمانية، والكوفة بعد استقرار الإمام علي بها علوية، والجزيرة الفراتية إما نصرانية وإما خارجية، لأنها مسكن ربيعة وهم كما قال الأصمعي رأس كل فتنة. ومن ربيعة بنو تغلب الذين قال فيهم الإمام علي: "يا خنازير العرب! والله لئن صار هذا الأمر إلي لأضعن عليكم الجزية". فكان الشعر العراقي صورة لهذه الحياة الشائرة المتنافرة، فهو قوي عنيف يكثر فيه الهجاء والفخر، وتتلون فيه العصبية القبلية ألوانا شتى من التحزب للمكان والعقيدة والجنس، وتتغلب فيه النزاعات الجاهلية على التعاليم الإسلامية، وتغذيه نفحا بدوية وصلات أموية، فيزدهر وينتشر حتى يشغل كل لسان ويحتل كل مكان ويعبر عن كل مبدأ.

في الحجاز:

والحجاز منبع الإسلام كان كيناييع النهر. يفيض منه الماء الصافي في سكون ورفق، حتى إذا بعد مجراه اعترضته الشلالات وتقسمته التيارات، فتكدر

غيره واشتد هديره، وتوزعته الجداول والأقنية، فبعضه في سباح الأرض، وبعضه في الرياض، فروى بعضاً وأغرق بعضاً. انتقلت منه الخلافة والمعارضة والعلم إلى العراق والشام وبقي هو كما كان وكما هو الآن يقبل المال والمعونة من كل قطر. واقتضت سياسة الأمويين أن يعتقلوا فيه شباب الهاشميين فلا يتركونه إلا بإذن، وسلطوا عليهم الترفن وشغلهم بالمال عن الملك، وخلوا بينهم وبين الفراغ، وقد ورثوا مع ذلك آبائهم المجاهدين مغانم الفتح من أموال ورقيق، وفي أهل الحجاز ملاحه ظرف ووداعة نفس ولطافة حس وفصاحة لسان ومحبة لهو، فتبسطوا على النعيم، وعكفوا على اللذة، وقطعوا أيامهم بالمنادرة والمنادمة، وذهبوا في حياة المجون كل مذهب. ووصل الحج بينهم وبين الحسان والقيان، واستهوت هذه الحال المغتئين فوفدوا إلى مكة والمدينة من أقطار الدولة حتى اجتمع منهم في وقت واحد كما يقول أبو الفرج الأصبهاني "ابن سريج، والغريز، وعبداء، وحنين، وابن محرز، وجميلة، وهيت، وطويس، والدلال، وبرد الفؤاد، ونومة الضحى، ورحمة، وهبة الله، ومالك، وابن عائشة، وابن طنبرة، وعزة الميلاء، وحبابة، وسلامة، وبلبل، ولذة العيش، وسعيدة، والزرقاء، وابن مسجح" وحتى غلب الغناء على أعمال الناس وميولهم، فقد حدث الإمام مالك عن نفسه قال: نشأت وأنا غلام أتبع المغنين وأخذ عنهم، فقالت لي أمي: يا بُني إن المغنى إذا كان قبيح الوجه لا يلتفت إلى غنائه، فدع الغناء واطلب الفقه فإنه لا يضر معه قبح الوجه. فتركت المغنين واتبعت الفقهاء فبلغ الله بي عز وجل ما ترى". من ذلك شاع الحب في مدن الحجاز وركت عواطف بنيها، فسلكوا بالشعر مسالك الغزل الحضري الرقيق الصادق، حتى كاد هذا الفن لافتنانهم فيه يبتدئ بهم وينتهي إليهم.

في الشام:

وأما الشام فكان بنجوة من الثورات النفسية والأزمات السياسية لخضوعه لبني أمية وإخلاصه لهم وانصرافه إلى تأييدهم، فلا هو مضطرم العواطف كالحجاز، ولا هو مضطرب الأهواء كالعراق. وقد أمن الخلفاء جانبه فتركوه

لشأنه دون أن يثيروا عصبته لخلاف، أو يهيجوا طماعيته لمغن، فبقى الشعر من جراء ذلك راكداً في نفوس أهله لا يبعثه باعث، ولا يتوفر على دراسته وروايته باحث. وأكثر ما كان فيه من ذلك إنما كان يفد إليه من العراق والحجاز مع الشعراء الذين يجذبهم سحاء القصر أو دهاؤه، والأدباء الذين يطلبهم الخلفاء من البصرة كلما أعضلتهم مسألة في اللغة والنحو والأدب.

خصائص الشعر في العراق

لعل الشعر العراقي الإسلامي أصدق ما يصور حياة البادية وأصح ما يعبر عن نفسية العرب؛ فإنه - وإن كان كما قلنا استمراراً للشعر الجاهلي يصدر عن دوافعه وينبع من منابعه - أنقى جملة وأبين علة وأصلح نسبة، لقربه من عصر التدوين واتصاله بأسباب وأحداث التاريخ: وهو مظهر لتلك الحياة المدنية الأولية التي هيأها الإسلام للعرب لأول مرة: فجعل من الأشتات وحدة ظاهرها الجماعة والألفة، وباطنها العداوة والفرقة؛ فهو مهاجاة بين الأفراد، ومساجلة بين الأحزاب، ومفاخرة بين القبائل، ومدح للزعماء والخلفاء. وهذه الموضوعات بطبيعتها تقتضي اللفظ الجزل والأسلوب الرصين والعروض الطويل والصور البدوية، وتعتمد في الهجاء على مثالب الآباء من جبن وبخل وقلة وذلة، وفي المدح والفخر على ذكر أيامهم الدامية الماضية وما ظفر فيها أسلافهم من الغلب والسلب. فالهجاء في هذا العهد بأنواعه الخاصة والعامة يكاد يكون مظهره العراق، لتكالب القبائل المتعادية عليه، وظهور المذاهب المتباينة فيه، وغلبة البداوة والأنفة والبطر على أهله؛ فشعراؤه يتدثرون به ويفتنون فيه ويعيشون عليه، وهو يتحلل الأسباب المختلفة، ويرتدي الأثواب المتعددة، فيكون شخصياً وقبلياً ووطنياً ودينياً وسياسياً، ولكنه في الواقع إنما يصدر عن باعث واحد هو العصبية الموروثة والأحقاد القديمة.

وقد ينبت المرعى على دمن الثرى وتبقى حزازات النفوس كما هيا

الأخطل:

فقائل هذا البيت غياث ابن غوث الأخطل صوت الجزيرة ولسان التغلبية، وأديب النصرانية وشاعر الأموية، كان أول ما غرزم به من الشعر الهجاء. هجا امرأة أبيه وهو صغير، هجا كعب ابن جميل شاعر تغلب فأهمله وهو يافع، وعلق به لقب الأخطل منذ شب لسفاهته. ثم مضى يقرض الشعر فيما يشجر من الخصومة بينه وبين الناس، أو بين قبيلته وبين القبائل، حتى كان بين يزيد ابن معاوية وهو ولي العهد وبين عبد الرحمن ابن حسان الأنصاري تفاؤل

وجدل، فطلب من كعب ابن جميل أن يهجو الأنصار، فتخرج أن يذم قوماً أووا رسول الله ونصروه، وقال له: أدلك على الشاعر الفاجر الماهر (يريد الأخطل) فهجا الأخطل الأنصار بالفلاحة واللؤم والخمر، وفضل عليهم قريشاً في قصيدته الرائية، وكاد يشفي من ذلك على الخطر لولا عون يزيد. وبالغ الأمويون في إشاره وإكرامه، وأمعن هو في النفع عليهم، فناضل الزبير بين بعد الأنصار، ووقف للقبائل القيسية فهتك عنها حجاب الشرف قبيلة قبيلة بقصيدته التي مطلعها:

ألا يا اسلمى يا هندُ هندُ بني بكر وإن كان حَيَّانا عَدَى آخر الدهر

لمناصبها الأمويين العداء من جهة، ولاقتحامها الجزيرة على قومه من جهة أخرى. ثم ختم بممالة الفرزدق ومهاجاة جرير. والأخطل وإن كان شديد التمسك بنصرانيته عل وثيق صلاته بالخلفاء، لم يشذ عن طبيعة العرب في الدين؛ فقد قال الأب لامنس اليسوعي في فصل كتبه عنه: "إن أثر النصرانية في دين الأخطل ضئيل، ونصرانيته سطحية ككل العقائد الدينية عند البدو" فهو يُدمن الخمر في حمى الدين، ويكثر الهجاء في حمى الخليفة، ويهاجم القبائل في حمى تغلب؛ ولكن هجاءه كان عفيف اللفظ يركب فيه متن الشطط ولا يتجاوز به حدود الخلق.

الفرزدق:

وأبو فراس همام ابن غالب الفرزدق الدارمي ثم التميمي، نشأ كذلك بالبصرة على قول الهجاء مع شرف أسرته وغنى قبيلته وعزة نفسه؛ فكان يهجو بني قومه لحدة طبعه وشراسة خلقه، فيشكونه إلى أبيه فيضربه. ثم لج في هجاء الناس حتى استعدوا عليه زياداً وإلى العراق لمعاوية، فطلبه ففر منه في مدن العراق وقبائله ثم لجأ إلى المدينة أخيراً واستجار بواليتها سعيد ابن العاص من زيادة فأجاره. فلما مات زياد عاد الشاعر إلى وطنه فشارك فيما وقع فيه من حروب وفتن بعد موت معاوية ويزيد، حتى مُني بمهاجاة جرير فشغلت فكره وملاّت عمره وصقلت شعره. وظلت هذه المهاجاة أربعين سنة ونيفاً كان منها

للناس مشغلة، وللسواس مهزلة. وللأدب العربي ثروة ضخمة من الشعر لا تخلو على سفاهتها وبذاءتها من جمال وحكمة.

جرير:

وكان جرير ابن عطية الخطفي التميمي قد قال الشعر كصاحبه في الحداثة الباكرة، وقاله مثلهما في الهجاء، ولكنه بدأ بالزجر على نحو ما يكون من الرعاة وهو منهم. وكان خمولى عشيرته وضعه أسرته وفقر أبيه وحدة خلقه من العوامل التي ساعدت الطبع على نبوغه في الشعر وتفوقه في الهجاء وكان أول من نازله وأفحمه غسان السليطي حين هجا قومه، فاستغاث السليطي بالبعيث فأغاثه وهجا جريراً، فنقض جرير قوله بالهجاء اللاذع، فناضل عنه الفرزدق لموجدة في نفسه على جرير؛ وتهاجى الشاعران التميميان من أجل ذلك. وفُضِّل الأخطلُ الفرزدقُ على جرير إما لدفاعه عن قيس، وإما لرشوة محمد ابن عمير إياه، فهجاه جرير. ثم نبهه الهجاء من كل مكان حتى نصب له من الأقران ثمانون شاعراً ظهر عليهم جميعاً إلا الفرزدق والأخطل فإنهما ثبتا له ونازعاه الغلبة. وانشعب الناس في أمر جرير والفرزدق شعبتين تناصر كل منهما أحد الشعارين. وكان بين الفرزدقين والجريريين ما بين العلويين والأمويين؛ يطلب كل منهم الغلبة لصاحبه بالدعاية والنكاية والرغبة والرغبة والحلق، يقوم الأولون بالمربد والآخرين بمقبرة بني حصن، وقد وقف الشعاران كلٌ بين أتباعه وأشياعه ينشدهم شعره وهم يكتبونه، والرواة ينشرونه؛ والأدباء والأمراء يتناولون ما يروي بالموازنة والنقد والحكم، والأنصار يحاولون رشوة الشعراء واستمالة العلماء ليحكموا لصاحبهم على خصمه؛ فقد روى صاحب الأغاني أن أحدهم تبرع بأربعة آلاف درهم وبفرس لمن يفضل الفرزدق على جرير. وليس أدل على اهتمام الناس بأمرهما واختلافهم في الحكم على شعرهما من أن يتهاون الجيشان المتقاتلان ساعة ليحكم أحد الخوارج الأدباء بين رجلين من رجال المهلب تنازعا في أمر جرير والفرزدق. فقد ذكر ابن سلام أن رجلين تنازعا في عسكر المهلب في جرير والفرزدق وهو بإزاء الخوارج، فصارا إليه فقال لا أقول فيهما شيئاً، وكره أن يعرض نفسه

لشرهما، ولكن أدلكما على من يهون عليه سخطهما: عبيد ابن هلال، وهو يومئذ في عسكر قطرى بن الفجاءة، فأتيا فوقها حيال المعسكر فدعواه فخرج يجر رمحه، وظن أنه دعي إلى المبارزة، فقالا له: الفرزدق أشعر أم جرير؟ فقال: عليكما وعليهما لعنة الله! فقالا: نحب أن نخبرنا ثم نصير إلى ما تريد. فقال من يقول:

وطوى القياد مع الطراد بطونها طي التجار يحضر موت برودا
قالا: جرير. قال: هو أشعرهما.

وهناك طائفة أخرى من شعراء العراق كعبيد الراعي وأبي النجم العجلي والراجز اتخذوا من الشعراء ظفراً وناباً مزقوا بهما الأعراض وأشاعوا هجر القول في الناس، ولكن أحدهم لم يبلغ من سطوة الشعر ونباهة الذكر ما بلغ جرير والفرزدق والأخطل، لأنهم كما قال أبو عبيدة: "أعطوا حظاً من الشعر لم يعطه أحد في الإسلام: مدحوا قوماً فرفعوهم، وذموا قوماً فوضعوهم، وهجأهم قوم فردوا عليهم فأنهضوهم، وهجأهم آخرون فرغبوا بأنفسهم عن جوابهم فأسقطوهم".

مذهب الأخطل والفرزدق وجرير في الهجاء:

مذهبهم في الهجاء هو المذهب المتبع والطرارز الغالب. على أنهم يتفاوتون فيه تفاوتهم في الطبقة والبيئة والطبع.

فالأخطل سيد في قومه، كريم في نسبه، نبيل في نفسه، يعاقر الخمر ويجالس الملوك ويحترم الدين ويحتمل في سبيله ضرب الأسقف وأذى السجن وإن كان لا يتعبد ولا يتزهد. ومن أجل ذلك كانت لغته في الهجاء كما ذكرنا من قبل لغة الخاصة، لا يسف إلى القبيح ولا يستعين بالمجازي، وإنما يهاجم القرن في صفات الرجولة فينفي عنه الكرم والبأس والمجد والصدق كقوله في تيم:

وكننت إذا لقيت عبيد تيم وتيما قلت أيهما العبيد!
لئيم العالمين يسود تيماً وسيدهم وإن كرهوا مسود

وكقوله في كليب بن يربوع:

بئس الصحاب وبئس الشرب شربهم إذا جرى فيهم المزاء والسكر
قوم تناهت إليهم كل مخزية وكل فاحشة سبت بها مضر
الآكلون خبيث الزاد وحدهم والسائلون بظهر الغيب ما الخبر
وأقسم المجد حقاً لا يحالفهم حتى يحالف بطن الراحة الشعر
ولعل أفحش هجائه قوله في قوم جرير:

قوم إذا استنبح الضيفان كلهم قالوا لأهمهم بولي على النار
فتمنع البول شجاً أن تجود به ولا تجود به إلى بمقدار
والخبر كالعبر الهندي عندهم والقمح خمسون أردباً بدینار

فترى أنه حتى في إقذاعه وإيجاعه لا يتدلى إلى ذكر المثالب الخاصة
والمعايب الفردية، وإنما يهاجم قبيلة الخصم كلها فيقاس بينها وبين قبيلته في
السمو إلى المعالي والسبق إلى الغايات، وفي ذلك يجد بلاغه ومدده، فلا
يضطر اضطرار جرير إلى ذكر الصغائر لتمامها للغلبة الدنيئة من أقرب طريق.
أنظر إلى قوله لجرير:

يا ابن المراغة إن عمِّي اللذا قتلا وفككا الأغلالا
وأخوهم السفاح ظمأ خيله حتى وردن جبي الكلاب نهالا
فانق بضأنك يا جرير فإنما متك نفسك في الخلاء ضلالا
متك نفسك أن تكون كدارم أو أن توازي حاجبا وعقالا
وإلى قوله له:

وقد شددت على المراغة سرجها حتى نزعنت وأنت غير مجيد
وعصرت نطفتها لتدرك دارماً هيهات من أمل عليك بعيد
وإذا تعاظمت الأمور لدارم طأطأت رأسك عن قبائل صيد

وإذا عددت بيوت قومك لم تجد بيتاً كبيت عطارد ولييد

فإذا نظرت إلى ذلك وجدت أن هجاءه أقرب ما يكون إلى المنافرة والفخر. ومن الواضح أن هذا الهجاء العفيف المترفع وإن أمض لا يجرى مع هجاء جرير في ميدان، ولا يستوي وإياه عند العامة في ميزان، فكيف إذا اجتمع إلى ذلك خمود الشيوخوخة في الأخطل وحدة الشبية في جرير؟ إن جريراً نفسه قد علل وناء خصمه عنه في آخر الشوط بكبر سنه، فقد قال: " أدركته وله ناب واحد، ولو أدركته وله نابان لأكلني ". وقال في قصيدته النونية التي هجاها الأخطل على أثر تفضيله الفرزدق عليه:

جارت مطلع الرهان بنا به روق شبيته وعمرك فان

وإذا استثنينا هجاء الأخطل لجرير وجدنا أشهر أهاجيه إنما قالها في أغراض قومية أو أساسية. ومن تلك الأهاجي المأثور قصيتان تلخصان مذهبه وتصوران فنه: الأول في هجاء القبائل القيسية ومطلعها:

ألا يا اسلمي يا هندُ هندُ بني بكر وإن كان حيانا عدى آخر الدهر

والأخرى في مدح عبد الملك ابن مروان وذم خصومه ومطلعها:

خف القطين فراحوا منك أو بكروا وأزعجتهم نوى في صرفها غير

ومنها:

بني أمية إنني ناصح لكم فلا يبين منكم منا زفر

فإن مشهده كفر وغائلة وما يغيب من أخلاقه وعر

إن العداوة تلقاها وإن كنت كالعر يكمن حيناً قم ينتشر

أمية قد ناضلت دونكم أبناء قوم هم آووا وهم نصروا

وقبس عيلان حتى أقبلوا رقصاً فما يعوك جهاراً بعد ما كفروا

ضحوا من الحرب إذا عضت غواربهم ويس عيلان من أخلاقها الضجر

والأخطل لنصرانيته لم يستطع أن يتخذ من الإسلام سبباً للفخر ولا مادة للهجاء، فاكتمى بذكر مناقب آبائه ومثالب أعدائه. على أنه يستغل أحياناً بعض ما أنكر الإسلام فيهجوه به وإن كان هو يستبيحه: كقوله في الأنصار برميهم بشرب الخمر:

قوم إذا هدر العصير رأيتهم حمراً عيونهم من المطار
وكقوله في كتيب ابن يربوع:

بئس الصحاب وبئس الشرب شربهم إذا جرت فيهم المزاء والسكر

* * * * *

أما الفرزدق فهو كالأخطل في الذؤابة من قومه، إلا أنه كان صريح العداوة فلا يوارى، فاحش الدعابة فلا يحتشم، شديد الدعارة فلا يتعفف، حاد البادرة فلا بتلطف: فهو في هجائه يذكر العورات، ويعلن المحزيات، بألفاظها العارية وأسمائها الصريحة حتى ليستحي الشاب أن ينشدها، بله الفتاة الخفرة. وما أظن البداوة وضيق الخلق وسلطنة اللسان وفجور النفس هي كل السباب التي أوجدت هذا الهجاء السوقي الوقح، فإن الحطيئة ومن سبقه على اتصافهم بهذه الأوصاف لم يسفوا هذا الإسفاف، فلا بد أن يكون لحياة العراق في ذلك العهد أثر قوي في ذلك. فالخلق العربي القوي قد وهت وأصره باتصال البدو بالحضور واختلاط العرب بالعجم؛ والوازع الجيني قد ضعف بتغلب الأحزاب وضعف العصبية؛ والسلطان السياسي يغمض جفنيه، ويضحك ملء شذقيه، من هذه المهازل التي يمثلها الشعراء والقبائل بالبصرة. أقول القبائل لأن القبيلة كانت من وراء شاعرها تحتال لانتصاره بالمال والقتال والرعاية. وربما يأتي كل رجل منهم بالبيتين والثلاثة فيرفد بها الشاعر كما فعلت تيم في مهاجاة شاعرها عمر ابن لجأ لجريـر. وكان أفحش الهجاء هجاء الفرزدق في جرير، فهو يرمي قومه بضعة النسب، وضعف الحيلة، واتخاذ الغنم، ورعي الإبل، وإتيان الأتن، ويفتن في هذه المعاني افتناناً عجيباً: يردها في كل قصيدة على صور مختلفة وأساليب شتى، ولا يتحرج أحياناً من افتعال الحوادث المضحكة

إمعاناً في السخر من المهجو والنيل منه. وهذا غاية ما وصل إليه الهجاءون وأهل التنادر في عصور الترف والخلاعة. وأدهى من ذلك أن يقذف خصمه بنوع من السباب الدنيء الذي لا يعتقده هو لا يصدق الناس، إنما يعتمد إليه مبالغة في التحقير والتشهير على نحو ما يعمل الرعاع في الطبقات الوضيعة، وذلك ما لم نعهده في الهجاء من قبل، إذ كان الشاعر يرى جهة المحاسن في المرء فيمدح، أو جهة المساوئ فيه فيذم، وهو في كلتا الحالين صادق.

وقد يتدلى الفرزدق في الهجاء إلى الدرك الذي لا نسيغه رجولة، فينقض رثاء جرير⁽¹⁾ لامراته بهجائها المقذع، دون أن يرعى للميت حرمة ولا للمرأة كرامة، كقوله:

كانت منافقة الحياة وموتها	خزي علانية عليك وعار
فلئن بكيت على الأتان لقد بكى	جزعاً غداة فراقها الأعيار
تبكي على امرأة وعندك مثلها	قعساء ليس لها عليك خمار
وليكيفينك فقد زوجتك التي	هلكت موقعة الظهور قصار
إن الزيارة في الحياة ولا أري	ميتاً إذا دخل القبور يزار

ورأى الفرزدق في المرأة يدل على جفاء طبع وسوء أنفه، وربما دل أيضاً على منزلتها في المجتمع العربي في ذلك العهد. ولا نستنبط ذلك من قوله في زوجة جرير فقد يكون للخصومة بعض الأثر في سوئه، وإنما نستنبطه من قوله في زوجته هو حين ماتت:

يقولون زر حدراء والترب دونه	وكيف بشيء وصله قد تقطعا
ولست وإن عزت على بزائر ظ	تراباً على مرسومه قد تضعضعا
وأهون مفقود إذا الموت ناله	على المرء في أصحابه من تقنعا

(1) وهي القصيدة التي مطلعها:

لولا الحياء لهاجني استعبار ولزرت قبرك والحييب يزار

يقول ابن خنيزر بكيت ولم تكن على امرأة عيني إخال لتدمعا
وأهون رزء لامرئ غير عاجز رزية مرتج الروادف أفرعا

على أن طبيعة المهاجاة مع جرير، شهوة الغلبة عند العامة، ونفاد المعاني في الهجاء على طول المدة، وبلادة الحسن وهوان النفس باعتياد الدم، قد دعت الفرزدق كما دعت جريراً إلى التدرج في الإقذاع والبذاء، حتى خرج شعرهما في النقائص على قوته وجودته عن الحد المألوف بين السفلة. ولكن الفرزدق مع تبذله كان يصيخ أحياناً إلى وازع الدين لتشيعة فيتوب عن قرض الشعر، ويكف عن هجاء الناس، ويقيد نفسه ليحفظ القرآن ويقول:

ألم ترني عاهدت ربي وأنا نبي لبين رتاج قائماً ومقام
على قسم لا أشتم الدهر مسلماً ولا خارجاً من في سوء كلام

أو يستجيب إلى داعي الشرف لحسبه فيصدر في الهجاء عن طبع أبي ونفس كريمة، فتسمو معانيه ونعف ألفاظه، كقوله في معاوية قد حبس عنده مالا لأحد أعمامه بعد وفاته:

أبوك وعمي يا معاوي أورثا تراثا فيحتاز التراث أقاربه
فما بال ميراث الحثات أخذته وميراث حرب جامد لك ذائبة
فلو كان هذا الأمر في جاهلية علمت من المرء القليل حلائبه
إلى أن يقول:

وما ولدت بعد النبي وأهله كمثلي حصان في الرجال يقاربه
وكم من أب لي يا معاوي لم يزل أغر يباري الريح ما أزور جانبه
نمته فروع المالكين ولم يكن أبوك الذي من عبد شمس يخاطبه

* * * * *

أما الطامة الكبرى فهي جرير، لأنه كان مرسل العنان مطلق اللسان لا يعوقه قيد ولا تكبحه شكيمة. فلا هو صاحب سياسة كالأخطل، ولا صاحب

نحلة كالفرزدق، ولا وارث مجادة كالاثنين، وإنما كان سوقياً تزعيه رزقه الله حدة الذهن ورقة الأسلوب وخبث اللسان، وزاده الهراش صلابة عود، وغزارة فكر، ومثانة شعر، وسهولة قافية، فبلغ بالهجاء الفردي والقبلي غايته في الإقذاع والإقناع والقوة. وربما كان أول من أكره الشعر على قبول الأساليب العامة المبتذلة في الهجاء كذكر العورات وهتك المحارم، فاضطر خصومه إلى أن يكلموه باصطلاحه، ويقاتلوه بسلاحه، وأصبح بعده الهجاء في العراق لا يفعل في النفوس إلا مشوباً بهذا القذر. وما مهاجاة بشار وحماد إلا صورة من هجاء جرير والفرزدق.

كان جرير لعاميته وبيئته، وللأسباب التي ذكرناها من قبل في معرض الكلام عن الفرزدق، يصطنع في الهجاء أساليب الدهماء، فيغير الأخطل بالقلق والخنزير والسكر؛ ويقذف البعيث في أمه وهي أمة سجستانيه؛ ويهاجم الفرزدق في جدته فيتهمها بجير القين، وفي أخته جعثن فيرميها بابتذال بني منقر إياها على إثر حادثته مع ظمياء بنت طلحة حفيدة قيس ابن عاصم، ويشهر بقومه في إخفار عمرو ابن جرموز لذمتهم في قتل الزبير، ثم يتسقط عيوبه الصغيرة وهفواته الدنيا فيجسمها بالمبالغة والتزيد، كضربته النابية للرومي، وزيجته القالية من نوار.

وكان الفرزدق يذهب في هجائه مذهب الفخر بآبائه فيعدد أيامهم الظافرة، ويجدد مفاخرهم الغابرة، فلا يستطيع جرير مجاراته في هذا المضمار فيعمد إلى نقض الفخر الصلف بالسخرية اللاذعة والفحش الموجه. وإذا أخذ جرير هذا المأخذ لا يقام له. اقرأ على سبيل المثال قصيدة الفرزدق التي مطلعها:

إن الذي سمك السماء بنى لنا بيتاً دعائمه أعز وأطول
تجده يقول بعد هذا البيت:

بيتاً زارة محتب بفنائمه ومجاشع وابو الفوارس نهشل
لا يحبني بفناء بيتك مثلهم أبداً إذا عد الفعال الأفضل

فيجيبه جرير في نقيضته لها:

أخزى الذي سمك السماء مجاشعاً وبنى بناءك في الحضيض الأسفل
بيتاً يحمم فينكم بفنائمه دنساً مقاعده خبيث المدخل
قتل الزبير وأنت عاقد حبة تباً لحبوتك التي لم تحلل
وأفاك غدرك بالزبير على منى ومجر جعثكم بذات الحرمل
بات الفرزدق يستجير لنفسه وعجان جعثن كالطريق المعمل
ويقول الفرزدق:

حلل الملوك لباسنا في أهلنا والسباغات إلى الوغي تسربل
فيجيبه جرير:

لا تذكروا حلل الملوك فإنكم بعد الزبير كحائض لم تغسل
ويقول الفرزدق:

أحلامنا تزن الجبال رزانة وتخالنا جنأ إذا ما نجهل
فادفع بكفك إن أردت بناءنا ثهلاً ذو الهضبات هل يتحلحل؟
خالي الذي غصب الملوك نفوسهم وإليه كان جباء جفنة ينقل
إننا لنضرب رأس كل قبيلة وأبوك خلف أتاناه يتقمل
فيجيبه جرير:

كان الفرزدق إذ يعوذ بخاله مثل الذليل يعوذ تحت القرمل
وافخر بضبة إن أمك منهم ليس ابن ضبة بالعم المخول
أبلغ بني وقبان أن حلومهم خفت فلا يزنون حبة خردل
أذري بحلمهم الفياش فأنتم مثل الفراش عشين نار المصطفى
ويقول الفرزدق:

وهب القصائد لي النوابع إذ مضوا وأبو يزيد وذو القروح وجرول
ثم يمضي يعدد الشعراء الفحول ويقول:

دفعوا إلى كتابهن وصية فورثهن كأنهن الجندل
فيجيبه جرير:

أعددت للشعراء سماً ناقعاً فسقيت آخرهم بكأس الأول
لما وضعت على الفرزدق ميسي وصغى البعيث جدعت أنف الأخطل
حسب الفرزدق أن يسب مجاشع ويعد شعر مرقش ومهلهل

فأنت تلاحظ أن جريراً يرغب في الطريق السهل، ويطفئ حرارة الجد
برودة الهزل، ويقابل الكمي الهاجم في سلاحه ولأتمته، وهو في ثوب المهرج
وبزته وضحكته.

ولجرير قدرة بارعة على تتبع الخصم في حياته الخاصة والعامة، فيتسقط
أخباره، ويتلقط حوادثه، ثم يعلنها في شعره تشهيراً به وفضيحة له:
يتزوج الفرزدق من حدراء بنت زيق ابن بساط على حكم أبيها، فيقول
جرير:

يا زيق قد كنت من شيان في حسب يا زيق ويحك من أنكحت يا زيق
أنكحت ويلك قينا في أسته حمم يا زيق ويحك هل بارت بك السوق
يا رب قائلة بعد البناء بها: لا الصهر راض ولا ابن القين معشوق

فيقبل أهلها عليه ويقولون له: ماتت، كراهة أن يهتك أعراضهم جرير.
فيأتي جرير إلا أن يعلن الحقيقة في قوله:

وأقسم ما ماتت ولكنما التوى بحدراء قوم لم يروك لها أهلا
ويعبث الفرزدق في المدينة عبث الشباب ويعترف بذلك في قوله:

هما دلتاني من ثمانين قاماً كما أنقض باز أقتم الريش كاسره
فيقول له جرير:

تدليت تزني من ثمانين قامه وقصرت عن باع العلا والمكارم

ويضرب الرومي في حضرة سليمان ابن عبد الملك فينبو عنه سيفه فيقول به جرير:

سيف أبي رغوان سيف مجاشع ضربت ولم تضرب بسيف ابن ظالم
ومثل هذا الأخبار لطرافتها وجدتها تعلق بالنفوس وتسير على الألسنة،
كصحف الأحزاب تجعل من حياة خصومها اليومية مادة لجدها، موضوعاً
لنقدها ونضالها. وجرير لطول ما تمرس بالهجاء وغامر في الخصومة لاذع
السخرية، فاحش الدعابة، مر التهكم، ومن ذلك كان يتصور الفرزدق ويمتقع
لونه كلما وردت المربد قصيدة لجرير. وأي تهكم أمض وآلم من مثل قوله:

يا تيم إن بيوتكم تيمية قعس العماد قصيرة الأطناب
قوم إذا حضر الملوك وفودهم نتفت شواربهم على الأبواب
وقوله:

زعم الفرزدق أن سيقتل مربعاً أبشر بطول سلامة يا مربع!
وقوله:

والتغلبى إذا تنحنح للقرى حك أسسته وتمثل الأمثالا
وقوله:

فخل الفخر يا ابن أبي خليلد وأد خراج رأسك كل عام
لقد علقت يمينك رأس ثور وما علقت يمينك باللجام

وكان الهجاء كان في جرير غريزة يرمي الناس عنها لأدنى سبب وعلى غير
معرفة، فقد دخل على الوليد ابن عبد الملك وعنده عدى ابن الرقاع العاملي،
فقال له الخليفة: أتعرف هذا؟ قال: لا يا أمير المؤمنين. فقال: هذا رجل من
عاملة. قال جرير: التي يقول فيها الله: ﴿عَامِلَةٌ نَاصِبَةٌ﴾ ﴿تَصَلَّى نَارًا حَامِيَةً﴾
[الغاشية: 3 - 4]، ثم قال بيتاً قبيحاً ورد عليه عدي بمثله فهجاه جرير بقصيدة
منها ذلك البيت المشهور:

وابن لبون إذا مالز في قرن لم يستطع صولة البُزل القناعيس

ولعل ذلك راجع إلى ميل في طبع أمه إلى هذا الضرب من البذاء والإيذاء فاشتتت أن تراه فيه، حتى صورت لها تلك الأمنية في الحلم، فرأت وهي حامل به أن حيلة نزل منها فصار يثب على الناس فيخنقهم واحداً بعد واحد. فلما تأولت رؤياها قيل لها إنك تلدين ولداً يكون شديد الهجاء والبلاء على الناس والشعراء، فسمته لذلك جريراً. وسواء أرأت أمه هذه الرؤيا أم أفترتها؛ فقد كان لها ولا ريب أثر قوي في توجيه قريحته منذ طفولته.

وهجاء جرير على الجملة ضعيف الفخر لبعده مستقاه فيه، وما استطاع الفرزدق أن يعجزه إلا في مشواره، فهو يقول له بحق:

غلبتك بالمفقاء والمعنى وبيت المحتبى والخافقات
يريد بالمفقاء أو المفقى قوله:

ولست ولو فقت عينك واجداً أبا لك إن عد المساعي كدارم
وبالمعنى قوله:

وإنك إن تسعى لتدرك دارماً لأنت المعنى يا جرير المكلف
وبالمحتبى قوله:

بيتاً زارة محتب بفنائيه ومجاشع وأبو الفوارس نهشل
وبالخافقات قوله:

وأين تقضي المالكات أمورها بحق وأين الخافقات اللوامع
والفرزدق يريد بهذه الأبيات الإشارة إلى القصائد التي تضمنتها وهي من عيون شعره ومتين فخره.

وضعف جرير في الفخر إنما يرجع إلى الموضوع لا إلى الأسلوب، فإنه أجمل خصومه صياغة، وأوفرهم بلاغة، وأرقهم لفظاً، وأظفهم مدخلا، وأكثرهم افتناناً. ولسهولة شعره وقلة غريبه نفق عند العامة والشعراء، دون الرواة والعلماء.

وهجاء هؤلاء الأقران الثلاثة إذا استثنينا منه المعاني الجديدة واللهجة الشديدة والتصوير البارع، لم يخرج عن سمت الهجائيين الفحول كالمخبل الفريعي، وحسان ابن ثابت، والحطيئة، في الابتداء بوصف الطلل والعزل، والاعتماد على المفارقة والمنافرة، وتلمس العيوب من خبايا الماضي، والانتقال المقتضب من معنى إلى معنى. وأشد ما يعيب هجاء جرير والفرزدق كثرة التكرار، فإن كلا الزجلين إنما يهجو صاحبه بطائفة من الحوادث والصفات ذكرناها من قبل، فلا تراه يعدل عنها، ولا يكاد يزيد عليها، وإنما يرددها في كل قصيدة أو نقيضة في أساليب شتى وقواف مختلفة. فإذا قرأنا لكل واحد منهما واحدة منهن لا يضيرنا بعدها ألا نقرأ غيرها. كذلك إذا ألمنا بهجاء الأخطل والفرزدق وجرير فقد ألمنا بسائر الهجاء في هذا الطور، لأنه مصنوع من مادته ومضروب على مثاله.

على أن أساليب شعراء العراق في الهجاء الحزبي تختلف عنها في الهجاء الفردي، فبينما هم في هذا لا يترفعون عن الهجو ولا يتورعون عن الكذب تراهم في ذلك يذهبون مذهب الجاهلين، فيفاخرون بالنسب، ويتكاثرون بالعدد والمال، ويؤثرون اللفظ الشريف والأسلوب العف، بيد أنهم يغلون في الفخر حتى يجعلونه في الدين والحكم والعلم والموطن.

قال أعشى همدان وهو من أنصار ابن الأشعث:

أكسع البصرى إن لاقيته	إنما يكسع من قل وذل
واجعل الكوفي في الخيل ولا	تجعل البصرى إلا في النفل
وإذا فاخرتمونا فاذكروا	ما فعلنا بكم يوم الجمل
بين شيخ خاضب عشونه	وفتى أبيض وضاح رفل
جاءنا يخطر في سابعة	فذبحنه ضحى ذبح الحمل
وعفونا فنسيتم عفونا	وكفرتم نعمة الله الأجل

ومن هجائه السياسي الديني قوله مرتجزاً في الحجاج:

شعلت نوى من داره بالإيوان إيوان كسرى ذي القرى والريحان

إن ثقيفاً منهم الكذابان كذابها الماضي وكذاب ثان
 أمكن ربي من ثقيف همدان إنا سمونا للكفور الفتان
 حين طغى بالكفر بعد الإيمان بالسيد الغطريف عبد الرحمن
 سار بجمع كالدبي من قحطان فقل لحجاج ولي الشيطان
 يثبت لجمع مذحج وهمدان فإنهم ساقوه كأس الذيفان

وملحقوه بقرى ابن مروان

وهذا النوع من الهجاء قليل النفوق والبقاء، كثير النفاق والرياء، لطمع الشعراء في حياء الخلفاء وإيثارهم في الغالب سلامة البدن على سلامة العقيدة. وليس الهجاء الحزبي إلا صورة من صور الشعر السياسي الذي نفق في هذا العصر. وما نزعهم بهذه التسمية أن الإسلاميين قد وقعوا على مذهب في الشعر جديد القصد والغاية، فإن مساجلة الخصوم بالشعر كانت مألوفاً في عصر الجاهلية مشروعة في عهد النبوة؛ إنما نقصد بالشعر السياسي طائفة من المعاني الجديدة استوحشتها خواطر الشعراء من اختلاف الأحزاب في الرأي، وتنازع الزعماء على الحكم. جاءت هذه المعاني الجديدة على النهج القديم في صور مختلفة، نستطيع أن نردها إلى أربع:

1 - في صورة المدح المشوب بالتحريض والتعريض كقول أبي العباس

الأعمى:

أبني أمية لا أرى لكم شبهاً إذا ما التفت الشيع
 سعة وأحلاماً إذا نزعت أهل الحلوم فضرها النزع
 أبني أمية غير أنكم، والناس فيما أطمعوا طمعوا.
 أطمعتمو فيكم عدوكمو فسما بهم في ذاكم الطمع
 فلو أنكم كنتم لقومكم مثل الذي كانوا لكم رجعوا
 عما كرهتم أو لردهم حذر العقوبة، إنها تزع

وكقول الكمي:

بني هاشم رهط النبي فإنني بهم ولهم أرضى مراراً وأغضب
خففت لهم مني جناحي مودة إلى كنف عطفاه أهل ومرحب
وأرمني وأرمني بالعداوة أهلها وإنني لأؤذي فيهم وأؤنب

وكفة الأمويين في هذا الباب أرجح، لما تجمع لهم من الترغيب في المال، والترهيب بالملك، والتخليق لهوى النفوس، فمدحهم ونصرهم أكثر الشعراء في عصرهم، إما دفعاً لشهرهم، وإما طمعاً في خيرهم، حتى الذين شايعوا خصومهم من الزبيريين والعلويين لم يستطيعوا حبس لعابهم عن عطايا القصر.

2 - وفي صورة الهجاء كما مر، وكما قال أعشى ربيعة لعبد الملك:

آل الزبير من الخلافة كالتى عجل التاج بحملها فأحالتها
أو كالضعاف من الحمولة حملت ما لا تطيق فضيعة أحمالها
قوموا إليهم لا تناموا عنهم كم للغواة أطلتم إمهالها
إن الخلافة فيكمو لا فيهم ما زلتم أركانها وئمالها
أمسوا على الخيرات قفلاً مغلقاً فانهض بيمينك فافتح أقفالها

3 - وفي صورة اقتراح لسياسة واستطلاع الرأي، كقول مسكين الدارمي، وقد أوعز إليه معاوية أن يقترح البيعة من بعده لابنه يزيد ليعلم رأي قومه في ذلك:

إليك أمير المؤمنين رحلتها تثير القطا ليلاً وهن هجود
ألا ليت شعري ما يقول ابن عامر ومروان أم ماذا يقول سعيد
بني خلفاء الله مهلاً فإنما يبوئها الرحمن حيث يريد
إذا المنبر الغربي خلاه ربه فإن أمير المؤمنين يزيد

فلما أتم إنشاده قال له معاوية: ننظر فيما قلت يا مسكين ونستخير الله.

ومثل ذلك حدث من عبد الملك، فقد أراد أن ينقل ولاية العهد من أخيه عبد العزيز إلى ابنه الوليد، فأمر النابغة الشيباني أن يقترح ذلك في حضرة الناس فقال:

لأبنك أولى بملك والده ونجم من قد عصاك مطرح
داود عدل فاحكم بسيرته تم ابن حرب فإنهم نصحوا
وهم خيار فاعمل بسنتهم واحي بخير واكده كما كدحوا
فابتسم عبد الملك ولم يتكلم، فعلم الناس أن ذلك أمره.

4 - ثم في صور جدل في رأي أو بيان لمذهب؛ فمن الجدل السياسي ما وقع بين كعب ابن جعيل والنجاشي في المفاضلة بين علي ومعاوية، فقد قال كعب:

أرى الشام تكره ملك العراق وأهل العراق لهم كارهينا
وكل لصاحبه مبغض يرى كل ما كان من ذاك دينا
وقالوا على إمام لنا فقلنا رضينا ابن هند رضينا
وقالوا نرى أن تدينوا لهم فقلنا لهم لا نرى أن ندينا
وكل يسر بما عنده يرى غث ما في يديه سمينا
وما في علي بمستعتب ينال سوى ضمه المحدثينا
وليس براض ولا ساخط ولا في النهاية ولا الأمرينا
ولا هو ساء ولا هو سر ولا بد من بعد ذا أن يكونا
فلما بلغ ذلك الإمام علياً أمر النجاشي أن يجيبه فقال:

دَعَنْ معاوي ما لم يكونا لقد حقق الله ما تحذرونا
أناكم علي بأهل العراق وأهل الحجاز فما تصنعونا؟
يرون الطعان خلال العجاج وضرب الفوارس في النقع دينا

همو هزموا الجمع جمع الزبير وطلحة والمعشر الناكثينا
فإن يكره القوم ملك العراق فقدا رضينا الذي تكرهونا
فقولوا لكعب أخى وائل ومن جعل الغث يوماً سمينا:
جعلتم علينا وأشياعه نظير ابن هند ألا تستحونا؟

ومن البيان المذهبي قول كثير عزة يشرح عقيدة الشيعة في الإمامة:

ألا إن الأئمة من قریش ولالة الحق أربعة سواء:
علي والثلاثة من بنیه هم الأسباط ليس بهم خفاء
فسبط سبط إيمان وبر وسيط غيبته كربلاء
وسبط لا يذوق الموت حتى يقود الخيل يقدمها اللواء
تغيب لا يرى فيهم زماناً برضوى عنده غسل وماء

وكقول ثابت قطنة، وهو من شعراء الأمويين، يفصل مذهب الإرجاء:

يا هند فاستمعي لي إن سيرتنا أن نعبد الله لم نشرك به أحدا
نرجى الأمور إذا كانت مشبهة ونصدق القول فيمن جار أو عندا
المسلمون على الإسلام كلهم والمشركون استبوا في دينهم قددا
ولا أرى أن ذنبا بالغ أخداً في الناس شركا إذا ما وحدوا الصمد
إلى أن قال:

كل الخوارج مخط في مقالته ولو تعبد فيما قال واجتهدا
أما علي وعثمان فإنهما عبدان لم يشركا بالله مذ عبدا
الله أعلم ما قد يحضران به وكل عبد سيلقى الله منفردا

هذه جملة المعاريض التي عرضت بها المعاني السياسية. ولعلك تلاحظ من هذه الأمثلة أنها في الغالب مهلهلة النسيج، نائية القافية، بادية التكلف، تشبه من بعض الوجوه نظم المتنون في الشعر التعليمي. وعلة ذلك أن اتصالها

بالوجدان ضعيف، وأن أكثرها إنما يصدر عن طبع مكره، أو شعور ممالق، أو قريحة كابية. والفرق بين شعر الأخطل والفرزدق وجريز، وبين شعر هؤلاء الذين ذكرنا كالفرق بين من يعبر عن شعوره وحسه، ويدافع عن قبيله ونفسه، وبين من يتصل لسانه بقلب غير قلبه، ويدفعه طمعه إلى ممالأة حزب غير حزبه.

على أن من شعراء الأحزاب من قالوا الشعر عن عقائد دينية، وعواطف نفسية، ونوازع عصبية، فكان لشعرهم جمال الإخلاص وروعة اليقين وقوة الحقيقة، أولئك هم شعراء الشيعة والخوارج. فحق علينا ونحن في مقام البحث في شعراء العراق أن نديم النظر ساعة في أشعارهم، لنستشف من خلالها صور مذاهبهم وأفكارهم.

شعر الشيعة:

ورث علي ابن أبي طالب بحكم مولده ومرباه مناقب النبوة، ومواهب الرسالة، وبلاغة الوحي؛ وصراحة المؤمن، وبسالة المجاهد، فأجمع الناس على إجلاله وكادوا يطبقون على حبه. حتى من كتب عنه من الأوربيين قد شاركوا المسلمين في هذه العاطفة؛ فقد قال فيه الكاتب الإنجليزي كارليل: "أما ذلك الفتى علي فلا يسعك إلا أن تحبه. ركب الله في طبعه النبل منذ الحداثة، وتجلي في خلاله الكرم طوال عمره، ثم طبعه على اعمل ونفاذ الهمة وصراحة البأس، وآتاه سر الفروسية وجرأة الليث، وكل أولئك في رقة قلب وصدق إيمان وكرم فعال تليق بالفروسية المسيحية". ثم سار علي في خصومته وخلافته وسياسته على ضوء هذه الأخلاق، فما فارق الأثرة، ولا حاول الفرقة، ولا راقب الفرصة، ولا أثار العصبية، ولا استخدم المال، وإنما أخلص النية للعمرين، ومحض النصيحة لعثمان، وأعذر بالحجة لمعاوية. ولكن دنيا الفتوح كانت قد أخذت على عهده تتجاهل دين البساطة والزهد، ولم تعد السياسة الدينية وحدها قادرة على كبح النفوس المفتونة بمال معاوية في الشام، وثور الرافدين في العراق، فانتشر أمره وانصدعت خلافته، ثم قتل مظلوماً في محرابه؛ فكان محياه ومماته تاريخاً دامياً للفضيلة المعذبة والنفس المطمئنة

الشهيدة. ثم روت بنيه وأهليه ذلك العزم الثائر وهذا المجد العاثر، فدب الموت للحسن سرّاً في كاس مذعوفة، وقتل الحسين قتلة لا يزال يرعد من هولها الدهر.

وتلاحقت الفواجع الأموية فصرع زيد وقتل يحيى، وافتنت المنايا الرواصد في اختلاج بني علي، وهم يقابلون هول الغوائل الظاهرة والباطنة بالشجاعة والصبر والاحتساب، حتى أسفرت حول وجوههم طفاوة من التنزيه والتقديس وتخللت محبتهم قلوب المسلمين، ولا سيما الشيعة، فإن ندمهم على خذلانهم إياهم، وألمهم لما رأوا من اضطهادهم وأذاهم، رفعاً في نفوسهم ذلك الحب حتى أشرفا به على مقام العبادة. ثم ظهر ذلك الحب في صور من العقائد: فقالوا بالوصية، وجعلوا الإمامة من أصول الدين، وحصروها في علي وبنيه، وطعنوا في إمامة الشيخين. ولم يتهياً لهم السلطان، ولم تسعفهم القدرة، فاعتمدوا على استمالة القلوب وترقيقها بالبكاء والندب، وتصوير الآلام، وإعلان الفضائل، فاصطبغ شعرهم بالحزن العميق، والرثاء النائح، والمدح المبتهل، والعصبية الحاقدة. على أن هذه الخصائص لم تكن واضحة في شعر أوائل الشيعة وضوحها في شعر الأواخر منهم: فإن تغلغل الفكرة في أصل العقيدة، وتنكيل الحاكمين بآل البيت، واضطهاد الولاة للشيعة، إنما تدرجت قسوة وقوة مع الزمن، فضلاً عن قلة شعراء الشيعة في هذا العصر لإفساد الأمويين الضمائر بالحديد والذهب، فشعرهم بدأ ولاء صادقاً، ومدحاً خالصاً، وهجاء مرأً، ثم اشتد فصار مفاضلة جريئة، ومعارضة شديدة، ومناقشة فقهية، ودعاية حزبية. ولعل ذلك يتجلى لك فيما ذكرناه وفيما سنذكره من الأمثلة. فمن التعبير عن العاطفة القوية الساذجة قول أبي الأسود الدؤلي:

يقول الأردلون بنو قشير	طوال الدهر لا تنسى علياً!
بنو عبد النبي وأقربوه	أحب الناس كلهم إلياً
أحبهم كحب الله حتى	أجيء إذا بعثت على هويأ
فإن يك حبهم رشداً أصبه	ولست بمخطئ إن كان غيأ

ومن المدح والمفاضلة قول أيمن ابن خزيم الأسدي:

نهـاركم مكابـدة وصوم وليـلكم صـلاة واقتـراء
أأجمـعكم وأقواماً سـواء وبيـنكم وبيـنهم الهـواء
وهـم أرض لأرجلكم وأنتم لأرؤسهم وأعيـنهم سـماء
ومن الهجاء قول ابن مفرغ الحميري:

ألا أبلغ معاوية ابن صخر مغلغلة من الرجل اليماني
أتغضب أن يقال أبوك عف وترضى أن يقال أبوك زاني؟
فاشهد إن رحمك من زياد كرحم الفيل من ولد الأتان
وأشهد أنها ولدت زيادا وصخر من سمية غير داني

وقول عبد الله ابن هشام السلولي في يزيد ابن معاوية:

حشينا الغيظ حتى لو شربنا دماء بني أمية ما روينا
لقد ضاعت رعيـتكم وأنتم تصيدون الأرانـب غافـلينا

ومن المناقشة الجدلية قول الكميت في الخلافة:

يقولون لم يورث ولولا تراثه لقد شركت فيه بجيل وأرحب
ولا انتشلت عضوين منها يحابر وكان لعبد القيس عضو مؤرب
فإن هي لم تصلح لحي سواهم إذن فذوو القربى أحق وأقرب
فيالك أمراً قد تشئت جمعه وداراً ترى أسبابها تتقضب
تبدلت الشرار بعد خيارها وجد بها من أمة وهي تلعب!

ويكاد الكميت بن زياد الأسدي بقصائده الهاشميات يكون الشاعر الفذ لبني هاشم؛ فقد مدحهم واحتج لهم ودافع عنهم بلسان صادق واعتقاد خالص ونفس جريئة وقريحة سمحة. ولما أهدر هشام ابن عبد الملك دمه لجأ على ما أرجح إلى التقية في شعره على عادة الشيعة، فقال من كلمة يمدحه فيها:

فالآن صرت إلى أمية والأُمُور إلى المصاير
يا ابن العقائل للعاقل والجحا جحة الأخابر
من عبد شمس والأكابر من أمية فالأكابر
لكم الحلافنة والإلاف برغم ذي حسد وواغر

ومهما يقل الكميت فإن عاطفة شعراء الشيعة ستظل كما قلنا مكظومة بالطمع والخوف حتى تنبجس في عد بني العباس نفثات غيظ، وحسرات حزن، وعبرات ألم في شعر السيد الحميري، ودعبل الخزاعي، وديك الجن، ومطيع ابن إياس، وأبي الشيص، والعكوك، وأضرابهم.

شعر الخوارج:

وأما الخوارج - وجمهرتهم من البدو الجفأة والسذج - فقد قام أمرهم على الصلابة في الرأي، والمكابرة في القول، والاشتطاط في الحكم، والتشدد في الدين، والغلو في العبادة، والقسوة في المعاملة، والاعتماد على الحرب. شايعوا علياً وآزروه حتى قبل التحكيم، فقالوا له: حكمت الرجال ولا حكم إلا الله! ثم خرجوا عليه وأبوا أن يرجعوا إليه إلا إذا أقر على نفسه بالكفر، ونقض ما عاهد معاوية عليه. فأبى عليهم ما سألوا، وأوقع بهم يوم النهروان، فزاد ذلك في حنقهم وخلافهم له، فاثمروا به واغتالوه. واستعرضوا أعمال الخلفاء وعقائد الناس، فخطأوا بعضاً وكفروا بعضاً. ثم ذهبوا إلى أن الخلافة تصح في غير قريش وفي غير العرب، وأن العمل جزء من الإيمان، فحرصوا كل الحرص على أداء الشعائر واجتناب الكبائر، ولاذوا بكور الجبال يدعون جهراً إلى مذهبهم دون موارد ولا تقية ولا هودة؛ فكانوا في الدين كما قال صاحبهم أبو حمزة الشاري: "أنضاء عبادة وأطلاح سهر. قد أكلت الأرض أطرافهم، واستقلوا ذلك في جنب الله. فإذا كان الجهاد ورعدت الكتيبة بصواعق الموت، استخفوا بوعيد الكتيبة لوعيد الله، ومضى الشاب منهم قدماً حتى اختلفت رجلاه في عنق فرسه، وتخضبت بالدماء محاسن وجهه، فإذا أنفذه الرمح جعل يسعى إلى قاتله ويقول: "وعجلت إليك رب لترضى".

وكانوا مع هذا الورع الشديد والخشية البالغة يقسون على مخاليفهم، فلا يرحمون ضعف المرأة، ولا براءة الطفل، ولا شيخوخة الهرم، ولا وشائج الرحم؛ لأنهم - كما ظنوا - باعوا أنفسهم وأموالهم لله بأن لهم الجنة، فقطعوا أسباب الحياة، وأماتوا عواطف الدنيا، وقاتلوا وقتلوا في سبيل هذا المذهب وتلك الغاية. وهم لصراحة بداوتهم، وشدة عصبيتهم. وخلوص عقيدتهم، وما تقتضيه دعوتهم من إدمان الحجاج والمناظرة أسلس الناس منطقاً، وأروعهم كلاماً، وأمتنهم شعراً. ولكن الشعر كان عندهم في المحل الثاني من الخطابة، لقيام أمرهم على الإقناع والجدل بآيات الله وأحاديث الرسول؛ وغناء الشعر في ذلك قليل. فإذا ما برز الخارجي للخصم، أو هجم على الموت، أو وقع في الأسر، جاشت نفسه بمتين الرجز، أو رصين القصيد، يضمه وصفه للحرب، وولفه للقتال، وزهده في الحياة، واستخفافه بالموت، وشوقه إلى الشهادة، وظمأه إلى الجنة، في لفظ جزل وأسلوب قوي، وقلما يدور شعرهم على غير ذلك. فمن الرجز قول ابن أم حكيم:

أحمل رأساً قد سئمت حمله وقد مللت دهنه وغسله

ألا فتى يحمل عني ثقله!

ومن القصيد قول معاذ ابن جوين يحرض قومه وهو أسير:

ألا أيها الشارون قد حان لامرئ	شري نفسه لله أن يترحلا
أقمتم بدار الخاطئين جهالة	وكل امرئ منكم يصاد ليقطلا
فشدوا على القوم العداة فإنها	أقامتكم للذبح رأيا مضللا
ألا فاقصدوا يا قوم للغاية التي	إذا ذكرت كانت أبر وأعدلا
فياليتني فيكم على ظهر سابح	شديد القصيرى دارعا غير أعزلا
فيارب جمع قد فللت، وغارة	شهدت، وقرن قد تركت مجندلا

وقول الطرماح ابن حكيم:

لقد شقيت شقاء لا انقطاع له	إن لم أفز فوزة تنجي من النار
والنار لم ينج من لهيها أحد	إلا المنيب بقلب المخلص الشاري

أو الذي سبقت من قبل مولده له السعادة من خلاقها الباري
وقوله:

وأَمسي شهيداً ثاوياً في عصابة يصابون في فج من الأرض خائف
فوارس من شيان ألف بينه تُقى الله نزالون عند الزواحف
إذا فارقوا دنياهم فارقوا الأذى وصاروا إلى ميعاد ما في المصاحف

وكقول قَطْرَى ابن الفجاءة في يوم دولاب:

فلم أَر يوماً كان أكثر مَقْصعاً يمج دماً من فائظ وكليم
وضاربة خدأ كريماً على فتى أغر نجيب الأمهات كريم
أصيب بدولاب ولم تك موطناً له أرض دولاب ودير حميم
فلو شهدتنا يوم ذاك وخلينا تبيح من الكفار كل حريم
رأت فتية باعوا الإله نفوسهم بجنات عدن عنده ونعيم

وقليلاً ما يجادل الخوارج بالشعر ويقارعون بالهجاء، لاعتمادهم في
الجدل على الخطابة، وفي القراع على السيف. ومن هذا القليل قول بعضهم
في الجدل وقد هزم أربعون منهم ألفين لابن زياد:

أألفا مؤمن فيما زعمتم ويقتلكم بأسك أربعون
كذبتكم ليس ذاك كما زعمتم ولكن الخوارج مؤمنوننا
هي الفئة القليلة قد علمتم علي الفئة الكثيرة ينصروننا
وقول عمران ابن حطان في جاء الإمام:

لله در المرادي الذي سفكت كفاه مهجة شر الخلق إنسانا
أَمسي عشية غشاه بضربته مما جناه من الآثام عريانا

وما حمله على ذلك إلا أنه من القعدة لضعفه عن الحرب لكبر سنه
فجاهد بلسانه.

نماذج من الشعر الأموي

قال قَطَرِيّ بن الفجاءة:

أقول لها وقد طارت شعاعا من الأبطال ويحك لن تراعي
فإنك لو سألت بقاء يوم على الأجل الذي لك لم تطاعي
فصبراً في مجال الموت صبراً فما نيل الخلود بمستطاع
ولا ثوب البقاء بثوب عز فيطوي عن أخي الخلع اليراع
سبيل الموت غاية كل حي فداعيه لأهل الأرض داع
ومن لا يعتبط يسأم ويهرم وتسلمه المنون إلى انقطاع
وما للمرء خير في حياة إذا ما عد من سقط المتاع

وقال عبد الله بن قيس الرقيات في قریش:

حبذا العيش حين قومي جميع لم تفرق أمورها الأهواء
قبل أن تطمع القبائل في ملك قریش وتشمت الأعداء
أيها المشتهى فناء قریش بيد الله عمرها والفناء
إن تودع من البلاد قریش لا يكن بعدهم لحي بقاء
وقال الحطيئة يمدح بفيض ابن لأي:

تزور امرأ يؤتي على الحمد ماله ومن يؤت أثمان المحامد يحمد
يرى البخل لا يبقى على المرء ماله ويعلم أن البخل غير مخلص
كسوب ومتلاف إذا ما سأله تهلل فاهتز اهتزاز المهند
متى تأته تعشو إلى ضوء ناره تجد خير نار عندها خير موفد

وقالت الخنساء:

دل على معروفه وجهه بورك هذا هادياً من دليل!

تحسبه غضبان من عزه ذلك منه خلق ما يحول
ويلمه مسعر حرب إذا ألقى فيها وعليه الشليل!
وقال الكميت⁽¹⁾ الأسدي يمدح مسلمة بن عبد الملك:

فما غاب عن حلم ولا شهد الخنا ولا استعذب العوراء يوماً فقالها
وتفضل أيمان الرجال شماله كما فضلت يميني يديه شمالها
وما أجم المعروف من طول كره وأمراً بأفعال الندى وافعالها
ويتذل النفس المصونة نفسه إذا ما أرى حقاً عليه ابتذالها
بلوناك في أهل الندى ففضلتهم وباعك في الأبواع قدماً فطالها
فأنت الندى فيما ينوبك والسدى إذا الخود عدت عقبة القدر مالها
وقالت ليلى الأخيلية ترثي توبة:

لعمرك ما بالموت عار على الفتى إذا لم تصبه في الحياة المعابر
وما أحد حي وإن عاش سالماً بأخلد ممن غيبتة المقابر
فلا الحي ما أحدث الدهر معتب ولا الميت إن لم يصبر الحي ناشر
وكل جديد أو شباب إلى بلى وكل امرئ يوماً إلى الموت صائر

(1) هو الكميت بن زيد الأسدي ولد سنة 60هـ بالكوفة ونشأ في قومه بني أسد فلحن اللغة وثقف الأدب وعلم الأنساب وشان الأعراب وتلقى أخبار العرب عن جدتين له أدركتا الجاهلية، ثم قال الشعر وهو صغير ولكنه كان يخشى أن يديمه حتى أنشد الفرزدق شيئاً منه وسأله حكمه فيه أينشره أم يطويه، فأمره بإذاعته فأذاعه. ونظم قصائده الهاشميات يظهر فيها تشييعه لأولاد علي ويحتج لهم ويدافع عنهم. ولما نالهم بالأذى حكيم الكلى شاعر اليمانية هجاه الكمت وهجاه اليمانية جمعاء؛ فغضب خالد ابن عبد الله القسري والي العراق وكان يمانياً فسعى به إلى هشام واسمعه شعره في ذم بني أمية ومدح بني هاشم فأمره بقتله فسجنه، ففر الكميت من سجنه حتى لحق بالشام ولاذ بقبر معاوية ابن هشام فأمنه الخليفة وعفا عنه. ولبت الكميت على مدح بني هاشم وذم اليمانية فأثار العصبية بين العدنانيين والقحطانيين وأرث العداوة الكامنة في صدور الأمتين، فانتسعت الهوة وتفرقت الكلمة ودامت هذه الفتنة حتى أواسط الدولة العباسية، وكانت وفاة الكميت سنة 126هـ.

وكل قريني ألفه لتفرق شتاتاً وإن ضنا وطال التعاشر
 فلا يبعدنك الله يا توب هالكاً أخا الحرب إن دارت عليك الدوائر
 فآليت لا أنفك أبكيك ما دعت على فنن ورقاء أو طار طائر
 وقال أبو ذؤيب الهذلي يرثى بينه الخمسة وقد هاجروا إلى مصر فهلكوا
 في عام واحد:

أمن المنون وريها تتوجع والدهر ليس بمعتب من يجزع؟
 قالت أمانة ما لجسمك شاحباً منذ ابتذلت ومثل مالك ينفع
 فأجبتها يرثي لجسمي إنه أودي بني من البلاد فودعوا
 أودي بني فأعقبوني حسرة عند الرقاد وعبرة لا تطلع
 فالعين بعدهم كأن حذاقها كحلت بشوك فهي عورا تدمع
 فغبرا بعدهم بعيش ناصب وإخال أني لاحق مستتبع
 سبقوا هوى وأعنقوا لهواهم فتخرموا ولكل جنب مصرع
 ولقد حرصت بأن أدافع عنهم وإذا المنية أقبلت لا تدفع
 وإذا المنية أنشبت أظفارها أليت كل تميمة لا تنفع
 وتجلدي للشامتين أريهم أني لريب الدهر لا أتضعضع
 حتى كأني للحوادث مروة بصفاء المشرق كل يوم تفرع
 وقال جرير يرثى ابنه:

قالوا نصيبك من أجر فقلت لهم كيف العزاء وقد فارقت أشبالي
 فارقتني حين كف الدهر من بصري وحين صرت كعظم الرمة البالي
 وقال مالك ابن أسماء في الهجاء:

لو كنت أحمل خمراً يوم زرتكم لم ينكر الكلب أني صاحب الدار
 لكن أتيت وريح المسك يفغمني وعبر الهند أذكيه على النار

فأنكر الكلب ريحي حين أبصرني وكان يعرف ريح الزق والقار
وقال آخر:

أقول حين أرى كعباً ولحيته لا بارك الله في بضع وستين
من السنين تولاهها بلا حسب ولا حياء ولا قدر ولا دين
وقال عبد الرحمن بن حكيم:

لحا الله قيس عيلان إنها أضاعت ثغور المسلمين ووات
فشاول بقيس في الطعان ولا تكن أخاها إذا ما المشرفية سلت
وقال الطرماح يهجو بني تميم:

تميم بطرق اللؤم أهدى من القطا ولو سلكت سبل المكارم ضلت
ولو أن برغوئاً على ظهر نملة يكر على صفى تميم لولت
وقال حندج بن حندج المري يصف ليل صول:

في ليل صول تناهى العرض والطول كأنما ليله بالليل موصول
لا فارق الصبح كفى إن ظفرت به وإن بدت غرة منه وتحجيل
لساهر طال في صول تمللمه كأنه حية بالسوط مقتول
متى أرى الصبح قد لاحت مخايله والليل قد مزقت عنه السراويل
ليل تحير ما ينحط في جهة كأنه فوق متن الأرض مشكول
نجومه ركذ ليست بزائلة كأنما هن في الجو القناديل
ما أقدر الله أن يدني على شحط من داره الحزن ممن داره صول!
الله يطوي بساط الأرض بينهما حتى يرى الربع منه وهو مأهول
وقالت الخنساء تصف سباقاً كان بين أبيها وأخيها:

جاري أباه فأقبلا وهما
حتى إذا نزت القلوب وقد
وعلا هتاف الناس أيهما؟
برزت صحيفة وجه والده
أولى فأولى أن يساويه
وهما وقد برزا كأنهما
وقال الفرزدق يصف ذئباً صادفه أثناء سفره فأطعمه من زاده:

وأطلس عسال وما كان صاحباً
فلما أتى قلت أدن دونك إنني
فبت أقد الزاد بيني وبينه
وقلت له لما تكشر ضاحكاً
تعش فإن عاهدتني لا تخونني
وأنت امرؤ يا ذئب والغدر كنتما
ولو غيرنا تبهت تلتمس القرى
دعوت لناري موهناً فأتاني
وإياك في زادي لمشتركان
على ضوء نار مرة ودخان
وقائم سيفي من يدي بمكان
نكن مثل من يا ذئب يصطحبان
أخيئين كانا أرضعا بلبان
رماك بسهم أو شبة سنان

وقال بعض الحجازيين يصف حال امرأته عندما علمت بزواجه من غيرها:
خبروها بأنني قد تزوجت
ثم قالت لأختها ولأخرى
وأشارت إلى نساء لديها
ما لقلبي كأنه ليس مني
من حديث نما إلى فظيع
فظلت تكاتم الغيظ سراً
جزعاً: ليته تزوج عشراً!
لا ترى دونهن للسر سترأ
وعظامي كأن فيهن فترا؟
خلت في القلب من تلظيه جمراً

وقال عروة ابن أدينة في الغزل:

إن التي زعمت فؤادك ملها خلقت هواك كما خلقت هوى لها
بيضاء باكرها النعيم فصاغها بلباقة فأدقها وأجلها
حجبا تحيتها فقلت لصاحبي: ما كان أكثرها لنا وأقلها!
وإذا وجدت لها وساوس سلوة شفع الضمير إلى الفؤاد فسلها

وقال جميل بن معمر:

وإنني لأرضي من بُثِّئَة بالذي لو أبصره الواشي لقرت بلابله
بلا، وبألا أستطيع، وبالمنى، وبالأمل المرجو قد خاب أمله
وبالنظرة العجلى، وبالحول تنقضي أواخره لا نلتقي وأوائله

وقال أيضاً:

وما زلت يا بتن حتى لو أنني من الشوق أستبكي الحمام بكى ليا
إذا خدرت رجلي وقيل شفاؤها دعاء حبيب كنت أنت دعائياً
وما زادني النأي المفرق بعدكم سلوا ولا طول التلاقي تقاليا
ولا زادني الواشون إلا صباة ولا كثرة الناهين إلا تماديا
لقد خفت أن ألقى المنية بغتة وفي النفس حاجات إليك كما هيا

وقال يزيد بن الطُّثْرِيَّة:

بنفسي من لو مر برد بنانه على كبدي كانت شفاء أنامله
ومن هابني في كل أمر وهبته فلا هو يعطيني ولا أنا سائله

وقال قيس بن ذريح:

فإن يحجبوها أو يحل دون وصلها مقالة واش أو وعيد أمير
فلم يمنعوا عيني من دائم البكا ولم يذهبوا ما قد أجن ضميري

وقال كثير من يذكر فيها هجران عزة وسلوانه:

وما كنت أدري قبل عزة ما البكا
وكانت لقطع الجبل بيني وبينها
ولم يلتق إنسان من الحب ميعه
أريد الثواء عندها وأظنها
فما أنصفت، أما النساء فبغضت
يكلفها الغَيْرَانُ⁽¹⁾ شتمي وما بها
هنيئاً مريئاً غير داء مخامر
فوالله ما قاربت إلا تباعدت
فإن تكن العتبي فأهلاً ومرحباً
وإن تكن الأخرى فإن وراءنا
أسيئي بنا أو أحسنني لا ملومة
فما أنا بالداعي لعزة بالجوى
فلا يحسب الواشون أن صابتي
فوالله ثم الله ما حل قبلها
فيا عجباً للقلب كيف اعترافه
وإني وتهيامي بعزة بعدما
لكا لمرتجى ظل الغمامة كلما
فإن سأل لواشون فيم هجرتها
وقال جرير على لسان يزيد:

فأنت أباي ما لم تكن لي حاجة
ولا موجعات القلب حتى تولت
كناذرة نذراً فأوقت وحلت
تعم ولا غمء إلا تجلت
إذا ما أطلنا عندها المكث ملت
إلى، وأما بالنوال فضنت
هواني، ولكن للمليك استذلت
لعزة من أعراضنا ما استحلت
بهجر ولا أكثرت إلا أقلت
وحققت لها العتبي لدينا وقلت
منادح لو سارت بها العيس كلت
لدينا ولا مقلية إن تقلت
ولا شامت أن نعل عزة زلت
بعزتي كانت غمرة فتجلت
ولا بعدها من خلة حيث حلت
وللنفس لما وطنت كيف ذلت!
تخليت مما بيننا وتخلت
تبوأ منها للمقبل اضمحلت
فقل نفس حر سليت فتسلت

فإن عرضت أيقنت أن لا أباليا

وإنني لمغرور أعلل بالمني
بأي نجاد تحمل السيف بعدما
بأي سنان تطعن القوم بعدما
وقال مالك ابن أسماء يعتذر:

لكل جواد عثرة يستقيها
فهبني يا حجاج أخطأت مرة
فهل لي إذا ما تبت عندك توبة
وقال الحطيئة:

أتتني لسان فكذبته
بأن الوشاة بلا حرمة
فجئتك معتذراً راجياً
فلا تسمعن بي مقال العدي
فإنك خير من الزبرقان
وقال حسان بن ثابت:

المال يغشى رجلاً لا طباح بهم
أصون عرضي بمالي لا أدنسه
أحتال للمال إن أودي فأجمعه
الفقر يزري بأقوام ذوي حسب
وقال كثير:

ومن لا يغمض عينه عن صديقه
ومن يتبع جاهداً كل عثرة
وقال كعب بن زهير:

ليالي أرجو أن مالك مالياً
قطعت القوى من محمل كان باقياً؟
نزعت سنانا من قناتك ماضياً؟

وعثرة مثلي لا تقال مدى الدهر
وجرت عن المثلى وغيت بالشعر
تدارك ما قد فات في سالف العمر؟

وما كنت أحسبها أن تقالا
أتوك فراموا لديك المحالا
لعفوك أرهب منك النكالا
ولا تؤكلني هديت الرجالا
أشد نكالا وخير نوالا

كالسيل يغشى أصول الدنان البالي
لا بارك الله بعد العرض في المال
ولست للعرض إن أودي بمحتل
ويقتدي بئام الأصل أنذال

وعن بعض ما فيه يمت وهو عاتب
يجدها ولا يسلم له الدهر صاحب

لو كنت أعجب من شيء لأعجبني
يسعى الفتى لأمر ليس يدركها
سعى الفتى وهو مخبوء له القدر
فالمراء ما عاش ممدود له أمل
والنفس واحدة والههم منتشر
وقال النابغة الجعدي:

ولا خير في حلم إذا لم تكن له
ولا خير في جهل إذا لم يكن له
بوادر تحمي صفوه أن يكدر
حليم إذا ما أورد الأمر أصدر

الشعراء وطبقاتهم

نبغ في هذا العصر على قصره زهاء مائة شاعر كان لهم السهم الربيع في نهضة العرب الدينية والسياسية والاجتماعية، لقوة الدعاية في الشعر، وتأثير الفصاحة في العرب، وشدة العصبية في الولاة. وشعرهم وإن سار على منهاج الجاهلية أسمى خيلاً وأقرب منالاً وأوثق مبني وأغزر معنى من المتقدمين؛ لتأثرهم بالدين والحضارة كما علمت، وهم إما مخضرمون ككعب بن زهير والخنساء وحسان بن ثابت والحطيئة؛ وإما إسلاميون كعمر ابن أبي ربيعة والأخطل وجريير والفرزدق والكميت والطرماح وكثير وذي الرمة. وكلهم صريح العربية، صحيح اللغة، فصيح اللهجة، في الشعر والنحو حجة.

وأشهر هؤلاء الشعراء كما ذكرنا من قبل ثلاثة منوا بداء السياسة، وشهوة المنافسة، فمزقوا ستائرهم وفرقوا عشائهم، وأشاعوا هجر القول في الناس، ولم يتعرض لهم أحد إلا افتضح؛ وهم جريير والفرزدق والأخطل. وقد انقطعوا للشعر والتكسب به، والتف حول كل منهم طائفة تفتخر به وتنتصر له. ويكاد الناس لا يختلفون إلا فيهم، ولا يعقدون التفاضل إلا بينهم.

الشعراء المخضرمون

كعب بن زهير

(المتوفى سنة 24 هـ)

نشأته وحياته:

هو أبو عقبة كعب ابن زهير ابن أبي سلمى المزني. نشأ أبوه الأدب والحكمة فشب فصيحاً شاعراً. ولما ظهر الإسلام خرج هو وأخوه بجير إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، ثم بدا له فافتخر وتقدم بجير، فسمع كلام رسول الله وأسلم. فغضب كعب لإسلامه ونهاه، وهجا وهجا رسول الله معه بأبيات يقول فيها:

ألا أبلغا عني بجيراً رسالة	فهل لك فيما قلت ويحك هل لك؟
سقاك بها المأمون كأساً روية	فأنهلك المأمون منها وعلكا
ففارقت أسباب الهدى واتبعته	على أي شيء ويب غيرك دلكا
على مذهب لم تلف أما ولا أبا	عليه ولم تعرف عليه أخالكا
فإن أنت لم تفعل فلست بأسف	ولا قائل إما عثرت لعلكا!

فأهدر الرسول دمه، وأرجف الناس بقتله. وأشفق عليه أخوه فنصحه بالإسلام والتوبة والمشول بين يدي الرسول يطلب رضاه وعفوه، فلما استيأس كعب من المجير والنصير جاء إلى المدينة، وتوسل بأبي بكر إلى الرسول. ودخل في الإسلام، ومدحه بلاميته المشهورة، فعفا عنه وأمنه وخلع عليه برده؛ فمازالت في أهله حتى اشتراها معاوية منهم بأربعين ألف درهم، وتوارثها الخلفاء الأمويون فالعباسيون حتى آلت مع الخلافة إلى بني عثمان.

شعره:

نشأ كعب في روضة الشعر وباحة القريض فرسخت فيه ملكته، وتجلت في صغره شاعريته. فأخذ يقرضه وهو دون المراهقة. فنهاه أبوه مخافة أن يروي عنه ما لا خير فيه فيلزمه عاره. فكان كعب يأبى أن ينتهي، ويلح أبوه مع منعه حتى أمتحنه امتحاناً شديداً طمأنه على نضج قريحته وسلامة طبعه؛ فتركه لنفسه. فتقحم أبوابه، وسلك شعابه، وأتى منه بالجد الرصين والرائق المعجب. وأوشك أن يسامي أباه لولا غرابة في ألفاظه، وتعقيد في تراكيبه، وقصور في مطولاته؛ ومن كل ذلك برئ أبوه. ومما يدل على مكانة كعب وقيمة شعره أن الخطيئة وهو من نابهي الشعراء توسل إليه أن ينوه بذكره في شعره حتى يشتهر، فقال:

فمن للقوافي شانها من يحوكها إذا ما مضى كعب وفوز جروول⁽¹⁾
كفيتك لا تلقى من الناس واحداً تتخل منها مثل ما نتخل

نموذج من شعره:

من عيون شعره مشوّبه التي مدح بها الرسول، ومطلعها:

بانت سعاد فقلبي اليوم متبول متيم إثرها لم يفد مكبول
ومنها:

وقال كل خليل كنت أمله لا ألهينك إنني عنك مشغول
فقلت خلوا سبيلي لا أباكم فكل ما قدر الرحمن مفعول
كل ابن أنثى وإن طالت سلامته يوماً على آلة حدباء محمول
أنبئت أن رسول الله أوعدني والوعد عندك رسول الله مأمول
مهلاً هداك الذي أعطاك نافلة الـ قرآن فيها مواعيط وتفصيل
لا تأخذني بأقوال الوشاة ولم أذنب وقد كثرت في الأقاويل

(1) جروول: اسم الخطيئة.

ومن قوله:

السامع الذم شريك له	ومطعم المأكل كالآكل
مقالة السور إلى أهلها	أسرع من منحدر سائل
ومن دعا الناس إلى ذمه	ذموه بالحق وبالباطل

الخنساء

(المتوفا سنة 24 هـ)

حياتها

هي السيدة ثُمَاضِر بنت عمرو ابن الشريد السلمية. والخنساء لقب غلب عليها. فبتت في دوحة الشرف، وازدهرت في روضة الفضل، فكان أبوها وأخواها معاوية وصخر سادات سليم من مضر. وكانت بارعة الجمال والأدب فخطبها دريد ابن الصمة سيد هوزان وقارس جشم، فردته وأثرت التزوج في قومها، ولما قوض الدهر ركني بيتها بموت أخويها معاوية وصخر جزعت عليهما أشد الجزع، وبكتهما أحر البكاء، ورثتهما بأبلغ الرثاء، ولا سيما صخر لما بلته من كثرة إحسانه، وشدة حنانه، وقوة جنانه. ثم وفدت في قومها على الرسول صلى الله عليه وسلم فأسلمت، وأنشدته فاهتر لشعرها واستزادها بقوله: هيه يا خناس! وكان في الظن أن تنهه الخنساء بعد إسلامها دموع الجزع على أبيها وأخويها تعزياً بالدين وعزوفاً عن سنة الجاهلية، إلا أن وجدها على صخر كان وراء الصبر وفوق العزاء؛ فلم تزل تبكيه وترثيه حتى ابضت عيناها من الحزن. وكانت تقول: كنت أبكي له من الثار، وأنا اليوم أبكي له من النار. على أن السن والزمن والدين ما زالت بهذه الكبد القريحة حتى اندملت؛ فوجدت الخنساء في شيخوختها أسياً من روح الله ومواسياً من فضله؛ فتقبلت مصرع بنيتها الأربعة صابرة محتسبة وقد حرضتهم على القتال في حرب القادسية فاستشهدوا جميعاً. فلم تزد علي أن قالت: الحمد لله الذي شرفني بقتلهم، وأرجو أن يجمعني بهم في مستقر رحمته. ثم توفيت بالبادية عام 24 هـ.

شعرها

ليس في شواغر العرب قبل الإسلام وبعده من تفوق الخنساء في رصانة شعرها، ورقة لفظه، وحلاوة جرسه، ولربما ضارعت في هذه الصفات الشعراء الفحول. ويرى النابغة وجريراً أنها أفضل من الرجال، لما في شعرها من قوة

الرجولة ورقة الأنوثة. وقد غلب في شعرها الفخر والثناء. أما الفخر فلأن أباهما أمثل قومه، وأخويها خيراً مضر؛ وأما الرثاء فلفجيعتها فيهم وطول وجدها عليهم. والأسى يدق الشعور، ويرق العاطفة، ويفتق القريحة في الرجل، فكيف به في المرأة؟ وكانت لا تقول إلا البيتين أو الثلاثة قبل مقتل أخويها، فلما قتلا فاض الدمع من عينها، والشعر من قلبها، فأتت في رثائها بالمعجب المعجز. وظلا الخنساء في شعرها بدوية جاهلية، فلم تتأثر بالإسلام كثيراً ولا قليلاً.

نموذج من شعرها

قالت ترثي أخاها صخرًا:

أعيني جوداً ولا تجمداً	ألا تبكيان لصخر الند؟
ألا تبكيان الجرئ الجميل	ألا تبكيان الفتى السيدا!
رفيع العماد طويل النجاد	سأد عشيرته أمرداً
إذا القوم مدوا بأيديهم	إلى المجد مد إليه يدا
فقال الذي فوق أيديهم	من المجد ثم انتمي مصعداً
يحمله القوم ما عالهم	وإن كان أصغرهم مولداً
وإن ذكر المجد ألقيته	تآزر بالمجد ثم ارتدى

وقالت ترثيه أيضاً:

ألا يا صخر إن أبكيت عيني	فقد أضحكنتي زمناً طويلاً
دفعت بك الخطوب وأنت حي	فمن ذا يدفع الخطب الجليلاً؟
إذا قبح البكاء على قتيل	رأيت بكاءك الحسن الجميلاً

وقالت ترثي وتفتخر:

تعرقني الدهر نهساً وحزاً	وأوجعني الدهر قرعاً وغمزاً
وأفنى رجالي فبادوا معاً	فأصبح قلبي بهم مستفزاً
كأن لم يكونوا حمى يتقي	إذا الناس في ذاك من عز بزا

وخیل تکدس بالدارعین وتحت العجاجة یجمزن جمزا
ببیض الصفاح وسمر الرماح فالبیض ضربا وبالسمر وخزا
جززنا نواصي فرسانها وكانوا یظنون ألا تجزا
ومن ظن ممن یلاقي الحروب بألا یصاب فقد ظن عجزا
نعف ونعرف حق القرى ونتخذ الحمد ذخراً وکنزاً
ونلبس في الحرب نسج الحديد وفي السلم نلبس خزا وبزا
ومن قولها:

إن الزمان وما یفنی له عجب أبقی لنا ذنبا واستؤصل الراس
إن الجدیدین في طول اختلافهما لا یفسدان ولكن یفسد الناس

حسان بن ثابت

(المتوفى سنة 54 هـ)

نشأته وحياته

هو أبو الوليد حسان ابن ثابت الأنصاري، ولد بالمدينة ونشأ في الجاهلية، وعاش على الشعر، فكان يمدح المناذرة والغساسنة ويتقبل صلاتهم. ولكنه بالغ في مدح آل جفنة من ملوك غسان وأكثر من انتجاعهم فأغدقوا عليه العطايا، وملاؤوا يديه بالنعيم، ولم ينكروه بعد إسلامه وتنصرهم، فجاءته رسلهم تترى بالهدايا من القسطنطينية. ولما هاجر رسول الله إلى المدينة أسلم حسان مع الأنصار وانقطع إلى مدحه والنصح عنه. وذلك أن الرسول حينما اشتد عليه أذى قريش بالهجاء قال لأصحابه: ما يمنع الذين نصرُوا الله ورسوله بأسلحتهم أن ينصروه بألسنتهم؟ فقال حسان: أنا لها؟ وضرب بلسانه الطويل أرنبة أنفه وقال: والله ما يسرني به مقول ما بين بصري وصنعاء! والله لو وضعت على صخر لفلقه، أو على شعر لحلقه! فقال له النبي: كيف تهجوهم وأنا منهم؟ فقال: "أسلك منهم كما تسل الشعرة من العجين". فقال: أهجهم ومعك روح القدس. فهجاهم فآلمهم وأبكمهم ووقعت كلماته منهم موقع السهام في غسق الظلام؛ فاشتهر بذلك ذكره، وارتفع قدره، وعاش ما عاش موفور الكرامة مكفي الحاجة من بيت المال، حتى توفي سنة 54 للهجرة بالغاً من العمر مائة وعشرين سنة، وقد كف بصره في أعقاب أيامه.

شعره

كان حسان في الجاهلية شاعر أهل المدن، وفي البعثة شاعر النبوة، وفي الإسلام شاعر اليمانية. وكان يغلب في شعره الفخر والحماسة والمدح والهجاء، وكلها أغراض تقتضي اللفظ والأسلوب القوي، فبدا عليه أثر من الحوشية والوحشية ذهب بمجيء الإسلام. ثم سكنت عوامل الشعر في نفسه بسماحة الدين وموت الأحقاد وتقدم السن فما كانت تتحرك إلا زياداً عن النبي دفاعاً عن الأنصار من حين إلى حين. ولكن كثيراً من شعره في هذا الطور

كان خشياً فكثير به السقط، وقلت فيه الجزالة، وغلبت عليه السهولة، فرأى الأصمعي أن شعره لم يقو إلا في الشر، فلما جاء الإسلام بالخير ضعف. وهو في شعره يضارع ابن كلثوم في الفخر بومه والمباهاة بنفسه، مع أنه كان جباناً مخلوع القلب.

نموذج من شعره

قال في الهجاء:

ألا أبلغ أنا سفيان عني	مغلغلة فقد برح الخفاء
بأن سيوفنا تركتك عبداً	وعبد الدار سادتها الإماء
هجوت محمداً فأجبت عنه	وعند الله في ذاك الجزاء
أتهجوه ولست له بكفاء؟	فشركما لخيركما الفداء
لنا في كل يوم من معدٍ	سباب أو قتال أو هجاء
لساني صارم لا عيب فيه	وبحري لا تكدره الدلاء
فإن أبي ووالدتي وعرضي	لعرض محمد منكم وقاء

وأقبل على الرسول وفد من تميم يفاخره وعليهم الزبرقان ابن بدر، فلما أنشدوه أمر حسناً أن يجيبهم فقال:

إن الذوائب من فھر وأخواتهم	قد بينوا سنة للناس تتبع
قوم إذا حاربوا ضروا عدوهم	أو حاولوا النفع في أشياعهم نفعا
سجية تلك فيهم غير محدثة	إن الخلائق فاعلم شرها البدع
لا يرفع الناس ما أوھت أكفهم	عند الدفاع ولا يوهون ما رقعوا
إن كان في الناس سباقون بعدهم	فكل سبق لأدنى سبقهم تبع
أعفة ذكرت في الوحي عفتهم	لا يطبعون ولا يزرري بهم طمع
لا يفخرون إذا نالوا عدوهم	وإن أصيبوا فلا فخور ولا جزع

وقال يمدح جبلة بن الأيهم:

لله در عصاة نـادمتهم
يمشون في الحلل المضاعف نسجها
والخالطون فقيـرهم بغنيهم
أولاد جفنة حول قبر أبيهم
يسقون من ورد البريص عليهم
يسقون درياق الرحيق ولم تكن
بيض الوجوه كريمة أحسابهم
فلبثت أزماناً طوالاً فيهم
ومن قوله:

وإن امرأ يمسي ويصبح سالماً
وقال أيضاً:

رب علم أضاعه عدم المال
ما أبالي أنبّ بالحزن تيس
وجهل غطى عليه النعيم
أم لحاني بظهر غيب لئيم

الحطيئة

(المتوفى سنة 59 هـ)

نشأته وحياته

هو أبو مليكة جزؤل بن أوس العبسي، وُلِدَ في بني عبس دَعِيّاً لا يُعرف له نسب، ولا يصله بالشرف سبب. فشب محروماً مظلوماً مذموماً لا يجد مدداً من أهله، ولا سند من قومه؛ فاضطر إلى الشعر يجلب به القوت ويدفع به العدوان وينتقم به لنفسه من بيئة ظلمته وطاردته. واصطلحت عليه عوامل الشر فجعلت منه صورة للرديلة، فكان كما وصفه الأصمعي سيئ الخلق، دنيء النفس، فاسد الدين، سئلاً، ملحقاً، جشعاً، كثير الشر، قليل الخير، بخيلاً، دميماً، قصيراً، رث الهيئة، متدافع النسب في القبائل. وقد بلغ من لؤمه أن هجا أمه وامراته وبنيه حتى نفسه. فلما جاء الإسلام أسلم ثم ارتد ثم عاد مززعزع العقيدة، فلم يستطع الدين أن يرفع هذه النفس لوضيعة، ولا أن يفل هذا المقول الجريء البذيء، فمرج لسانه في أعراض الناس واشتدت وقيعته فيهم. حتى الزبرقان ابن بدر صاحب رسول الله وعامل عمر ابن الخطاب لم يعصمه منه إكرامه جواره وإحسانه إليه، فمالاً بغيض ابن عامر خصمه عليه، ومدح بني أنف الناقة وذم الزبرقان، فاستعدى عليه أمير المؤمنين عمر، فحبسه، واستشفع إليه بشعره فأطلقه وحذره هجاء الناس. فقال. إذن يموت عيالي جوعاً. هذا مكسبي ومنه معاشي. فاشتري منه الخليفة أعراض المسلمين بثلاث آلاف درهم. فكف حتى مات عمر ثم عاد إلى طبعه، ولبث على تلك الحال حتى أسكته الموت سنة 59 هـ.

شعره

الحطيئة شاعر متين الشعر، غزير البحر، رائق الأسلوب، شرود القافية، متصرف في فنون القول، من مديح وهجاء ونسب وفخر. ولولا خساسة طبعه، ودناءة طمعه، وقبح تبذله، لما فضله في المخضرمين أحد، فإنك لا تكاد تكد

في شعره ما يكثر في شعر غيره من سخافة في النسج، أو ركاكة في اللفظ، أو نبو في القافية، ولكن شرف الكلام بشرف قائله.

والحطيئة كزهير معدود في عبيد الشعر الذين رووا فيه ونقحوه. وقد يؤثر عنه قوله: "خير الشعر الحولي المنقح المحكك". وقلما تجد في هجائه على مرارته فحشاً أو هجراً، حتى عمى على أمير المؤمنين عمر قوله في هجاء الزبرقان:

دع المكارم لا ترحل لبغيتها واقعد فإنك أنت الطاعم الكاسي
فلن يفتن إلى موضع الهجاء فيه لدقته حتى دله عليه حسان.

نموذج من شعره

قال يهجو الزبرقان بن بدر وقد زعم أنه أساء جواره فتحول عنه إلى بغيض:

والله ما معشر لاموا امرأ جنباً في آل لأي ابن شماس بأكياس
ما كان ذنب بغيض لا أبالكم في بائس جاء يحدو آخر الناس!
وقد مدحتكم عمداً لأرشدكم كيما يكون لكم متحى وإمراسي
لما بدا لي منكم عيب أنفسكم ولم يكن لجروحي فيكم آسى
أزعمت يأساً مبيناً من نوالكم ولن يرى طارداً للحر كالياس
جار لقوم أطالوا هون منزله وغادروه مقيماً بين أرماس
ملوا قراه وهرته كلابهم وجرحوه بأنياب وأضراس
دع المكارم لا ترحل لبغيتها واقعد فإنك أنت الطاعم الكاسي
من يفعل الخير لا يعدم جوازيه لا يذهب العرف بين الله والناس
وقال في المدح:

يسوسون أحلاماً بعيداً أناةها وإن غضبوا جاء الحفيظة والجدة
أقلوا عليهم لا أبالبيكم من اللوم أوسد والمكان الذي سدوا

أولئك قوم إن بنوا أحسنوا البنا	وإن عاهدوا أوفوا وإن عقدوا شدوا
وإن كانت النعماء فيهم جزوا بها	وإن أنعموا لا كدروها ولا كدوا
مطاعين في الهيحاء مكاشيف للدجى	بنى لهم آباؤهم وبنى الجد
ويعذلني أبناء سعد عليهم	وما قلت إلا بالذي علمت سعد

الشعراء الإسلاميون

عمر ابن أبي ربيعة

(23 - 93 هـ)

نشأته وحياته

هو أبو الخطاب عمر ابن أبي ربيعة القرشي المخزومي. ولد بالمدينة ليلة مات عمر ابن الخطاب، فكان يقال، أي حق رفع، وأي باطل وضع! ثم شبل في نعمة أبيه عبد الله عامل الرسول والخلفاء الثلاثة من بعده. وكان سريراً غنياً، فتقلب عمر في أعطاف النعيم، ورتع في رياض الترف، وخلا ذرعه من معالجة الأمور، ففزع للشعر وقاله وهو صغير، فما أبه له أحد من فحوله كجرير والفرزدق. ومضى وهو يروض قوافيه ويستعطف أبيه حتى ارتاض له وأسلس. فقال جرير وقد سمع رائيته التي مطلعها:

أمن آل نعم أنت غاد فمبكر غداة غد أم رائح فمهجر

" ما زال هذا القرشي يهذي حتى قال الشعر ". وسلك ابن أبي ربيعة إلى الشعر طريقاً غير مألوفة ولا معروفة؛ فقصره على وصف النساء وتزاورهن ومداعبة بعضهن لبعض بلفظ رشيق وأسلوب مبتكر، فأولع به المغنون والظرفاء، وشغف به القيان والندماء، وكثر غناء الناس به وروايتهم له حتى ضج الغير والزهاد وقال ابن جريج: " ما دخل العواتق في خدورهن شيء أضر عليهم من شعر ابن أبي ربيعة " ولم يقف شره عند ذلك، وإنما كان يتعرض للحواج فيشعب بالعقائل والأميرات، ويصفهن طائفتين محرمات، فزهدت كرائم الأسر في أداء هذه الفريضة خشية منه. وأولو الأمر يتغمدون هذا الجهل بالحلم رعاية لأسرته، وفخراً بشاعريته، وترقياً لتوبته. ولكن الخليفة عمر ابن عبد العزيز لم يسعه الصبر على تماديه في المجون، وإمعانه في الجهالة، فنفاه إلى دهلوك إحدى جزر البحر الأحمر بين بلاد اليمن والحبشة، وقد كانت منفى لبني أمية، ولم يعد إلا بعد أن أقسم أنه يقلع عن صبوته، ويخلص إلى الله في توبته. ولعل بلوغه العمرين قد أعانته على البر بقسمه، فزهّد وتنسك ومن الناس

من يقول إن عمر كان عفيفاً يصف ولا يقف، وبحوم لا يرد؛ ويذكرون أنه لما مرض مرضه الأخير جزع أخوه الحارث عليه جزعاً شديداً، فقال له عمر: أحسبك إنما تجزع لما تظنه بي والله ما أعلم أنني ركبت فاحشة قط. فقال: ما كنت أشفق عليك إلا من ذلك، وقد سرّيت عني.

شعره

لشعر ابن أبي ربيعة نوبة في القلب، وروعة في النفس، لسهولة وأناقته لفظه، وحسن وصفه، وشدة أسره، وقرب فهمه، وملاءمته لهوى النفوس في نعت الجمال ووصف المرأة. وقد ساعده نسبه ونشبه وشبابه وترفه على أن يقول في ذلك ما لم يجزؤ أحد على قوله، فسلك في الغزل مسلك القصص: يصف النساء ويحكي حديثهن ومداعبتهم ويذكر أمره معهن. فبهر الناس حتى حملهم على الإقرار لقريش بالشعر، وقد كانوا ينكرونه عليها. وبرع الشعراء حتى قال جرير: "هذا والله الذي أرادته الشعراء فأخطأته وتعللت بوصف الديار! ". على أنك لا تجد في شعره ما تجد في شعر جميل وكثير من الشعور العميق والوصف الدقيق للحب، وإنما تبع مساء يسره أن يخالطهن ويحدثهن ويتجمل لهن دون أن يفتح قلبه لواحدة منهن؛ اللهم إلا أمره مع الثريا بنت علي ابن عبد الله ابن الحارق فإنه يشبه أن يكون حباً.

نموذج من شعره

قال في قصيدة في الشبيب:

تحن إلى نعم فلا الشمل جامع	ولا الحبل موصول ولا أنت مقصر
قفي فانظري أسماء هل تعرفينه	أهذا المغيري الذي كان يذكر؟
أهذا الذي أطربت نعتاً فلم أكن	وعيشك أنساه إلى يوم أقبر
لئن كان إياه لقد حال بعدنا	عن العهد والإنسان قد يتغير!
رأت رجلاً أما إذا الشمس عارضت	فيضحى وأما بالعشى فيحضر
أخا سفر جواب أرض تقاذفت	به فلوات فهو أشعث أعبر

قليلاً على ظهر المطية ظله
 وأعجبها من عيشة ظل عرفة
 ووال كفاها كل شيء يهملها
 وليلة ذي دوران جشمي الكرى
 وبت رقيباً للرفاق على شفا
 فقلت أباديهم فإما أفوتهم
 فلما فقدت الصوت منهم وأطفئت
 وغاب قمير كنت أرجو غيوبه
 ونفضت عني النوم أقبلت مشية الد
 فَحَيَّيْتُ إِذْ فَاجَأَتْهَا فَتَوَلَّاهُتْ
 وقالت وعضت بالبنان: فضحتني!
 أريتك أن هنا عليك ألم تخف
 فلما تقضى الليل إلا أقله
 أشارت لأختيها أعينا على فتى
 فأقبلتا فارتاعتا ثم قالتا:
 يقوم فيمشي بيننا متنكراً
 فكان مجني دون من كنت أتقي
 فلما أجزنا ساحة الحي قلن لي:
 وقلن أهذا دأبك الدهر سادرا
 إذا جئت فامنح طرف عينيك غيرنا
 هنيئاً لبعل العامرية نشرها
 سوى ما يقي منه الرداء المحبر
 وريان ملتف الحقائق أخضر
 فليست لشيء آخر الليل تسهر
 وقد يجشم الهول المحب المغرر
 ولي مجلس لولا الليانة أوعر
 وإما ينال السيف ثأراً فيثأر
 مصاييح شبت للعشاء وأنور
 وروح رعيان ونوم سمر
 حباب وركني خيفة القوم أزور
 وكادت بمهجور التحية تجهر
 وأنت امرؤ ميسور أمرك أعسر
 رقيباً وحولي من عدوك حضر
 وكادت توالي نجمه تتغور
 أتى زائراً والأمر للأمر يقدر
 أقلى عليك اللوم فالخطب أيسر
 فلا سرنا يفشو ولا هو يظهر
 ثلاث شخوص: كاعبان ومعصر
 ألم تتق الأعداء والليل مقمر؟
 أما تستحي أو ترعوي أو تفكر!
 لكي يحسبوا أن الهوى حيث تنظر
 اللذيذ وريها الذي أتذكر

ومن قوله:

ألا ليت أني يوم تقضي منيتي لثمت الذي ما بين عينيك والفم!
وليت طهوري كان ريقك كله وليت حنوطي من مشاشك والدم
ألا ليت أم الفضل كانت قرينتي هنا أو هنا في جنة أو جهنم
وكتب إلى الثريا وهي باليمن:

كتبت إليك من بلدي كتاب موله كمد
كئيب واكف العينان بالحسرات منفرد
يؤرقه لهيب الشوق بين السحر والكبد
فيمسك قلبه بيد ويمسح عينه بيد

الأخطل⁽¹⁾

(المتوفى سنة 95 هـ)

نشأته وحياته

هو أبو مالك غياث بن غوث التغلبي: نشأ بالجزيرة الفراتية في قومه بني تغلب على النصرانية كأكثر أهل هذه القبيلة. وفجع في أمه وهو صغير، فربته زوجة أبيه فأساءت تربيته. فشب سليط اللسان خبيث النية مدمناً للخمر. وبدت بواكير شعره منذ الحداثة، فهاجى كعب ابن جعيل شاعر تغلب فأخمله وهب ذكره يسير. ولما طلب يزيد ابن معاوية وهو ولي العهد من كعب ابن جعيل أن يهجو الأنصار لتعرض عبد الرحمن ابن حسان لأخته في شعره، خشى الأنصار ودله على الأخطل رجاء أن يفتكوا به، فكان ذلك سبباً في صعود نجمه وذيوع اسمه. فإنه اتصل بيزيد وهجا الأنصار فغضبوا، وشكوه إلى معاوية فحكمهم فيه، فطلبوا قطع لسانه. ولكن يزيد ترضاهم فعقوا عنه. وعرف له خلفاء بني أمية هذه اليد فقدموه وأكرموه، ولخاصة عبد الملك ابن مروان، لأنه استعان به على قبائل قيس وشعرائها لممالأتهم أعداءه من آل الزبير، فسهل عليه حجابهم، ووطأ له جنبه، وأغدق عليه عطاءه، وسماه شاعر الخليفة: وبلغ من دالة الأخطل على عبد الملك أنه كان يجيئه وعليه جبة خز وفي عنقه صليب ذهب ولحيته تنفض خمراً فيدخل عليه بغير إذن. أما دخوله في المهاجاة بين جرير والفرزدق، فسيبه أنه عرض بتفضيل هذا حينما سئل أيهما أشعر. فلما بلغت حكومته جريراً غضب وهجا الأخطل بأبيات منها:

يا ذا الغباوة إن بشراً قد قضى ألا تجوز حكومة النشوان

فرد عليه الأخطل في شيء من الضعف لتقدم سنه وفتور طبعه. وقد اعترف بذلك جرير في قوله لابنه: "أدركته وله ناب واحد، ولو أدركته وله نابان لأكلني" وما زال الأخطل أثيراً عند بني أمية حتى أقصاه عمر ابن عبد العزيز.

(1) راجع صفحة 118، 121، 122، 123، 124 .

وكان يعيش حيناً في دمشق وحيناً في بلاده الجزيرة، وتوفي في أول خلافة الوليد سنة 95 بالغاً من العمر سبعين سنة.

شعره

الأخطل أحد الثلاثة السابقين المتقدمين في هذا العصر، وهم جرير والفرزدق وهو. وقد اتفق الناس على أنهم أجود معاصريهم شعراً وأسيرهم ذكراً، ولكن اختلفوا في أيهم أشعر إخوته. والحق أن لكل منهم مزية وميزة. فالأخطل ممتاز بإجادة المدح، ونعت الخمر، وقلة البذاء في الهجاء، وسلامة قصائده الطوال من اللفظ والسقط، ومرود طبعه على الروية والتنقيح: فقد يلبث في بعض مدائحه سنة. وربما بلغت تسعين بيتاً فيقتصر منها بعد التهذيب على الثلث. وأبت عليه طبيعته المرححة أن يقول في الرثاء؛ فلم يؤثر عنه منه إلا أربعة أبيات في رثاء يزيد ابن معاوية، وهو سبب شهرته وأصل نعمته. وكان فخوراً بنفسه، لا يرى فوقه أحداً إلا الأعشى، ولذلك كان يجري على أسلوبه.

نموذج من شعره

قال يمدح عبد الملك بن مروان:

أبدى النواجد يوماً عارماً ذكر	نفسى فداء أمير المؤمنين إذا
خليفة الله يستسقى به المطر	الخائض الغمرة الميمون طائره
ما إن يوازي بأعلى نبتها الشجر	في نبعة من قریش يعصمون بها
إذا ألمت بهم مكروهة صبرا	حشد على الحق عيافو الخنا أنف
ولا يبين في عيدانهم خور	لا يستقل ذوو الأضغان حربهم
واوسع الناس أحلاماً إذا قدروا	شمس العداوة حتى يستفاد لهم
قل الطعام على العافين أو قتروا	هم الذين يبارون الرياح إذا
تمت فلا منة فيها ولا كدر	بنى أمية نعماكم مجللة

وقال يهجو الأنصار:

وإذا نسبت ابن الفريعة خلته
لعن الإله من اليهود عصابة
قوم إذا هدر العصير رأيتهم
حلوا المكارم لستم من أهلها
ذهبت قريش بالمفاخر كلها
ومن قوله:

والناس همهم الحياة ولا أرى
وإذا افتقرت إلى الذخائر لم تجد
طول الحياة يزيد غير خبال
ذخراً يكون كصالح الأعمال

الفرزدق⁽¹⁾

(المتوفى سنة 110 هـ)

نشأته وحياته

هو أبو فراس همام بن غالب التميمي. كانت ولادته ونشأته بالبصرة، فدرج في عش الأدب وشب في ربوع الفصاحة. وأخذ أبوه يرويه الشعر ويعلمه القريض حتى تفتقت عنه قريحته، وانطلق به لسانه؛ فقدمه ذات يوم إلى أمير المؤمنين علي بعد واقعة الجمل مفتخراً بجودة شعره على صغره. فقال له عليه السلام أقرئه القرآن فهو خير له. فارتسمت هذه الكلمة في ذهن الفرزدق حتى كبر، فصمم على حفظ القرآن، فقيد نفسه وأقسم ألا يفك حتى يحفظه؛ وبر بيمينه. ثم اتصل بولاة المصريين فنالهم بالمدح والهجاء، وأجازوه بالإدناء والإقصاء. ومدح خلفاء الأمويين بالشام ولاسيما عبد الملك فوصلوه ولكنه لم ينفق عندهم لتشيعه لآل علي. وكان الفرزدق معاصراً لجريز وكان بينهما تنافس وتحاسد. فما كاد يحتدم الهجاء بين جريز وبين شاعر آخر اسمه البعيث حتى وقف الفرزدق في صف البعيث وآزره. فغاض ذلك جريراً فهجا الفرزدق، ورد عليه هذا. فاستطار بينهما الهجاء عشر سنين، ففتق ذهنيهما، وأحد لسانيهما، ونمى فيهما قوة المبادهة والمجادلة، وصدق النظر. وانشعب الناس في أمرها شعبتين، تناصر كل منهما أحد الشعارين. وجعل أحد أشياع الفرزدق أربعة آلاف درهم وفرساً لمن يغلبه على جريز، وكان الفرزدق فاجراً، فاحش النطق، خبيث الهجاء، ضعيف الدين، قاذفاً للمحصنات، يأوي إلى ركن شديد من شرف حسبه، وكرم نسبه فاستعان بكل رذائله وفضائله على جريز فما هزمه ولا أسقطه.

ثم كانت له مواقف محموددة في الذود عن آل علي تجلت فيها صراحته وشجاعته، كموقفه يوم التقى بهشام ابن عبد الملك في الحج، وسمعه يقول

(1) راجع صفحة 119، 124، 125، 160 .

حينما رأى علي ابن الحسين في موضع التجلة من الناس: (من هذا؟) تجاهلاً لأمره، وغضا من قدره. فشق ذلك على الفرزدق، فأجابه بقصيدته التي مطلعها:

هذا الذي تعرف البطحاء وطأته والبيت يعرفه والحل والحرم

فحبسه هشام ثم أطلقه بعد هجائه إياه. وتوفي الفرزدق بالبصرة سنة (110هـ) وقد شارف المائة.

شعره

كان الفرزدق فخوراً بأصله مدلاً بأهله، ولوعاً بتعداد مآثر آبائه حتى أمام الخلفاء، فغلب شعره في الفخر؛ ولغة الفخر تقتضي الألفاظ الضخمة، والأساليب الفخمة، والكلم الغريب، وذكر أيام العرب وأنسابهم، واحتذاء البادين في أساليبهم. لذلك أعجب به الرواة، وفضله النحاة، وقالوا: لولا شعر الفرزدق لذهب ثلث العربية. على أنه طالما تألم من صلابه شعره؛ وتمنى أن تكون له رقة جرير لعهد، ولجير صلابته لطره. وفي ذلك تأييد منه لحكم الأخطل عليهما بقوله: الفرزدق ينحت من صخر، وجريز يغرف من بحر. والفرزدق بعد ذلك في الهجاء مقذع، وفي الوصف مبدع، وفي المديح وسط، وفي الرأ متخلف.

نموذج من شعره

إذا اغبرَّ آفاق السماء وكشفت	بيوتاً وراء الحي نكباء حَزْجُف
وأصبح مبيض الصقيع كأنه	على سروات النيب قطن مندف
ترى جارنا فيه بخير وإن جنى	فلا هو مما ينطف الجار ينطف
وكنا إذا نامت كليب عن القرى	إلى الضيف نمشي بالعبيط ونلحف
لنا العزة القعساء والعدد الذي	عليه إذا عد الحصى يتخلف
ترى الناس لن سرنا يسرون خلفنا	وإن نحن أومأنا إلى الناس وقفوا
وإنك إذ تسعى لتدرك شأونا	لأنت المعنى يا جرير المكلف

وقال أيضاً:

ومستمح طاوى المصير كأنما
دعوت بحمراء الفروع كأنها
وإني سفيه النار للمبتغى القرى
إذا مت فابكيني بما أنا أهله
وكم قائل مات الفرزدق والندى!
ومن قوله في مدح علي بن الحسين:

هذا الذي تعرف البطحاء وطأته
هذا ابن خير عباد الله كلهم
وليس قولك (من هذا) بضائره
إذا رأته قريش قال قائلها
يفضي حياء ويفضي من مهابته
يكاد يمسكه عرفان راحته
ينشق نور الهدى عن نور غرته
من معشر حبهم دين وبغضهم
ومن أبياته السائرة قوله:

فيا عجباً حتى كليب تسبني
وقوله:

وكنا إذا الجبار صعر خده
وقوله:

ترجى ربيع أن يجيء صغارها
وقوله:

يساوره من شدة الجوع أولق
ذرى راية في جانب الجو تخفق
وإني حلیم الكلب للضيف يطرق
فكل جميل قلت في يصدق
وقائله مات الندى والفرزدق

والبيت يعرفه والحل والحرم
هذا التقي النقي الطاهر العلم
العرب تعرف من أنكرت والعجم
إلى مكارم هذا ينتهي الكرم
فما يكلم إلا حين يتسم
ركن الحطيم إذا ما جاء يستلم
كالشمس ينجاب عن إشراقها القتم
كفر وقربهم منجى ومعتصم

كأن أباهـا نهشل أو مجاشع

ضربناه حتى تستقيم الأخادع

بخير وقد أعيـا ربـيعاً كبارها

قوارص تأتي وتحتقرونها وقد يملأ القطر الإناء فيفعم
وقوله:

أحلامنا تزن الجبال رزاة وتخالنا جنا إذا ما نجهل
وقوله:

ترى كل مظلوم إلينا قراره ويهرب منا جهده كل ظالم

جرير⁽¹⁾

(المتوفى سنة 110 هـ)

نشأته وحياته

هو أبو حزمة جرير ابن عطية الخطفي التميمي. ولد باليمامة لسبعة أشهر، ونشأ بالبادية، فشب فصيح اللسان صحيح الوجدان مطبوع القريحة على الشعر. ولما آنس في نفس القدرة على قرضه، والجرأة على عرضه، ورد البصرة موطن الفرزدق يتجع الكرماء، ويمتدح الكبراء، ويمتار أهله. فازدهاه ما أرى على الفرزدق من حلل لنعمة ومظاهر الجاه بفضل الشعر، وهو تميمي مثله، فدب في قلبه ديب الحسد له، واشتهى أن يساويه في حسن حاله، ووفرة ماله.

فتولدت من تنافسهما وتزاحمهما أسباب المهاجاة بينهما. وأراد جرير أن يرامي قرنه عن كذب، فترك البادية واستوطن البصرة وغشى المربد⁽²⁾. ودخل في كنف الحجاج فحسن موقعه عنده، وطارت مدائحه فيه، حتى بلغت عبد الملك فنفسه على الحجاج. وأحسن الوالي رغبة الخليفة فأوفده مع ابنه محمد إلى دمشق، فلما دخل جرير على عبد الملك استأذنه فأبى، وقال له بلهجة العاتب الحنق: إنما أنت للحجاج! فما زال يتوسل إليه، ويتحمل بالناس عليه. حتى أنشدته قصيدته التي مطلعها:

أتصحو أم فؤادك غير صاح عشية هم صحك بالرواح؟
فلما وصل إلى قوله منها:

ألستم خير من ركب المطايا وأندى العالمين بطون راح؟

(1) راجع صفحة 120، 122، 128، 129، 130، 131، 132.

(2) المربد سوق من أسواق البصرة كانت تعرف بسوق الإبل ثم عمرها الناس واتخذوها في زمن بني أمية منتدى للشعر والخطابة، فألقت فيه حلقات المناشدة والمفاخرة، ومجالس الأدب والمذاكرة وأمها الشعراء والأشراف والرواة وطبقات شتى من الناس كل يوم للمنافرة والمحاکمة وتأريث نار الخصومة بين الشعراء، وكان لفحولهم فيها حلقات خاصة أشهرها حلقة الفرزدق والراعي.

تسم عبد الملك وقال: كذلك نحن ومازلنا كذلك. وأجازه بمائه لقحة وثمانية رعاء؛ وأصبح جرير بعد هذه القصيدة وهمود الأخطل أثر الشعراء عند الخلفاء ولاسيما عمر ابن عبد العزيز، ولكن زلفاه لدى القصر أشعلت نار الغيرة في قلوب مناظريه، فشنوا عليه حرب الهجاء، وأرث هذه الحرب أغراض السياسة، وتحريض الفرزدق، وضيق خلق جرير، وحب الناس لمشاهد الخصومة؛ فنصب لجرير من هؤلاء الأقران ثمانون شاعراً ظهر عليهم جميعاً⁽¹⁾ إلا الفرزدق والأخطل فإنهما نازعا الغلبة وثبتا له. ودامت هذه المهاجمة سجالاتاً بينهم حتى توفي الأخطل، ففرع جرير للفرزدق وكانت بينهما النقائص⁽²⁾ المشهورة التي لهج بها الناس، وشغل بها الشعراء، ثم بدا للفرزدق أن يكف، فكف وتنسك حتى مات. فمضى جرير لسبيله بعده ببضعة أشهر ودفن باليمامة سنة 110هـ.

شعره

برئ جرير من خبث الأخطل وسكره، ومن جفاء الفرزدق وفجره، وتجمل بصفاء الطبع، ورقة الشعور، ونقاء الجيب، وصحة الدين، وحسن الخلق، فظهر أثر ذلك كله في شعره، فامتاز بطلاوة الأسلوب، وحلاوة الغزل، ومرارة الهجاء، وإجادة الرثاء، وحسن التصرف في جميع فنون الشعر. فكان بذلك أظهر في سماء الشعر، وأقرب إلى صفة الشاعر، وأكثر أشياعاً من الأخطل والفرزدق. فإن الأول لم يجد إلا في المدح والهجاء والخمر، والثاني لم ينبغ إلا في الفخر.

(1) ظفر جرير بهؤلاء جميعاً بلسانه، فلا هو ذو نسب كريم يمدّه بالفخر. ولا ذو عترة قوية تساعد بالهيئة ن وهذا سر تفوقه وسبب تفضيله، وروى صاحب الأغاني أن رجلاً قال لجرير من أشعر الناس؟ فقال له: قم حتى أعرفك من هو، ودخل به بيت أبيه عطية وقد أخذ عنزة فاعتقلها وجعل يمس ضرعها، فصاح به: أخرج يا أبت؛ فخرج شيخ دميم رث الهيئة وقد سال لبن العنزة على لحيته، فقال جرير: أتعرف من هذا الرجل؛ قال الرجل لا؛ قال هذا أبي، كان يشرب من ضرع العنز مخافة أن يسمع صوت الحلب فيطلب منه لبن. وإن أشعر الناس من فاخر بهذا الأب ثمانين شاعراً وفاز عليهم.

(2) سميت بذلك لأن أحدهما يقول القصيدة فينتقضها عليه الآخر ملتزماً في ذلك ما التزمه صاحبه من الوزن والقافية.

نموذج من شعره

قال يهجو الفرزدق:

لقد ولدت أم الفرزدق مقرفاً
بوصل حبله إذا جن ليله
تدلّيت تزني من ثمانين قامة
هو الرجس يا أهل المدينة فاحذروا
فجاءت بوزار قصير القوادم
ليرقى إلى جارتة بالسّالِم
وقصرت عن باع العلى والمكارم
مداخل رجس بالخيشات عالم
لقد كان إخراج الفرزدق عنكم
طهوراً لما بين المصلى وراقم⁽¹⁾
ومن جيد قوله فيها:

تعالوا نحاكمكم وفي الحق مقنع
فإن قریش الحق لم تتبع الهوى
أذكركم بالله من ينهل القنا
وكنتم لنا الأتباع في كل موقف
إلى العز من أهل البطاح الأكارم
ولم يرهبوا في الله لومة لائم
ويضرب كبش الجحفل المتراكم؟
وريش الذنابي تابع للقوادم
وتخزيك يا ابن القين أيام دارم
ولا رق عظمي للضروس العواجم
وما زادني بعد المدى نقض مرة
ومن قوله يمدح عمر بن عبد العزيز:

إننا لنرجو إذا ما الغيث أخلفنا
نال الخلافة إذ كانت له قدرا
أذكر الجهد والبلوى التي نزلت
ما زلت بعدك في دار تعرفني
من الخليفة ما نرجو من المطر
كما أتى ربه موسى على قدر
أم تكتفي بالذي بلغت من خبري
قد طال بعدك إصعادي ومنحدري
ولا ينجع الحاضر المجهود بادينا
لا ينفق الحاضر المجهود بادينا

(1) راقم حصن من حصون المدينة.

كم بالمواسم من شعثاء أرملة ومن يتيم ضعيف الصوت والبصر
يدعوك دعوة ملهوف كأن به مسا من الجن أو رزاً من البشر
ممن يعدك تكفي فقد والده كالفرخ في العش لم ينهض ولم يطر
ومن أبياته التي تفرد بها قوله في الغزل:

إن العيون التي في طرفها حور قتلنا ثم لم يحين قتلانا
يصر عن ذا اللب حتى لا حراك به وهن أضعف خلق الله إنسانا
وقوله في الفخر:

إذا غضبت عليك بنو تميم حسبت الناي كلهم غضبانا
وفي الهجاء:

تغض الطرف إنك من نمير فلا كعباً بلغت ولا كلابا
وفي التهكم:

زعم الفرزدق أن سيقتل مربعاً أبشر بطول سلامة يا مربع؟
ومن جيد فخره قوله:

إن الذي جرم المكارم تغلبا جعل الخلافة والنبوة فينا
مضر أبي وأبو الملوك، فهل لكم يا خزر تغلب من أب كأبينا؟
هذا ابن عمي في دمشق خليفة لو شئت ساقكم إليّ قطينا

ويقال إن عبد الملك لما بلغته هذه الأبيات قال: ما زاد ابن المراغة على
أن جعلني شرطياً. أما إنه لو قال: لو شاء ساقكم إلى قطينا، لسقتهم إليه!

الطرماح بن حكيم

(المتوفى سنة 100 هـ)

نشأته وحياته

نشأ الطرماح بن حكيم الطائي بدمشق في النصف الأخير من القرن الأول. وظل في الشام غفلاً من الإغفال حتى بلغ حد الرجال فانتقل إلى الكوفة مع من وردها من جنود بني أمية، ونزل في تيم اللات ابن ثعلبة. وكان شيخ من الشراة⁽¹⁾ الأزارقة له سمت وهيئة، فكان يجالسه ويلا بسه؛ فوقفه على عقيدته ودعاه إلى طريقته، فقبلها واعتقدها أشد اعتقاد وأصححه حتى لقي الله عليها. ثم عرفت الكميت ابن زيد الأسدي، فتساهما الوفاء، وتقاسما المحبة، وتمكنت بينهما الألفة على اختلاف ما بينهما في النسب والمذهب والبلد. فالطرماح قحطاني شامي خارجي، والكميت عدناني كوفي شيعي. وقد سأل بعض الناس الكميت عن سر هذا الاتفاق مع شدة هذا الاختلاف فأجاب: "إنما اتفقنا على بغض العامة" وهذا الجواب تصديق أو تطبيق للمثل اللاتيني القائل: "كل الشعراء أرسقراطيون"⁽²⁾ وعاش الطرماح عيش الشعراء على فضل الأغنياء بمدح من يعطيه ويهجو من يمنعه، وهو مع ذلك عزيز النفس، شريف الطبع، بعيد الهمة لم يقفه المال على حبه إياه مواقف الضراعة والهوان. دخل هو والكميت على مخلد ابن يزيد المهلبى، فجلس لهما ودعاهما، فتقدم الطرماح لينشد، فقال له: أنشدنا قائماً. فقال: "كلا والله: ما قدر الشعر أن أقوم له فيحط

(1) الشراة: الخوارج، وهم طائفة ممن كانوا مع الإمام في حرب صفين، حملوه على قبول التحكيم بينه وبين معاوية فقبله، ولكن التحكيم جرى على غير الحق فأباه؛ فخر جواعليه وقالوا له لم حكمت الرجال؟ لا حكم إلا لله، وكبار فرق الخوارج ست: الأزارقة، والنجداث، والصفرية، والعجاردة، والأباضية، والثعلبية، والباقون فروعهم، وكلهم يجمعون على البراءة من عثمان وعلي؛ ويقدمون ذلك على كل طاعة، ويكفرون أصحاب الكبائر، ويرون الخروج على الإمام إذا خالف السنة أمراً واجباً. ويزيد الأزارقة الذين ينتمى إليهم الطرماح تكفير علي وتصويب فعل ابن ملجم قاتله، وقد غلوا حتى كفروا الصحابة وسائر المسلمين، وصاحبهم هو نافع ابن الأزرق.

مني بمقامي وأحط منه بضراعتي، وهو عمود الفخر، وبيت الذكر لمآثر العرب" ف قيل له: تنح ودع الكميـت، فأنشـد الكميـت قائماً له بخمسين ألف درهم، فلما خرج شاطرهما الطرمـاح وقال له: أنت أبا ضبيـبة أبعد همة، وأنا ألطف حيلة.

وكان الطرمـاح مع اعتداده بأمره وإعظامه لـقدره، معجباً بشعره فخوراً به. سمع هو وصاحبه الكميـت أبياتاً من ذي الرمة، وكان معاصراً لهما، فضرب الكميـت صدر الطرمـاح وقال: " هذا والله الـديبـاج لا نسجي ولا نسجك الكرابيس " فقال الطرمـاح: " لن أقول ذلك ولو أقررت بجودته ".

وكان الطرمـاح رغب العين يشره إلى المال، ويتشوف إلى الغنى ويقول:

أُمخَّرمي ريب المنون ولم أنل من المال ما أعصي به وأطيع؟

فدأب في سبيله وجد في تحصيله، ودعا الله ألا يموت حتف أنفه بل يموت ميتة الجاهدين أو المجاهدين، فيكون شهيد الدنيا أو شهيد الدين.

وفي ذلك قوله:

وإنني لمقتاد جوادي وقاذف به وبنفسي العام شتى المقاذف

لأكسب مالا أو أوول إلى غنى من الله يكفيني عدات الخلائف

فيا رب إن حانت وفاتي فلا تكن على شَرْجَع⁽¹⁾ يُغلى بخضر المطارف

ولكن قبـري بطن نسر مـقيله بجو السماء في نسور عواكف

وأمسي شهيداً ثاوياً في عصابة يصابون في فج من الأرض خائف

فوارس من شـيـان ألف بينهم تقي الله نزالون عند التراجف

إذا فارقوا دنياهمو فارقوا الأذى وصاروا إلى ميعاد ما في المصاحف

ولكن الله لم يستجب دعاءه فمات على فرش وحمل في نعش.

(1) الشرجع: النعش.

شعره

نشأ الطرماح نشأة حضرية، فما عرف البادية ولا لابس البدو. ولكنه عاش في الكوفة وألم بالبصرة فسمع الرواة والنحاة فيهما يؤثرون الأدب الجاهلي ويقدمون الشعر البدوي، لأنه موضع الشاهد، وموطن الغريب، فولد ذلك فيه وفي الكميت حب الغريب وتكلف الحوشي؛ فكان يتسقطه من الأعراب ويتلقطه من الرجاز، ويستعمله فلا يقع به في مكانه. قال العجاج: كان الطرماح والكميت يسألانني عن الغريب فأخبرهما به ثم أراه في شعرهما وقد وضعاه في غير موضعه. فقيل له: ولم ذلك؟ فقال: لأنهما قرويان يصفان ما لم يريا. ومن ثم كان الأصمعي وأبو عبيدة يعيان شعرهما في الإسلاميين، كما عابا شعر عدي ابن زيد وأمية ابن أبي الصلت في الجاهليين. وإنك لتري أثر هذا الميل ظاهراً في شعره، فبينما يأتيك بالأبيات الرقيقة الأنيقة العذبة، إذا به يرميك بالأبيات الغريبة البعيدة الفجة، فيشوه شعره ويكدر بحره. وقد سئل ابن الأعرابي عن ثمانين عشرة مسألة من شعر الطرماح فلم يعرف منها واحدة! على أنه معدود في الفحول من الشعراء الإسلاميين، وله مذهب معروف في الهجاء يركب له المبالغة في تصغير شأن المهجور وتحقير أمره فكأنما يوحى إليه. وكان الكميت وهو معاصره ومعاشره يقر له بالنبوغ في نواح كثيرة من نواحي الفضل، فقد انشد يوماً قول الطرماح:

إذا قبضت نفس الطرماح أخلقت عرى المجد واسترخى عنان القصائد

فقال: أي والله! وعنان الخطابة والرواية والفصاحة والشجاعة.

نموذج من شعره

الطرماح من أصحاب الملحومات، وملحمته تترك التفاوت بين السهل الطبيعي والوعر المتكلف، ومطلعها:

قل في شط نهروان اغتماضي	ودعاني هوى العيون المراض
فتطربت للصبأ ثم أوقفت	رضا بالتقى وذو البر راضي
وأراني المليك رشدي وقد كد	ت أخا عنجهية واعتراض

غير ما ربية سوى ريق الغرة (م)
ثم ارعويت بعد البياض
ومنها:

وجرى بالذي أخاف من البين (م)
صَيْدِحِي الضحى كأن نساها
سَوْفَ تُدْنِيكَ مِنْ لَمِيسٍ سَبْتَاةٌ
أَمَارَتْ بِالْبَوْلِ مَاءَ الْكِرَاضِ
فهي قوداء أنفجت عضداها
عن زحاليف صفصف ذي دحاض
ويقول في آخرها:

إننا معشر شمائلنا الصبر
نصر للذليل في ندوة الحي
لم يفتنا بالوتر قوم وللضميم
إذا الخوف مال بالأخفاض
مراثيب للثأى المنهاض
فسلي الناس إن جهلت وإن شئت
رجال يرضون بالإغماض
قضى بيننا وبينك قاضي
ومن قوله:

لقد زادني حبا لنفسي أنني
وأني شقي باللئام ولا ترى
ومن قوله يهجو بني تميم:

لو حان ورد تميم ثم قيل لها
أو أنزل الله وحيًا أن يعذبها
لا عز نصر امرئ أضحى له فرس
حوض الرسول عليه الأزد لم ترد
إن لم تعد لقتال الأزد لم تعد
لو كان يخفى على الرحمن خافية
على تميم يريد النصر من أحد
من خلقه خفيت عنه بنو أسد

النثر

الخطابة

كان ظهور الإسلام بالدعوة العظمى من أهم الأسباب التي بلغت بالخطابة غاية كمالها، وجعلت الأمر في أيدي رجالها. فإن الدعوة إلى الدين، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وقمع الفتن، ورد البدع، وتحميس الجند، كل أولئك من أغراض الخطابة، وكان لها من آي القرآن وحججه معين لا ينضب، وممدد لا ينفد. ولما اختلف المسلمون بعد مقتل عثمان وتعددت الفرق رقت الخطابة رقيا عظيما، لاعتماد كل حزب عليها في نشر نحلته. وتأييد دعوته.

وأهم ما يميزها في هذا العصر عذوبة ألفاظها، ومتانة أسلوبها، وقوة تأثيرها واقتباسها من القرآن وانتهاجها منهجه في الإرشاد والإقناع، وابتدائها بحمد الله والصلاة على رسوله.

وظل العرب على ما ألفوه في الجاهلية من لوث العمامة واتخاذ المخصرة والوقوف على نشز من الأرض، والخطبة من قيام، إلا الوليد ابن عبد الملك فإنه خطب وهو جالس.

وجملة القول أن ليس في عصور اللغة عصر زها بالخطابة وحفل بالخطباء كهذا العصر لانصراف العرب عن الشعر إليها. اعتمادهم في الدين والسياسة عليها.

أشهر خطبائه الرسول صلى الله عليه وسلم، والخلفاء الراشدون، وسحبان وائل، وزيد ابن أبيه، والحجاج بن يوسف، وقطري بن الفجاءة.

محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم مولده ونشأته وبعثته

ولد سيدنا محمد ابن عبد المطلب ابن هاشم القرشي في مكة صباح اليوم التاسع أو الثاني عشر من شهر ربيع الأول، لأول عام من حادثة الفيل، أو اليوم العشرين من شهر ابريل سنة 571 للميلاد، في مهد اليتيم والعدم، فقد استوفى أبوه ظم حياه حين كان هو جنيناً. ولم يكد يحبو للسادسة من عمره حتى استأثر الله بأمه، فحضنه جده ستين حضانة إعزاز ومحبة. ثم أوصى به قبل وفاته إلى أبي طالب شقيق أبيه، فكلفه على رقة حاله وكثرة عياله. ولو جرى الأمر على منهاج الطبيعة لشب محمد على أخلاق اليتامى وعاد الجاهلية، ولكن الله تولى تأديبه وتهذيبه، فكلمه بالعقل الرجيح، والخلق السجيج، والنفس الرضية، والحياة الوقور، والحلم الرفيق، والصبر المطمئن، والصفح الجميل، واللسان الصادق، والذمة الوثيقة، والجأش القوي، والفؤاد الجميع. ثم طهره من أرجاس الوثنية، فلم يشرب الخمر، ولم يأكل مما ذبح على النصب، ولم يشهد للأوثان عيداً ولا حفلاً، وسمت نفسه الكبيرة على حادثها إلى ابتغاء الرزق بحيلته وكده، فتصرف في التجارة على عادة قومه حاسراً لها عن ساقه ويده. وشاعت له في الناس فضائل الصدق والحدق والأمانة، فطلبت إليه السيدة خديجة بنت خويلد إحدى عقائل القرشيين وغنياتهم أن يتجر في مالها، فسافر إلى الشام مع خادمها ميسرة فنجحت سفرتة وربحت صفقته. ثم ارتد إلى مكة فهز من عطف السيدة ما رأت من جزالة الربح وأمانة الربح فخطبته إلى نفسها، وهي في سن الأربعين وهو في حدود الخامسة والعشرين، فرضى زواجها، وخطبها عمه إلى عمها، وكان لها من جليل الأثر في الإسلام سهم ربيع. ثم مضى الرسول يضرب في الآفاق إلى الأسواق يكسب لأهله، وينمي ثروة زوجه؛ ونفسه عازفة عن متع الحياة، صادفة عن لذاعة العيش، فلم يطمع في ثراء ولم يطمح إلى منصب، بل كان يخلو ذرعه من صوارف الدنيا الليالي

الطوال فيعتكف في غار حراء يتعبد ويتأمل، ويتجه بروحه الصافي اللطيف إلى الملاء الأعلى حتى أوحى إليه في هذا الغار بالرسالة والمعجزة وعمره يومئذ أربعون سنة قمرية وستة أشهر. فانقلب إلى زوجته مضطرباً فطمأنته وقالت له: والذي نفس خديجة بيده لا يخزيك الله أبداً! إنك لتصل الرحم، وتصدق الحديث، وتؤدي الأمانة، وتحمل الكل، وتقري الضيف، وتعين على نوائب الحق. وفتّر الوحي مدة، ثم نزل على قلبه الروح الأمين بقول الله تعالى: ﴿يَأْتِيهَا الْمَدِيرُ ۝١﴾ ﴿فُؤَادِنَا ۝٢﴾ ﴿وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ ۝٣﴾ [المدرثر: 1 - 3] فقام بأعباء الرسالة والتبليغ ثلاث حجج في طي الخفاء. ثم أمر أن يصدع بالدعوة، فعان بها قريشاً وسفه أحلامها، وعاب أصنامها، فكاشفوه بالعداء، وقصدوه بالإيذاء، ونصبوا له الحبائل، وتربصوا به الدوائر، وهو يتلقى كل ذلك بجنة الصبر وعدة الإيمان، ومن ورائه عمه أبو طالب يذود عنه ويحميه، وزوجه السيدة خديجة تواسيه وتقويه، حتى سلخ على هذه الحال الشديدة عشر سنين. وفي السنة العاشرة من رسالته فجعه الموت في ذلك العم النبيل، وفي تلك الزوجة الفاضلة في يومين متقاربين، فاشتد عليهما حزنه، وخرج بعدهما في مكة مقامه. فانتوى الهجرة بالمسلمين إلى المدينة - وقد أسلم فيها كثير من الأوس والخزرج - فأحس المشركون منه هذا العزم فائتمروا به ليقتلوه. ولكنه خرج ليلة اجتماعهم على قتله هو وصديقه أبو بكر إلى المدينة تكلؤهما عين لا تغفو وقوة لا يقام لها بسبيل. فبلغها يوم الجمعة الثاني عشر من شهر ربيع الأول سنة 530 من مولده، وهو يوافق اليوم الرابع والعشرين من سبتمبر سنة 622م. فكانت هذه الهجرة المباركة مبدأ لعلو كلمته وانتشار دعوته وتمام نصرته. واستمر يجاهد المشركين: يجادلهم بالقرآن، ويجادلهم بالسيف، حتى انحسر العمى وإنجاب الشرك، وعلت شمس التوحيد في أفق الوجود. وحيث نزل قول الله تعالى: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا ۝١﴾ [المائدة: 3] فلم يأت على نزول هذه الآية الكريمة ثلاثة أشهر حتى مرض الرسول بالحمى ولحق عليه الصلاة والسلام بالرفيق الأعلى يوم الاثنين 13 من ربيع الأول سنة 11 هجرية، 8 من يونيو سنة 632 ميلادية.

صفته

وصفه بعض من رآه قال. كان رسول الله صلى الله عليه وسلم فخمًا يتلألأ وجهه تلألؤ القمر ليلة البدر، أطول من المربع⁽¹⁾ وأقصر من المشذب؛ عظيم الهامة، رجل الشعر، إن انفرقت عقيقته فرق، وإلا فلا يجاوز شعره شحمة أذنيه إذا هو وفره؛ أزهر اللون، واسع الجبين، أزج الحواجب سوابغ من غير قرن، بينهما عرق يدره الغضب، أقنى العرنين له نور يعلوه، ويحسبه من يتأمله أشم؛ كث اللحية، أدعج، سهل الخدين، ضليع للفم، أشنب مفلج الأسنان، دقيق المسربة، كأن عنقه جيد دمية في صفاء الفضة؛ معتدل الخلق بادناً متماسكا سواء البطن والصدر، بعيد ما بين المنكبين، ضخم الكراديس، اشعر الذراعين والمنكبين وأعالي الصدر، طويل الزندين، رحب الراحة، شثن الكفين والقدمين، سائل الأطراف، سبك العصب، خمسان الأخصمين، مسيح القدمين ينبو عنهما الماء. إذا زال تقلعاً، ويخطو تكفوًا، ويمشي هوناً. ذريع المشية، إذا مشى كأنما ينحط من صلب، وإذا التفت التفت جميعاً، خافض الطرف، نظره إلى من لقيه بالسلام. وكان صلى الله عليه وسلم متواصل الأحزان دائم الفكرة طويل السكوت، يفتح الكلام ويختمه بأشداقه، ويتكلم بجوامع الكلم؛ دمثا ليس بالجافي ولا المهين. إذا أشار أشار بكفه كلها، وإذا تعجب قلبها، وإذا تحدث اتصل بها فضرِبَ بإبهامه اليمنى راحته اليسرى، وإذا غضب أعرض وأشاح، وإذا فرح عض طرفه. جل ضحكه التبسم، ويفتر عن مثل حب الغمام.

فصاحته

تقلب رسول الله صلى الله عليه وسلم في أخلص القبائل منطقاً وأعذبها بياناً؛ فولد في بني هاشم، ونشأ في قريش، واسترضع في بني سعد. فكان أفصح العرب لساناً بالفطرة. وقد حدث بذلك عن نفسه فلم يزيّف حديثه ولم يدفع قوله. وفصاحة الرسول أشبه بالإلهام والفيض، فلم يعانها ولم يتكلفها ولم يرتض لها، وإنما أسلست له الألفاظ وأسمحت له المعاني فلم يند في

(1) انظر شرح هذا كله في آخر الكتاب.

لسانه لفظ، ولم يضطرب في أسلوبه عبارة، ولم يعزب عن علمه لغة، ولم ينب عن خاطره فكرة وكان كلامه كما قال الجاحظ: الكلام الذي قل عدد حروفه وكثر عدد معانيه، وجل عن الصنعة ونزه عن التكلف. استعمل المبسوط في موضع البسط، والمقصور في موضع القصر، وهجر الغريب الوحشي، ورغب عن الهجين السوقي، فلم ينطق إلا عن ميراث حكمة، ولم يتكلم إلا بكلام قد حف بالعصمة، وشد بالتأييد، ويسر بالتوفيق. ثم لم يسمع الناس بكلام قط أعم نفعاً، ولا أصدق لفظاً، ولا أعدل وزناً، ولا أجمل مذهباً، ولا أكرم مطلباً، ولا أحسن موقعاً، ولا أسهل مخرجاً، ولا أفصح من معناه، ولا أبين عن فحواه، من كلامه صلى الله عليه وسلم.

أثر الحديث في اللغة والأدب⁽¹⁾

أما أثر هذه البلاغة الروحية والفصاحة النبوية في اللغة وآدابها فأبين من أن يبين، فإنه عليه الصلاة والسلام قد اجتمع له ما لم يجتمع لغيره من قوة الطبع وصفاء الحس ومحض السليقة وثقوب الذهن وتمكن اللسان ومؤازرة الوحي، فكان يقتضِب ويتجاوز ويشتق، وينهج المذاهب البيانية، ويرتجل الأوضاع التركيبية، ويضع الألفاظ الاصطلاحية، فيصبح ما أمضاه من ذلك حسنة من حسنات البيان، وسرا من أسرار اللسان، يزيد في ميراث اللغة، ويرفع من قدر الأدب. كقوله عليه الصلاة والسلام: مات حتف أنفه⁽²⁾. الآن حمى الوطيس. هدنة على دخن. يا خيل الله اركبي. لا ينتطح فيها عنزان. وقوله الحادي النساء رويدك! رفقا بالقوارير. وقوله في يوم بدر: هذا يوم له ما بعده. ناهيك بما استحدثه عليه الصلاة والسلام من أساليب الدين وألفاظ الشريعة مما لم يأت به الكتاب.

(1) راجع صفحتي 108، 109.

(2) روى عن علي ابن أبي طالب رضي الله عنه أنه قال: ما سمعت كلمة غريبة من العرب إلا وسمعتها من رسول الله (ص). وسمعتة يقول: مات حتف أنفه وما سمعتها من عربي قبله: فوردوها إذن في لامية السموءل المشهورة دليل على أن هذه القصيدة منحولة كلها أو بعضها.

عمر بن الخطاب

نشأته وحياته

ولد أبو حفص عمر الفاروق ابن الخطاب القرشي بعد مولد الرسول صلى الله عليه وسلم بثلاث عشرة سنة، ونشأ نشأة الفتيان من قريش، فرعى الماشية صغيراً، ومارس التجارة والحرب كبيراً، ثم أخذ نفسه بثقافة الأشراف من قومه، فتعلم الكتابة، وتقلب في التجارات بين اليمن والحبشة جنوباً، والشام والعراق شمالاً حتى فخم أمره وعظم قدره. واشتهر في الناس ببلاغة اللسان، وثبات الجنان، وقوة الشكيمة، ومضاء العزيمة، فجعلت له قريش السفارة بينهم وبين قبائل العرب في السلم والحرب. ولما جاء الإسلام عارضه وناهضه. ولج في الخصومة والإنكار على متبعية، والمسلمون يومئذ لا يزيدون على خمسة وأربعين وجلاً وثلاث عشرة امرأة يجتمعون سرّاً في دار الأرقم المخزومي، فكان الرسول صلى الله عليه وسلم يدعو الله أن يعز الإسلام به أو بأبي جهل، فاختره الله لهذه السعادة، وشرح صدره للشهادة. وذلك أنه دخل على ختنه يؤنبه ويعذبه على إسلامه. فلحنه أخته وأخرجت له صحيفة فيها آيات من سورة طه، فلما قرأها تعظمت في صدره وقال: أمن هذا فرت قريش؟ ثم سأل ابن الرسول؟ فقبل له في دار الأرقم. قال عمر: "فأتيت فضربت الباب فاستجمع القوم. فقال لهم حمزة: ما لكم؟ ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم فخرج، فتشهدت، فكبر أهل الدار تكبيرة سمعها أهل مكة. قلت يا رسول الله ألسنا على الحق؟ قال بلى! قلت: ففيم الاختفاء؟ فخرجنا صفين أنا في أحدهما وحمزة في الآخر حتى دخلنا المسجد. فنظرت قريش إلي وإلي حمزة فأصابتهن كآبة شديدة. فسماني رسول الله صلى الله عليه وسلم الفاروق يومئذ".

كان ذلك وسنه ست وعشرون سنة والأذى قد اشتد بلاؤه بالمسلمين فاحتمل منه نصيبه، وعادى في الله صديقه ونسيبه، حتى تسلل المؤمنون ليواداً إلى المدينة فارين من العذاب والفتنة. فلم يشأ عمر الجريء الباسل أن يخفي هجرته، وإنما تقلد سفيهه وتنكب قوسه وأتى الكعبة وأشراف قريش بفنائها،

فطاف وصلى، ثم أقبل عليهم وقال: "شاهت الوجوه! من أراد أن تثكله أمه ويستم ولده وترمل زوجته فليلقني وراء هذا الوادي!" فلم يتبعه أحد.

ولم يزل مع رسول الله صاحب الأمين يؤيده بسنانه ولسانه، ويرى له الرأي فيقره القرآن في بعض الحوادث، حتى قبض الرسول واختلف الأنصار والمهاجرون فيمن يكون الخليفة، فأيد هو أبا بكر حتى تمت له البيعة. وقام منه في خلافته مقام المستشار المؤتمن والقاضي العدل، حتى حضر الموت أبا بكر فلم يجد غيره من يعهد إليه بالخلافة فتولاها بقوة المؤمن المخلص، وعزيمة القوي الشجاع، وحنكة لشيخ المجرب، وحكمة العبقري الأريب، ووضع يده على ملكوت كسرى وقيصر، وطفق وحده وهو في قلب الصحراء الجديدة يدبره ويسوسه. فيولى الولاة، ويختار القضاة، وينصب القواد، ويحرك الأجناد، ويبعث المداد، ويرسم الخطط، ويخطط المدن، ويسن السنن، ويقسم الفيء ويقيم الحدود، مما ينوء بالحكومات ويلتوي على المجالس. وكل ذلك في سداد رأى وثقوب ذهن وبعد نظر ومضاء عزم. وكل ذلك وهو يفتersh الغبراء، ويعايش الدهماء، ويتدثر بالثوب الخلق، ويأتدم بالخل والزيت ولا تزيد نفقته من بيت المال على درهمين في اليوم. ولا تزال خلافته مثلاً من المثل العليا في النظام والعدل والأمن. ولكن عمر الذي أَرْضَى الله والناس بعدله وفضله، لم يرض عبداً مجوسياً اسمه لؤلؤة، إذ نصح له أن يحسن إلى مولاه المغيرة ابن شعبة، وألا يستكثر عليه درهمين في اليوم يؤديهما إليه، وهو نجار ونقاش وحداد، فاحتقد عليه هذه النصيحة، ودب إليه في الفلس وهو قائم يصلي بالناس في الفجر فطعنه بخنجر ذي نصلين طعنات كانت سبب موته. وذلك ليلة الأربعاء لثلاث بقين من ذي الحجة سنة 23هـ.

صفاته ومواهبه

كان أمير المؤمنين عمر طويلاً جسيماً، أبيض شديد الحمرة، أصلع أسيب، خفيف شعر العارضين، أصهب طرف السباب كبيره. وكان رفيقاً رقيقاً إلا إذا وجب الحق فلا تأخذه فيه هواده. وقل من سلم من كبار الصحابة وأشرف القبائل من درته (عصاه). وكان محصد الرأي، محكم الحيلة، موثق الحجة،

شديد الورع، طاهر اليد، وساع العلم، حافل الخاطر بالحكمة، بارع الفقه في الدين، إذا ذكرت عليك ببلاغة اللسان ذكرته هو ببلاغة العقل. وحسبك أن تقرأ له عهوده وكتبه للقضاة والولاة والقادة فتري منه الفقيه المجتهد، والإداري الحازم والسياسي المحنك، وكل ذلك دون تلقين ولا وحي ولا اقتداء، وإنما هو فضل الله يؤتيه من يشاء.

نموذج من عهوده وخطبه

ذلك عهده إلى أبي موسى الأشعري حين ولاه القضاء، والقضاء، وقد اعتبره جمهور من القضاة أساساً للنظام وقاعدة للأحكام وما أجدره بذلك!.

بسم الله الرحمن الرحيم. من عبد الله عمر أمير المؤمنين إلى عبد الله ابن قيس، سلام عليك. أما بعد فإن القضاء فريضة محكمة وسنة متبعة. فافهم إذا أدلى إليك فإنه لا ينفع تكلم بحق لا نفاذ له. آس بين الناس في وجهك وعدلك ومجلسك، حتى لا يطمع شريف في حيفك، ولا ييأس ضعيف من عدلك البينة على من ادعى واليمين على من أنكر. والصلح جائز بين المسلمين إلا صلحاً أحل حراماً أو حرم حلالاً. لا يمنعك قضاء قضيته اليوم فراجعت فيه نفسك وهديت فيه لرشدك أن ترجع إلى الحق فإن الحق قديم، ومراجعة الحق خير من التماذي في الباطل. الفهم الفهم فيما تلجلج في صدرك مما ليس في كتاب ولا سنة. ثم أعرف الأشباه والأمثال فقس الأمور عند ذلك، وأعمد إلى أقربها عند الله وأشبهها بالحق. واجعل لمن ادعى حقاً غائباً أمداً ينتهي إليه، فإن أحضر بينته أخذت له بحقه وإلا استحلت عليه القضية، فإنه أنفى للشك وأجلى للعمى. المسلمون عدول بعضهم على بعض إلا مجلوداً في حد، أو مجرباً عليه شهادة زور، أو ظنياً في ولاء أو نسب، فإن الله تولى منكم السرائر ودرأ بالبينات والأيمان. وإياك والغلق والضجر والتأذي بالخصوم والتنكر عند الخصومات، فإن الحق في مواطن الحق يعظم الله به الأجر ويحسن به الذخر؛ فمن صحت نيته وأقبل على نفسه كفاه الله ما بينه وبين الناس. ومن تخلق للناس بما يعلم الله أنه ليس من نفسه شأنه الله، فما ظنك بثواب غير الله في عاجل رزقه وخزائن رحمته؟ والسلام.

ومن خطبة له رضي الله عنه:

أيها الناس! إنه أتى على حين وأنا أحسب أن من قرأ القرآن إنما يريد الله وما عنده. ألا وإنه قد خيل إلي أن أقوماً يقرءون القرآن يريدون ما عند الناس. ألا فأريدوا الله بقراءتكم وأريدوه بأعمالكم، فإنما كنا نعرفكم إذ الوحي ينزل، وإذ النبي صلى الله عليه وسلم بين أظهرنا، فقد رفع الوحي وذهب النبي عليه السلام، فإنما أعرفكم بما أقول لكم: ألا فمن أظهر لنا خيراً، ظننا به خيراً وأثينا له عليه، ومن أظهر لنا شراً ظننا به شراً وأبغضنا عليه.

اقدعوا هذه النفوس عن شهواتها فإنها طلعة. وإياكم ألا تقدعوها تنزع بكم إلى شر غاية. إن هذا الحق ثقیل مرئ، وإن الباطل خفيف وبیء، وترك الخطيئة خير من معالجة التوبة.

علي ابن أبي طالب

(المتوفى سنة 40 هـ)

ولد أمير المؤمنين علي ابن أبي طالب قبل الهجرة بإحدى وعشرين سنة، وربى مع الرسول في بيته تخفيفاً عن أبيه. ولما بعث النبي صلى الله عليه وسلم بالرسالة كان علي مراهقاً، فأمن به وشب على حبه، وتغلغل أصول الدين في قلبه، وخاطر بنفسه في سبيل الرسول ليلة هجرته، وأبلى البلاء الحسن في تأييده ونصرته، وشهد الغزوات كلها إلا تبوك فقد خلفه النبي فيها على أهله. فلما لحق الرسول بربه كان علي يرى أنه أحق بخلافته لمكانته من شرف القرابة والصهر. فلما بايع المسلمون أبا بكر وقام بعهدده من بعده عمر، وأخطأته الشورى إلى عثمان، ناوص الجرة ثم سالمها، متحاملاً في كل ذلك على نفسه. وقتل عثمان فبايعه الناس في الحجاز، وامتنع معاوية وأهل الشام معه غضباً لمقتل عثمان وعود علي عن القتلة. وكان ما كان من الفتنة التي حللت العقد، وأوهنت العرى، وقسمت المسلمين إلى طائفتين تعادتا واقتلتا حيناً من الدهر. ثم قرت السيوف في الغماد دون أن يستوثق الأمر لأحد الرجلين. واثمر ثلاثة من الخوارج بزعماء هذه الفتنة الثلاثة: معاوية وعمرو ابن العاص وعلي. فكان أمير المؤمنين نصيب ابن ملجم، فقتله غيلة بمسجد الكوفة سنة 40 هـ وقد مضى على خلافته أربع سنين وتسعة أشهر إلا أياماً.

أخلاقه ومواهبه

كان علي كرم الله وجهه قوي العضل صادق البأس شجاع القلب لا يبالي أوقع على الموت أم وقع الموت عليه. وكان حجة في الفقه، قدوة في الورع، شديد الشكيمة في الحق، قوي الثقة بالنفس، لا يعرف الهوادة في الدين ولا المرونة في الدنيا، فكانت هذه الخلال الكريمة من أنصار معاوية الداهية في الخلاف عليه. ولا تعلم بعد رسول الله فيمن سلف وخلف أفصح من علي من المنطق، ولا أبل ريقاً في الخطابة. كان حكيماً تتفجر الحكمة من بيانه، وخطيباً تتدفق البلاغة على لسانه، وواعظاً ملء السمع والقلب، ومرسلاً بعيد غور الحجة، ومتكلماً يضع لسانه حيث شاء. وهو بالإجماع أخطب المسلمين وإمام

المنشئين، وخطبه في الحث على الجهاد، ورسائله إلى معاوية، ووصفه الطاووس والخفاش والدينا، وعهده للأشتر النخعي إن صح ذلك قد تهيأ له إلا لشدة خلاطه للرسول ومرانته منذ الحداثة على الخطابة له والخطابة في سبيله.

نموذج من كلامه

كلام أمير المؤمنين يدور على أقطاب ثلاثة. الخطب والأوامر، والكتب والرسائل، والحكم والمواعظ. وقد جمعها على هذا النسق الشريف الرضى في كتاب سماه (نهج البلاغة) لأنه كما قال بحق: "يفتح للنظر فيه أبوابها، ويقرب عليه طلابها، فيه حاجة العالم والمتعلم، وبغية البليغ والزاهد، ويضيء في أثنائه من الكلام في التوحيد والعدل ما هو بلال كل غلة، وجلاء كل شبهة" والصحيح أن أكثر ما في هذا الكتاب منحول مدخول.

فمن خطبه عليه السلام وقد قام إليه رجل من أصحابه فقال: نهيتنا عن الحكومة ثم أمرتنا بها فلم ندر أي الأمرين أرشد. فصفق عليه السلام إحدى يديه على الأخرى ثم قال: هذا جزاء ترك العقدة! أما والله لو أني حين أمرتكم بما أمرتكم به حملتكم على المكروه الذي يجعل الله فيه خيراً، فإن استقمتم هديتكم، وإن اعوججتم قومتكم، وإن أبيتم تداركتكم، لكانت الوثقى. ولكن بمن وإلى من؟ أريد أن أداوي بكم وأنتم دائي، كناقش الشوكة بالشوكة وهو يعلم أن ضلعها معها. اللهم قد ملت أطباء هذا الداء الدوى، وكلت النزعة بأشطان الركي! ابن القوم الذين دعوا إلى الإسلام فقبوه، وقرأوا القرآن فأحكموه، وهيجوا إلى القتال فوله القلاح إلى أولادها، وسلبوا السيوف أغمادها، وأهذوا بأطراف الأرض زحفاً زحفاً، وصفاً صفاً، بعض هلك، وبعض نجا، لا ييشرون بالأحياء، ولا يعزون بالموتى. مره العيون من البكاء، خمص البطون من الصيام، ذبل الشفاء م الدعاء، صفرا الألوان من السهر، على وجوههم غبرة الخاشعين. أولئك إخواني الذاهبون! فحق لنا أن نظماً إليهم ونعص الأيدي على فراقهم.

إن الشيطان يسني لكم طريقة، ويريد أن يحل دينكم عقدة عقدة، ويعطيكم بالجماعة الفرقة. فاصدقوا عن نرغاته ونفثاته، واقبلوا النصيحة ممن أهداها إليكم واعقلوها على أنفسكم.

ومن كلام له رضي الله عنه:

ألا وإن الخطايا خيل شمس حُمِلَ عليها أهلها، وخُلعت لجمها فتقحمت بهم في النار. وإن التقوى مطايا ذلل حمل عليها أهلها، وأعطوا أزمته فأورثهم الجنة. حق وباطل، ولكل أهل. فلئن أمر الباطل فقديماً فعل، ولئن قل الحق فلربما ولعل، ولقلما أدبر شيء فأقبل. شغل من الجنة والنار أمامه. ساع سريع نجا، وطالب بطئ رجا، ومقصر في النار هوى، اليمين والشمال مضلة، والطريق الوسطى هي الحادة، عليهما باقي الكتاب وآثار النبوة، ومنها منفذ السنة، وإليها مصير العاقبة.

سحبان وائل

(المتوفى سنة 54 هـ)

نشأته وحياته

نشأ سحبان بن زفر بن إباد في الجاهلية بين قبيلة وائل من ربيعة، ثم دخل في الإسلام عند ظهوره، واتصل بمعاوية، فحسن موقعه لديه، واعتمد في يوم الكلام عليه. وكان سحبان خطيباً غمر البديهة، قوي العارضة، متصرفاً في فنون الكلام، كأنما يتلو عن ظهر قلبه. وبه يضرب المثل في كل ذلك.

قدم على معاوية وفد من خراسان فطلب سحبان فلم يجده في منزله، فاقترض من حيث كان وأدخل عليه. فقال له معاوية: تكلم. فقال: أحضروا إلي عصا. قالوا وما تصنع بها وأنت بحضرة أمير المؤمنين؟ قال: ما كان يصنع بها موسى وهو يخاطب ربه. فضحك معاوية وأمر له بها. فلما جاءته ركلها ولم ترق في نظره، فجاءوه بعصا، وخطب من صلاة الظهر إلى أن حان وقت العصر ما تنحج ولا سعل ولا توقف ولا تلكاً ولا ابتداءً في معنى وخرج منه وقد بقى فيه شيء. فما زالت تلك حالة حتى دهش منه الحاضرون. فأشار إليه معاوية بيده فأشار إليه سحبان: لا تقطع على كلامي! فقال معاوية: الصلاة! قال هي أمامك! نحن في صلاة وتحميد، ووعد ووعد. فقال معاوية! أنت أخطب العرب، قال سحبان: والعجم والجن والإنس. وهذه الحادثة تدل على قوته وجرأته وغزارة بحره، ومعرفته لقدره. ولكن المأثور من خطبه قليل في جانب شهرته. ولعل خلوه من الجاه والرياسة، وبعده عن الأحزاب والسياسة، وطول خطبه ووحدة موضوعها صرف الرواة عنه. كانت وفاته في خلافة معاوية سنة 54 هـ.

نموذج من خطبه

إن الدنيا دار بلاغ، والآخرة دار قرار. أيها الناس فخذوا من دار ممركم إلى دار مقركم، ولا تهتكوا أستاركم، عند من لا تخفي عليه أسراركم؛ وأخرجوا من الدنيا قلوبكم، قبل أن تخرج منها أبدانكم، ففيها حياتكم، ولغيرها خلقتم، إن الرجل إذا هلك، قال الناس ما ترك؟ وقالت الملائكة ما قدم؟ فقدموا بعضاً يكون لكم، ولا تخلفوا كلاً يكون عليكم.

زياد ابن أبيه

(المتوفى سنة 53 هـ)

نشأته وحياته

كان للحارث بن كلدة الثقفي طيب العرب أمة بغى تدعى سمية، وعبد رومي يسمى عبيداً. فزوج العبد من الأمة. فولدت على فراشه زياداً في السنة الأولى من الهجرة! وقد ضربت فيه بعرق أشب فنشأ أريباً أديباً. ولم يكد أمر المسلمين يتسع ويتسق حتى دلت عليه كفايته، فاستكتبه أبو موسى الأشعري وإلى البصرة من قبل عمر، فتجلى نبوغه وظهر حذقه. ثم تقلبت به الأمور في عهد عمر حتى شاء أن يعزله عن عمله " لا لخيانة ولا لعجز، وإنما كره أن يحمل على الناس فضل عقله " على أن عمر كان يستكفيه المهم من أموره فيكفيه غير عاجز ولا مقصر. وخطب بين يديه يوماً في حضرة المهاجرين والأنصار خطبة لم يسمعوا مثلها. فقال عمرو ابن العاص: لله در هذا الغلام! لو كان أبوه من قريش لساق العرب بعصاه. وبلغ من إعجاب أبي سفيان به أن اعترف بعد إسلام لعلية قريش وفيهم علي أن زياداً ابنه، اشتملت عليه أمه منه وهو مشرك، ولكن خوفه من عمر منعه أن يلحقه بنسبه. ولما تولى الخلافة أمير المؤمنين علي وجد اليد المصرفة، والرأي الجميع، واللسان الذرب، فاستعمله، فراض له الأمور، وسد الثغور، وأحكم السياسة. وحاول معاوية أن يستميله إليه فأعياه حتى قتل علي، فرأى أن يستخلص مودته باستلحاقه بنسب أبيه وادعائه أخاً له، فصار يدعي بعد ذلك زياد ابن أبي سفيان. ولكن كثيراً من الناس لا يعترف له بهذا النسب، ثم ولاه المصريين، وهو أول من جمعا له فكان يقيم في البصرة ستة أشهر وفي الكوفة مثلها. كانت وفاته بالطاعون 53 هـ.

أخلاقه ومواهبه

كان زياد من ذوي الأحلام الوافرة والأذهان الحاضرة واللسان الفتيق، قال فيه الشعبي: ما سمعت متكلماً على منبر قط تكلم فأحسن إلا أحبيت أن يسكت خوفاً من أن يسيء إلا زياداً؛ فإنه كلما أكثر كان أجود كلاماً ".

وزياد من أقوى العمد التي قام عليها عرض بني أمية. رمى به معاوية وجوه الفتن فلم الشعث وشد السلطان، واشتد في العقوبة؛ فأخذ بالظنة، وعاقب علي الشبهة، وقتل المعلن، واستصلح المسر، وخافه الناس خوفاً شديداً حتى أمن بعضهم بعضاً، وحتى كان الشيء يسقط من يد الرجل والمرأة فلا يعرض له أحد حتى يأتيه صاحبه فيأخذه، ولا يغلق أحد بابه. وهو أول من أعلن الحكم العرفي الإسلام بخطبته المعروفة بالبراء⁽¹⁾ وهي التي خطبها حين قدم البصرة.

نموذج من كلامه: خطبته البراء

أما بعد فإن الجهالة الجهلاء، والضلالة العمياء، والغبي الموفى بأهله على النار ما فيه سفهاؤكم، ويشتمل عليه حلماؤكم. من الأمور التي ينبت فيها الصغير، ولا يتحاشى عنها الكبير، كأنكم لم تقرأوا كتاب الله، ولم تسمعوا ما أعد الله من الثواب الكريم لأهل طاعته، والعذاب الأليم لأهل معصيته، في الزمن السرمدي الذي لا يزول. إنه ليس منكم إلا من طرفت عينه الدنيا. وسدت مسامعه الشهوات، واختار القانية على الباقية، ولا تذكرون أنكم أحدثتم في الإسلام الحدث الذي لم تسبقوا إليه، من ترككم الضعيف يقهر، والضعيفة المسلوبة بالنهار لا تنصر، والعدو غير قليل، والجمع غير مفترق. ألم يكن منكم نهاة يمنعون الغواة عن دلج الليل وغارة النهار؟! قربتم القرابة، وباعدتم الدين. تعتذرون بغير العذر، وتغضون على النكر، كل امرئ منكم يرد من سفيهه صنع عن لا يخاف عاقبة ولا يرجو معاداً! ما أنتم بالحلماء، ولقد اتبعتم السفهاء، فلم يزل بكم ما ترون من قيامكم دونهم حتى انتهكوا حرم الإسلام، ثم أطفقوا وراءكم كنوساً في مكائس الرب، حرام على الطعام والشراب حتى أسلوبها بالأرض هدماً وإحراقاً. إني رأيت آخر هذا الأمر لا يصلح إلا بما صلح به أوله: لين في غير ضعف، وشدة في غير عنف، وإني لأقسم بالله لأخذن الولي بالمولى والمقيم بالظاعن، والمطيع بالعاصي، والصحيح بالسقيم، حتى يلقي الرجل أخاه فيقول: أنج سعد فقد هلك سعيد، أو تستقيم قناتكم. إن كذبة الأمير بلقاء مشهورة، فإذا تعلقتم على بكذبة فقد حلت لكم

(1) سميت كذلك لأنه لم يحمد الله فيها؛ والبراء المقطوعة المشوهة.

معصيتي، فإذا سمعتموها مني فاغتمزوها في واعلموا أن عندي أمثالها، من نقب منكم عليه فأنا ضامن لما ذهب من ماله. فيأي ودلج الليل فإني لا أوتي بمدلج إلا سفكت دمه. وقد أجلتكم في ذلك بمقدار ما يأتي الخبر الكوفة ويرجع إليكم، وإيادي ودعوى الجاهلية، فإني لا أجد أحداً دعا بها إلا قطعت لسانه. وقد أحدثتم أحداثاً لم تكن، وقد أحدثنا لكل ذنب عقوبة. فمن أغرق قوماً أغرقناه، ومن أحرق قوماً أحرقناه. ومن نقب قلباً نقبنا عن قلبه. ومن نبش قبراً دفناه فيه حياً. فكفوا عني أيديكم وألستكم أكف عنكم يدي ولساني. ولا تظهر من أحدكم ريبة بخلاف ما عليه عامتكم إلا ضربت عنقه. وقد كان بيني وبين قوم إحناً فجعلت ذلك ذبراً أذني وتحت قدمي. إني لو علمت أن أحدكم قد قتله السل من بغضي لم أكشف له قناعاً، ولم أهتك له ستراً، حتى يبدي لي صفحته، فإذا فعل ذلك لم أناظره. فاستأنفوا أموركم. وأعينوا على أنفسكم، قرب مبتئس بقدومنا سيسر، ومسروور بقدومنا سيبتئس.

أيها الناس! إنا قد أصبحنا لكم ساسة، وعنكم ذادة، نسوسكم بسلطان الله الذي أعطانا، ونزود عنكم بفيء الله الذي حولنا، فلنا عليكم السمع والطاعة فيما أحيينا. ولكم علينا العدل فيما ولينا. فاستوجبوا عدلنا وفيئنا بمناصحتكم لنا. وأيم الله إن لي فيكم لصرعى كثيرة، فليحذر كل منكم أن يكون من صرعاي!.

الحجاج بن يوسف

(41 - 95 هـ)

نشأته وحياته

ولد أبو محمد الحجاج ابن يوسف الثقفي سنة 41 في مهد الخمول والفقر. فزاوّل مع أبيه تعليم الصبية بالطائف؛ إلا أن نفسه الرغبة الطامحة ربأت به عن الضعة فلفت إليه بذكائه روح ابن زنباع الجذامي أحد أعوان عبد الملك ابن مروان فجعله في شرطته. ورأى الخليفة انحلال عسكره فشكا ذلك إلى روح ابن زنباع فدلّه على الحجاج، فقلده إمرة الجند فسلّكهم في النظام وردّهم إلى الطاعة. ثم اشتهر أمره ونبه ذكره بقيادة الجنود إلى عبد الله ابن الزبير، وقد دعا إلى نفسه بالحجاز، فحاصره بمكة ثم قتله وأزال ملكه فثبتت كفايته وسمت مكانته في نفس عبد الملك، فولاه العراق وهو يضطرب بفتنة الشيعة، ويضطرم بثورة الخوارج، فعسفهم عسفاً شديداً أزل أعناقهم، وطأطأ إشرافهم، وعاد بهم إلى حظيرة الجماعة يتعثرون في أشلائهم، ويخوض بهم في دمائهم.

وبقي طول حياته بالعراق دعامة لملك عبد الملك وابنه الوليد يضبطه ويبسطه حتى طبق ما بين الشام والصين. ثم مات بواسط سنة 95 هـ.

أخلاقه ومواهبه

كان الحجاج طامحاً إلى السلطان والمجد، فسلك إليهما سبيل الظلم والقسوة، وتذرّع لنيلتهما بالفصاحة والقوة، ورزقه الله من طلاوة اللسان وقوة الجنان القسط الأوفر، فانتهى أمره إلى السلطان القاهر والكلمة النافذة. قال له عبد الملك يوماً: كل امرئ يعرف عيوب نفسه، فصف نفسك ولا تخف عني شيئاً. فقال: "أنا لجوج حقود حسود. ومتى كانت هذه الصفات في متسلط أهلك الحرث والنسل إلا أن يدين له الناس ويذلّوا" وكان فصيحاً قوي الحجّة لا يكاد يعدله في ذلك أحد من أهل زمنه. قال مالك بن دينار: "ما رأيت أحداً أبين من الحجاج: إنه كان ليرقى المنبر فيذكر إحسانه إلى أهل العراق وصفحه

عنهم وإساءتهم إليه حتى لأحسبه صادقاً وأظنهم كاذبين " مع أنه قتل منهم بالصبر مائة وعشرين ألفاً، وتوفى وفي سجونه منهم خمسون ألف رجل وثلاثون ألف امرأة.

نموذج من خطبه

لما قدم الحجاج أميراً على العراق دخل المسجد معتماً بعمامة قد غطى بها أكثر وجهه، وصعد المنبر وهو متقلد سيفه متنكب قوسه، ومكث ساعة لا يتكلم.

فقال الناس بعضهم لبعض: قبح الله بني أمية إذ تستعمل مثل هذا على العراق! وهَمَّ عُمير بن ضابئ البرجمي أن يرحمه، فمنعه الناس حتى يروا عاقبة أمره. فلما رأى الحجاج عيون الناس إليه حسر اللثام عن فيه ونهض فقال:

أنا ابن جلا وطلاع الثنايا متى أضع العمامة تعرفوني
يا أهل الكوفة؛ إني لأرى رؤوساً قد أئبعت وحناً قطأها، وإني لصاحبها،
وكأني أنظر إلى الدماء بين العمائم واللحى!

هذا أوان الشد فاشتدي زيم قد لفها الليل بسواق حطم
ليس براعي إبل ولا غنم ولا بجزار على ظهر وضم
ثم قال :

قد لفها الليل بعض لي
أزوع خراج من الدوي
مهاجر ليس بأعرابي

وقال :

قد شمرت عن ساقها فشدوا وجدت الحرب بكم فجذوا
والقوس فيها وتر عرذ مثل ذراع البكر أو أشد
لا بُدَّ ممَّا ليس منه بُدُّ

إِنِّي وَاللَّهِ يَا أَهْلَ الْعِرَاقِ مَا يَقَعُّعُ لِي بِالسَّنَانِ ، وَلَا يُعْمَزُ جَانِبِي كَعِمَزِ التَّيْنِ ،
وَلَقَدْ فَرَرْتُ عَنْ ذِكَاءٍ ، وَفُتِّشْتُ عَنْ تَجْرِيبَةٍ ، وَإِنَّ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ أَطَالَ اللَّهُ بِقَاءَهُ
نَشَرَ كِنَانَتَهُ بَيْنَ يَدَيْهِ فَعَجَمَ عِيدَانَهَا ، فَوَجَدَنِي أَمْرَهَا عُودًا ، وَأَصْلَبَهَا مَكْسَرًا ،
فَرَمَاكُم بِي لِأَنَّكُم طَالَمَا أَوْضَعْتُمْ فِي الْفِتْنَةِ ، وَاضْطَجَعْتُمْ فِي مَرَاقِدِ الضَّلَالِ .

وَاللَّهُ لَأَحْزَمِنَكُم حَزَمَ السَّلَمَةِ ، وَلَأَضْرَبَنَّكُمْ ضَرْبَ غَرَائِبِ الْإِبِلِ ، فَلِإِنَّكُم
لَكَاهِلُ قَرْيَةٍ كَانَتْ آمَنَةً مُطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِنْ كُلِّ مَكَانٍ ، فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ
اللَّهِ فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ .

وَإِنِّي وَاللَّهِ مَا أَقُولُ إِلَّا وَفَيْتُ ، وَلَا أَهْمُ إِلَّا أَمْضَيْتُ ، وَلَا أَخْلُقُ إِلَّا قَرْيَتُ ،
وَإِنَّ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ أَمَرَنِي بِإِعْطَائِكُمْ أُعْطَيْتُكُمْ ، وَأَنْ أَوْجَّهَكُمْ لِمُحَارَبَةِ عَدُوِّكُمْ
مَعَ الْمُهَلَّبِ بْنِ أَبِي صُفْرَةَ . وَإِنِّي أَقْسِمُ بِاللَّهِ لَا أَجِدُ رَجُلًا تَخَلَّفَ بَعْدَ أَخَذِ
عَطَائِهِ بِثَلَاثَةِ أَيَّامٍ إِلَّا ضَرَبْتُ عُقْمَهُ

الكتابة

كان أولياء العرب في الصدر الأول كتاباً بالطبع يملون أو يكتبون ما يريدون بأسلوب موجز ولفظ فصيح. فلما امتدت ظلال الخلافة وفاضت موارد الفياء اضطهرهم ضبط ذلك إلى إنشاء الدواوين فدونها عمر. ثم عهد الخلفاء بالكتابة فيها إلى العرب والموالي والمتعربين. وظلت كتابة الخراج في الأقاليم بلغة أهل مصر: ففي العراق وفارس بالفارسية، وفي الشام بالرومية، وفي مصر بالقبطية. حتى حذقها من العرب طائفة صالحة سدوا حاجة الدواوين⁽¹⁾ فحولت كلها إلى العربية في عهد عبد الملك ابن مروان وابنه الوليد⁽²⁾.

ثم ثقلت أعباء الدولة على الخلفاء فاتخذوا نوااميس من كتاب العرب وأدباء الموالي، وفي هؤلاء من وقف على أنظمة الفرس والروم فوضعوا للرسائل قيوداً وحدوداً أو شكت أن تصبر بها صناعة.

أما أسلوبها فكان جزل الألفاظ، فخم التراكيب، واقفاً عند الغرض، خالياً من التطويل والتجميل والمبالغة، جارية فيه الضمائر على قانون الوضع، فلا تستعمل ضمائر الجمع في كلام المتكلم وخطاب الواحد. وكانت تبدأ بالبسملة وقولهم: من فلان إلى فلان، أما بعد. أو إني أحمد إليك الله الذي لا إله إلا هو. وتختتم بالسلام، أو بقولهم: والسلام على من اتبع الهدى. فلما ولى الخلافة الوليد ابن عبد الملك أمر بتجويد القراطيس، وتفخيم الخطاب، وألا يكتب بمثل ما تكتب به السوق. وجرى العمل على ذلك من بعده، حتى استخلف عمر ابن عبد العزيز، ثم يزيد ابن عبد الملك، فحملهما الورع ومقت البدعة على الرجوع بالكتابة إلى نهج السلف.

(1) المراد بالدواوين هنا دواوين الخراج لأن دواوين الجند ودواوين الرسائل كانت تكتب بالعربية منذ وضعت .

(2) نقل ديوان الخراج في العراق صالح ابن عبد الرحمن في ولاية الحجاج، ونقله في الشام أبو ثابت سليمان ابن سعد كاتب الرسائل في خلافة الوليد ابن عبد الملك، وأما في مصر فأول من ولىه ابن يربوع الفزاري الحمصي في خلافة الوليد ابن عبد الملك أيضاً.

على أن نظام السكون وطبيعة لناس في هذا العهد أبيا هذا الجمود، فجاء عبد الحميد الكاتب فأسهب في الرسائل ونمقها ورققها وأطال التحميدات في أولها وتبعه في ذلك سائر الكتاب. وجملة القول أن النثر في أربعين سنة خطا في سبيل الكمال بفضل الدين والفتوح خطوة واسعة، فانتقل من السجعات القصيرة المفككة، والمعاني العامة المجملة، إلى هذا الأسلوب المحكم الفقر، المطرد السياق، المختلف الغرض، العميق الأثر، كما ترى في رسائل الإمام علي وخطبه وهو تقدم سريع لم يظفر بمثله الشعر.

الكتاب

عبد الحميد بن يحيى

نشأته وحياته

نشأ أبو غالب عبد الحميد بن يحيى بالشام من سلالة غير عربية، ونسب إلى بني عامر نسبة ولائية. ثقف الكتابة على سالم مولى هشام ابن عبد الملك وكاتب سره، ثم أخذ يمارس تعليم الصبية يجوب إلى ذلك البلد بعد البلد حتى علم بمكانته مروان بن محمد فاستكتبه أيام ولايته على أرمينية فكتب له ونفق عنده وتأكدت بينهما المودة. فلما جاء البشير بمبايعة أهل الشام لمروان بالخلافة سجد لله شكراً وسجد أصحابه إلا عبد الحميد. فقال له مروان لم لا تسجد؟ فقال: ولم اسجد؟ أعلى أن كنت معنا فطرت عنا؟ فقال: إذن تطير معي. قال: الآن طالب السجود. وسجد. فاتخذة مروان كاتب دولته. ولما هاله خفوق الأولية السود ودنو أبي مسلم وتتابع الفشل قال بعيد الحميد: قد احتجت أن تصير معي عدوي، وتظهر الغدر بي، فإن إعجابهم بأدبك، وحاجتهم إلى كتابك: تحوجهم إلى حسن الظن بك. فإن استطعت أن تنفعي في حياتي، وإلا لم تعجز عن حفظ حرمي بعد مماتي. فقال له عبد الحميد: إن الذي أشرت به علي أنفع الأمرين لك وأقبحهما بي، وما عندي إلا الصبر حتى يفتح الله عليك أو أقتل معك، وأنشد:

أسر وفاء ثم أظهر غدره فمن لي بعذر يوسع الناس ظاهره؟

ومكث معه حتى قتل مروان بمصر، فلجأ إلى صديقه عبد الله ابن المقفع بالبحرين ففاجأه الطلب وهو في بيته. فقال الذين دخلوا عليهما: أيكما عبد الحميد؟ فقال كل منهما: أنا. مخافة على صاحبه. وأوشك الجند أن يقتلوا ابن المقفع لولا أن صاح بهم عبد الحميد قائلاً: ترفقوا بنا فإن لكل منا علامات، فوكلوا بنا بعضكم وليمض البعض الآخر إلى من وجهكم فيذكر له تلك العلامات ففعلوا وأخذ عبد الحميد فقتل سنة 122 هـ.

أثره في الكتابة

كانت الكتابة قبل عبد الحميد حديثاً مكتوباً لا ترجع إلى نظام ولا تحور إلى فن ولا تعد في الصناعات الشريفة. فلما تقلدها كانت الحال داعية والنفوس مهياة إلى فن من الكتابة جديد، فإن تشعب أطراف الدولة، وبدو ثمار الحضارة، وزهو النثر والخطابة، ودنو المربية من الفارسية، وتخرج عبد الحميد على سالم مولى هشام، وصلته الوثيقة بابن المقفع، كانت سبباً في ظهور هذا النمط الجديد في أسلوب عبد الحميد. فقد نوع الخطاب موافقة لحال المخاطب، وأوجز وأطنب مراعاة لمقتضى الحال، وتفنن في البدء والختام مطابقة للغرض، وأطال التحميدات في صدور الرسائل، وسار على أثره المترسلون فأصبحت الكتابة صناعة محررة الأصول مميزة الفصول مبينة القواعد.

أسلوبه

أسلوب عبد الحميد عذب المورد صافي الديباجة، يسبى المشاعر ويفعل بالألباب فعل السحر. وقد عرف الناس له ذلك حتى إن أبا مسلم الخراساني أبي أن يقرأ الكتاب الذي كتبه إليه عن لسان مروان يستجلبه به ويستميله، ثم أحرقه إشفاقاً على نفسه من تأثيره؛ وكتب على جذاذة منه إلى مروان:

محا السيف أسطار البلاغة وانتحى عليك ليوث الغاب من كل جانب

نموذج من نثره

كتب إلى أهله وهو منهزم مع مروان:

أما بعد، فإن الله تعالى جعل الدنيا محفوفة بالكره والسرور، فمن ساعده الحظ فيها سكن إليها، ومن عضته بنابها ذمها ساخطاً عليها، وشكاها مستزيداً لها، وقد كانت أذاقتنا أفوايق استحليناها ثم جمحت بنا نافرة، ورمحتنا مولية، فملح عذبها، وخشن لبنها، فأبعدتنا عن الأوطان، وفرقتنا عن الإخوان، فالدار نازحة، والطير بارحة. وقد كتبت والأيام تزيدنا منكم بعداً، وإليكم وجداً؛ فإن تتم البلية إلى أقصى مدتها يكن آخر العهد بكم وبنا. وإن يلحقنا ظفر جارح

من أظفار عدونا نرجع إليكم بذل الأسار، والذل شر جار. نسأل الله تعالى الذي يعز من يشاء ويذل من يشاء، أن يهب لنا ولكم ألفه جامعة، في دار آمنة، تجمع سلامة الأبدان والأديان، فإنه رب العالمين وأرحم الراحمين.

وقال من وصيته للكتاب، وفيها دلالة على أن الكتابة صارت صناعة، وأن الكتاب أصبحوا جماعة.

..... وإياكم والكبر والسخف والعظمة، فإنها عداوة مجتلبة من غير إحنة، وتحابوا في الله عز وجل في صناعتكم وتواصوا عليها بالتي هي أليق لأهل الفضل والعدل والنبل من سلفكم. وإن نبا الزمان برجل منكم فاعطفوا عليه وواسوه حتى يرجع إليه حاله، ويثوب إليه أمره. وإن أقعد أحداً منكم الكبر عن مكسبه ولقاء إخوانه فزوروه وعظموه وشاوروه واستظهروا بفضل تجربته وقديم معرفته.

وكتب في التوصية بشخص: حق موصل كتابي عليك كحقه علي، إذ جعلك موضعاً لأمله، ورآني أهلاً لحاجته. وقد أنجزت حاجته، فصدق أمله.

نماذج من النثر

الحكم

من حكم أبي بكر رضي الله عنه قوله:

صنائع المعروف تقي مصارع السوء. الموت أهون مما بعده وأشد مما قبله. ثلاث من كن فيه كن عليه: البغي والنكث والمكر.

ولعمر رضي الله عنه:

من كتم سره كان الخيار في يده. مر ذوي القربات أن يتزاوروا ولا يتجاوروا. أشكو إلى الله ضعف الأمين وخيانة القوي.

وقال علي كرم الله وجهه:

رأى الشيخ خير من جلد الغلام. الناس أعداء ما جهلوا. قيمة كل امرئ. ما يحسن.

الخطب

خطب الرسول صلى الله عليه وسلم ذات يوم فحمد الله بما هو أهله ثم أقبل على الناس فقال:

أيها الناس! إن لكم معالم فانتبهوا إلى معالمكم. وإن لكم نهاية فانتبهوا إلى نهايتكم؛ فإن العبد بين مخافتين: أجل قد مضى فلا يدري ما الله فاعل به، وأجل باق لا يدري ما الله قاض فيه. فليأخذ العبد من نفسه لنفسه، ومن دنياه لآخرته، ومن الشبيبة قبل الكبر، ومن الحياة قبل الممات. فو الذي نفس محمد بيده، ما بعد الموت من مستعتب، ولا بعد الدنيا من دار، إلا الجنة والنار.

وقام أبو بكر يوم السقيفة وقد اختلف المهاجرون والأنصار في أمر الخلافة فحمد الله وأثنى عليه ثم قال:

أيها الناس! نحن المهاجرين أول الناس إسلاماً، وأكرمهم أحساباً، وأوسطهم داراً، وأحسنهم وجوهاً، وأكثرهم ولادة في العرب، وأمسهم رحماً برسول الله صلى الله عليه وسلم. أسلمنا قبلكم، وقدمنا في القرآن عليكم فقال

تبارك وتعالى: ﴿وَالسَّيِّئُونَ الْأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ بِإِحْسَنٍ﴾ [التوبة: 100] فنحن المهاجرون وأنتم الأنصار، إخواننا في الدين وشركاؤنا في الفياء وأنصارنا على العدو. آويتم وواسيتم فجزاكم الله خيراً؛ فنحن الأمراء وأنت الوزراء. لا تدین العرب إلا لهذا الحي من قريش. فلا تنفسوا على إخوانكم المهاجرين ما منحهم الله من فضله.

وصعد معاوية منبر المدينة فحمد الله وأثنى عليه ثم قال:

يا أهل المدينة إني لا أحب أن تكونوا خلقاً كخلق العراق: يعيرون الشيء وهم فيه. كل امرئ منهم شيعه نفسه. فاقبلونا بما فينا. فإن ما وراءنا شر لكم، وإن معروف زماننا منكر زمان مضى، ومنكر زماننا معروف زمان لم يأت. ولو قد أتى فالترتق خير من الفتق، وفي كل بلاغ، ولا مقام على الرزية.

وخطب الحجاج أهل العراق بعد دير الجماجم قال:

يا أهل العراق! إن الشيطان قد استبطنكم فخالط اللحم والدم والعصب والمسامع والأطراف والشغاف، ثم مضى إلى الأمخاخ والأصماغ، ثم ارتفع فعشش، ثم باض وفرخ، فحشاكم نفاقاً وشقاقاً. وقد اتخذتموه دليلاً تتبعونه، وقائداً تطيعونه، ومؤمراً تستشيرونه. فكيف تنفعكم تجربة، أو تعظكم وقعة، أو يحجزكم إسلام، أو يردكم إيمان؟ أستم أصحابي بالأهواز، حيث رمت المكر وسعيتم بالغدر، وظننتم أن الله يخذل دينه وخلافته، وأنا أرميكم بطرفي وأنتم تتسللون لؤذا، وتنهمرون سراعاً. ويوم الزاوية! وما يوم الزاوية! بها كان فشلكم وتنازعكم وبراءة الله منكم ونكوص وليه عنكم، إذ وليتم كالإبل الشوارد إلى أوطانها، النوازع إلى أعطانها، لا يسأل المرء منكم عن أخيه، ولا يلوي الشيخ على بنيه، حتى عضكم السلاح، وقصمتكم الرماح! ويوم دير الجماجم! وما دير الجماجم؟ بها كانت المعارك والملاحم، بضرب يزيل الهام عن مقيله، ويذيل الخليل عن خليله. يا أهل العراق! أهل الكفرات والغدرات، والثورة بعد الثورات! إن أبعثكم إلى ثغوركم عللتم وخنتم، وإن أمنتكم أرجفتكم، وإن خفتكم نافقتكم، لا تذكرن خشية، ولا تشكرون نعمة. هل استخفكم ناكث واستغواكم غاو واستنصركم ظالم واستعضدكم خالع إلا وثقتموه وآويتموه ونصرتموه

ورضيتموه؟ هل شغب شاغب أو نعب ناعب إلا كنتم أشياعه وأنصاره؟ ألم تنهكم المواعظ؟ ألم تزجركم الوقائع؟

ثم التفت إلى أهل الشام فقال: يا أهل الشام! إنما أنا لكم كالظليم الذاب عن فراخه، ينفي عنها المدر؛ ويبعد عنها الحجر، ويكنها من المطر. يا أهل الشام أنتم الجنة والرداء، وأنتم العدة والغطاء!.

الرسائل

كتب أبو عُبَيْدة بن الجراح ومعاذ بن جبل إلى أمير المؤمنين عمر بن الخطاب ينصحانه:

من أبي عبيدة بن الجراح ومعاذ بن جبل إلى عمر بن الخطاب، سلام عليك، فإننا نحمد إليك الله الذي لا إله إلا هو. أما بعد فإننا عهدناك وأمر نفسك لك مهم، فأصبحت وقد وليت أمر هذه الأمة أحمرها أسودها، يجلس بين يديك الصديق والعدو، والشريف والوضيع، ولكل حصة من العدل. فانظر كيف أنت يا عمر عند ذلك. وإننا نحذرك يوماً تعنو فيه الوجوه، وتجب له القلوب، وتقطع فيه الحجج، بحجة ملك قهرهم بجبروته والخلق داخرون له، يرجون رحمته ويخافون عقابه. وإننا كنا نتحدث أن أمر هذه الأمة يرجع في آخر زمانها أن يكون أخوان العلانية أعداء السريرة. وإننا نعوذ بالله أن تنزل كتابنا سوى المنزل الذي نزل من قلوبنا، فإننا إنما كتبنا إليك نصيحة لك والسلام.

وكتب عبد الله بن معاوية بن عبد الله بن جعفر إلى بعض إخوانه يعاتبه:

أما بعد فقد عاقني الشك في أمرك عن عزيمة الرأي فيك. وذلك أنك ابتدأتني بلطف من غير خبرة، ثم أعقبني جفاء من غير جريرة، فأطعمني أولك في إخائك، وأياسني آخرك من وفائك. فلا أنا في اليوم مجمع لك أطراحاً، ولا أنا في غد وانتظاره منك على ثقة. فسبحان من لو شاء كشف بإيضاح الرأي في أمرك عن عزيمة الشك فيك، فاجتمعنا على ائتلاف، أو افترقنا على اختلاف، والسلام.

الوصايا

أوصى علي بن أبي طالب ولده الحسن قال:

أحفظ عني أربعاً وأربعاً لا يضرك ما عملت معهن: أغنى الغنى العقل، وأكبر الفقر الحمق، وأوحش الوحشة العجب، وأكرم الحسب حسن الخلق. يا بني! إياك ومصادقة الأحمق، فإنه يريد أن ينفعك فيضرك. وإياك ومصادقة البخيل، فإن يبعد عنك أحوج ما تكون إليه. وإياك ومصادقة الفاجر، فإنه يبيعك بالتافه. وإياك ومصادقة الكذاب، فإنه كالسراب يقرب عليك البعيد، ويبعد عنك القريب.

وأوصى قيس بن عاصم المنقري بنيه عند احتضاره قال:

يا بني احفظوا عني ثلاثاً، فلا أحد أنصح لكم مني: إذا أنا مت فسودوا كباركم، ولا تسودوا صغاركم، فيحقر الناس كباركم وتهونوا عليهم وعليكم بحفظ المال، فإنه منبهة للكريم، ويستغنى به عن اللئيم. وإياكم والمسألة فإنها أخس كسب الرجل.

الحن ونشوء العامية

كان من أثر الأسواق والحج وزعامة قريش أن توحدت في الجاهلية لغات العرب، وتمثلت لهجاتها في لغة قريش؛ فلم يبق إلا بعض اللحن على أطراف المنطق. فلما جاء الإسلام، ونزل بها القرآن، وكان من بينها النبي الكريم والقائمون بالأمر بعده، تمت لها الغلبة. فخضعت لها الألسنة، وهويت إليها الأفتدة، وأصبحت لسان النبوة والملك، ولغة الحضارة والعلم، في أقطار المسلمين كافة. ولما كان الإسلام انقلاباً عظيماً له تأثيره في الأخلاق والطباع، وتغييره في السياسة والاجتماع، لم يكن للغة بد من الخضوع له والتأثر به، فاتسعت مادتها وتشعبت أغراضها بالتعبير عن عقائد الدين، وأنظمة الملك، ومقتضيات الحضارة، ومصطلحات العلوم. وتهذيب ألفاظها ورقت أساليبها بما اثر في طباع القوم من بلاغة القرآن، وبشاشة الإسلام، وجمال المدينة، وتنوع المناظر الحضرية⁽¹⁾.

ثم كان من أثر الإسلام في حياة العرب أيضاً أن محا العصبية، وأزال الفوارق الاجتماعية وغير مقاييس السيادة فجعلها بالتقوى والعبادة، وجمع شتات القبائل على عقيدة واحدة، وضم نشرهم تحت راية جامعة. ثم خرج بهم من شبه الجزيرة إلى جهاد الشرك بالقرآن والسيف، فأوطأهم ديار كسرى وقيصر، وأوغل بهم في الأرض نصراً وفتحاً حتى ركزوا أعلامهم في أقصى الشرق وأدنى الغرب. ومنذ يومئذ لم تعد العربية لغة إقليم واحد ولا لسان شعب واحد، وإنما انحدرت مع الإسلام من بوادي الحجاز ونجد إلى حواضر البصرة والكوفة ودمشق وبغداد وقرطبة ومصر. واستفاضت على ألسنة المسلمين⁽²⁾ أحمرهم وأسودهم، والمتعربين أدناهم وأبعدهم، وليس في

(1) للحضارتين الفارسية والرومية السهم الأوفر في تهذيب اللغة وإصلاحها أيام الأمويين، فقد اتخذ المسلمون نضائد الحرير وسطور الديباج وزادت حاجاتهم ومرافقتهم فزادت معها الألفاظ، ورقت حواشيها برقة المعيشة ورفاهتها.

(2) قال ابن خلدون: "ولما هجر الدين اللغات الأعجمية وكان لسان القائمين بالدولة الإسلامية عربياً هجرت كلها في جميع ممالكها؛ لأن الناس تتبع السلطان وعلى دينه. فصار استعمال اللسان

مقدور هؤلاء بطبيعة الخلق أن ينطقوا بها كأهلها، فارتضخوا أنواعاً من اللكنة، وأحدثوا أوضاعاً من الخطأ، علقت باللسنة المستضعفين من العرب والناشئين منهم بين الموالي. ولذلك ظهر اللحن في الحواضر والمدن دون البادية، فقد بقيت اللغة على خلوصها فيما حتى آخر القرن الرابع. بدت أعراض هذا الداء منذ زمن الرسول (ص) ثم أخذ يستفحل كلما توفرت أسبابه حتى فشا في الدولة الأموية فشوا تناول الخلفاء والخاصة. وخيف منه على القرآن فوضعوا له النحو والشكل والإعجام والنقط. على أن كل ذلك لم يعصم اللغة ولم يصد عنها عادية اللحن، فأمعن العامة في التصحيف والتحريف حتى جعلوا اللغة لغتين: لغة الكتابة ولغة المحادثة كما هي الآن.

=

العربي من شعائر الإسلام وطاعة العرب. وهجر الأمم لغاتهم وألستهم في جميع الأقطار والممالك وصار اللسان العربي لسانهم حتى رسخ ذلك لغة في جميع أمصارهم وصارت الألسنة الأعجمية دخيلة فيها وغريبة".

النحو

يروى المؤرخون أن أبا الأسود الدؤلي المتوفى سنة 69 هو واضع مبادئ النحو، وأن السبب الذي حداه إلى التفكير فيه هو نشوء اللحن وهجوم العجمة. وذكروا في ذلك أنه دخل يوماً على زياد ابن أبيه وهو والي العراقين، فقال له: أصلح الله الأمير! إنني أرى العرب قد خالطت هذه الأعاجم ففسدت ألسنتهم. أفتأذن لي أن أضع لهم ما يقيمون به كلامهم؟ " فأبى عليه ذلك زياد ثم عاد فأمره بما نهاه عنه، لأنه سمع اللحن بأذنه من رجل دخل عليه يقول: " أصلح الله الأمير. توفى أبانا وترك بنون... " فوضع أبو الأسود باب التعجب ثم باب الفاعل والمفعول، وأخذ كلما سمع لحنة وضع القاعدة التي تصلحها. ثم تناوله منه أدباء البصرة والكوفة فكلموه وفصلوه كما سنذكر ذلك بعد. والغالب في ظننا أن أبا الأسود لم يضع النحو والنقط من ذات نفسه وإنشائه، وإنما يرجح أنه أَلَم بالسريانية (وقد وضع نحوها قبل نحو العربية) أو اتصل بقساوسته وأحبارها فساعده ذلك على وضع ما وضع. وعلى أية حال فإن أولية النحو لا تزال مجهولة.

العلوم في العصر الأموي

لم تكن نفوس العرب مهياة بعد إلى العلم، ولا عقولهم ناضجة للبحث فيه؛ وإنما توزعتهم عواطف الدين وشواغل الفتح ونوازع الأدب، فاكتفوا منه بالضروري الموروث كالطب والنجوم. حتى إذا هالهم اللحن ودهمتهم العجمة، وتشعبت عليهم الأقضية، وضعوا النحو لضبط القرآن، والتفسير لحل مشكله، والفقه لاستنباط الأحكام منه، ودنوا الحديث خوفاً من ضياعه أو افتهاله.

واقتضت حنكة معاوية وحكمة خلفائه أن يستعينوا في تأييد ملكهم وتثبيت حكمهم بتجارب الماضين وأخبارهم⁽¹⁾ فألف عبيد بن شَرِيَّة كتاب الملوك وأخبار لماضين لمعاوية؛ وربما كتب غيره غيره، ولكن شيئاً من ذلك لم يأتنا علمه. أما ترجمة العلوم الأجنبية فلم تكن أحداً في هذا العصر، اللهم إلا خالد ابن يزيد حفيد معاوية، فقد قيل إنه انصرف إلى العلم بعد فشله في الملك، واستقدم جماعة من مدرسة الإسكندرية علموه الكيمياء وترجموا له شيئاً منها. وجملة القول في هذا العصر أن كان فيه نضج الآداب الجاهلية، ونشوء العلوم الإسلامية، وبداية النقل من العلوم الأجنبية.

(1) ذكر المسعودي أن معاوية كان يجلس لأصحاب الأخبار في كل ليلة من العشاء إلى ثلث الليل، فيقضون عليه أخبار العجم والعرب وسياستهم في رعاياهم ومكائدهم في حروبهم ثم ينام ثلث الليل ويقوم فتأتيه غلمان مرثيون وعندهم كتب قد وكلوا يحفظها وقراءتها، فيقرءون عليه ما بها من سير الملوك وأخبار الحروب وأنواع السياسات.

الخط بعد الإسلام

جاء الإسلام وما يكتب من العرب غير بضعة عشر رجلاً من قريش وبعض أهل المدينة وتجار اليهود. فلما كتب الله النصر للمسلمين على قريش في يوم بدر وأخذ بعض كتابهم أسرى، قبل الرسول صلى الله عليه وسلم من هؤلاء أن يفتدي كل منهم نفسه بتعليم عشرة من أطفال المسلمين الكتابة، فكثر سواد الكاتبين من أهل المدينة. وشاعت الكتابة بعد ذلك في العرب إطاعة لأمر الرسول، ورغبة في كتبة القرآن، وطمعاً في دخول الدواوين، وانتشرت معهم في الأقطار المفتوحة:

وكان الخط في أول أمره خالياً من الإعجام والشكل، حتى فشا اللحن وخيف منه على القرآن، فضبط أبو الأسود الدؤلي في زمان معاوية أواخر الكلم في المصاحف بالنقط؛ فجعل علامة الفتحة نقطة من فوق الحرف، وعلامة الكسرة نقطة من أسفله، وعلامة الضمة نقطة بين يديه. واستعمل الناس هذه النقط وكتبوها بمداد مخالف. فلما تغايرت أشكال الخط، وتشابهت أوضاع الحروف، فالتبست الجيم⁽¹⁾ بالحاء، والذال بالذال، والسين بالشين، أمر الحجاج نصر بن عاصم ويحيى بن يعمر تلميذي أبي الأسود فوضعا الإعجام بالمداد الذي تكتب به الكلمة تمييزاً للحروف بعضها من بعض. ثم جاء بعد

(1) من أمثال ذلك أن عجوزاً جاءت الفرزدق وقالت له: إني استجرت بقبر أبيك. فقال لها: ما شأنك؟ قالت: إن تميم بن يزيد خرج بابن لي ولا قرّة لعيني ولا كاسب علي سواه. فقال: وما اسم ابنك؟ قالت: خنيس. فكتب إل تميم:

تميم بن زيد لا تكونن حاجتي بظهر فلا يعيا عليّ جوابها
وهب لي خنيساً واحتسب فيه منة لعبرة أم لا يسوغ شرابها

فشك تميم في اسم الرجل (خنيس) واستقرى أسماء رجاله فوجد ستة أسماءهم بين خنيس وحنيش وحنش ألخ فوجههم إليه.

ذلك الخليل ابن أحمد وضع الشكل على هذا النمط المعروف، فحل نقط أبي الأسود⁽¹⁾.

وفي العصر العباسي ناله ما نال كل شيء فيه من النمو والتقدم. فقد تنافس الكتاب في تجويده، وتفننوا في تنويعه. وخالفوا بين أوضاعه في بغداد وأوضاعه في الكوفة، باختراع الأقلام كالقلم المرصع، وقلم النساخ، والقلم الرياسي (نسبة إلى مخترعه ذي الرياستين الفضل ابن سهل). ثم تعددت تلك الأقلام وتنوعت حتى نيفت أشكال الكوفي على عشرين شكلاً. أما الخط النسخي فقد كان مستعملاً بين الناس في غير الكتابة الرسمية حتى جاء أبو علي محمد ابن مقلة المتوفى سنة 328 فجود هذا الخط ونمقه حتى تميز من أصله بالحسن والجودة، واستعمل في كتابه المصاحف وأدخل في الواوين. وجاء بعده علي ابن هلال المتوفى سنة 413 فزاد في تهذيبه وتحسينه حتى حل محل الكوفي. ثم تنوه الخط النسخي إلى عدة أقلام (كالطومار) وعرض قطته أربع وعشرون شعرة من شعر البرذون. أو ثلاثة ملليمترات، (والثلثين) وعرضه ملليمتران، (والنصف) وقياسه ملليمتر ونصف. (الثلث) وعرضه ملليمتر واحد. ثم تدرج الأقلام في الدقة، فيجىء خفيف الثلث، فاللؤلؤ، فالتوقيع، فالرقاع، فالمحقق، فالغبار، وهو أدقها، وبه كانت تكتب بطائق الحمام الزاجل ونحوها. ولا يزال الخط العربي يتنوع ويتفرع خضوعاً لنظم الطبيعة في

(1) اقتصرت الأمم السامية في خطوطها على رسم الحروف الساكنة دون الصوتية، فلا يكتبون (نصير) (ناصارا) كما يفعل اليونان والرومان والأمم الأوروبية الآن ودلوا في مؤتلف الزمن على الأحرف المحذوفة من الكلمة بنقط فوق الحرف أو تحته على نحو ما فعل أبو الأسود في الخط العربي. ولكن الخليل ابن أحمد إن صح أنه واضح الشكل المعروف لم يستعمل النقط في الدلالة على الحركات. وإنما استعمل الحروف الصوتية المحذوفة وهي الألف والواو والياء، فاختصر من الألف الفتحة، ومن الواو الضمة، ومن الياء المسرة. فالحركات كما قال الإمام الرازي أبعاض الموثوات. أما العلامات الأخرى كالمدة والوصلة والشدة فقد وضعت في العصر العباسي بعد زمن الخليل. وهي رءوس كلمات تؤدي معانيها؛ فالمد (آ) من (مد)، والوصلة (ص) من (صل)، والشدة () من (شد).

النشوء والرقى. وكثير من الأمم التي استضأت بنور الإسلام واستعزت بلغته يكتب به، كالفارسية والأفغانية والأردية واللغات الإفريقية.

على أن اقتصار العرب في خطهم على رسم الحروف الساكنة دون الصوتية قد أوقع القارئ في لبس شديد، فإن الكتاب قد برموا بالشكل وضاقوا به فتركوه فأصبح القارئ إذا رأى أمامه لفظ (علم) مكتوبة مثلاً لا يدري كيف يقرأه إلا إذا فهم المقصود منه في سياق الكلام. فهو يقرأ: عِلْمٌ أو عُلِمَ أو عَلِمَ أو عَلَّمَ أو عَلَّمَ أو عَلَّمَ أو عَلَّمَ. ولذلك يدعو كثير من المصلحين اليوم إلى إصلاح الخط العربي، حتى غلا بعضهم فدعا إلى اتخاذ الحروف اللاتينية كما فعلت تركيا بعد سقوط الخلافة. وقد رصد مجمع اللغة العربية بالقاهرة جائزة قدرها ألف جنيه لمن يبتكر طريقة للخط العربي تكمل نقصه وترفع قصوره فجاءته من أكثر البلدان الشرقية والغربية طرق شتى نيفت على الألف، ولكنها لم تصب الغرض الذي نصبه المجمع، فألف في عام 1959 لجنة من بعض أعضائه ومن ذوي الاختصاص بوزارة التربية والتعليم في الجمهورية العربية المتحدة فلبت الأمر على جميع وجهه ثم اتفقت على بقاء الخط كما هو وأوصت بإتباع الشكل كاملاً في كتب التعليم الابتدائي ثم يقل بالتدريج في المراحل المتعاقبة حتى يقتصر منه على شكل ما يشكل من الكلمات، وبرأيها أخذ المجمع.

الباب الثالث

العصر العباسي⁽¹⁾

خطره وأثره ومميزاته

عصر الدولة العباسية هو عصر الإسلام الذهبي الذي بلغ فيه المسلمون من العمران والسلطان ما لم يبلغوه من قبل ولا من بعد. أثمرت فيه الفنون الإسلامية، وزهت الآداب العربية، ونقلت العلوم الأجنبية، ونضج العقل فوجد سبيلاً إلى البحث ومجالاً للتفكير. وملوك هذه الدولة ينمون إلى العباس عم النبي صلى الله عليه وسلم، انتزعوا الخلافة قسراً من يد الأمويين بمعونة الفرس، وأقاموا عرشها بالعراق، وتبوأ منهم سبعة وثلاثون خليفة في خمسة قرون وبعض القرن، حتى ثل ذلك العرش هولاءكو سنة ست وخمسين وستمائة، وما زالت حضارة الدولة وآدابها تهبط بهبوطها، حتى سقطت بسقوطها.

ونختلف هذه الدولة عن الدولة الأموية بأحوال سياسة وعمرانية كان لها الأثر الظاهر في أدب اللغة: فالدولة الأموية كانت عربية خالصة، تعصبت للعرب ولغتهم وآدابهم، وجعلت قاعدتها دمشق على حدود باديتهم. وكان جنودها وقوادها وكتابها وسائر عمالها من العرب، فلم يحدث في أدب اللغة تأثير إلا ما اقتضاه التحضر واتساع العمران.

(1) ينسب هذا العصر إلى العباسيين على وجه من التغليب لوة أثرهم فيه ومبلغ نفوذهم منه؛ ولكن الكلام فيه يتناول العباسيين في بغداد، والبويهيين في فارس، والحمدانيين في الشام، والفاطميين في مصر والمغرب. والأمويين في الأندلس.

إلا أن هذه الأصقاع على تباينها إنما كانت قائم بهدى بغداد وتستمد منها فليس لها في الغالب أدب مستقل، لذل لا نذكرها إلا لماما.

أما الدولة العباسية فقد اصطبغت بصبغة فارسية، لأن الفرس هم الذين أوجدوها⁽¹⁾ وأيدوها، فاتخذت قصبتها بغداد أقرب الأمصار إلى بلادهم، وأطلق الخلفاء أيدي الموالي في سياسة الدولة فاستقلوا بشؤونها، واستبدوا بأمورها، وكالوا للعرب من الحقارة والمهانة صاعاً بصاع. فضعت العصبية العربية، وعلا صوت الشعوبية، ونتج من ذلك دخول العناصر الفارسية والتركية والسريانية والرومية والبربرية في تكوين الدولة، وتمازجهم بالتزاوج والتناسل، واختلاط المدنية الآرية بالمدنية السامية، ولكل منهما لغة وأخلاق وعادات واعتقادات أثرت في الأخرى. ناهيك بما امتازت به هذه الدولة من إطلاق الحرية في الدين، وتعدد الفرق⁽²⁾ وشيوع المقالات المختلفة في الإلحاد والسياسة، وتكاثر الجواري والغلمان، والاسترسال في الخلاعة والمجون، والتأنق في الطعام واللباس، والتنافس في البناء والرياش. وكل ذلك له أثر بين في اللغة وآدابها سنجمله فيما يلي من هذه السطور.

(1) كانت موقعة الزاب بين الخراسانيين ومروان ابن محمد رداً غير حاسم على موقعة القادسية بين العرب والفرس، فإن بني ساسان الذين طأطأ الفتح من إشرافهم، وخطم الأمويون بالذل ألوف أشرافهم، لم يستطيعوا أن يرضوا الأمور لهم، ولا أن يعيدوا السلطان فيهم؛ لأن العرب طبعوهم بطابعين قويين لا يزولان أبد الدهر. وهما الدين واللغة، فوقفوا من الأمر عند الثأر من عصبية الأمويين، بنقل الملك منهم إلى العباسيين، وأخذوا يحركون أيدي الخلفاء بما يريدون وبنو العباس يعرفون لهم تلك اليد، ويحتملون منهم هذه الدالة، حتى خشى طغيانهم أبو جعفر المنصور فكفكه بقتل أبي مسلم. ثم ما لبث أن عاد هذا الطغيان فامتد واشتد في عهد الرشيد فاستأصله بقتل البرامكة. ولكنه انتعش ثانية بالحلاف بين الأخوين الأمين والمأمون وما استتبع من الحرب بين العنصرين العربي والفارسي، حتى بلغ تمامه في عهد بني بويه. فلم يخضد شوكتة ويفلل شباه إلا بنو سلجوق من الترك. على أن نفوذهم الأدبي والعقلي كان أوسع وأعمق من أن يكسر منه هذا الفشل السياسي، فظهر أثره في اللغة والأدب والفقه والفلسفة والأخلاق وكان من هذا الأثر أولاً، ومن أثر العناصر الأخرى ثانياً، هذه الحضارة العباسية والمدنية الإسلامية التي مازت الطيب من الخبيث، ووصلت العالم القديم بالعالم الحديث.

(2) نجمت في الأمة الإسلامية من غير أهل السنة فرق كثيرة يكفر بعضها بعضاً! وانشعبت كل فرقة إلى فرق متعددة ترى كل واحدة منها الحق معها دون الأخرى. ومن أشهر هذه الفرق المعتزلة وهم عشرون فرقة، والشيعة وهم اثنتان وعشرون، والخوارج وهم سبع فرق وكل أولئك منهم جبرية ومنهم مشبهة، ولكل شعبة لقب تعرف به.

الفصل الأول

اللغة وأثر الفتوح والسياسة والحضارة فيها

فتح العرب في أواخر الدولة الأموية أكثر المعروف حينئذ من الدنيا القديمة، فامتد ملكهم من الهند والصين شرقاً، إلى جبال بيرانس غرباً، وانبسط سلطانهم على تلك الشعوب، واستولى دينهم على الأئمة، ولغتهم على الألسنة، فتعربت هذه الأمم المختلفة، وامتزجت تلك العناصر المتباينة، وسارعوا إلى تعلم اللغة والتكلم بها تقريباً من الفاتح، واستدرا للرزق، وتفقهوا في الدين، فكثر اللحن وسرت عدواه إلى البادية وقد كان قاصراً على الحاضرة وبقي داء العجمة يستفحل بين العامة والصناع بالرغم من محاربة الأئمة وأولي الأمر لهذا الوباء بتدوين علوم اللسان وتقبيح العامية ومقت المتكلمين بها، حتى نشأ في كل إقليم لغة عامية مؤلفة من العربية ومن لغة الإقليم لوطنية.

وقد اتسعت دائرة اللغة بما اقتضاه تمدن الدولة ونقل العلوم عن الفارسية والهندي واليونانية من المصطلحات العلمية والألفاظ الإدارية والسياسية⁽¹⁾ والاقتصادية والمنزلية. وكان لدار الحكمة التي أنشأها المأمون الفضل الأكبر في تهذيب الكتب المترجمة وتوحيد الأسماء المعربة. ثم رقت الألفاظ لانغماس القوم في الحضارة، وإخلاصهم إلى الترف، وإيثار الموالى للكلم

(1) لقد كثرت تلك الألفاظ الموصوفة والمنقولة حتى اضطروا إلى أن يضعوا لها بعدئذ معجمات خاصة بها ككتاب التعريفات للجرجاني (816هـ) وكشاف اصطلاحات الفنون للتهانوي (1158 هـ) وهذا الكتاب والذي قبله من خير ما يستعان به على وضع المصطلحات العلمية الحديثة. فمن الألفاظ الموضوعية لدبوان الخراج مثلاً: (الحصري) للميراث الذي لا وارث له (والإقطاع) للأرض التي يعطيها السلطان رجلاً فتعير لها رقتها، (والطعمة) ضيعة تدفع إلى رجل مدى حياته فيعمرها ويؤدي عسرها، (والتربكة) ما يترك للرجل من خراج سنه. ومن الألفاظ المنقولة: الكوز والحرّة والأبريق والطشت والحوان والطبق والحز والديباج والياقوت والفيروز والبلور والكعك والفالوذج والفلفل والزنجبيل والنرجس والتسرين والمسك والعنبر والبستان والجوز واللوز والدولاب والطلسان والفرسخ ألخ عن الفارسية. والبقدونس والزيرفون والمصطكى والقيراط والأنيق والصابون والهيولي والفلسفة والمغنطيس والإقليم والقانون عن اليونانية.

السهل والأسلوب البين، لأنهم حذقوا اللغة بالدراسة والصنعة، لا بالتلقين والطبع.

واقتبست العربية من الفارسية غير الألفاظ كثيراً من الأساليب، كالتبجيل في الخطاب، والاحتشام مع المخاطب، وإسناد الشيء إلى الحضرة والجناب والمجلس، وإحداث الألقاب والنعوت للخلفاء والوزراء والكتاب والقواد، كالسفاح والمنصور والرشيد وذي الرياستين وركن الدولة إلخ، والإسهاب في العهود والرسائل، وتأدية المعنى الواحد بألفاظ كثيرة وجمل مترادفة، وغير ذلك مما زان اللغة من جهة وشانها من جهة أخرى.

وما زالت اللغة تتسع وتنمو باتساع الملك وتقدم العلم ونمو الحضارة، وتنتشر وتسمو في حمى الدين وظل الخلافة وسلطان العرب، حتى خلافة المتوكل على الله سنة 233 إذ استفحل أمر الأتراك الذين جلبهم المعتصم من التركستان فأخذوا يغالبون العرب، ويواثبون الفرس، ويغتصبون السلطان. وكان الأمر للموالي بعد غلبة المأمون وهم شيعة فجاء المتوكل فعصد الأتراك ونصر السنة. فتقاتل العنصران، وتناضل المذهبان، وابتغى كل منها الفلج والفوز بقهر العرب وكبت الخلفاء، حتى ذهب جلال الخلافة من النفوس، وزالت هيبتها من القلوب، فاستشرف ولاية الأطراف إل الاستقلال، وبدأ بنو بويه⁽¹⁾ فوضعوا أيديهم سنة 334 هـ على شؤون الدولة في بغداد. وامتد نفوذهم إلى جل الممالك الشرقية الإسلامية، فأخذ سلطان العرب والعربية يتراجع في الشرق، وهب أحفاد الأكاسرة وأبناء الدهاقين يستردون مجد أجدادهم، ويطاردون اللغة ونفوذها من بلادهم. وطلبوا إلى شعرائهم من أمثال الدقيقي والفردوسي أن يجددوا مفاخر الأسلاف بتأليف المنظومات القصصية والأناشيد لقومية. ومن

(1) بنو بويه ثلاثة أخوة أنجبهم سياد، فحالفهم السعادة وخطبتهم السادة، فحالفهم السعادة وخطبتهم السيادة، فتقبلوا في المناصب، وتدرجوا في الحكم حتى اقتسموا بينهم ملك العراقيين العجمي والعربي وفارس والجزيرة، فكان عماد الدولة أبو الحسن علي، وهو أكبرهم، صاحب فارس، وركن الدولة أبو علي الحسن وهو أوسطهم، صاحب عراق العجم. ومعز الدولة أبو الحسين أحمد، وهو أصغرهم، ملك العراق والأهواز وصاحب الأمر والنهي في بغداد. وقد دام الملك فهم وفي بنهم من سنة 322 إلى سنة 488 هـ.

العجيب أن تم لهم ذلك سريعاً، فإن المتنبي هو من رجال القرن الرابع يقول
وقد زار شعب بوان من بلاد الفرس:

مغاني الشعب طيباً في المغاني بمنزلة الربيع من الزمان
ولكن الفتى العربي فيها غريب الوجه واليد واللسان
ملاعب جنّة لو سار فيها سليمان لسار بترجمان

ثم اقتدى بالفرس في ذلك الأتراك والأكراد. ولكن العربية بقيت في حمى
القرآن تدافع سيل الفارسة والتركية الجارف، وقد عز النصير من أهلها، حتى
غلب التتار على بغداد فغلبت على أمرها وخضعت لقانون الطبيعة القاهرة، بعد
ما خلفت في تلك البلاد شرائع وعلوماً وآداباً لم تقو على محوها الأيام.

الفصل الثاني: النشر الكتابة

الإنشاء مظهر العقل، ومرآة خاطر، يتأثر بما ينال المدارك والمشاعر من عوامل الحضارة، ونتائج العلم، وظواهر العمران.

ولقد كان لذلك الانقلاب العباسي أثر عظيم في العقول والميول ظهر على أقلام الكاتبين وألستهم. فقد استنبطوا عيون المعاني. وتخيروا شريف الألفاظ، مما لم يكن حوشياً ولا سوقياً، وفتحوا أبواب البديع، وعنوا بالتنميق والتنسيق.

ولما استبحر العمران، وطما بحر الخراج، واتسع نطاق الدولة، لم تعد الكتابة مقصورة على الدواوين وإنشاء الرسائل كما كانت في الدولة الأموية، بل تعدتها إلى أغراض شتى، كالتصنيف والترجمة، والمقالات والمقامات، والعهود، والوصف، والمناظرة، وإنشاء الكتب في الإهداء والاستهداء، والتعارف قبل اللقاء، والشكر والعتاب والتعازي والتهاني والاستعطاف، وغير ذلك من المعاني الحضريّة التي لم يعهد أكثرها مكن قبل.

وحلت الكتابة محل الخطابة في قمع الأهواء، وردع الأعداد، وإطفاء الفتن، وتأليف القلوب. ثم تنوع الكتاب بتنوع الدواوين: فكان منهم كتاب الخراج والنفقات، وكتاب المظالم والقضاء، وكتاب الجيش والشرطة، وكتاب الضياع والإقطاع، وكتاب الرسائل، وهؤلاء هم أساطين البلاغة وأستاذو البيان، وموضوع أدب اللغة؛ لأن كتابة غيرهم لا تعتمد على فن ولا تقوم على ذوق.

وظلت الكتابة في أول العصر العباسي على أسلوب عبد الحميد من الميل إلى الإيجاز⁽¹⁾ والقصد في الغلو والتنميق، ولا سيما في الرسائل والتوقيعات، فإن النظر فيها أكثر ما يكون للخلفاء والوزراء، عنهم تصدر، وإليهم ترد. وكان

(1) أسلوب عبد الحميد موجز إذا ووزن بما استحدث بعده من الأساليب، ومطنب إذا ووزن بما قبله.

جعفر ابن يحيى يقول في إيشار الإيجاز. " إن استعظمت أن تجعلوا كتبكم كلها توقيعات فافعلوا ".

فلما نزع العرب إلى الترف، وزاد اختلاطهم بالفرس، أخذوا يتأنقون ويطيلون. وازداد ذلك بترaxي الزمن حتى خرجوا عن أساليب القدماء، وعاقبوا الجمل على المعنى الواحد، وراوا ذلك التكرار أبلغ للمعنى، وأوقع في النفس. وانتقدوا مذهب الإيجاز في صدر الإسلام وبعده كقول يزيد لمروان وقد تلكأ في بيعته: " أراك تقدم رجلاً وتؤخر أخرى فاعتمد على أيهما شئت " فقال ابن قتيبة في أدب الكاتب. " إن هذا لو قيل الآن لم يأت بالتأثير المطلوب. والصواب أن يطيل ويكرر، وبعيد ويبدئ، ويحذر وينذر ". ثم مالوا إلى الازدواج والسجع، وتضمنين الأشعار والأمثال. وكل ذلك جار مجرى الطبع لحسن التصرف في المعنى وقلة التكلف في اللفظ.

فلما ضعفت الخلافة وقام بالأمر غير أهله، سرى الضعف إلى الكتابة، فجهل أربابها الغرض منها، ومالوا إلى زخرف القول وتدبيج اللفظ بأنواع البديع، وأوغلوا في ذلك حتى سمجت مبانيهم وفسدت معانيهم، فكانت مموهة الظاهر مشوهة الباطن، كسيف من الخشب في غمد من الذهب. وليتهم وقفوا بهذا الأسلوب عند الرسائل والعهود، بل خرجوا به إلى تصنيف الكتب وتدوين العلوم، كتاريخ العُتبي والفتح القدسي.

وكتاب هذا العصر أربع طبقات نبعت كل طبقة في عصر من عصوره الأربعة ⁽¹⁾؛ فالطبقة الأولى إمامها ابن المقفع. وطريقته تنوع العبارة، وتقطيع الجملة، والمزاوجة بين الكلمات، وتوخي السهولة، والعناية بالمعنى، والزهد في السجع ⁽²⁾. وقد حد البلاغة فقال: " هي لتي إذا سمعها الجاهل ظن أنه

(1) يقسم العصر العباسي إلى أربعة أعصر تبعاً لأحواله السياسية والاجتماعية، فالعصر الأول من ابتدائه إلى خلافة المتوكل سنة 232. والثاني من خلافة المتوكل إلى استقرار الدولة البويهية في بغداد سنة 334. والثالث من تغلب البويهيين إلى دخول السلاجقة بغداد سنة 447 والرابع من دخول السلاجقة بغداد إلى سقوطها في أيدي التتر سنة 656.

(2) قال ابن أبي الإصبع في تحرير التحرير: قد كان المتقدمون لا يحفلون بالسجع جملة، ولا يقصدونه بته إلا ما أنت به الفصاحة في أثناء الكلام، واتفق من غير قصد ولا اكتساب وإن كانت

يحسن مثلها". وقال لبعض الكتاب: "إياك وتتبع الوحشي من الكلام طمعاً في نيل البلاغة فإن ذلك هو العي الأكبر". وقال لآخر: "عليك بما سهل من الألفاظ مع التجنب لألفاظ السفه". ومن رجال هذه الطبقة يعقوب ابن داود، وجعفر ابن يحيى، والحسن ابن سهل، وعمر ابن مسعدة، وسهل ابن هرون، والحسن ابن وهب.

والطبقة الثانية إمامها الجاحظ. وطريقته أشبه بالطريقة الأولى في سهولة العبارة وجزالتها، وإنما تمتاز بتقطيع الجملة إلى فقرات كثيرة مقفاة أو مرسلة، وزيادة الإطناب في الألفاظ والجمل، والاستطراد، ومزج الجدل بالهزل لدفع سامة القارئ، وتحليل المعنى واستقصائه، وتحكيم العقل والمنطق، والاعتراض بالجميل الدعائية. ومن رجال هذه الطبقة ابن قتيبة والمبرد والصولي.

والطبقة الثالثة إمامها ابن العميد وطريقته أعلق بالنفس وأملك للوجدان لأنها شعر لا يعوزه إلا الوزن. وهي أشبه بالطريقة ⁽¹⁾ الاتباعية عند الفرنج لتقيدها بقيود لا بد من مراعاتها وتغلبها على سائر الأساليب.

فمن قيودها السجع القصير، والجناس، وتضمين الملح من التاريخ والعلوم، والاستشهاد بالنظم في غرضون النثر، والتوسع في الخيال والتشبيه؛ مع إجادة المعنى وسلامته. ومن رجالها صاحب ابن عباد، والوزير المهلبى، والخوارزمي، والبدیع، والصابي، والثعالبي. ومن آثار هذه الطبقة المقامات.

والطبقة الرابعة إمامها القاضي الفاضل. وطريقته مؤسسة على أصول الطريقة الثالثة من توخي السجع والبدیع، إلا أنه غالى في التورية والجناس

=

كلماتهم متوازنة، وألفاظهم مناسبة، ومعانيهم ناصعة، ومباراتهم رائعة، وفصولهم متقابلة. وتلك طريقة الإمام علي عليه السلام ومن اقتفى أثره من فرسان الكلام كابن المفقع وسهل ابن هارون والجاحظ وغير هؤلاء من العلماء والبلغاء أهد.

(1) آثرنا أن نترجم Ecole Classique بالطريقة الاتباعية Ecole Romantique بالطريقة الابتداعية؛ فإن الإتيان والابتداع أقرب اللفاظ دلالة على معنى هذين المذهبين وبهذا الرأي أخذ مجمع اللغة العربية.

حتى أصبحت الكتابة في عهد صناعية محضاً. ألفاظ منمقة تحتها معنى غث وخيال ضئيل. ومن رجالها ابن الأثير صاحب المثل السائر، والكاتب الأصبهاني.

على أن عقيدة الكتاب أن استظهار المأثور من المنشور هو عدة الثقافة وسبيل التفوق كانت تخالف بين الأقلام، وتباعد بين الأساليب، فتعددت مذاهب الكتابة في العصر الواحد، فتجد في عصر الجاحظ من يقلد ابن المقفع كابن عبد ربه. وفي عصر ابن العميد من يقلد الإمام عليا كالشريف الرضى. ولكن المعاصرين بالرغم من ذلك يخضعون لأحوالهم السياسية والاجتماعية، فيكون لإنشائهم طابع خاص يميزهم من باقي العصور.

الخطابة

كان للخطابة في صدر هذا العصر مكانة في النفوس وسلطان على القلوب؛ لاعتماد القوم عليها في توطيد الملك، وتحميس الجند؛ واستقبال الوفود. وكان للخلفاء الأولين ودعاتهم فيها الشأن الرفيع والشأو البعيد، كالمنصور والمهدي والرشيد والمأمون وداود⁽¹⁾ ابن علي وخالد ابن صفوان وشيب⁽²⁾ ابن شيبعة.

فلما استوثق الأمر لبني العباس وقام الموالي بسياسة الدولة وقيادة الجيش، وقل النضال باللسان واللسان، ضعفت الخطابة لضعف القدرة عليها، وقلة الدواعي إليها، وحلت الرسائل والمنشورات محلها في دفع العظام وسل السخائم. وقصرت على خطب الجمع والعيدين والزواج. على أن الخلفاء أنفسهم ما برحوا يخطبون الناس ويؤمنونهم إلى عهد الخليفة الراضي. فلما غل بنو بويه أيديهم وحصروهم في دورهم عهدوا بالخطابة والإمامة إلى الكفاءة من العلماء؛ فنبغ في آخر هذا العصر طائفة من الأدباء شهروا بهذا النوع من الخطابة: كالخطيب البغدادي والخطيب التبريزي. ولما استعجم المسلمون

(1) نشأ داود بن علي بن عبد الله بن عباس مع إخوته الاثنين والمشميرين في قرية الحميمة من أعمال عمان. وهي منفى أبيه في عهد الوليد ابن عبد الملك، فاقتبس العلم من أبيه واكتسب الفصاحة من خلاطه قبائل لخم وغسان وقيس. ثم شهر بالشجاعة والأنفة وصلابة الرأي وحرية الفكرة وقوة المنطق فولاه أبو العباس عام يبعته الكوفة وسوادها ثم أضاف إليه في تلك السنة ولاية الحجاز واليمن واليامة فوطد الملك لبني العباس في تلك الأصناع، ونكل بمن وجد فيها من بني أمية ثم استقر قراره بالمدينة بعد موسم الحج، فأدركته منيته فيها شهر ربيع الأول سنة 133 هـ.

(2) نشأ شيب بن شيبعة بن عبد الله المنقري التميمي في البصرة على خير ما تنشأ عليه الرجال من العزة والأريحية والتواضع والعفة، وابتدأ منذ اليفوعة يحوك الكلام ويهصب بالخطب في حلاوة وسهولة وعدوبة، ومازال يزاد حتى صار في كل موقف يساغ بقليل الكلام ما لا يبلغ الخطباء المصاقع بكثيره، سمعه عمه خالد ابن صفوان خطيب تميم يوم يخطب قومه، فقال له: يا بني لقد نعى إلى نفسي إحسانك في كلامك، فإننا أهل بيت ما نشأ فينا خطيب إلا مات من قبله. فقال له شيب: بل ببنك الله ويجعلني فداءك. وكان شيب من خاصة المنصور قبل خلافته وبعدها وبقيت له هذه الخطورة لدى ولي عهده المهدي، فكان من خلطائه الأدنيين حتى توفي سنة 175 هـ.

وملك العبي ألسنة الوعاظ فلم يستطيعوا إنشاء الخطب في الموضوعات المختلفة، عمدوا إلى استظهار خطب أسلافهم كابن نباتة المصري، وأخذوا يرددونها فوق المنابر من غير فهم لمعناها، ولا علم بمغزاها. ودرجوا على هذه الحال المخزية تلك القرون الطويلة حتى أدركتها عوامل النهضة المصرية الحديثة فرقاها قسم الوعظ والإرشاد بالجامعة الأزهرية.

نماذج النثر

التوقيعات

التوقيعات هي ما يعلقه الخليفة أو الأمير أو الوزير أو الرئيس على ما يقدم إليه من الكتب في شكوى حال أو طلب نوال. وميزتها الجمع بين الإيجاز والجمال والقوة. وقد تكون آية أو مثلاً أو بيت شعر. مثالها:

وقع السفاح في كتاب لأبي جعفر وهو يحارب ابن هبيرة بواسط: إن حلمك أفسد علمك، وتراخيك أثر في طاعتك. فخذ لي منك، ولك من نفسك.

وقع أبو جعفر المنصور في كتاب عبد الحميد صاحب خراسان: شكوت فأشكيناك، وعتبت فأعتبناك، ثم خرجت على العامة، فتأهب لفراق السلامة. ووقع إلى صاحب مصرحين كتب يذكر نقصان النيل: طهر عسكريك من الفساد، يعطك النيل القياد. ووقع في كتاب أناه من صاحب الهند بخبره أن جنداً شعبوا عليه وكسروا أقفال بيت المال: لو عدلت لم يشغبوا، ولو وفيت لم ينهبوا.

وقع هارون الرشيد إلى صاحب خراسان؛ داو جرحك لا يتسع. ووقع في نكبة جعفر ابن يحيى أنبتته الطاعة وحصدته المعصية.

وقع المأمون إلى الرستمي في قصة من تظلم منه: ليس من المروءة أن تكون آيتك من ذهب وفضة، وغريمك خاو، وجارك طاو. ووقع في قصة متظلم من أبي عيسى أخيه: (فإذا نفخ في الصور فلا أنساب بينهم يومئذ ولا يتساءلون). وكتب إليه إبراهيم ابن المهدي: إن غفرت فبفضلك، وإن أخذت فبعدلك. فوقع في كتابه: القدرة تذهب الحفيظة، والندم جزء من التوبة وبنيهما عفو الله، ووقع في رقعة مولى طلب الكسوة: لو أردت الكسوة للزمت الخدمة، ولكنك أثرت الرقاد فحظك الرؤيا.

وقع جعفر بن يحيى في قصة محبوس: العدل أوثقه، والتوبة تطلقه ووقع في كتاب رجل شكاً إليه بعض عماله: قد كثر شاكوك، وقل شاكروك، فإما اعتدلت، وإما اعتزلت.

ووقع في قصة مستمنح قد أعطاه مراراً: دَعِ الضرع يدر لغيرك كما دَرَّ لك.

الخطب

خطب المنصور بعد قتل أبي مسلم قال:

أيها الناس: لا تخرجوا من أنس الطاعة إلى وحشة لمعصية، ولا تستروا غش الأئمة؛ فإنه لم يسر أحد قط منكراً إلا ظهرت في آثار يده، أو فلتات لسانه، وأبداها الله لإمامه، لإعزاز دينه وإعلاء حقه إنا لن نبخسكم حقوقكم، ولن نبخس الدين حقه. إن من نازعنا عروة هذا القميص أجزناه خبيء هذا الغمد. إن أبا مسلم بايعنا وبايع الناس لنا على أن من نكث فقد أباح دمه، ثم نكث بنا فحكمنا عليه حكمه على غيره، ولم تمنعنا رعاية الحق له من إقامة الحق عليه.

ومن خطبة لعبد الملك بن صالح الهاشمي بعد أن خرج من السجن يذكر فيها ظلم الرشيد إياه:

والله إن الملك لشيء ما يؤتيه ولا تمنيته، ولا قصدت إليه ولا ابتغيته. ولو أردته لكان أسرع إلي من السيل إلى الحدود، ومن الناري إلى يابس العرفج. وإنني لمأخوذ بما لم أجن، ومسئول عما لا أعرف. ولكنه والله حين رأيته للمك قمنا، وللخلافة خطراً، ورأى لي يداً تنالها إذا مدت، وتبلغها إذا بسطت، ونفساً تكمل لخصالها، وتستحقها بخلالها. - وإن كنت لم أخطر تلك الخصال، ولا اصطنعت تلك الخلال، ولم أترشح لها في سر، ولا أشرت إليها في جهر، ورآها تحن إلى حنين الوالدة، وتميل إلى ميل الهلوك، وخاف أن تنزع إلى أفضل منزع، وترغب في خير مرغب، عاقبني عقاب من قد سهر في طلبها، ونصب في التماسها. وتفرد لها بجهدته وتهياً لها بكل وسعه، فإن كان إنما حبسني على أني أصلح لها وتصلح لي، وأليق بها وتليق بي، فليس ذلك بذنب فأتوب منه، ولا تناولت إليه فأحط نفسي عنه. وإن زعم أنه لا صرف لعقابه، ولا نجاة من عذابه، إلا بأن أخرج له من الحكم والعلم، والحزم والعزم، فكما لا يستطيع المضيع أن يكون حافظاً، كذلك لا يستطيع العاقل أن يكون جاهلاً، وسواء عليه أعاقبني على عقلي أم عاقبني على طاعة الناس لي. ولو أردتها

لأعجلته عن التفكير، وشغلته عن التدبير، ولم يكن لما كان من الخطب إلا اليسير. ومن المجهود إلا القليل!

وخطب داود بن علي يوم بيعة أبي العباس على منبر الكوفة قال:

شكراً شكرياً! إنا والله ما خرجنا لنحفر فيكم نهراً، ولا لبنني فيكم قصراً. أظن عدو الله أن لن نقدر عليه أن رُوخي له من خطامه، حتى عثر في فضل زمامه؟ فان حيث أخذ القوس باريها، وعاد القوس إلى النزعة، ورجع الملك إلى نصابه. في أهل بيت النبوة والرحمة، أمن الأسود والأحمر. ولكم ذمة الله. لكم ذمة رسول الله صلى الله عليه وسلم. لكم ذمة العباس. لا ورب هذه البنية - وأوماً إلى الكعبة - لا نهيج منكم أحداً.

وخطب شبيب بن شيبة يعزي المهدي يوم توفيت ابنته قال:

أعطاك الله يا أمير المؤمنين على ما رزقت أجراً، وأعقبك صبراً، ولا أجهد الله بلاءك بنقمة، ولا نزع منك نعمة. ثواب الله خير لك منها. ورحمة الله خير لها منك، وأحق ما ثبر عليه ما لا سبيل إلى رده!

الرسائل

كتب أحمد بن يوسف إلى إبراهيم بن المهدي في هدية استقلها:
بلغني استقلالك لما أطفنك. ولذي تحن عليه من الأنس سهل علينا قلة
الحشد لك في البر، فأهدينا هدية من لا يحتشم، إلى من لا يغتنم.
وكتب في تهنئة بابلاله من مرض:

قد أذهب الله وصب العلة ونصبها، ووفر أجرها وثوابها، وجعل فيها من
إرغام العدو بعقباها، أضعاف ما كان من السرور بأولاها.

وكتب محمد بن عبد الملك الزيات عن لسان الخليفة لأحد العمال:
أما بعد: فقد انتهى إلى أمير المؤمنين كذا فأنكره، ولا تخلو من إحدى
منزلتين ليس في واحدة منهما عذر يوجب حجة، ولا يزيل لأئمة: إما تقصير
في عملك دعاك إلى الإخلال بالحزم والتفريط في الواجب، وإما مظاهره لأهل
الفساد ومداهنة لأهل الريب. وأية هاتين كانت منك، وحلة للنكر بك، وموجبة
للعقاب عليك، لولا ما يلقاتك به أمير المؤمنين من الأناة والنظرة، والأخذ
بالحجة، والتقدم في الأعذار والإنذار، وعلى حسب ما أقلت من عظيم العثرة
يجب اجتهدك في تلافي التقصير والإضاعة. والسلام.

وكتب أبو الفضل ابن العميد إلى أبي عبد الله الطبري:

كتابي وأنا بحال لو لم ينغص منها الشوق إليك، ولم يرتق صفوها النزوع
نحوك، لعددتها من الأحوال الجميلة، وأعددت حظي منها في النعم لجليلة،
فقد جمعت فيها بين سلامة عامة. ونعمة تامة، وحظيت منها في جسمي
بصلاح، وفي سعي بنجاح، لكن، ما بقى أن يصفو لي عيش مع بعدي عنك،
ويخلو ذرعي مع خلوي منك، ويسوغ لي مطعم ومشرب مع انفرادي دونك.
وكيف أطمع في ذلك وأنت جزء من نفسي، وناظم لشمل أنسي. وقد حرمت
رؤيتك، وعدمت مشاهدتك. وهل تسكن نفس متشعبة ذات انقسام، وينفع أنس
بيت لا نظام. قرأت كتابك - جعلني الله تعالى فداك - فامتألت سروراً
بملاحظة خطك، وتأمل تصرفك في لفظك. وما أقرظهما، فكل خصالك مقرر
عندي. وما أمدحهما، فكل أمرك ممدوح في ضميري وعقدي. وأرجو أن
تكون حقيقة أمرك موافقة لتقديري فيك، فإن كان كذلك وإلا فقد غطى هواك
وما ألقى على بصري.

المقامات

المقامة الحرزية لبديع الزمان الهمذاني

حدثنا عيسى بن هشام قال: لما بلغت بي الغربية باب الأبواب، ورضيت من الغنيمة بالإياب، ودونه من البحر وثاب بغاريه، ومن السفن عساف براكبه، استخرت الله في القفول، وقعدت من الفلك، بمثابة الهلك. ولما ملكنا البحر وجن علينا الليل، غشيتنا سحابة تمد من الأمطار جبالا، وتحوذ من الغنيم جبالا، بريح ترسل الأمواج زواجاً، والأمطار أفواجاً، وبقينا في يد الحين، بين البحرين، لا نملك عدة غير الدعاء، ولا حيلة إلا البكاء: ولا عصمة غير الرجاء. وطويناها ليلة نابغية، وأصبحنا نتباكى ونتشاكى، وفينا رجل لا يخضل جفنه، ولا تبتل عينه، رخی الصدر منشرحه، نشيط القلب فرحه. فعجبنا والله كل العجب. وقلنا له ما الذي آمنك من العطب؟ فقال: حرز لا يعزق صاحبه. ولو شئت أن أمنح كلا منكم حرزاً لفعلت. فكل رغب إليه، وألح في المسألة عليه. فقال لن أفعل ذلك حتى يعطيني كل واحد منكم ديناراً الآن ويعدني ديناراً إذا سلم. قال عيسى بن هشام: فنقدناه ما طلب، ووعدناه ما خطب، وآبت يده إلى جيبه فأخرج قطعة ديباج، فيها حقة عاج، قد ضمن صدرها رقاعاً، وحذف كل واحد منا بواحدة منها. فلما سلمت السفينة، وأحلتنا المدينة، اقتضى الناس ما وعدوه، فنقدوه. وانتهى الأمر إلي فقال دعوه. فقلت لك ذلك، بعد أن تعلمني سر حالك. قال: أنا من بلاد الإسكندرية. فقلت: كيف نصرك الصبر وخذلنا؟ فأنشأ يقول:

وبك لولا الصبر ما كنت	ملأت الكيس تبراً
لن ينال المجد من ضاق	بما يغشاه صدرا
ثم ما أعقبنني الساعة	ما أعطيت ضراً
بل به أشدت أزرأ	وبه أجبر كسراً
ولو أني اليوم في الغرقى	لما كلفت عذراً

ومن المقامة البغدادية للحريري على لسان عجوز مستجدية:

اعلموا يا مآل الآمل، وثمان الأرامل، أني من سَرَوَات القبائل، وسَرَيَات
العاقل، لم يزل أهلي وبعلي يحلون الصدر، ويسرون القلب، ويمطون الظهر،
ويولون اليد. فلما أَرَدَى الدهر الأعضاد، وَفَجَعَ بالجوارح الأكباد، وانقلب
ظهراً لبعض، نبا الناظر، وجفا الحاجب، وذهبت العين، وفقدت الراحة، وصلد
الزند، ووهنت اليمين. وضاع اليسار، وبانت المرافق، ولم يبق لنا ثنية ولا ناب.
فمذاغبر العيش الأخضر، وأزور المحبوب الأصفر اسود يومي الأبيض،
وابيض فودي الأسود؛ حتى رثى لي العدو الأزرق، فحبذا الموت الأحمر!

الفصل الثالث

الكتاب

ابن المقفع

(المتوفى سنة 142 هجرية)

نشأته وحياته

عبد الله ابن المقفع كاتب فارسي الأصل عربي النشأة. ولد حوالي سنة ست ومائة للهجرة، ونشأ بالبصرة على ما ينشأ عليه أبناء اليسار، وكان والده داذويه المجوسي يتولى خراج فارس للحجاج ابن يوسف، فاحتجن من مال السلطان شيئاً، فضر به الحجاج حتى تقفعت يده فلقب بالمقفع. وربى عبد الله منذ طفولته على النمط الإسلامي، وأولع بالعلی وهو فارغ القلب من هموم العيش، فنبغ وهو يافع في الكتابة باللغتين الفارسية والعربية، فاستكتبه في عهد بني أمية داود ابن عمر ابن هيرة، وفي بني العباس عيسى ابن علي عم المنصور، وعلى يديه أسلم. قال له ذات يوم: " قد دخل الإسلام في قلبي وأريد أن أسلم على يدك " فطلب إليه عيسى أن يغدو عليه بين القواد ورءوس الأجناد ليكون إسلامه مشهوداً. ثم حضر معه المائدة عشية ذلك اليوم فجعل يأكل ويزمزم على عادة المجوس. فلما كلمه عيسى في ذلك قال ك " كرهت أن أبيت على غير دين " ثم غدا عليه فأعل إسلامه، وتسمى عبد الله واكتنى أبا محمد، وقد كان اسمه من قبل روزبة.

وقد قيل إنه اسلم ابتغاء عرض الدنيا. ورمى بالإلحاد لمعارضته القرآن، وترجمته كتب الزنادقة، وتمثله حينما مر على بيت نار للمجوس بيتي الأحوص:

يا بيت عاتكة الذي أتعزل حذر العدى وبه الفؤاد موكل
إنني لأمنحك الصدود وإنني قسما إليك مع الصدود لأميل

وبقى ابن المقفع في خدمة عمي المنصور عيسى وسليمان حتى كانت حادثة الأمان الذي كلف أن يكتبه عن لسان المنصور لعمه عبد الله، فإنه تشدد فيه على الخليفة بمثل قوله: "ومتى غدر المؤمنين بعمه عبد الله فنساؤه طوالق، ودوا به حبس، وعبيده أحرار، والمسلمون في حل من بيعته" فوجد المنصور عليه وأوغر بقتله إلى سفيان ابن معاوية المهلبى أمير البصرة، وكان يضطغن على ابن المقفع لسخره منه واستخفافه به في حضرة وجوه البصرة. فقد قالوا إنه كان كبير الأنف، فكان كلما دخل عليه ابن المقفع قال: (السلام عليكما) يعني سفيان وأنفه. فاهتبل الأمير هذه الفرصة وقتله حرقاً بالنار بالغاً من العمر ستاً وثلاثين سنة.

أخلاقه وعلمه

كان ابن المقفع ذكي القلب فصيح المنطق ضليعاً في أدب العرب والفرس "مقدماً⁽¹⁾ في بلاغة اللسان والقلم والترجمة واختراع المعاني وابتداع السير. وكان يتعاطى الكلام⁽²⁾ ولا يحسن منه لا قليلاً ولا كثيراً".

وقد قيل: لم يكن للعرب بعد لصحابة أذكى من الخليل، ولا كان في العجم أذكى من ابن المقفع. وقد اجتمع هذان الصديقان لأول مرة. فمكثا يتحدثان ثلاثة أيام ثم افترقا فقبل لل خليل كيف رأيت عبد الله؟ فقال ما شئت من علم وأدب! إلا أن عقله أكثر من علمه. وقد سئل ابن المقفع: من أدبك؟ فقال نفسي: كنت إذا رأيت من غيري حسناً أتيت، وإن رأيت قبيحاً أبيت. وكان في سائر أحواله عفيفاً أديباً وفيماً لأصحابه. وأمره⁽³⁾ مع عبد الحميد الكاتب شهيد بذلك.

(1) هذا رأي الجاحظ فيه من رسالته في المعلمين.

(2) علم التوحيد.

(3) قد مر بسط ذلك في ترجمة عبد الحميد ابن يحيى الكاتب.

نشره وشعره

ابن المقفع إمام الطبقة الأولى من الكتاب. وقد استخلص من الأسلوب الفارسي والعربي في الكتابة عرفت به وأخذت عنه. وقد فصلنا ذلك في أثناء كلامنا عن النشر في هذا العصر فارجع إليه. أما شعره فقليل جيد، روى صاحب الحماسة منه قوله في رثاء يحيى بن زياد:

رُزْنَا أبا عمر ولا حيٍّ مثله فله ريب الحادثات بمن وقع!
فإن تك قد فارقتنا وتركنا ذوي خلة ما في انسداد لها طمع
فقد جر نفعاً فقدنا لك أننا أمنا على كل الرزايا من الجزع

مترجماته ومؤلفاته

ابن المقفع مترجم قدير لا تلمح في ترجمته أثر العجمة، وتكاد لا تفرق بين نقله ووضعه. وكتابه كليل⁽¹⁾ ودمنة إذا صح أنه مترجم لا يزال مثلاً للترجمة الصحيحة البليغة. وهو كما قال القفطي أول من اعتنى في الملة الإسلامية بترجمة الكتب المنطقية لأبي جعفر المنصور، فترجم كتب أرسطو الثلاثة في المنطق. وكتاب إيساغوجي لفرفوريوس الصوري؛ نقلها عن ترجمة بالفارسية لأنه لم يعرف غيرها على الأرجح؛ ونقل كتاب التاج في سيرة أنوشروان. وألف كتابي الأدب الصغير والكبير في الأخلاق، وكتاب اليتيمة في طاعة السلطان.

نموذج من نشره

قال: لا يؤمننك شرَّ الجاهل قرابة ولا جوار ولا إلف، فإن أخوف ما يكون الإنسان لحريق النار أقرب ما يكون منها. وكذلك الجاهل إن جاورك أنصبك، وإن ناسبك جنى عليك، وإن ألفك حمل عليم ما لا تطيق، وإن عاشرك أذاك وأخافك؛ مع أنه عند الجوع سبع ضار، وعند الشبع ملك فظ، وعند الموافقة

(1) انظر ما كتب عن كليل ودمنة في باب الكلام عن القصص.

في الدين قائد إلى جهنم: فأنت بالهرب منه أحق منك بالهرب من سم الأسود، والحريق المخوف، والدين الفادح، والداء العياء."

وقال أيضاً: "إن استطعت أن تنزل نفسك دون غايتك في كل مجلس ومقام ومقال ورأي وفعل وفاعل. فإن رفع الناس إياك فوق المنزلة التي تحط إليها نفسك، وتقريبهم إياك في المجلس الذي تباعدت عنه، وتعظيمهم من أمرك ما لم تعظم، وتزيينهم من كلامك ما لم تزين، هو الجمال."

وقال أيضاً. كان لي أخ أعظم الناس في عيني. وكان رأس ما عظمه في عيني صغر الدنيا في عينه. كان خارجاً من سلطان بطنه، فلا يشتهي ما لا يجد ولا يكثر إذا وجد. وكان خارجاً من سلطان لسانه، فلا يتكلم بما لا يعلم، ولا يماري فيما علم. وكان خارجاً من سلطان الجهالة، فلا يتقدم أبداً إلا على ثقة بمنفعة. وكان أكثر دهره صامتاً، فإذا قال بذ القائلين. وكان ضعيفاً مستضعفاً، فإذا جد الجد فهو الليث عادياً. وكان لا يدخل في دعوى، ولا يشارك في مرء، ولا يدلي بحجة حتى قاضياً فهماً وشهوداً عدولاً. وكان لا يلوم أحداً فيما يكون العذر في مثله حتى يعلم ما عذره. وكان لا يشكو وجعه إلا عند من يرجو عنده البرء، ولا يستشير صاحباً إلا أن يرجو منه النصيحة. وكان لا يتبرم ولا يتسخط ولا يشتكي ولا يتشهى، ولا ينتقم من العدو ولا يغفل عن الولي، ولا يخص نفسه بشيء دون إخوانه من اهتمامه وحيلته وقوته.

فعليك بهذه الأخلاق إن أطقتها، ولن تطيق، ولكن أخذ القليل خير من ترك الجميع.

الجاحظ

(المتوفى سنة 255 هجرية)

نشأته وحياته

ولد أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ بالبصرة ونشأ بها وهي يومئذ مهد العلم ومنتدى الأدب، فأكب على الدرس وجد في التحصيل وأخذ عن جهابذة اللغة والرواية كالأصمعي وأبي عبيدة وتخرج في علم الكلام على أبي إسحاق النظام أحد المعتزلة فأخذ بمقالاته، ونصر الاعتزال بكتابته. وصاحب فئة من كتاب العرب ومترجمي الفرس فنقل عنهم واستفاد منهم، وأغرم بالمطالعة إغراماً شديداً فلم يقع في يده كتاب إلا استتم قراءته، واستوعب مادته. وكان يكثرى حوانيت الوراقين ويعتكف فيها للدرس والمطالعة حتى أحصى مسائل العلوم، واستبطن دخائل الفنون، وأصبح منقطع القرين.

قضى أكثر عمره في مسقط رأسه عاكفاً على التأليف مرعى الجانب، مكفي الحاجة، أثيراً لدى الولاة، مكرماً عند الوجوه، بما يؤلف من الرسائل ويصنف من الكتب. ثم كان يتتبع بغداد في عهد المأمون والمعتصم والواثق والمتوكل؛ وانقطع بعد ذلك إلى محمد ابن عبد الملك الزيات طول وزاراته الثلاث؛ ثم استقر بالبصرة بعد نكبة الوزير. وأصيب بالفالج النصفي في عاقبة عمره. وطال عليه المرض وتبلغت به العلة حتى قبضه الله إليه سنة خمسة وخمسين ومائتين وقد شارف المائة.

صفاته وأخلاقه

كان أبو عثمان دميم الخلقة جهم الوجه جاحظ العينين "ومن ذلك لقبه "؛ حتى قيل إن الخليفة المتوكل سمع بمنزلته من العلم والفهم فاستقدمه عليه بسر من رأى ليؤدب ولده. فلما رآه استبشع منظره وصرفه بعشرة آلاف درهم. وكان في الجاحظ دعابة ومجانة واستخفاف بالعادات لمرعية والآداب الوضعية، ولكنه كان لطيف الروح ذكي الفؤاد فكه المحاضرة صادق المواساة.

علمه وأدبه

ليس في مقدور هذا القلم العاجز الموجز أن يصف للقارئ ما لنا بغة العرب وفولتير الشرق من الأثر في الأدب. وبحسبنا أن نقول إنه تميز من أنداده بغزارة العلم، وقوة الحجة، واستقصاء البحث، وشدة المعارضة، وبلاغة القول، وإنه تبحر في علم الكلام وخلطه بفلسفة يونان، وانفرد دون المتكلمين بمذهب في التوحيد شايعه عليه كثير منهم فسموا بالجاحظية. وشارك في سائر العلوم وكتب فيها كتابة محقق ضليع. وهو أول عالم عربي جمع بين الجد والهزل، وتوسع في المحاضرات وأكثر من التصنيف وكتب في الحيوان والنبات والأخلاق والاجتماع.

نثره وشعره

نقل الجاحظ الكتابة إلى طور جديد في الأسلوب والغرض، ونهج للمترسلين والمصنفين طريقة في الإنشاد ذكرناها في معرض الكلام عن الكتابة فلا نعيد فيها القول. وقد قال فيه البديع: إن كلامه بعيد الإشارة، قريب العبارة قليل الاستعارة. وهذا الحكم وإن كان شديد يطابق الحق أحياناً. أما شعره فلا روعة ولا جمال فيه. وقد نزع في نظمه إلى الإتيان لا إلى الابتداء، وهو قليل منشور في ثنايا الرسائل والكتب كقوله للوزير أين عبد الملك:

بدا حين أثرى لإخوانه ففلل منهم شاة العدم
وأبصر كيف انتقال الزمان فبادر بالعرف قبل الندم
وقوله:

لئن قُدِّمتُ قبلي رجالاً فطالما مشيت على رِشلي فكنتُ المقدما
ولكن هذا الدهر تأتي صروفه فتبرم منقوضاً وتنقض مبرما

مؤلفاته

كتب الجاحظ تربي على مائتي كتاب، وهي كما قل الأستاذ ابن العميد؛ "تعلم العقل أولاً والأدب ثانياً" ولم ينشر منها إلا كتاب البيان والتبيين في

الأدب والإنشاء والخطابة، وكتاب الحيوان هو أقدم كتاب عربي في موضوعه، وكتاب المحاسن والأضداد، وكتاب البخلاء، وديوان رسائله.

مثال من نثره

قال يعاتب صديقاً له. " والله يا قليب لولا أن كبدي في هواك مقروحة، وروحي بك مجروحة، لساجلتك هذه القطيعة، وماددتك جبل المصارمة، وأرجو الله أن يدبيل صبري من جفائك، فيردك إلى مودتي وأنف القلى راغم؛ فقد طال العهد بالاجتماع، حتى كدنا نتناكر عند اللقاء.

وقال في رسالة الترييع والتدوير وهي من أبلغ رسائله:

قد اعتدنا في معصيتك والخلاف على محبتك، مرة بالمزاح، ومرة بالنسيان، ومرة بالانكال على عفوك. وعلى ما هو أولى بك. والجملة أنا لو اعتمدنا، ثم أصررنا، ثم أنكرنا، لكان في فضلك ما يتغمده، وفي كرمك ما يوجب التغافل عنه. فكيف وإنما سهونا ثم تذكرنا، واعتذرنا ثم أطيننا؟ فإن تقبل فحظك أصبت، ولنفسك نظرت. وإن لم تقبل فاجهد جهدك، ولا أبقى الله عليك إن أبقيت، ولا عفا عنك إن عفوت. وأقول كما قال أخو بني منقر:

فما بُقيَا على تركتُماني ولكن خفتما صدر النبال

والله لئن رميتني ببجيلة لأرمينك بكنانة. ولئن نهضت بصالح ابن علي لأنهضن بإسماعيل ابن علي. ولئن صلت علي بسليمان ابن وهب لأدمعتك بالحسن ابن وهب. وأنا أرى لك أن تقبل العافية، وترغب إلى الله تعالى في السلامة. واحذر البغي فإن مصرعه وخيم، واتق الظلم فإن مرعاه وبيل. وإياك أن تتعرض لجريير إذا هجا، وللفرزدق إذا فخر، ولهرثمة إذا دبر، ولقيس ابن زهير إذا مكر، وللأغلب إذا كر، ولطاهر إذا صال. ومن عرف قدره عرف قدر خصمه، ومن جهل نفسه لم يعرف قدر غيره. وعليك بالجدادة ودع البينات. فإن ذلك أمثل لك. وأنت والله تعلم علم الاضطرار، وعلم الاختيار، وعلم الأخبار، أني أظهر منك حرباً، وألطف كيداً، وأكثر علماً، وأوزن حليماً، وأخف روجحاً، وأكرم عيناً، وأقل غشاً، وأحسن قدأً، وأبعد غرواً، وأجمل وجهاً، وأنصح ظرفاً، وأكثر ملحاً، وأنطق لساناً، وأحسن بياناً، وأجهر جهارة، وأحسن شارة، وأنت

رجل تشد من العلم، وتنتف من الأخبار، وتموه نفسك، وتعز من قدرك، وتهياً بالثياب، وتنبل بالمراكب، وتتجب بحسن اللقاء؛ ليس عندك إلا ذاك. فلم تزاحم البحر بالجدول، والأجسام بالأعراض، ومالا يتناهى بالجزء الذي لا يتجزأ؟ ومن يعدل بين القناة والكرة؟ وبين رحي الطحان وبين سيف يمان؟ وإنما يكون التمثيل بين أتم الخيرين، وأنقص الشرين، وبين المتقاربين دون المتفاوتين. فأما الخل والعسل، والحصاة والجبل، والسم والغذاء، والفقر والغنى، فهذا مما لا يخطئ فيه الذهن، ولا يكذب فيه الحسن.

ابن العميد

(المتوفى سنة 360 هـ)

نشأته وحياته

أبو الفضل محمد بن الحسين المعروف بابن العميد فارسي الأصل من أهل مدينة (قم). كان أبوه مترسلاً بليغاً يتولى الكتابة لنوح ابن نصر الساماني ملك بخارى، فنشأه على الأدب ودربه في الكتابة، وغذاه بالعلم، فبرع في الإنشاء والترسل، وتوسع في الفلسفة والنجوم، حتى سمي بالأستاذ ولقب بالجاحظ الثاني.

ولما استكملت عدته، واستحصدت قوته، غادر بخاري إلى بلاد الجبل من ملك آل بويه؛ فتقلد الأعمال في دولتهم. وما زال يتنقل في مدارج الرقي، ويتوقل في معارج الشرف، حتى وزر لركن الدولة ابن بويه سنة ثمانين وعشرين وثلاثمائة، فاضطلع بأعباء الوزارة، وقام بشئون الدولة، وجرى منهاج بني برمك في الجود، فانتجعه الشعراء وقصده العلماء من بغداد والشام ومصر فكان هو والصاحب ابن عباد والوزير المهلبى روحاً لنهضة العلم وقطباً لدائرة الأدب في ذلك العصر. وقد كان المتنبي على مكانته يجله ويتهيبه، وله فيه مدائح مشهورة منها قصيدته التي مطلعها:

بادِ هواك صربت أم لم تصبرا وبكاك إن لم يجر دمعك أو جرى
ويقول فيها:

من مبلغ الأعراب أني بعدها شاهدت رَسْطاليس والإسكندرا
ومللت نحر عشارها فأضافني من ينحدر البدر النضار لمن قرى
وسمعت بطليموس دارس كتبه متملكاً متبدياً متحضراً
ولقيت كل الفاضلين كأنما رد الإله نفوسهم والأعصر

ولكن ابن العميد كان قليل الحظ من العافية ألحَّت عليه الأوصاب وتناوبه القَوْلنج والبَقُرس حتى استعز الله به سنة ستين وثلاثمائة.

نثره وشعره

عصر ابن العميد عصر تألق وزخرف، وعهد خيال وشعر، فهداه طبعه إلى استحداث أسلوب جديد متناسب الفقر أنيق الديباجة، بديع الوشى، طبع على غرار مشايعوه لموافقة ذوق العصر. ولمكانة الوزير من الفضل. إلا أنه كان أرق معاصريه طبعاً، وأقلهم سجعاً، وأكثرهم نثراً للشعر وتلميحاً للأمثال، وتضميناً للحكم، ولا يضارعه في أكثر ذلك على ما أرى إلا البديع، وكان ابن العميد متفنناً في فنون الكتابة، متفوقاً في ضروب الرسائل، حتى شاعت فيه الكلمة المأثورة: "بُدئت الكتابة بعبد الحميد، وخُتِمت بابن العميد".

أما شعره فيغلب فيه الحسن ويرويه ماء الطبع؛ إلا أنه على الجملة أخف وزناً من نثره.

مختار من كلامه

قال من رسالته إلى ابن بلكا عند استعصائه على ركن الدولة:

كتابي وأنا مترجح بين طمع فيك ويأس منك، وإقبال عليك وإعراض عنك. فإنك تدل بسابق حرمة، وتمت بسالف خدمة، أيسرهما يوجب رعاية ويقتضي محافظة وعناية، ثم تشفعهما بحادث وخيانة، وتتبعها بأنف خلاف ومعصية: وأدنى ذلك يحبك أعمالك، ويمحق كل ما يرمى لك. ولا جرم أنني وقفت بين ميل إليك، وميل عليك، أقدم رجلاً لصدمك، وأؤخر أخرى عن قصدك، وأبسط يداً لاصطلامك واجتياحك، وأثنى ثانية لاستبقائك واستصلاحك؛ فقد يغرب العقل ثم يؤوب، ويعزب اللب ثم يثوب، ويذهب الحزم ثم يعود، ويفسد العزم ثم يصلح، ويضاع الرأي ثم يستدرك، ويسكر المرء ثم يصحو، ويكدر الماء ثم يصفو.

ومنها: وزعمت أنك في طرف من الطاعة بعد أن كنت متوسطها. وإذا كنت كذلك فقد عرفت حالها، وحلبن شطريها؛ فنشدتك الله إلا ما صدقتني عما سألتك. كيف وجدت مازلت منه، وكيف تجد ما صرت إليه؟ ألم تكن من الأول في ظل ظليل، ونسيم عليل، وريح بليل، وهواء غذي، وماء روي، ومهاد وطي، وكن كنين، ومكان مكين، وحصن حصين، وعززت به بعد الذلة،

وكثرت بعد القلة، وارتفعت بعد الضعة، وأيسرت بعد المعسرة، وأثريت بعد المتربة؟.. ففيم الآن أنت من الأمر؟ وما العوض عما عدت، والخلف مما وصفت؟ وما استفدت حين أخرجت من الطاعة نفسك، ونفضت منها كفك، وغمست في خلافها يدك؟ وما الذي أظلك بعد انحسار ظلها عنك؟ أظل ذو ثلاث شعب، لا ظليل ولا يغني من اللهب؟ قل نعم كذلك.

ومنها: تأمل حالك وقد بلغت هذا الفصل من كتابي فستنكرها. والمس جسدك وانظر هل يُحسُّ؟ واجسُس عرقك هل ينبض؟ وفتش ما حنا عليك هل تجد في عرضها قلبك؟ وهل حلى بصدرك أن تظفر بفوت سريع، أو موت مريح؟ ثم قس غائب أمرك بشاهده، وآخر شأنك بأوله.

ومن شعره قوله لبعض إخوانه:

قد ذبت غير حشاشة وذماء	ما بين حر هوى وحر هواء
لا أستفيق من الغرام ولا أرى	خلوا من الأشجان والبرحاء
وصروف أيام أقمن قيامتي	بنوى الخليط وفرقة القرناء
وجفاء خل كنت أحسب أنه	عوني على السراء والضراء
أبكي ويضحكه الفراق ولن ترى	عجباً كحاضر ضحكة وبكائي

ومنها:

من يشف من داء بآخر مثله	أثرت جوانحه من الأدواء
لا تغنم إغضاءتي فلعلها	كالعين تغضيها على الأقداء
واستبق بعض حشاشي فلعلني	يوماً أقبك بها من الأسواء
فلئن أرحت إلى عازب بلوتي	ووجدت في نفسي نسيم عزاء
لأجهزن إليك قبح تشكر	ولأثرن عليك سوء ثناء
ولأعضلن مودتي من بعدها	حتى أزوجهما من الأكفاء

الصاحب بن عباد

(326 - 385 هـ)

نشأته وحياته

ولد كافي الكفاة أبو القاسم إسماعيل الصاحب بن عباد بطالقان من أعمال قزوين، ودرس علي ابن فارس اللغوي، واتصل بابن العميد شاباً فأخذ عنه؛ واشتدت صحبته له فلقب من أجل ذلك بالصاحب. وزر لمؤيد الدولة ابن بويه بعد أن قتل أبو الفتح ابن العميد⁽¹⁾ وزيره، فدبر أموره وسد ثغوره. ولما ملك فخر الدولة بعد أخيه استعفى الصاحب، فقال له: " لك في هذه الدولة من إرث الوزارة، ما لنا فيها من إرث الإمارة. فسيل كل منا أن يحتفظ بحقه.

فاتسع سلطان الصاحب وعم إحسانه، وعرس للأدب جنانا ناضرة، وشار للعلم ربوعاً عامرة. وقصد حضرته الأدباء والعلماء والمتكلمون والمصنفون يتعرضون لمنحه، ويتنافسون في مدحه، وهو يرشدهم بنقده، ويعينهم برفده، حتى ازدهر الأدب في عهد بني بويه بفضلله ازدهاراً قل أن يصادفه في عهد آخر.

وكان للصاحب ولع بجمع الكتب وشغف بمطالعتها. وكان مجلسه لا يخلو من أديب يحاضر، ومتكلم يناظر، وناشئ يروي ويستفيد. وعاش الصاحب ما عاش مبجلاً مفضلاً نافذ الأمر مطاع الإشارة. فلما مات أغلقت له أبواب الري واجتمع الناس على باب قصره ينتظرون جنازته وفيهم فخر الدولة وقواده في خير ملابسهم. فلما خرج نعشه من الباب صاحوا بأجمعهم صيحة واحدة وقبلوا الأرض. ودفن بأصبهان.

نثره

سار الصاحب على نهج ابن العميد وأربى عليه في الحلية اللفظية ولاسيما في السجع والجناس، حتى قيل فيه: " لو رأى سجعة تنحل بموقعها عروة

(1) هو علي أبو الفتح ذو الكفائتين ابن العميد ابن أبي الفضل ابن العميد الذي تقدم ذكره. خلف أباه على الوزارة لركن ابن بويه حتى توفي فوزر لولده مؤيد الدولة فتغير عليه لبعض الأسباب فقتله.

الملك، ويضطرب بها حبل الدولة، لما هان عليه أن يتخلى عنها " ومنزلته بعد البديع وقبل الخوارزمي. وله ذوق سليم في صوغ الشعر ونظر صادق في نقده. ولم تعقه تكاليف الوزارة ولا مظاهر الإمارة عن التأليف، فصنف في اللغة كتاب المحيط في سبعة مجلدات، وكتاب الإمالة، والكشف عن مساوئ المتنبي، وغير ذلك: وأكبر فضله في تشجيع الأدباء وتنشيط العلماء وإذكاء شعلة الأدب.

نموذج من كلامه

كتب إلى القاضي أبي بشر الجرجاني حين وروده باب الري وافداً عليه:

تحدثت الركاب بسير أروى إلى بلد حططت به خيامي
فكدت أكبر من شوق إليها بقادمة كقادمة الحمام

أحق ما قيل أمر القادم، أم ظن كأماني الحالم؟ لا والله بل هو درك العيان،
وإنه ونيل المنى سيان. فمر أيها القاضي براحتك ورخلك، بل أهلا بك
وبكافة أهلك، ويا سرعة ما فاح نسيم مسراك ووجدنا ريح يوسف من رياك؟
فحث المطي تزل غلتي بسقياك، وتزح علتني بلقياك. وقص علي يوم الوصول
لنجعله عيداً مشرفاً، ونتخذة موسماً ومعرفاً ورد الغلام، أسرع من رجوع الكلام،
فقد أمرته أن يطير على جناح نسر، وأن يترك الصبا في عقال وأسر.

سقى الله دارات مررت بأرضها فأدتك نحوي يا زياد ابن عامر
أصائل قرب أرتجى أن أنالها بلقياك قد زحزحن حر الهواجر

الخوارزمي

(303 – 383 هـ)

نشأته وحياته

هو أبو بكر محمد بن العباس الخوارزمي، أصل آبائه من طبرستان وولد بخوارزم، ثم فارقتها وهو فتى السن ابتغاء للعلم والتماساً للرزق، فجاب الأقطار وتقلب في خدمة كثير من الملوك والأمراء. ولقي سيف الدولة وخدمة بالشام ثم مضى على غلوائه في الاضطراب والاعترا ب: فورد بخاري ونيسابور وسيجستان حتى وافى الصاحب ابن عباد بأصبهان، فأكرم مثواه بكتاب إلى عضد الدولة بشيراز فنجحت سفرته، وربحت تجارته، وصدر عنه بمال جم وخير كثير فاستوطن نيسابور واقتنى بها ضياعاً وعقاراً، وعاش قرير العين ناعم البال بين مجالس الدرس ومجالس الأئس حتى منى في آخر زمانه بمساجلة البديع الهمذاني ومناظرته. فانخذل انخذالاً شديداً، ونالت منه هذه النكبة فاعتلت صحته، وخمدت شهرته، ولم يحل عليه الحول حتى علقه حماسه سنة ثلاث وثمانين وثلاثمائة.

منزله في الأدب والكتابة

رُوي عن الخوارزمي ما رُوي عن أئداده من سرعة الحافظة وقوة الذاكرة وشهر بذلك حتى قيل: إنه قصد الصاحب ابن عباد بأرجان، فلما وقف ببابه ذهب الحاجب إلى الصاحب وقال: إن بالباب أديباً يستأذن في الدخول. فقال الوزير قل له: قد ألزمت نفسي ألا يدخل علي إلا أديب يحفظ عشرين ألف بيت من شعر العرب " فقال أبو بكر للحاجب: ارجع إليه وقل له: هذا القدر من شعر الرجال أم من شعر النساء؟ فلما أخبر بذلك الصاحب قال: هذا أبو بكر الخوارزمي!.

وكان الخوارزمي مع ذلك إماماً في اللغة والأنساب، عالماً بأشعار العرب وأخبارهم، واقفاً على أسرار وخواص التراكيب. وهو في النثر من طبقة ابن

العميد. وكثير من الناس يفضله على الصاحب. ولكنه يتخلف أحياناً فلا يحور إلى ذوق، ولا يرجع إلى سليقة. أما شعره فبين الرديء والجيد.

مختار من كلامه

من فصوله المختارة قوله: الرجال حصون بينها الإحسان، ويهدمها الحرمان، وتبلغ بثمرها البر واليسر، ويمحقها الجفاء والكبر. وإنه لا مال إلا برجال، ولا صلح إلا بعد قتال. والجبان مقتول بالخوف. قبل أن يقتل بالسيف، والشجاع حي وإن خانته العمر، وحاضر وإن غيبه القبر. ومن طلب المنية هربت منه كل الهرب، ومن هرب منها طلبته أشد الطلب. وقال:

أكبر من الأسير من أسره ثم اعتقه، وأشجع من الأسد من قيده ثم أطلقته. وأكرم من النبت الزكي من زرعه، وأكرم من الكريم من اصطنعه. لا صيد أعظم من إنسان، ولا شبكة أصيد من لسان، وشتان بين من اقتنص وحشياً بحبالته، وبين من اقتنص إنسياً بمقاتلته!

ومن أجود شعره قوله:

دمعان في الأجفان يزدحمان	مضت الشبيبة والحبيبة فالتقى
بمودعين وليس لي قلبان	ما أنصفتني الحادثات، رميني

وقوله:

قلت للعين حين شامت جمالا	في وجوه كواذب الإيماض
لا يغرنك هذه الأوجه الغرُّ (م)	فيا ربَّ حيةٍ في رياض
وقد ذم أحد خلفاء بني العباس قال:	
ما لي رأيت بني العباس قد فتحوا	من الكنى ومن الألقاب أبوابا؟
ولقبوا رجلا لو أولهم	ما كان يرضى به للقصر بوابا
قل الدراهم في كفي خليفتنا	هذا فأنفق في الأقوام ألقابا

وقال في الحكم:

لا تصحب الكسلان في حالاته
عدوى البليد إلى الجليد سريعة
وقال يرثي ركن الدولة:

ألست ترى السيف كيف انثلم
طوى الحسن ابن بويه الردى
فصيح اللسان بديع البيان
إذا تم شيء بدا نقصه
وركن الخلافة كيف انهدم؟
أيدري الردى أي جيش هزم
رفيع اللسان سريع القلم
توقع زوالا إذا قيل تم

بديع الزمان الهمذاني

(المتوفى سنة 398 هـ)

نشأته وحياته

أبو الفضل أحمد ابن الحسين ولد بهمذان ونشأ بها. وتعلم العلم باللغتين الفارسية والعربية، ولم يترك أدبياً في همذان إلا استنفد ما عنده. ثم غادرها إلى صاحب ابن عباد فازداد من معارفه وعوارفه. وقصد جرجان فأقام في أكناف الإسماعيلية واختص بأبي سعيد محمد ابن منصور. وفي سنة 382 يمم نيسابور فتجلت فيها عبقريته، وذاعت بين الناس شهرته، وأملى بها أربعمئة مقامة. ثم تصدى لمناظرة أبي بكر الخوارزمي، وكان أسن منه وأشهر. وجرت بينهما مكاتبات أفضت إلى مناظرات. وغلب هذا قوم وذاك آخرون. وساعد البديع شبابه ولسانه وحاجته إلى الظهور، فظهر على الخوارزمي ظهوراً أطال ذكره ورفع قدره عند الملوك والرؤساء. وأجاب قرنه داعي ربه، فخلا له الجوى، وابتسم له الدهر، وتنقل في حواضر فارس منتجعاً أمراءها، حتى ألقى عصاه بهرات وصاهر أحد وجهائها وعلمائها، وعاش بها رخي البال متسق الحال إلى أن ناداه ربه فلباه سنة 398.

واختلف في موته فقيل مات مسموماً، وقيل مات بالسكتة وعجل بدفنه فأفاق في جدته، وسمع صوت بالليل فنبشوا عليه فوجدوه قد مات قابضاً على لحيته من هول القبر.

أخلاقه ومواهبه

كان البديع مقبول الصورة، خفيف الروح، ناصع الظرف، ذكي القلب، قوي الحافظة. حدث التاريخ عنه أنه كان ينظر في أوراق من كتاب لم يعرفه نظرة واحدة ثم يؤدي ما فيها لا يخرم منه حرفاً. وأنه كان يقترح عليه إنشاء رسالة في معنى غريب فيخرج منها عفو الساعة والجواب عنها فيها. وربما ابتدأ بآخر سكر من الرسالة وانتهى بها إلى أولها فيخرجها بلفظ مرتبط ومعنى

متسق. وكان يترجم ما يقترح عليه من الشعر الفارسي إلى الشعر العربي فيجمع بين الإبداع والإسراع.

نثره وشعره

نثر البديع يستهوى القلوب ويملك الشعور، وكله من قبيل الشعر المنشور. وللصناعة تأثير فيه؛ إلا أنه مع ذلك جار مجرى الطبع، لم يفسده تكلف، ولم يبهمه تعمق. وقد جمع كلامه بين متانة اللفظ ورشاقة المعنى وجمال العبارة ودقة التخيل. وقد تصرف هذا الكاتب في فنون الترسل، وتفنن في ضروب الرسائل حتى كان بحق فارس الطريقة العميدية وابن بجدها.

وله شعر رقيق لم يبلغ من الجودة مبلغ نثره، لأن الجمع بين حسن النظم وحسن النثر قلما يتفق لأحد.

مقاماته

المقامات ⁽¹⁾ حكايات قصيرة تشتمل كل واحدة منها على حادثة لا تستغرق غالباً أكثر من مقامة (جلسة) وتنتهي بعظة أو ملحمة. ولحسن الديباجة وأناقة الأسلوب فيها المحل الأول. والبديع أول من أجاد هذا النوع. والمظنون أنه حاكي بالمقامات الأحاديث الأربعين لابن دريد المتوفى سنة 310. وقد كتب أربعمائة مقامة في الكدية وغيرها، نحلها أبا الفتح الإسكندري على لسان عيسى ابن هشام. ولم يعثروا منها إلا على ثلاث وخمسين مقامة شرحها الأستاذ محمد عبده. أسلوبها طلي شهي، إلا أن قصر حكاياتها وتقارب الخيال فيها يبعدها عن الكمال. وللبديع غير المقامات ديوان رسائل ومجموعة شعر وكلاهما مطبوع.

مختار من كلامه

قال من رسالة: والله لولا يد تحت الحجر، وكبد تحت الخنجر، وطفل كفرخ يومين قد حبب إلى العيش، وسلب من رأسي الطيش، لشمخت بأنفي عن هذا المقام. ولكن صبراً جميلاً والله المستعان.

(1) اقرأ ما كتبناه عن المقامات بعد ذلك في باب المقامات والقصص.

وقال من رسالة أخرى: وجدتك تعجب أن يجحد لئيم فضل صنيعةك. فخفض عليك يرحمك الله! إن الذي تعجب منه يسير، في جنب ما يجحده من الناس كثير. إن الله خلق أقواماً وشق لهم أبصار وآتاهم بصائر، فغاصوا بها على عرق الذهب فقصدوه، ولم يزالوا بالنجم حتى رصدوه، واحتالوا للطائر فأنزلوه من جو السماء، ولحوت فأخرجوه من الماء، ثم جحدوا مع هذه الأفكار الغائصة والأذهان النافذة صانعهم: فقالوا أين وكيف؟ حتى رأوا السيف. فلم تعجب إن جحدوا فضلاً ليست الأرض بساطه، ولا الجبال سماطه، ولا سيما فسطاطه، ولا الليل رباطه، ولا النهار صراطه، ولا النجوم أشراطه، ولا النار سياطه...؟

وكتب إلى بعض أصدقائه يحذره:

لعلك يا سيدي لم تسمع بيتي الناصح حيث قال:

اسمع نصيحة ناصح جمع النصيحة والمقّة

إياك واحذر أن تكون من الثقات على ثقة

صدق والله وأجاد. فللثقات، خيانة في بعض الأوقات. هذه العين تريك السراب شراباً، وهذه الأذن تسمعك الخطأ صوباً، فلست بمعذور، إن وثقت بمحذور، وهذه حال السامع من أذنه، الواثق بعينه. وأرى فلاناً يكثر غشيانك وهو الدنيء دخلته، الرديء نحلته، السيئ وصلته، الخبيث جملته، وقد قاسمته في أزرّك، وجعلته موضع شرك. فأرني موضع غلطك فيه، حتى أريك موضع تلافيه. أما أبعد غلطك من غلط إبراهيم عليه السلام! إنه رأى كوكباً، ورأيت تولىا. وأبصر القمر، وأبصرت القدر. وغلط في الشمس، وغلطت في الرسم! أظاّره غرك، أم باطنه شرك؟.

ومن قوله في أبي القاسم ناصر الدولة:

غضي جفونك يا رياض فقد فتنّت الحور غمزا

واقني حياتك يا رياح فقد كدرت الغصن هزا

وأرفق بجفنك يا غمام فقد خدشت الورد وخزا

خلع الربيع على الربى وربوعها خزا وبزا
ومطارفا قد نقشت فيها يد الأمطار طرزا
ومنها:

وكان أمطار الربيع إلى ندى كفيك تعزى
يا أيها الملك الذي بعساكر الآمال يغزى
خلقت يدك على العدى سيفاً وللعافين كنزا
لا زلت يا كنف الأمير لنا من الأحداث حرزا

الحريري

(446 - 516 هـ)

نشأته وحياته

محمد القاسم بن علي البصري عربي صميم من بني حرام. ولد بقرية يقال بها المشان، ونشأ بالبصرة وتخرج على فضلائها. وكان في أول أمره يبيع الحرير أو يصنعه فلقب بالحريري. وصرفه عن ذلك شغفه بالعلم وولوعه بالأدب، فجدد في الدرس والتحصيل حتى سمت منزلته واستطارت شهرته في وقوله على أساليب العرب وحفظه لأخبارهم وأشعارهم. فقربه الأمراء وأمه الأدباء يستفيدون من علمه ويستزيدون من أدبه.

صفاته وأخلاقه

كان الحريري دميماً قصيراً بخيلاً قذر الثوب مولعاً بتتف لحيته عند التفكير. فعاضه الله من ذلك برائع أدبه، ورقيق ملح، وسعة صدره، واعترافه بالحق لأهله. ولذلك كان الحديث عنه خبراً من النظر إليه. سمع بشهرته رجل غريب فجاءه بتلقي عنه الأدب، فلما رآه استزرى شكله، وفهم الحريري منه ذلك. فلما التمس منه أن يملأ عليه قال له اكتب:

ما أنت أول سار غره قمر ورائد أعجبتة خضرة الدمن
فاختر لنفسك غيري إنني رجل مثل المعيدي فاسمع بي ولا ترني
فخجل الرجل وانصرف.

نثره وشعره

الحريري كاتب مكثر وشاعر مقل كالبديع. وهو من ساقة أتباع ابن العميد ومن الممهدين لظهور الطريقة الفاضلية بالقصد إلى البديع، والمبالغة في الصنعة، والإفراط في تدبيج اللفظ، والتفريط في جانب المعنى، حتى تراءت معانيه من خلال ألفاظه علية ضئيلة كالعروس المسلولة جملوها بالأصباغ

وأثقلوها بالغلائل والحلي. وشعره كثره في الكلف بالبديع والعناية باللفظ. وضع منه كثيراً في ثنایا المقامات وجمع في ديوان خاص.

مؤلفاته

له من المؤلفات كتاب درة الغواص في أوهام الخواص، انتقد فيه أهل عصره في خروجهم عن حدود العربية في بعض الألفاظ والتراكيب. وكتاب ملحة الإعراب في النحو، وديوان رسائل، ثم المقامات وهي أجود آثاره.

مقاماته

له خمسون مقامة نحلها أبا زيد السروجي على لسان ابن همام ونسجها على منوال البديع. جمع فيها من اللغة والأمثال والأحاجي ما لا غاية بعده. فهي ديوان ممتع للألفاظ العربية، والنوادر اللغوية؛ والصناعة اللفظية، ولعل ذلك هو السبب في عناية الأدباء من العرب والفرنج بها وانتشارها بينهم. فقد ترجمها أكثر من عشرين مستشرقاً من الفرنسيين والألمان والإنجليز. وطبعت بالإنجليزية سنة 1263، ثم إلى التركية وطبعت بالآستانة. ولا تزال تدرس في بعض جامعات أوروبا بالشرح الذي وضعه لها رأس المستشرقين سلفستر دساسي سنة 1822.

عيوبها

ينتقدها أدباء الفرنج في قصرها، ووحدتها مغزاها، وأن المؤلف لم يعن فيها بتصوير الحكايات على نحو ما ألفه الفرنج واليونان قديماً، وإنما صرف همه إلى تحسين اللفظ وتزيينه. وأدباء العرب يقولون إنها تكاد لا تخرج عن خيال متكرر في صور مختلفة، وإن في إنشائها تكلفاً لا تسمح به طبيعة البدوي الذي قيلت على لسانه.

سبب وضعها

سبب وضع المقامات أن الحريري كان جالساً بمسجد بني حرام بالبصرة، فدخل المسجد شيخ ذو طمرين عليه أهبة السفر، رث الحال، فصيح المقال. فسأله الحاضرون: من أين الشيخ؟ فقال: من سروج. فاستخبروه عن كنيته، فقال

أبو زيد. فأنشأ الحريري المقامة الحرامية وعزاها إلى أبي زيد وجعل الراوي فيها الحارث ابن همام مريداً نفسه. أخذاً بالحديث المأثور: كلكم حارث وكلكم همام. واشتهرت تلك المقامة حتى بلغ خبرها شرف الدين وزير المسترشد بالله، فأعجب بها وأشار على الحريري أن يضم إليها سواها فأتهمها خمسين.

مختار من كلامه

قال يشكر أحد الوزراء: دعاء العبد للوزير دامت جدوده سعيدة، وسعوده جديدة، وعليائه محسودة، وأعداؤه محصودة، دعاء من يتقرب بإصداره، على بعد داره، ويقصر عليه ساعاته، مع قصور مسعاته. وشكره للأنعام الذي أوصله إلى التجميل والتأميل، وجمع له بين التنويه والتنويل، شكر من أطلق من أسره، وأذيق طعم اليسر بعد عسره. ولو نهضت به القدمان، وأسعده عون الزمان، ولقد اعتمار الباب المعمور، وأسرع إليه إسراع العيد المأمور، ليؤدي بعض حقوق الإحسان، ويقرأ صحف الشكر باللسان. ولكن أني ينهض المقعد؟ ومن له بأن يصعد فيسعد؟.

ومن شعره في الحكم قوله:

لا تزر من تحب في كل شهر
فاجتلاء الهلال في الشهر يوم
وقال أيضاً:

لا تقعدن على ضر ومسغبة
وانظر بعينيك هل أرض معطلة
فعد عما تشير الأغبياء به
وارحل ركابك عن ربع ظمئت به
واستنزل الري من در السحاب فإن

لكي يقال عزيز النفس مصطبر
من النبات كأرض حفها الشجر؟
فأي فصل لعود ما له ثمر؟
إلى الجنب الذي يهمل به المطر
بليت يداك به فليهنك الظفر

القاضي الفاضل

(المتوفى سنة 695 هـ)

نشأته وحياته

ولد أبو علي عبد الرحيم البيساني بمدينة عسقلان من بلاد فلسطين، وأخذ العلم عن أبيه بهاء الدين علي قاضي عسقلان. ثم ورد مصر في أواخر الدولة الفاطمية ليتعلم الكتابة في الديوان، وذهب إلى الإسكندرية فدخل ديوان ابن حديد قاضيها. وما لبث أن ظهر فضله ودل عليه نبوغه، فقدم القاهرة وكتب في ديوان الظافر. ولما قامت الدولة الأيوبية استوزره صلاح الدين ابن أيوب فاس ملكه خير سياسة. ثم وزر من بعده لولده العزيز ثم لأخيه الملك الأفضل. وتوفى سنة 695 بالقاهرة.

منزلته في الكتابة

كان من طبيعة منصب القاضي الفاضل أن يخالط الكتاب في الأصقاع المختلفة ويقف على المذاهب الكتابية المتباينة في الشام والعراق ومصر. فجرته المحاكاة والمفاضلة وقوة الشخصية إلى استحداث طريقة جديدة بناها على أصول طريقة ابن العميد ومازها بالإغريق في التورية والجناس، حتى أصبحت الكتابة في عهده كما ذكرنا من قبل طلاء خداعاً من زخرف اللفظ على هيكل بال من المعنى السقيم. بهرت هذه الطريقة العقيمة العيون الكليلة والقرائح الناضبة فاقتفاها عُباد الصنعة من أشباه الكتاب، وورطوا أنفسهم فيما لا غناء فيه ولا رجة منه. وظل هذا المذهب غاشياً على العيون، راثناً على القلوب، حتى عصرنا الحديث فزال على التدريج بتأثير ابن خلدون وتقليد الآداب الفرنجية.

نموذج من كلامه

كتب هذه الرسالة إلى صلاح الدين يشفع لخطيب عيذاب في توليته خطابة الكرك وهي:

أدام الله السلطان الملك الناصر وثبته، وتقبل عمله بقبول صالح وأثبتته، وأخذ عدوه قائلًا أو بيته، وأرغم أنفه بسيفه وكتبه.

خدمة المملوك هذه واردة على يد خطيب عيذاب. ولما نبا به المنزل عنها، وقل عليه المرفق منها، وسمع هذه الفتوحات التي طبق الأرض ذكرها، ووجب على أهلها شكرها، هاجر من هجير عيذاب وملحها، سارياً في ليلة أمل كلها نهار فلا يسأل عن صاحبها. وقد رغب في خطبة الكرك وهو خطيب، وتوسل بالمملوك في هذا الملتبس وهو قريب، ونزع من مصر إلى الشام وعن عيذاب إلى الكرك وهذا عجيب. والفقر سائق عنيف، والمذكور عائل ضعيف، ولطف الله بالخلق بوجود مولانا لطيف، والسلام.

الفصل الرابع

الشعر وأثر السياسة والحضارة فيه

لقد كان أثر هذا الانتقال الاجتماعي في خواطر الشعراء أبلغ منه في نفوس الكتاب؛ فإن أولئك بالخلفاء ألقوا، ونفوسهم بالترف والمدنية أعلق. وهم المنادمون على الشراب، والمفاكهون في السمر. ضاق مضطربهم في السعي فأتسع متقلبهم في الخيال، وغلت أيديهم بالكسل عن العمل فاشتغلت أفئدتهم بالفكر وانطلقت ألسنتهم بالقول. ولم يجدوا العيش ميسوراً بالتأليف لصعوبة النسخ والنشر ففترغوا لصوغ الشعر في ضروبه المختلفة. ووجدوا من الخلفاء والأمراء مؤازراً، ومن الحضارة والطبيعة ناصراً، ومن القريحة والسليقة مؤاتاة، فالحجوا في الشعر جولة لم تتوفر أسبابها لأسلافهم، ونقلوه من البوادي المجذبة، والأخبية المطبنة إلى الرياض الناضرة، والقصور الشاهقة، والمناظر المونقة. على يد زعيم المولدين بشار.

ولقد عرضت للشعر عوارض أثرت عوارض أثرت في أسلوبه ومعانيه وأغراضه وأوزانه.

فأما التأثير في أسلوبه، فبهجر الكلمات الغريبة، وعذوبة التركيب ووضوحه، واستحداث⁽¹⁾ البديع والاستكثار منه، وترك الابتداء⁽²⁾ بذكر

(1) ظهر البديع على قلة في شعر مسلم ابن الوليد ومن بعده حتى جاء أبو تمام فقصد إليه وابن المعتز فأفاض فيه.

(2) أول من كسر هذا القيد مطيع ابن أدس أو أبو نواس على الأرجح يدل على ذلك مثل قوله:

صفة الطلول بلاغة القدم فاجعل صفاتك لابنه الكرم

وقوله:

يبكي على طلل الماضين من أسد لا در درك قل لي من بنو أسد

لا جف دمع الذي يبكي على حجر ولا صفا قلب من يصبو إلى وتد

وقوله:

يا ربع؛ شغلك إنني عنك في شغل لا ناقتي فيك لو تدري ولا جمل

الأطلال إلى وصف القصور والخمور والغزل، والإغراق في المدح والهجاء، والإكثار من التشبيه والاستعارة، والحرص على التناسب⁽¹⁾ بين أجزاء القصيدة، ومراعاة الترتيب في التركيب.

وأما في معانيه فبتوليد المعاني الحضرية، واقتباس الأفكار الفلسفية، إذ أكثر شعراء هذا العصر ولدان جنسيتين، ورضاع لغتين وأدبين. وربائب حضارتين مختلفتين. ولهذا اللقاح من الأثر في الفكر والعقل ما يعلل لك وفرة المعاني الجديدة في شعر بشار وأبي نواس وأبي العتاهية وابن الرومي. ثم نقل العرب علوم اليونان وغيرهم فكان لهذا النقل فضل على الشعر في معانيه لا في فنونه، لأنهم لم يترجموا إلا كتب العلم والحكمة، ولم يحفلوا بشعر اليونان وقصصهم، ولا بشعر اللاتين وخطبهم؛ تعصباً لأدبهم وإيثارهم لشعره؛ فلم تؤثر الترجمة في الشعر إلا بما دخله من الخواطر الفلسفية والسياسية والآراء العلمية في شعر أبي تمام والمتنبي وأبي العلاء وأضرابهم.

وأما في أغراضه فبالمبالغة في نعت الخمر ومجالسها، ووصف الرياض والصيد، وغزل المذكر، والمجون، والوعظ، والزهد، والأخلاق، والفلسفة، وضبط العلوم كالنحو وغيره.

وأما في أوزانه، فبالإكثار من النظم في البحور القصيرة، وابتداع أوزان أخرى، كالمستطيل والممتد وهما عكس الطويل والمديد، والموشح⁽²⁾ والزجل، والدوبيت⁽¹⁾ وكذلك في القافية كالمُسَمِّط⁽²⁾ والمُزْدَوِج.

(1) جاء في زهر الآداب عن الحاتمي قوله: مثل القصيدة مثل الإنسان في اتصال بعض أعضائه ببعض، فمتى الفصل واحد عن الآخر وباينته في صحة التركيب غادر الجسم ذا عاهة تتخون محاسنه وتخفي معالمه. وقد وجدت حذاق المتقدمين وأرباب الصناعة من المحدثين يحترسون في مثل هذه الحال حتى يقع الاتصال وتأتي القصيدة في تناسب صدورها وأعجازها كالرسالة البليغة والخطبة الموجزة... وهذا مذهب اخص به المحدثون لتوقد خواطرهم ولطف أفكارهم...

(2) أول من ابتدع الشعراء الموشح مقدم ابن معافر من شعراء الأمير ابن عبد الله المرواني، (وهم ينظمونه أسماً أسماً وأغصاناً أغصاناً، ويكثرون منها ومن أعاريضها المختلفة ويسمون المتعدد منها بيتاً واحداً. ويلتزمون قوافي تلك الأغصان وأوزانها متتالياً فيما بعد إلى آخر القطعة، وأكثر ما تنتهي عندهم إلى سبعة أبيات. ويشتمل كل بيت على أغصان عددها بحسب الأغراض والمذاهب. ثم

ولما انفرط عقد الخلافة، وتعددت حواضر الدولة، باستقلال الولاة في فارس والشام ومصر والمغرب، وجد الشعر في غير بغداد ملاذاً وحمى؛ فانتقل إلى تلك الأمصار فصادف من أمثال بني بويه وآل حمدان أكفا سمحة، وصدور رحية، وربوعاً خصبة، فازداد ابتكاراً وانتشاراً وكثرة. ولنظرة عجلى في فهرس اليتيمة للثعالبي⁽³⁾ تكفيك لتعلم أثر ذلك الشعب السياسي في نهضة الشعر، إذ

=

نسج أهل الأمصار على منوال الموشح، ونظموا بلغتهم الحضرية من غير التزام إعراب، وسموا هذا النوع بالزجل. وأول من أبدعه أبو بكر ابن الزمان الأندلسي... أنظر مقدمة ابن خلدون.

(1) الدوبيت: مأخوذ من لفارسية بدليل اسمه وسمي بذلك لأنه ينظم بيتين بيتين، (ودو بالفارسية اثنان) وهو مشهور عند الفرس بالرباعي ووزنه: فطن متفاعلن فعولن فعلم كقول بعضهم:

قد أقسم من أحبه بالباري أن يبعث طيفه مع الأسحار
يا نار أشواقى به فانقدي ليلاً ففساه يهتدي بالنار

أما المواليا فأول من نظمه بعض صنائع البرامكة بعد نكبتهم. فكانوا ينوحون عليهم به ويكثرون من قولهم (يا موالى) فعرب بهذا الاسم وهو مشهور بين عامة مصر.

(2) المسمط هو أن يتدئ الشاعر بيت مصرع ثم يأتي بأربعة أقسمة على غير قافيته، ثم يعيد قسيما على قافية البيت الأول. وربما خلا من البيت المصراع وكان على أقل من أربعة أقسمة كقول القائل:

غزال هاج لي شجنأ فبت مكابداً حزناً عميد القلب مرتهنأ بذكر اللهو والطرب
أما المزدوج فهو ان يؤتي بشطرين من قافية، ثم بآخرين من أخرى، كقول أبي العتاهية:
حسبك مما تبغيه القوت ما أكثر القوت لمن يموت
إن الشباب حجة النصابي روائح الجنة في الشباب

(3) هو أبو منصور عبد الملك ابن محمد ابن إسماعيل الثعالبي ولد نيسابور وعكف على تحصيل العلم والأدب حتى انتهت إليه الزعامة فيهما، وهو خاتمة المترسلين في العصر العباسي وأكثر الأدباء آثاراً وأغزرها مادة. وهو يجري على طريقة ابن العميد في النثر والشعر. وله مؤلفان كثرة في الأدب، أهمها بلية الدهر، وهي أربع مجلدات جمع فيها مختار المنشور والمنظوم لأدباء عصره مع ذكر تراجمهم، وكتاب فقه اللغة في دقائق الألفاظ المترادفة، وكتاب سر العربية، وسحر البلاغة، ومن غاب عنه المطرب. وتوفى سنة 429.

كان الأمراء يتقبلون الخلفاء في تقريب الشعراء وتعزيد الأدباء. والشعر والعلم كما رأيت لا يزهران إلا في ظل ملك أو أمير⁽¹⁾.

وما زال الشعر على حاله من العناية بالألفاظ، والإصابة للغرض، والافتنان في المعنى، حتى تجرم القرن الخامس للهجرة، فذهب معه جمال الشعر العربي من الشرق، وفقد تأثيره في النفوس، لذهاب المعضدين له من بني بويه، وقلة الراغبين فيه من آل سلجوق⁽²⁾، واستشعار النفوس لذل الغلبة والقهر بتوالي الفتن والمحن، فانصرفت الخواطر إلى التصوف والأدعية، وعيت القرائح عن التوليد والابتداع، فجلا الشعراء معاني الأقدمين في حلل مهلهلة النسج منمقة الوشي، وأخذوا يتعلقون بالبديع، ويغنون في المجاز والكنية، ويقلدون العجم في إغراقهم ومهاواتهم الملوك⁽³⁾ والأمراء، ولا سيما المتأخرون منهم، حتى أصبح غرض الشعر عندهم إنما هو الكذب والاستجداء

(1) قال أسامة ابن معقل: كان السفاح راغباً في الخطب والرسائل يصطنع أهلها ويثيبهم عليها، فحفظت ألف رسالة وألف خطبة طلباً للخطوة عنده فنلتها. وكان المنصور يعده معنياً بالأسمار والأخبار وأيام العرب يدي أهلها ويجزيهم عليها، فلم يبق شيء من السمار والأخبار إلا حفظته طلباً للقرية منه فظفرت بها. وكان موسى مغرمًا بالشعر يستخلص أهله، فما تركت بيتاً نادراً فاحراً، ولا شعراً ولا نسيباً سائراً إلا حفظته. وأعاني على ذلك طلب الهمة في علو الحال. ولم أر شيئاً أدعى إلى تعلم الأدب من رغبة الملوك في أهلها وصلاتهم عليها، ثم زهد هارون في هذه الربة فأنسيها حتى كأنني لم أحفظ منها شيئاً.

(2) أسرة من الترك تنتسب إلى جدّها سلجوق. تألبوا على الدولة العباسية وهي في انحلالها ونهايتها فاستولوا على ملكها واستقلوا به استقلالاً فعلياً سنة 442 هـ.

(3) تشجيع الخلفاء والأمراء للشعراء بالجوائز والعطايا كان له ضرر في خفض الشعر كما كان له نفع في رفعه؛ وذلك لأن الشعراء الذين ما كانوا يجدون السبيل إلى الرزق إلا بالخطوة لدى الملوك والأمراء، اضطروا إلى قول الشعر وإن لم تدفعهم شهوة إلى قوله. فكدوا الخاطر وأجهدوا الطبع؛ فجاءوا بالشعر الكاذب المتكلف، ونزلوا عن استقلالهم الشخصي وهو أرفع محاسن النفس إلى حضيض التملق الدنيء والنفاق السافل. ذلك أن الطمع في صلات الكبراء دفع كثيراً من ضعفاء السليقة في الشعر إلى قرضه فأتوا منه بالحقير التافه، وكان ذلك من الأسباب التي ساعدت على انحطاطه.

فقالوا. " أعذب الشعر أكذبه ". ثم كان مآل الشعر في هذا العصر كمال النثر فيه سواء بسواء.

وأنت إذا أخذت الشعر العربي كله بنظرة واحدة فعرضت تاريخه كما تعرض تاريخ الكائن الحي وجدته قد تطور في موضوعه تطور الأمة لعربية، وقطع معها مراحل الحياة الإنسانية؛ فهو في الجاهلية أنعام صبي، وحماسة فتوة وعواطف أثرة، وفي الإسلام أناشيد جهاد، وثوران عصبية، وأطماع حياة. ثم استبحار شبابه واكتمل في صدر الدولة العباسية، فظهر في شعر بشار وأبي نواس وأضرابهما عبث شباب، وأغاني طرب، ومظاهر ترف. ثم عض على نواجذ الحلم واكتهل في أوساطها فبدا في شعر ابن الرومي وأبي تمام والمتنبي وأمثالهم دروس تجربة، ونتائج حكمة، وخواطر فلسفة. ثم أدركه الهرم في أواخرها فظهر في شعر المتأخرين تمويه صنعة، وخرف شيخوخة، ومعالجة روح. أما ولادته وطفولته فلم يدركهما التاريخ ولم يدخلها في علمه.

نماذج من الشعر العباسي

الحماسة

قال أبو فراس الحمداني:

ولما ثار سيف الدين ثرنا	كما هيجت آساداً غضابا
أسنته إذا لاقى طعانا	صوارمه إذا لاقى ضرابا
دعانا والأسنة مشرعات	فكنا عند دعوته الجوابا
صنائع فاق صانعها ففاقت	وغرس طاب غارسه فطابا
وكننا كالسهم إذا أصابت	مراميها فراميها أصابا
فلما اشتدت الهيجاء كنا	أشد مخالباً وأحد نابا
وأمنع جانباً وأعز جارا	وأوفى ذمة وأقل عابا
إذا ما أرسل الأمراء جيشاً	إلى الأعداء أرسلنا الكتابا

وقال أبو الطيب المتنبي:

عش عزيزاً أو مت وأنت كريم	بين طعن القنا وخفق البنود
فرءوس الرماح أذهب للغيب	وأشفي لغل صدر لحقود
لا كما قد حييت غير حميد	وإذا مت مت غير فقيد
فاطلب العز في لظى ودع الذل (م)	ولو كان في جنان الخلود

المدح

قال أبو تمام:

بمهدي ابن أصرم عاد عودي	إلى إيراقيه وامتد باعي
سعى فاستنزل الشرف اقتساراً	ولولا السعي لم تكن المساعي
ونغمة مُغْتَفٍ يرجوه أحلى	على أذنيه من نغم السماع

جَعَلْتَ الْجُودَ لَأَلَاءِ الْمَسَاعِي وهل شمسُ تكونَ بلا شعاع؟
ولم يحفظ مضاع المجد شيء من الأشياء كالمال المضاع
ولو صورت نفسك لم تزدها على ما فيك من كرم الطباع
وقال المتنبي:

قوم بلوغ الغلام عندهم طعن نحور الكمأة لا الحلم
كأنما يولد الندى معهم لا صغر عاذر ولا هرم
إذا تولوا عداوة كشفوا وإن تولوا صنيعة كتموا
تظن من كثرة اعتذارهم أنهم أنعموا وما علموا
إن برقوا فالحتوف حاضرة أو نطقوا فالصواب والحكم
تشرق أعراضهم وأوجههم كأنها في نفوسهم شيم
أعيذك من صروف دهركمو فإنه في الكرام متهم
وقال ابن الرومي:

كأن مواهبه في المحول آراؤه عند ضيق الحيل
فلو كان غيثاً لعم البلاد ولو كان سيفاً لكان الأجل
ولو كان يعطي على قدره لأغنى النفوس وأفنى الأمل

الرشاء

قال الحسين ابن مطير يرثي معن ابن زائدة:

ألما على معن وقولا لقبره سقتك الغواصي مربعا ثم مربعا
فيا قبر معنٍ أنت أول حفرة من الأرض خطت للسماحة مضجعا
ويا قبر معن كيف وارىت جوده وقد كان منه البر والبحر مترعا
بلى قد وسعت الجود والجود ميت ولو كان حيا ضقت حتى تصدعا!

فتى عيش في معروفه بعد موته كما كان بعد السيل مجراه مرتعاً
ولما مضى معن مضى الجود وانقضى وأصبح عرنين المكارم أجداً

وقال محمد ابن عبد الملك الزيات يرثي زوجته:

ألا من رأى الطفل المفارق أمه يعيد الكرى عيناه تنسكبان؟
رأى كل أم وابنها غير أمه بيتان تحت الليل ينتجيان
وبات وحيداً في الفراش تجنه بلابل قلب دائم الخفقان
فلا تلحياني إن بكيت فإنما أداوي بهذا الدمع ما تريان
فهبني عزمت الصبر عنها لأنني جليد، فمن بالصبر لابن ثمان؟
ضعيف القوى لا يطلب الأجر حسبه ولا يأتسي بالناس في الحدثان
فلم أر كالأقدار كيف تصيني ولا مثل هذا الدهر كيف رمانى
أعيني إن لم تسعدا اليوم عبرتي فبئس إذن ما في غد تعداني
وقال المتنبي يرثي أخت سيف الدولة:

طوى الجزيرة حتى جاءني خبر فزعت فيه بآمالي إلى الكذب
حتى إذا لم يدع لي صدقة أملا شرقت بالدمع حتى كاد يشرق بي

الهجاء

قال مسلم بن الوليد:

أما الهجاء فدق عرضك دونه والمدح عنك كما علمت جليل
فاذهب فأنت طليق عرضك إنه عرض عززت به وأنت ذليل

وقال أبو تمام:

كم نعمة لله كانت عنده فكأنها في غربة وإسار
كسيت سبائب لؤمه فتضاءلت كتضاؤل الحسناء في الأمطار

وقال ابن الرومي:

يُقَتَّر عيسى على نفسه
فلو استطيع لتقتيره
وقال المتنبي في كافور الإخشيدي:
أكلما اغتال عبد السوء سيدة
صار الخصى إمام الأبقين بها
نامت نواطير مصر عن ثعالبها
العبد ليس لحر صالح بأخ
لا تشتري العبد إلا والعصا معه
من علم الأسود المخصي مكرمة؟
أم أذنه في يد النحاس دامية
وذاك أن الفحول البيض عاجزة
وقال ابن لنكك:

وعصبة لما توسطتهم
كأنهم من سوء أفهامهم
يضحك إبليس سروراً بهم
صارت على الأرض كالخاتم
لم يخرجوا بعد إلى العالم
لأنهم عار على آدم

الوصف

قال البحتري من قصيدته في وصف إيوان كسرى:

صنت نفسي عما يدنس نفسي
وتماسكت حين زعزعني الدهر
بلغ من صباة العيش عندي
وكأن الزمان أصبح محمولا
وترفعت عن جدا كل جبس
التماسا منه لتعسي ونكسي
طففتها الأيام تطفيف بخس
هواه مع الأخس الأخس

واشترائي العراق خطّة غبن
 ولقد رابني نبو ابن عمي
 وإذا ما جفيت كنت حرياً
 حضرت رحلي الهموم فوجمت
 أتسلى عن الحظوظ وآسى
 ذكررتيهم الخطوب التوالي
 وهُم خافضون في ظل عال
 مغلق بابه على جبل القيق
 حلل لم تكن كأطلال سعدي
 ومساع لولا المحابة مني
 نقل الدهر عهدهن عن الجدة
 فكأن الجرماز من عدم الأنس
 لو تراه علمت أن الليالي
 وهو ينيك عن عجائب قوم
 وذا ما رأيت صورة أنطاكية
 والمنايا مَوائِلُ وأنو شروان
 وعراك الرجال بين يديه
 من مشح يهوي بعامل رمح
 تصف العين أنهم جد أحياء
 يغتلي فيهم ارتياي حتى
 قد سقاني ولم يُصَرِّد أبو الغوث
 بعد بيعي الشام بيعة وكس
 بعد لين من جانيه وأنس
 أن أرى غير مصبح حيث أمسى
 إلى أبيض المدائن عنسى
 لمحل من آل ساسان درس
 ولقد تذكر الخطوب تنسى
 مشرف يحسر العيون ويخسى
 إلى دارتي خلاط ومكس
 في قفار من السابس ملس
 لم تطقها مسعاة عنس وعبس
 حتى غدون أنضاء لبس
 وأخلاقه بنية رمس
 جعلت فيه مأتماً بعد عرس
 لا يشاب البيان فيهم بلبس
 أرتعت بن روم وفرس
 يزجي الصفوف تحت الدرفس
 في خفوت منهم وإغماض جرس
 ومليح من السنان بترس
 لهم بينهم إشارة خرس
 تتقراهم يدي بلمس
 على العسكرين شربة خلّس

من مدام تقولها هي نجم
 وتراها إذا أجدت سروراً
 أفرغت في الزجاج من كل قلب
 وتوهمت أن كسرى أبرويز
 حلم مطبقي على الشك عيني
 وكأن الإيوان من عجب الصنعة
 يتظنى من الكآبة إن يبد
 مزعجاً بالفراق عن أنس إلف
 عكست حظه الليالي وبات الد
 فهو ييدي تجلداً وعليه
 لم يعبه أن بز من بسط
 مشمخراً تعلو له شرفات
 لابسات من البياض فما يبصر
 ليس يدري أصنع إنس لجن
 غير أنني أراه يشهد أن لم
 فكأنني أرى المراتب والقوم
 وكأن الوفود ضاحين حسرى
 وكأن القيام وسط المقاصير
 وكأن اللقاء أول من أمس
 غمرت للسرور دهرًا فصارت
 فلها أن أعينها بدموع
 أضواً الليل أو مُجاجة شمس
 وارتياحاً للشارب المتحسي
 فهي محبوبة إلى كل نفس
 معاطي والبُلَهْبَذ أنسي
 أم أمان غيرن ظني وحدي
 جوب في جنب أرعن جلس
 لعيني مصبح أو مُمَسِّي
 عز أو مرهقاً بتطبيق عرس
 مشترى فيه وهو كوكب نحس
 كلكل من كلا الدهر مرسى
 الديباج واستل من ستور الدمقس
 رفعت في رءوس رضوى وقدس
 منها إلا غلائل برس
 سكونه أم صنع جن لإنس
 يك بانيه في الملوك بنكس
 إذا ما بلغت آخر حسي
 من وقوف خلف الزحام وخنس
 يرجعن بين حو ولعس
 ووشك الفراق أول أمش
 للتعزي رباعهم والتأسي
 مواقف على الصبابة حبس

ذاك عندي وليست الدار داري باقتراب منها ولا الجنس جنسي
غير نعمى لأهلها عند أهلي غرسوا من زكائها خير غرس
أيدوا ملكنا وشدوا قواه بكماة تحت السنور خمس
وأعانوا على كتائب أرياط بطعن على النحور ودعس
وأراني من بعد أكلف بالأشراف طراً من كل سن وأس
وقالت إحدى شواعر الأندلس تصف وادي آش:

وقانا لفحة الرمضاء واد سقاه مضاعف الغيث العميم
حللنا دوحه فحنا علينا حنو المرضعات على الفطيم
وأرشفنا على ظمأ زلالا ألذ من المدامة للنديم
تروع حصاه حالية العذارى فتلمس جانب العقد العظيم
يصد الشمس أني واجهتنا فيحجبها ويأذن للنسيم

الحكم والأمثال

قال بشار بن برد:

إذا كنت في كل الأمور معاتباً صديقك لم تلق الذي لا تعاتبه
فعش واحداً أوصل أخاك فإنه مقارف ذنب مرة ومجانبه
إذا أنت لم تشرب مراراً على القذى ظمئت، وأي الناس تصفو مشاربه
وقال مسلم بن الوليد:

حسبي بما أبدت الأيام تجربة سعى علي بكأسيها الجديدان
دلت على عيها الدنيا وصدقها ما استرجع الدهر مما كان أعطاني
ما كُنْتُ أَذْخِرُ الشَّكْوَى لِحَادِثَةٍ، حَتَّى ابْتَلَى الدَّهْرُ أَسْرَارِي فَأَشْكَانِي
وقال أبو العتاهية:

الصمت أجمل بالفتى
لا خير في حشو الكلام
كل امرئ في نفسه
وقال أبو تمام:

من لي بإنسان إذا أغضبه
وإذا طربت إلى المدام شربت من
وتراه يصغى للحديث بقلبه
وقال البحتري:

وترت القوم ثم ظننت فيهم
فما خرق السفية وإن تعدى
متى أخرجت ذا كرم تخطى
وقال ابن الرومي:

عدوك من صديقك مستفاد
فإن الداء أكثر ما تراه
وما اللجج الملاح بمرويات
وقال المتنبي:

إننا لفي زمن ترك القبيح به
لولا المشقة ساد الناس كلهم
وإنما يبلغ الإنسان طاقته
ذكر الفتى عمره الثاني، وحاجته

من أكثر الناس إحسان وإجمال
الجود يفقر والأقدام قتال
ما كل ماشية بالرحل شمال
ما قاته، وفضول العيش أشغال

الاعتذار والاستعطاف

قال علي ابن الجهم يعتذر للمتوكل:

عفا الله عنك إلا حرمة
لئن جل ذنب ولم اعتمد
ألم تر عبداً عدا طوره
ومفسد أمر تلافيته
أقني أقالك من لم يزل
وقال البحتري:

فدينك من أي خطب عرى
وإن كان رأيك قد حال في
أكذب نفسي بأن قد سخطت
ولو لم تكن ساخطاً لم أكن
أصبح وردي في ساحتيك
وما كان سخطك إلا الفراق
ولو كنت أعرف ذنباً لما كان
سأصبر حتى ألاقى رضاك
أراقب رأيك حتى يصح
وقال سعيد بن حميد:

لم آت ذنباً، فإن زعمت بأن
قد تطرف الكف عين صاحبها

ومن قصيدة للمتنبى يستعطف بها سيف الدولة لبني كلاب بعد أن ظفر

بهم:

طلبتهم على الأمواء حتى	تخوف أن تفتشه السحاب
يهز الجيش حولك جانيه	كما نفضت جناحيها العقاب
وكيف يتم بأسك في أناس	تصيبهم فيؤلمك المصاب؟
ترفق أيها المولى عليهم	فإن الرفق بالجاني عتاب
وإنهم عبيدك حيث كانوا	إذا تدعو لحادثة أجابوا
وعين المخطئين هم وليسوا	بأول معشر خطئوا فتأبوا
وما جهلت أياديك البوادي	ولكن ربما خفى الصواب
وكم ذنب مولده دلال	وكم بعد مولده اقتراب
وجرم جره سفهاء قوم	وحل بغير جارمه العقاب

الفصل الخامس

الشعراء المولدون

كان الشاعر في الجاهلية لسان دفاع، وخامي ذمار، ومسجل محامد؛ وفي الدولة الأموية كان داعية دين، ودعامة ملك، وناشر مذهب، ومؤيد فرقة؛ وفي الدولة العباسية كان نديم خليفة، وسمير أمير، وأليف كأس، وصريع غانية وكان أكثر شعراء بغداد في صدر هذا العصر من الموالي لذين أطاعوا العرب كرها، واعتقدوا الإسلام رياء، فهاجموا الأخلاق بالخلاعة والمجون، وأذاعوا في الناس الزندقة والشك، ولكنهم أذاعوا كذلك الآراء الحرة، والمعاني المبتكرة، والأخيلة البديعة، والأوصاف الدقيقة، والمذاهب الجديدة، والعقريات المأثورة، كمطيع بن إلياس، وحماد عجرد. وحسين بن الضحاك، وبشار ابن برد، ووالبة بن الحباب، وأبي نواس، ومسلم بن الوليد، وأبان عبد الحميد، وأبي العتاهية، وأبي دلامة، ومروان ابن أبي حفصة، وعباس بن الأحنف، وعلي ابن الجهم، ودعبل الخزاعي، والعسكوك.

شعراء بغداد

بشار بن برد

(المتوفى سنة 167 هـ)

نشأته وحياته

هو بشار بن برد بن يرجوخ العقيلي بالولاء كنيته أبو معاذ ولقبه المرعّث لأنه كان في أذنيه رُعة، " والرعة القرمط ". أصل أبيه من فرس طخارستان من سبي الملهب ابن ابي صقرة، وهبة لامرأة من بني عقيل فتزوجته ونسب إليها. ولد بشار بالبصرة ونشأ في بني عقيل مولعاً بالاختلاف إلى الأعراب المخيمين ببادية البصرة، حتى شب فصيح اللسان صحيح البيان من اللكنة والخطأ، ولذا كان آخر من يحتج النحاة بشعرهم. فلما بلغ مبلغ الرجال انتجع الخلفاء والأمراء بالمدح، وكاد يعيش في ظلال الشعر وادع النفس رغد العيش لولا تعديه بالهجاء، وتعرضه للنساء، وهتكه ستر الحشمة، حتى نقم الناس ذلك منه، وتمنوا موته صوناً للعذارى وغيره على المخدرات. قال مالك ابن دينار. " ما شيء أدعي لأهل هذه المدينة إلى الفسق من أشعار هذا الأعمى الملحد "، ودخل فريق من الغير على المهدي فأسمعوه قصيدة من غزله، فقال: " بمثل هذا الشعر تميل القلوب ويلين الصعب " وأمر به، فلما جاء قال له: " والله لئن قلت بعد هذا بيتاً واحداً في تشبيب لآتين على روحك "، فكان بشار بعد ذلك إذ أراد الغزل ذكر أن الخليفة منعه من كيت وكيت ويذكر ما يريد من اللهو وحديث النساء.

ولما توقع بشار وتهتك، ولم يردعه تهديد المهدي له، ولا زراية الناس عليه، سعى به ثانية إلى الخليفة ورمى عنده بكل نقيصة. وصادف ذلك أن بشاراً مدح المهدي فلم يجزه لميله عنه وتغيره عليه، فهجاه بأبيات منها:

بني أمية هبوا طال نومكم إن الخليفة يعقوب ابن داود

ضاعت خلافتكم يا قوم فالتمسوا خليفة الله بين الزق والعود

وبلغ الخليفة ذلك، فدعا صاحب شرطته وأمره أن يضربه بالسوط، فضربه حتى مات سنة 167، وقد أوفى على السبعين.

صفته وأخلاقه

ولد بشار أكمة فما رأى الدنيا قط. على أنه كان يشبه الأشياء بعضها ببعض في شعره فيأتي بما لا يقدر عليه البصراء، كقوله:

كأن مشار النقع فوق رءوسنا وأسيفنا ليلٌ تهاوى كواكبها

وكان ضخم الجثة، مفرط الطول، مجدور الوجه، جحظ الحدقتين، قد تفشاهما لحم أحمر؛ فكان أقبح الناس عمى وأفظعهم منظراً. قالت له امرأة ذات يوم: لا أدري لم يهابك الناس مع قبح صورتك؟ فأجابها. ليس من حسنه يهذب الأسد. ودخل عليه أحد الأدباء يوماً وهو نائم في دهليزه كأنه جاموس، فقال له. يا أبا معاذ، من القائل:

إن في بُردي جسماً ناحلاً لو توكأت عليه لانهدم
قال: أنا. قال: من القائل أيضاً:

في حلتي جسناً فتى ناحلاً لو هبت الريح به طالها
قال: أنا قال: فما حملك على هذا الكذب؟ والله إنني لأرى أن لو بعث الله الرياح التي أهلك بها الأمم الخالية ما حركتك من موضعك!.
وكان بشار متوقد الذكاء، حاضر الجواب، صادق الحس، بذىء اللسان، كثير المجون، مغمور الدين، يؤمن بالرجعية ويصوب رأي إبليس في تقديم النار على الطين وإبائه السجود لآدم في مثل قوله:

الأرض مظلمة والنار مشرقة والنار معبودة مذ كانت النار

وكان إذا أراد الإنشاء صفق بيديه وتنحنح وبصق يميناً وشمالاً ثم ينشد!

شعره

قال بار الشعر وهو ابن عشر سنين، فما بلغ الحلم إلا وهو طائر الصيت فيه. وقد أدرك جريراً وهجاء وقال: هجوت جريراً فاستصغرنى وأعرض عني،

ولو رد علي كنت أشعر الناس. وأول ما تكلم فيه من أنواع الشعر الهجاء لأن سوقه كانت نافقة أيام ولد. وطرق كل باب من أبواب الشعر التي فتحت قبله ثم زاد عليها. ورواه الشعر ونقده متفقون على أنه زعيم طبقة المولدين⁽¹⁾، وأسبقهم إلى المجون البذيء والغزل الرقيق، وأول من جمع شعره بين جزالة البدو ورقة الحضرة، وأن شعره هو الحد الأوسط بين الشعر القديم والحديث. فهو في المولدين كامرئ القيس في الجاهليين، والبارودي في المحدثين، وكان الأصمعي يشبهه بالأعشى والنابعة لسلامة شعره من الخلل وخلوه من الحوشي والتعقيد. وقد شهد له الجاحظ بالتبريز في سائر مناحي القول وفنون الكلام فقال: "كان بشار خطيباً صاحب منظوم ومثثور ومزدوج وسجع ورسائل. وهو من المطبوعين أصحاب الإبداع والاختراع المتفنين في الشعر، القائلين في أكثر جناسه وضروبه".

ولسلامة شعر بشار وطلاوته أولع به شبان البصرة وخلعواؤها، وافتتن به نساؤها؛ فكن يذهبن إليه، وينعمن بحديثه، ويتغنن بشعره. فهوى جارية منهن تسمى عبدة، شهرها بشعره حتى صار له معها أخبار طائفة وأشعار سائرة.

عيوب شعره

لا يتسنى لباحث أن يعرف ما ينتقد به عليه؛ لأن شعره لم يدون فذهب به الزمان، ولم يبق من اثني عشر ألف قصيدة إلا قطع مختارة متشرة في الكتب⁽²⁾ وطل ما يعلم من عيوبه خروجه في شعره عن الحد المألوف من المجون، وتكميله القافية إذا أعوزته بألفاظ لا حقيقة لها، وتبذله في شعره أحياناً فيميل عن الشعر الجزل إلى الركيك السهل كقوله في جاريته:

ربابة ربابة البيت تصب الخل في الزيت

(1) المولدون أو المحدثون هم الشعراء الذين فسدت فيهم ملكة اللسان فعالجوها بالصناعة كشعراء العصر العباسي. وميزتهم في شعرهم توليد المعاني، ودقة الأغراض، ورقة الألفاظ وجمال الصنعة، إلا أنهم أقل من سابقتهم أسرا وفحولة، وأكثر تصنعاً وكلفة.

(2) اختار له (الخلديان) طائفة حسنة من شعره ثم شرحها تحت عنوان (المختار من شعر بشار) وقد طبع بالقاهرة سنة 1935 م.

لها عشر دجاجات وديك حسن الصوت
وقوله:

إن سلمى خلقت من قصب قصب السكر لا عظم الجمل
وإذا أدنيت منها بصلاً غلب المسك على ريح البصل

ولكنه كان يعتذر عن مثل الأول بأن له حالا تقتضيه، وعن مثل الثاني بأنه قاله في صباه.

نموذج من شعره

من قوله في الغزل:

يزهدني في حب عبدة معشر فقلت دعوا قلبي وما اختار وارتضى
قلوبهم فيها مخالفة قلبي فبالقلب لا بالعين يبدر ذو الحب
وقوله:

يا قوم أذني لبعض الحي عاشقة والأذن تعشق قبل العين أحيانا
قالوا بمن لا ترى تهذي؟ فقلت لهم الأذن كالعين توفي القلب ما كانا
وقوله:

لم يطل ليلي ولكن لم أن نفسي عني الكرى طيف ألم
نفسي يا عبد عني وأعلمي أنني يا عبد من لحم ودم
إن في بردي جسماً ناحلاً لو توكأت عليه لانهدم
ومن أبياته السائرة قوله:

هل تعلمين وراء الحب منزلة تدني إليك، فإن الحب أقصاني
وقوله:

أنا والله أشتهي سحر عينيك وأخشى مصارع العشاق
وقال وهو يدل على اعتقاده بالجبر:

طبعت على ما في غير مخير هوأي، ولو خيرت كنت المهذبا
 أريد فلا أعطي، وأعطي ولم أرد وقصر علمي على أن أنال المغيا
 ومن قوله في الوصف والحماسة:
 إذا الملك الجبار صعر خده مشينا إليه بالسيف نعاتبه
 وأرعن يغشى الشمس لون جديده وتحبس أبصار الكماة كتائبه
 تغص به الأرض الفضاء إذا غدا تزاحم أركان الجبال مناكبه
 ركبنا له جهرا بكل مثقف وأبيض تستقى الدماء مضاربه
 كأن مثار النقع فوق رءوسنا وأسيافنا ليل تهوي كواكبه

أبو العتاهية (130 - 211 هـ)

نشأته وحياته

هو إسماعيل بن القاسم بن سويد وكنيته أبو إسحاق ولقبه أبو العتاهية. ولد بعين التمر قرية بالحجاز ونشأ في الكوفة على صناعة أهله، وكانوا باعة جرار فجعل يصطنعها ويحملها في قفص على ظهره متنقلاً في شوارع الكوفة يبيعها. إلا أنه مع ذلك كان ولوعاً بالقريض، نزوعاً إلى الأدب، يقول الشعر على سجيته من غير أن يجهد نفسه فيه. وربما حدث ببعض الحديث فيأتي موزوناً مقفي فيظنه الناس نثراً وهو شعر. ومنشأ ذلك تمكن الشاعرية منه ورسوخها فيه حتى إنه كان يقول عن نفسه "لو شئت أن أجعل كلامي كله شعراً لفعلت".

ومما يؤيد أن الشعر كان فيه سليقة لا صناعة، أنه كان يجهل العروض جهلاً تاماً؛ وله أوزان لا تدخل فيه، ولا تجري في مجاريه. ولما سمع به متأدبو الكوفة وفتيانها كانوا يذهبون إليه في مصنعه ويستنشدونه فينشداهم أشعاره، فيأخذون ما تكسر من الخزف فيكتبونها فيه. وهكذا بدأ أبو العتاهية يصنع الشعر في أتونه خزفاً ثم ما لبث أن صنعه درا تقلدته الأمراء والكبراء، وجرى ذكره مجرى المثل، فانتقل الخزاف من بين الطين والماء، إلى مجالس الشعراء ودواوين الخلفاء.

وفد إلى بغداد حاضرة العلم والأدب في أول خلافة المهدي ومدحه فحظى لديه واختلط ببعض جواريه فعشق منهن جارية تسمى عتبة، أكثر فيها الغزل حتى هم المهدي أن يهبها إياه لولا ضراعتها وكرهاتها له. فألهاه عن ذكرها بالمال الكثير، فكان يأخذ المال ولا يفتر عن ذكرها في شعره حتى في مدائحه له ⁽¹⁾ وكل ذلك كما قل تصنع وتخلق ليذكر بذلك. فلما توفي المهدي واستخلف الهادي، تغيرت أخلاق الشاعر فلها عن ذكر عتبة، وأخذ في التزهّد

(1) زهر الآداب ص 200.

والتخشن، وأقبل على دري مذاهب المتكلمين وبعض الفرق، فكان يأخذ بكل وقتا ثم ينصرف عنه إذا سمع طاعناً عليه. ولم يأت عصر الرشيد حتى أضرب عن الغزل وقصر قوله على التزهيد في الدنيا والتذكير بالموت. ثم عرضت له حال امتنع فيها عن قول الشعر البتة. فأرغمه الرشيد عليه فأبى، فضربه ستين عصا وسجنه ولم يطلقه حتى رجع إلى قول الشعر. وكان بع ذلك لا يفارقه في حضر ولا سفر، وأجرى عليه وظيفة مقدارها خمسون ألف درهم غير الجوائز منه ومن امرأته. واتصلت شهرته بالآفاق وتغنى بشعره المغنون وتناجى به الزهاد وسائر الناس على اختلاف طبقاتهم، وعنى العلماء والرواة بجمع شعره، ولم تزل تلك حاله مدة الرشيد والأمين وأكثر أيام المأمون حتى مات سنة 211هـ.

صفته وأخلاقه

كان أبو العتاهية أبيض اللون أسود الشعر له وفرة جعدة وهيئة حسنة. وكان لبق اللسان مذبذب الرأي مفككاً معتل العقيدة لاضطرابه في الآراء وتلونه في النحل، مقتراً على نفسه وأهله مع ورفة ماله وحسن حاله. وكان بعض الناس ينسبه إلى إنكار البعث محتجاً بأن شعره إنما هو في ذكر الموت والنقاد دون ذكر النشور والمعاد. وعلى الجملة فالدارس لحياة الرجل يراه مضطرب المزاج غريب الأخلاق مذبذباً في نسبه وحبه وعلمه وعقيدته.

شعره

كان هذا الشاعر غزير البحر، لكيف المعاني، سهل الألفاظ، كثير الافتتان قليل التكلف، إلا أن شعره كثير الساقط المرذول. وأجوده ما قاله في الزهد والأمثال. ولقد قال الأصمعي: "إن شعر أبي العتاهية كساحة الملوك، يقع فيها الجوهر والذهب والتراب والنوى" وذلك حق؛ لأنه كان يرسل الشعر إرسالاً على البديهة من غير تعمل ولا تنقيح. على أنه في الطبقة الأولى من المولدين كبشار وأبي نواس، وهذا كان يفضل على نفسه. ويمتاز أبو العتاهية بقلّة تكلفة وسهولة ألفاظه حتى كادت تخرج إلى حد الابتذال. وحجته في ذلك أنه يرمي إلى العظة والزهد فينبغي أن يكون شعره مفهوماً لدى الناس على السواء. وهو

الذي نهج للشعراء مناهج الزهد والعظات فاقتفوا أثره فيها. ولقد طرق أبواب الشعر فأجاد، إلا أن تفوقه ونبوغه إنما هو الحكم وضرب الأمثال. وله أرجوزة جمعت أكثر من أربعة آلاف مثل: أما غزله فخير ما قاله في عتبة. وأحسن مدائحه ما قاله في المهدي والرشيد. ولقد صان لسانه عن الهجاء إلا ما كان بينه وبين عبد الله ابن معن، فإنه قال فيه من غير فحش ولا هجر:

فصغ ما كنت حليت به سيفك خلخالاً
وما تصنع بالسيف إذا لم تك قتالاً؟
ولو مد إلى أذنيه كفيه لم نالاً
أرى قومك أبطالاً وقد أصبحت بطالاً

درر من قلائده

ومن قوله في الغزل:

عيني على عتبة مُنْهَلَّةٌ بدمعها المنسكب السائل
كأنها من حسنّها درة أخرجها اليم إلى الساحل
كأن في فيها وفي طرفها سواحراً أقبلن من بابل
بسطت كفي نحوكم سائلاً ماذا تردون على السائل؟
إن لم تنيلوه فقولوا له قولاً جميلاً بدل النائل
لم يبق مني جها ما خلا حشاشة في بدن ناحل
يا من رأى قبلي قتيلاً بكى من شدة الوجد على القاتل!
وقال للمهدي وقد توفيت ابنته:

ما للجديدين لا يلى اختلافهما وكل غصن جديد فيهما بالي؟
يا من سلا عن حبيب بعد ميتته كم بعد موتك أيضاً عنك من سالي!
كأن كل نعيم أنت ذائقه من لذة العيش يحكى لمعة الآل

لا تلعبن بك الدنيا وأنت ترى ما شئت من عبر فيها وأمثال
ما حيلة الموت إلا كل صالحة أو لا، فما حيلة فيه لمحتال
ومن قوله للرشيد وقد سجنه لإضرابه عن الغزل:

تذكر أمين الله حقي وحرمتي وما كنت توليني لعلك تذكر
ليالي تدني منك بالقرب مجلسي ووجهك من ماء البشاشة يقطر
فمن لي بالعين التي كنت مرة إلى بها في سالف الدهر تنظر
ومن قوله يعظ الرشيد:

لا تأمن الموت في طرف ولا نفس ولو تسترت بالأبواب والحرس
واعلم بأن سهام الموت قاصدة لكل مدرع منا ومترس
ترجو النجاة ولم تسلك مسالكها إن السفينة لا تجري على اليبس
وقال:

لدوا للموت وابنوا للحرب فكلكم يصير إلى ذهاب
ألا يا موت لم أر منك بدا أتيت وما تحيف وما تحابي
كأنك قد هجمت على مشيبي كما هجم المشيب على الشباب

أبو نواس

(145 - 199 هـ)

نشأته وحياته

هو الحسن بن هانئ بن عبد الأول الحكمي. يكنى بأبي نواس لأن خلفاً الأحمر كان له ولاء باليمن، وكان من أميل الناس إلى أبي نواس فقال له: أنت من أشرف اليمن فتكن بأسماء الذوين (وهم الملوك الذين تبتدئ أسماؤهم بذو) ثم أحصى أسماءهم فقال: ذو جدن وذو يزن وذو نواس. فاختار ذا نواس فكناه بها، فغلبت على كنيته الأولى وهي أبو علي. ولد بقرية من قرى الأهواز ونقل إلى البصرة ونشأ بها. ثم انتقل إلى بغداد وتوفى فيها. كان أبوه من جند مروان ابن محمد آخر بني أمية. ولما توفى لم يجد أبو نواس من يعوله، فالتجأ إلى عطار يشتغل عنده. ولكنه كان مولعاً بالعلم مشغولاً بالأشعار والأخبار، فكان كثيراً ما يغشى أندية العلماء، ويحضر حوار الشعراء، ويترنم بالنظم. وقد سمع بذكر والبة ابن الحباب وشهرته في الشعر فكان يود لو يتصل به ليأخذ عنه. فاتفق أن مر والبة هذا بالعطار الذي كان يعمل عنده أبو نواس فتوسم فيه الذكاء والفطنة وتوقد الذهن. فقال له إني أرى فيك مخايل أرى ألا تضيعها، وستقول الشعر فاصحبي أخرجك، فقال له ومن أنت؟ قال: أنا والية ابن الحباب. فقال له. نعم أنا والله في طلبك، ولقد أردت الخروج إلى الكوفة لأخذ عنك. فسار أبو نواس معه، وقدم بغداد وقد أربى على الثلاثين، وهناك صحب الشعراء ودرس على العلماء حتى أصبح من أشعر أهل عصره وأغزرهم علماً وأنبههم اسماً. وتأدى خبره إلى الرشيد فإذن له في مدحه فمدحه واتصل به ونفق⁽¹⁾ عنده. وبلغ من دالة أبي نواس عليه أنه كان يمر به بنو هاشم والقواد والكتاب فيحيونه وهو متكئ ممدود الرجل فلا يتحرك لأحد منهم. وكان يقصد عمال الولايات فيمدحهم ومن هؤلاء الخصيب عامل مصر،

(1) قالوا إنما حصل على مكانته عند الرشيد لأنه كان يبكر إليه فيسأل خواص القصر عما جرى له مع الجواري، ثم ينشده أشعاراً تطابق ذلك.

فقد مدحه بقصائد رواها عن المصريون دون العراقيين. ثم انقطع بعد ذلك إلى محمد الأمين فنادمه ومدحه، وثبت عنده ما يوجب سجنه فسجنه مدة، ولم يلبث بعد إطلاقه أن مات سنة 169 ببغداد.

صفاته وأخلاقه

كان أبو نواس جميل الصورة، خفيف الروح، حلو الحديث، حاضر البديهة فصيح اللسان، مدمناً للخمر، كثير الهزل والمجون، جامعاً لأشتات الصفات التي يجب أن تكون في النديم، مستخفاً بأمور الدين. وله مع الشعراء مناقضات كثيرة. ونوادره المجونية مجموعة في كتاب خاص غير ديوانه طبع جزؤه الأول في القاهرة؛ إلا أن أكثر هذه النوادر وتلك الأشعار المجونية مدسوس عليه، لأن جل أشعاره في ذكر اللهو ووصف الخمر وما يتبع ذلك، وليس هذا مذهب المعاصرين له ولا المتأخرين عنه، فالحق الناس بشعره كل ما وجدوه من جنسه ولم يعرفوا قائله. وأكثر أخباره مع جارية شاعرة تسمى جنان قد هويها وكلف بها.

منزله في الشعر

كان أبو نواس ضليعاً في اللغة راوياً للشعر والأخبار، حتى قيل إنه لم يقل الشعر إلا بعد أن حفظ شعر ستين امرأة خلاف الرجال. وقد قال فيه الجاحظ ما رأيت أحداً كان أعلم باللغة من أبي نواس ولا أفصح لهجة منه مع حلاوة ومجانية استكراه. ولج أبواب الشعر كلها، لا أنه امتاز من كل الشعراء بفحش مجونه، وصراحة قوله، وصدقه في تصوير خليقته وبيئته، ووصفه الخمر وصفاً " لو سمعه الحسنان ⁽¹⁾ لهاجر إليها وعكفا عليها " وأقل شعره مدائح، وأكثرها في الرشيد وولده الأمين. ويعد أبو نواس ثاني بشار في منزعه لفظاً ومعنى، وكثيراً ما ضرب على وتره، حتى قال الجاحظ: " بشار وأبو نواس معناهما واحد والعدة اثنان: بشار حل من الطبع بحيث لم يتكلف قولاً ولا تعب في عمل شعر، وأبو نواس حل من الطبع بحيث يصل شعره إلى القلب بغير إذن ".

(1) الحسن البصري وابن سيرين.

وكان أبو نواس مشهوراً بالتفحيط، يعمل القصيدة بتركها ليلة ثم ينظر فيها فيحذف أكثرها ويقتصر على الجيد منها، ولهذا قصر أكثر قصائده. وهو على رفته ومجونه جزل الألفاظ، فخم الأسلوب، كثير الغريب ولقد ابتدع في الشعر أشياء أنكرها عليه العقلاء، وأخذها عنه الشعراء، كاستهتاره في الفجور، واسترساله في المجون، ونقله الغزل من أوصاف المؤنث إلى أوصاف المذكر. ولا ريب أن هذه الطريقة التي شرعها هذا الشاعر الماجن كانت جناية على الأدب، ووصمة في تاريخ شعر العرب.

در من قلائده

قال في الخمر:

ما زلت أستل روح الدن في لطف وأستقي دمه من جوف مجروح
حتى انثيت وفي روحان في جسدي والدن منطرح جسما بلا روح
وقال أيضاً:

مُعْتَقَّة صاغ المزاج لرأسها أكاليل در ما لمنظومها سلك
جرت حركات الدهر فوق سكونها فذابت كذوب التبر أخلصه السبك
وقد خفيت من لطفها فكأنها بقايا يقين كاد يذهبها الشك
وقال في وصف شاربها:

ومستطيل على الصبهاء باكرها في فتية باصطباح الراح حُذَّاق
فكل شيء رآه ظنه قدحاً وكل شخص رآه ظنه الساقى
وقال في وصف الكأس:

ودار ندامى عطلوها وأدلجوا بها أثر منهم جديد ودارس
مساحب من جر الزقاق على الثرى وأضغاث ريحان جنى ويابس
حبست بها صحنى فجددت عهدهم وإنى على أمثال تلك لحابس
تدار علينا الراح في عسجدية حبتها بألوان التصاوير فارس

قرارتها كسرى، وفي جنباتها
فللخمر ما زرت عليه جيوبها
وقال في عاقبة الجهالة:

ولقد نهزت مع الغواة بدلوهم
وبلغت ما بلغ امرؤ بشبابه
وقال في مدح الخطيب أمير مصر:

تقول التي من بيتها خف محملي
أما دون مصر للغني متطلب
فقلت لها واستعجلتها بواد
دعيني أكثر حاسديك برحلة
فتى يشتري حسن الثناء بماله
فما جازه جود ولا حل دونه
وقال في وصف الدنيا:

ألا كل حي هالك وابن هالك
إذا امتحن الدنيا لييب تكشف
ومن أبياته التي يتمثل بها قوله:

لا أزود الطير عن شجر
وقوله:

ليس على الله بمستنكر
وقوله:

صار جدا ما مزحت به
رب جد ساقه اللعب

ابن الرومي (221 - 284 هـ)

نشأته وحياته⁽¹⁾

أبو الحسن علي بن العباس بن جرجيس مولى عبيد الله بن علي، رومي الأصل ولد ببغداد وفيها نشأ وتأدب حتى شعر ونبغ. ثم قضى حياته كأكثر الشعراء في انتجاع السراة والولاة. وقد حمل الناس بلسانه على بره وتكرمه، إما رغبة وإما رهبة.

كان ابن الرومي شراً كما يظهر من غصون شعره. وله أشعار كثيرة في الطعام والشراب. وكان شديد الطيرة يغلو فيها ويحتج لها ويقول: إن النبي صلى الله عليه وسلم كان يحب الفأل ويكره الطيرة، وأنه مر برجل وهو يرحل ناقه له ويقول: (يا ملعونة)، فقال لا يصحبنا ملعون. وأن علياً رضي الله عنه كان لا يغزو غزاة والقمر في العقر. وكان يزعم أن الطيرة موجودة في الطباع، وهي في بعضهم أظهر، وأن الأكثر في الناس إذا لقي ما يكرهه قال: على وجه من أصبحت اليوم؟ قال على ابن المسيب: "دخل علينا ابن الرومي يوم مهرجان سنة 278 وقد أهدى إلي عدة من الجواري القيان؛ وكانت فيهن صبية حولاء وعجوز في إحدى عينيها نكتة. فتطير من ذلك ولم يظهر لي أمره، وأقام باقي يومه لا يخرج. فلما كان بعد مدة يسيرة سقطت ابنة لي من بعض السطوح، وجفاه القاسم ابن عبيد الله فجعل القيتين سبب ذلك وكتب إلي يقول:

أيها المتحفى بحول وعور أين كانت عنك الوجوه الحسان؟
قد لعمرى ركبت أمراً مهيناً ساءني فيك أيها الخلفان

(1) حياة ابن الرومي لا تزال سراً مكتوماً في ضمير الزمان فلم يترجم به أحد ترجمة وافية. وقد ذكر الأستاذ كليمان هنار (Cl Hnart) أن أبا عثمان سعيد الخالدي من علماء سيف الدولة كتب ترجمته مفصلة، ولكن أين هي؟.

فتحك المهرجان بالحول والعور أراننا ما أعقب المهرجان
كان من ذاك فقدك ابتك الحرة مصبوغة بها الأكفان
وتجافي مؤمل لي جليل لج فيه الجفاء والهجران
قف إذا طيرة تلقتك وانظر واستمع ثم ما يقول الزمان
خبّر الله أن مشأمة كانت لقوم وخبّر القرآن

وبلغ من تطير ابن الرومي أنه كان يقيم الأيام لا يخرج من داره إذا قرعت أذنه صبيحة اليوم كلمة سيئة. وله في ذلك أخبار غريبة مع الأخفش. وكان هذا الشاعر فاحش الهجو شديد حتى خشيه الكبراء والوزراء لذلك. وكان أبو الحسن القاسم ابن عبيد الله وزير المعتضد لا يفتأ حذراً منه خائفاً من هجائه، ولا يكاد يصدق أنه يسلم من لسانه. وكان هذا الوزير شريفاً سفاكاً للدماء، فدس عليه من سمه في أكله وهو حاضر. فلما أحس ابن الرومي بالسم قام، فقال له الوزير: إلى أين؟ فقال إلى الموضع الذي بعثت بي إليه! فقال له سلم على والدي. فقال: ليس طريقي على النار. ولحق بمنزله فأقام به أياماً. وكان الطبيب يتردد عليه فزعم أنه غلط في بعض العقاقير، فقال وقد سأله نفطويه النحوي وهو وجود بنفسه:

غلط الطبيب علي غلطة مورد عجزت موارده عن الإصدار
والناس يلحون الطبيب وإنما غلط الطبيب إصابة الأقدار

شعره

كان في الناس من يعير ابن الرومي جنسيته، وينتقص لأجلها شاعريته كما يؤخذ من قوله:

كم عائب كل شيء وكل ما فيه عيب
قد تحسن الروم شعراً ما أحسنته العريب

يا منكر المجد فيهم أليس منهم صهيب؟⁽¹⁾

ولكن هذه الجنسية كان لها الأثر الأظهر والفضل الأكبر في نبوغه، فإنه جمع إلى تعمق الآريين في الفكر، تفوق الساميين في الخيال؛ وضم إلى دقة الروم في التصور، قوة العرب في التصوير. فامتاز بتوليد المعنى واستقصائه حتى لا يترك فيه بقية لغيره. ومن ثم طالت قصائده من غير تكرير ولا سقط. وقلماً رأينا شاعراً يسلم على الطول وتتساوى أجزاء قصيدته في الحسن والقوة. ولابن الرومي براعة نادرة في وصف الشيء وتشبيهه، وقدرة غريبة على العتاب والهجاء، لما كان ينمي به من جفاء الأصدقاء، وإعراض الكبراء، ولحدة طبعه وضيق خلقه. وهو في منزلة أبي تمام والبحري، وربما فضلهما أحياناً؛ لأنه قال في كل فنون الشعر المعروفة (وزاد عليها زيادة لو وزعت على عشرة شعراء لأحلتهم منازل الفحول).

على أنه يسق أحياناً فيطلب صحة المعنى ولا يبالي حيث وقع من هجنة اللفظ وخشونته. ولو أنه نشأ نشأة عبد الله ابن المعتز لما كان له معه ذكر في باب التشبيه والمح؛ فإن ابن الرومي أعلى كعباً منه في الشعر، ولكن علمه بالمشبهات دون علم الملوك وقد قال له بعض معاصريه يلومه لم لا تشبه كتشبيهات ابن المعتز؟ فقال له: أنشدني من قوله الذي استعجزتني عن مثله. فأنشده قوله في الهلال:

أنظر إليه كزورق من فضة قد أثقلتة حمولة من عنبر؟

فقال له زدني. فأنشده قوله في الأذريون، وهو زهر أصفر في وسطه خمل أسود:

كأن أذريونَهَا غبَّ سماء هامية

مداهنٌ من ذهب فيها بقايا غالية

(1) صهيب بن سنان بن مالك الرومي صحابي جليل، وهو أول من أسلم من الروم، توفي سنة 38

فصاح واغوثاه! لا يكلف الله نفساً إلا وسعها. ذاك إنما يصف ماعون بيته لأنه ابن خليفة، وأنا أي شيء أصف؟ ولكن أنظر إذا وصفت ما أعرف أين يقع قولي من الناس. فهل لأحد قط مثل قولي في قوس الغمام:

وقد نشرت أيدي الجنوب مطارفا من الجود كنا والحواشي على الأرض
يطرزها قوس السحاب بأخضر على أحمر في أصفر إثر مبيض
كأذيال خود أقبلت في غلائل مصبغة والبعض أقصر من بعض
وقولي في صانع الرقاق:

ما أنس لا أنس خبازاً مررت به يدحو الرقاقة مثل اللحم للبصر
ما بين رؤيتها في كفه كرة وبين رؤيتها قوراء كالقمر
إلا بمقدار ما تنداح دائرة في لجة الماء يلقي فيه بالحجر

نموذج من شعره

من قوله، وقال ما سبقني أحد إلى هذا المعنى:

أراؤكم ووجوهكم وسيوفكم في الحادثات إذا دجون نجوم
منها معالم للهدى، ومصباح تجلو الدجى، والأخريات رجوم
ومن معانيه المخترعة قوله:
وإذا امرؤ مدح امرأ لنواله وأطال فيه فقد أراد هجاءه
لو لم يقدر فيه بعد المستقى عند الورود لما أطال رشاءه
وكان هو يطيل.

وقوله:

توددت حتى لم أجد مُتَوَدِّداً وأفنيت أقلامي عتاباً مُرَدِّداً
كأنني أستدني بك ابن حنينة⁽¹⁾ إذا النزع أدناه من الصدر أبعدا

(1) ابن حنينة كناية عن القوس.

ومن بدائع قوله في الشباب:

رأيت سواد الرأس واللهو تحته كليل وحلم بات رائيه ينعم
فلما اضمحل الليل زال نعيمه فلم يبق إلا عهده المتوهم

وقوله من قصيدة يصف الشمس في الأصيل:

وقد رنقت شمس الأصيل ونفضت على الأفق الغربي ورسا مزعزعا
وودعت الدنيا لتقضي نحبها وشول باقي عمرها فتشعشعا
ولاحظت النوار وهي مريضة وقد وضعت خدا إلى الأرض أضرعا
كما لاحظت عواده عين مدنف توجع من أو صابه ما توجعا
ظلت عيون النور تخضل بالندى كما اغرورفت عين الشجي لتدمعا
يراعينها صورا إليها روانيا ويلحظن إلحاظاً من الشجو خشعا
وبين إغضاء الفراق عليهما كأنهما خلا صفاء تودعا
وقد ضربت في خضرة الروض صفرة من الشمس فاخضر اخضراراً مشعشعا
وأذكى نسيم الروض ريعان ظله وغنى مغنى الطير فيه وسجعا
وغرد ريعي الذباب خلاله كما حثث النشوان صنجا مشرعا
فكانت أرانين الذباب هناكمو على شدوات الطير ضرباً موقعاً

ابن المعتز

(249 – 296 هـ)

نشأته وحياته

هو أمير المؤمنين أبو العباس عبد الله ابن الخليفة المعتز، ولد في بيت الملك وموثل الخلافة، وربى في باحة النعيم وموطن الجلالة، فنشأ نبيل النفس دقيق الحس، قوي الشعور بالجمال، ولوعاً بالأدب والموسيقى. تأدب على شيوخ الأدب في عصره كالمبرد وثلعب، وشارك في أكثر العلوم النغلية والعقلية، وشغله الأدب والطرب واللعب عن دسائس القصر ومطامع الخلافة فكان كما وصف نفسه:

قليل هموم القلب إلا للذة يُنعم نفساً آذنت بالثقل
فإن تطلبه تقتنصه بحانة وإلا ببستان وكرم مظلل
ولست تراه سائلاً عن خليفة ولا قائلاً من يعزلون ومن يلي
ولا صائحاً كالعير في يوم لذة يناظر في تفضيل عثمان أو علي

إلا أن جماعة من شيعته لما رأوا ضعف المقتدر واستبداد المماليك وسوء سياستهم خلعوه وبايعوه ابن المعتز فما تبوأ العرش إلا يوماً وليلة، لأن أنصار المقتدر لم يشاءوا التسليم راضين. فتحزبوا وحاربوا أعوان ابن المعتز فشتوهم، وأعادوا المقتدر إلى دسسته. واختفى الخليفة الشاعر في دار الجصاص الجوهري، فتحموا عليه الدار واعتقلوه. ودفعه المقتدر إلى مؤنس الخادم فخنقه وسلمه إلى أهله ملفوفاً في كساء.

شعره

لنشأة ابن المعتز أثر ظاهر في شعره. فهو رقيق اللفظ، سهل العبارة، صافي الأسلوب، لركة طبعه وسهولة خلقه، وصفاء خاطره. وهو بليغ الاستعارة رائع التشبيه، دقيق الوصف، لدقة حسه، ولطف شعوره، وامتلاء ذهنه بروائع الجمال وبدائع الخيال ورونق الحضارة. وكان يقول الشعر إرضاء لنفسه وتصويراً

لحسه، فبرئ من كذب المدح ولؤم الهجاء، وانصرف إلى وصف الطبيعة ومجالس الأئس ومطاردة الصيد ومراسلة الإخوان. وله ولع بالبديع في حسن صوغ وقلة تكلف. ونثره لا يقل عن شعره في نقاء الأسلوب وجودة اللفظ ودقة التخيّل.

مؤلفاته

لابن البديع المعترف كتاب البديع⁽¹⁾، وهو أول مصنف في هذا الفن، جمع فيه سبعة عشر نوعاً منه. وكتاب مكاتبات الإخوان بالشعر، وكتاب الجوارح والصيد، وكتاب أشعار الملوك، وكتاب طبقات الشعراء، وكتاب الزهد والرياض، وتصانيف أخرى أغلبها مفقود. وقد طبع ديوانه بالقاهرة في جزأين.

نموذج من شعره

كن جاهلاً أو فتجاهل تفز	للجهل في ذ الدهر جاه عريض
والعقل محروم يرى ما يرى	كما ترى الوارث عين المريض
وقال: أقتلا همي بصرف عقار	واتركا الدهر فما شاء كانا
إن للمكروه لدعة هم	فإذا دام على المرء هانا

وقال:

ونسيم يشمر الأرض بالقطر	كذيل الغلالة المبلول
ووجوه البلاد تنتظر الغيث	انتظار المحب رجع لرسول

وقال:

أعاذل قد كبرت على العتاب	وقد ضحك المشيب على الشباب
رددت إلى التقى نفسي فقرت	كما رد الحسام إلى القراب

(1) نشره عام 1935 الأستاذ أغناطيوس كراتشوفيسكي المستشرق الرومي وقد صدره ببحث اللغة الإنجليزية عن الكتاب والنسخة التي نقل عنها، وذيله بترجمة لابن المعتز أبان فيها عن أثر الكتاب في الأدب العربي.

وقال في مقبرة:

وسكان دار لا تزاور بينهم على قرب بعض في المحلة من بعض
كأن خواتيمها من الطين فوقهم فليس لهم حتى القيامة من فض
وقال:

كم حاسد حنق علي بلا جرم فلم يضررني الحنق
متضاحك نحوي كما ضحكت نار الذبالة وهي تحترق
وقال:

انظر إلى حسن هلال بدا يهلك من أنواره الجندسا
كمنجل قد صيغ من فضة يحصد من زهر الدجى نرجسا
وقال:

قلبي وثاب إلى ذا وذا ليس يرى شيئاً فيأباه
يهيم بالحسن كما ينبغي ويرحم القبح فيهواه
وقال:

من لي بقلب صيغ من صخرة في جسد من لؤلؤ رطب
جرحت خديه بلحظي فما برحت حتى اقتص من قلبي
وقال:

ولقد قضت نفسي مآربها وقضيت غيامة ورشد
ونهار شيب الرأس يوقظ من قد كان في ليل الشباب رقد
وقال:

وإني على إشفاق عيني من البكا لتجمع مني نظرة ثم أطرق
كما حلئت عن ماء برد طريد تمد إليه جيدها وهي تفرق
وقال أيضاً وإشارته إلى الديك:

صفق إما ارتياحه لسنا الفجر وإما على الدجى أسفا
ويقال إن له هذا الموشح المشهور، ولا ندرى إن كان ابتداعه أم اتبع فيه
الأندلسيين:

أيها الساقى إليك المشتكى! قد دعوناك وإن لم تسمع

* * * * *

ونديم همت في غرته

وبشرب الراح من راحته

كلما استيقظ من سكرته

جذب الكأس إليه واتكى وسقاني أربعاً في أربع

* * * * *

مالعيني بالنظر!

أنكرت بعدك ضوء القمر

وإذا ما شئت، فاسمع خبري:

عشيت عيناى من طول البكا وبكى بعضى على بعضى معي!

* * * * *

غضن بان مال من حيث التوى

مات من يهواه من فرط الجوى

خفق الأحشاء موهون القوى

كلما فكر في العين بكى ويحه! يبكى لما لم يقع!

* * * * *

ليس لي صبر، ولا لي جلد

يا لقومي عذلوا واجتهدوا!
أنكروا شكواي مما أجد

مثل حالي حقه أن يشتكي؟ كمد اليأس وذل الطمع!

* * * * *

كبد حرى، ودمع يكف
يذرف الدمع ولا يندرف
أيها المعرض عما أصف!

قد نما حبي بقلبي وزكا لا تقل في الحب إنني مدعي

الشريف الرضي

(259 – 404 هـ)

نشأته وحياته

ولد أبو الحسن محمد بن الحسين الموسوي ببغداد، ونشأ في حجر والده، ودرس العلم في طفولته؛ فبرع في الفقه والفرائض؛ وفاق في العلم والأدب، وقال الشعر وعمره لا يزيد على عشر سنين. فلما بلغ التاسعة والعشرين من عمره خلف أباه في نقابة الطالبين سنة 388، ثم ضمت إليه مع النقابة سائر الأعمال التي كان يليها أبوه، وهي النظر في المظالم والحج بالناس. وبقى في هذه الأعمال حيناً من الدهر حتى تغير عليه الخليفة القادر لاتهامه عنده بالميل إلى العلويين الفاطميين بمصر فصرفه عنها، فعاش عيش القانع الشريف حتى قبضه الله إليه في المحرم من سنة 404 ودفن بداره في الكوخ.

صفته وأخلاقه

كان الشريف أبي النفس عالي الهمة، سميت به عزيمته إلى معالي الأمور فلم يجد من الأيام معيناً عليها وكان عفيفاً لم يقبل من أحد صلة ولا جائزة؛ حتى بلغ من تشدده في العفة أن رد ما كان جارياً على أبيه من صلات الملوك والأمراء، واجتهد بنو بويه أن يحملوه على قبول صلاتهم فما استطاعوا.

شعره

نهج الرضي في شعره منهج الأقدمين من الشعراء في جزالة اللفظ وفخامة المعنى. وشعره أشبه بشعر البحري⁽¹⁾ إلا أنه غلب في الفخر والحماسة، وتنزه عن عبث الوليد ومجونته. قال الثعالبی: " وهو أشعر الطالبين من مضلا منهم ومن غبر على كثرة شعوائهم المفلقين. ولو قلت إنه أشعر قریش لم أبعد عن

(1) تجد مثالا لذلك إذا وازنت بين قصيدة الشريف في مدح القادر بالله وبين قصيدة البحري في مدح المتوكل وقد أتينا في ترجمة كل منهما بقطعة من قصيدته.

الصدق " ثم قال بعد ذلك: " ولست أدري في شعراء العصر أحسن تصرفاً في المراثي منه ". وكان على مكاتته في الشعر راسخ القدم في الكتابة، بعيد الشأو في الترسل. ولو كان حقاً ما يقال من أن له يداً في نهج البلاغة لما تردد منصف في الحكم بأنه أكتب الكتاب في العربية؛ ن نهج البلاغة هو في المحل الثاني من كتاب الله وحديث رسوله بلاغة وبياناً:

مؤلفاته

ألف هذا الشاعر في معاني القرآن كتاباً يدل على تضلعه في النحو واللغة وأصول الدين، وكتاباً آخر في مجازات القرآن. وله مجموعة رسائل وديوان شعر؛ ثم كتاب نهج البلاغة وهو ما جمعه من كلام أمير المؤمنين علي ابن أبي طالب. ومن الناس من يميل إلى أن أكثر هذا الكتاب من صنع الشريف؛ لما فيه من التعرض للصحابة بالأذى والهجر، ولأن ما فيه من فلسفة الأخلاق، وقواعد الاجتماع، ودقة الوصف، وتكلف الصنعة، ليس في إمكان ذلك العصر ولا في طبعه. والظاهر أن الشريف جمع كل ما نسب إلى الإمام وفيه الصحيح والمشوب.

نموذج من شعره

قال من قصيدة له في مدح القادر بالله واستعطافه وقد ترسم فيها خطى البحري في مدح المتوكل:

لله يوم أطلعتك به العلا	علماً يزاول بالعيون ويرشف
لما سمت بك عزة موموقة	كالشمس تبهر بالضياء وتومق
وبرزت في برد النبي وللهدى	نور على أسرار وجهك مشرق
وكأن دارك جنة حصاؤها الجادي	أو أنماطها الإسـتـبرق
في موقف تغضي العيون جلالة	فيه ويعثر بالكلام المنطق
وكأنما فوق السرير وقد سما	أسد على نشزات غاب مطرق
والناس إما راجع متهيب	مما رأى، أو طالع متشوق

ورأوا عليك مهابة فتفرقوا	مالوا إليك محبة فتجمعوا
لا يستقل به السنان الأزرق	وطعنت في غرر الكلام بفيصل
تزكو على مر الزمان وتورق	وغرست في حب القلوب مودة
ليدي عدوك طود عز أعدق	وأنا القريب إليك فيه ودونه
في دوحة العلياء لا تتفرق	عطفاً أمير المؤمنين فإننا
أبدأ، كلانا في المعالي معرق	ما بيننا يوم الفخار تفلوت
أنا عاطل منها وأنت مطوق	إلا الخلافة ميزتك فإنني

الطغرائي

(المتوفى سنة 513 هـ)

نشأته وحياته

هو العميد أبو إسماعيل الحسين بن علي المعروف بالطغرائي نسبة إلى مهنته أول حياته. فقد كان يكتب الطغراء (الطرة) في أعلى الكتب بخط خاص فيها نعوت السلطان وألقابه. ولد بأصبهان من أسرة فارسية ثم تقلب في ظل آل سلجوق حتى وزر للسلطان مسعود بالموصل، وصار ينعت بالأستاذ ويلقب بالمشي. فلما نشبت الحرب بين السلطان مسعود وبين أخيه السلطان محمود بالقرب من همذان وكانت النصر لثانيهما أخذ الطغرائي أسيراً، ثم أغراه وزيره نظام الدين بقتله، ومالاه عليه بعض حسدته من رءوس الكتاب فرماه عنده بالإلحاد فقتل ظلماً سنة 513.

شعره

شعر الطغرائي عامر الأبيات، متين القافية، مختار اللفظ، يغلب فيه الفخر والحكمة. ونثره من طبقة شعره في إحكام الصنعة ورصانة الأسلوب. وله ديوان شعر كبير أكثره في مدح السلطان سعيد ابن ملك شاه ونظام الملك. وخير ما فيه قصيدته اللامية المشورة بلامية العجم، وهي من عيون الشعر ومختاره. قالها ببغداد يندب الزمان ويشكو الإخوان أثناء عطلة من العمل. وقد أفردوا العلماء بالشروخ ما بين كبير وصغير. قال في مطلعها:

أصالة الرأي صانتني عن الخطل وحلية الفضل زانتني لدى العطل
مجدي أخيراً ومجدي أولاً شرع والشمس رآد الضحى كالشمس في الطفل
ومنها:

حب السلامة يثني هم صاحبه عن المعالي ويغري المرء بالكسل
فإن جنحت إليه فاتخذ نفقاً في الأرض أو سلما في الجو فاعتزل
ودع غمار العلا للمقدمين على ركوبها واقتنع منهن بالبلل

رضا الذليل بخفض العيش مسكنه
وقال وقد رزق مولوداً على كبر:

هذا الصغير الذي وافى على كبر
سبع وخمسون لو مرت على حجر
ومن قوله في الفخر:

أبى الله أن أسمو بغير فضائلي
وإن كرمتم قبلي أوائل أسرتي
ومال المال إلا عارة مستردة
إذا لم يكن لي في الولاية بسطة
ولا كان لي حكم مطاع أجيزه
فأعذر إن قصرت في حق مجتد
أأكفي ولا أكفي؟ وتلك غضاضة
من الحزم ألا يضجر المرء بالذي
إذا جلدي في الأمر خان ولم يعن
ومن يستعين بالصبر نال مراده

والعزُّ تحت رسيم الأئنيق الذلل
أقر عيني ولكن زاد في فكري
لبان تأثيرها في صفحة الحجر
وإذا ما سما بالمال كل مسود
فلإني بحمد الله مبدأ سؤددي
فهلاً بفضللي كاثروني ومحتدي
يطول بها باعي وتسطو بها يدي
فأرغم أعدائي وأكبت حسدي
وآمن أن يعتادني كيد معتدي
أرى دونها وقع الحسام المهند
يعانيه من مكروهة فكأن قد
مريرة عزمي ناب عنه تجلدي
ولو بعد حين. إنه خير مسعد

الشعر والشعراء في الشام

كانت دمشق في عهد الأمويين حاضرة الخلافة، وقاعدة الملك، ومقر الجند، ومقل الإسلام، ومناط الأمل. فشغلها أدب السيف عن أدب القلم، وألهاها عن حمل الكتاب حمل العلم، وخلجتها خوالج الرياسة والسياسة عن راية الأدب وقرض الشعر، فتخلت عنهما للعراق والحجاز، فزخرت مدنها بالشعراء، وغصت مجالسهما بالأدباء. وقد عمت كيف كان أثر معاوية وأخلاقه في إذكاء هذه النهضة.

فلما أдал الله العباسيين من الأمويين والفرس من العرب، وبغداد من دمشق، فترت حركة الأدب في الشام، فما كان يصدر عنها ولا يرد إليها، حتى تملك بنو حمدان في القرن الرابع على حلب، وهم كما قال الثعالبي: ملوك وأمراء ألسنتهم للفصاحة، وأيديهم للسماحة، وسيف الدولة مشهور بسيادتهم، وواسطة قلاذتهم "وهو أديب بارع وشاعر مطبوع وملك ممدح؛ فوطاً كنفه للأدباء والشعراء والعلماء، حتى (ليال إنه لم يجتمع بباب أحد من الملوك بعد الخلفاء ما اجتمع ببابه من شيوخ الشعر ونجوم الدهر، وإنما السلطان سوق يجلب إليها ما ينفق لديها).

والطريقة الغالبة على أهل الشام في الشعر هي طريقة البحتري في إشار اللفظ الجزل، والأسلوب الفصيح السهل، دون تعمق في المعنى، ولا إفراط في الإيجاز. وقد سمع الثعالبي عن صاحب ابن عباد أنه كان يعجب بها، وينهل من أدبها. وروى هو أيضاً عن الخوارزمي أنه قال: "ما فتق قلبي، وشحد فهمي، وصقل ذهني وأرهف حد لساني، وبلغ بي هذا المبلغ إلا تلك الطرائف الشامية، والطائف الحلبية، التي علقت بحفظي، وامتزجت بأجزاء نفسي، وغصن الشباب رطيب".

وكفى الشام فخراً أن أعادت إلى العرب في أبي تمام والبحتري والمتنبي وأبي فراس وأبي العلاء سبق الشعر بعد أن غلبهم عليه متعربو الفرس وأبناء الموالي في صدر هذا العصر.

وسنقتصر على الترجمة بهؤلاء النابهين منهم، فإن الإحاطة بهم، والكشف عن مناحي أدبهم، لا يتسع لهما صدر هذا المختصر.

أبو تمام

(188 - 231 هـ)

نشأته وحياته

ولد حبيب بن أوس الطائي بقرية يقال لها جاسم من أعمال دمشق. ثم انتقل أبوه إلى دمشق يحترف الحياكة وهو معه في خدمته. فلما ترعرع غادرها إلى مصر فكان يسقي الماء بجوامع عمرو ويستقي من أدب علمائه. ولم يزل يحفظ الأشعار ويحاكي الشعراء فيصافه التوفيق مرة ويخطئه أخرى؛ حتى بلغ من العشر مبلغاً لم يزاحمه فيه أحد من عصره. وقد سار به شعره إلى أسواق لأدب في أنحاء البلاد، فغادر مصر يغشى منازل الكرماء ويتفياً ظل النعمة. فأقبل عليه عشاق الأدب والمدح إقبالاً لم يبق لغيره مجالاً، حتى لم يستطيع أحد من الشعراء أن يكسب درهما بالشعر في حياته. ثم اتصل بأحمد ابن المعتصم ومدحه فأجازه بولاية بريد الموصل فوليه عامين ثم مضى لسبيله قبل أن يتم الأربعين.

صفاته وأخلاقه

كان أبو تمام أسمر اللون طويل القامة فصيحاً حلوا الكلام فيه متممة يسيرة وكان ذكي الطبع حاضر البديهة قوي الذاكرة. قيل: إنه كان يحفظ أربعة عشر ألف أرجوزة غير القصائد والمقطوعات. وكتاباً الحماسة وفحول الشعراء ناطقان بذلك. ويدل على فطنته وسرعة خاطره أنه لما أنشد أحمد ابن المعتصم قصيدته السينية التي يقول في مطلعها:

ما في وقوفك ساعة من باس تقضي ذمام الأربع الأدراس
ووصل إلى قوله فيها:

إقدام عمرو في سماحة حاتم في حلم أحنف في ذكاء إياس

قال أبو يوسف الكندي الفيلسوف وكان حاضراً: الأمير فوق من وصفت. وما زدت على أن شبهته بأجلاف العرب. فأطرق أبو تمام قليلاً ثم قال على البديهة:

لا تنكروا ضربي له من دونه مثلاً شروداً في الندى والباس

فالله قد ضرب الأقل لنوره مثلاً من المشكاة والنّبراس

ولما أخذت منه القصيدة لم يجدوا فيها هذين البيتين فعجبوا. وقال الفيلسوف للخليفة: مهما يطلب فأعطه؛ فإن فكره يأكل جسمه كما يأكل السيف المهند غمده، ولا يعيش كثيراً: فولاه بريد الموصل.

شعره

أبو تمام رأس الطبقة الثانية من المولدين. جمع بين معاني المتقدمين والمتأخرين، وظهر والحضارة راقية، والعلوم مترجمة، فحصف عقله ولطف خياله بالاطلاع عليها. واستنبط من ذلك طريقته التي أثر فيها تجويد المعنى على تسهيل العبارة فكان أول من أكثر من الاستدلال بالأدلة العقلية والكنيات الخفية ولو أفضى ذلك إلى التعقيد. وكأنه لما رأى أن سلاسة اللفظ فاتته أراد أن يجبر ذلك الكسر فتوخى الجناس والمطابقة والاستعارة، فسلم له بعض واعتل عليه بعض، فصار كالكلف في صفحة البدر. ومع هذا قد سلم له من كلامه جملة لم يحم حولها السابقون وقصر عنها اللاحقون: معان مبتكرة، وألفاظ متخيرة، ضمنها من الأمثال والحكم ما زاد في ثروة الأدب العربي، ومهد لمن خلفه الطريق فسلكتها المتنبي وأبو العلاء إلى حكمهم وأمثالهم. ولغلبة الحكمة عليه قيل: "أبو تمام والمتنبي حكيمان، والشاعر البحتري"، وقد كثر اختلاف الناس فيه؛ فمنهم من تعصب له وأفرط حتى فضله على كل سلف وخلف. ومنهم من عمد إلى جيده فطواه، وإلى رديئة فرواه. ولكن لسان المدح كان أغلب، فقد فضله من الرؤساء والعظماء ما لا قبل للطاعين بهم. قال محمد ابن عبد الملك الزيات وقد مدحه بقصيدة شاعرة: "يا أبا تمام إنك لتحلي شعرك من جواهر لفظك وبديع معانيك ما يزيد حسناً على بهي الجواهر

في أجياد الكواعب. وما يدخر لك شيء من جزيل المكافأة إلا ويقصر عن شعرك في الموازة".

وقد جمع شعره في ديوان طبع مراراً. وله غيره كتابا الحماسة وفحول الشعراء جمع فيهما عيون الشعر وغرره في الجاهلية والإسلام. وقد أحسن في الاختبار جد الإحسان حتى قيل إنه في اختياره أبلغ منه في شعره.

نموذج من شعره

من أبدع قصائده قوله:

غدت تستجير الدمع خوف نوى غد وعاد قتاداً عندها كل مرقد
وأنقذها من غمرة الموت أنه صدود فراق لا صدود تعمد
فأجرى لها الإشفاق دمعاً مورداً من الدم يجري فوق خد مورد
ويقول فيها في الحث على الاغتراب؛ ولو تأملت وجدته يتوخى الطباق
في كل بيت:

ولكنني لم أحو وفرأ مجمعاً ففزت به إلا بشمل مبدد
ولم تعطني الأيام نوماً مسكناً ألد به إلا بنوم مشرد
وطول مقام المرء في الحي مخلق لدياجتيه فاغترب تتجدد
فإني رأيت الشمس زيدت محبة على الناس أن ليست عليهم بسرمد
ومن قوله:

نقل فؤادك⁽¹⁾ حيث شئت من الهوى ما الحب إلا للحبيب الأول
كم منزل في الأرض يألفه الفتى وحينئذ أبداً لأول منزل
وقال في رثاء محمد بن حميد الطوسي:
كذا فليجل الخطب وليفدح الأمر فليس لعين لم يفض ماؤها عذر

(1) من عجيب توارد الخواطر أن هذا المعنى بعينه سار به مثل فرنسي وهو:

L'homme rovient toujours

A ses premiers amours

وأصبح في شغل عن السفر السَّفر
فجأج سبيل الله وانثغر الثغر
دما ضحكت عنه الأحاديث والذكر
قفى بأسه شطر وفي جوده شطر
تقوم مقام النصر إذ فاته النصر
من الضرب واعتلت عليه القنا السمر
لها الليل إلا وهي من سندس خضر

توفيت الآمال بعد محمد
ألا في سبيل الله من عطلت له
فتى كلما فاضت عيون قبيلة
فتى دهره شطران فيما ينوبه
فتى مات بين الطعن والضرب موته
وما مات حتى مات مضرب سيفه
تردى ثياب الموت حمراً فما دجا
وقال في المدح:

ولا عرضه مراح العيوب
عقدة العي في لسان الخطيب
عجيب في عينه بعجيب
مدح من راجز بها مستثيب
راح طلقا كالكواكب المشبوب
حسنا من ماجد مسلوب
وجدان غيره بالحبيب
فهو شعبي وشعب كل أديب
وقلبي لغيركم كالقلوب

حول، لأفعاله مرتع الذم (م)
سرح قوله إذا ما استمرت
لا معنى بكل شيء ولا كل (م)
ليس يعرى عن حالة من طراز الـ
وإذا كف راغب سلبته
ما مهاة الحجال مسلوقة أظرف
واجد بالخليل من برحاء الشوق
كل شعب كنتم به آل وهب
إن قلبي لكم لكالكبـد الحـري
وقال أيضاً:

عطايا الأمانى الكواذب
كسته يد المأمول حلة خائب
بياض العطايا في سواد المطالب

إذا حركته هزة المجد غيرت
يرى أقبح الأشياء أوبة آمل
وأحسن من نور تفتحه الصبا

البحثري

(206 - 284 هـ)

نشأته وحياته

أبو عبادة الوليد ابن عبيد الله الطائي عربي صميم ولد بمنبج (بين حلب والفرات) سنة 206 ونشأ في البادية بين قبائل طي. وغيرها فغلبت عليه فصاحة العرب. ثم خرج إلى بغداد فلقي أبا تمام ولزمه حتى تخرج عليه واقتبس طريقته في البديع. وروى عن كثير من العلماء كأبي العباس المبرد وظل صنيعاً لأبي تمام يردد صده، ويترسم خطاه، وحبيب يرشده ويعضده لأنه طائي مثله، حتى قال له يوماً. " أنت والله يا بني أمير الشعراء غداً بعدي "، فصدق الله نبوءته. وأصبح البحثري بعد وفاة أبي تمام سائر الشعر طائر الذكر إماماً في الأدب والقريض. وأقام بالعراق في خدمة المتوكل والفتح ابن خاقان وزيره إلى أن قتلا على مشهد منه، فرجع بعدئذ إلى منبج. وكان يختلف أحياناً إلى سراة بغداد " وسر من رأى " فيمدحهم حتى مات سنة 284.

صفاته وأخلاقه

كان البحثري على أدبه وفضله ورقته من أوسخ خلق الله ثوباً وأبخلهم على نفسه وغيره. وكان من ابغض الناس إنشاداً: يتشادق ويتزاور في مشيته جانباً أو القهقري، ويهز رأسه ومنكيه أخرى، ويشير بكفه ويقف عند كل بيت ويقول: أحسنت والله! ثم يقبل على المستمعين قائلاً: ما لكم لا تقولون أحسنت؟ هذا والله ما لا يحسن أحد أن يقول مثله. ولكنه كان منصفاً يعترف بالفضل لأهله ولا يدعي ما ليس له. قال له بعض الناس وقد سمع شعره: أنت أشعر من أبي تمام. فقال: ما ينفعني هذا القول ولا يضر أبا تمام. والله ما أكلت الخبز إلا به، ولوددت أن الأمر كما قالوا، ولكني والله تابع له، آخذ منه لائذ به، نسيمي يركد عند هوائه، وأرضي تنخفض عند سمائه!.

شعره

ترسم البحري خطو أبي تمام في الشعر ومضى على أثره في البديع، إلا أنه أجاد في سبك اللفظ على المعنى " وأراد أن يشعر فغنى " كما قال فيع ابن الأثير واستمد معانيه من وحي الخيال وجمال الطبيعة لا من قضايا العلم والمنطق، فأعاد للشعر ما ذهب من بهجته وروعته. وإلى ذلك أشار المتنبي بقوله: " أنا وأبو تمام حكيما، والشاعر البحري "، ثم صارت له طريقة خاصة في الجزالة والعذوبة والفصاحة امتاز بها من أستاذه ومدربه، نهجها معاصروه ومن جاء بعدهم من الشعراء وعرفت بطريقة أهل الشام. وقد تصرف أبو عبادة في فنون الشعر إلا في الهجاء، فإن بضاعته فيه نرزة وجيده منه قليل. ويقال إنه أحرق هذا النوع قبل موته وهو الأرجح ولم يسلم شعره من أساقط الغث لكثرت، وإنما يمتاز بالإجادة في المدح والقصد فيه، والقدرة على تصوير أخلاق الممدوح، والإبداع في وصف القصور الفخمة والأبنية العجيبة، كوصف إيوان كسرى⁽¹⁾ وبركة المتوكل، وقصر المعتز بالله. وقصائده تكاد لا تخلو من افتتاح بالغزل. وقد جمع شعره أبو بكر الصولي ورتبه على الحروف. وله غيره كتاب معاني الشعر وحماسة البحري. وهي كحماسة أبي تمام، إلا أنها تمتاز بكثرة أبوابها وخلوها مما تنبو الأسماع عنه؛ وقد طبعت في بيروت.

نموذج من شعره

من قوله في وصف بركة المتوكل:

تنصب فيها وفود الماء معجلة	كالخيل خارجة من حبل مجريها
كأنما الفضة البيضاء سائلة	من السبائك تجري في مجاريها
إذا علتها الصبا أبدت لها حبكا	مثل الجوانش مصقولا حواشيها
فحاجب الشمس أحيانا يضحكها	وريق الغيث أحيانا يباكيها

(1) قصيدة البحري في وصف إيوان كسرى من بدائع الشعر العربي الخالد، لذلك أوردنا أكثرها في النماذج.

إذا النجوم تراءت في جوانبها ليلا حسبت سماء ركبت فيها
وقال يمدح الخليفة المتوكل ويهنته بعيد الفطر:

بالبر صمت وأنت أفضل صائم وبسنة الله الرضوية تفسر
فانعم بيوم الفطر عينا إنه يوم أغر من الزمان مشهر
أظهرت عز الملك فيه بجحفل لجب يحاط الدين فيه وينصر
فالخيل تصهل والفوارس تدعى والبيض تلمع والأسنة تزهر
والأرض خاشعة تميد بثقلها والجو معتكر الجوانب أغبر
والشمس طالعة توقد في الضحى طورا ويطفئها العجاج الأكدر
حتى طلعت بنور وجهك فانجلي ذاك الدجى وانجاب ذاك العثير
فافتن فيك الناظرون فأصبع يومي إليك بها وعين تنظر
ذكروا بطلعتك الني فهللوا لما طلعت من الصفوف وكبروا
حتى أنهيت إلى المصلى لابساً نور الهدى يبدو عليك ويظهر
ومشيت مشية خاشع متواضع لله لا يزهى ولا يتكبر
فلو أن مشتاقا تكلف فوق ما في وسعه لسعى إليك المنبر
أبديت من فصل الخطاب بحكمة تنبي عن الحق المبين وتخبر
ووقفت في برد النبي مذكراً بالله تنذر تارة وتبشر
ومن قوله في الطيف:

إذا ما الكرى أهدى إلى خياله شفى قربه التبريح أو نقع الصدى
إذا انتزعته من يدي انتباهة حسبت حبيبا راح مني أو غدا
ولم أر مثلينا ولا مثل شأننا نعذب أيقاظا وننعم هجدا

المتنبي

(303 – 354 هـ)

نشأته وحياته

أبو الطيب أحمد بن الحسين المتنبي ولد بالكوفة من أبوين فقيرين. كان أبوه سقاء بالكوفة. ثم سافر به وهو صغير إلى الشام متنقلاً من البادية إلى الحاضرة يسلمه إلى المكاتب، ويردده في القبائل، ومخايله نواطق بفضل، ضوامن لنجاحه، حتى توفي أبوه وقد ترعرع الشاعر ونال حظه من علوم اللغة والأدب فأخذ يضرب في الأرض ابتغاء للرزق واكتساباً للمجد.

وكان المتنبي منذ نشأته كبير النفس عالي الهمة طموحاً إلى المجد. بلغ من كبر نفسه أن دعا إلى بيعته⁽¹⁾ بالخلافة وهو لدن العود حديث السن. وحين كاد يتم له الأمر تأدى خبره إلى والي البلدة فأمر بحبسه. فكتب إليه من السجن قصيدة منها:

أمالك رقي ومن شأنه هبات اللجين وعتق العبيد
دعوتك عند انقطاع الرجاء والموت مني كجبل الوريد
دعوتك لما يراني البلى وأوهن رجلي ثقل الحديد
تعجل في وجوب الحدود وحدي قبل وجوب السجود⁽²⁾

فأطلقه. ولكن حب الرياسة لم يزل متمكناً من قلبه إلى أن أخلق برد شبابه وتضاعفت ود عمره. وفي سنة 323 ادعى النبوة في الشام وفتن شرذمة من الناس بقوة أدبه وسحر بيانه. ولما سئل عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: إنه بشر بمجئني وأخبر بنبوتي. فقال: لا نبي بعدي، وأنا اسمي في السماء (لا). وصنف كلاماً عارض به القرآن. فلما اشتهر أمره قبض عليه لؤلؤ أمير حمص نائب الإخشيدية، فأوثقه ثم أطلقه بعد أن استتابه. وتفرق عنه أصحابه. فطفق

(1) اليتيمة 1 س 79.

(2) يريد: إني صبي لم أبلغ الحلم فيجب علي السجود، فكيف تجب علي الحدود؟.

يتجشم أسفاراً أبعد من آماله، ولا زاد إلا صبره، ولا عدة إلا بأسه، كما يتجلى ذلك في مثل قوله:

وحيد من الخلان في كل بلدة إذا عظم المطلوب قل المساعد
وقوله:

ضاق صدري وطال في طلب الرزق قيامي وقل عنه قعودي
أبدأ أقطع البلاد ونجمي في نحوس وهمتي في سعود

ولم يزل هكذا حتى اتصل بأبي العشائر والي أنطاكية من قبل سيف الدولة وامتدحه، فأكرم مثواه وقدمه إلى سيف الدولة وعرفه بمنزلته من الشعر والأدب. فضمه الأمير إليه وحسن موقعه عنده، فسلمه إلى الرواض فعلموه الفروسية والطراد. حتى لا يفارقه في الحرب ولا في السلم. وأفعم وطابه ودرت له أخلاف الدنيا على يده، حتى كان من قوله فيه:

تركت السرى خلفي لمن قل ماله وأنعلت أفراسي بنعماك عسجدا
وقيدت نفسي في هواك محبة ومن وجد الإحسان قيلاً تقيداً

ولم يزل معه في حال حسنة حتى حدثت بينهما جفوة ففارقه ⁽¹⁾ إلى مصر في سنة 346. ومدح كافوراً الإخشيدي وأبا شجاع. وأقام في مصر ردهاً من الزمن يرقب الفرصة من كافور فيصعد المجد على كاهله. فما هو إلا أن قال:

أبا المسك، هل في الكأس فضل أنا له فأني أغنى منذ حين وتشرب
وقال:

وهل نافعي أن ترفع الحجب بيننا ودون الذي أملت حجاب
وفي النفس حاجات وفيك فطنة سكوتي بيان عندها وخطاب

(1) أثر هذا الفراق في أبي الطيب فاضطرب أمره وتراجع شمره. ولما عوتب في آخر أيامه على ذلك قال: قد تجوزت في قلبي، وأعفيت طبعي، واغتنمت الراحة منذ فارقت آل حمدان

حتى أوجس كافور منه خيفة، لتعاليه في شعره وطموحه إلى الملك، فزوى عنه وجهه، فهجاه وقصد بغداد. ولم يمدح الوزير المهلبى لأنه كان يترفع عن مدح غير الملوك، فشق ذلك على الوزير فأشلى عليه شعراء بغداد فنالوا من عرضه ومن شعره. ولكنه لم يجبههم، وذهب قاصداً أرجان لزيارة الفضل ابن العميد فكتب إليه الوزير صاحب بن عباد يستزيه بأصبهان أ، يمدحه فلم يقم له وزناً، وأم عضد الدولة بشيراز. فأوغر عليه قلب صاحب وأخذ يتتبع هفواته، وهو أعلم الناس بحسناته - وشن عليه هو وأشياعه حرباً قلمية، وألقوا الكتب في نقده ورموه بالسرقة والخروج عن الأساليب العربية، وهو لا يابه لهم ذهاباً بنفسه وإعجاباً بشعره.

* * * * *

ولما حصل عند عضد الدولة أسبغ عليه نعمته ووصله بثلاثة آلاف دينار وخیول وثياب؛ ثم دس عليه من يسأله: أين هذا العطاء من عطاء سيف الدولة؟ فقال له: هذا أجزل إلا أنه متكلف، وسيف الدولة كان يعطي طبعاً. فغضب عضد الدولة من ذلك. ويقال إنه جهز عليه فاتكاً الأسدي في قوم من بني ضبة، فعرض له بالصافية من سواد بغداد واقتتلا. فلما رأى الدائرة عليه هم بالفرار. فقال له غلامه: لا يتحدث الناس عنك بالفرار وأنت القائل:

الخیل واللیل والبیضاء تعرفنی والسيف والرمح والقرطاس والقلم

فقاتل حتى قتل هو وولده وغلامه في أواخر رمضان من سنة 354 هـ.

شعره

المتنبى شاعر من شعراء المعاني؛ وفق بين الشعر والفلسفة؛ وجعل أكثر عنايته بالمعنى؛ وأطلق الشعر من القيود التي قيده بها أبو تمام وشيعته، وخرج به عن أساليب العرب التقليدية. فهو إمام الطريقة الابتداعية ⁽¹⁾ في الشعر

(1) الابتداعية كما قلنا من قبل ترجمة معنوية لكلمة Romantique لأن أهل هذه الطريقة من الألمان والإنجليز والفرنسيين قد خرجوا على الطريقة الاتباعية Classique بإبتداع أسلوب جديد انتشر في أوروبا بعد عناء طويل ونضال عنيف بين أرباب الطريقتين. وإن في خروج أبي الطيب المتنبى

العربي. ولقد حظى في شعره بالحكم والأمثال، واختص بالإبداع في وصف القتال، والتشبيب بالأعرايات، وإجادة التشبيه، وإرسال المثلين في بيت واحد، وحسن التخلص، وصحة التقسيم، وإبداع المديح، وإيجاع الهجاء. وأخص ما يميز المتنبي بروز شخصيته في شعره، وصدق إيمانه برأيه، وقوة اعتداده بنفسه، وصحة تعبيره عن طبائع النفس ومشاكل الناس وأهواء القلوب وحقائق الوجود وأغراض الحياة؛ ولذلك كان شعره في كل عصر مدداً لكل كاتب، مثلاً لكل خاطب.

عيوب شعره

بيت المتنبي يضيق أحياناً بمعناه فيعسر فهمه، وتبعد غايته منه فيطيش سهمه، وقد بلغ من إهماله اللفظ أن وقع في بعض المساوئ، كاستكراه اللفظ، وتعقيد المعنى، واستعمال الغريب، وقبح الطالع، ومخالفة القياس، وكثرة التفاوت في شعره، والخروج في المبالغة إلى الإحالة، كقوله:

ولا الضعف حتى يبلغ الضعف ضعفه ولا ضعف ضعف الضعف بل مثله ألف وقوله:

أنى يكون أبا البرايا آدم وأبوك والثقلان أنت محمد⁽¹⁾

وقوله:

لو لم تكن من ذا الورى ألد منك هو عقت بمولد نسلها حواء

والاستشهاد على كل ذلك يخرج بنا إلى التطويل فارجع إلى يتيمة الدهر للثعالبي.

=

وابن هانئ الأندلسي وأبي العلاء المعري وأضرابهم على أساليب العرب المخصوصة وإطلاقهم الشعر من قيود الصناعة ما يشبه تلك الطريقة.

(1) تقديره: أنى يكون آدم أبا البرايا وأبوك محمد وأنت الثقلان.

نموذج من شعره

قال يشكو الزمان:

لمي ترك الدهر من قلبي ولا كبدي
يا ساقى أخمر في كؤوسكما
أصخرة أنا؟ مالي لا تغيرني
إذا أردت كملت الخمر صافية
ماذا لقيت من الدنيا؟ وأعجبها
وقال يتفلسف:

نحن بنو الموت فما بالنا
تبخل أيدينا بأرواحنا
فهذه الأرواح من جوه
أو فكر العاشق في منتهى
لم يرقن الشمس في شرقه
يموت راعي الضأن في جهله
وربما زاد على عمره
وغاية المفرط في سلمه
وقال:

نصيبك في حياتك من حبيب
رمانى الدهر بالأرزاء حتى
قصرت إذا أصابتني سهام
وهان فما أبالي الرزايا
وقال:

شيئاً تميمه عين ولا جيد
أم في كؤوسكما هم وتسهيّد؟
هذى المدام ولا تلك الأناشيد؟
وجدتها وحبب النفس مفقود
أنى بما أنا باك منه محسود!

نعاف ما لا بد من شربه؟
على زمان هن من كسبه
وهذه الأجسام من تربه
حسن الذي يسببه لم يسبه
فشكت الأنفس في غربه
موتة جالينوس في طبه
وزاد في الأمن على سربه
كغاية المفرط في حربته

نصيبك في منامك من خيال
فؤادي في غشاء من نبال
تكسرت النصال على النصال
لأنى ما انتفعت بأن أبالي

صحب الناس قلبنا ذا الزمانا
 وتولوا بغصة كلهم منه
 ربما تحسن الصنيع لياليه
 وكأنا لم يرض فينا بريب الدهر
 كلما أنبت الزمان قناة
 ومراد النفوس أصغر من أن
 غير أن الفتى يلاقي المنايا
 ولو أن الحياة تبقى لحي
 وإذا لم يكن من الموت بُدٌّ
 وقال أيضاً:

زودينا من حسن وجهك ما دام
 وصلينا نصلك في هذه الدنيا
 فحسن لوجوه حال تحول
 فإن المقام فيها قليل

أبو فراس الحمداني

(320 - 357 هـ)

نشأته وحياته

هو أبو الحارث ابن أبي العلاء ابن عم سيف الدولة. ولد بمنبج، ورُبي في حر النعيم بين أبهة الملك وعزة السلطان. فنشأ على خلال العظماء شجاعاً أبي النفس سليم الطبع، كريم الخلق، جامعاً بين أدبي السيف والقلم. وكان سيف الدولة معجباً بمحاسنه مؤثراً له على سائر قومه، فاصطنعه لنفسه، واصطحبه في غزواته، واستخلفه في أعماله؛ فكان الدرة الفريدة في تاج سيف الدولة، يقود جيوشه في الحرب، ويرأس كتابه في السلم. وكان النصر حليفه في كل وقائعه، فمالت إليه القلوب ولهجت بذكره الألسن، وانطلق لسانه برائع الشعر في الفخر والحماسة ووصف الحروب، حتى خانه الفوز فأسرته الروم في بعض المواقع وهو جريح قد أصابه سهم بقى نصله في فخذه، فسجنوه بخرشنة، ثم نقلوه إلى القسطنطينية. وتعذرت المفاداة فلبث في السر أربع سنين ظهرت فيها أشعاره الروميات ملأى بعواطف الحب والحنين إلى أهله وأحبابه، ممثلة ما يكن صدره من لواعج الشوق لأمه العجوز وابنته الوحيدة، وعوامل الحب لسيف الدولة. ولم يزل أبو فراس يعالج مرارة الأسر وحرارة الشوق حتى تنوَّظ في الهدنة والأسرى فأطلقه الروم بعد أن أكرموه وبجلوه.

"ولما خرج قمر البيان من سراره، وأطلق أسد الحرب من إيساره"، لم تمهله المنية أن يسترد ما ذه م شبابه أيام عذابه. فتوفى سيف الدولة وخلفه ولده أبو المعالي ابن أخت أبي فراس؛ فأراد الأمير الشاعر أن يضم إليه مدينة حمص فأبى عليه ذلك أبو المعالي، وجرت بينهما معركة قتل فيها أبو فراس وهو لدن العود غض الإهاب.

صفاته وأخلاقه

كان أبو فراس كما قدمنا بطلاً أليماً سخياً معجباً بشعره وبنفسه، كثير الفخر بأصله وقومه، عزوفاً عن الشراب والمجون؛ فبرئ شعره من كل ذلك وانطبع أخلاقه فيه. وهو القائل:

لئن خلق الأنعام لحسو كأس ومزمار وطنبور وعود
فلم يخلق بنو حمدن إلا لمجد أو لبأس أو لجود

شعره

شعر أبي فراس على مثال الشعر القديم متانة وأسلوباً، إلا أن عليه رواء الطبع، وسمّة الظرف، وعزة الملك. ولم تجتمع هذه الخلال قبله إلا في شعر عبد الله ابن المعتز. وكان صاحب ابن عباد يقول. وقد تصرف هذا الشاعر في أغلب فنون الشعر فأجاد، إلا أن منزلته في الفخر والاستعفاف والعتاب أعلى، وروميّاته أجل وأدل على فضله؛ فإن مثله لا يزكو به أن يمدح أميراً، أو يهجو صغيراً، أو يذيل مصون شعره بين الشراب والمجون، فقد علمنا كيف نشأ وأين درج. وله غزل رقيق تتضاءل فيه عزة الملك أمام سلطان الحب، فيكون أتم جلالاً وأشد روعة. وزعم الثعالبي أن المتنبي كان يشهد له بالتبريز وبتجافي جانبه (فلا ينبري لمباراته، ولا يجترئ على مجازاته، وإنما لم يمدحه ومدح غيره من آل حمدان تهيباً له وإجلالاً لا إغفالاً)، وهو زعم لا يطمئن عليه القلب، ولا يقول به من عرف المتنبي.

نموذج من شعره

قال وقد سمع حمامة تنوح على شجرة بالقرب من سجنه بالقسطنطينية:

أقول وقد ناحت بقربي حمامة أيا جارتا لو تشعرين بحالي
معاذ الهوى ما ذقت طارقة النوى ولا خطرت منك الهموم ببال
أيا جارتا ما أنصف الدهر بيننا تعالي أقاسمك الهموم تعالي
تعالي ترى روحا لدي ضعيفة تردد في جسم يعذب بالي

أَيَحْمِلُ مُحْزُونُ الْفُؤَادِ قِوَادِمَ
عَلَى غَصْنِ نَائِي الْمَسَافَةِ عَالِي؟
أَيُضْحِكُ مَأْسُورٌ وَتَبْكِي طَلِيقَةٌ
وَيَسْكُتُ مُحْزُونٌ وَيَنْدُبُ سَالِي؟
لَقَدْ كُنْتُ أَوَّلَى مِنْكَ بِالْدمْعِ مَقْلَةً
وَلَكِنْ دَمْعِي فِي الْحَوَادِثِ غَالِي
وَمِنْ قَصِيدَةٍ لَهُ إِلَى سَيْفِ الدَّوْلَةِ يَسْتَعْطِفُهُ:

بِمَنْ يَثِقُ الْإِنْسَانُ فِيمَا يَتَوَبُّهُ
وَمِنْ أَيْنَ لِلْحُرِّ الْكَرِيمِ صَحَابُ؟
وَقَدْ صَارَ هَذَا النَّاسُ إِلَّا أَقْلَهُمْ
ذُنَاباً عَلَى أَجْسَادِهِنْ ثِيَابُ
تَغَابَيْتَ عَنْ قَوْمٍ فَظَنُوا غِبَاوَةً
بِمَفْرَقِ أَغْبَانَا حَصَى وَتَرَابُ
إِلَى اللَّهِ أَشْكُو أَنَّنَا بِمَنَازِلِ
تَحْكُمُ فِي آسَادِهِنْ كِلَابُ
تَمَرُ اللَّيَالِي لَيْسَ لِلنَّفْعِ مَوْضِعُ
لَدِي وَلَا لِلْمَعْتَفِينَ جَنَابُ
وَلَا شَدَّ لِي سِرْجٌ عَلَى مَتْنِ سَابِجِ
وَلَا ضَرَبَتْ لِي بِالْعِرَاءِ قَبَابُ
سَتَذْكُرُ أَيَّامِي نَمِيرَ وَعَامِرِ
وَكَعَبَ عَلَى عِلَاتِهَا وَكِلَابُ
أَنَا الْجَارُ لَا زَادِي بَطْئِي عَلَيْهِمْ
وَلَا دُونَ مَالِي فِي الْحَوَادِثِ بَابُ
وَمِنْهَا:

وَمَا زِلْتُ أَرْضِي بِالْقِيلِ مُحِبَّةً
لَدِيهِ وَمَا دُونَ الْكَثِيرِ حِجَابُ
وَأَطْلُبُ إِبْقَاءَ عَلَى الْوُدِّ أَرْضَهُ
وَذَكَرِي مَنِي فِي غَيْرِهَا وَطَلَابُ
كَذَلِكَ الْوُدَادُ الْمُحْضُ لَا يَرْتَجِي لَهُ
ثَوَابُ وَلَا يَخْشَى عَلَيْهِ عِقَابُ
وَقَدْ كُنْتُ أَخْشَى الْهَجْرَ وَالشَّمْلَ جَامِعُ
وَفِي كُلِّ يَوْمٍ لَقِيَّةٌ وَخَطَابُ
فَكَيْفَ وَفِيمَا بَيْنَنَا مَلِكٌ قِصْرُ
وَلِلْبَحْرِ حَوْلِي زَخْرَةٌ وَعِبَابُ!
أَمِنْ بَعْدَ بَذْلِ النَّفْسِ فِيمَا تَرِيدُهُ
أَثَابُ بِمَرِّ الْعَتَبِ حِينَ أَثَابُ؟
فَلَيْتَكَ تَحْلُوَ وَالْحَيَاةُ مَرِيرَةٌ
وَلَيْتَكَ تَرْضَى وَالْأَنَامُ غَضَابُ!
وَلَيْتَ الَّذِي بَيْنِي وَبَيْنَكَ عَامِرُ
وَبَيْنِي وَبَيْنَ الْعَالَمِينَ خَرَابُ!
إِذَا صَحَّ مِنْكَ الْوُدُّ فَالْكُلُّ هَيْنُ
وَكُلُّ الَّذِي فَوْقَ التُّرَابِ تَرَابُ

أبو العلاء المعري

(363 – 449 هـ)

نشأته وحياته

هو أحمد بن عبد الله بن سليمان التنوخي نسبة إلى تنوخ إحدى قبائل اليمن. ولد هذا الفيلسوف الحكيم بالمعرة من أبوين شريفيين. فقد كان أبوه من أفاضل العلماء وجده قاضياً بالمعرة. فلما بلغ الرابعة من عمره أصيب بالجدري فذهب بيسرى عينيه وابتضت اليمنى؛ فنشأ ضريباً لا يعرف من الألوان إلا الحمرة لأنهم ألبسوه ثوباً معصفراً وهو مريض فكان هذا اللون أول ما عرف وآخر ما رأى. ولما أدرك سن التعلم أخذ أبوه يلقيه علوم اللسان العربي فتعلمها. وتلمذ بعد ذلك لنفر من علماء بلده فضم إلى صدره ما حوته صدورهم. ولم ير بعد ذلك فيمن حوله من سبقه إلى علم، أو اختص دونه بفهم، فأنشئ إلى بيته وقد ناهز العشرين من عمره، وأخذ يدرس اللغة والأدب وينقب عن دقائق اللسان وخواص التركيب حتى تفوق في ذلك وبلغ منه ما لم يبلغه أحد. وفي سنة 392 هـ غادر المعرة إلى بلاد الشام. فزار مكتبة طرابلس، وعاج على اللاذقية، وكان بها دير للرهبان فنزل به وأقام بين أهله حتى درس العهدين القديم والجديد. وبعد أن طوف في بلاد الشام عزم الرحلة إلى بغداد مبعث العلم ومستقر العلماء ليدرس الحكمة اليونانية والفلسفة الهندية. وما أحس بمقدمه البغداديون حتى تقاطروا إلى لقاءه ظمأ إلى أدبه. فأقام بينهم يأخذون عنه العلم والأدب ويبحث هو في علوم الفلسفة حتى جرى فيها شوطاً بعيداً. ووجد أبو العلاء في بغداد بيئة صالحة وأرضاً زكية لبحث المسائل وغرس المبادئ. فأخذت آراؤه تظهر وتذيع. واتصلت أسبابه هناك بجماعة من الفلاسفة الأحرار كانوا يجتمعون كل جمعة في دار أبي أحمد عبد السلام ابن الحسن البصري أحدهم فأثر خلاطها في عقله وأدبه. وما كادت علاقته تتوثق بالبغداديين حتى فوجئ على بعد المزار بنعي أمه، وكان أبوه قد توفي قبلها، فوجد عليها وجداً شديداً، ونالت منه هذه النازلة. وكان الأمراء والدهماء قد أخذوا يرتابون في عقيدته ويشكون في أمره، فاضطربت حياته، واختلفت

أطواره وأعوزه المشفق والنصير. فنظر إلى العالم بمنظار أسود، وقرر في نفسه العزلة والخروج عن الدنيا. وعاد إلى المعرة سنة 400 فاعتقل عن الناس إلا عن تلاميذه. وسمى نفسه رهن المحبسين: العمى والمنزل. وظل عاكفا على التعليم والتأليف عازفا عن ملذات الحياة لا يأكل الحيوان ولا ما ينتج منه قانعا من الطعام والحلوى بالعدس والتين. ومن المال ثلاثين دينارا موقوفة عليه في كل عام، راضيا من اللباس والفراش بغليظ القطن وحصير البردي. وحرّم على نفسه الزواج ضنا بنسله على لؤم الناس وبؤس الحياة. ولم تزل تلك حاله حتى استأثر به الله سنة 449، وقد أوصى أن يكتب على قبره هذا البيت:

هذا جناه أبي عليّ (م) وما جنيت على أحد⁽¹⁾

ولما مات وقف على قبره زهاء ثمانين ومائة شاعر فيهم الفقهاء والمحدثون والمتصوفون.

مواهبه وعقيدته

كان أبو العلاء إنسي الولادة وحشي الغريزة كما وصف نفسه؛ رقيق القلب سخيا وفيّا، قامعا لشهواته، سيء الظن بالناس، شديد الحذر منهم، قوي الذاكرة، سريع الحفظ، وقد روى عنه في ذلك الأعاجيب؛ فزعموا أنه كان يحفظ ما يفهم وما لا يفهم. وقد قال الشعر لإحدى عشرة سنة. ولم يمنعه ذهاب بصره من إجادة التشبيه ومشاركة المبصرين في ألعابهم: فقد كان يجيد لعب النرد والشطرنج ويدخل في كل باب من أبواب الهزل والجد.

وقد اختلف الناس في عقيدته، فمنهم من قال إنه ملحد يرى رأي البراهمة. وغيرهم يقول: إن شعره ككلام الصوفية له باطن وظاهر. وبعضهم

(1) اقرأ ترجمته مفصلة في كتاب (ذكرى أبي العلاء) للدكتور طه حسين. أو كتاب (أبو العلاء وما إليه) للراجكوتي. طبع بالقاهرة.

يقول: إن هذه الأشعار الضالة مدسوسة عليه من أعدائه. وأكثر الناس يرجح أنه كان شاكاً، فتارة يثبت وأخرى ينفي، ولذلك كثر التناقض في شعره ⁽¹⁾.

شعره

ينقسم شعر أبي العلاء إلى قسمين: شعر الشباب ويجمعه سقط الزند؛ وشعر الكهولة وقد وعته اللزوميات. فأما شعره في الشبيبة فكثير المبالغة، واضح التقليد بين التكلف، قلد فيه المتنبي واستمد منه أكثر معانيه، واستخف بقواعد اللغة، وجاري شعراء عصره في البديع. بيد أنه استعمل الغريب وأكثر في شعره من اصطلاحات العلوم؛ وقال في أكثر أغراض الشعر إلا في الخمر والمجون والصيد والهجاء. وقد سلم له في هذا الطور جملة من القصائد المختار في الرثاء والمدح والفخر.

(1) فبينما يقول مثلاً:

عجبت لكسرى وأشياعه	وغسل الوجوه ببول البقر
وقول النصارى إله يضام	ويظلم حياً ولا ينتصر
وقول اليهود إله يحب	رشاش الدماء وريح القتر
وقوم أتوا من أقاصي البلاد	لرمي الجمار ولثم الحجر
فوا عجباً من مقالاتهم	أيعمى عن الحق كل البشر؟

ويقول:

هفت الحنيفة والنصارى ما اهدت	ويهود حارث والمجوس مضللة
اثنان أهل الأرض: ذو عقل بلا	دين، وآخر دين لا عقل له

ويقول:

ضحكنا وكان الضحك منا سفاهة	وحق لسكان البرية أن يبكوا
تحطمتنا الأيام حتى كأننا	زجاج ولكن لا يعاد له سبك

إذ به يقول:

خلق الناس للبقاء فضلت	أمة يحسبونهم للنقاد
إنما ينقلون من دار أعمال	إلى دار شقوة أو رشاد

وأما شعره في الكهولة فقليل المبالغة والتكلف؛ قد عارض فيه المتقدمين من العرب، فأثر اللفظ الجزل والأسلوب البدوي، وركب القوافي الصعبة، والتزم ما لا يلزم، وتشدد في إتباع القياس، وأكثر من البديع والجناس، وأودع شعره في هذا الطور فلسفته وآراءه. ولكنه حشاه بالألفاظ الغريبة والتراكيب الغامضة كأنما خاف شر الناس على تلك الثمرات الفكرية فحاطها بأشواك من الكلمات حتى لا يمتد إليها بنان ولا يتذوقها لسان. وقد ابتدع في شعره مناجاة الحيوان كمحاورة الديك والحمامة، ومناظرة الذئب والشاة. وهو أحكم الناس بعد أبي الطيب. ويختص بدوره بالخيال الدقيق، وتصريف القول في الفلسفة والاجتماع وأخلاق البشر وأنظمة الحكومات والقوانين والأديان، وهو واحد الشعراء في هذه السبيل.

نثره

نثر أبي العلاء كشعره، يختلف في كهولته عنه في شببته. فقد كان كثير المبالغة، مفعماً بالغريب، متكلف السجع، كثير الاصطلاحات العلمية. ثم حكم فلسفته في نثره فقلت المبالغة، وفاضت الجمل بالمعاني. ولم تخل كتابته من غموض يعني القارئ وتطويل بملء؛ فربما كتب الرسالة إلى بعض أصدقائه فيمعن فيها ويستطرد حتى تكون كتاباً ضخماً غريب المسائل كثير الفوائد.

مؤلفاته

أكثر مؤلفاته ذهبت بها ربح الحروب الصليبية، فلم يبق إلا سقط الزند، واللزوميات، والدرعيات، والفصول والغايات، وديوان رسائله، ورسالة الملائكة، ورسالة الغفران، وهي شديدة الشبه بالملهاة الإلهية لدانتي⁽¹⁾، والفردوس المفقود لملتن⁽²⁾ لأنه تخيل رجلاً صعد إلى السماء ووصف ما شاهده هناك، وانتقد فيها الشعراء والرواة والنحاة بأسلوب روائي بديع⁽¹⁾.

(1) دانتي (Dante) زعيم الشعر الإيطالي وحبیب بیاتریس (Beatriz) ومنشئ الملهاة الإلهية (La divine Comedie) ولد سنة 1265 وتوفي سنة 1341 م.

(2) ملتن (Milton) شاعر إنجليزي شهير كان ناموساً لكرموبل فلما مات تضعض أمره وخمل ذكره، ثم كيف بصره، فكان يملئ على زوجته وابنتيه قصيدته الخالدة الفردوس

ثم عبث الوليد. وهو شرح ديوان البحري وقد طبع في دمشق. وقد فقد كتاب الأييك والغصون في مائة مجلد، وهو دائرة معارف في العلم والأدب؛

=

المفقود (Le paradig perdu) وهي ركن من أركان الشعر الإنجليزي وإحدى روائع الخيال البشري. ولد سنة 1608 وتوفي سنة 1674.

(1) قلت: فطاحل ومؤرخو الأدب الأوروبي - الأدب ونقاده - يقرون بما لا يدع مجالاً للشك، أن دانتى تأثر في هذا العمل بـ «رسالة الغفران» لأبي العلاء المعري الذي سبقه بـ 264 سنة، وأخذ الفكرة والمنهج. الشاعران تخيلاً الشعراء في العالم الآخر وهم يستغفرون ربهم من ذنوبهم العظيمة. كما قام الشاعران بإخراج مسرحية الواقع التاريخي للشخصيات المهمة في مجتمعهم وثقافتهم في إطار متخيل متقن ومدهش، تماماً كما ظهرت «رسالة الغفران» في العهد الإسلامي لفترة طويلة حين ظهرت الأفكار المنقولة والمماثلة كـ «الكوميديا الإلهية» لدانتى و«الفردوس المفقود» لمilton. الدليل الأقوى على نسخ دانتى لفكرة «رسالة الغفران» ظهر في القرن العشرين على يد مستشرق إسباني معاصر، عندما عثر على مخطوطتين لترجمتين لقصة «الإسراء والمعراج»، خلص منها إلى نظرية تثبت أن دانتى قد بنى كوميدياه على أفكار وأصول إسلامية، من بينها «رسالة الغفران» وقصة «الإسراء والمعراج».

تركت كل من «رسالة الغفران» و«الكوميديا الإلهية» على رغم صعوبة صياغتهما اللغوية وعدم سلاستهما في السرد، واسلوبهما المسجوع، بصماتهما، على أدب الرحلات إلى العالم الآخر، ومفهوم الفرد للجنة والنار والحياة الآخرة. الأدب العربي الحديث لازال عاجزاً عن تفسير وشرح «رسالة الغفران» للمعري أو التمكن من تسهيل فهم اللغة التي كتبت الرسالة، وهذا دليل آخر على عبقرية المعري الذي ثقف نفسه بنفسه ولم يعترف بدور أبيه قط في تنشئته، علماً بأنه كان يردد: هذا ما جناه أبي علي وما جنيت على أحد!! أثر «رسالة الغفران» بدا واضحاً على أعمال شعراء عرب، فقد تأثرت بها قصيدة الزهاوي القصصية المطولة بعنوان «ثورة الجحيم»، ومطولة «شاطئ الأعراف» لمحمد عبدالمعطي الهمشري، و«بين النهايتين» لمحمد سعيد السحراوي... والأخيران من شعراء الجيل الثاني لحركة أبولو.

شعور الأديبين، المعري ودانتى، بالذنب بالشك في الدين والديانة، ربما يكون سبباً لانجاز عمل أدبي عظيم يستغفران فيهما رب الكون من الذنوب. المعري ذهب إلى أبعد من ذلك باختياره آل بيت النبي محمد عليه أفضل الصلاة والسلام، سنداً للاستغفار عندما طلب العفو والمغفرة من فاطمة الزهراء رضي الله عنها والأخذ بنصح الإمام علي كرم الله وجهه. الأمر نفسه ينطبق على دانتى الذي التقى في الجنة أصحاب السيد المسيح عليه السلام، وشاهد من عذوبه في الجحيم. ربما العبرة الكبرى من قراءة النصين تكمن في أن الإيمان بالله والجنة والنار مدعاة إلى طلب البشر من المولى تعالى المغفرة وتكفير الذنوب.

ومعجز أحمد، وهو شرح ديوان المتنبي؛ وذكرى حبيب، وهو شرح ديوان أبي تمام، وغير ذلك كثير.

نموذج من شعره

قال ينعي على الحكام استبداهم بالرعية وعبثهم بمصالحها:

مل المقام فكم أعاشر أمة أمرت بغير صلاحها أمراؤها
ظلموا الرعية واستجازوا كيدها وغدوا مصالحها وهم أجراؤها
وقال في أحكام الحظ وأوهام الحياة:
تبارك أنهار البلاد سوانح بعذب وخصت بالملوحة زمزم!
هو الحظ، غير اليد ساف بأنفه خزامي وأنف العود بالذل يجزم
توهمت خيراً في الزمان وأهله وكان خيلاً لا يصح التوهم
فما النور نورا ولا الفجر جدول ولا الشمس دينار ولا البدر درهم
ومن قصيدة له في الرثاء:

صاح! هذى قبورنا تملأ الرحاب فأين القبور من عهد عاد؟
خفف الوطء ما أظن أدين الأرض إلا من هذه الأجساد
وقبيح بنا وإن بعد العهد هوان الآباء والأجداد
سر إن أسطعت في الهواء رويداً لا اختيلاً على رفات العباد
رب لحد قد صار لحداً مراراً ضاحكاً من تزاحم الأضداد
فاسأل الفرقدين عمن أحسا من قبيل وأنسا من بلاد
كم أقاما على زوال نهار وأنا را لمدلج في سواد
تعب كلها الحياة فما أعجب إلا من راغب في ازدياد
إن حزناً في ساعة الموت أضعاف سرور في ساعة الميلاد

وقال ينعي على المتزهدين المرائين من أهل الدين:

رويدك قد غررت وأنت حر
يحرم فيكم الصهباء صبحا
يقول لكم غدوت بلا كساء
إذا فعل الفتى ما عنه ينهى
وقال:

يحسن مرأى بني آدم
ما فيهم بر ولا ناسك
أفضل من أفضلهم صخرة
وقال:

خف دنيا كما تخاف سربا
والصلال التي تخاف رداها
وقال:

عجبي للطبيب يلحد في الخالق
رُبَّ روح كطائر القفص المسجون
من بعد درسه التشريحا
ترجو بموتها التسريحا

الشعر والشعراء في الأندلس

أفلت صقر قریش من شرك السفاح ونجا بنفسه وأهله إلى الأندلس. وكان الملك فيها يومئذ يضطرب بالخلاف بين المضرية واليمنية؛ والبلاد تنتظر من يلمها من شتات، ويحييها من موات، ويجمعها من فرقة؛ فكان عبد الرحمن الداخل هو الرجل الموعود والإمام المنتظر. فاستولى عليها سنة 138 هـ بمعونة اليمنية. ونشر علم بني أمية في قرطبة بعد ما طوته المسودة في دمشق. وتعاقب على عرشها من أولاده وحفدته تسعة عشر خليفة في أربعة وثمانين ومائتي عام، حتى أصابهم داء الأمم فتفرقوا وتمزقوا، وانحل ملكهم إلى دويلات صغيرة عرف أصحابها بملوك الطوائف، كبني جهور في قرطبة، وابن عباد في إشبيلية، وابن الأفطس في بطليوس.

وكانت سياسة الأمويين في الغرب غير سياستهم في الشرق، فقد كانوا في دولتهم الأولى يترفعون عن خلط الموالى، ويعنزون بعصية الجنس، فأصبحوا في هذه الدولة مدنيين، يمدون إلى القوط أسباب الاتصال بهم، ويمهدون لهم سبل الاندماج فيهم، صنع بني العباس في أبناء الفرس. فكان من نتيجة هذا الارتباط وأثر هذا الاختلاط أن حدث في الأندلس ما حدث في العراق من امتزاج الجنسية السامية بالجنسية الآرية، ونضج العقلية العربية، واستعار النهضة الأدبية، وازدهار الأندلس بحضارة إسلامية مادتها من الشرق وبناتها⁽¹⁾ من العرب، لأن أوربا يومئذ كانت تخبط في دياجير الجهالة، وترسف في أغلال الأمية، فاقتبس الأسبان ثقافة العرب فاعتقدوا دينهم، وتكلموا لغتهم، وتعلموا أدبهم، وهجروا اللاتينية وآدابها حتى أنسوا، وحتى جأ بالشكوى من هذا

(1) أما حضارة الإسلام في بغداد فكانت من صنع الفرس والسريان والهنود، لأن العرب كانوا يومئذ وراث بدواة وجهالة، وهؤلاء كانوا وراث ملك وحضارة وفلسفة وعلم، فانتقل كل أولئك إلى الإسلام بانتقالهم إليه.

الحال كاهن⁽¹⁾ قرطبة ولكن القسيسين أنفسهم لم يستطيعوا الوقوف بنجوة من هذا السيل فجرفهم جرفاً حتى اضطهرهم إلى نقل كتب الدين إلى اللغة العربية.

وكان الأمويون وعرب الأندلس لا ينفكون ملتفتين إلى الشرق موطن الجنس والدين واللغة والأدب والحضارة فيسيرون على ضيائه، ويستمدون من زعمائه وعلمائه، ويحذون في سياستهم وإدارتهم حذو العباسيين، فيشيدوا المدارس لجامعة، وأنشئوا المكاتب العامة، ونشطوا حركة التأليف، وأذكوا نهضة الأدب، ورفعوا مجد الفنون، وعقدوا مجالس المناظرة والمسامرة والغناء. بلغت الأندلس من ذلك كله الحظ الوفور في عهد عبد الرحمن الثاني (206 - 238 هـ) وبلغت أوج سلطانها وغاية عمرانها وتمام بنيانها في عصر أمير المؤمنين عبد الرحمن الثالث (300 - 350) وابنه الحكم، وهو عصرها الذهبي الذي بلغت فيه من السطوة والقوة والثروة والوحدة والحضارة والعمارة والفن والأدب ما كادت تضارع به بغداد، وما أدهشت به المؤرخ دوزي حتى قال: "إن عبد الرحمن الناصر أولى أن يكون من ملوك العصر الحديث لا من ملوك القرون الوسطى". وهكذا كانت حضارة الإسلام تشع في بغداد وقرطبة في وقت واحد فتبدد دياجير الشرق وتكشف مجاهيل الغرب، ولكن تمام الشيء مبدأ نقصانه: فلك تكد خلافة الحكم ابن الناصر تنتهي حتى درب في خلافة بني مروان ديبب البلى والهزم، وآل سلطانها إلى ملوك الطوائف فاضطلعوا به قليلاً ثم أوهن كواهلهم داء الانقسام وفساد النظام. وغاداهم المرابطون من البربر فقوضوا أركانهم، ونازعوا سلطانهم؛ ورواحهم الفرنج متكاتفين فاستلبوا الملك من أيديهم مدينة بعد مدينة، حتى تمت

(1) قال هذا الكاهن ما ملخصه عن كتاب تاريخ العرب في أسبانيا لدوزي ج 2 ص 103. إنا نحب أن نقرأ الشعر والقصص وندرس الدين والفلسفة في اللغة العربية فتتعلم لغة الألفاظ بليغة الأداء جميلة الإنشاد، ولا تكاد تجد فينا من يقرأ الكتب المقدسة باللغة اللاتينية، وشبابنا الأذكيا جميعاً لا يعرفون غير لغة العرب وآدابهم. وكلما قرأوا كتبها ودرسوا أدبها أعجبوا بها، فإذا حدثهم عن كتاب من الكتب اللاتينية سخروا منه وقالوا إن الفائدة منه لا تساوي التعب في قراءته. وهكذا نسي المسيحيون لغتهم، وجهلوا كتابتها وبلاغتها. وحذقوا اللسان العربي حتى ليكتبونه نثراً ونظماً بأسلوب أنيق، وتصوير دقيق، ويفرقون فيه العرب أحياناً.

الهزيمة وعم الجلاء بفرار أبي عبد الله محمد ابن علي من غرناطة سنة 898 هـ وكان ذلك آخر عهد العرب والعربية بالجزيرة.

ذلك مجمل من القول في حال العرب بالأندلس سقناه إليك تمهيداً لما سنلم به إماماً من وصف شعره وذكر نفر من شعرائهم.

وليس من غرضنا أن نعرض هنا لدراسة الشعر الأندلسي فنفصله ونحلله، وإنما هي لمعة وجيزة تكشف عن مناهجه ومناحيه، وتبين تأثير البيئة والطبيعة فيه. فقد وجد الشعراء العرب في أوروبا ما لم يجدوه في آسيا من الحياة المتنوعة، والجواء المتغيرة، والمناظر المختلفة، والأمطار المتصلة، والخمائل الجميلة، والأدواح الظليلة، والأنهار الروية، والسهول الغنية، والجبال المؤزرة بعميم النبات، والمروج المطرزة بألوان الزهر؛ فصفت أذهانهم، وسما وجدانهم، وعذب بيانهم، ووسعوا دائرة الأدب، وهذبوا الشعر فتأنقوا في ألفاظه، وتنوقوا في معانيه، ونوعوا في قوافيه، وتفننوا في خياله، ودبحوه تدبيج الزهر، وسلسلوه سلسلة النهر، وأكثروا من نظمه في البحور الخفيفة القصيرة، حتى ضاقت أوزان العروض عما تقتضيه رقة الحضارة ورقى الغناء. فاستحدثوا الموشح باللغة الفصحى، ثم تطور عند انحطاط الأدب واضمحلال أمر العرب إلى الزجل باللغة العامية.

وصرفوا الشعر في أغراض شتى كالمدح والغزل والرثاء والدعاء والزهد والتصوف والفلسفة والمراح والمجون وعالجوا سياسة الاجتماع، ونظموا حوادث التاريخ، وأبدعوا ما شاء الإبداع في الوصف: فوصفوا الأبنية والتماثيل والقصور والبرك والنوافير والنواعير والحدائق والمروج والأودية والأديرة والأنهار والأشجار والرياح ومجالس الطرب؛ وكل ذلك في حلاوة لفظ ورقة أسلوب ودقة صنعة. إلا أن شعرهم على الجملة جار مجرى الشعر الشرقي، فلم يتعد حدوده ولم يكسر قيوده إلا بمقدار ما ذكرناه لك من ابتداع الموشح وتنويع القافية؛ وذلك لاعتقادهم أنه هو الأصل يرجع إليه والقالب الذي يضرب عليه.

ولئن صح من بعض الوجوه ما يتقول به أدباء الفرنج من أن الشعر العربي تصنع في اللفظ، وتعمل في الشكل، وليس فيه خيال رائق، ولا شعور صادق⁽¹⁾ فلن يصح هذا القول بحال في شعراء الأندلس. فإنهم عبروا عن عواطفهم وترجموا عن مشاعرهم، بلفظ جيد وأسلوب أنيق فطافوا⁽²⁾ على قرائهم بأكواب من ذهب فيها ما تشتهي الأنفس. وإنك لترى في وصفهم مناظر الطبيعة وتصويرهم وجوه الأرض مشابهة لأشعار الفرنج. ولقد أخذ الفرنسيون والأسبان عن عرب الأندلس غير العلم والموسيقى وفن العمارة، ضروباً شتى من الشعر، كالمدح والهجاء والغزل، كما أخذوا عنهم القافية، وكانوا من قبل يكتفون باتحاد الحروف الصوتية الأخيرة (assonance) غير ناظرين إلى ما بعدها⁽³⁾.

ولو طال على الأندلسيين الأمد في الحضارة، وتعاقت أطوار الرقي على اللغة وآدابها لأتوا بأبلغ مما جاء به روسو وهوجو ولامرتين وأضرابهم. ولكن

(1) على أن من مناصفي كتاب الفرنج من نقض هذا الحكم كالأستاذ جول لومتر (1853 - 1914) (Jules Lemaitre) إذ يقول في مقدمته لكتاب حديثه الزهور لوصف باشا غالي " إن الشعر العربي على جملة أنقى شعر عرفه العالم يما حوى من العواطف الرقيقة؛ وهو أقرب الأشعار إلى معاني الرجولة والشرف والحياء الصحيح والإيمان القوي ".

(2) إشارة إلى من شبه معاني الشعر العربي في وحدتها وتنوع ألفاظها بشراب من نوع واحد يسقى بأنية مختلفة، فمنها الذهب والفضة والبلور والخزف.

(3) كان التروبادور (Les Troubadours) وهم شعراء جنوب فرنسا في القرون الوسطى، ينتقلون من قصر إلى قصر منتجين الأمراء والوجهاء بالمدح، وكانت أشعارهم خلواً من القافية فاقبسوها من عرب الأندلس بطبيعة الجوار والخلاط، كما اقتبسوا في النظم أنواع الغزل والمدح والهجاء، وفي الشر القصص والأمثال والملح. وإنما خفي ذلك الثر العربي في الأدب الفرنسي الحديث لأن الغلبة كانت لأهل الشمال وللغتهم أويل (Oil) ولشعرائهم التروفير (Les trouvered).

وقال لويس فياردو (Louis Viardot) في الجزء الثاني من كتاب تاريخ العرب والبربر في اسبانيا: " كان الشعر الفرنسي على مثال الشعر الأسباني المأخوذ عن الشعر العربي لا عن اليوناني ولا عن الروماني، لأنهم لم ينفوا على هذا ولا ذاك قبل القرن الرابع عشر حتى يقلدوه... ولقد أخذنا صناعة الشعر والقوافي عن العرب. وهذه الصناعة جاءتنا من الأندلس عن طريق مرسيليا وطولون مع التجار الأسبان الذين كانوا يفدون إليهما... ".

فاجأهم الانقسام، وداهمهم الخصام، فانشقت عصاهم، وانفصمت عراهم،
ونضبت قرائحهم وأمحلت عقولهم، وذهبوا كأمس الدائر، سنة الله في خلقه
ولن تجد لسنة الله تبديلاً.

نماذج من الشعر الأندلسي

قال أبو الفضل ابن شرف القيرواني:

مطل الليل بوعدِ الفلق
ضربت ريح الصبا مسك الدجى
وألح الفجر خد خجلا
جاوز الليل إلى أنجمه
واستفاض الصبح فيها فيضه
فانجلي ذاك السنا عن حلك
يأبى بعد الكرى طيف سرى
زارني والليل ناع سدفه
ودموع الطل تمرىها الصبا
فتأبى في إزار ثابت
وتجلى وجهه عن شعره
نهب الصبح دجى ليلته
سلبت عيناه حدى سيفه

وقال ابن حمديس الصقلي يصف ديراً وراهبة تباع الخمر:

وراهبة أغلقت ديرها
هدانا إليها شذى قهوة
طرحت بميزانها درهمي
تفرس في شمسه طيها
فكننا مع الليل زوارها
تذيع لأنفك أسرارها
فأجرت من لدن دينارها
مجيد الفراسة فاخترها
عصير الخمور وأعصارها
فتى دارس الخمر حتى درع

يَعْدُ لما شئت من قهوة
وعدنا إلى هالك أطلعت
يرى ملك اللهو فيها الهموم
وقد سكنت حركات الأسى
فهذى تعانق لي عودها
وراقصة لقطت رجلها
وقضب من الشمع مصغرة
كأن لها عمداً صفقت
إلى أن قال:

ذكرت صقلية والأسى
ومنزلة للتصابي خلّت
فإن كنت أخرجت من جنة
ولولا ملوحة ماء البكاء
وقال ابن هانئ يصف أكلها:

يا ليت شعري، إذا أومى إلى فمه
كأنها - وخبيث الزاد يضرهما -
تبارك الله ما أمضى أسنته
كأن بيت سلاح فيه مختزن
أين الأسنة أم أين الصوارم أم
كأنما الحمل المشوي في يده
لف الجداء بأيديها وأرجلها
أحلقه لهوات أم ميادين؟
جهنم، قذفت فيها الشياطين
كأنما كل فك منه طاحون
مما أعدته للرسل الفراعين
أين الخناجر أم أين السكاكين
ذو النون في الماء لما عضه النون
كأنما افترستهن السراجين

وغادر البك من مشى وواحدة
 كأنما اختطفتهن الشواهين
 يخفض الرز من قرن إلى قدم
 وللبلاعيم تطريب وتلحين
 كأنما كل ركن من طبائعه
 نار، وفي كل عضو منه كانون!
 كأنما في الحشا من حمل معدته
 قرنفل وجراريش وكمون
 قوموا بنا فلقد ريعت خواطرنا
 وجاذبتنا أعتتها البراذين
 نصحتكم، فخذوا من شذقه وزراً
 أولاً، فأنتم سوبق فيه مطحون

وقال المعتمد ابن عباد صاحب إشبيلية وقد دخل عليه في سجنه بناته يوم عيد في أطمار بالية بعد أن سلمه ابن تاشفين ملكه وسجنه بأغمات:

فيما مضى كنت بالأعياد مسرورا
 فساءك العيد في أغمات مأسورا
 ترى بناتك في الأطمار جائعة
 يغزلن للناس ما يملكن قطميرا
 يطأن في الطين والأقدام حافية
 كأنها لم تطأ مسكاً وكافورا
 أفطرت في العيد لا عادت إساءته
 فكان فطرك للأكباد تفتيرا
 قد كان دهرك إن تأمره ممثلاً
 فردك الدهر منها ومأمورا
 من بات بعدك في ملك يسر به
 فإنما بات بالأحلام مغرورا

وقال ابن دراج القسطلي من قصيدة يصف وداعه لزوجته وولده الصغير:

ولما تدانت للوداع وقد هفا
 بصبري منه أنه وزفير
 تناشدني عهد المودة والهوى
 وفي المهد مبغوم النداء صغير
 عيئي بمرجوع الجواب، ولفظه
 بموقع أهواء النفوس خبير
 تبوأ ممنوع القلوب ومهدت
 له أذرع محفوفة ونحور
 وطار جناح البين بي وهفت بها
 جوانح من دعر الفراق تطير
 ولو شاهدتني والهواجر تلتظي
 علي ورقراق الشراب يمور
 أسلط حر الهاجرات إذا سطا
 على حر وجهي والأصيل هجير

واستنشق النكباء وهي لوافح
وللموت في عين الجبان تلون
لبان لها أني من البين جازع
وقال الوزير ابن زيدون وهو سجين:

ما على ظني باس
ربما أشرف بالمرء
ولقد ينجيئك إغفال
والمحاذير سهام

ولكم أجدي قعود
وكذا الحكم: إذا ما
وبنو الأيام أخيف
نلبس الدنيا، ولكن

يا أبا حفص وما سا
من سنا رأيك لي في (م)
لا يكن عهدك وزداً
وأدر ذكرى كأساً

واغتنم صفو الليالي
ما ترى في معشر حالوا
أذؤب هامت بلحيمي
كلهم يسأل عن حالي

إن قسا الدهر فللماء
وأستوطئ الرمضاء وهي تفور
وللذع في سمع الجريء صفير
وأني على مض الخطوب صبور

يجرح الدهر ويأسو
على الآمال ياس
ويريدك احتراس
والمقادير قياس

ولكم أكدي التماس!
عز ناس ذل ناس
سراة وخساس
متعة ذاك اللباس

واك في فهم إياس
غسق الخطب اقتباس
إن عهد لي لك آس
ما امتطت كفك كاس

إنما العيش اختلاس
عن العهد وخاسوا؟
بانتها ب وانتها
، وللذئب اعتساس

من الصخر انجاس

ولئن أمسيت محبوسا فللغيث احتباس
 ويفت المسك في الترب فيوطاً ويداس
 ومن أجود موشحاتهم قول ابن بقي:
 خذ حديث الشوق عن نفسي وعن الدمع الذي همعا

ما ترى شوقي قد وقدا
 وهما دمعي واطردا
 واغتدى قلبي عليك سدى!

آه من ماء ومن قيس بين طرفي والحشا جُمعا!

بأبي ريم إذا سفرا
 أطلعت أزاره قمراً
 فاحذروه كلما نظرا

فبالحافظ الجفوق قسى أنا منها بعض من صرعاً
 وقال بعضهم:

ما للمؤلّه من سكره لا يفوق
 يا له سكرانا!

من غير خمّر ما للكئيب المشوق
 ينذب الأوطاننا

هل تستعاد أيامنا بالخليج
 وليالينا

أخذت عيناه منه العريدة
فاحم الجمّة معسول اللمى
وجهه يتلو الضحى مبتسما
وفؤادي سكره ما إن يفيق
أكحل اللحظ شهى اللعس
وهو من إعراضه في عبس

شعراء الأندلس

ابن عبد ربه

(246 - 328 هـ)

نشأته وحياته

هو أبو عمر أحمد بن محمد بن عبد ربه الأموي بالولاء، لأن جده كان مولى لهشام ابن عبد الرحمن الداخل ثاني خلفاء الأمويين بالأندلس. ولد هذا الكاتب الشاعر بقرطبة ونشأ بها، ثم تخرج على علماء الأندلس وأدبائها وامتاز بسعة الاطلاع في العلم والرواية، وطول الباع في الشعر والكتابة. قال ياقوت في معجمه: "وكان لأبي عمر بالعلم جلالة وبالأدب رياسة وشهرة مع ديانة وصيانة، واتفقت له أيام وولايات للعلم فيها نفاق، فساد بعد الخمول، وأثرى بعد الفقر، وأشير إليه بالفضل، إلا أنه غلب عليه الشعر" ثم أصيب في أعقاب عمره بالفالج. وتوفي سنة 328 هجرية.

شعره

أكثر شعر ابن عبد ربه وأجمله في الوصف والغزل. وهو أشبه بشعر ابن زيدون في الجمع بين روعة الشرقيين وجزالتهم، ورقة الغربيين وسلاستهم. وهو أكثر ترديداً لأخبار المشاركة وأصبح تقليداً لأشعارهم. وقد اتصلت شهرته بهؤلاء فرووا شعره، ورددوا ذكره، وشهدوا له بالتقدم والإجادة. روى ابن الخطيب أن الوليد الأندلسي لما حج عرج في منصرفه على مصر، فلقي بها أبا الطيب المتنبّي في جامع عمرو ابن العاص، فأفاض في الحديث ملياً، ثم قال المتنبّي: ألا تشدني لمليح الأندلس؟ يعني ابن عبد ربه. فأنشده الوليد شيئاً من شعره، فصفق له واستعاده ثم قال: "يا ابن عبد ربه لقد تأتيتك العراق حبوا!" وكفى بشهادة المتنبّي دليلاً على فضل الرجل وعلو كعبه. وابن عبد ربه من الشعراء المكثرين. فقد رأى الحميدي من شعره عشرين جزءاً ونيفاً من جملة ما جمع للحكم ابن عبد الرحمن الناصر أكثرها بخطه. وقد زين كتابه العقد الفريد بكثير منه في كل معنى. وقال في مقدمته: "وحليت كل كتاب منها

بشواهد من الشعر تجانس الأخبار في معانيها، وتوفقها في مذاهبها وقرنت منها غرائب من شعري ليعلم الناظر في كتابنا هذا أن لمغربنا على قاصيته، وبلدنا على انقطاعه، حظاً من المنظوم والمنثور."

وهو من السابقين إلى اختراع الموشحات، وله طبع في الشعر القصصي وهو قليل في العربية. من ذلك أرجوزته في تاريخ عبد الرحمن الناصر صاحب الأندلس في عصره، ولكنها إلى الشعر التعليمي (Didactique) أقرب منها إلى الشعر القصصي (Epique) لجفافها وضعف خيالها وبعدها عن قواعد الملحمة، وهي منشورة في الجزء الثاني من العقد الفريد.

ولما تناهت به السن وأرعشه الكبر، ألق عن صبوته، وأخلص لله في توبته، ونظم أشعاراً كثيرة سماها بالممحصات لأنه نقض كل قطعة قالها في الغزل واللهو، بقطعة من بحرهما ورويهما في الموعظة والزهد ولم يكتف ابن عبد ربه بنبوغه في الشعر وتفوقه في النثر، فأراد أن يدل على براعته في التأليف أيضاً، فصنف كتاباً في الأدب سماه العقد الفريد.

العقد الفريد

وهو كتاب من أمهات كتب الأدب، جامع لتشيت الفوائد ومنثور المسائل في الأخبار والأنساب والأمثال والشعر والعروض حتى الطب والموسيقى. وقد استوعب خلاصة ما دون من كتب الأصمعي وأبي عبيدة والجاحظ وابن قتيبة وغيرهم. ولم يقتصر على المأثور عن العرب بل وشى كتابه بما ترجم عن اليونان والفرس والهنود من ضروب الحكمة والموعظة والملح. وقد تأثق في تبويبه وتفنن في ترتيبه، فقسمه إلى خمسة وعشرين كتاباً في موضوعات شتى بدأ كلا منها بمقدمة بليغة من إنشائه تبين الغرض منه؛ وسمي كل كتاب بجوهرة من جواهر العقد كاللؤلؤة والفريدة والزبرجدة والجمانة والمرجانة والياقوتة والجوهرة الخ.

ومن الغريب أن المؤلف وهو أندلسي لم يشر إلى الأندلس ولا إلى أهلها بكلمة، اللهم إلا إلى نفسه! حتى إن صاحب ابن عبدا لما سمع بهذا الكتاب حرص حتى حصل عليه. فلما تصفحه قال: "هذه بضاعتنا ردت إلينا. ظننت أن

هذا الكتاب يشتمل على شيء من أخبار بلادهم، فإذا به يشتمل على أخبار بلادنا. لا حاجة لنا به، ثم رده ". والكتاب في ثلاثة مجلدات تزيد صفحاتها على ألف صفحة وقد طبع بالقاهرة أخيراً في خمسة مجلدات.

نموذج من شعره

قال في الغزل:

يا لؤلؤا يسبي العقول أنيا ورشاً بتقطيع القلوب رقيقاً
ما إن رأيت ولا سمعت بمثله درأً يعود من الحياء عقيقاً
وإذا نظرت إلى محاسن وجهه أبصرت وجهك في سناه غريقاً
يا من تقطع خصره من رقة ما بال قلبك لا يكون رقيقاً؟
وقال في موقف الوداع:

ودعتني بزورة واعتناق ثم نادت متى يكون التلاقي!
وبدت لي فأشرق الصبح منها بين تلك الجيوب والأطواق
يا سقيم الجفون من غير سقم بين عينيك مصرع العشاق
إن يوم الفراق أفضح يوم ليتني مت قبل يوم الفراق!
وقال في وصف رمح وسيف:

بكل رديني كأن سناناه شهاب بدا في ظلمة الليل ساطع
تقاصرت الآجال في طول متنه وعادت به الآمال وهي فجائع
وذي شطب تقضي المنايا لحكمه وليس لما تقضي المنية دافع
يسلل أرواح الكماة انسلاله ويرتاع منه الموت والموت رائع
وآخر شعره قاله قوله:

بليت وأبلتني الليالي بكّرّها وصرفان للأيام معثوران
ومالي لا أبالي لسبعين حجة وعشر أتت من بعدها ستتان
ولست أبالي من تباريح علتي إذا كان عقلي باقياً ولساني

ابن هانئ الأندلسي

(326 - 362 هـ)

نشأته وحياته

ولد أبو القاسم محمد بن هانئ الأزدي الأندلسي بإشبيلية في زهر العهد الأموي. وفي أوج عصره الذهبي، وفي حكم الملك الناصر. وكانت إشبيلية إذ ذاك أخصب بلاد الأندلس علما وأدبا، فنشأ بها ودرس الأدب العربي على النمط المألوف. يومئذ من السماع والحفظ والإنشاد والمحاكاة، وأبوه هانئ يعضده ويرشده لأنه هو نفسه أديب يعيش على الأدب ويتكسب بالشعر. واستهوى شاعرنا ما عليه طائفة الشعراء من النعمة والثراء فسلك سبيلهم وتبع دليهم، حتى اتصل بصاحب إشبيلية فنال حظوته وكسب محبته. وكانت ثمار الحضارة الأندلسية من السرف والترف واللهو قد بدت في ذلك الحين، فقطفت ابن هانئ منها باليدين ولم يجد له رادعاً من خلق ولا وازعاً من دين. وأخذ بشيء من مذاهب الفلاسفة والأندلسيون على نقیض الشرقيين يمتنون البدعة وينصرون السنة وينكرون الفلسفة ويصدون عن البحث في الدين، فتألب أهل إشبيلية عليه، وكادوا يصلون بالأذى إليه. واتهموا الملك بمشايعته على رأيه، فأشار عليه أن يغيب ريشما تهدأ ثائرة القوم وينسونه. فرحل إلى عدوة المغرب وعمره ست وعشرون سنة، فلقي القائد جوهرًا فاتح مصر لمعز فمدحه. وأخصب زرع آماله فوصله الجد الميمون بالمعز لدين الله العبيدي فاصطفاه إليه وأغدق إحسانه عليه. ولما خرج المعز يريد مصر بعد أن فتحها جوهر وراض له الأمر فيها شيعه ابن هانئ وتخلف عنه ليأخذ عياله وماله ثم يلحق به إلى مصر. فلما كان طريقه إليها عرج على برقة ونزل في ضيافة رجل من أهلها، فأقام عنده يقصف ويلهو، حتى أمعن ذات يوم في الشراب فسكر سكرة أفضت به إلى سكرة الموت. فقيل: إن نداماه من أهل ضيافته عربدوا عليه وقتلوه، أو إنه خرج من الدار وهو سكران طافح فصرعته الخمر في الطريق فمات، وعمره ست وثلاثون سنة. فلما بلغ المعز وفاته أسف عليه وقال: " هذا الرجل كنا نرجو أن نفاخر به شعراء الشرق فلم يُقدَّر لنا ذلك ".

أخلاقه

كان ابن هانئ ماجناً خليع العذار صاحب لهو وخمر. وكان ذكي الفؤاد فكه الأخلاق جم الأدب صريح القول والفعل لا يبالي أين يقع ذلك من الناس ومصدق تلك الصفات فيه مجاهرته بآراء تنكرها بيئته، وترفضها طبقته ومبالغته في شعره إلى حد الكفر، والشاعر دون الفيلسوف أحرص الناس على رضا الناس. ناهيك بميئته الداعرة التي قل أن ماتها رجل.

شعره

ابن هانئ على رأي الجمهور أمير شعراء الأندلس غير مدافع. وفي هذا الرأي على إطلاقه إجحاف بأمثال ابن زيدون. على أن شعره من الطبقة العالية التي تجمع بين سلاسة التفكير، وسلامة التعبير، ومعالجة كثير من مسائل الحياة وأحوال الاجتماع وخوارج النفس. وقد اطلع⁽¹⁾ على شعر المتنبي وهو معاصره فأعجب بأسلوبه ومذهبه وسار على مناهجه وانتم بهديه: فهو مثله يذهب في الشعر مذهب الفلاسفة، وينثر في ثنائه مدحه الحكم والأمثال، ويتخذ من حياته

(1) يؤيد ذلك قصيدته الرائية التي كتبها إلى رجل زعم أن لقي المتنبي وقرأ عليه شعره فاستعاره ابن هانئ الديوان فأعاره إياه ثم أساء معاملته في تقاضيه:

ومطلعها:

تنبأ المتنبي فيكم عصراً ولو أرادكم في شعره كفراً

ومنها:

تهتم عليه بمراة وخلتكم لم تدركوا منه لا عيناً ولا أثراً

ومنها:

أريتموني مثلاً من روايتكم كأعجمي أتى لا يفصح الخبرا

ومنها:

فلو رأى ما دهاني في كتابكم وما دهى شعره فيكم لما شعرا

ومنها:

أعرتموني نفيساً منه في آدم فمن لكم أن تعاروا البحث وانظرا

الخاصة مورداً لشعره، ويكثر من ذكر الحرب والقوة والغلب، ويجيد وصف ما يراه ويسمعه إجابة نادرة، ولذلك سموه متنبى الغرب على عادة المغاربة من حب التشبه بفحول المشاركة. ولكن بين الرجلين من التفاوت والبعد ما بين الوجه والبدر، والعزيمة والدهر، والكرم والبحر، في هذه التشابيه المعروفة. فستان بين ما يصدر عن طبع وبين ما يصدر عن تقليد. وكأن هذه الموازنة أثارت سخط أبي العلاء، وعصبيته للمتنبى شديدة كما تعرف، فقال في ابن هانئ: "ما أبه إلا برحاً تطحن قروناً لأجل القعقعة التي في ألفاظه" ومن يدري؟ فلو أن الله نساء في أجل ابن هانئ فلم تأخذه المنون عبطة لأحكمته السن وصقلت شعره التجارب وكان للتاريخ فيه رأي آخر.

أما الأغراض التي قال فيها فالمدح وهو معظم شعره، والغزل ولا يقوله إلا ابتداء لقصيدة أو ابتغاء لتقليد؛ والرثاء والوصف وهو فيهما مقل مجيد. وقد شغله ما شغل المتنبي عن الطبيعة وأسرارها ومناظرها فلم يكن لها في شعره غير حظ ضئيل.

نموذج من شعره

قال من قصيدة في الرثاء وهي من أجود شعره:

إننا وفي آمال أنفسنا	طول وفي أعمارنا قصر
لنرى بأعيننا مصارعنا	لو كانت الأبواب تعتبر
مما دهاننا أن حاضرننا	أجفاننا والغائب الفكر
وإذا تدبرنا جوارحننا	فأكلهن العين والنظر
لو كان للأبواب ممّتحن	ما عد منها السمع والبصر
أي الحياة ألد عيشتها	من بعد علمي أنني بشر
خرست لعمر الله ألسننا	لما تكلم فوقنا القدر

ومنها:

وإذا صبحت العيش أوله صفواً، فهين بعده الكدر

وإذا انتهيت إلى مدى أمل
ولخير عيش أنت لابسه
ولكل حلبة سابق أمد
وحدود تعمير المعمر أن
والسيف يلى وهو صاعقة
والمرء كالظل المديد ضحى
ويقول في ختامها:

غرض ترامي في الخطوب، فذا
فجزعت حتى ليس بي جزع
وقال في الغزل:

أمسحوا عن ناظري كحل السهاد
أو خذوا مني ما أعطيتم
هل تجيرون محباً من هوى؟
أسلوا منكم من هجركم
إنما كانت خطوب قيضت
فعلى الأيام من بعدكم
لا مزار منكم يدنو سوى
قل تنويل خيال منكم
لم يزدنا القرب إلا هجرة
وإذا شاء زمان رابنا
وانفضوا عن مضجعي شوك القتاد
لا أحب الجسم مسلوب الفؤاد
أو تفكون أسيراً من صفاد؟
قلما يسلو عن الماء الصوادي!
فعدتنا عنكم إحدى العوادي
ما على الظلماء من لبس الحداد
أن أرى أعلام هضب أو نجاد
يطبي بين جفون ومهاد
فرضينا بالتئتائي والبعاد
برقيب أو حسود أو معادي

ومن قصيدة له يمدح جوهرًا ويصف جيشه وهو ذاهب إلى فتح مصر:

رأيت بعيني فوق ما كنت أسمع
غداة كأن الأفق سد بمثله
فلم أدر إذا سلمت كيف أشيع
وكيف أخوض الجيش والجيش لجة
فلا عسكر من قبل جوهر
وقال في المدح:

أبني العوالي السمهرية والسيوف
من منكم الملك المطاع كأنه
القائد الخيل العتاق شوازيماً
شعث النواصي حشرة أذانها
تنبو سنا بكهن عن عفر الثرى
جيش تقدمه الليوث وفوقه
ويقوده الليث الغضنفر معلماً
في فتية صداً الدروع عيبرهم
لا يأكل السرحان شلو طعينهم
قوم يبيت على الحشايا غيرهم
وتظل تسبح في الدماء قبابهم
فحياضهم من كل مهجة خال
حي من الأعراب إلا أنهم
وقوله في وصف الخيل:

وقد راعني يوم من الحشر أودع
فعاد غروب الشمس من حيث تطلع
ولم أدر إذ شيعت كيف أودع
وإني بمن قاد الجيوش لمولع
تخب المطايا فيه عشراً وتوضع

المشرفية والعديد الأكثر
تحت السوابغ تبع في حمير
خزراً إلى لحظ السنان الأخرز
قب الأياطل، داميات الأنسر
فيطآن في خد العزيز الأصعر
كالغيل من قصب الوشيخ الأسمر
في كل شنن اللبدتين غضنفر
وخلوقهم علق النجيع الأحمر
مما عليه من القنا المتكسر
ومبنيهم فوق الجياد الضمر
فكأنهن سفائن في أبحر
وخيامهم من كل لبدة قسور
يردون ماء الأمن غير مكدر

هضب، ولا البيد الحزون حزون

وصواهل، لا الهضب يوم مغارها

عرفت بساعة سبقها، لا أنها علقـت بها يوم الرهان عيون
وأجل علم البرق عنها أنها مرت بجانحيه وهي ظنون

ابن زيدون (394 - 463 هـ)

نشأته وحياته

ولد أبو الوليد أحمد ابن عبد الله ابن زيدون بقرطبة سنة 394. وكان أبوه من وجوه الفقهاء وعيون الأدباء، فدرس عليه وعلى غيره الأدب والعلوم. ورزق في الإنشاء قريحة طيبة وطبعاً سليماً. وسمت به كفايته ومكانته إلى أن وزر لأبي الحزم ابن جهور أحد ملوك الطوائف بالأندلس، فاشتهر أمره وارتفع قدره. وألقى إليه مقاليد الأمور فدبرها وساسها بحذق وكياسة: وكثيراً ما سفر بين مولاه وملوك الأندلس فأحسن سفارة وفض المشكل. ثم دبّت بينهما عقارب السعاية، فنقم عليه ابن جهور وسجنه، ولم يشفع له سالف خدمته ولا سابق حرمة. فكتب إليه رسالة فريدة يستمطر بها رحمته، ويستدفع نقمته، فلم يلب لها ذلك القلب الجامد. ففر من سجنه واختفى بقرطبة حتى استشفع بأبي الوليد ابن جهور إلى أبيه فشفعه. وظل في حماية هذا الأمير حتى آل الملك إليه بعد أبيه فاستصحبه وقربه. ولكن صلاته السياسية بصاحب مالقة أحفظت عليه ابن جهور فنفاه. فلجأ إلى المعتضد عباد صاحب إشبيلية سنة 441 فاستخلصه إليه، وعول في أموره عليه. ثم وزر لابنه المعتمد وقضى في إشبيلية بقية عمره.

فأنت ترى من هذا المجمع أن حياة ابن زيدون العامة كانت مضطربة شاقة، ولم تكن حياته الخاصة بأقل منها اضطراباً ولا مشقة. فقد ابتلى وهو في قرطبة بحب ولادة بنت المستكفي أحد خلفاء بني أمية، وكانت شهيرة بالجمال والأدب شاعرة، سافرة، تساجل الشعراء وتجادل العلماء وكانت دارها نادياً من أندية قرطبة يغشاها الأمراء والوزراء والأدباء والقادة، وفي هؤلاء ابن زيدون، وكانت فيه خفة روح وحسن دعاية وبراعة أدب، فسبق المتنافسين إلى قلب ولادة فاحتله. وبادلتته هي هذا الحب، فأذكى هذا الفوز نار الحسد في قلوب منافسيه ومزاحمييه، فسعوا في إفساد ذات بينهما. واشتهر منهم الوزير أبو عامر ابن عبدوس وهو عظيم الحول والطول، فتزلف إلى ولادة في ساعة من

ساعات مللها من ابن زيدون فظفر برضاها: ثم عاد الحب إلى مجراه الأول فرجعت إلى ابن زيدون، فكتب إلى ابن عبدوس رسالة هزلية ضافية الذيل عن لسان ولادة أشبعه فيها تقريعاً وسخرية، وضمنها كثيراً من الملح في الأدب والتاريخ.

شعره

شعر ابن زيدون هو الصورة الصحيحة لشعر الأندلس، لانبجاسه من أعماق فؤاده، وانبعاثه من طبيعة بلاده. فلم يجز جريان ابن هانئ وراء شعراء المشرق يحاكيهم ويحتذيهم. لأنه لم يتخذ الشعر وسيلة من وسائل الرزق، ولا سبيلاً من سبل الشهرة، وإنما كان يشعر لنفسه، ويعبر عن نزوات حسه. وهو آخر شعراء بني مخزوم وأول معاصريه رقة ودقة. تقرأ في شعره أجود ما خصت به الطبيعة الأندلسيين من وصف المناظر، وشرح العواطف، وسمو الخيال، وصفاء الديباجة. وقد ظهر أحياناً على فخره ومدحه علائم الضعف، إلا أنك لا تجد ذلك إذا تغزل أو تشوق أو استعطف، فإن طبعه في هذه الأغراض فياض، وقلمه لشرحها مجيد. وسبب ذلك ما قاساه من ظلم ابن جهور له. وما عاناه من نفور ولادة منه وبعدها عنه.

وقد تضلع ابن زيدون من أشعار العرب وأساليهم في الكتابة والخطاب حتى قيل أنه أصيب في بعض حرمه فقعد للعزاء عنها، وأقبل الناس على اختلاف طبقاتهم يعزون، فما أجاب أحداً بما أجاب به غيره لسعة ميدانية وحضور جنانه، وإنك لتجد أثر هذا الاطلاع بدياً فيما يضمنه نشره وشعره من الأمثال والتشابه والملاح.

نثره

لابن زيدون نثر أنيق الوشي، دقيق النسج، قليل التكلف والسجع، كثير الازدواج والإطناب، شديد الشبه بطريقة الجاحظ ولاسيما في التنويع بحروف الجر. وله من طريقة ابن العميد تضمين الأمثال والملح، والتمثيل بالشعر في غضون النثر. ومن أجود آثاره رسالتان جدية وهزلية، بعث بالأولى إلى ابن جهور يستعطفه بها وهو سجين، وبالأخرى إلى ابن عبدوس عن لسان ولادة،

وهي التي سبق ذكرها. وقد حرص الأدباء على حفظهما وعُني العلماء بشرحهما.

نموذج من كلامه

قال مخاطباً بني جهور:

بني جهور أحرقتم بجفائكم فؤادي فما بال المدائح تعبق
نعدوني كالعنبر الورد إنما تفوح لكم أنفاسه وهو يحرق
وقال يتشوق إلى ولادة وهي بقرطة وهو بإشبيلية:

أضحى التنائي بديلاً من تدانينا وناب عن طيب لقينا تجافينا
بنتم وبنا فما ابتلت جوانحنا شوقاً إليكم ولا جفت مآقينا
يكاد لبعدكم تناجيكم ضمائرنا يقضي علينا الأسى لولا تأسينا
حالت لبعدكم أيماننا فغدت سوداً وكانت بكم بيضاً ليالينا
ليسق عهدكم عهد السرور فما كنتم لأرواحنا إلا رياحيننا
مَنْ مبلغُ الملبسِنا، بانتزاحهم حُزناً، مع الدهر لا يبلى ويؤلينا
أن الزمان الذي ما زال يضحكنا أنساً بقربكم قد عاد يكيّنا
غيظ العدى من تساقينا الهوى فدعوا بأن نغص فقال الدهر آمينا
فانحل ما كان معقوداً بأنفسنا وأنبت ما كان موصولاً بأيدينا
وقد تكون وما يخشى تفرقنا فالיום نحن وما يرجى تلاقينا
لا تحسبوا نأيكُم عنا يغيرنا إن طال ما غير النأي المحينا
والله ما طلبت أهواؤنا بدلاً منكم ولا انصرفت عنكم أمانينا
يا ساري البرق غاد القصر فاسق به من كان صرف الهوى والود يسقينا
ويا نسيم الصبا بلغ تحيتنا من لو على البعد حيا كان يحيينا
يا روضة طالما أجنّت لواحظنا ورداً جناه الصبا غضاً ونسرينا

ويا حياة تملينا بزهرتها
لسنا نسمةك إجلالاً وتكرمة
كأننا لم بت والوصل ثالثنا
سران في خاطر الظلماء يكتمنا
يا جنة الخلد أبد لنا بسلسلها
إنا قرأنا الأسى يوم النوى سوراً
وقال يودعها:

ودع الصبر محب ودعك
يقرع السن على أن لم يكن
يا أخوا البدر سناء وسنى
إن يطل بعدك ليلي فلكم
وقال أيضاً:

أما رجا قلبي فأنت جميعه
يدنو بوصلك حين شط مزاره
يا ليتني أصبحت بعض رجاك
وهم أكاد به أقبل فاك

نموذج من شعره

قال من رسالته الجدية:

يا مولاي وسيدي الذي ودادي له، واعتمادي عليه، واعتدادي به،
وامتدادي منه، ومن أبواه الله ما مضى حد العزم، واري زند الأمل، ثابت عهد
النعمة سلبتني أعزك الله لباس نعمائك، وعطلتني من حلي إيناسك، وأظمتني
إلى ورد إسعافك، ونفضت بي كيف حياطتك، وغضضت عني طرف حمايتك،
بعد أن نظر الأعمى إلى تأميلي لك، وسمع الأصم ثنائي عليك، وأحس الجماد
باستحمادي لك. فلا غر وقد يغص الماء شربه، ويقتل الدواء المستشفى به،

ويؤتي الحذر من مأمنه، وتكون منية المتمني في أمنيته. والحين قد يسبق جهد الحريص:

كل المصائب قد تمر على الفتى فتهون غير شماتة الحساد
وإنني لأنجلد، وأرى الشامتين أني لريب الدهر لا أتضعع. فأقول: هل أنا
لابد أدامها سوارها، وجبين عض به إكليله، ومشرفي ألصقه بالأرض صاقله،
وسميري عرضه على النار مثقفة، وعبد ذهب به سيده مذهب الذي يقول:

فقسا ليزدجروا ومن يك حازماً فليقس أحياناً على من يرحم
ومنها: ... وأعود فأقول. ما هذا الذنب لم يسعه عفوك؟ والجهل الذي لم
يأت من ورائه حلمك؛ والتطاؤل الذي لم يستغرقه تطولك، والتحامل الذي لم
يف به احتمالك. ولا أخلو أن أكون بريئاً فأين العدل؟ أو مسيئاً فأين الفل؟.

إن لا يكن ذنب فعذلك واسع أو كان لي ذنب ففضلك أوسع
وكلها على هذا الأسلوب الرائق، والديباجة المشرقة والتضمين المحكم،
والافتنان الرائع.

وقال في رسالته الهزلية:

أما بعد أيها المصاب بعقله، والمورط بجهله، البين سقطه، الفاحش غلطه،
العائر في ذيل اغتراره، الأعمى عن شمس نهاره، الساقط سقوط الذباب على
الشراب، المتهافت تهافت الفراش على الشهاب، فإن العجب أكذب، ومعرفة
المرء نفسه أصوب. وأنت راسلتي مستهدياً من صلتي ما صفرت منه أيدي
أمثالك، متصدياً من خلتي لما قرعت دونه أنوف أشكالك، مرسلاً خليلتك
مرتاده، مستعملاً عشيقتك قواده، كاذباً نفسك أنك ستنزّل عنها إلي، وتخاف
بعدها علي:

ولست بأول ذي همة دعت له لما ليس بالنائل

ومنها:

هجين القذال، أرعن السبال، طويل العنق والعلاول، مفرط الحمق
والغباوة. بغيض لهيئة، سخييف الذهاب والجيئة، ظاهر الوسواس، منتن

الأنفاس، كلامك نممة، وحديثك غممة، وبيانك فهفة، وضحكك قهقهة،
ومشيتك هرولة، وغناك مسألة، ودينك زندقة، وعلمك مخرقة.

مساوٍ لو قُسمنَ على الغواني لما أمهرن إلا بالطلاق
وكلها على هذا النحو من الإقذاع والفحش والتهكم.

ابن حمديس الصقلي

(477 - 527 هـ)

نشأته وحياته

ولد عبد الجبار بن حمديس بجزيرة صقلية وعرف في بيئته منذ حداثته بمعالجة القريض؛ ولكنه ظل مجهول الذكر في أسواق الأدب فلا يسير شعره ولا يعرف قدره. حتى استولى النزمنديون على وطنه وهو في ميعة الشباب، فرأى بعينه وسمع بأذنه كيف سام الغاصب قومه سوء العذاب، وكيف جر على بلده شر الخراب، فهاجر إلى أسبانيا عام 471، ونزل بإشبيلية يمتاح فضل المعتد ابن عباد، فحجبه مدة لا يلتفت إليه ولا يعبأ به، حتى قال ابن حمديس: "قنطت لخيتي مع فرط تعبتي، وهممت بالنكوص على عقبي. فإني لكذلك ليلة من الليالي في منزلي إذ بغلام معه شمعة ومركب، فقال لي. أجب السلطان! فركبت من فوري ودخلت عليه فأجلسني على مرتبة من فرو الفنك، وقال لي افتح الطاق التي تليك، ففتحتها وإذا بكور من الزجاج على بعد والنار تلوح من بابيه، وواقده يفتحهما تارة ويسدهما أخرى، ثم أدام أحدهما وفتح الآخر، فحين تأملتتهما قال لي:

أجز: أنظرهما في الظلام قد نجما فقلت: كما رنا في الدجنة الأسد

فقال: يفتح عينيه ثم يطبقهما فقلت: فعل امرئ في جفونه رمد

فقال: فابتزه الدهر نور واحدة فقلت: وهل نجا من صروفه أحد؟

فاستحسن ذلك وأمر لي بجائزة سنوية وألزمني خدمته.

وظل الشاعر يتقلب في نعم الملك حقبة من الدهر حتى أنزله ابن تاشفين عن دسته، ونفاه من ملكه، فتبعه ابن حمديس إلى منفاه فمات الملك بعد أربع سنين من نكبته، وأقام الشاعر في المهديّة قاعدة أفريقية، ثم انتقل إلى ميورقة فتوفي بها معوجَّ القناة مكفوف البصر.

أخلاقه

كان ابن حمديس صحيح العقيدة، وقور النفس، رقيق الشعور، قوي الملاحظة ظاهر الجسد، كثير الانقباض، شديد التشاؤم؛ ولكنه كان سمح الأخلاق، حلو المعاشرة، يحضر مجالس الطرب، ويخالط أصحاب اللهو، في عفة نفس وكرم خلق وسلامة عرض، ويبلغ من وصف ذلك مبلغ الإجادة والإبداع. وهو القائل:

أصف الراح ولا أشربها وهي بالشدو على الشرب تدور

كالذي يأمر بالكر ولا يصطلي نار الوغى حيث تفور

وهذه الصفات التي ذكرناها إما استتجناها من شعره، ولا ندرى أهى فيه من طبيعة ميلاده. أم هي أثر من آثار نكبته في بلاده.

شعره

شعره مرآة صافية تجلت فيها أخلاقه: فهو عفيف اللفظ، نبيل الفكرة، لا يسف إلى المجون، ولا يتورط في الغي. وقد دعاه ظلم الزمان ولؤم الإنسان وعلو السن إلى التبرم بالحياة، والشكوى من الناس، والثورة على النفس، وسلوك مذهب أبي العتاهية في الوعظ والتزهيد والتصوف بلغته الواضحة وأسلوبه المشرق. ثم تألق نفسه وينشرح صدره أحياناً فتفتح مشاعره لجمال الطبيعة، ولذات الحياة، وعجائب الكون، فيصف النهر والزهر والصيد والخيول والليل وقصور الترف، ومجالس الطرب؛ يرسم كل أولئك بلفظ أنيق، وتصوير دقيق وعبارة بينة. ولعلك تلمس ذلك فيما نختاره لك من شعره، وكله مجموع مطبوع في بالرم سنة 1873 وفي رومية سنة 1897 م.

نموذج من شعره

قال في وصف نهر:

ومطرّد الأجزاء يصقل متنه صباً أعلنت للعين ما في ضميره

جريح بأطراف الحصا كلما جرى عليها شكا أوجاعه بجزيـره

وقال يصف بركة في قصر ابتناه المنصور ابن أعلى الناس ببجاية، عليها أشجار من الذهب والفضة وأسود من المرمر، والماء يخرج من أطراف تلك وأفواه هذه:

وضراغم سكنت عرين رأسه	تركت خرير الماء فيه زئيراً
فكأنما غشي النضال جسومها	وأذاب في أفواهها الباورا
أسد كأن سكونها متحرك	في النفس لو وجدت هناك مثيراً
وتذكرت فتكاتها فكأنما	أقعت على أدبارها لتشورا
وتخالها والشمس تجلو لونها	ناراً وألسنها اللواحس نورا
فكأنما سلت سيوف جداول	ذابت بلا نار فعدن غديراً
وكأنما نسج النسيم لمائه	درعاً فقدر سردها تقديراً
وبديعه الثمرات تعبر نحوها	عيناى بحر عجائب مسحوراً
شجرية ذهبية نزعت إلى	سحر يؤثر في النهي تأثيراً
قد سرجت أغصانها فكأنما	قبضت بهن من القضاء طيوراً
وكأنما تأبى لوقع طيرها	أن تستقل بنهضها وتطييراً
من كل واقعة نرى منقارها	ماء كسلسال اللجين نميراً
خرس تعد من الفصاح فإن شدت	جعلت تغرد بالمياه صفيراً
وكأنما في كل غصن فضة	لانت فأرسل خيطها مجروراً
وتريك في الصهريج موقع فطرها	فوق الزبرجد لؤلؤاً منشورا
ضحكت محاسنه إليك كأنما	جعلت لها زهر النجوم ثغورا

وقال يبكي ذنوبه ويستغفر ربه:

يا ذنوبي ثقلت والله ظهري	بان عذري فكيف يقبل عذري
كلما تبت ساعة عدت أخرى	لضروب من سوء فعلي وهجري

ثقلت خطوتي وفودي تعرى
دب موت السكون في حركاتي
وأنا حيث سرت أكل رزقي
كلمما مر منه وقت بربح
يا رفيقاً بعده ومحيطاً
مل بقلبي إلى صلاح فسادي
وأجرني بما جناه لساني

وقال من قصيدة يندب الزمن ويشكو الإخوان:

أتحسبني أنسى وما زلت ذاكرا
تغذى بأخلاقي صغيراً ولم تكن
ويا رب نبت تعتريه مرارة
علمت بتجريبي أموراً جهلتها
ومن ظن أمواه الخضارم عذبة
ركبت النوى في رحل كل بجبيه
ولما رأيت الناس يرهب شرهم

وقال في الغزل:

عذبت رقعة قلبي
وسمت جسمي سقما
من لي بصبر جميل
فيا تشوق بعدي!
ظلماً بقسوة قلبك
وما شفيت بطبك
على رياضة صعبك؟
إلى تنسم قربك!
ووجنة غمستها

لقد جنحت لسلمي	كما جنحت لحريك
فبالدلال الذي زاد	في ملاحاة عجبك
فكي من الأسر قلباً	عليه طابع حبك
ونعميني بعنبي	فقد شقيت بعنك

ابن خفاجة الأندلسي

(450 - 533 هـ)

نشأته وحياته

أبو إسحاق إبراهيم ابن خفاجة الأندلسي ولد بمدينة شقر أو جزيرة شقر كما يسميها العرب. والظاهر من شعره أنه عاش معيشة الفنانين خليع العذار طليق الإسار فلم يسم إلى معالي الأمور، ولم يتول عملا من الأعمال العامة، ولم يتعرض لاستماحة ملوك الطوائف مع تهافتهم الشديد على أمثاله. وإنما أخلى ذرعه من مشاغل الحياة ووهب نفسه للجمال وفكره للخيال وحسه للذة، وكله للطبيعة. فهو يتنقل بين رباهها وخمائلها، ويجول بين مروجها وجداولها، فيقف عند كل رائحة، ويصف كل واقعة، ثم يعود إلى كأس روية فيحتسيها، أو صورة فاتنة فيجتليها، أو ثمرة محرمة فيجتنيها. وتنفس به العمر على تلك الحال أتاه اليقين في مسقط رأسه سنة 533.

شعره

ابن خفاجة شاعر الطبيعة ومصورها. قد امتلأت نفسه وعينه من جمال الحياة وجمال الطبيعة، فراح يبرز هذا الجمال المعنوي في صور مختلفة من الجمال اللفظي؛ فانتقى الأساليب الصافية، والألوان الزاهية، ودبجها بزخرف البديع، ووشاها بكثير من المجاز والتشبيه، واستطاع بافتنانه أن يقيك الملل من كثرة تكراره، ووقوفه عند المناظر الحسية في استيحاء أشعاره. أما طلال الآراء النضيحة والمعاني العميقة، والأفكار الفلسفية، فما أظنهم يرجعون من قراءته بطائل: ولهذا الشاعر نشر⁽¹⁾ متكلف سخيف. يؤكد لك مرة أخرى أن إجادة الصناعتين قلما تتفق لأحد.

(1) قال من رسالة إلى بعض إخوانه يصل وده به وقلد قطعه، وهي غاية في التكلف والغثافة: أطل الله بقاء سيدي النبيهة أوصافه الزهية عن الاستثناء، المرفوعة أمارته الكريمة بالإبداء؛ ما حذفت ياء يرمي للجزم، واعتلت ويغزو لموضع الصم. كتبت عن ود قديم هو الحال لم يلحقها أنقال، وعهد كريم هو الفعل لم يدخله اعتلال، والله يجعل هانك من الأحوال الثابتة اللازمة. وصم هذا بعدا من

نموذج من شعره

قال يصف زهرة:

ومائسة تزهى وقد خلع الحيا عليها حلي حمراء وأردية خضرا
يذوب لها ريق الغمام فضة ويجمد في أعطافها ذهباً نضرا
وقال يصف نهيراً ينساب في أحد المروج قد تعرج مجراه وتعددت
مناظره:

لله نهر سال في بطحاء! أشهى وروداً من لمى الحسناء
متعطف مثل السوار كأنه والزهر يكنفه، مجر سماء
قد رق حتى ظن قرصاً مفرغاً من فضة في بردة خضراء
وغدت تحف به الغصون كأنها هدب يحف بمقلة زرقاء
والماء أسرع جريه منحدرأً متلوياً كالحيحة الرقطاء
والريح تعث بالغصون وقد جرى ذهب الأصيل على لجين الماء
وقال يصف بلاد الأندلس:

يا أهل أندلس لله دركم ماء وظل وأنهار وأشجار!
ما جنة الخلد إلا في دياركم ولو تخيرت هذى كنت أختار
وقال أيضاً:

إن للجنة بالأندلس مجتلى عين ورياً نفس
فسنا صبحتها من شنب ودجا ليلتها من لعس
فإذا ما هبت الريح صبا صحت: وا شوقي إلى الأندلس!

=

الحروف الجازمة، وأنا أستنهض طاووك إلى تجديد عهدك بمطالعه ألف الوصل، وتعديه فعل التسل... إلى آخر هذا الهراء.

وقال يصف طيفاً أَلَم به في ليلة طويلة:

ورداء ليل بات فيه معانقي	طيف أَلَم لظيية الوعساء
فجمعت بين رُضابه وشرابه	وشربت من ريق ومن صهباء
ولثمت في ظلماء ليلة وفرة	شفقاً هناك لوجنة حمراء
والليل مشمط الذوائب كبرة	خرف يدب على عصا الجوزاء
ثم انثنى والسكر يسحب فرعه	ويجر من طرب فضول رداء
تندى بفيه أقحوانة أجرع	قد غازلتها الشمس غب سماء
وتميس في أثوابه ريحانة	كرعت على ظمأً بجدول ماء
نَفَاحَة الأنفاس إلا أنها	حذر النوى خفاقة الأفياء
فلويت معطفها اعتناقاً، حسبها	فيه بقطر الدمع من أنواء
والفجر ينظر من وراء عمامة	عن مقلّة كحلت بها زرقاء
فرغبت عن نور الصباح لنوره	أغرى بها بينفسج الظلماء

وقال يصف موقداً هبت عليه ريح فألهبته:

لاعب تلك الريح ذاك اللهب	فعاد عين الجد ذاك اللعب
وبات في مسرى الصبا يتبعه	فهو لما مضطرم مضطرب
ساهرته أحسبه منتشياً	يهز عطفه هناك الطرب
لو جاءه منتقد لما درى	ألهب منتقد أم ذهب
تلثم منه الريح خدّاً خجلاً	حيث الشرار أعين ترتقب
في موقد قد رقرق الصبح به	ماء عليه من نجوم حجب
منقسم بين رماد أزرق	وبين جمر خلفه ملتهب
كأنما خرت سماء فوقه	وانكدرت ليلاً عليه شهب

وقال يصف شاباً جميلاً يسبح:

وصقيل إفرند الشباب، بطرفه
 يمشي الهوينى نخوة ولربما
 شتى المحاسن، للوضاء ربطة
 وبمعطفيه للشيبة منهل
 عبر الخليج سباحة فكأنما
 تطفو لغوته هناك حبابة
 سقم، وللعضب الحسام ذباب
 أطرته طوراً نشوة وشباب
 أبداً عليه، وللحياء نقاب
 قد شف عنه من القميص سراب
 أهوى فشق به السماء شهاب
 ويموج من ردف ألف عباب

لسان الدين ابن الخطيب

(713 – 776 هـ)

نشأته وحياته

هو ذو الوزارتين أبو عبد الله لسان الدين المعروف بابن الخطيب: ولد بغرناطة سنة 713 في مهد السؤدد والعلم والرياسة، وتخرج على علماءها في علوم اللسان والشريعة والفلسفة والطب والرياضة والتاريخ، وبذ في كل ذلك معاصريه ومناظريه من أدباء الأندلس. ثم وصلته مائة الشعر والأدب بأبي الحجاج يوسف سلطان غرناطة (733 – 755) فاستكتبه، ثم استوزره وأطلق يده في شئون ملكه فاتسع نفوذه وضحخم أمره. وما زال في هذا المنصب وتلك الحظوة حتى توفي أبو الحجاج وخلفه ابنه محمد الهامس فأقر لسان الدين في الوزارة. ولكن عقارب الوشاية دبّت بين الرجلين فتكر له السلطان، ففر منه إلى إفريقية فأكرمه ملوكها. ثم توالى عليه مكاره وخطوب انتهت بتسليمه إلى أعدائه، فاعتقلوه بفاس وأغروا جماعة من الفقهاء فأفتوا بإلحاده لاشتغاله بالفلسفة. فتسور عليه السجن بعض الأوشاب فقتلوه خنقاً.

منزلته في الكتابة

لسان الدين كاتب مطبوع على السجع، سائر في صناعته مع الطبع، يذهب إلى الإطناب في رسائله شأن كتاب الأندلس. وربما ساق الرسالة الضافية كلها على روى واحد. والنثر في الأندلس مبني على الخيال والصناعة لغلبة الشعر على أهله. وقل أن تجد فيه السائغ المقبول لتكلفهم السجع، وتعمهلم التنميق، وتوخيهم الإطالة. فهم شعراء بالطبع، وكتاب بالصنعة، على غير ما نرى في أهل الشرق.

وله شعر رقيق اللفظ رائق المعنى مقبول الصنعة. وقد انتهت إليه زعامة العلم والأدب في الأندلس، كلما انتهت إلى ابن خلدون معاصره في إفريقية. ولابن الخطيب القدم الراسخة في التاريخ، ومؤلفاته فيه تبلغ ستين كتاباً،

أشهرها كتاب الإحاطة في تاريخ غرناطة، وهو معجم تاريخي لرجلات غرناطة في ثلاثة مجلدات.

نموذج من كلامه

قال في موشحه المشهور الذي عارض به موشح ابن سهل:

جادك الغيث إذا الغيث همي يا زمان الوصل بالأندلس
لم يكن وصلك إلا حلما في الكرى أو خلصة المختلس

* * * * *

إذ يقود الدهر أشتات المنى تنقل الخطو على ما نرسم
زماً بين فرادى وثنى مثلما يدعو الوفود الموسم
والحيا قد جلل الروض سنا فثغور الزهر منه تبسم
وروى النعمان عن ماء السما كيف يروي مالك عن أنس
فكساه الحسن ثوباً معلماً يزدهي منه بأبهى ملابس

* * * * *

في ليال كتمت سر الهوى بالدجى لولا شمس القدر
مال نجم الكأس فيها وهوى مستقيم السير سعد الأثر
وطر ما فيه من عيب سوى أنه مر كلمح البصر
حين لذ النوم منا، أو كما هاجم الصبح نجوم الحرس
غارت الشهب بنا، أو ربما أثرت فينا عيون النرجس

* * * * *

أي شيء لامرئ قد خلصا فيكون الروض قد كنى فيه
تنهب الأزهار فيه الفرصا أمنت من مكره ما تنقيه
فإذا الماء تناجي والحصا وخلا كل خليل بأخيه

تبصر الورد غيوراً برما يكتسي من غيظه ما يكتسي
وترى الآس ليلاً فهما يسرق السمع بأذني فرس

* * * * *

يا أهيل الحي من وادي الغضا وبقلبي سكن أنتم به
ضاق من وجدي بكم رحب الفضا لا أبالي شرقه من غربه
فأعيدوا عهد أنس قد مضى تعنقوا عانيكم من كربه
واتقوا الله وأحيوا مغرماً يتلاشى نفساً في نفس
حبس القلب عليكم كرمأً أفترضون عفء الحبس؟

* * * * *

وبقلبي منكم مقترب بأحاديث المنى، وهو بعيد
قمر أطلع منه المغرب شقوة المغرى به وهو سعيد
قد تساوى محسن أو مذنب في هواه بين وعد ووعيد
ساحر المقلّة معسول اللمى جال في النفس مجال النفي
سدّد السهم وسمى ورمى ففؤادي نهبة المفترس

* * * * *

إن يكن جار وخاب الأمل وفؤاد الصب بالشوق يذوب
فهو للنفس حبيب أول ليس في الحب لمحبوب ذنوب
حكم اللفظ نها فاحتكما لم يراقب في ضعاف الأنفس
منصف المظلوم ممن ظلما ومجازي البر منها والمسي

* * * * *

ما لقلبي كلما هبت صبا عاده عيد من الشوق جديد
كان في اللوح له مكتبا قوله: إن عذابي لشديد

جلب الهم له والوصبا فهو للأشجان في جهد جهيد

لا عج في أضلعي قد أضرمنا فهي نار في هشيم اليبس

لم يدع في مهجتي إلا ذمنا كبقاء الصبح بعد الناس

ومن قصار رسائله في الشوق إلى ابن خلدون وهي تمثل طريقته في الكتابة:

أما الشوق فحدث عن البحر ولا حرج. وأما الصبر قل به أية درج، بعد أن تجاوز اللوى والمنعرج، لكن الشدة تعشق الفرج، والمؤمن ينشق من روح الله الأرج. وأني بالصبر، على إبر الدبر، بل الضرب الهبر، ومطاوله اليوم الشهر، حتى حكم القهر. وهل للعين أن تسلو سلو المقصر، عن إنسانها المبصر، أو تذهل ذهول الزاهد، عن سرها الرائي والمشاهد، وفي الجسد مضغة يصلح إذا صاحت، فكيف حاله إن رحلت عنه ونزحت؟ وإذا كان الفراق هو الحمام الأول، فعلام المعول؟ أعييت مراوضة الفراق على الراق، وكادت لوعة الاشتياق، أن تفضي إلى السياق.

تركتموني بعد تشييعكم أوسع أمر الصبر عصيانا

أقرع سني ندماً تارة وأستمح الدمع أحياناً

الشعر والكتابة والعلوم والفنون في مصر

على عهد الفاطميين

ذهبت ريح العباسيين بعد المتوكل على الله لفساد الحكم وسوء النظام واستبداد الوزراء وتنافس الزعماء؛ وانتقص الولاة دولتهم من أطرافها، وغلب الثوار على كثير من أملاكها. وكان العلويين الفاطميون ممن شارك في هذا النهب المقسم، فاقتطعوا منها شمالي إفريقية ثم مصر والشام والحجاز.

قام خليفتهم الأول عبيد الله ابن محمد بالقيروان سنة 246هـ ثم أرسل خليفته الرابع المعز لدين الله قائده وكتابه جوهر الصقلي إلى مصر في جيش عرمرم ففتحها بالسيف وملكها بالذهب، وحفر حيث نزل سنة 357 أساس القصر الكبير لمولاه، وأساس الجامع الأزهر لله. وأنزل طوائف الجيش حولهما في نحو العشرين خطة ضرب عليها سوراً من اللبن فكان من ذلك مدينة القاهرة التي اتخذها الفواطم منذ يومئذ قاعدة لخلافتهم تعاقب على عرشها منهم أربعة عشر خليفة من سنة 357 إلى 467 هـ حتى غلبهم عليه صلاح الدين.

ظفرت مصر يوم دخول المعز بالاستقلال والخلافة والأزهر، وخفق العلم الأبيض على القاهرة منافساً للعلم الأسود في بغداد، وللعلم الأخضر في قرطبة؛ ووجدت الآداب العربية والحضارة الإسلامية في ضلال هذه الأعلام الثلاثة سبيلاً إلى الانتشار، ومساعداً على الازدهار، ومعيناً على النمو. وكان الفاطميون في مصر والأمويون في الأندلس إنما يتشبهون بالعباسيين في العراق، يأتون بهديهم، ويسترشدون بوحيمهم، في السياسة والحضارة والأدب والعلم والفن، فلم يحدثوا في شيء من ذلك حدثاً يصح أن ينسب إليهم أو يعتمد فيهم عليهم، إلا ما اقتضته طبيعة الإقليم وسياسة التعليم ونظام الاجتماع. ولكن المطاولة بين هذه الخلافات الثلاث كانت تستلزم المنافسة في تقريب الشعراء، وتعضيد العلماء، وتشبيد المدارس، وإنشاء المكاتب. فكما اشتهر الرشيد وابنه المأمون في آسيا، اشتهر الناصر وابنه الحكم في أوروبا،

والعزيز بالله وابنه الحاكم في إفريقية. فقد شغف العزيز بجمع الكتب واقتنائها وإقراءها حتى بلغ ما في "خزانة الكتب" التي ابتناها في قصره زهاء ألف ألف مجلد في الفقه والنحو والحديث والتاريخ والعلوم. وكان لوزيره يعقوب ابن كلس اليد البيضاء والقدم السابقة في إنهاء الأدب والعلم في مصر، فد كان يندو في داره رجال الدب والشعر والفقه والصناعة، فيرفدهم ويرشدهم. وكان يجلس للناس في كل جمعة فيدرسهم ويقبسهم ما يؤلف في القراءات والفقه. وأنشأ الحاكم بأمر الله مكتبة على نسق بيت الحكمة الذي أنشأه المأمون في بغداد سماها "دار الحكمة"، واستقدم إليها الأدباء والعلماء والفقهاء والأطباء، وأجرى عليهم الأرزاق، وإباح دخولها الناس، فكثرت فيها المناظرات وألقيت بها المحاضرات، والحاكم نفسه يحضرها وينصرها، ويعني بها كما كان يصنع المأمون. وقد بلغ من عناية الفاطميين باللغة العربية وأدبها راقبوها في الدواوين وجعلوا لها في ديوان الإنشاء أستاذاً يصحح أخطاء الكاتبين بها، ويرشد العاجزين إلى طريق أدبها. كابن بابشاذ المتوفى سنة 466 هـ وابن يرى المتوفى سنة 582 هـ. وأخذ الأزهر يشع نوره في خلافة العزيز بالله، إذ أمر وزيره يعقوب أن يستقدم إليه ما استطاع من فقهاء العالم الإسلامي لينصروا مذهب الشيعة، ويؤيدوا دعوى الخلافة؛ وأن يجري عليهم الوظائف ويشيد لهم المساكن، فانتقل هؤلاء الفقهاء من القراءة إلى الإقراء، ومن المدارس إلى الجدل والمراء، حتى انتهى الأمر بالأزهر إلى أن صار المدرسة الإسلامية الكبرى.

وبلغت القاهرة المعزية في أواسط القرن الخامس أوج حضارتها، وغاية عمارتها، فغضت برجال الأدب والفنون، وزخرت بمخلفات الأمم والقرون. وزهت بما افتن فيه الخلفاء والأمراء والوزراء من تشييد المناظر، وإقامة الدور، وتفخيم القصور، وعقد القباب العجيبة، وصنع المقرنصات البديعة، وتزيين ذلك كله بما عرف عن اليد المصرية الصانع من روائع النقش وبدائع الزخرف وجمال الألوان، وتوشيته بالزجاج الملون، وتبليطه بالرخام المصقول والكاشاني الجميل، ورصفه بالفسيفساء المفوفة "مما طاولت به القاهرة بغداد وقرطبة، وكان نموذجا صادقا لارتقاء فن العمارة والزخرفة أواخر القرن السابع

وأوائل القرن الثامن. وقلمما سمع في تاريخ دولة إسلامية ما سمع عن الخلفاء الفاطميين في سرفهم وامتلاء خزائهم بالذخائر والجواهر والأعلاق والأسلحة والكتب. ولم يقيم في مملكة من الاحتفال ما كان يقوم به خلفاء القاهرة في المواسم والأعياد". وكان للشعر في تلك الحفلات رواج ونفاق، وللشعراء في ميدانه استئنان واستباق، فنبع في آخر هذه الدولة طائفة من الشعراء المصريين جروا على أساليب البغداديين في عصورهم الأخيرة من الميل إلى الصناعة البديعية والحلية اللفظية. وكذلك من نبغ فيها من الكتاب نهجوا هذه السبيل في شيء من التوفيق والإجادة. وحسبك أن تعلم أن القاضي الفاضل إمام الطريقة الرابعة ف الأدب العربي إنما تعلم الكتابة في ديوان القاضي ابن حديد في الإسكندرية، وكتب في ديوان الظافر بالقاهرة. ووزر لصلاح الدين ابن أيوب بعد ذلك. فطريقته من غير شك كانت هي الطريقة الفاشية في مصر على عهده. وقد فصلنا القول فيها أثناء كلامنا عن الكتابة وعن هذا الكاتب ص 238 ص 318 فارجع عليه.

الشعراء في مصر

نبغ من الشعراء في ربوع النيل أبو علي تميم ابن الخليفة المعز لدين الله الفاطمي المتوفى سنة 375، وقد اشتهر بشعره الغزلي، وحواره العمري، وأسلوبه القوي، ونسجه الدقيق. روى منه صاحب اليتيمة نخبة صالحة في الجزء الأول ص 347 وله ديوان مطبوع.

وابن وكيع الملقب بالعاطس، ولد في قرية قريبة من دمياط وتوفي بها سنة 294 هـ وقد عرف بابتكار معانيه وحسن تصرفه.

وأبو الفتح نصر الله بن قلاقس الإسكندري الملقب بالقاضي الأعز، حل في أعقاب عمره إلى اليمن ومدح بعض حكامها فأغنوه، ولكن السفينة التي كانت تحمله وهو عائد إلى مصر غرقت على مقربة من دهلك فعاد إلى اليمن صفر اليدين، ثم سافر إلى صقلية ورجع منها فمات في عيذاب سنة 567.

وهبة الله ابن سناء الملك الملقب بالقاضي السعيد، كان من الشعراء المجدودين والرؤساء المعدودين. اتصلت أسبابه بالقاضي الفاضل والعماد الكاتب، وسمت به كفايته إلى مكان رفيع من الخطوة والثروة. وكان في مصر على عهده جماعة من الشعراء الذين ألف بينهم الأدب فكانوا يجتمعون ويتناشدون ويتسامرون، وكان هو واسطة فلادتهم ومحل رياستهم. وهو أول من سبق إلى الموشحات وأجادها من شعراء الشرق. وله الموشحة المشهورة التي مطلعها:

كللي يا سحب تيجان الربى بالحلى واجعلي سوارك منعطف الجدول

ثم جمال الدين ابن مطروح ولد بأسسيوط ونشأ في قوص واتصل بخدمة الملك الصالح الأيوبي حتى جعله ناظراً على الخزانة ثم وزيراً لنائب دمشق، ثم تقلبت به الحال من سفر وحضر ورساً وسخط حتى توفي بالقاهرة سنة 649 هـ.

ثم الشاعر الغزلي الرقيق كمال الدين ابن النبيه، وإليك ترجمته.

كمال الدين ابن النبيه

(المتوفى سنة 619 هـ)

نشأته وحياته

نشأ هذا الشاعر القدير مجهولة، وحياته مرت عادية هادئة، كالجدول السلسال في الروض الأفيح، لا تسمع غير أنغامه وخريره. فلم يلق بنفسه في غمار السياسة وهو يعج بين يديه ومن خلفه، واكتفى بمدح بني أيوب في مصر حتى اتصل بالملك الأشرف موسى صاحب الجزيرة وخلاط، فكتب له في ديوان الإنشاء وأقام بنصيبين في خدمته حتى توفي بها سنة 619 هـ.

شعره

ابن النبيه شاعر غمرُ البديهة مليح النادرة، منسجم الأسلوب، حسن الوشى مطبوع على البديع؛ فهو يتوخى الحلية اللفظية ويشتد في طلبها، ولكن يخیل إليك أنه لا يتلفها ولا يتكلفها لجمال صياغته وقوة صناعته. وما رأيت شاعراً قبل هذا الشاعر يتكلف بالبديع هذا الكلف، ويسرف فيه هذا السرف، ثم يضطرك وأنت تقرأه إلى الرضا عنه والإعجاب به. ذلك لأن أسلوبه قوي الحياة، شديد الحركة، كثير التنوع، مزدهر الألوان، يستر بقوة طبعه ما يبدو من ضعف صنعته، كقوله في المدح مثلاً:

فحريق حمرة سيفه المعتدى ورحيق حمرة سيبه للمعتفى

يا بدر! تزعم أن تقاس بوجهه وعلى جبينك كلفة المتكلف؟

يا غيم! تطمع أن تكون ككفه كلا وأنت من الجهام المخلف

ولم يكد شعره يخرج عن أغراض ثلاثة أجادها كلها إجادة قل أن تظفر يمثلها في عصره. وهي المدح، وكله في بني أيوب إلا قصيدة أو قصيدتين مدح بهما الخليفة الناصر العباسي؛ والغزل والوصف، ولا يجئ بهما مستقلين، وإنما يسوقهما مقدمة لمدحه. فأما مدحه فقد سلك فيه الطريقة المألوفة من ذكر الفتح ولنصر والبأس والجود. وأما غرله فمن النوع الحسى الشهواني

الذي لا يتعدى مال الشكل، من ليل الشعر، وصبح الوجه، وسحر الجفون، وسهام العيون، ولؤلؤ الثغر، وياقوت الشفة الخ. أما الإحساس القلبي بالحب والإدراك النفسي للجمال فشيء لا تظفر به فيه. والراجح في الظن أنه كان يقوله على أنه باب من أبواب الشعر، لا على أنه فيض من الشعور، ونور من الإلهام. أما وصفه فأكثره في الخمر ومجالسها، وأقله في الطبيعة ومناظرها.

وعلى الجملة فابن النبيه شاعر عذب الروح، كثير الافتتان؛ مغرق في المجاز ولتشبيهه والبديع. مجيد للمطالع، محسن للتخلص. وله ديوان طبع في بيروت وفي مصر.

نموذج من شعره

قال في أول قصيدة يمدح بها الملك الناصر لدين الله العباسي:

فاكر صبحوك، أهني العيش باكره	فقد ترنم فوق الأبك طائرة
والليل تجري الدارارى في مجرنه	كالروض تطفو على نهر أزاهره
وكوكب الصبح نجاب، على يده	مخلق تملأ الدنيا بشائره
فانهض إلى ذوب ياقوت لها حبيب	فهل جناها مع العنقود عاصره
ساق تكون من صبح ومن غسق	فابيض حذاءه واسودت غدائره
مهفهف القد يندى جسمه ترفاً	مخصر الخصر عبل الردف وافره
سود سوافه، لغس مراشفه،	نعس نواظره، خرس أساوره
تعلمت بانه الوادي شمائله	وزوت سحر عينيه جآذره
خذ من زمانك ما أعطاك مغتنما	وأنت ناه لهذا الدهر آمره
فالعمر كالكأس تستحلى أوائله	لكنه ربما مجت أوآخره

وقال في مطلع قصيدة يمدح بها الملك الأشرف:

أفديه إن حفظ الهوى أو ضيعا	ملك الفؤاد فما عسى أن أصنعا؟
من لم يذق ظلم الحبيب كظنه	حلواً فقد جهل المحبة وادعى

يا أيها الوجه الجميل تدارك الصبر
هل في فؤادك رحمة لمتيم
ومن غزله في بعض قصائده:

أجفانه شرك القلوب كأنما
ياقوته متبسم عن لؤلؤ
ساق صحيفة خده ما سودت
جمد الذي يمينه في خده
طاب الربيع كأنما عجن الصبا
وتفضضت أزهاره وتذهبت
ومن غزله أيضاً:

أماناً أيها القمر المطل!
يزيد جمال وجهك كل يوم
وما عرف السقام طريق جسمي
يميل بطرفه التركي عني
إذا نشرت ذوائبه عليه
أيا ملك القلوب فتكت فيها
قليل الوصل ينفعه فإن لم
أدر كأس المدام على الندامى
بمنظرك البديع تدل تيهاً

وله قصيدة الرثاء المشهور التي رثى بها ولد الناصر بالله ومطلعها:
الناس للموت كخيل الطراد
فالسابق السابق منها الجواد

والله لا يدعو إلى داره
والموت نقاد، على كفه
إلا من استصلح من ذي العباد
جواهر يختار منها الجياد
لا تصلح الأرواح إلا إذا
سرى إلى الأجسام هذا الفساد

ابن الفارض

(576 - 632 هـ)

نشأته وحياته

هو أبو حفص عمر ابن علي المعروف بابن الفارض. أصل آبائه من حماة وولد هو بالقاهرة سنة 576، وتفقّه في الدين، وتوسع في اللغة والأدب، حتى أحرز منهما قسطاً وافراً. ثم وقع في نفسه أن ينهج منهج الصوفية، فافتنى آثارهم وعرف أسرارهم. وذهب إلى مكة فزار البقاع المقدسة ومكث بها زمناً ثم رجع إلى مصر فقضى بها بقية عمره بين الإعظام والإكرام حتى توفى بالقاهرة ودفن بسفح المقطم سنة 632 هـ.

صفاته

كان ابن الفارض على تقشفه وتصوفه جميل الهيئة، حسن البزة، ظريف المحضر، محمود العشيرة، وقوراً، كثير الورع، إذا مشى في المدينة ازدحم الناس عليه يلتمسون منه البركة والدعاء. إذا حضر مجلساً عقدت هيئته السنة أهله فلا يتكلمون. فإذا أراد النظم أخذته غيوبة يطول أمدّها أحياناً إلى عشرة أيام كما قيل، لا يأكل أثناءها ولا يشرب ولا يتحرك، فإذا أفاق أملى شعره!

شعره

نشأ ابن الفارض في عصر الأيوبيين وهو عصر تنازع النفوس فيه عاملان مختلفات: عامل التصوف والتقوى، لدوام الحروب وتوالي المكروب من المجاعات والموتان؛ وعامل الفسوق والمجون، لانحلال الأخلاق وتحكم الشهوات، وانتشار المخدرات. واتجه الشعر في مصر وفي غير مصر إلى هاتين الوجهتين. فهو إما أن يراد به الله وإما أن يراد به الشيطان. وابن الفارض قد نشأ نشأة دينية، ورعى تربية صوفية، فلم يكن له بد من سلوك طريقة القوم في شعره، ينظم إشاراتهم، ويصف مقاماتهم، ويكثر من نعت الخمر وذكر الغزل، مريداً

بذلك الذات الإلهية على اصطلاحهم. فكان بذلك موجد الطريقة ⁽¹⁾ الرمزية في الشعر العربي (Sympolisme) وهو أكثر الشعراء تعاملاً للكلام وتكلفاً للبديع، وولوعاً بالجناس والطباق، وأسير معاصريه شعراً، لرقته واشتماله على ما يرضى المتصوف الزاهد، والعاشق الماجن: ذلك بباطنه وهذا بظاهره. فالمتصوفون يشدونّه في مجالس الذكر، والخلعاء يغنونّه في مجالس الخمر. وقد شرح ديوانه جماعة من العلماء واختلفوا في أغراضه، فمنهم من شرحه على ظاهر اللفظ ولم يتأول شيئاً كالبوريني (1024) ومنهم من شرحه وأوله على طريقة الصوفية كالنابلسي (1143).

ومن أشهر شعره تائيته الكبرى والصغرى، تبلغ الأولى نحو 600 بيت والأخرى نحو 103 بيت. وقد استوعبت أغراض الصوفيين وأسرارهم، ولا يقرأهما إلا من رزق الصبر والجلد على حل هذه الرموز، يقول في مطلع الكبرى:

نعم بالصبا قلبي صبا لأحبتني فيا حبذا ذاك الشذا حين هبت

تذكرني العهد القديم لأنها حديثه عهد من أهيل مودتي

أما سائر شعره فجلى واضح يغلب فيه الجنين إلى الحجاز وأهله، والإكثار من ذكر جباله وقراه.

نموذج من شعره

قال في الغزل:

لم اخل من حسد عليك فلا تضع سهري بتشيع لخيال المرجف

وأسأل نجوم الليل هل زار الكرى جفني؟ وكيف يزور من لم يعرف

وقال:

(1) ظهرت الطريقة الرمزية في فرنسا في منتصف القرن التاسع عشر نتيجة للطريقة البرناسية (Ecole Parnasienne) وقد بلغ أربابها بالكتابة والشعر حد التعمية والتعجيز. اقرأ ما كتب عنها في كتابنا "دفاع عن البلاغة".

أعد ذكر من أهوى ولو بملام
فإن أحاديث الحبيب مدامي
كأن عذولي بالوصال مبشري
وإن كنت لم اطمع برد سلامي
طريح جوى صب جريح جوارح
قتيل جفون بالدوام دوامي
صحيح عليل فاطلبوني من الضنى
ففيها كما شاء النحول مقامي

وقال في الحمر وفيها كثير من رموز الصوفية:

شربنا على ذكر الحبيب مدامة
سكرنا بها قبل أن يحلق الكرم
لها البدر كأس وهي شمي، يديرها
وكن يبدو إذا طلعت نجم
ولولا شذاها ما اهتديت لحانها
ولولا سناها ما تصورها الوهم
يقولون لي: صفها فأنت بوصفها
خبير، أجل عندي بأوصافها علم
صفاء ولا ماء، ولطف ولا هوا،
ونور ولا نار، وروح ولا جسم
تقدم كل الكائنات حديثها
قديماً ولا شكل هناك ولا رسم
وقالوا شربت الإثم، كلا وإنما
شربت التي في تركها عندي الإثم
فلا عيش في الدنيا لمن عاش صاحياً
ومن لم يمت سكرأً بها فاته الحزم
على نفسه فلييك من شاع عمره
وليس له فيها نصيب ولا سهم

بهاء الدين زهير

(581 - 656 هـ)

نشأته وحياته

أبو الفضل زهير بن محمد المهلبى ولد بوادي نخلة على مقربة من مكة ونقل على مصر فنشأ بها وتأدب فلما بلغ أشده واستوى في العلم والجسم، وبرع في النظم والنثر والخط، اتصل بالملك الصالح ابن الملك الكامل الأيوبي ورافقه إلى الشام والجزيرة. فلما غلبه ابن عمه الملك الناصر صاحب الكرك واعتقله عل أثر موقعة بينما خذله فيها قواده، وتألبت عليه أجناده، وانضووا تحت لواء ابن عمه لم ينقض البهاء عهد ملكه، ودعاه الوفاء ألا يخدم غيره. فأقام بنابلس حتى عاد الماء إلى مجراه، ونهض الجد بمولاه، فاسترد الصالح ملك لديار المصرية فأعاد بهاء الدين إلى خدمته. وعرف له ولاءه ووفاءه، فاتخذ وزيره وموضع سره، يصدر عن رأيه ويمضي على مشورته. وقد نفع كثيراً من الناس بوساطته وشفاعته. وظل على تلك الحال حتى مات الملك الصالح فلزم داره إلى أن حدث بالقاهرة وباء فمات به سنة سقوط بغداد في أيدي التتار.

شعره

كان بهاء الدين دمث الأخلاق، رقيق الطباع، لين الجانب، حلو الكلام فأثرت تلك الصفات في شعره، فجاء عذباً رقيقاً يطمع السامع أن يأتي بمثله لسهولة ورقته، فإذا حاول عجز. فشعره فيض قريحته، ووحى طبيعته، وصورة بيئته لم يقلد فيه أحداً، ولم يطلب من غير شعوره مدداً، ولم يعبر عنه إلا بلغة المصريين وأساليبهم. فلا تجد كلمة غريبة، ولا جملة معقدة، وإنما تدرك فيه عذوبة النيل وتدفقه، وتلمح عليه جمال جوه وتألقه وقد أحسن وأجاد في الغزل والعتاب، وقصر فيما عداهما. وليس في معاني البهاء ابتداع ولا تخيل؛ وإنما هي معان عادية كساها ألفاظها سهلة، وبث فيها من روحه الفياض قوة التأثير فسمت إلى أحرار المعاني. وشعره مجموع مطبوع متداول. وقد ترجمه

المستشرق الإنجليزي بلمر إلى الإنجليزية نظماً وطبعه في كمبردج سنة 1876 في مجلدين وعلق عليه.

نموذج من شعره

قال يخاطب المتزمت من صروف الدهر:

لا تعتب الدهر في خطب رماك به إن استرد ففدماً طالما وهبا
حاسب زمانك في حالي تصرفه تجده أعطاك أضعاف الذي سلبا
والله قد جعل الأيام دائرة فلا ترى راحة تبقى ولا تبعا
ورأس مالك وهي الروح قد سلمت لا تأسفن لشيء بعدها ذهباً
ما كنت أول مفدوح بحادثة كذا مضى الدهر لا بدعاً ولا عجباً!
فرب مال نما من بعد مرزاة أما ترى الشمع بعد القطف ملتهباً؟
وله في الغزل:

خليلي أما هذه فديارهم وأما غرامي فهو ما تريان
خليلي هذا موقف يبعث البكا فماذا الذي بالدمع تنتظران؟
فإن كنتما لا تسعداني على الأسى قفا ودعاني ساعة ودعائي
فيا ويح قلبي بالغرام أطعنه! فما لي أراه في السلو عصاني؟
وإني وإياه كما قال قائل: رفيقك قيسي وأنت يمانني!
ومن قوله في الغزل أيضاً:

إن شكا القلب هجركم مهد الحب عذركم
لو رأيتم محلکم من فؤادي لسركم
قَصِّروا حدة الجفا طول الله عمركم
ومن قوله في المزاح:

لك يا صديقي بغلة ليست تساوي خردله

تمشي فتحسبها العيون	على الطريق مشكله
وتخال مدبرة إذا	ما أقبلت مستعجله
مقدار خطوتها الطويلة	حين تسرع أنمله
تهتز وهي مكانها	فكأنما هي زلزلة
أشبهتها بل أشبهتك	كأن بينكما صلة
تحكي صفاتك في الثقاله	والمهانة والبله

الفصل السادس

العلوم

الترجمة والتأليف

لم يكن ما وضع في عهد بني أمية من العلوم إلا بذراً نما وأثمر في هذا العصر الذي ثابت فيه العقول من غفلتها، وهبت الفطن من غفوتها. فلقد عني خلفاؤه وعلماءه بتدوين العلوم وترجمتها ونشرها. وكان أسبقهم إلى ذلك الخليفة الثاني أبو جعفر المنصور، فإنه أنشأ المدارس للطب والشرعية، واستقدم جرجيس ابن بختيشوع رأس أطباء جنديسابور ونفراً من السريان والفرس والهنود، فترجموا له كتباً في النجوم والطب. وكان من ذلك كتاب السند هند في الفلك، وكتاب إقليدس في الرياضة. ونقل له ابن المقفع بعض كتب الأدب والمنطق. ثم فترت هذه النهضة أيام الهادي والمهدي حتى قواها الرشيد بروح البرامكة، ونشرها في مملكته المتسعة، وضم إيوانه نوابغ العلماء، وأخذ على نفسه بأن يلحق بكل جامع للصلاة جامعة للعلم، وأن يستصحب مائة من العلماء كلما سافر. وكان يجلس العلماء على تباين نحلهم، فكان أطباءه وتراجمته من السريان المسيحيين كآل بختيشوع وآل ماسويه. وقد ترجم في زمنه ما وجد من كتب الطب والكيمياء والنجوم والحيل⁽¹⁾ والجبر والنبات والحيوان.

ولما أفضت الخلافة إلى المأمون - وهو في العرب كبريكلس في اليونان، وأغسطس في الرومان - استعر أوار هذه النهضة العلمية. فآتم ما بدأ به آباؤه، واتخذ له بطانة من علماء اليونان والسريان والعجم. وتوافد إليه الحكماء والأدباء من كل حذب ونحلة. وأمر سفراءه وعماله في أرمينية وسورية ومصر أن يبعثوا إليه بما يجدون من كتب في تلك الأصقاع؛ فكانت الإبل ترى من آن

(1) عام الحيل فرع من الفلسفة الرياضية يبحث عن نوااميس الحركة والموازنة وتطبيقها وهو ما يسميه الفرنج ميكانيك (Mecanique).

إلى أن داخله بغداد موقرة ظهورها بجلائل الأسفار العبرانية واليونانية والفارسية. وداخل ملوك الروم وسألهم صلته بما لديهم من الكتب الفلسفية فبعثوا بها إليه. وجعل من شرائط صلحه مع ميخائيل الثالث ملك القسطنطينية أن يرسل إليه بمجموعة من الكتب النادرة فلما حصل كل ذلك عنده استخار له خير التراجمة فترجم على خير ما يمكن. فلم يبق من كتب الصناعة والعلوم والفنون شيء إلا نقله إلى العربية وأقبل الخلفاء والناس على تلك العلوم درساً وفهماً حتى حلوا رموزها وفتحوا كنوزها، ورقوها بالتفصيل والتكميل وأصلحوا خطأ المتقدمين من العرب حتى اليونان أنفسهم. ثم بسطوا غير ذلك علوم الشريعة، وضبطوا قواعد اللسان، ووضعوا علوم البيان، ووقعوا على علمي العروض والقافية. وحذا الملوك في الشرق والغرب حذو العباسيين فشادوا المدارس، وأقاموا المراصد، وشجعوا العلماء، حتى أثمرت تلك النهضة وكشف العرب واخترعوا ما لا يجهله العالم ولا ينكره التاريخ⁽¹⁾.

ولم تزل سوق العلم نافقة حتى ضعف أمر العرب بتغلب التتر وتسلط الترك فسقطت رغبة الملوك فيه، وانقطعت أسباب الطلب، ودرست المصنفات، وكسدت بضاعة العلم، وظن الناس أن تحصيله سعي باطل، فاقصروا على شرح الكتب واختصارها ولم يعنوا إلا بألفاظها.

فلماذا رأت العلوم أن الشرق قد تجهد لها، وأن الزمان قد أضعف أهلها، لبست ثياب الحداد وسارت قاصدة أوربا عن طريق المغرب والشام، ففتح لها الغرب صدره، وفعل ملوكه بالعلوم العربية ما فعله العرب بالعلوم اليونانية. وأخذ ظل العلوم يتقلص من الشرق ويمتد في الغرب حتى آل الأمر إلى ما نحن عليه الآن!

(1) من ذلك كشفهم قوانين لنقل الأجسام مانعها وجامدها، واختراعهم الساعة الدقاقة كالتي أهداتها الرشيد إلى شارلمان ملك فرنسا في عهده. والبندول وبيت الأبرة وهم الذين وضعوا الكيمياء الحقيقية ورقوا علم الجبر وزادوا عليه. وألقوا الأرصاد والأزياج وحسبوا الكسوف والخسوف، ورصدوا الاعتدالين الربيعي والخريفي، ونشروا الأرقام الهندسية وسبقوا إلى صناعة الكاغذ؛ وغير ذلك مما أطل القول فيه مؤرخو الفرنج لا مؤرخو العرب (أنظر تاريخ العرب وحضارتهم لسديو Sedillot) وكتاب (في أصول الأدب) للزيات طبع القاهرة سنة 1952.

العلوم الأدبية

علم الأدب

كان للأدب في عهد بني أمية ما للعلم في عهد بني العباس من سمو المكانة وفطر العناية لحدثة عهد القوم بالبدواة، وتمدح رجالاتهم باللسن، وحاجتهم إلى فصح اللغة وطرف الشعر في استجلاء⁽¹⁾ غامض الكتاب، واستيضاح غريب السنة، والاستشهاد على ضوابط النحو، واكتساب ملكة اللسان. وكان الأدب إذ ذاك إنما يؤخذ من الأفواه يحفظ في الصدور وتضرب إلى مظانه أكباد الإبل. فلما بزغ هلال العصر العباسي وخامر العرب داء العجمة واستشرى فساد اللحن، اختص بالحلة إليه والتمس له طائفة من العلماء شهروا بالرواة، كحماد الرواة (156) والخليل ابن أحمد (175)، وخلف الأحمر (180)، وأبي عبيدة (209)، وأبي زيد الأنصاري (215)، والأصمعي (216). كانوا يرودون البادية ويدخلون الأعراب ابتغاء لخبر مستملح، أو شعر مستطرف، أو كلمة غريبة.

وظل الشأن في رواية الأدب للسمع والحفظ، حتى مست الحاجة إلى التدوين لاستعجام العرب واتساع دولتهم. فأخذ العلماء يدونون ما يسمعون. بدأ بذلك أبو عبيدة والأصمعي؛ ولكن الجاحظ هو أول من ضم شتيت الأدب، واستوعب أطرافه بكتاييه البيان والتبيين والحيوان. ثم تتابع العلماء بعده على التصنيف فيه كالمبرد صاحب الكامل، وابن قتيبة صاحب أدب الكاتب، وابن عبد ربه صاحب العقد الفريد، وأبي علي القالي صاحب الأمالي، وأبي الفرج الأصبهاني صاحب الأغاني. هؤلاء هم رجال الأدب ومراجعته، وكتبهم هي موارده ومشارعه.

(1) كان ابن العباس يقول: إذا قرأت من كتاب الله ولم تعرفوه فاطلبوه في أشعار العرب. وقال الشافعي: طلبت اللغة والأدب عشرين سنة لا أريد بذلك إلا الاستعانة على الفئة.

الأدباء

الأصمعي

(123 - 216 هـ)

حياته وعلمه

ولد أبو سعيد عبد الملك بن قريب الأصمعي (نسبة إلى جده أصمع) سنة 123 هـ في بيت عربي عريق في الكتابة، ونشأ بالبصرة، وأخذ العربية والحديث والقراءة عن أئمتها. ونقل عن فصحاء الأعراب الذين كانوا يفدون إلى البصرة، وأكثر الخروج إلى البادية، وشافه العرب وساكنهم. وربما استغرقت بعض رحلاته سنوات يحج في أثنائها ويلتقي بالفصحاء في المواسم حتى اجتمع له من الأخبار والنوادر والغريب ما لم يجتمع لغيره وكان معاصراً لأبي عبيدة منافساً له في اللغة والرواية. وقد فاضل أبو نواس بينهما فقال " إن أبا عبيدة لو أمكنوه لقرأ عليهم أخبار الأولين والآخرين. وأما الأصمعي فبلبل يطربهم بنغماته. وحدث الأصمعي عن نفسه: " حضرت أنا وأبو عبيدة عند الفضل ابن الربيع فقال لي: كم كتابك في الخيل؟ فقلت: مجلد واحد. فسأل أبا عبيدة عن كتابه بها فقال خمسون مجلداً؛ فقال له قم إلى هذا الفرس وأمك كل عضو منه وسمه فقال: لست بيطاراً، وإنما هذا شيء أخذته عن العرب. فقال لي قم يا أصمعي وافعل أنت ذلك. فقممت وأمسكت ناصيته وجعلت أسميه عضواً عضواً، وأنشد ما قالت العرب فيه غلى أن فرغت منه؛ فقال خذه فأخذته. وكنت إذا أردت أن أغيظ أبا عبيدة ركبته إليه " وهذه الحكاية مع دلالتها على فرق ما بين الرجلين تدل على قوة ذاكرة الأصمعي وشدة حافظته. فلا بدع إذا قال أنه يحفظ أثنى عشر ألف أرجوزة. وكان الأصمعي مع اشتهاه بالثقة في الرواية والتضلع من اللغة مشهوراً بنقد الشعر أيضاً، أخذ عن خلف الأحمر. وله في الشعر والشعراء آراء عالية. وهو على ظرفه شديد الورع كثير الاحتراز في تفسير الكتاب والسنة. فإذا سئل عن شيء منهما كان يقول: العرب تقول معنى هذا كذا ولا أعلم المراد منه في الكتاب والسنة. وما زال نديماً

للخليفة الرشيد حتى توفي. فلما ولى المأمون وقامت الفتنة بخلق القرآن خاف على دينه وقبع في كسر بيته، وحرص المأمون على أن يصير إليه، فاحتج بكبر سنه وضعفه، فكان المأمون يجمع المشكل من المسائل ويسيرها إليه ليجيب عنها. ورئي بعد ذلك راكباً حماراً دميماً، ف قيل له: "أبعد براذين الخلفاء تركب هذا؟ فقال هذا وأملك ديني أحب إلى من ذاك مع فده". وهكذا رضى من العيش بالكفاف حتى توفي سنة 216، وله من العمر تسعون سنة.

مؤلفاته

ترك الأصمعي من المصنفات ما ينيف على اثنين وأربعين مصنفاً أكثرها في اللغة، ككتاب خلق الإنسان، وكتاب الأجناس، وكتاب الخيل، وكتاب النبات، وكتاب النوادر، وكتاب معاني الشعر، وكتاب الأراجيز، وأغلبها غير مطبوع.

أبو الفرج الأصبهاني

(284 - 356 هـ)

نشأته وحياته

أبو الفرج علي بن الحسين المرواني ولد بأصبهان ونشأ ببغداد. واختلف إلى العلماء والرواة، فسمع الحديث والأخبار، وروى الأنساب والأشعار، وتوسع في النجوم والسير والبيطرة والطب فنبه ذكره وظهر فضله، والشرق تتنازعه دول مختلفة، فاستطاع أن ينقلب بين هؤلاء الخصوم يفيدهم بأدبه، ويمتعمهم بكتبه، ويستفيد من مالهم، ويتقوى بنفوذهم. وما كان عطاء ملوك الشرق ليكفيه، فكان يؤلف الكتب للأمويين بالأندلس سرّاً فينعمون عليه. وكان يجاهر بالتشيع وهو أموي نقيّة للشيعة ومداراة؛ لأنه في بلادهم نشأ وبفضلهم ظهر.

وكان أكثر الناس حذباً عليه وإيثاراً له، الوزير المهلبى وزير معز الدولة ابن بويه. فانقطع إليه ومدحه ونادمه حتى مات ببغداد سنة 356 هـ وقد خولط قبل موته.

أخلاقه وعلمه

كان هذا الرجل على ظرفه وأدبه، سليط اللسان، مخشى البادرة، تتقيه الملوك والأمراء لعلمه بالأنساب ومثالب البيوتات. وكان قذر الهيئة رث الثوب لا يغسله ولا يبدله. والوزير المهلبى على تنطسه وترفه كان يحتمل كل هذا منه لعلمه وحسن حديثه. فقد كان كما قدمنا ملماً بأشتات العلوم، راوياً لمختار المنشور والمنظوم، ثقة فيما يحدث، ناقدّاً لما يسمع. ولم يكن أبو الفرج شاعراً مطبوعاً وإنما كان كاتباً معدوداً، ومؤلفاً قديراً، ومصنفاً مجيداً، وراويّة أميناً. وحسبه ميزة وشرفاً كتابه المسمى بالأغانى.

كتاب الأغاني

أجمع المؤرخون على أنه لم يصنف في بابيه مثله، وأن كل كتاب في الأدب كل عليه، لولاه لضاع كثير من أخبار الجاهلية وصدر الإسلام وأيام بني

أمية؛ ألفه في خمسين سنة، وبناه على مائة الصوت التي اختيرت للرشيد وزيدت للوائح، وعلى ما تخيره هو من عيون الأغاني، فترجم بقائلها ومغنيها، وذكر ما يدخل فيها من حرب وحب وشعر وفكاهة؛ وحمله إلى سيف الدولة ابن حمدان فأعطاه ألف دينار واعتذر إليه. وكان الصاحب ابن عباد إذا سافر حمل كتبه على ثلاثين جملاً. فلما اقتناه استغنى به عنها وهو أجزاء كثيرة طبع منها عشرون جزءاً في سنة 1285 هـ، ثم عشر أحد المستشرقين على جزء آخر في إحدى مكاتب أوروبا فكملت الأجزاء واحداً وعشرين، وضع لها الأستاذ جويدي الإيطالي فهرساً أبجدياً مطولاً بالفرنسية طبعه في ليدن سنة 1900م ثم نقل هذا الفهرس إلى العربية في مصر وطبع بها هو والكتاب سنة 1322 هـ. وتقوم دار الكتب المصرية الآن بطبعه طبعة متقنة منقحة بمعونة سرى من سراة المصريين ولم يتم وقد اختصره أبو الفرج في مجلد واحد مع سائر كتبه.

نموذج من شعره

قال يمدح الوزير المهلبى:

ولما انتجعنا لائذين بظله أعان وما عنى ومن وما منا
وردنا عليه مفترين فراشنا وردنا حماه مجدين فأخصبنا
وقال يخاطبه من قصيدة:

فداؤك نفسي، هذا الشتاء علينا بسلطانه قد هجم
ولم يبق من نشبي درهم ولا من ثيابي إلا رمم
يؤثر فيها نسيم الهواء وتخرقها خافيات الوهم
فأنت العماد ونحن العفاة وأنت الرئيس ونحن الخدم

علم النحو

جاء هذا العصر والنحو علن يدرس في المساجد ويدون في الكتب، وقد أحكمت روابطه، وحققت ضوابطه، واشبع الكلام فيه علماء المصريين: البصرة والكوفة. وإلى الأولين يرجع الفضل في تكوينه وتدوينه. فمنهم أبو الأسود الدؤلي واضعه، وابن إسحاق الحضرمي معلله، وهارون ابن موسى ضابطه، وعيسى ابن عم أول من ألف فيه، وسيبويه واضع كتابه ومهذب أبوابه. ولم يشغل به الكوفيون إلا بعد ذبوعه بالبصرة وما جاروها: أخذوه عن البصريين وجاورهم في تلقيه وتدوينه، ونافسوه في تحصيله وتفصيله. واشتد الحجاج واللجاج بين الفريقين حتى كان لكل منهما مذهب يؤيده ويعضده. ومنشأ الخلاف بينهما أن البصريين يقدمون السماع: فلا يرون القياس إلا في حال تضطرهم، ويتشددون في الرواية، فلا يأخذون إلا عن الفصحاء الخالص من صميم العرب لكثرة هؤلاء بالبصرة، وقرنها من عامر البادية. أما الكوفيون فلخلاطهم أهل السود والنبط يعتمدون في أكثر المسائل على القياس، ولا يتخرجون في الأخذ عن أعراب لا يؤمن البصريون بفصاحة لغتهم. فأهل البصرة أوسع دراية، وأوثق رواية؛ ولكن العباسيين آثروا الكوفيين عليهم لالتجائهم إليهم، ولقرب الكوفة من بغداد وتشيعهم لني هاشم. فانتشر مذهبهم في حاضرة الخلافة. ولولا الغرض السياسي ما كان لهم شأن يذكر ولا قول يؤثر. وظل الجدل بين الفريقين على أشده حتى تخرب المصران، فجلا علماؤهم إلى بغداد، ونشأ مذهب البغداديين خليطاً من المذهبين، كما نشأ مذهب الأندلسيين حينما عبر النحو إلى الأندلس. وما ابتدأ القرن الرابع حتى انقرضت فرسان المذهبين، وضعفت أنصار الفئتين، فانقطع النزاع، وانحسم الجدل، وجرى المؤلفون على المذهب البصري فبسطوه وشرحوه واقتصروا من المذهب الكوفي على ذكر الخلاف.

ثم طال الكلام بعدئذ في هذا العلم فتباعدت حدوده، وتشعبت أطرافه، حتى جاء المتأخرون فقصورا ذلك الطول واقتصروا على المبادئ كما فعل ابن مالك في التسهيل، والزمخشري في المفصل. على أن هذا العلم مُني بطائفة

من فلاسفة النحاة وسعوا الجدل فيه، فقلبوا وجوه لألفاظ، وأحيوا موات اللغات، وخلطوا الشاذ بالصحيح، وجاءوا بالتعليقات الباردة والتقديرات الفاسدة والأقوال المتضاربة، حتى وصلوا بالنحو إلى حال لا يعجز فيها المخطئ عن قول يبرر به وهمه، وحجة يؤيد بها زعمه.

وها نحن أولاء نترجم بأربعة من نابهي النحاة عدا من ترجم به منهم في غير هذا الباب، واقفين عند ذلك جرياً على ما نهجناه لأنفسنا في هذا الكتاب.

النحاة

سيبويه

(المتوفى سنة 177 هـ)

نشأته وحياته

ولد إمام البصريين أبو بشر عمرو بن عثمان لملقب بسيبويه (رائحة التفاح) ببلاد فارس ونشأ بالبصرة. وكان بدء أمره يطلب الحديث والفقه، حتى كان ذات يوم يستملى على حماد بن سلمة، فأملى عليه قول النبي صلى الله عليه وسلم: " ليس من أصحابي أحد إلا من لو شئت لأخذت عليه ليس أبا الدرداء "، فقال سيبويه: " ليس أبو الدرداء " فصاح به حماد: لحت يا سيبويه؛ إنما هذا استثناء " فقال: " لا جرم لأطلبن علماً لا يلحنني معه أحد " فطلب النحو ولازم الخليل، وأخذ عن يونس وعيسى ابن عمر، حتى حذق هذه الصناعة وأحاط بأصولها وفروعها، ووقف على شاذها ومقيسها. ثم وضع كتابه المشهور سرد فيه ما أخذه عن الخليل وأضاف إليه ما نقله عن نحاة المصريين ناسباً إلى كل منهم قوله. فجاء كتابه فريداً في فنه، سديداً في منهجه، ليس وراءه مذهب لطالب ولا مساغ لمستفيد. وقد بلغ من إجلال القوم لهذا المؤلف أن اقتصروا في تسميته على " الكتاب " فإذا أطلق هذا اللفظ عند النحاة لا ينصرف إلا إليه. وكان المبرد إذا أراد مريد أن يقرأه عليه يقول له: " هل ركبتم البحر؟ " تعظيماً له واستصعاباً لما فيه. وقال أبو عثمان المازني: " من أراد أن يعمل كتاباً كبيراً في النحو بعد سيبويه فليستح " ولولا هذا الكتاب لخمّل ذكر صاحبه.

ولما آنس سيبويه من نفسه التفوق في النحو وفد إلى بغداد وقصد البرامكة؛ والكسائي يومئذ لها يعلم الأمين ابن الرشيد. فجمع بين الرجلين يحيى ابن خالد. فتناظرا في مجلي أعد لذلك. فكان من أسئلة الكسائي لسيبويه قوله. ما تقول في قول العرب " كنت أظن أن العقرب أشد لسعة من الزنبور فإذا هو إياها " فقال سيبويه " فإذا هو هي، ولا يجوز النصب " فقال الكسائي "

بل العرب ترفع ذلك وتنصبه " فلما اشتد الخلاف بينهما تحاكما إلى أعرابي خالص اللهجة، فصوب كلام سيبويه ولكن الأمين تعصب للكسائي لأنه معلمه ولأنه كوفي وضيع الخلفاء كما علمت مع هؤلاء - فأراد الأعرابي على أن يقول بمقالة الكسائي. فلما أحس سيبويه تحامل الأمراء عليه وقصدهم بالسوء إليه غادر بغداد وارتد مغموماً إلى قرية من قرى شيراز تعرف بالبيضاء حيث توفي بالغاً من العمر أربعين سنة ونيفاً.

الكسائي

(المتوفى سنة 189 هـ)

نشأته وحياته

هو إمام الكوفيين أبو الحسن علي بن حمزة الملقب بالكسائي. نشأ بالكوفة وأخذ القراءة عن حمزة الزيات، وتميز بقراءة خاصة فعد من القراء السبعة. ولم يكن له يد في الشعر، حتى قيل " ليس في علماء العربية أجهل من الكسائي بالشعر " وبلغه الكبر وهو لا يدري من النحو شيئاً؛ فأقبل ذات يوم على بعض إخوانه من طلاب العربية وقال متأوها من مشي طويل: " لقد عييت! " فقالوا له: تجالسنا وأنت تلحن! " فقال كيف لحت؟ فقالوا له: إن كنت أردت من التعب فقل أعييت. وإن كنت أردت من انقطاع الحيلة فقل عييت " أنف من ذلك التجيه ولزم معاذاً الهراء والرؤاسي من نحاة الكوفة حتى حصل ما عندها وزار الخليل بالبصرة فأعجب به وسأله: أني لك هذا العلم؟ فقال الخليل: من بوادي الحجاز ونجد تهامة. فخرج الكسائي إلى البادية فطاف أحياءها، وسمع فصحاءها، حتى استكمل حظه من الرواية، واستوفى قسطه من اللغة. ولما رجع من البادية استقدمه المهدي واستخلصه لنفسه. ثم أقامه الرشيد مؤدباً لولده الأمين. وعظمت مكانته عنده حتى كان يجلسه هو والقاضي محمد ابن الحسن على كرسيين متميزين بحضرته وبأمرها ألا ينزعجا بقيامه ومجيئه ومكثا معه على هذه المنزلة حتى خرج إلى الري وهما بصحبته، فماتا في يوم واحد برئبويه على مقربة من الري فبكاهما وقال: دفنت الفقه والعربية بالري "

مؤلفاته

أنهت إلى الكسائي الزعامة في العربية والقراءة بالكوفة وبغداد وألف فيهما نحواً من عشرين كتاباً. منها كتاب معاني القرآن. وكتاب النحو. وكتاب النوادر، وكتاب الهجاء، ورسالة في لحن العامة.

الفراء

(144 - 207 هـ)

نشأته وحياته

ولد أبو زكريا يحيى بن زياد الفراء بالكوفة. ولزم الكسائي حتى استمد منه وتخرج عليه. وشافه الأعراب وأخذ عنهم. ثم نظر في علوم كثيرة من الطبيعة والنجوم وأخبار العرب وأشعارها، فامتاز بذلك من أستاذه الكسائي. وكان ميالا إلى مذهب المعتزلة. ويحب النظر في علم الكلام عن غير أن يكون له طبع فيه، فاكسب بذلك ملكه النظام والترتيب، قوة الاستنباط والتعليل، ولا يعرف في الكوفيين من خدم اللغة العربية وغيره. قال أبو العباس ثعلب: (لولا الفراء لما كانت اللغة العربية. لأنه حصلها وضبطها ولولاه لسقطت) وقال أبو بكر الأنباري: (لو لم يكن لأهل بغداد والكوفة من علماء العربية إلا الكسائي والفراء لكان لهم بهذا الافتخار على جميع الناس).

ولما عظم أمره خرج إلى بغداد فمهد له الكسائي الإقامة بها وخلفه علي درسه بعد موته. فلما ولى المأمون اتصل به ونفق عنده وعهد إليه بتعليم ولديه الأدب. واقترح عليه أن يؤلف ما يجمع أصول النحو وما سمع من العربية. وأمر أن تفرد له حجرة من الدار ووكل به جواري وخداماً، وسير إليه الوراقون يكتبون ما يملى حتى صنف كتاب الحدود في ستين. ثم خرج للناس فأملى كتاب المعاني فخرنه الوراقون عن الناس ليكتسبوا بنسخة كل خمس أوراق بدرهم. فشكا الناس إليه. فلما أبوا إخراج كتابه أخذ يملى كتاباً آخر في المعاني أطول وأوسع فخاف الوراقون ورضوا أن ينسخوا كل عشر أوراق بدرهم.

وعظم قدر الفراء في الدولة حتى تسابق ولدا المأمون إلى تقديم نعليه إليه حينما يهيم بالخروج، ثم اصطلحا على أن يقدم كل منهما فرداً. وبلغ المأمون ذلك فاستدعاه وقال له: "من أعز الناس؟" فقال "ما أعرف أعز من أمير المؤمنين" قال: "بلى، من إذا نهض تقاتل على تقديم نعليه وليا عهد المسلمين" فقال: "يا أمير المؤمنين لقد أردت منعهما عن ذلك، ولكني

خشيت أن أدفعهما عن مكرمه سبقا إليها، أو أكسر نفسيهما عن شريفة حرص عليها؛ فقال له المأمون: " لو منعتهما عن ذلك لأوجعتك لوماً. وما وضع ما فعلاه من شرفهما، بل رفع من قدرهما وبين من جوهرهما. وليس يكبر الرجل وإن كان كبيراً عن ثلاث: عن تواضعه لسلطانه ووالديه ومعلمه " .

وللفراء مؤلفات كثيرة كان يملئها على تلاميذه دون كتاب لقوة حافظته. وكان أكثر مقامه في بغداد، فإذا كان آخر السنة خرج إلى الكوفة فأقام بها أربعين يوماً بين أهله يفرق عليهم ما جمع حتى توفي سنة 207 هجرية.

ابن الحاجب

(المتوفى سنة 646 هـ)

نشأته وحياته

ولد أبو عمرو عثمان بن عمر المعروف بابن الحاجب بإسنا من صعيد مصر. وكان أبوه كردياً يتولى الحجابة للأمير عز الدين موسك الصلاحي فقدم القاهرة صغيراً واشتغل بالقرآن حتى حفظه، وتفقّه في الدين على مذهب الإمام مالك. وتلقى القراءات وشارك في سائر العلوم، وغلب عليه علم العربية. ورحل إلى دمشق فقرأ بجامعة أمالي في النحو على مواضع من المفصل والكافية. ثم عاد إلى الإسكندرية فقضى بها نحبه سنة 646 هـ.

مؤلفاته

له من المؤلفات كتابا الكافية والشافية في النحو، وكتاب المقصد الجليل في علم الخليل في العروض، والأمالي النحوية، ومنتهى السؤل والأمل، في علم الأصول والجدل، وهو مطول على مذهب الإمام مالك اختصره في كتاب يعرف بمختصر ابن الحاجب، وكتاب جامع الأمهات في الفقه.

علم الفقه

فسدت ملكة اللسان في الحركات فاستنبط العلماء قوانين لضبطها فما أغنت عن اللغة وما بطأت باللحن. بل تطرق ذلك الفساد إلى مدلولات الألفاظ واستعمالها، ففزعوا في حفظهما إلى الكتابة والتدوين ضناً بكتاب الله ولسان العرب على الجهالة والدروس. بدأ بذلك بعض أئمة العربية فأملوا كتباً صغيرة في الألفاظ الخاصة بخلق الإنسان أو الجمل أو الخيل أو النبات. فلما جاء الخليل ابن أحمد مهد الطريق إلى ضبط اللغة وتدوينها بوضعه كتاب (العين)، فإنه أحصى ما يتركب من حروف المعجم من الشائي والثلاثي والرباعي والخماسي بمتولية حسابية أبانت له عدد المهمل والمستعمل، ورتبه على مخارج الحروف من الحلق فاللسان فالأسنان فالشففتين، وبدأه بحروف العلة. وقد اختصره أبو بكر الزبيدي المتوفي سنة 279 لهشام المؤيد بالأندلس، وشاع هذا المختصر حتى فضل على أصله ومضى على معجم الليل أكثر من قرن لم يدون في اللغة غيره، حتى جاء أبو بكر ابن دريد فاستمد منه ومن غيره كتاب الجمهرة ورتبه على حروف المعجم، وتلاه الأزهري فصنف كتاب التهذيب على ترتيب الخليل. ثم وضع الجوهري من المشرقين كتاب الصحاح، وابن سيده من الأندلسيين كتاب المحكم، وابن فارس كتاب المجمل. وتلك هي أصول المعجمات وأسسها. أما غيرها من العباب والتكملة والنهاية ولسان العرب والقاموس فهي جمع لها أو اختصار منها.

ومما يجمل التنبيه إليه والثناء عليه كتاب فقه اللغة للثعالبي المتوفى سنة 429 فقد فرق فيه بين الوضع والاستعمال، وجمع به المعاني المترادفة والمتقاربة في باب واحد، مبيناً ما بينهما من فروق وما نالها من تدرج أو تفرع؛ وكتاب أساس البلاغة للزمخشري المتوفى سنة 538، فإنه بين ما تجوزت به العرب من الألفاظ والمدلولات. وإنك لتجد في هذين الكتابين من الكشف عن خصائص اللغة، والفحص عن أسرار العربية، ما لا غنية عنه لكاتب، ولا غاية بعده لطالب.

اللغويون

الخليل بن أحمد

(100 - 174 هـ)

نشأته وحياته

ولد أبو عبد الرحمن الخليل بن أحمد الفراهيدي بالبصرة ونشأ بها؛ وأخذ النحو والقراءات والحديث عن أئمة العربية وعلية الرواة كأبي عمرو ابن العلاء وعيسى ابن عمر. ثم أبدى فسمع الفصح وجمع الغريب حتى نبغ في اللغة نبوغاً لا يعرفه التاريخ غيره. وأخذ عن سيبويه وعن نفر من الأئمة كالنضر ابن شميل ومؤرج السدوسي. وبقي بالبصرة مقيماً طول حياته على فاقة وتقشف، نزوعاً بنفسه عن مواقف الضراعة، وتجاوياً بها عن مطارح الهوان؛ حتى قيل إن سليمان ابن علي وجه إليه من الأهواز لتأديب ولده، فأخرج الخليل إلى رسول سليمان خبزاً قفاراً وقال له: "كل، فما عندي غيره، وما دمت أجده فلا حاجة بي إلى سليمان" وأنكب ذلك الرجل العظيم على العلم يستنبط ويؤلف ويعلم حتى ذهبته نفسه في سبيله. فقد روى أنه قال: أريد أن أعمل نوعاً من الحساب تمضي به الجارية إلى البقال فلا يظلمها. فدخل المسجد وهو يعمل فكره، فاصطدم في سارية صدمة شديدة ارتج منها مخه رجة أودت بحياته.

علمه وعمله

كان الخليل غاية في تصحيح القياس وتعليل النحو واستنباط مسائله؛ وأكثر كتاب سيبويه منقول عنه أو مستمد منه. وكان عل معرفة بالموسيقى: وضع أول كتاب فيها على غير إمام بلغة أجنبية ولا علم بآلة موسيقية. وساعده بصره بالنغم على اختراع علم العروض لما بين الإيقاع في الأنغام والتقطيع في الأجزاء من الشبه؛ فضبط أوزان الشعر الخمسة عشر، وحصرها في دوائرها الخمس ووقعها على المقاطع والحركات. وشغل بذلك نفسه

ووقته حتى كان يقضي الساعات في حجرته يوقع بأصابعه ويحركها. فاتفق أن رآه ولده على تلك الحال فظن به مساً من خيال، فقال له الخليل:

لو كنت تعلم ما أقول عذرتني أو كنت تعلم ما تقول عذلتكما

لكن جهلت مقالتي فعذلتني وعلمت أنك جاهل فعذرتكما

والخليل أول من ضبط اللغة، وابتكر المعجمات، ووضع للخط هذا الشكل المستعمل.

مؤلفاته

ألف كتاب العين في خراسان وسماه بأول لفظ منه كعادة السلف ووافته المنية دون إتمامه، فقصد إلى ذلك بعض تلاميذه فقصر عنه، فجاء الكتاب مضطرباً مختلاً وله غيره كتاب النغم، وكتاب العروض، وكتاب الشواهد، وكتاب النقط والشكل، وكتاب الإيقاع.

ابن دريد

(223 - 321 هـ)

نشأته وحياته

أبو بكر محمد بن الحسن بن دريد ولد بالبصرة ونشأ لها وأخذ العلم عن علمائها كالرياشي والسجستاني، ثم غادرها في فتنة الزنج إلى عمان، فأقام بها اثنتا عشرة سنة يأخذ اللغة والشعر عن الأعراب. ثم عاد إلى البصرة ومنها شخص إلى بلاد فارس منتجعاً الشاه ابن ميكال ووالده، وهما يومئذ على عمالة فارس، وألف لهما كتاب الجمهرة في اللغة، وامتداحهما بالمقصورة، فقلدها الديوان فكانت تصدر كتب فارس عن رأيه، ولا ينفذ أمر إلا بتوقيعه. ولما عزل ربنا ميكال عن عمالة فارس وانتقلا إلى خراسان قدم ابن دريد إلى بغداد عام 380 فاحتفى به الوزير على ابن الفرات وأفضل عليه. وعلم الخليفة المقتدر به وبمكانه من العلم فأجرى عليه خمسين ديناراً في كل شهر كفته مؤونة السعي. فانقطع إلى العلم والأدب، وعطف على التأليف، حتى أصيب بالفالج فمات سنة 321.

أخلاقه وعلمه

كان ابن دريد مولعاً بآلات الطرب. مدمناً للخمر، مفيداً للمال، مبيداً له في اللهو والهبات، حتى أن سائلاً سأله شيئاً فلم يجد ما يعطيه إياه إلا دن نبيذ. فأنكر عليه غلامه ن يتصدق به فقال: ليس عندي سواه. وقرأ قوله تعالى: ﴿لَنْ نَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ﴾ [آل عمران: 92] ثم اتفق أن أهدي إليه بعد ذلك عشرة دنان، فقال لغلامه: الحسنة بعشر أمثالها. أخرجنا دنأ فجاءت عشرة.

وقد نبغ ابن دريد في اللغة والأدب والأنساب وقام في ذلك مقام الخليل ابن أحمد. وبرع في الشعر حتى قيل فيه: إنه أفقه الشعراء وأشعر الفقهاء. وقد وضع على العرب أربعمئة حديث سلك فيها مسلك الرواية والحكاية، وتوخي فيها جمال الإنشاء، فدل بها على قوة طبعه في الكتابة وهي منشورة في خلال كتب الأدب لا تكاد تميزها مما يروي عنه من الأخبار والنوادر. ويظن أنها

كانت الملهم الأول لابتداع فن المقامات، وله نظم جزل رقيق يدل على ملكة قوية وقريحة سخية، خيره مقصورته، وهي تسعة وعشرون ومائتا بيت، جمعت كثيراً من أخبار العرب وأمثالهم وحكمهم: وقد شرحها كثير من العلماء، وعارضها غير واحد من الشعراء: يقول في مطلعها:

إمّا ترى رأسي حاكي لونه طُرةٌ صبح تحت أذيال الدجى
واشتعل المبيض في مسوده مثل اشتعال النار في جزل الغضا
ومنها:

الناس كالنبت فمنه رائق غصن نضير عوده مر الجنى
ومنه ما تقتحم العين، فإن ذقت جناه انساغ عذبا في اللها
والناس ألف منهم كواحد وواحد كالألف إن أمر عني
وللفتى من ماله ما قدمت يده قبل موته لا ما اقتفى
وإنما المرء حديث بعده فكُن حديثاً حسناً لمن وعى
واللوم للحر مقيم رادع والعبد لا يردعه إلا العصا
وأفة العقل الهوى، فمن علا على هواه عقله فقد نجا
كم من أخ مسخوطة أخلاقه أصفيته الود لخلق مرتضى
إذا بلوت السيف محموداً فلا تدممه يوماً أن تراه قد نبا

مؤلفاته

له غير المقصورة كتاب الجمهرة في اللغة، وكتاب الاشتقاق في أسماء القبائل والعمائر وشعرائها وفرسانها، وكتاب السحاب والغيث، وأخبار الرواة وغير ذلك.

علوم البيان

الغالب في الظن أن أول من تكلم في علم البيان أبو عبيدة في كتابه مجاز

القرآن عقب أن سئل عن معنى قوله تعالى: ﴿طَلَعَهَا كَأَنَّهُ رُءُوسُ الشَّيْطَانِ﴾ [الصافات: 65] فأجاب بأنه كقول امرئ القيس:

أَيَقْتَلْنِي وَالْمَشْرِفِي مُضَاجِعِي وَمَسْنُونَةُ زَرْقٍ كَأَنْيَابِ أَغْوَالِ

وانقضى العصر العباسي الأول ولم يدون في علم المعاني إلا ما أثر عن فحول الكتاب في حد البلاغة جواباً لسؤال أو عرضاً في مقال، حتى جاء الجاحظ فألم ببعض أغراضه في كتابه البيان والتبيين. وحذا حذوه قدامة الكاتب وأبو بكر ابن دريد وأبو هلال العسكري؛ إلا أن هؤلاء وإن تكلموا فيه فليسوا واضعيه لقصور كتابتهم وعموم عبارتهم. وإنما يعرف الفضل في وضع هذا الفن للإمام عبد القاهر الجرجاني المتوفى سنة 471، وللإمام أبي يعقوب السكاكي المتوفى سنة 626: ذلك اخترع مباحثه وقعد قواعده، وهذا مخض زبدته وماز المعاني من البيان فجعلهما علمين مستقلين.

أما علم البديع فأول من ألف فيه عبد الله ابن المعتز. جمع منه سبع عشر نوعاً ووقع معاصره قدامة ابن جعفر على عشرين توارده معه على سبعة منها. ثم اقتفاهما الناس بالاستخراج حتى بلغت الأنواع في خزانة الأدب لابن حجة الحموي المتوفى سنة 837 اثنين وأربعين ومائة نوعاً!

ولا تزال هذه الفنون بعيدة عن الكمال لنشوئها عند استضعاف العرب واستعجام اللغة. والمشاركة أقوم عليها من المغاربة، لعناية العجم بها وبعد نظرهم فيها. ولم يعن المغاربة إلا بالبديع لسهولة مأخذه فألحقوه بفنون الشعر وفرعوا ألقابه وعددوا أبوابه.

التاريخ

بدأ تدوين التاريخ عند العرب في مستهل هذا العصر. وكان يومئذ مقصوراً على ما يقتضيه الدين من فروعه " كالمغازي " للوقوف على الأزمنة والأمكنة التي نزلت بها الآيات وقيلت فيها الأحاديث. " والطبقات " للتعريف برواة الشريعة ووعاة الأدب من الصحابة والتابعين. والعرب أسبق الأمم كافة إلى هذا النوع من التاريخ. " والأنساب " لتمييز أشرف القرشيين وسادات القبائل، فتعلم مراتبهم، وتقدر روايتهم. " وأيام العرب " لتفهم أغراض الشعر بمعرفة أسبابه. واشتهر الكاتبين في هذه الأنواع على الترتيب ابن إسحاق المتوفى سنة 151، والواقدي المتوفى سنة 207، وابن سعد المتوفى سنة 230، والكلبي المتوفى سنة 206، والأصمعي المتوفى سنة 216.

فلما وقف العرب على ما ترجم من تواريخ الأمم، وانقضت الحاجة إلى التاريخ الخاص بانقضاء أسبابه، خطوا في التاريخ خطوة واسعة، واختلطوا فيه خطة جامعة. فكتب عمدة المؤرخين محمد ابن جرير الطبري المتوفى سنة 310 تاريخه العام مرتبة حوادثه على السنين فنهج المؤرخون طريقته في التصنيف. وفضلوه بما أدخلوه في كتبهم بعد من المباحث العلمية والأدبية كأبي زيد البلخي⁽¹⁾. صاحب كتاب البدء والتاريخ المتوفى سنة 222، والمسعودي صاحب مروج الذهب المتوفى سنة 346، وابن النديم صاحب الفهرست المتوفى سنة 385 وابن مسكويه صاحب تجارب الأمم المتوفى سنة 421. ثم عنى المؤرخون بتذليل كتب التاريخ المدونة عن التأليف فيه. فتعاقب جماعة منهم على الطبري بالتذليل والتكميل حتى مدوه إلى سنة 616. وجاء خاتمة مؤرخي هذا العصر أبو الحسن علي ابن الأثير⁽²⁾ ففصل كتابه الكامل من الطبري وأضافه إلى سنة 637 هـ.

(1) كان المعروف أن أبا زيد البلخي هو صاحب هذا المتاب، ولكن الأستاذ كليمان هيار المستشرق الفرنسي الذي طبعه عن نسخة مخطوطة فذة جلبها من مكتبة بالآستانة، وترجمه إلى اللغة الفرنسية أثبت بعد طبعه الجزء الأول منه أنه للعطهر ابن طاهر لمقدسي المقيم بيسست من أعمال سجستان، لقرائن وجبهة وأدلة قوية، ذكرها في مقدمة الجزء الثاني والثالث من الكتاب.

(2) ابن الأثير هو عز الدين أبو الحسن علي ابن محمد الشيباني ولد سنة 555 بجزيرة ابن عمر بالجزيرة. ورحل هو وأخواه صاحب النهاية في غريب الحديث، وضياء الدين صاحب المثل السائر مع

مذهب العرب في التاريخ

للعرب في كتابة التاريخ طريقتان: إما أن يسردوا السنين وما وقع فيها من الحوادث في أي مكان مسندة من غير اتصال ولا رابطة، كما فعل ابن جرير الطبري وابن الأثير الجزري وأبو الفداء. وتلك الطريقة على إضجارها القارئ هي الأصلية عندهم كما يؤخذ من تسميتهم هذا الفن بالتاريخ: أي التوقيت. خلافاً لتسمية اليونان إياه بالحكاية أو القصة لروايتهم الوقائع بأسلوب شائق ونمط بديع. وإما أن يسوقوا الحوادث باعتبار الأمم والدول كما فعل المسعودي وابن الطقطقي وابن خلدون وابن العبري.

على أن أرباب الطريقتين على كثرة ما كتبوا لم يهتدوا إلى طريق الفن، ولم يوفقوا إلى إتقانه، لقلة الوسائل عندهم، وتأثير الحاكمين فيهم، فجانبوا سبيل النقد محابة للخلفاء ومهاوأة للملوك، وكالوا الحوادث جزافاً دون تحقق من صوابها، ولا نظر في أسبابها وأعقابها، وأمسكوا عن الخوض في أحوال الأمة الاقتصادية والاجتماعية والأدبية، قانعين بأخبار الحرب والفتح والولاية والعزل والولادة والوفاء، وفاتهم أن تطور الأحوال وتغير الميول في طبقات الأمة له أثر عظيم في سياستها. وأعجب الأشياء أن ابن خلدون وهو أسبق علماء الأمم إلى فلسفة التاريخ لم يبرأ من أكثر هذه العيوب.

على أن لمؤرخينا العذر في هذا القصور، فإن فن التاريخ لا يتسنى إتقانه إلا بتوفير وسائله واستكمال علومه: كعلم المسكوكات، وعلم السجلات، وعلم العاديات وعلم الاقتصاد، وعلم الإحصاء، وعلم النقد، وجهل العرب بهذه العلوم كلها أو جلها ساقهم إلى الأخذ بظواهر الحوادث، وعاقهم عن وضع التاريخ بمعناه الحديث.

=

أبيهم إلى الموصل فتخرجوا على علمائها: وطاف هو في بعض بلاد الشرق طلباً للجاه وتحصيلاً للعلم. ثم انقطع في الموصل إلى الدرس والتأليف فوضع كتابه في التاريخ وكتاب (أسد الغابة في معرفة الصحابة) وتوفي سنة 630.

العلوم الشرعية

علم الحديث

كان أبو جعفر المنصور بعد عمر بن عبد العزيز أول من عنى بتدوين الحديث مخافة ذهابه بموت أصحابه. فأمر مالك ابن أنس بوضع الموطأ فوضعه جامعاً بين الحديث والفقه. ثم تبارى العلماء في تحصيل الحديث توسعاً في الفقه، وتذرعاً إني الفضل، فراجت بضاعته، وانتشرت روايته. وقضى الله أن يندس بين رجاله كثير من أتباع الضلالة وأشياء الفرق فتقولوا على الرسول وأدخلوا زور الحديث على أغفال الرواة فكثرت المفتريات وعمى على الناس الحق. فشمّر لأئمة الحديث بالنقد والتمحيص، وللرواة بالجرح والتعديل. وكان أسبقهم إلى ذلك إسحاق ابن راهويه المتوفى سنة 238 فماز الحديث من الفقه. وتلاه شيخ الحديث البخاري، وإمام السنة مسلم، فجمعوا الأحاديث في كتابيهما. ثم ظهر بعدهما أربعة كتب في عصر واحد تمت بها الستة الصحاح. وهي كتاب أبي عيسى الترمذي 279، وكتاب أبي داود والسجستاني 275، وكتاب أبي عبد الرحمن النسائي 275، وكتاب أبي عبد الله ابن ماجه 273.

وقد أطبق الناس على صحة هذه الكتب فشغلوا بها ما بين جمع وشرح وتلخيص. وكل كتاب بعدها كل عليها وراجع إليها.

المحدثون

البخاري

(194 - 256 هـ)

نشأته وحياته

ولد أبو عبد الله محمد ابن إسماعيل البخاري ببخاري ونشأ بها يتيمًا. فحفظ القرآن وثقف العربية وطلب الحديث في التاسعة من عمره. ولم يكد يبلغ الحلم حتى حفظ منه عشرات الألوف. وفي سنة 211 خرج إلى مكة حاجاً مع أمه وأخيه. فعاد هذان وتخلف هو للتوسع في الحديث فرحل إلى معظم الممالك الشرقية وروى عن علمائها وأخذ عن فقهاء حتى أرجعه الجد العائر إلى بلاده فابتلى فيها بفتنة القول بخلق القرآن، فأفتى بأنه قديم غير مخلوق، فأخرج من بخاري مطروداً، فلاقته المنية بقرية على ثلاثة فراسخ من سمرقند.

جمع كتابه " الجامع الصحيح " في ست عشرة سنة وضمنه تسعة آلاف حديث تنخلها من ستمائة ألف. وفيها ثلاثة آلاف مكررة بتكرار وجوهها. وقد أجمع العلماء على أنه أصح كتاب في الحديث حتى من " صحيح مسلم ":

مسلم بن الحجاج

(206 - 261 هـ)

هو أبو الحسين مسلم بن الحجاج القشيري. ولد سنة 206 ورحل في طلب الحديث إلى الحجاز والعراق والشام ومصر. وقدم بغداد غير مرة، وأخذ عن البخاري وصادقه ودافع عنه. وروى عن ابن حنبل وابن راهويه، وجمع صحيحه من ثلاثمائة ألف حديث. وهو ثاني صحيح البخاري في الصحة والمكانة... ثم ألقى عصا الرحيل بنيسابور، وعاش بها وادعاً في ظل ثروته وربح تجارتته حتى لقي ربه.

علم الفقه

في صدر الإسلام كانت نشأة هذا العلم وفي عصر بني العباس كان تحريره وتدوينه ونضجه. وكانت المدين حيثنذ عش الفقهاء ومقر المحدثين وكعبة طلاب الفقه ورواة الحديث. فلما استقر ملك العباسيين في العراق انتشر الفقه بين أهله، ونبغ فيه جماعة منهم نهجوا غير سبيل الحجازيين في التشريع. فقهاء الحجاز لمكانتهم من الرواية وتوسعهم في الحديث بنوا أحكامهم على النصوص، فلا يرجعون إلى القياس الجلي أو الخفي ما وجدوا خبراً أو أثراً. وهم أهل الحديث وزعيمهم مالك ابن أنس. وفقهاء العراق لتشددهم في الرواية، وقلة بضاعتهم من السنة، وتأثير الجنسية الآرية فيهم، عمدوا إلى القياس في استنباط الفقه. وهم أصحاب الرأي وزعيمهم أبو حنيفة النعمان. واقتضت سياسة المنصور أن يظهر العراق على الحجاز، وبغداد على المدينة، والفرس على العرب، فاستقدم أبا حنيفة إلى بغداد وأكرمه وعزز مذهبه، فانتشر بالعراق وفارس وخراسان والهند والصين والترك. واقتصر مذهب مالك على الحجاز والمغرب الأقصى والأندلس. ثم جاء محمد ابن إدريس الشافعي وهو أحد أتباع مالك، فرحل إلى العراق وأخذ عن أصحاب أبي حنيفة مسائل القياس وانفرد بمذهب بين المذهبيين. وساعدته الرحلة إلى مصر على تنقيح مذهبه، فوضعه وضعاً جديداً ونشره بها. ثم نبغ من بعده أحمد ابن حنبل فقبس الحديث منه والقياس من بعض الحنفية، واختص بمذهب آخر انتشر في بلاد نجد والبحرين تقيد فيه بالسنة وتشدد في الفروع.

وهذه هي المذاهب الربعة التي قامت على عماد الكتاب والسنة الصحيحة ووقفت عندها الاجتهاد وانتهى إليها التقليد في سائر الأمصار.

الفقهاء

أبو حنيفة النعمان

(80 - 150 هـ)

نشأته وحياته

هو النعمان بن ثابت مولى تيم الله من أهل الكوفة، وأصل أبيه من فرس كابل. كان أول أمره خزازاً، ثم أقبل على علوم الدين فأخذها ممن شافه الصحابة ونقل عنهم. واشتهر بالنبوغ فيها حتى أراد المنصور على أن يلي القضاء فأبى وقال: " اتق الله ولا ترع في أمانتك إلا من يخاف الله. والله ما أنا مأمون الرضا فكيف أكون مأمون الغضب؟ " فقال له المنصور: كذبت! أنت تصلح. فقال له: قد حكمت لي على نفسك. كيف يحل لك أن تولي قاضياً على أمانتك وهو كذاب؟.

فلم يقتنع المنصور وألقاه في السجن فلبث فيه حتى قبضه الله إليه. والراجح أن هذا سبب مفتعل، وما سجنه المنصور إلا لميله إلى العلويين.

صفته وأخلاقه

كان أبو حنيفة ربعة في الرجال تعلوه سمرة، وكان من أحلى الناس نغمة وأجهرهم صوتاً وأطلقهم لساناً. وكان كثير الخشوع، طويل الصمت، قليل الدعوى، بعيداً عن الغيبة، لا يذكر أحداً بسوء ولو كان له عدواً.

علمه وأدبه

كان راسخ القدم في علوم عصره إلا العربية، فقد كان يرتضخ لكثرة أعجمية ولا يقيم لسانه لحناً. وكان قوي الحجة حتى قال عنه الإمام مالك: "إنه رجل لو كلمته في هذه السارية أن يجعلها ذهباً لقام بحجته " وهو أول من بوب الفقه وحرر فصوله ورتب قياسه وقال فيه بالرأي لكثرة الوضاعين من زنادقة العراق، وحرصه على ألا يأخذ بالشك في دينه. فلم يصح عنده إلا سبعة عشر حديثاً. تخرج عليه فقهاء العراق والكوفة القاضي أبو يوسف (182)

ومحمد ابن الحسن (189) وزفر ابن الهذيل (158) وغيرهم. وقد ينسب إليه كتاب الفقه الأكبر في أصول الدين، وكتاب المخارج في الحيل، ووصيته لأصحابه في الأصول.

مالك بن أنس

(95 - 179 هـ)

نشأته وحياته

ولد أبو عبد الله مالك ابن أنس الأصبحي بالمدينة ونشأ بها، وأخذ العلم عن ربيعة الرأي (126) وتعمق في علوم الدين حتى صار حجة في الحديث وإماماً في الفقه. قيل إنه أفتى بخلع المنصور ومبايعه محمد ابن عبد الله من آل علي، فأحفظ ذلك جعفر ابن سليمان عم الخليفة وأمير المدينة فجرده وضربه سبعين سوطاً فما ازداد إلا علاء وشرفاً. وما عثم المنصور أن أعذر إليه وترضاه وقال له " لم يبق في الناس أفقه مني ومنك. وقد شغلتنى الخلافة، فضع للناس كتاباً ينتفعون به وتجنب رخص ابن عباس وشدائد ابن عمرو وشواذ ابن مسعود ووطئه للناس توطئة " فصنف الموطأ. سمعه عليه المهدي ثم الرشيد سنة 174 وظهرها عليه ثوب النعمة. وبقي مشرقاً لنور العلم، وقبله لرواة الحديث، وعمدة للفتوى حتى أتاه اليقين بالمدينة.

صفته وأخلاقه

كان مالك أشقر شديد البياض، أصلع كبير الرأس، حسن البزة وقوراً مهيباً عفيفاً لا يحدث إلا على وضوء، ولا يركب دابة في دار الهجرة على ضعفه. وكان أميناً على العلم فلا يرفع أن يقول في الشيء لا يعلمه: (لا أدري).

علمه وفضله

كان مالك من حجج الله على خلقه. لا يحدث إلا عن صحة، ولا يروي إلا عن ثقة. قد توفر حظه من السنة فبنى مذهبه عليها وانفسح ذرعه في الفقه فانتهت إليه الفتوى. وهو القائل عن نفسه: " قل رجل كنت أتعلم منه ما مات حتى يجيئني ويستفتيني " وبذلك سار المثل. " لا يفتى ومالك في المدينة ". له كتاب الموطأ في الحديث وهو أساس المذهب المالكي، ورسالة في موعظة الرشيد.

محمد الشافعي

(150 - 204 هـ)

نشأته وحياته

هو أبو عبد الله محمد بن إدريس القرشي الشافعي نسبة إلى جد جده. ولد بغزة في فلسطين على مهد الفقر، ونقل بعد عامين إلى مكة، فنشأ في بني هذيل ودرج بينهم، وكانت أمه الأيم تعوله مستعينة ببر ذوي قرابته من قريش. وما كاد يناهز الإدراك حتى أندر في الذكاء والحفظ. قرأ القرآن ودرس العربية وراى البادية في طلب اللغة والأدب، وحفظ الموطأ وما أربى عمره على خمس عشرة سنة. ثم رحل في هذه السن إلى مالك فقراً عليه الموطأ حفظاً. فقال مالك: "إن أحد يفلح فهذا الغلام"، وفي سنة 195 وفد إلى بغداد فالتف حوله علماءها يأخذون عنه، وفيهم أحمد ابن حنبل، ولقى محمد ابن الحسن فبصره بالقياس. ثم دخل مصر عام 199 فاتخذها دار إقامته، وسكن الفسطاط وأملى بجامع عمرو مذهبه الجديد: وعكف على العبادة والإقراء والتأليف حتى اصطفاه الله لجواره فدفن بالقاهرة.

صفته وأخلاقه

كان رضي الله عنه طويلاً نحيلًا، خفيف العارضين، حسن الصوت، والسمت، فصيح المنطق، راجح العقل قوي الحجة، ثقة في دينه كريماً في خلقه.

علمه وفضله

كان افقه الناس في كتاب الله وسنة رسوله، وأبصرهم بأصول العلم والفقه، وحجة في اللغة، وآية في النساب والأخبار. وقد بلغ من المكانة في الأدب والداية في اللغة أن قرأ عليه الأصمعي أشعار الهذليين. وقال أحمد بن حنبل: "ما أحد يحمل محبرة إلا وللشافعي عليه منة".

توسط في مذهبه بين أهل الرأي وأهل السنة. وكثر أشياعه في الأمصار فقاسموا الحنفية مناصب التدريس والفتوى. وشجر الخلاف بين أتباعه

المذهبيين، وتعددت المناظرات، حتى نشأ من ذلك على الخلاف والجدل. والراجح أن الشافعي أول من تكلم في أصول الفقه وصنف فيه. وقد ذكر له صاحب الفهرست ما يربى على مائة مؤلف ليس في أيدي الناس منها إلا كتاب الأم في الفقه في سبعة مجلدات، والرسالة في أصول الفقه، ومسند الشافعي في الحديث.

أحمد بن حنبل

(164 - 241 هـ)

نشأته وحياته

أبو عبد الله ابن حنبل الشيباني، ولد ببغداد، ونشأ بها يتيماً. وطلب الحديث لست عشرة سنة، وقد كثرت روايته، وعرفت ثقافته، وتميز صحيحه، فجاب الأقطار الإسلامية في سبيل تلقيه وجمعه، حتى ألف ألف حديث تنخل منها أربعين ألفاً ونيفاً فدونها في كتابه المسند. وهو من أصحاب الشافعي وصفوة تلاميذه، وقد قال فيه وهو راحل إلى مصر: "خرجت من بغداد وما خلفت بها أتقى ولا أفقه من ابن حنبل".

استنبط مذهبه من الكتاب والسنة وشابه شيء من القياس، فقل أتباعه لبعده عن الاجتهاد وتمسكه بالرواية. وتصدى هو وشيعته لمجادلة المتكلمين ومناضلة الفلاسفة في عصر الرشيد والمأمون. ودعي إلى القول بخلق القرآن زمن المعتصم فأبى، فضرب تسعة وعشرين سوطاً حتى تقطر دمه وغاب رشده واعتل جسمه. ولم ينعم باله إلا في عهد المتوكل نصير السنة. وعاش ما عاش حتى نقله الله إلى در كرامته فشيعة ثمانمائة ألف رجل وستون ألف امرأة. وكفى بذلك شهيداً على رفعة شأنه وعظم خطره.

العلوم العقلية

الفلسفة

كانت حرية الفكر في الإسلام سبباً في تعدد الفرق وظهور المعتزلة. وهم يذهبون إلى تطبيق النصوص الدينية على الأحكام العقلية. وبنو العباس كما علمت أميل إلى القياس والرأي. فاستفاض فيهم هذا المذهب. وانضوى المأمون إلى أهله وصدع بما لم يصدعوا به فقال بخلق القرآن. وضرر نار الجدل بين السنة والاعتزال، وزين له أن يتذرع بمنطق اليونان لقهر خصومه، فهب بترجمة الفلسفة وأنضى الركائب في طلبها، وحدا الناس على النظر فيها والجدل بها: فنشأ من ذلك على الكلام وكان مبدأ لظهور الفلسفة العربية.

أجل إن الفلسفة العربية طور من أطوار الفكر الإسلامي، وحادث من تاريخ التمدن العربي، فكان عدد الفلاسفة قليلاً، وأثرهم في الشرق ضئيلاً، ولكنهم كانوا حلقة اتصال بين الفلسفة القديمة والفلسفة الحديثة ومناراً لأوروبا العائمة يومئذ في غياهب الجهالة، التائهة في مجاهل القرون الوسطى، هداها إلى هذه الحضارة العظمى وتلك الحياة الراقية.

اتخذ المعتزلة من الفلسفة سلاحاً يقارعون به أهل السنة، وأنجى هؤلاء بالظعن عليهم وعليها، وحذروا الناس منهم ومنها، حتى أصبحت الفلسفة مرادفة للزندقة والفيلسوف غرضاً للمقت والسخرية. كان ذلك سرّاً في عهد المأمون والمعتصم والواثق نصراء الفلسفة وظهواء الحكمة، وجهرّاً في عهد المتوكل وأخلاقه محيي السنة ومميتي البدعة فإنهم خفضوا من إشراف الفلاسفة وشدو من شكاتهم، وألجئوهم إلى التستر وعقد المجامع خفية: فكان من ذلك جماعة (إخوان الصفا وخلان الوفا) وهي أشبه بجماعة "الماسون" في رسومها ورموزها. تألفت بالبصرة في أواسط القرن الرابع للبحث في ضروب الفلسفة، والعمل على نشرها، فكتبوا خمسين رسالة غفلاً ضمنوها جملة الفلسفة العربية، وزبدة الحكمة اليونانية. وقد بعثت في الفلسفة روح الحياة ومهدت لها طريق الشيوع. ووافق ذلك تغلب البويهيين على بغداد

(343) وهم شيعيون، ونصرتهم في خذلان السنين، فأخذت الفلسفة تنفق وتذيع، أصابها ما أصاب سائر العلوم من الضعف والدثور.

أما تاريخ الفلسفة في الأندلس فهو أشبه بتاريخها في الشرق. انتقلت إليها زمن عبد الرحمن الأوسط (238) وتشيع لها اقتداء بالمأمون لقرب عهده منه. فنشط لدرسها الأندلسيون وازداد إقبالهم عليها وانصرفهم إليها بوصول رسائل إخوان الصفا إليهم على يد أبي الحكم عمرو الكرمانى سنة 458 فنبغ منهم الفلاسفة وكثر فيهم الحكماء. ولكن اضطهاد العامة لهم كان أكثر، وزرايتهم عليهم كانت أشد: فاستبد الملوك بهم مسaire للشعب، وتحبباً إلى الدهماء، وقيدوا عليهم أنفاسهم، فإذا زل أحدهم في كلمة رجموه أو أحرقوه. وناهيك بما فعله أبو يوسف المنصور الموحدى بهم في أواخر القرن السادس من تمزيق شملهم وتحريق كتبهم.

وهكذا ظل ولاية الأندلس يسوقهم الجهل والاستبداد إلى مطاردة الفلسفة ومحاربتها حتى فرت من وجوههم لائذة بجيرانهم الفرنجة. ولا بدع فللعلم وأهلها دول تدول وسلطان يزول.

الفلاسفة

أول فيلسوف نعرفه من العرب يعقوب ابن إسحاق الكندي المتوفى سنة (246) وكان معاصراً للمأمون بارعاً في الطب والفلسفة والحساب والمنطق والهندسة والنجوم والألحان. وألف في تلك العلوم واحداً وثلاثين ومائتي كتاب حذا فيها حذو أرسطو. وكان أبرع الناس في الترجمة عن اليونانية. ويليه أبو نصر الفارابي المتوفى سنة (239) الملقب بالمعلم الثاني صاحب كتاب السياسة المدنية، ومخترع القانون في الموسيقى. ثم أبو علي ابن سينا وأبو حامد الغزالي. وأما في الأندلس فقد نبغ فيها أبو بكر ابن باجة المتوفى سنة (532) وتلميذه ابن رشد، وابن طفيل المتوفى سنة (581) صاحب رسالة حي ابن يقظان. ويحسبنا أن نترجم بثلاثة من أعلامهم.

ابن سينا

(370 - 428 هـ)

نشأته وحياته

هو الشيخ الرئيس أبو علي الحسين ابن سينا ويسميه الفرنج (avicenne) ولد بقرية من قرى بخاري كان أبوه عاملاً عليها لنوح ابن منصور الساماني. ثم انتقل في طفولته إلى بخاري فحفظ القرآن والأدب وشيئاً من مبادئ العلوم. وورد بخاري إذ ذاك أبو عبد الله الناتلي فاقرأه كتاب إيساغوجي، وخرجه في المنطق فبرز عليه فيه، وبصره بمواضع منه. ثم رغب في علم الطب فتلقى أصوله على أبي سهل المسبجي، ودرس فروعه وحده حتى انتهت إليه الزعامة فيه. فقصده الأطباء من كل صوب يستشيرونه ويقتبسون منه. كل ذلك وسنه على ما قيل لم تجاوز ست عشرة سنة. ثم أبرأ الأمير نوح ابن منصور الساماني من مرض برح به، فقرر به إليه وأذن له في الدخول إلى دار كتبه، فقرأ فيها أثنى الكتب وأجلها. ثم اتفق أن أحرقت تلك المكتبية فتفرد أبو علي بما فيها. ويقال إنه أحرقها لذلك عمداً.

وفي الثانية والعشرين من عمره توفي أبوه فخرج إلى قصبة خوارزم وأخذ يضرب في الأرض، فوفد على جرجان وزاول التعليم وصنف كتاب القانون في الطب. ثم انقلب إلى همذان فتقلد الوزارة لشمس الدولة ابن بويه، فما لبث غير قليل حتى ثار عليه الجند ونبوا ماله وسألوا الأمير قتله فاكتفى بنفيه. ولم تهدأ المصائب بعد ذلك فاتهم عند تاج الدولة بخيانة منكرا فسجنه في إحدى القلاع أربعة أشهر ولم ينجه إلى فراره متنكراً إلى علاء الدولة بأصبهان، فأقام في حماه وادع النفس أحياناً؛ ولكن تعاقب الحوادث عليه أوهن عزمه، واستبداد الشهوة أنهك جسمه، فأصيب بداء عياء نكل عنه تدبيره وطبه، وتوفي بهمذان.

علمه ومصنفاته

لابن سين القدم الراسخة في الطب والمكانة السامية في الفلسفة. أخذ بمبادئ أرسطو ولم يفتن عن دينه، ولم يشك بعد يقينه. إلا أنه كان أبيقورياً مستهتراً. وقد نقل الفرنج عنه أكثر ما عندهم من كتب جالينوس وأبقراط وترجموا أكثر تأليفه إلى اللاتينية واعتمدوا عليها في بناء الفلسفة الحديثة وهي تبلغ مائة مؤلف، وأشهرها كتاب القانون في الطب، وكتاب الشفاء في الحكمة، يقع الأول في أربعة عشر مجلداً، والثاني في ثمانية عشر.

حجة الإسلام الغزالي

(450 - 505 هـ)

نشأته وحياته

ولد أبو حامد محمد بن حامد الغزالي بطوس، وتلقى دروسه الأولية بها ثم قدم نيسابور فتخرج في أمد يسير على إمام الحرمين أبي المعالي، ولازمه حتى توفي. فوفد على الوزير نظام الملك بالعسكر فاحتفى بقدمه وأعجب بعلومه. وناظر بحضرته جماعة من الأفاضل فظهر عليهم ظهوراً أطار ذكره. ففوض إليه التدريس بالمدرسة النظامية ببغداد وأخذ نفسه بدرس الفلسفة فاشتغل بها وهو يعلم. ثم انقطع عن التدريس سنة 488 ليتخصص لها ويتعمق فيها. فتبين له بعد طول البحث أن الفلسفة والذين ضدان: فناصب الفلاسفة العدا وحمل عليهم بأسلحتهم، وقارعهم بحججهم. فلقلب لذلك حجة الإسلام. ثم سلك طريق التزهد، ونهج سبيل التصوف، فوطده على أساس الحكمة، وأيده بحقائق العلم. ثم غادر بغداد فورد الشام وأورشليم والحجاز والإسكندرية؛ وعزم الرحلة إلى مراکش ليلقى الأمير يوسف ابن تاشفين، فجاءه نعيه قبل سفره فعاد إلى طوس واشتغل بالتعليم والتأليف. ثم اضطر أن يمارس التدريس ثانية بالمدرسة النظامية، ولكنه ما عثم أن يرجع إلى وطنه فابتنى خانقاة للصوفية ومدرسة للعلوم الدينية، وعكف على العبادة والإفادة حتى مضى لسبيله.

مؤلفاته

ألف الغزالي كتاب البسيط والوسيط والوجيز في فقه الشافعي، وكتاب إحياء علوم الدين في التصوف، وهو مرتب على أربعة أقسام: العبادات والعبادات والمهلكات والمنجيات. وقد قيل في فضله: " لو ذهبت كتب الإسلام وبقي (الإحياء) لأغنى عما ذهب " وله كتاب تهافت الفلاسفة في الرد على فلاسفة اليونان وأتباعهم، وقد طبع أخيراً بمصر، وكتاب مقاصد الفلاسفة في الموضوع نفسه.

ابن رشد

(551 - 595 هـ)

نشأته وحياته

هو الوليد محمد ابن أحمد ابن رشد، ويسميه الفرنج (averroes) ولد بقرطبة من بيت عريق في المجد أصيل في القضاء، وتخرج على علماء عصره في الفقه والطب والفلسفة، وانقطع إلى النظر في الحكمة حتى توسط باحتها وشارف غايتها. وفي سنة 548 قدمه ابن طفيل إلى أبي يعقوب يوسف ابن عبد المؤمن وكان محباً للفلسفة، فلخص له كتب أرسطو. ثم تولى قضاء إشبيلية سنة 515 ورجع إلى موطنه بعد عامين، وشخص منه إلى مراكش بدعوة من أمير المؤمنين ليتخذه طبيباً له، ولكنه ما لبث أن عاد إلى قرطبة قاضياً. ولما مات أبو يعقوب وخلفه والده يعقوب المنصور أقر ابن رشد في مقامه، وبالع في إكرامه، ولكن الدهر أبى أن ينعم بال الحكيم فسعى به أعداؤه إلى الأمير ورموه عنده بالزندقة والمروق، فنفاه هو وسائر الفلاسفة من أرضه. ثم عاد الأمير إلى نفسه فاستدعاه إلى مراكش واعتذر إليه، وظاهر نعمته عليه. ولكن ما لبث أن ليقه حمامه بمراكش.

فلسفته وكتبه

لو صح التناسخ لقلنا إن روح أرسطو تقمصت جسم ابن رشد لتجدد عهود الحكمة، وتفسر غموض الفلسفة. فإن حكيم العرب تعصب لحكيم اليونان، وزعم أنه وصل بالعلم إلى أبعد غاياته. فوقف نفسه على شرح فلسفته وتلخيص كتبه. واهتم الأوربيون بما كتب فترجموه وتعلموه، فكان أساساً لحكمتهم ونبراسا لنهضتهم وقد قال عنه الفيلسوف الفرنسي (إرنست رينان) في كتابه ابن رشد ومذهبه: " إنه أعظم فلاسفة القرون الوسطى ممن تبع أرسطو، ونهج سبيل الحرية في الفكر والقول ". ومذهب ابن رشد وأشياعه من تلاميذ أرسطو أقرب إلى مذهب الماديين والقائلين بالحلول: فيزعمون أن المادة أزلية، وأن الخلق حركة اضطرارية في هذه المادة، والخالق هو تلك

الحركة أو المحرك. ويرون أن المخلوقات تشارك المادة في أزليتها لكونها منها. فإذا تجرد الإنسان العاقل لتحصيل العلم توصل بالتدريج إلى الاستغراق في الله؛ وأن العقول واحدة في البشر ترجع جميعها إلى العقل الأول الذي يسمونه (العقل الفاعل)، وهذا العقل العام هو وحده متصل بالله دون العقول الفردية، فيترتب على هذه الفلسفة أن النفوس تموت مع أجسادها وأن لا خلود إلا للمادة فلا ثواب ولا عقاب، وأن الخالق لا يعلم إلا كليات الحوادث دون جزئياتها. تعالى الله عما يقولون علواً كبيراً.

وقد فند هذا المذهب حجة الإسلام الغزالي وكثير من علماء أوروبا. على أن ابن رشد كان يحرص الحرص كله على التوفيق بين الفلسفة والدين. فكتب في ذلك كتابه " فصل المقال فيما بين الشريعة والحكمة من الاتصال "، وكتاب " مناهج الأدلة في عقائد الملة "، وعنى بالرد على " تهافت الفلاسفة " للغزالي بكتاب سماه " تهافت التهافت " يقول في آخره. " لا شك أن هذا الرجل أخطأ على الشريعة كما أخطأ على الحكمة، ولولا ضرورة طلب الحق مع أهله ما تكلمت في ذلك " وله غير ذلك مؤلفات كثيرة ككتاب الكليات في الطب، وفلسفة أرسطو، وقد فقدت أصول كتبه فلم تبق إلا ترجمتها اللاتينية أو العبرية.

الفصل السابع

القصص والمقامات في الأدب العربي⁽¹⁾

القصص فن من فنون الأدب الجلييلة، يقصد به ترويح النفس باللغو، وتثقيف العقل بالحكمة. وله عند الفرنج مكانة مرفوعة، وقواعد موضوعة. أما عند العرب فلا خطر له ولا عناية به، لانصرافهم عما لا رجع للدين منه، ولا غناء للملك فيه؛ وللأسباب التي دعت إلى قصورهم في الشعر القصصي؛ ولأنه نوع من أنواع النثر، والفن الكتابي أو النثر الفني ظل في حكم العدم أزمان الجاهلية وصدر الإسلام حتى آخر الدولة الأموية، حين وضع ابن المقفع الفارسي مناهج النثر وفكر في تدوين شيء من القصص. فكان ما ترجمه هو وأمثاله من نحو كليله ودمنة، وهزار أفسانه (الف خرافة) ودارا والصم الذهب، حديا العرب ونموذجا لهم في وضع ما وضعوه منها.

ولما أترف العرب وحمل الأعاجم عن الخلفاء أعباء الخلافة قطعوا ليايهم بالمنادمة والمسامرة. فتنافس الندماء في حفظ الأقاصيص والأسمار، وتسابق أدباء القرنين الثالث والرابع إلى وضعها يسامرون بها الخاصة شفاها. واحتاج العامة من أهل الترف والبطالة إلى من يسامرهم كذلك في ديارهم وأملائهم وأعراسهم. واشتدت هذه الحاجة عندما توالى المصائب والمحن على العالم الإسلامي في أواخر العصر العباسي وبعده من عسف المتسلطين من السلاجقة، وعنف المتغلبين من المغول، وإخلاق الشعب في مصر إلى التبطل والمجون، وتعاطيه المخدرات من الحشيش والأفيون؛ فتقدم إليهم القصاص والمحدثون، وهم للسوقة أشبه بالندمان والمهر حين للملوك فحدثوهم بما جمعوا من أقاصيص الشجعان، وأخبار الجان، وأعمال السحرة، مما تناقلته الأفواه من وراء الأجيال والأزمان، وشاهده التجار والرحالون في أطراف البلدان. ثم عملت في هذه الأحاديث المبالغة وأنماها الاختلاق حتى

(1) راجع في هذا الموضوع كتابنا: (في أصول الأدب).

قيض الله لهذه السير من دونها على أسلوب الحديث من غير قاعدة ولا خطة. ثم تنوسيت أسماؤهم لطول العهد كما تنوسيت أسماء مؤلفي القصص الإفرنجية القديمة، فكان من ذلك قصص عنترة⁽¹⁾ وبني هلال، وسيف ابن ذي يزن، والأميرة ذات الهمة، والظاهر بيبرس، وعلي الزبيق المصري، وفيروز شاه. في رأيي أن هذه القصص كتبت كلها بمصر في القرون الخامس والسادس والسابع للهجرة، فبعضها حين نشوب الحروب الصليبية، وبعضها بعد سقوط بغداد. أما أنها كتبت بمصر فهذا واضح من مواضع وقائعها، وموضوعات حوادثها، وأسماء أشخاصها. وأما أنها كتبت في هذه العهود فذلك بين من لغتها المشوبة، وأساليبها المبتذلة، وخيالها الغريب القوي من أثر المخدرات. وحال الاجتماع يومئذ، ونشوب الحروب الصليبية، اقتضيا تدوين هذه القصص في وصف الوغى، ومدح البطولة، وتمجيد القادة، إثارة للنفوس وتحميساً للجند، كما كان المسلمون يفعلون في القرن الأول للهجرة⁽²⁾.

ذلك كان مولد القصة في الأدب العربي وهو شبيه بمولدها في الأدب الغربي؛ فكلتاها ولد على أثر الملاحم، وكلتاها ابتداء بأخبار الشجعان ومخاطر البطولة. إلا أن القصة الغربية لاحظتها عناية الأدباء، ورعاية النقد، واتساع الحضارة، وتقدم العلم، فنمت وتقدمت. أما القصة العربية بمعناها

(1) قصة عنترة هي قصة حماسية غرامية تمثل حياة العرب في الجاهلية تمثيلاً صادقاً، وتصف أخلاقهم وحروبهم وصفاً ناطقاً، ونبتت في النفس الحمية والنجدة والوفاء والسخاء، فهي أفضل القصص العربية وأولاها أن تسمى (إلياذة العرب). أسلوبها شائق منسق، وقد تدركه الركافة أحياناً. ونثرها مسجوع متكلف مطرز بقصائد بعضها مسموع، وبعضها مصنوع. والراجح في الرأي أنها تجمعت مما سار على ألسنة الرواة والسمار طوال السنين من أخبار العرب ووقائعها، ونمت بالمناقلة والمبالغة، حتى انتهت إلى رجل حافظ يدعى يوسف ابن إسماعيل في عهد العزيز بالله الفاطمي (365 - 376) فألفها بأمره الهاء للشعب عن التحدث بريبة حدثت في بيته. ثم أصدرها تباعاً في اثنين وسبعين جزءاً، ونسبها إلى الأصمعي إجلالاً لقدرها، واحتيالاً لنشرها،

(2) ذكر ابن الأثير سنة 77 هـ أن عتاب ابن ورقاء سار في أصحابه قبل المعركة يحرضهم على القتال ويقص عليهم. ثم قال أين القصاص؟ فلم يجيبه أحد فقال: أين من يروي شعر عنترة فلم يجبه أحد الخ.

الفني المعروف فظلت في حجر الطفولة ومهد الخمول يلهو بها العامة، ويأنف منها الخاصة، ويصد عنها الأدباء والكتاب حتى قبروها مدرجة في لفائف الميلاد. وإنما برع العرب في الحكايات والأمثال والمقامات.

الحكايات

ألف ليلة وليلة⁽¹⁾

فأما الحكايات فأخذوها عن الفرس. وأبدع ما أثر عن هؤلاء منها: كلستان للسعدي، وأصل ألف ليلة وليلة. وهذان الكتابان لا يزالان نموذج هذا الفن في الشرق والغرب. على أن العرب حينما اقتبسوا هذا الفن من الفرس توافروا عليه وتمكنوا منه حتى جاروهم فيه وحتى شاطروهم الشهرة وجاذبوهم الأولية. ولقد طغى ما أدخلوه في ألف ليلة وليلة على ما نقلوه عن الفرس منه فأخفاه. وأصبح الكتاب عنواناً عريضاً من عناوين الأدب العربي وأثراً خالداً من آثار بنييه.

وأصله على الأرجح كتاب صغير للفرس دعوه (هزار أفسانه) وبنوه على حكاية الملك والوزير وابنته شهر زاد وجاريتها دينا زاد. وقد ترجمه العرب من الفهلوية إلى العربية آخر القرن الثالث للهجرة، ثم دعاهم الإعجاب به إلى توسيعه وتفريغه فأضافوا إليه ما شاكله من أساطير العرب والهنود واليهود وأخبار الخلفاء والأمراء والفرسان والأجواد في الجاهلية والإسلام. وبقي بابيه مفتوحاً للزيادة عليه حتى القرن العاشر للهجرة، فتكاملت قصصانه واستتم بنيانه، وتضاءل ما فيه من وضع الفرس حتى فنى فيما وضع العرب من أقاصيص الجان ومخاطر الشجعان ونجوى الهواتف وأعمال السحرة، التي تستهوى القلب، وتشغذ خاطر، وتخصب المخيلة.

ومزية الكتاب تمثيله لأخلاق العرب والمسلمين وعاداتهم وأنظمتهم في العصور الإسلامية الوسطى بالعراق ومصر والشام مما يفيد الكاتب الاجتماعي والفيلسوف المؤرخ. ومن ثم عنى به الفرنج عناية خاصة فترجعوه إلى لغاتهم، وأفردوه بأبحاثهم. أما إنشاؤه فمختلف باختلاف الأعصر والأقاليم فأخبار العرب ونوادر الخلفاء وما ترجم في الصدر الأول تغلب فيه الصحة والفصاحة. وأما ما وضعه القصاصون المتأخرون من عامة مصر والشام فركيك العبارة، عامي الألفاظ، مبتذل التراكيب، إلا أن مساق الأحاديث جيد، ورباط الحوادث متين.

(1) اقرأ عن هذا الكتاب بحثاً علمياً مفصلاً في تاريخه وتحليله في كتابنا: (في أصول الأدب).

الأمثال

كليلة ودمنة

أما الأمثال فمنشأها الشرق؛ لأنه كان موطن الحكم المطلق والاستبداد العنيف. انبعث في صدور الضعفاء المستبعبدين صدى خافتا لاحتجاج مكظوم صامت لم يجدوا له متنفساً ولا طريقاً إلى آذان الطغاة إلا هذه الكنايات والرموز يسترون وراءها ما يريدون من نصح وعظة. وقد بدأ ظهور هذا النوع في الهند ثم انتقل منها إلى الصين ثم إلى فارس فبلاد العرب فبلاد الإغريق. وأقدم ما عرف منه أمثال لقمان الحكيم، وإيزوب الرومي، ويديبا الهندي. وأشهر من كتب فيه ادباء العربية ابن المقفع مترجم كليلة ودمنة. وهذا الكتاب من خيرة الكتب في تقويم الأخلاق بالعظة ورياضة العقول بالحكمة: وضعه باللغة السنسكريتية يديبا الهندي لدبشليم الملك منذ عشرين قرناً ونيفا على ألسنة البهائم والطيور، وعقده على أثنى عشر باباً ثم ترجم إلى الفهلوية، ونقله عنها إلى العربية عبد الله ابن المقفع، وصدره بمقدمة بليغة في التعريف بالكتاب والتحريض على مطالعته، ثم فقد أصله وترجماته إلا العربية، فإنها بقيت أصلاً تفرعت عنه الترجمات القديمة والحديثة. وزاد الكتاب بتوالي الزمن بما دخله من الأبواب الفارسية والعربية، حتى بلغت أبوابه واحداً وعشرين باباً.

وقد جاء في دائرة المعارف الإسلامية (وهي موسوعة كبيرة يتولى تأليفها طائفة من المستشرقين وينشرونها تباعاً بالفرنسية والألمانية والإنجليزية) أن مؤلف هذا الكتاب برهمي لا يعرف اسمه. ألفه في كشمير حوالي القرن الثالث قبل الميلاد في مقدمة وخمسة أبواب وسماه (تنتره) على ما رواه هرتال Hertal، ورتال هذا هو الذي نقله عن السنسكريتية ووضع له مقدمة وعلق عليه حواشي وطبعه في ليسك وبرلين في مجلدين سنة 1909 م.

ولهذا الكتاب نسخة أخرى عنوانها (بنجة تنتره) ترجمها إلى الفهلوية بروزيه طيب أنوشروان بأمره. وأضاف إليها أبواباً من القصص الهندي، وعن هذه الترجمة نقل ابن المقفع ترجمته العربية وصدرها بمقدمة من وضعه

والراجح أنه أضاف إلى مقدمة بروزيه ما يدل على الشك في الأديان. وأضاف إلى الكتاب باب الفحص عن أمر دمنة وباب الناسك وضيئه. وفي بعض النسخ زيد على الكتاب بابان لا يعرف مصدرهما، وهما باب مالك الحزين والبطّة، وباب الحمامة والثعلب ومالك الحزين. انتهى.

ومن الناس من يميل به الظن إلى أنه من وضع عبد الله ابن المقفع، وما نسبته إلى علماء الهند إلا أملا في رواجه وانتشاره؛ ولكنه في اعتقادنا ظن بعيد الاحتمال لأن حظ النقل والاحتذاء في كل ما كتب ابن المقفع أبلغ من حظ الإنشاء والابتكار. وقد نظمته كثير من شعراء العرب كأبان اللاحقي وابن الهبارية، وعأوضه سهل ابن هارون بكتاب سماه (ثعلة وعفرة).

ثم اشتهر بالكتابة في الأمثال أيضا ابن الهبارية المتوفى سنة 504 هـ ناظم كتاب الصادح والباغم، وهو منظومة في ألفي بيت على أسلوب كليل ودمنة. ثم ابن عرب شاه الدمشقي المتوفى سنة 854 صاحب كتاب فاكهة الخلفاء ومفاكهة الظرفاء، وهو مجموعة من الأمثال والحكايات نهج فيها منهج كليل ودمنة وجعلها في عشرة أبواب، إلا أن أمثالها يعيها التطويل والحشو، وإنشاءها بضعفه العمل والتكلف.

المقامات وكتابها

المقامة: حكاية قصيرة أنيقة الأسلوب تشتمل على عظة أو ملحمة.

ومعنى المقامة في الأصل المقام أي موضع القيام، ثم توسعوا فيها فاستعملوها استعمال المجلس والمكان، ثم كثرت حتى سموا الجالسين في المقام مقامة كما سموهم مجلساً، إلى أن قيل لما يقام فيها من خطبة أو عظة وما أشبهها مقامة أو مجلس، فيقال: مقامات الخطباء، ومقامات القصاص، ومقامات الزهاد: وقد نشأ هذا النوع من القصص في أواسط الدولة العباسية وهو عهد الترف الأدبي والإنشاء الصناعي الأنيق. وقد أجاده بديع الزمان إجادة أحلته منه محل الزعيم.

وليس الغرض من المقامة جمال القصص ولا حسن الوعظ ولا إفادة العلم، وإنما هي قطعة أدبية فنية يقصد بها " الفن للفن " وتجمع شوارد اللغة ونوادير التركيب في أسلوب مسجوع أنيق الوشي يعجب أكثر مما يؤثر، ويلذ أكثر مما يفيد. ولم تراع قواعد الفن القصصي فيما كتب من هذا النوع؛ فلم يعن كاتبو المقامات بتصوير الحكايات وتحليل الأشخاص، وإنما صرفوا همهم إلى تحسين اللفظ وتزيينه.

وتدور المقامة على حادث عادي يسند إلى شخص معين هو ما يسمى في اصطلاح الفن القصصي بالبطل، كأبي زيد السروجي في مقامات الحريري، وأبي الفتح الإسكندري في مقامات البديع؛ وبين هذا البطل وبين رجل آخر صلة وثيقة ومعرفة قديمة، فهو يراه في كل حادثة، ويسمعه في كل مجلس، ويفجأه في كل سر، ثم يروي للناس ما عيه من خير أو شر. ذلك هو الراوي، كعيسى ابن هشام في مقامات البديع، والحارق ابن همام في مقامات الحريري.

أما كتابها فقد علمت أن ابن دريد اخترع أربعين حديثاً عرضها عرضاً تصويرياً دقيقاً كانت الطور الأولى لنشوء المقامة. ثم جاء بديع الزمان الهمذاني المتوفى سنة 398 هـ فأملأ أربعمائة مقامة في الكدية وغيرها نحلها أبا الفتح الإسكندري على لسان عيسى ابن هشام ولم يعثروا منها إلا على ثلاث وخمسين مقامة. وقد مضى الكلام عنها في ترجمته. ثم جاء بعده الحريري

المتوفى سنة 516 هـ فكتب خمسين مقامة نسبها إلى أبي زيد السروجي على لسان الحارث ابن همام، ونسجها على منوال البديع وقد تقدم القول فيها أيضاً. ثم عالج المقامات بعد هذين النابغين طائفة من الكتاب لم يدركوا شأوهما كالمقامات الشُّرقسطية لابن الأشتركوني المتوفى سنة 358 هـ وهي خمسون مقامة أنشأها بقرطبة عند وقوفه على ما أنشأ الحريري بالبصرة، وقد أتعب خاطره وأسهر ناظره ولزم في نثرها لزوم ما لا يلزم. حدث فيها المنذر ابن حمام عن السائب ابن تمام ومقامات الزمخشري المتوفى سنة 538 هـ وهي مشهورة والمقامات المسيحية لأبي العباس يحيى ابن سعيد ابن ماري النصراني البصري الطيب المتوفى سنة 586 هـ نسجها على منوال الحريري. ثم مقامات أحمد ابن الأعظم الرازي وهي اثنتا عشرة مقامة كتبها سنة 630 هـ وجعل الراوي فيها القعقاع ابن زنباع وغيره. والمقامات الزينية لزين الدين ابن صيقل الجزري المتوفى سنة 701 هـ وهي خمسون مقامة عارض بها المقامات الحريرية. نسبها إلى أبي نصر المصري وعزا روايتها إلى القاسم ابن جريان الدمشقي. ثم مقامات السيوطي وهي بالرسائل أشبه منها بالمقامات.

الباب الرابع

بعد سقوط بغداد

كيف خلفت القاهرة بغداد وقرطبة؟

انتكث قتل العباسيين كما علمت في بغداد بعد عهد المتوكل لتنافس
الفرس والترك، وتحارب الشيعة والسنة، وذهاب جلال الخلافة من النفوس،
فاعتورتها الأرزاء واصطلحت عليها الأعداء، حتى قوض عرشها هولاء سنة
656 هـ. وتضعض أمر الأمويين في الأندلس بتغلب البربر والموالي على
ملكهم، وتقسيمة بينهم إلى دويلات صغيرة سهل على الفرنج ازديادها قطعة
قطعة، حتى ابتلعوها لقمة سائغة سنة 898 هـ. ودالت دولة الفاطميين في مصر
والشام فوقنا في أيدي الأيوبيين، ثم صارتا إلى المماليك، وظلتا تحت
سلطانهم حتى دخلتا في حكم الأتراك العثمانيين 923 هـ. فأنت ترى أن العالم
الإسلامي أتى عليه ستون وخمسمائة عام لم يكن للعرب فيها لواء معقود ولا
ظل ممدود، بل أصبحت ديارهم وآثارهم نهبا مقسما بين المغول والترك
والفرس والجرس ثم الأسبان بعد قليل. وضع هؤلاء العجم وهم وحشيون
أميون أيديهم على تراث العرب، فخرّبوا الدور وهدكوا الخدور، وفجعوا اللغة
وآدابها وعلومها بتحريق المكاتب، وتعطيل المدارس وتقويض المراسد،
وتقتيل العلماء. وناهيك بما فعله التتار ببخاري وبغداد، والصليبيون بالشام،
والفرنج بالأندلس! فلو أن الزمان عفى على اللغة العربية وألحقها بأخواتها
السامية لما كان ذلك بدعاً من القول ولا حدثاً في التاريخ. ولكنها بقيت عل
مرغمة الحوادث لساناً للدين والعلم، ولغة للحكومة والأمة، في بلاد المغرب
ومصر والشام وبلاد العرب والجزيرة. ولولا نعمة الترك وعصبية الفرس لكانت
لغة المسلمين كافة.

والفضل في بقائها عل فناء أهلها إنما كان للذكر الحكيم، وللأزهر
الشريف، ولسلاطين مصر والشام من الأيوبيين والمماليك؛ فقد كانوا لها رداءً،

ولأبنائها حرزاً، ولعلمائها وزراً، ومن غارة المغول حينما اكتسحوا خراسان وفارس والعراق؛ لأن الأيوبيين وإن كانوا أكرادا قد تكلموا بلغة العرب وتأدبوا بأدب العرب ونبغ فيهم الشاعر والعالم والمؤرخ، كالملك الأفضل⁽¹⁾ علي ابن صلاح الدين المتوفى سنة 601 هـ وبهram شاه صاحب لعلبك المتوفى سنة 628، والملك المؤيد عماد الدين أبي الفداء المتوفى سنة 732. وكذلك قل في المماليك فقد نبغ فيهم أحد السلاطين في الشعر وهو قصصوه الغوري المتوفى سنة 923، لأنهم اتخذوا مصر وطناً، والإسلام ديناً، والعربية لغة، وعضدوا العلماء وقربوا الأدباء، وشدوا أزر المعلمين والمؤلفين حتى نبغ ظلهم أولئك الأعلام الذين جمعوا شتات اللغة والعلوم في المجموعات والموسوعات، وأقبلوا على علوم الأولين بالشرح والتلخيص، وهذبوا التاريخ ووضعوا فلسفته، وأقاموا للشعر وزناً على قلة العارفين بفضلته، والمستمعين إلى أهله، كابن منظور صاحب لسان العرب، والفيروزابادي صاحب القاموس، وابن خلدون منشئ المقدمة، والقلقشندي جامع صبح الأعشى. والشاب الظريف وصفى الدين الحلبي، وابن الوردي، وابن معنوق، والصفدي، ولكن هؤلاء أفراد تقسمتهم الأعصر فلم يستطيعوا إنهاء اللغة الثكلى وقد كبت بينها الجدود العواثر، فأمحت من الهند وخراسان وفارس والعراق وبلاد الروم

(1) كان الملك الأفضل ضعيف الرأي كثير الغفلة فغلبه عمه العادل أبو بكر وأخوه العزيز عثمان علي ملك الشام ومصر، فكتب إلى الخليفة الناصر العباسي كتابا يشكو إليه ذلك فيه وقد بدأه بيتين من الشعر أجاد في نظمهما كل الإجابة وهما:

مولاي إن أبا بكر وصاحبه عثمان قد أخذ بالسيف حق علي
فانظر إلى حرف هذا الاسم كيف لقي من الأواخر ما لاقى من الأول

يريد بأبي بكر عمه، وبعثمان أخاه. فأجابه الخليفة الناصر بقوله:

وافى كتابك يا ابن يوسف معلناً بالصدق يخبر أن أصلك طاهر
غضبوا عليا حقه إذ لم يكن بعد النبي له يشرب ناصر
فاصبر فإن غدا عليه حسابهم وابشر فناصرك الإمام الناصر

والأندلس، وبقيت في مصر والشام وبلاد العرب بقاء المريض قد رنقت عليه المنية ولم يبق فيه إلا الدِّماء.

ولقد كان أسلوبهم في النثر والشعر كأسلوب من تقدمهم من متأخري العصر العباسي، ولكنهم في الغالي لم يحسنوا التقليد، ولم يصيخوا الغرض؛ فتبدلوا في اللفظ، وتوغلوا في الصنعة، واستجازوا الخروج عن الإعراب والعبث بالمعنى إذا حال ذلك دون تورية أو سجعة أو جناس.

فلما أدال الله بني عثمان من المماليك أصبحت الخلافة عثمانية لا عباسية، وصارت عاصمة الإسلام القسطنطينية لا القاهرة، واللغة الرسمية التركية لا العربية⁽¹⁾ ففشأ في اللغة الدخيل، وزاحمتها العامية والتركية في الدواوين، وذهبت أساليبها من النظم والنثر، وتمكن الذل من النفوس فخدمت القرائح، ونضب معين العلم، واطمأنت الكتب في الخزائن فلم يزعجها إلا اشتغال الأرضة في صفحاتها، وضرب الجهل على أبصار الشرقيين فعموا، وفدحتهم أعباء الذل فرزحوا، وطال عليهم الأمد فغشاهم النعاس، وخيم عليهم الظلام، فلم يستيقظوا إلا بمدافع نابليون على أبواب القاهرة!

(1) على أن الأتراك في عهدهم الأول كانوا يتعلمون اللغة العربية ويتكلمون بها ويضعون المؤلفات القيمة فيها كالغير وزابادى، والبركوى المتوفى سنة 981 هـ وأبى السعود. والقناري وملاخسرو، والجامي، والخيال، وخوجه زاده، وحاجي خليفة، وطاشكيري، وابن كمال باشا صاحب كتاب النبیه على غلط الجاهل والنبیه.

وكان ملوك العثمانيين أنفسهم يدرسون العربية وآدابها كما يدرسون التركية وآدابها: ومنهم من فرس الشعر العربي ورواه كالسلطان أحمد الأول، فقد روى له قصيدة مطلعها:

ظُبِّي يَصُولُ ولا وصول إليه جَرَحَ الْفُؤَادَ بِصَارِمِي لَحْظِيهِ
ومنها:

يا شعر في بصري ولا في خده إنني أغار من النسيم عليه

ولم تضعف عناية علماء الترك باللغة العربية إلا في عهد السلطان محمود الثاني وابنه السلطان عبد المجيد الأول حين أحبوا اللغة التركية وقربوا مواردها ويسطوا قواعدها وسموها اللغة العثمانية (انظر مجلة المجمع العلمي العربي مجلد 6 جزء 7 س 21).

أعلام هذه المفازة

أغطشت سماء الأدب العربي في عصر المغول فعميت البصائر وضلت القرائح، ومشى الناس في دياجير الجهل حيارى لا يرون مظاهر الحياة حتى يضيئهم شارق في سماء مصر، أو بارق في جو الشام. وذلك لأنهما البلدان اللذان حفظا وجود اللغة، ورفعوا سقوط الأدب، وجمعا شمل العلم، ولولاهما لانقطع ما بين الأدبين: القديم والحديث. وما كان أروح للنفس لو اتسع صدر هذا الكتاب لتراجم مواطني وجيرتي! ولكن البحث محدود والقلم موجز. ومهما يكن من شيء فلن يفوتنا ذكر أسمائهم معقبة بأسماء معاصريهم في العراق والمغرب، اعترافاً لهذه النفوس الكبيرة بالإحسان والفضل.

فمن النابغين في الشعر والأدب التلعفري، ولد بالموصل سنة 592 واتصل بالملك الأشرف موسى، ثم هلك سنة 675 هـ فريسة للقمار. والشاب الظريف، ولد بمصر وتوفى بها غرض الإهاب سنة 688 هـ والبوصيري صاحب البردة في مدح الرسول، ولد وتوفى بمصر سنة 695 هـ، وابن نباتة المصري المتوفى سنة 768 هـ وابن حجة الحموي زعيم الأدباء في عصره وصاحب خزانة الأدب، توفى سنة 827 هـ، والقلقشندي المصري جامع صبح الأعشى المتوفى سنة 821 هـ، ثم صفى الدين الحلبي المتوفى سنة 750 هـ، وابن معتوق المتوفى سنة 1087 هـ. وشعرهم مثقل بقيود الصنعة، محصور في دائرة التقليد، تغب فيه مظاهر الضعف الخلقي كالجبن والملق والشكوى والإغراق والقحة. إلا أن في بعضه أثاراً من الحسن وبقية من البيان. والنابعون في اللغة وعلومها ابن مالك صاحب الألفية المتوفى سنة 673 هـ، وجمال الدين ابن منظور صاحب لسان العرب المتوفى سنة 711 هـ وجمال الدين ابن هشام صاحب المغنى في النحو المتوفى سنة 761 هـ والفيروزبادي صاحب القاموس المتوفى سنة 817 هـ. وهؤلاء قد بسطوا قواعد اللغة واستوعبوا مواردها في الكتب والمعجمات. ونوابغ التاريخ والجغرافية، ابن أبي أصيبعة صاحب عيون الأنباء في طبقات الأطباء المتوفى سنة 668 هـ، وابن خلكان صاحب وفيات الأعيان المتوفى سنة 681 هـ، وأبو الفداء المتوفى سنة 732

هـ، وشمس الدين الذهبي صاحب تاريخ الإسلام المتوفى سنة 748 هـ، والمقريزي صاحب كتاب المواعظ والاعتبار في ذكر الخط والآثار، المتوفى سنة 845 هـ، ثم ابن الطقطقي صاحب الفخري المتوفى سنة 701 هـ، وطريقته في التاريخ أميل إلى استيعاب الحوادث، واستنباط العبر، والحكم بشيء من النقد، والخوض في بعض مسائل العلم والاجتماع. فكانوا بذلك خيراً من أسلافهم وأدنى منهم إلى منهج التاريخ القويم.

ونبغ من العلماء أصحاب الأسفار العامة: النويري صاحب نهاية الأرب في فنون الأدب المتوفى سنة 732 هـ، وابن فضل الله العمري صاحب مسالك الأبصار المتوفى سنة 748 هـ، وجلال الدين السيوطي صاحب المؤلفات الجليلة المتوفى سنة 911 هـ، وكمال الدين الدميري صاحب حياة الحيوان المتوفى سنة 808 هـ. وهم أصحاب الفضل جميعاً في ضم شتيت العلم والأدب في أسفار أشبه بدوائر المعارف الحديثة. فأنت ترى أن الله جل شأنه لم يشأ أن يصيب لغة كتابه بالعقم حين ألحت عليها أرزاء الدهر، وتخونتها أعراض الهرم، حفظاً لكتابه وصوناً لدينه، فكانت تنجب حيناً بعد حين علماً من أولئك الأعلام يجدد منها ما أندرس، ويرأب فيها ما انصدع، وينقذها من يد البلى والعفاء.

نجوم سماء كلما انقض كوكب بدا كوكب تأوي إليه كواكبه

وها نحن أولاء نترجم بذوي الأثر البارز منهم واقفين الآن عند ذلك.

صفي الدين الحلي

(677 - 750 هـ)

نشأته وحياته

ولد صفي الدين أبو البركات عبد العزيز بن سرايا بالحلة في العراق وبها نشأ وتأدب. ثم دعاه اضطراب السلم واختلال الأمن إلى المهاجرة إلى ماردين بالجزيرة ليلوذ بحمى الملوك من آل أرتق (663 - 713)؛ فحلوا عقدة الخوف عن قلبه، ونزل منهم في جناب مربع. فمدحهم بتسع وعشرين قصيدة كل منها تسعة وعشرون بيتاً، يبدأ كل بيت بحرف من حروف الهجاء ويختتم به؛ وسماها (درر البحور في مدائح لملك المنصور) وهي المعروفة بالآرتقيات. وفي سنة 717 هـ ورد مصر فمثل بين يدي الملك الناصر ابن قلاوون ومدحه فملاً يده بجوائزه. وانقلب إلى ماردين ثم ذهب إلى بغداد فتوفى بها.

شعره

لا خلاف في أن صفي الدين الشعراء في عصره. ولا تزال في شعره بلة من فصاحة اللفظ وبقية من رشاقة الأسلوب. اقتتن في الصنعة ما شاء، وأجاد في القصائد الطوال والمقطوعات والموشحات والأزجال، وغالى في المجون والأحماض، ودخل في أحد عشر باباً من أبواب الشعر وعقد عليها ديوانه. واخترع في النظم، منها الموشح المضمن كقوله في تضمين بائية أبي نواس:

وحتى الهوى ما حلت يوماً عن الهوى	ولكن نجمي في المحبة قد هوى
ومن كنت أرجو وصله قتلى نوى	وأضنني فؤادي بالقطيعة والنوى
ليس في الهوى عجب	إن أصابن نصب
(حامل الهوى تعب	يسـتحقه الطـرب)

نموذج من شعره

قال في الحماسة:

وسائل البيض هل خاب الرجا فينا؟	سل الرماح العوالي عن معالينا
في أرض قبر عبيد الله أيدينا	وسائل العرب والأتراك ما فعلت
عما نروم ولا خابت مساعينا	لما سعيننا فما رقت عزائنا
دنا الأعادي كما كانوا يدينونا	يا يوم وقعة زوراء العراق وقد
إلا لنغزو بها من بات يغزونا	يضممر ما بطناها مسومة
لقولنا أو دعوناهم أجابونا	وفتية إن نقل أصنعوا مسامعهم
يوماً وإن حكموا كانوا موازيننا	قوم إذا استخصموا كانوا فراعنة
نار الوغى خلتهم فيها مجانينا	تدرعوا العقل جلباباً فإن حميت
وإن دعوا قالت الأيام آمينا	إذا ادعوا جاءت الدنيا مصدفة
أن نبتدي بالأذى من ليس يؤذينا	إننا لقوم أبت أخلاقنا شرفاً
خضر مرابعنا، حمر مواضينا	بيض صنائعنا، سود وقائعنا،
ولو رأينا المنايا في أمانينا	لا يظهر العجز منا دون نبيل منى

ابن منظور (630 - 714 هـ)

نشأته وحياته

ولد جمال الدين محمد بن المكرم بالقاهرة في يوم الاثنين الثاني والعشرين من شهر المحرم سنة 630 هـ في بيت من بيوت العلم، ودرس على شيوخ عصره كعبد الرحمن أبي الطفيل ومرتضى ابن حاتم وابن المقبر حتى نال من العلوم والآداب قسطاً موفوراً جعله أهلاً للعمل في ديوان الإنشاء. والعمل في هذا الديوان يومئذ يقتضي مشاركة في علوم وفنون كثيرة فصحبها صاحب صبح الأعشى. ثم ولى قضاء طرابلس الغرب حيناً من الدهر وهو في أثناء ذلك لا يفتر عن الدرس والتأليف حتى انتقل إلى جوار ربه وله خمسمائة مجلد من تأليفه.

وكان ابن منظور صاحب جد وخلق وإرادة. وقد كان يتشبع في غير رفض كما يظهر من أسلوبه في لسان العرب كلما عرض ما يتصل بذلك. وقد توفي بالقاهرة.

مؤلفاته

لم يكن ابن منظور من أولى الاقتدار على الابتكار، وإنما كان كجلة العلماء في عصره أميل إلى الجمع أو الاختصار. وقد قال الصفدي صلاح الدين: "ما أعرف من كتب الأدب شيئاً إلا وقد اختصره جمال الدين ابن المكرم". فمن مؤلفاته:

لسان العرب

وهو ذلك المعجم الجامع الذي حوي بين دفتيه تهذيب الأزهري ومحكم ابن سيده وصحاح الجوهري وجمهرة ابن دريد ونهاية ابن الأثير. وقد رتبته المؤلف على أواخر الكلمات ونسقه تنسيقاً بديعاً لتسهيل الاستفادة منه. وتحرى صحة النقل في مادة اللغة بالمحافظة على نصوص الرواة وتأييدها بالشواهد الصحيحة من القرآن والحديث والأمثال والشعر.

وقد ذكر مترجموه ومنهم الصفدي أن النسخة الأولى التي كتبها بخطه الجميل من لسان العرب كانت في ملك المقر الأشرف الكمالي ناظر ديوان الإنشاء بمصر، وهي مجزأة إلى سبعة وعشرين جزءاً. ولكنها طبعت في مصر في عشرين مجلداً سنة 1300 هـ. ومنها (كتاب سرور النفس بمدارك الحواس الخمس) وموضوعه كل ما يقع عليه الحس كالليل والنهار وأوصافهما، والاصطباح ومدحه، والهلال وظهوره، وانبلاج الفجر، ورقة النسيم وقت السحر، وتغريد الطيور على الشجر، والشمس والكواكب وآراء المنجمين وأهل الفلك الخ... وله غير ذلك طائفة من الكتب بين تهذيب واختصار كمختار الأغاني في الأخبار والتهاني. وهو يطبع اليوم في الدار المصرية للتأليف والترجمة بتحقيق بعض الأدباء، ومختصر تاريخ بغداد للخطيب البغدادي، ومختصر مفردات الحيوان للجاحظ، ومختصر اليتيمة للثعالبي، ولطائف الذخيرة لابن بسام.

وقد كان يتعاطى الشعر ويجيده، ومن ذلك قوله:

ضع كتابي إذا أتاك على الأرض	وقلبه في يديك لمأما
فعلى ختمه وفي جانبيه	قبل قد وضعتهن توأما
كان قصدي بها مباشرة الأرض	وكفيك بالتثامي إذا ما

وقوله:

يا الله إن جرت بوادي الأراك	وقبلت أغصانه الخضر فاك
فابعث إلى المملوك من بعضه	فأنني والله مالي (سواك)

أبو الفداء (672 - 732 هـ)

نشأته وحياته

هو الملك المؤيد عماد الدين أبو الفداء إسماعيل ابن الأيوبي صاحب حماة. ولد بدمشق على مهد السراوة والفضل وربى في حجر الرخاء والنعمة، واستكمل حظه من العلوم وتفوق في التاريخ والهيئة. وكان بطلاً مقدماً. خدم الملك الناصر ابن قلاوون وهو بالكرك وساعده على محاربة التتر فوعده بحماة ووفى بوعده، فأقامه عليها سلطاناً مطلقاً لإرادة حر التصرف، ولقبه بالملك المؤيد وأقدمه إلى مصر وأركبه بشعار السلطنة، فمشى الأمراء والكبراء في خدمته. وكان أبو الفداء يجمل إليه في كل عام أفخر الهدايا من الخيل والرقيق والجواهر. وعاش ما عاش نصيراً للضعفاء، ظهيراً للعلماء، لوعا بالتأليف، حتى استخار له الله ما عنده.

مؤلفاته

لأبي الفداء كتابات في التاريخ وتقويم البلدان هما مرجع العرب والفرنج في تحقيق هذين العلمين. فالأول كتاب (المختصر في أخبار البشر) وهو تاريخ عام للأمم العربية يبلغ بها إلى سنة 729، وقد لخصه من عشرين كتاباً ونيفاً، وحذا فيه حذو ابن الأثير في ترتيبه على السنين. وتحرى في نقل الحوادث الصدق والنقد، والآخر كتاب (تقويم البلدان)، جمع فيه خلاصة ما كتب الأقدمون في الجغرافية والفلك، وضبط الأسماء، وحقق الأطوال والأعراض، وعنى على الخصوص بوصف مصر وسورية وبلاد العرب وفارس. وقد اهتم به الفرنج فترجموه واعتمدوا عليه في الوقوف على الجغرافية العربية.

ابن خلدون

(732 - 808 هـ)

نشأته وحياته

هو أبو زيد عبد الرحمن ابن محمد المشهور بابن خلدون؛ ينتهي نسبه إلى وائل من أقيال كندة. هاجر جده التاسع خلدون إلى الأندلس في أواخر القرن الثالث للهجرة وأقامت عشيرته في إشبيلية. ثم انتقلت إلى تونس حين الجلاء حيث ولد هذا العالم الكبير سنة 732 هـ. ودرج في مهد السراوة والعلم، وتأدب على أبيه ثم على غيره؛ فأتقن القرآن وضرب في كل العلوم بسهم، وبرع في الفقه والعربية وتبحر في التاريخ فاستجلى غوامضه واستقصى مباحثه، حتى أصبح فيه قريع دهره ونسيج وحده. وطمحت نفسه في طفولته إلى خدمة السلاطين فاتصل بكثير من ملوك الأندلس والمغرب، وتقلد الكتابة والحجابه والقضاء، إلا أنه كان قليل المكث في كل منصب تقلده لعزّة نفسه وصراحة قوله وكثرة حساده.

فلما كانت سنة 764 هـ وفد على الأندلس فاهتز له الغني بالله صاحب غرناطة وبعث بخاصته لاستقباله وإكرام وفادته، وألزمته مجلسه وانفرد به دون وزيره. فحقد عليه هذا حقداً عرفه ابن خلدون، فغادر الملك والوزير وشأنهما وعاد إلى وطنه. ثم أخذ يجول في الأرض ويطوف في البلاد حتى بلغ مصر سنة 784 هـ فقام بالتدريس في الجامع الأزهر، واتصل بالسلطان برقوق فعرف حقه وولاه على تمنع منه قضاء المالكية، فأقام المعدلة، وحكم المنصفة، وضرب على أيدي القضاة. فثار به ثائرم واختلفوا عليه الأكاذيب ورفعوا شكواهم إلى السلطان فلم يقم لكلامهم وزناً. ولكن ابن خلدون سئم هذه الحياة المرة، وضجر من تلك المكائد المستمرة. ووافق ذلك غرق أسرته وهي قادمة إليه من تونس، فنالت منه هذه المحنة، فاستعفى من القضاء وأدى فريضة الحج واعتزل في ضيعة له بالفيوم أقطعه السلطان إياها، وانصرف إلى التدريس والتأليف. ثم عاد ثانية إلى القضاء ومعالجة الحظوظ، فمازال يولى ويعزل، وينصر ويخذل، حتى وافاه أجله بمصر سنة 808 هـ.

أخلاقه

قال فيه لسان الدين ابن الخطيب: كان رجلاً فاضلاً، حسن الخلق، جم الفضائل، ظاهر الحياء، وقور المجلس، خاص الزى، عزوفاً عن الضيم، صعب المقادة، خاطباً للحظ، متقدماً في فنون عقلية ونقلية، سديد البحث، كثير الحفظ، بارع الخط، مغرّى بالتجلة، حسن العشرة، إلى غير ذلك من الأوصاف التي تصدقها آراؤه وآثاره.

نثره وشعره

ظهر ابن خلدون في عصر كسدت فيه العلوم ودرست الآداب وأزهقت الصناعة روح الكتابة، فهداه طبعه إلى الرجوع بالإنشاء إلى عهده والوقوف به عند حده. فرغب عن السجع وزهد في البديع وسار باللفظ وراء المعنى. وقد صرح بذلك في كلامه عن كتابته لأبي سالم أحد ملوك الأندلس إذ يقول: " وكان أكثرها يصدر عني بالكلام المرسل بدون أن يشاركني أحد ممن يتحل الكتابة في الأسجاع لضعف انتحالها، وخفاء المعاني فيها على أكثر الناس بخلاف المرسل، فانفردت به يومئذ، وكان مستغرباً عند من هم من أهل هذه الصناعة. ثم أخذت نفسي بالشعر فاثالث عليّ منه بحور، توسطت بين الإجادة والقصور ". وحكمه على نفسه من الحق والصراحة بحيث لا يحتاج إلى تعليق ولا تعقيب.

كتابه في التاريخ

نظر ابن خلدون في التاريخ فحرر مباحثه، وعلل حوادثه، ووضع كتابه المشهور (بالعبر وديوان المبتدأ والخبر) وهو ثلاثة كتب في سبعة مجلدات. يمتاز بما تضمنه من المقدمات الفلسفية في صدور الفصول عند الانتقال من دولة إلى دولة، والصراحة في القول، والسداد في الرأي، والإنصاف في الحكم.

على أن فضل الرجل وشهرته إنما هما بالكتاب الأول من هذا التاريخ وهو المعروف بالمقدمة، لاشتماله على أبحاث مبتدعة متنوعة في الاجتماع

والاقتصاد وفلسفة التاريخ، واستنباط الأسباب والعلل مما طالعه أو شاهده في حياته العظيمة ورحلاته العديدة. وتنقسم هذه المقدمة إلى ستة فصول: الأول في الشؤ والارتقاء، والثاني في الاجتماع، والثالث في السياسة العملية، والرابع في الهندسة الحربية، والخامس في الاقتصاد السياسي، والسادس في تاريخ آداب اللغة العربية، فهي خزانة علم وأدب فضلا عن أسلوبها الرشيق المتسق.

والراجع أن ابن خلدون أول إنسان استنبط فلسفة التاريخ وسماها طبيعة العمران في الخليفة. وقد فصلها في مقدمته واستشهد على كل ما كتب بالحوادث التاريخية الصحيحة، مما دل على سداد رأيه وصدق نظره وانفساح ذرعه في الاستنباط والتعليل. على أن العلماء أخذوا عليه إخلاله بالقواعد التي وضعها لكتابة التاريخ، ولم يسلم من المآخذ التي أخذها على سابقه. وسبحان من تفرد بالكمال!.

السيدة عائشة الباعونية

(المتوفاة سنة 922 هـ)

نشأتها وحياتها

هي السيدة الفاضلة الناسكة عائشة بنت يوسف بن أحمد الباعوني، ولدت بالصالحية بدمشق في بيت عريق في العلم والورع، فقد كان أبوها وعمها وولدها وأخوها من نوابغ العلماء في الفقه والحديث والتصوف والتاريخ والأدب، فنهلت من حياضهم، وجنت من رياضهم. ثم تلقت الفقه والنحو والعروض على طائفة من شيوخ عصرها كجمال الحق والدين إسماعيل الحوراني، ومحيي الدين الأرموي ووردت بعد ذلك مصر فتلذت للعلامة أبي العباس القسطلاني شارح البخاري. ثم عكفت على التدريس والتأليف فانتفع بعلمها وفضلها خلق كثير. ثم انتقلت إلى الدار الباقية بعد ما خلفت من الآثار كتاب الفتح المبين، في مدح الأمين، وهو شرح لقصيدتها التي نظمها في علم البديع على منوال ابن حجة، وكتاب فيض الفضل، وهو ديوان شعر في المدائح النبوية، والمورد الأهنى في المولد الأسنى، وهو مولد النبي صلى الله عليه وسلم اشتمل على رقائق النثر والنظم.

منزلتها في الشعر والكتابة

يثير عاطفة الإعجاب في المرء أن يرى في هذا العصر المظلم امرأة كالباعونية تبذ الرجال في العلم والأدب، ولا يعيها أن تكلف بالسجع، وتكلف البديع، وتغري باللفظ، وتقصر إلهامها على المدائح النبوية فإن المرء صنيع بيئته. والشعر الحق مرآة صاحبه وصورة قلبه. وقد علمنا كيف تشبث الشعراء في هذه العصور بالصناعة اللفظية، وانصرفوا إلى المعاني الدينية، فلا بدع إذا تخلقت هي بأخلاق عصرها، ونهجت سبيله في نشرها وشعرها.

نموذج من كلامها

قالت في مقدمة شرح البديعة:

وبعد فهذه قصيدة صادرة عن ذات قناع، شاهدة بسلامة الطباع، منقحة بحسن البيان، مبنية على أساس تقوى من الله ورضوان، سافرة عن وجوه البديع، سامية بمدح الحبيب الشفيع، مطلقة من قيود تسمية الأنواع، مشرقة الطوالع في أفق الإبداع، موسومة بين القصائد النبويات، بمقتضى الإلهام الذي هو عمدة أهل الإشارات، بالفتح المبين، في مدح الأمين.

ومطلع هذه القصيدة:

في حسن مطلع أقمار بذى سلم أصبحت في زمرة العشاق كالعلم
أقول والدمع جار جارح مقلي والجار جار بعدل فيه منهم
ومنها في الجناس:

يا سعد إن أبصرت عيناك كاظمة وجئت سلعاً فسل عن أهلها القدوم
فشم أقمار تم طالعين على سويلع حيهم وأنزل بحيهم
ومنها في الاستخدام:

واستوطنوا السر منى فهو موضعهم ولا أبوح به يوماً لغيرهم
ومنها في التفريق:

قالوا هو الغيث، قلت الغيث آونة يهمى وغيث نداه لا يزال همي
ومنها في حسن الختام:

مدحت مجدك والإخلاص ملتزمي فيه وحسن امتداحي فيك مختمي

وقالت في جسر الشريعة لما بناه الظاهر برقوق:

بنى سلطاننا برقوق جسراً بأمر والأنام له مطيعه

مجاز في الحقيقة للبرايا وأمر بالمرور على الشريعة

ومن نظمها في وصف دمشق:

نزه الطرف في دمشق ففيها
هي في الأرض جنة فتأمل
كم سماها في ربوعها كل قصر
وتناغيك بينها صادحات
كلها روضة وماء زلال
كل ما تشتهي وما تختار
كيف تجري من تحتها الأنهار
أشرقت من جوهه الأقمار
خرست عند نطفها الأوتار
وقصور مشيدة وديار

الباب الخامس

العصر الحديث

الفصل الأول: نظرة عامة

مازال الزمن الجائر ينقص من أطراف الرقعة العربية حتى قصرها في أواخر القرن الثامن عشر على العراق العربي والشام وبلاد العرب ومصر والسودان والمغرب: وفي تلك البلاد بقى النفس الأخير من أنفاس اللغة العربية يتردد في وناء وضعف، حتى أذن الله لشمس الحضارة أن تشرق ثانية على ربوع النيل، فافرض عنها الوهن وسرت فيها الحياة. ففي مصر كان ملاذها وغيائها، وفي مصر كان بقاؤها وانبعاثها!.

كانت مصر في ذلك العهد تحت سلطان العثمانيين حكماً، وتحت سيطرة المماليك فعلاً. وكانت الأهواء المختلفة، والقوى المتضاربة، والأجناس المتباينة، تنحرف في هيكل هذه الأمة البائسة، فكان عددها لا يبلغ ثلاثة ملايين فشلت فيهم الأمية. واستولى عليهم الجهل وألحت عليهم الأوباء والسنون. واستغلهم الظلم واستبعدهم الحكام. ووقفوا عن السير بأنفسهم، وتحرك الفلك، فغزاهم على هذه الحالة الأليمة نابليون.

غزا نابليون مصر سنة 1798، وليس من شأننا أن نعرض لهذه الغزوة إلا من جهتها الأدبية. فإن الجماعة العلمية التي صحبت هذا القائد العظيم لم تصدها القلاقل والحرب عن غرس بذور الحضارة في مصر، فأنشئوا مدرستين وجريدتين⁽¹⁾ ومسرحاً للتمثيل، ومجمعاً علمياً⁽²⁾، ومكتبة، ومطبعة، ومعامل

(1) الجريدتان هما (الأعشور المصري) La Decade Egyptienne وسميت بذلك لأنها كانت تصدر كل أسبوع، والأسبوع في اصطلاح التقويم الجمهوري الفرنسي كان عشرة أيام، ثم يريد مصر Le cgueier d Egypte وقد كانوا ينشرون بالعربية (التنبيه) لإذاعة المهم مما يجري في ديوان القضايا.

(2) أنشأ يونابرت " المجمع العلمي المصري " في السنة التي دخل فيها مصر بمنزل حسن جرجس في الدرب الجديد بحي الناصرية؛ وألفه من ثمانية وأربعين عضواً. ربعهم للرياضيات وربعهم الثاني

كيمائية ومراصد فلكية، وسهلوا للناس النزول إليها، والوقوف عليها. فكان صنيع هذه الجماعة أشبه بالقبس الوضاء سطع في ذلك الغيب الذي احلوك في سماء مصر فبدده، واستطاع الناس أن ينظروا؛ ولكن ماذا رأوا؟ رأوا أنهم في القرن التاسع عشر، وأن الغرب واقف منهم موقف الإنسان العاقل من الحيوان الأعجم يرميهم بنظرات السخرية وهو دائب في سبيل الحياة الصحيحة، مجد في تذليل المادة، فبهتوا ودهشوا.

ولكن محمد علي رأس الأسرة الخديوية لم يدهش، بل علم أن ما في الغرب من حضارة وعمارة إنما أساسه العلم. وأكبر ما تركه الفرنسيون بمصر من الآثار الصالحة والأبحاث النافعة على اضطراب حالهم وقصر احتلالهم، وكان في نفسه الطموح إلى الملك، والاستبداد بحكم مصر والاستعداد له. فأخذ في تعليم المصريين وقد عز فيهم القارئ، فأنشأ المدارس المختلفة الدرجات والغايات في المدائن والقرى وساق الناس إليها قسراً. واستقدم طائفة من علماء فرنسا للتدريس والتأليف. كالدكتور كلوت بك مؤسس المدرسة الطبية، وجومار بك مدير البعثة المصرية. وبعث بمن أنجبت تلك المدارس إلى فرنسا سنة 1826 ليستفيدوا ويستزيدوا. فلما عاد أولئك الطلبة وكانوا أربعة وأربعين أخذوا في الترجمة والتعليم. ثم توالى البعث بعد هؤلاء إلى أوروبا وكلهم من ألزهر الشريف. وتلك يد أخرى لهذا المعهد الجليل على اللغة ساعدتها اليوم على النهوض كما حماها من قبل دون السقوط. وفتحت في القاهرة مدرسة الألسن ودار الترجمة، وأقيمت المطبعة المصرية على أنقاض المطبعة الأهلية التي جاء بها الفرنسيون إلى مصر وذهبت بذهابهم. وأنشأت الوقائع المصرية وهي أول صحيفة عربية في الشرق، فكان ذلك كله وقوداً جزلاً للقبس الذي ألقاه نابليون بمصر ونفخ فيه محمد علي فذكا

=

للتطبيقات. والربع الثالث للاقتصاد السياسي، والربع الرابع للآداب. وجعل رياسته للأستاذ منح ووكلته لنابليون نفسه. وقد قام هذا المجمع بأبحاث قيمة كان ينشرها كل ثلاثة أشهر، ثم أغلق هذا بخروج الجيش الفرنسي من مصر وفي سنة 1859 فكر جماعة من جالية الفرنسيين أن يعيدوه فأعادوه، ولا يزال قائماً بحي المنيرة بالقاهرة.

واشتعل وامتد لهيبه إلى الشام وإلى سائر بلاد العرب فأيقظ النيام وبدد الظلام. وحذا الأمير الشهابي في لبنان حذو محمد علي في مصر، وأعانه على ذلك دعاة النصرانية من الأمريكان والفرنسيين بإنشائهم المدارس والمطابع وتأليفهم الكتب، وإصدارهم المجلات وتعليمهم التمثيل، واعتمادهم في كل أولئك على اللغة العربية، حتى تخرج في معاهدهم صفوة الكتاب والشعراء والمترجمين والصحفيين من أهل لبنان، فتكاتف القطران على إحياء اللغة والعلوم، فترجمت الكتب العلمية، ونشرت المؤلفات العربية، ودب في اللغة ديب الحياة؛ إلا أن آدابها وعلومها لم تزل في يد العفاء؛ لأن محمداً علياً كان مصروف الهم إلى ما يعوزه، كالعلوم الحربية والطبية والصناعية والرياضية، قانعاً من كتابه وعماله باللسان العامي، والأسلوب الاصطلاحي. فكانت لغة الدواوين في عهده وعهد أخلافه خليطاً مهماً معجماً من التركية والعربية.

على أن اللغة المضرية لم تعد في ذلك العصر أنصاراً. فقد كان لها من أمثال الشيخ حسن العطار، وبطرس كرامة، السيد علي الدرويش، ورفاعة بك الطهطاوي، من حفظوا كيانها وجددوا بيانها.

وأخذت هذه النهضة المباركة تنمو رويداً حتى ولى الأمر عباس ثم سعيد، فخبأ أوارها، ووقف تيارها، لرغبة هذين الأميرين عن العلم والتعليم.

فلما جلس إسماعيل على أريكة الخديوية سنة 1863م فتح ما أغلق من المعاهد وزاد عليها. فأنشأ المدارس للعلوم والهندسة والطب والحرب، وعاد إلى إرسال البعث إلى أوروبا، وأسس نظارة المعارف وعهد إليها أمر التعليم، وأنشأ المكتبة الخديوية، وبنى مدرسة المعلمين، وبسط يده للمؤلفين، ونشر أولية المدنية والسكينة على ربوع البلاد، فنزح إليها الأجانب للكسب والتجارة، وفيهم العلماء والأدباء؛ فكان اختلاط هؤلاء بالمصريين، وكثرة المطابع، ووفرة المدارس، وانتشار الصحافة، واقتباس التمثيل، وترجمة العلوم، والأندية الأدبية، والمجامع العلمية، وتعلم اللغات الأجنبية؛ ونقل الحضارة الأوروبية، والحرية الشخصية، كان كل أولئك سبباً في خصب القرائح، وسعة المدارك، ونهوض اللغة، وحياة الأدب.

ثم دهانا الاحتلال الإنجليزي سنة 1882م وكل شيء يتحفز للنهوض. ويتوثب إلى الرقي، فكأنما أقيت ماء على نار، أو أقمت سداً في تيار كانت الحركة العلمية في أواخر عهد إسماعيل واسعة النطاق، والمدارس وافرة العدد، واللغة العربية لسان التعليم ولغة التأليف، فأخذ الإنجليز منذ اغتصبوا السلطان يقطعون أسباب النهضة، ويسرون بالتعليم إلى وجهة أخرى. فأغفلوا البعوث، وأغلقوا مدرسة الألسن، وأبطلوا المجانية، وأهملوا اللغة العربية، وجعلوا التعليم كله بالإنجليزية، وقصروه على تخريج عمال للحكومة لا إعداد رجال للشعب.

ولكن الأمة المصرية قد استطاعت أن تقف على رجلها، وأن تسمح عينها بيديها، فلم ترض النكوص والعالم يتقدم. فهب رجالها يطلبون سيادة لغتهم في بلادهم. ويقومون هم بتعليم أولادهم، فعادت اللغة إلى المدارس، ورجعت البعوث إلى أوربا، وكثرت المدارس الأهلية والأميرية. وشبت ثورة الاستقلال في وجه الاحتلال سنة 1919م وردد العالم العربي صداها، فأيقظت ما بقي من شعور خامد، ودفعت النفوس الخانعة إلى طلب الحرية في الحكم، والرأي، والقول، والعقيدة. حتى ظفرت مصر من ذلك بقسط موفور في دستورها الذي نالته سنة 1923م.

ثم تابعت الجهاد في سبيل حريتها واستقلالها حتى نالت قسطاً آخر بمعاهدة سنة 1936. ولما وضعت الحرب العالمية الثانية أوزارها في عام 1945 طلبت مصر من انجلترا تغيير هذه المعاهدة فجرت بين الحكومتين المصرية والإنجليزية أحاديث طويلة لم تؤد إلى اتفاق، لأن مصر أرادت أن تبني المعاهدة الجديدة على أساسين من وحدة مصر والسودان تحت التاج المصري، وجلاء الجيش الإنجليزي عن وادي النيل. وعارضت انجلترا في الأساس الأول فلجأت مصر إلى هيئة الأمم المتحدة وظهرتها دول الجامعة العربية. فلما عرضت قضيتها على مجلس الأمن بأمريكا، وتولى عرضها رئيس حكومتها، وكان يومئذ المغفور له محمود فهمي النقراشي، قطع لسان الباطل بالحق، وفند دعاوي الإنجليز بالحجج الدامغة؛ ولكن مصانعة الدول لشيخة الاستعمار علق القضية فلم يفصل فيها حتى شبت ثورة الجيش المصري بقيادة

الضباط الأحرار في 23 يوليو من سنة 1952 فعصفت بالفساد والاستبداد، وطهرت البلاد من فجور الملك وشروع الحكم وطغيان الغني فطردت فاروقاً ثم أعلنت الجمهورية وحددت الملكية واضطرت الإنجليز إلى الجلاء عن القناة بعد أن اتفقت الدولتان على أن يقرر السودان مصيره بنفسه. فإما أن يستقل بأمره وإما أن يتحد مع مصر. وقد اختار الاستقلال وأعلن الجمهورية.

وفي شهر فبراير من عام 1958 اندمجت مصر وسورية في وحدة تامة باسم الجمهورية العربية المتحدة. وكذلك استقل لبنان وطبق على شعبه النظام الجمهوري وفي الرابع عشر من يوليو من سنة 1958 ثار العراق على الملكية وأعان الجمهورية، ولا تزال فلسطين والجزائر وجنوب الجزيرة العربية يتطلعون الغاية من هذه السبيل، ويتربون الإصباح بعد هذا الليل المظلم الطويل.

الفصل الثاني

وسائل النهضة الحديثة

كان من آثار الاحتلال الفرنسي، ونزعة الاستقلال عند محمد علي، أن أشرقت من جانب الغرب ومضات من نور المعرفة في آفاق مصر ولبنان فهبت البلاد تسير على ضوئها وتعمل على هداها - تلك الومضات هي الوسائل التي تدرع بها رأس الأسرة العلوية ووراثته على عرش مصر إلى ترقية الجيش وتنشئة الحكومة وتربية الشعب من طريق غير مباشر، وأهم تلك الوسائل:

1 - المدارس

لم يجد محمد علي فيما يعلم يومئذ بالأزهر من علوم الدين واللسان بغيته من علوم الحرب والطب والرياضة، فأنشأ المدارس العلمية المختلفة وقسمتها إلى ابتدائية وتجهيزية وخاصة، ووصل بينها وبين أوروبا بجلب العلماء منها وبعث البعث إليها. فلما تعددت درجاتها وتنوعت أغراضها أنشأ لها إدارة خاصة في سنة 1839 سميت ديوان المدارس كانت رياسته الأولى لمصطفى مختار بك من رجال البعثة العلمية الأولى. ومن أقوى المدارس الخاصة أثر في النهضة العلمية والأدبية مدرسة الطب ومدرسة الألسن ومدرسة دار العلوم. فأما مدرسة الطب فقد أنشئت لخدمة الجيش سنة 1836 في أبي زعبل وأقيم بجانبها مستشفى لتمرين الطلاب ومعالجة المرضى. واستقدم أساتذتها من فرنسا برياسة الدكتور كلوت بك، واختير طلبتها من المصريين وغيرهم. ثم نقلت في سنة 1838 إلى قصر ابن العيني بالقاهرة وإلى هذه المدرسة يرجع أكثر الفضل في إحياء اللغة العربية ووصلها بالثقافة الحديثة؛ لأن الأساتذة كانوا يلقون دروسهم باللغة الفرنسية ثم تؤدي في الوقت نفسه إلى الطلاب باللغة العربية، وكان ذلك يضطر المترجمين من المغاربة واللبنانيين والأرمن إلى البحث عن المصطلحات في المعجمات اللغوية والكتب الفنية القديمة.

وأما مدرسة الألسن فقد أنشأها محمد علي لتخريج المترجمين حين اشتدت الحاجة إليهم في ترجمة الدروس إلى الطلاب، ونقل الكتب الطبية والعسكرية إلى العربية. وجعل إدارتها إلى المرحوم رفاعه بك الطهطاوي حتى إذا خرجت طائفة من أفاضل المترجمين تألف منهم قلم للترجمة سنة 1842 برياسة رفاعه بك اضطلع بترجمة كثير من الكتب العلمية الأجنبية في مختلف العلوم الحديثة.

وأما دار العلوم فقد أسسها المرحوم علي مبارك باشا في سنة 1871م بأمر الخديوي إسماعيل ليتخصص طلابها في العلوم العربية، ويشاركوا في بعض العلوم الدينية والعقلية، ويأخذوا بقسط من الثقافة الحديثة، ولتعلموا بعد تخرجهم فيها اللغة والدين في مدارس الحكومة. وكان أساتذتها من نابغي شيوخ الأزهر، وتلاميذها من متقدمي طلابه. ولهذه المدرسة الفضل العظيم والأثر البالغ في ترقية اللغة وإنهاض الأدب وإشاعة الفصحى على ألسنة خريجيهما وأقلامهم في التعليم والتأليف والكتابة والشعر والخطابة. وقد ظلت مستقلة منذ إنشائها تحمل أمانتها وتؤدي رسالتها حتى ألحقت بجامعة القاهرة سنة 1956 وسميت كلية دار العلوم.

2 - الجامعة الأزهرية

الأزهر أول جامع في القاهرة، وأقدم مدرسة في مصر، ومن أعرق الجامعات الكبرى في العالم بناه جوهر الصقلي بعد ما خط القاهرة، لإقامة الشعائر الدينية وتأييد الشيعة العلوية من طريق الدين. وحشد إليه أساطين الفقه ونوابغ العلم من أقطار الأرض، وأدر عليهم أخلاف الرزق، ورفع عنهم أكلاف الحياة، دون حساب ولا تقرير، حتى يعقوب ابن كاس وزير العزيز بالله، وهو يهودي قد اسلم وتفقه، فرتب لهم الوظائف وابتنى لهم المساكن على مقربة من الجامع. ثم اخذ هؤلاء الفقهاء يقرءون بعد كل صلاة فقه الشيعة، ويأخذون في سبيل الوعظ، ويميلون إلى شيء من البحث، ويتكلمون في مسائل اللغة والنحو، ويعقدون فيه مجلس المناظرة، حتى دالت دولة الفاطميين، وغلب على مصر زعيم الأيوبيين صلاح الدين الأيوبي سنة 517 وهو من أهل السنة

فبايع العباسيين، وأحل الفقه الشافعي محل الفقه الشيعي في الأزهر. وقرر فيه كذلك فقه أبي حنيفة لأنه مذهب الخلفاء في بغداد. ورأى صلاح الدين أن يؤلف قلوب المسلمين كافة فأجاز تدريس المذاهب الأربعة فيه. وجر ذلك إلى بسط العلوم اللغوية والأدبية والإمام بالعلوم الرياضية الطبيعية. وزها الأزر في عهد المماليك بعد سقوط بغداد وانتقال الخلافة والثقافة إلى مصر، فحفظ اللغة من الزوال وعلومها من الاضمحلال. وظل وحده يرسل أشعة العلم والدين إلى أنحاء العالم الإسلامي، لا يخرج عالم إلا منه، ولا ينبغ كاتب ولا شاعر إلا فيه وحتى أدركته الغفوة الشرقية العامة في عهد بني عثمان فتجدد العالم وتقدم العلم وارتقى التعليم وهو جامد على حاله القديم، باق على مذهبه المورث. ومع ذلك فقد كان رجاله في صدر العصر الحديث عدة نابليون في تنظيم عمله، وساعد محمد علي في تحقيق أمله، وموثل اللغة والدين والآداب من عصف المحن وطغيان الجهالة وتغلب الأمية. ولكن مصر هبت من رقادها، ولم تجد الأزهر كما كان كفؤاً لقيادتها وإرشادها، فولت وجهها شطر الغرب تكرر من حياضه. وتقطف من رياضه، حتى اتسعت مسافة الخلف بين التعليم الجديد والتعليم القديم، وانتشرت في مصر ثقافتان تناهض إحداها الأخرى. ثقافة قائمة على الكتب القديمة والطرق العقيمة، وثقافة مبنية على العلم الغربي والتعليم الحديث؛ فلم يكن بد من إصلاح الأزهر ليشارك في النهضة العامة). بدأت الحكومة الخديوية ذلك في عهد شيخه الشيخ الأنباري سنة 1305 هـ فأدخلت فيه بعض العلوم الحديثة بعد لأى ومشقة وفتوى شرعية. ثم تصدى الإمام الكبير محمد عبده لإصلاحه، فوضع الأساس، وحال الأزهريون بينه وبين البناء: ولكن السيل جارف والتيار قوي فلم يستطع أهله الوقوف في سبيله؛ فألقوا السلاح، وقبلوا الإصلاح، ولكن إصلاحه استعصى على المصلحين لعوامل سياسية وأخرى دينوية. فأثروا العافية وفوضوا أمره إلى الزمن.

ثم قسم الأزهر الآن إلى معاهد للتعليم الابتدائي، وأخرى للتعليم الثانوي، وجعل التعليم العالي فيه فروعاً، فكلية للشريعة، وكلية للغة العربية، وكلية لأصول الدين؛ وقد أنشأت لهذه الكليات دور خاصة منفصلة من الأزهر.

ونمت موارده حتى بلغت في العام مئات الألوف من الجنيهات، وزاد طلابه حتى نيفوا على عشرين ألف طالب يساعدهم بالمال والمسكن ومن بينهم العربي والتركي والسوداني والمغربي والإيراني والسعودي والعراقي والهندي والباكستاني والإندونيسي والشركسي والأفغاني وكلهم يتعلمون باللغة العربية ويتغذون بالثقافة الإسلامية، ولهؤلاء أقيمت مدينة على القرب من الأزهر يجد فيها الطلاب الأعزاب الغذاء والمأوى.

3 - الجامعة المصرية

كان من أثر سوء النية الذي بدأ من المحتلين في سياسة التعليم بمصر وحصره في دائرة ضيقة من نواحي الثقافة، وقصره على تخريج الموظفين للحكومة، أن صحت عزيمة المصريين الأحرار على أن يقوموا هم بتعليم أولادهم، وأن يقيموا للعلم الصحيح وزناً في بلادهم، فاجتمعت طائفة منهم سنة 1906 على إنشاء جامعة أهلية تقضي حاجة البلاد من التعليم. وأهابوا بأبناء مصر أن يعاونوا ببذل المال على إنجاح هذا المسعى الخطير، فلبى المحسنون النداء وفي طليعتهم الأميرة فاطمة بنت إسماعيل. وفي سنة 1908 افتتحت الجامعة المصرية وأسندت رئاسة الشرف فيها إلى الأمير أحمد فؤاد قبل أن يستوي على عرش مصر. فاستقدم إليها طائفة من علماء أوروبا، واختار لها صفوة من أدباء مصر، فألقوا على طلبتها من الأزهرين والموظفين محاضرات قيمة في الآداب والفلسفة: وكان من بين العلماء الأوربيين المستشرقون جويدي ونلينو ولتمان فنهجوا لدراسة الأدب العربي وتاريخه المنهج القويم الواضح.

وفي سنة 1925 تولتها وزارة المعارف فشادت لها الأبنية العظيمة، واقتبست لها الأنظمة الأوربية الحديثة، وضمت إليها كليات الحقوق والطب والهندسة والزراعة والتجارة والصيدلة وطب الأسنان، وكانت من قبل ذلك إنما تتألف من كلية العلوم وكلية الآداب، ثم سميت بجامعة القاهرة. ولما اشتدت الرغبة في التعليم وازداد عدد الطلاب أنشئت في الإسكندرية جامعة ثانية سميت بجامعة الإسكندرية. وأقيمت في القاهرة جامعة ثانية سميت

بجامعة عين شمس: وفي أسيوط جامعة رابعة سمين بجامعة أسيوط. مما لا ريب فيه أن هذه الجامعات الأربع جامعة الأزهر وجامعة دمشق قد آتين ثمار العلم، ونشرن أضواء الثقافة، ووصلن الماضي بالحاضر، وربطن الشرق بالغرب، وقرن العلم بالعمل، ووجهن الحضارة العربية الوجهة الصحيحة.

4 - الطباعة

اختراع الطباعة بالحروف " حنا جوتمبرج " الألماني سنة 1440، فكان لاختراعه من الأثر في الأدب والحضارة ما كان. وما كادت تشتهر الطباعة بالحروف في أوروبا حتى صيغت منها قوالب للغات الشرقية. ولاسيما العربية تزداد شيئاً فشيئاً حتى صدرت عن أكثر العواصم الأوروبية. وكان منها المؤلفات الجليلة كالعهدين القديم والجديد، ونزهة المشتاق للإدريسي. وقانون ابن سينا، وتحريم أصول إقليدس. وما زالت تطبع فيها نفائس الكتب المخطوطة إلى الآن. ثم دخلت الطباعة الشرق عن طريق الأستانة 1490م على يد عالم يهودي طبع بها مؤلفات دينية وعلمية؛ ولكن الحروف العربية لم تظهر فيها إلا سنة 1708م. ومن أشهر المطابع العربية في الأستانة " مطبعة الجوائب " لأحمد فارس الشدياق؛ طبع فيها طائفة كبيرة من عيون الكتب الأدبية. أما في البلاد العربية فكان سبق للبنان في استعمال المطبعة بفضل دعاة المسيحية؛ فقد أسس الرهبان اللبنانيون أول مطبعة بيروت في أوائل القرن السابع عشر. ثم أسست بها المطبعة الكاثوليكية سنة 1848م، ولها الأثر الجليل والفضل الجزيل في نشر المخطوطات العربية القديمة، وطبع الكتب الأدبية والعلمية، وإتقان فن الطباعة العربية، ثم تلت مصر لبنان فدخلها الطباعة على يد نابليون سنة 1798م، إذ جاء بمطبعة لطبع المنشورات والأوامر بالعربية وسماها " المطبعة الأهلية " ثم ذهب معه. وأقام محمد علي على أنقاضها المطبعة الأهلية (مطبعة بولاق) سنة 1821. وعهد بإدارتها إلى نقولا مسابكي السوري، وصبت حروفها على أجمل قاعدة نسخة من حجوم مختلفة. ثم صبت ثانية على قاعدة المرحوم جعفر بك كبير الخطاطين في مصر، وهي المستعملة الآن. وقد طبعت ثلاثمائة كتاب في الرياضيات والطب والجراحة

مما ترجم عن اللغات الأجنبية، وطبعت أمهات الكتب الأدبية بفضل (القسم الأدبي) الذي فصل عنها ووصل بدار الكتب المصرية. ومنذ يومئذ اقتصرت مطبعة بولاق على طبع (الوقائع المصرية) والكتب المدرسية والأعمال الحكومية، وهي الآن أكبر مطبعة عربية في العالم. ثم انتشرت بعد ذلك المطابع في مصر فسهلت سبل الأدب وأدنت قطوف العلم، وساعدت على انتشار القراءة.

5 - الصحافة

الصحف مدارس متجولة في البلدان، ليست محصورة بين جدران، ولا يختص بها مكان دون مكان. وهي أوسع دائرة للإرشاد من كل دوائر التعليم: تهذب عقول العامة، وترتب أفكار الخاصة، وتنهض الهمم القاعدة، وتصلح الألسنة الفاسدة، وتقرب الأمم المتباعدة. وهي سجل الأخبار ووعاء التاريخ وتقويم الزمن. وأول جريدة عربية بالمعنى الفني المعروف هي الوقائع المصرية، أنشأها الأمير محمد علي سنة 1828م بمعونة الأستاذ رفاة بك الطهطاوي، وكانت تصدر أولاً بالتركية والعربية، ثم حررت بالعربية وتولى تحريرها نخبة من أفاضل الكتاب كالشيخ حسن العطار، والشيخ شهاب صاحب سفينة الملك، والإمام محمد عبده، والشيخ عبد الكريم سلمان، وسعد زغلول. ولا تزال تصدر عن القاهرة ثلاث مرات في الأسبوع. ثم ظهر بعد ذلك في الشام مرآة الأحوال سنة 1855م وهي سياسة يحررها رزق الله حسون الحلبي؛ وحديقة الأخبار سنة 1858م لصاحبها خليل الخوري؛ والجوائب في الأستانة سنة 1860 لأحمد فارس الشدياق؛ وجريدة الرائد التونسي في تونس سنة 1861م.

وفي زمن إسماعيل أصدر محمد علي باشا البقلي (اليعسوب) وهي مجلة طبية شهرية بمعونة الشيخ محمد الدسوقي وهي أول مجلة عربية ظهرت في العالم. وفي سنة 1866 ظهرت بمصر جريدة سياسية أدبية علمية وهي وادي النيل لأبي السعود أفندي، كانت تصدر مرتين في الأسبوع بالقاهرة. وفي سنة 1869 أصدر إبراهيم بك المويلحي ومحمد بك عثمان جلال جريدة (نزهة

الأفكار) وكانت أسبوعية شديدة اللهجة فألغاهما الخديوي إسماعيل. وفي سنة 1870م صدرت مجلة روضة المدارس المصرية وهي مجلة علمية أدبية يحررها نخبة من ذوي المكانة في العلم والأدب. ثم صدرت الأهرام سنة 1876م وسياستها عثمانية فرنسية، ثم أصبحت بعد الحرب العالمية الأولى مصرية، والوطن سنة 1877م وهي جريدة طائفية احتلالية. وعلى منهاجها سارت جريدة مصر؛ والمحروسة لصاحبها أديب إسحاق سنة 1880. وبعد الاحتلال ظهرت المقطم سنة 1888م وهي احتلالية. والمؤيد وهي إسلامية خديوية. واللواء وهي إسلامية وطنية. والجريدة والشعب والسياسة والبلاغ والجهاد وكوكب الشرق والمصري والكتلة والزمان والجريدة المسائية. وتلك هي كبرى الصحف اليومية والسياسية وكلها تصدر عن القاهرة. وأكثرها انقطع عن الظهور فلم يبق منها إلا الأهرام والأخبار والجمهورية والمساء وهناك صحف أسبوعية مختلفة كالرسالة والثقافة وأخبار اليوم والمصور وآخر ساعة والتحرير، وشهرية كالمقتطف والهلال والكتاب ومجلة الأزهر في مصر، والأديب والآداب في بيروت، ومجلة مجمع اللغة العربية في القاهرة ومجلة المجمع العلمي العربي في دمشق. وأكبر المجلات الأدبية الأسبوعية والشهرية قد احتجبت لقلة العون من الحكومة وضعف الرغبة من القراء.

وبالبحث في سياسة هذه الصحف وتحريرها وتأثيرها يخرج بنا إلى التطويل. ومما لا بد من ذكره أن الفضل في تقدم الصحافة ورقى التحرير والترجمة إنما كان للبنانيين، لسبقهم إلى معرفة اللغات الأوربية، وخلاطهم للأمم الغربية.

6 - التمثيل

التمثيل بمعناه الحديث لم تعرفه اللغة العربية إلا في أواسط القرن الماضي. وكان اللبنانيون أسبق الشرقيين إلى اقتباسه؛ لتخرجهم في المدارس الأجنبية، ودراساتهم للآداب الإفرنجية. وأول من فعل ذلك منهم مارون النقاش المتوفى سنة 1855 فقد مثل أول رواية عربية سنة 1840م. ولما تبوأ إسماعيل عرش الخديوية شجع الأدباء، وعضد العلماء، وساعد الفنانين. وتم

حفر قناة السويس في عهده فاحتفل بافتتاحها ذلك الاحتفال المشهور. ورأى من كرم الضيافة ألا يحرم ضيوفه الأوربيين مشاهدة التمثيل أثناء إقامتهم بمصر، فابتنى دار الأوبرا الخديوية واستقدم لها فرقة أجنبية مثلت رواية (عايدة) بالفرنسية. وورد مصر في أثر ذلك جماعة من أدباء لبنان وفيهم سليم النقاش وأديب إسحاق، فمثلوا في الإسكندرية بضع روايات على مسرح زيزينيا سنة 1871م ففضلوا، وتخلوا عن الفرقة لأحدهم يوسف خياط، فقدم القاهرة واتصل بإسماعيل ففتح له الأوبرا وشهد أولى رواياته، وكانت رواية (الظلوم)، فظن أنهم يعرضون به فنهم إلى وطنهم. وأقفلت الأوبرا في وجه التمثيل العربي فلم تفتح بعد ذلك إلا لفرقة سليمان الفرداحي وزميله الشيخ سلامة حجازي.

ولم يكن التمثيل في تلك الفترة الماضية شعبياً، وإنما كان حكومياً أرستقراطياً لا يحضره إلا الأمراء والحكام، فلما بني اسكندر فرح مسرحه في شارع عبد العزيز بالقاهرة وضم عليه الشيخ سلامة حجازي أصبح للجمهور. وكأن التمثيل حينئذ بعيداً عن الكمال والذوق لا يرجع إلى فن ولا يعتمد على قاعدة، وإنما كان أساسه الغناء والمجون استمالة للعامة وإرضاء للدهماء، ولغة الروايات كانت سقيمة ملحونة مسجوعة. وأول خطوة خطاها هذا الفن في سبيل الكمال كانت بفضل الفرقة التي ألفها جورج أبيض بعون الخديوي عباس حلمي، وضم إليها صفوة الممثلين الذين خرجهم الزمن وأرشدتهم التجارب. إلا أن هذه الفرقة انحلت بعد قليل لسوء الإدارة وقلة المال وزهادة الجمهور في التمثيل الفني. وظل التمثيل بعد ذلك يرسب ويطفو تبعاً للحوادث والظروف. على أن حالته الآن وإن لم ترض الباحث من كل وجه لا تدعو إلى اليأس، فقد أنشأت وزارة الثقافة والإرشاد معهداً للتمثيل وألفت فرقة حكومية وفرقا أخرى مختلفة تنفق عليها نرجو أن يكون لها أثر قوي في إنهاض المسرح بعد أن اعتدت عليها السينما وخذله الجمهور.

7 - المجمع الأدبية

المجمع العلمي العربي بدمشق

كان إخواننا في الجمهورية العربية السورية أسبق الأمم العربية إلى إنشاء المجمع العلمية على ضيق مواردهم وغل سواعدهم، كما كان اللبنانيون أسبغها إلى الترجمة والصحافة والتمثيل فقد أنشئ المجمع العلمي العربي بدمشق في اليوم الثامن من شهر يونيو سنة 191م بعد دخول الأمة السورية في وصاية الدولة الفرنسية إجابة لمقترح الأستاذ محمد كرد على وزير المعارف السورية يومئذ لأغراض كانت إذ ذاك " تدور حول مسائل تعود بأسرها على إنعاش الآداب العربية، وتلقين أصول البحث والدرس لنهضة الدارسين. وقد عنى هذا المجمع بوضع ما عرض عليه وضعه من الألفاظ في المصطلحات العلمية الحديثة، وأصلح بعض الأوضاع الإدارية، وقوم ما أمكن لغة الدواوين، وصحح بعض أغلاط الكتاب والشعراء والخطباء، وعاون عدة من المؤلفين والمترجمين على ما هم بسبيله ⁽¹⁾ " وضم هذا المجمع صفوة العلماء والأدباء في الشام والعراق ومصر وطائفة من علماء المشرقيات في أوروبا. وأصدر مجلة شهرية لنشر دراساته ومحاضراته ومقالاته. وبعد أن اتحدت مصر وسورية في الجمهورية العربية المتحدة حيناً من الدهر أصبح مجمع دمشق ومجمع القاهرة مجمعا واحدا ومؤتمر سنوي واحد.

مجمع اللغة العربية بالقاهرة

وفي 14 من شعبان سنة 1315 هـ 3 ديسمبر 1932م صدر مرسوم ملكي بإنشاء مجمع ملكي للغة العربية تابعاً لوزارة التربية والتعليم في القاهرة والغرض منه:

1 - " أن يحافظ على سلامة اللغة العربية، وأن يجعلها وافية بمطالب العلوم والفنون في تقدمها، ملائمة على العموم لحاجات الحياة في العصر

(1) ما بين القوسين منقول عن التقرير الرابع للمجمع.

الحاضر، وذلك بأن يحدد في معاجم أو تفاسير خاصة، أو بغير ذلك من الطرق ما ينبغي استعماله أو تجنبه من الألفاظ والتركيب.

2 - أن يقوم بوضع معجم تاريخي للغة العربية ن وأن ينشر أبحاثاً دقيقة في تاريخ بعض الكلمات وتغير مدلولاتها.

3 - أن ينظم دراسة علمية للهجات العربية الحديثة بمصر وغيرها من البلاد العربية.

4 - أن يبحث كل ماله شأن في تقدم اللغة العربية مما بعهد إليه فيه بقرار من وزير المعارف العمومية " وهو مؤلف من " أربعين عضواً عاملاً يختارون من تقييد بالجنسية من بين العلماء المعروفين بتبحرهم في اللغة العربية، أو بأبحاثهم في فقه هذه اللغة أو لهجاتها " وخمسة وعشرين عضواً مراسلاً في مختلف البلدان الشرقية والغربية. ومن بين أعضائه العاملين اليوم ثلاثون عضواً مصرياً، وعضوان أوريان فرنسي وإنجليزي، وعضو عن المغرب، وعضو عن تونس، وعضو عن المملكة العربية السعودية، وعضو عن العراق. يرأسهم الأستاذ أحمد لطفي السيد. والمجمع يتألف من هيئتين: مؤتمر ويتكون من أعضائه جميعاً ويجتمع أربعة أسابيع متوالية في كل سنة. ومجلس المجمع ويتكون من الأعضاء المصريين ويجتمع مرة في كل أسبوع. وللمجمع مجلة تنشر ما يقره من البحوث اللغوية والمصطلحات العلمية صدر منها سنة عشر جزءاً، والمجمع يبذل جهوده اليوم في وضع المعجم اللغوي الكبير، ومعجم ألفاظ القرآن الكريم ومصطلحات العلوم الحديثة. بعد أن وضع المعجم الوسيط في نحو ألف صفحة ونشره على الناس فقابلوه بالثناء وحسن التقدير.

المجمع العلمي العراقي:

تألف في بغداد على غرار المجمع العلمي العربي بدمشق.. ونشاطه مقصور على البحوث والمحاضرات، ونشر بعض المخطوطات.

الفصل الثالث: النشر

الكتابة

كان النافق في صدر هذا العصر من كتب السلف كتابان يمثلان مذهبين مختلفين في الكتابة: أحدهما مقامات الحريري، والآخر مقدمة ابن خلدون. فالأول يمثل الأسلوب الصناعي الأجوف المموه، والثاني يمثل الأسلوب الطبيعي العامر المحكم. وكانت القلوب لا تزال مأخوذة بسحر المقامات لدقة صناعتها، وذيوع طريقتها، وقصور العقول عن البحث، وعجز القرائح عن التوليد، ولكن النابغين من خريجي المدارس المدنية الحديثة الذين وقفوا على آداب الفرنجة آثروا الطريقة الخلدونية على الطريقة الفاضلية، لجريانها مع الطبع، وملاءمتها الروح العصر، ومشابقتها لأساليب الفرنجة، فظهرت مهذبة فيما كتب قاسم أمين، وفتحي زغلول، ولطفي السيد، ومن جرى مجراهم. وانفرد بالأسلوب البديعي رجال دار العلوم ومن يمت بسبب إلى الأزهر من أمثال الشيوخ حمزة فتح الله، وتوفيق البكري، وحفني ناصف، ومن حذا حذوهم وبدت على أساليب هؤلاء مظاهر التكلف فأسرفوا في المحاكاة، وأوغلوا في الصنعة. وتشددوا في القياس، وتصعبوا في استعمال اللغة، كما بدت على أساليب أولئك مظاهر التطرف فتجوزوا في القواعد وتسامحوا في اللغة، واستخفوا بجمال الصياغة، وهبطوا إلى مستوى العامية. وفي ذلك العهد نشأت على أقلام عرب لبنان النازحين إلى الأمريكتين طريقة ثالثة فيها الفكرة والطرافة والحركة والتنوع، ولكن فيها الركاقة والتساهل والدخيل والعجمة؛ فكان من رد الفعل الذي لا بد منه لهؤلاء الطرائق الثلاث أن تنشأ طريقة رابعة تأخذ محاسنها وتخلو من مساوئها فترتضيها الأذواق جميعاً تلك كانت طريقة إحياء الأسلوب العربي الخالص مكمل النقص. بما فاته من صور البيان لانقطاع أهله عن مسامرة التمدن الفكري الحديث. استبانت معالم هذه الطريقة في نثر المنفلوطي، كما استبانت في شعر البارودي، ثم نهجها الكتاب الموهوبون والشعراء المطبوعون فتميزت بالرقّة والدقة والسلامة والرصانة والقصد. ثم نبعث طائفة من الكتاب جمعوا بين ثقافة الشرق القديم وثقافة

الغرب الجديد فبلغوا بالثر الفني منزلة لم يبلغها في عصر من عصوره. فالأسلوب الذي كتب به المنفلوطي والبشري والرافعي والمازني، ويكتب به العقاد وطه حسين هو ثمرة التطور الحديث في الأدب والعلم والفن والحضارة. وهو وإن اختلف بين الكتاب في القوة والضعف، والعمق والضحل، والدقة والتجوز، والتركيز والانتشار، يشترك في الصفات الجوهرية للغة وهي الصحة والنقاء والمرونة، وفي الخصائص الأصلية للبلاغة وهي الصالة والوجازة والتلاؤم⁽¹⁾.

ولقد تعددت الأساليب في هذا العصر، فكان لكل طبقة أسلوب، كالأدباء والفقهاء والمحامين والصحفيين. وتنوعت الأغراض، فكتبوا في القانون والسياسة والاجتماع، ونسجوا على منوال ما ترجموه من القصص والروايات الأوربية.

وعلى الجملة فالمذهب الكتابي المعاصر يجمع كما قلت صفات اللغة الجوهرية وخصائص البلاغة الأصلية، إلى تأثره بالمذاهب الأوربية والعوامل الاجتماعية والمناحي الثقافية والمعاني الحضرية. والكتاب الذين يتزعمونه اليوم أو يتبعونه نفر من الأدباء الكهول وطائفة من الأدباء الشباب، توفر حظهم جميعاً من علوم اللسان ومفردات اللغة، واستنزفوا الشباب في تحصيل الأدب ومعاناته، حتى وقفوا على أطواره وكشفوا عن مخبأته. ويمتاز زعماء هذا المذهب بقسط عظيم الثقافة الحديثة والاطلاع الواسع والبراعة العجيبة في التوفيق بين القديم المنبعث والحديث المتولد والتأليف بين الشرق المتخلف والغرب المتطرف، حتى ليقرأهم القارئ البصير بمذاهب الكلام فلا يرجع أساليبهم إلى مذهب من مذاهب العرب ولا إلى مذهب من مذاهب الفرنجة؛ إنما هي أساليب مستقلة تتسم بالشخصية وتمتاز بالأصالة وتنفرد بمكان ظاهر بين أسلوب السلفيين الذي جمد، وأسلوب المتطرفين الذي ماع⁽²⁾.

(1) انظر تفصيل ذلك في كتابنا (دفاع عن البلاغة).

(2) انظر كتابنا (دفاع عن البلاغة).

ولا بأس أن نشير هنا إلى أن هناك طائفة من ضعفة الكتاب قعد بهم وهن السليقة وقلة الاطلاع عن مجارة البلغاء، فأخذوا يدعون إلى العامية باسم المذهب الجديد. ليس لهؤلاء " المتكاتبين " رأى موفق نجله، ولا مذهب مؤيد نناقشه، وإنما هم يفكرون ويكتبون بأسلوب أعجمي في لفظ عربي يتعثر بين اللحن والركاكة. فحسبنا أن نسجل هذه الظاهرة دون تعليق عليها ولا بيان لها.

الفن القصصي والروائي

سبق القول في حظ العرب من هذا الفن ن وقلنا إن قصورهم فيه كقصورهم في الشعر القصصي لأسباب واحدة ودواع متفقة. فلما أثمرت بواكير النهضة الحديثة اقتبس أدباؤنا فيما اقتبسوا من أدب الغرب القصة الإفرنجية بقواعدها ومناهجها وموضوعاتها. وكان أول من فعل ذلك اللبنانيون لسبقهم إلى مخالطة الأوربيين والأخذ عنهم، كفرنسيس مراش الحلبي المتوفى سنة 1872، وسليم البستاني المتوفى سنة 1884م، وجرجي زيدان المتوفى سنة 1914. ثم عالجها الكتاب المصريون بعد ذلك علاج المحاكاة لما قرأوا من تلك القصص. وكان أول ما ظهر طائفة من القصص والأقاصيص المترجمة. بعضها كان أشبه بالاقتباس لبعده عن أصله بالحذف أو بالزيادة أو بالتغيير كغصن البان لنجيب الحداد، والفضيلة لمصطفى المنفلوطي. والبؤساء لحافظ إبراهيم، وبعضها دقيق الترجمة شديد المطابقة كمرغريت للدكتور أحمد زكي، وابن الطبيعة لإبراهيم عبد القادر المازني، وآلام فارتير وروفايل وأقاصيص من الأدب الفرنسي لصاحب هذا الكتاب. وقد كانت هذه القصص المنقولة على علاقتها أساساً للنهضة القصصية الحديثة في الشرق العربي احتذاها الشباب واستوحاها الكتاب، لأن المدرسة العربية في مصر وفي غير مصر ظلت على أساليب البلاغة القديمة فلم يدخل في برامجها الأدبية تعليم الفن القصصي والروائي على الطريقة المرسومة في المدرسة الأوربية. فلما ارتقى الفن الكتابي في الأسلوب الذي علمته في الفصل السابق، وأخذت القصة العربية تتميز بطابعها وتستقل بموضوعاتها ظهرت طائفة من القصص الفنية القوية كزينب لمحمد حسن هيكل، والأيام لطفه حسين، وإبراهيم الكاتب للمازني ن وسارة للعقاد، وأهل الكهف لتوفيق الحكيم، وبداية ونهاية لنجيب محفوظ.

أما المقامات فقد انقضى أمرها وذهب عصرها بذهاب الصناعة اللفظية من الأدب الحديث. وكان آخر من قلد الحريري فيها الشيخ ناصيف اليازجي، ونقولوا الترك من الكتاب اللبنانيين. أما المصريون فقد اقتبسوا الطريقة، ولكنهم

وسعوا الحادث ونوعوا الموضوع، كما فعل محمد المويلحي في حديث عيسى ابن هشام، وحافظ إبراهيم في ليالي سطوح، فقد احتفظنا بالمنهج والأسلوب، وأسهبنا في الموضوع بالاستتباع والاستطراد حتى أصبح عملهما وسطاً بين المقامة والقصة.

تلك حال الفن القصصي. وأما الفن الروائي أو المسرحي، فظل غريباً عن الأدب العربي لا يألفه ولا يعرفه حتى علمه من الأدب الغربي عن طريق المشاهدة والنقل. فهبت طائفة من الذين درسوا الآداب الغربية أو زاروا البلاد الأجنبية يزاولونه بالمحاكاة والاحتذاء دون أن يتجهزوا له بجهازه، ويستعينوا عليه بأداته، فالتوى عليهم وأعزل حتى كاد يسمهم بالعجز عنه. اللهم إلا ما كان من أمر شوقي فقد حاول أن يسد النقص الموروث في الشعر العربي فاستحدث الشعر التمثيلي وخطابه في طريق الكمال خطوة موفقة بنظمه روايات: علي بك الكبير، وكليوباترة، ومجنون ليلي، وقمبيز، وعنترة. والست هدى. ثم توفاه الله قبل أن يبلغ به الغاية. وعلى نهجه المعهد سار الشاعر عزيز أباطة في روايته قيس ولبنى والعباسية، والناصر وشجرة الدر. وقد أخذت الجمهورية العربية المتحدة تهيئ للفن القصصي والروائي أسباب الوجود بمكافأة الكتاب ومساعدة الممثلين فعسى أن يسفر أملها عن وجه النجاح فتتم بداءة الخديوي إسماعيل، في إيجاد هذا الفن الأدبي الجميل.

الفصل الرابع

أساطين النهضة الحديثة

في مصر والشام والعراق والمغرب

ممن نبغ من المصريين في هذا العصر وقوى هذه النهضة بروحه وروحه، الشيخ عبد الرحمن الجبرتي صاحب التاريخ المعروف باسمه، درس في الأزهر دراسة كاملة، ثم اتصل بالفرنسيين أيام احتلالهم مصر فاستكتبه في الديوان. ثم انقطع للتأليف فصنف كتابه عجائب الآثار في التراجم والأخبار، ثم توفي سنة 1825م.

ثم الشيخ محمد المهدي شيخ الجامع الأزهر وأحد أعضاء الديوان الخصوصي لنابليون، ولد قبطياً ثم أسلم ودرس في الأزهر حتى رأسه. ألف كتاب تحفة المستيقظ الأنس، في نزهة المستنيم الناعس، وهو أشبه ألف ليلة وليلة، وكانت وفاته سنة 1815م.

ثم الشيخ حسن العطار وهو ناظم ناثر، ولد بالقاهرة ثم تعلم بالأزهر واتصل بالفرنسيين ورحل إلى الشام فأخذ ذلك من فهمه وزاد في علمه. ثم تولى التدريس في الأزهر ورقى إلى أن صار شيخاً له، وتوفي سنة 1832م.

ثم السيد علي الدرويش شاعر الأمير عباس الأول، نشأ في القاهرة وعاش موفور الكرامة بشعره. وقد جمع شعره أحد تلاميذه في ديوان سماه: الإشعار بحميد الأشعار. وكانت سنة 1853م.

ثم الشيخ شهاب الدين صاحب سفينة الملك، ولد بمكة ثم وفد إلى مصر ليتعلم في الأزهر فنبغ في الأدب وألم بالحساب والهندسة والموسيقى، ثم اشتغل بالتحريير في الوقائع والتصحيح في مطبعة بولاق حتى توفي سنة 1857م.

ثم رفاة الطهطاوي أحد أركان النهضة العلمية، ومدير المدرسة التجهيزية، ومنشئ الوقائع المصرية، ولد بطهطا وتعلم في الأزهر، وأرسله

محمد علي فيمن أرسل إلى فرنسا فأتم دراسته ثم عاد فعكف على التحرير والترجمة والتأليف والتعليم حتى وافاه حماته سنة 1872م.

ثم الشاعر محمود صفوت الساعاتي نشأ في القاهرة وتوفى سنة 1880م.

ثم الشيخ عبد الهادي نجا الإبياري الشاعر المطبوع واللغوي الحجة والمؤلف النابه، ولد في أيار من أعمال الغربية ثم ثقف العلم بالأزهر واتصل بإسماعيل فجعله إمامه ومفتيه. ثم أتاحه اليقين سنة 1888م.

ثم العلامة الشيخ حسين المرصفي شيخ المعلمين وعمدة المؤلفين وصاحب الوسيلة الأدبية في العلوم العربية. تخرج في الأزهر وعلم به. ورزق ما يرزقه مكفوفو البصر من لطف الحس وذكاء الفؤاد. توفى سنة 1886.

ثم الأديب الشاعر عبد الله باشا فكري ناظر المعارف في عهد إسماعيل، ومؤلف الفوائد الفكرية للمكاتب المصرية، توفى سنة 1889م.

ثم المصلح الكبير علي مبارك باشا منظم المدارس المصرية ومنشئ المكتبة الخديوية (دار الكتب)، ومؤلف الخطط التوفيقية، وقصة علم الدين. شارك في علوم كثيرة، وتقلب في مناصب خطيرة، منذ ولاية محمد علي إلى عهد توفيق. ثم توفى سنة 1893م.

ثم الأديب القدير السيد عبد الله نديم خطيب الثورة العربية، وله ترجمة خاصة.

ثم المترجم البارع محمد عثمان بك جلال ناقل أمثال لافونتين في كتابة العيون اليواقظ، ومترجم ترتوف وبول وفرجينى إلى العامية، ومؤلف السياحة الخديوية في الأقاليم المصرية، توفى سنة 1898م.

ثم السيدة الفاضلة عائشة التيمورية، نبغت في الشعر العربي والتركي وخلفت في كل منهما ديواناً. ولها غيرهما كتاب نتائج الأحوال في الأدب. ولدت بمصر سنة 1840م، وتوفيت بها سنة 1902.

ثم الاجتماعي الألمعي والكاتب المفكر قاسم بك أمين محرر المرأة المصرية، وأحد رسل الإصلاح الاجتماعي، ومؤلف كتابي: تحرير المرأة، والمرأة الجديدة، وأثرهما في النهضة النسائية معروف. توفى سنة 1108.

ثم الخطيب المضدع، والسياسي المجرب، والوطني الصادق، والصحافي البارع، مصطفى باشا كامل، وله ترجمة خاصة.

ثم الفقيه المحقق، والمترجم البارع، فتحي باشا زغلول، شارح القانون المدني، ومؤلف كتاب المحاماة، ومترجم كتب جوستاف لوبون، ومحرر القوانين المصرية، توفي سنة 1914م.

ثم الكاتب الرشيق السيد مصطفى المنفلوطي، وله ترجمة خاصة. ثم العبكري الفذ والمحامي الدرة والأصولي البارع، والخطيب المصقع، والكاتب النابغ والسياسي المحنك، سعد باشا زغلول وله ترجمة خاصة.

ثم اللغوي المؤرخ المحقق أحمد باشا تيمور صاحب الخزانة التيمورية. ومعجم اللغة العامية، والمؤلفات القيمة، والمقالات الممتعة في اللغة والتاريخ. توفي سنة 1930م.

ثم الكاتب الناقد الرقيق محمد بك المويلحي صاحب حديث عيسى ابن هشام، توفي سنة 1930م. وله ترجمة خاصة.

ثم أمير الشعراء وخليفة المتنبي أحمد بك شوقي وله ترجمة خاصة. ثم شاعر النيل، وأديب الشعب، محمد حافظ بك إبراهيم وله ترجمة خاصة.

ثم الأديب المطلع والمثقف النابغ أحمد زكي باشا صاحب الخزانة الزكية، ومحي المؤلفات العربية، وناشر الثقافة الإسلامية، توفي سنة 1924.

وممن نبغ من اللبنانيين والسوريين المعلم الشاعر بطرس كرامة الحمصي مباح الأمير بشير الشهابي ومعلم ولده وموضع ثقته. جمع شعره في ثلاثة دواوين ولم يطبع إلا واحد منها. توفي سنة 1851.

ثم الفيلسوف الشاعر فرنسيس مراش الحلبي أقدم دعاة الحديث، وأول رسل التجديد، ومؤلف طائفة من الكتب المفيدة. توفي ضريراً سنة 1783م.

ثم الصحفي المنشئ أديب إسحاق، رئيس قلم الإنشاء في نظارة المعارف المصرية على عهد توفيق، ولد بدمشق ودرس فيها ثم رحل إلى مصر فلقي

جمال الدين، وكان له أثر ظاهر في النهضة الأدبية الحديثة، توفي سنة 1885م.

ثم المصلح الاجتماعي والكاتب السياسي الشيخ عبد الرحمن الكواكبي صاحب كتابي (طبائع الاستبداد) (وأم القرى)، جاب أكثر الممالك الإسلامية، ثم ألقى عصاه بمصر سنة 1902م.

ثم الكاتب الأديب جميل المدور صاحب حضارة الإسلام في دار السلام، ولد بيروت وتوفي فيها سنة 1907م.

ثم الأديب الكبير، والصحفي البار، والمترجم القدير، الشيخ نجيب الحداد، امتاز بكثرة ما نقل ووضّع من الروايات التمثيلية، ثم توفي في ريعان شبابه سنة 1899م.

ثم العلامة المؤرخ الحجة واللغوي الثبت الشيخ طاهر الجزائري عالم دمشق وأديبها توفي سنة 1625م.

ثم المؤرخ النابه، والصحفي النابغ، والقصصي المبدع، جرجي بك زيدان، منشئ الهلال، ومؤلف طائفة من الكتب القيمة في التاريخ والأدب، واللغة والاجتماع، ورائد الفن القصصي التاريخي في الشرق. توفي سنة 1914م.

ثم الفيلسوف المحقق، والصحفي المجدد، الدكتور يعقوب صروف منشئ المقتطف وأحد رسل العلم الحديث، توفي سنة 1917م.

وممن نبغ في العراق آل الألوسي، وأشهرهم العلامة الفقيه شهاب الدين الألوسي صاحب التفسير الشهير الموسوم بروح المعاني في تسعة مجلدات. توفي ببغداد سنة 1854م.

ثم حفيده السيد محمود شكري الألوسي أديب العراق ومؤلف كتاب بلوغ الأرب في أحوال العرب في ثلاثة مجلدات، توفي سنة 1923م.

ثم الشاعر الرقيق عبد الغفار الأخرس المتوفى سنة 1873م.

ثم الشاعر الفيلسوف جميل صدقي الزهاوي المتوفى سنة 1937م، وله ترجمة خاصة.

ثم الشاعر الاجتماعي معروف الرصافي المتوفى سنة 1945م وله ترجمة خاصة.

ثم العلامة اللغوي الأب أنستاس ماري الكرمللي عضو مجمع اللغة العربية بالقاهرة المتوفى سنة 1947م.

وممن نبغ في المغرب الكاتب السياسي المصلح محمد بيرم مؤلف الرحلة الموسومة بصفوة الاعتبار بمستودع الأمصار، في خمسة أجزاء. وفد إلى مصر فأنشأ بها جريدة "الأعلام" واتخذها مقامه حتى توفى سنة 1881.

ثم الوزير العالم خير الدين باشا صاحب كتاب أقوم المسالك في معرفة أحوال الممالك، وهو من خير ما كتب في بابه. سمت به كفايته إلى أن تقلد الوزارة في تونس، والصدارة العظمى في الآستانة، وتوفى سنة 1890م.

ثم الفقيه السياسي المصلح السيد عبد الحميد باديس الجزائري المتوفى سنة 1940م.

ثم الشاعر الشاب الثائر الحر أبو القاسم الشابي التونسي المتوفى سنة 1634.

ثم بقيت طائفة من نابغي الكتاب والشعراء والأدباء والخطباء، آثرنا أن نخصهم بشيء من التفصيل والتحليل.

الكتاب

جمال الدين الأفغاني



حياته وأعماله

ولد السيد محمد جمال الدين ابن السيد صفتر بقرية أسد آباد من أعمال كابل ببلاد الأفغان في بيت كريم الأصل يجمع إلى جلالة النسب إلى الحسين سؤدد الإمارة على بعض الأقاليم الأفغانية. ثم درج في بيئة تعتز بطباع البداوة من حرية وحمية وأريحية وأنفة. ثم تحول أبوه إلى كابل وهو في الثامنة من عمره فتلقى فيها مبادئ العلوم العربية والأدبية والشعرية والعقلية على منهج محيط شامل. ثم حذق في مراحل حياته ومواطن رحلاته اللغات العربية والآردية والفارسية والتركية والفرنسية، وألم بالإنجليزية والروسية، فاتصل منها بثقافة الشرق والغرب في القديم والحديث. ثم أخذ يطوف ما شاء الله أن يطوف في أقطار الهند وإيران والحجاز ومصر وتركيا وإنجلترا وفرنسا وروسيا فازداد بصرًا بأحوال الدول وأخلاق الشعوب. ثم كان رضي الله عنه متواضع النفس لأنه عظيم، جريء الصدر لأنه حر، ندي الراحة لأنه زاهد، ذرب اللسان لأنه قرشي، أبي الضيم لأنه أمير، حاد الطبع لأنه مرهف، صريح القول لأنه رجل. ولم يتغ من وراء هذه الصفات - كما قال - - إلا سكينه القلب. وكان يحمد الله على أن آتاه من الشجاعة ما يعينه على أن يقول ما يعتقد ويفعل

ما يقول ⁽¹⁾. ومن امتزاج هذه الشرائع وتلك الوسائل فيه اتسعت حوله الأرض، وامتد أمامه الأفق، وانصرف همه البعيد عن الدار والزوجة والعشيرة إلى الوطن الإسلامي كله، والشرق الإنساني كله، فجعل قصده ووكده أن يدعو إلى إنهاضهما بالوحدة الإسلامية لتدفع غائلة المستعمر، وبالحكومة الدستورية لتقمع شره المستبد.

وقد آمن بهذه الدعوة إيمانه بالله حتى رأى في سبيلها السجن رياضة والنفي سياحة والقتل شهادة! ⁽²⁾.

وكان الذين يقفون من سيرة الأفغاني على الهامش يظنون أنه قصر جهده في تحقيق هذه الدعوة على الكتابة والخطابة. والواقع الذي لاشك فيه أنه فكر ثم قدر ثم دبر، ولكن الوحدة كانت من الشتات بحيث لا تلتئم، والاستبداد كان من الثبات بحيث لا ينهزم.

تولى الوزارة وهو في ريق شبابه لأمير الأفغان محمد أعظم، فجمع نفسه على الاستقلال، ودار أمره على الشورى، فأوجس الإنجليز خيفة من هذه النزعة فأرسلوا ذهبهم إلى منافسه فأضرم الثورة وفرق الكلمة وطرد الأمير. وخرج السيد إلى الهند يبتغي السكينة عند تاجر صديق، فاستقبله الإنجليز على الحدود، وأنزلوه بالإكراه ضيفاً على الحكومة. فسألهم الإقامة شهرين، ولكنهم حين رأوا إقبال الناس عليه، وإصغائهم الشديد إليه، قصرُوا هذه المدة وأمروه بالخروج. وكادت الأعصاب الهندية المخدرة تثور حين قال لزعماء الهنود وهو راحل:

"وغزة الحق وسر العدل، لو أن ملايينكم مسخت ذباباً لأخرجت الإنجليز بطينها من الهند. ولو انقلبت سلاحف وخاضت البحر إلى الجزر البريطانية لجذبتها إلى القاع!".

وفي الآستانة استقبله الصدر الأعظم استقبال التجلة، وأحلّه أعيان الدولة محل الكرامة. ثم عين عضواً في مجلس المعارف، فرأى في التعليم رأياً

(1) خاطرات جمال الدين س 21.

(2) خاطرات جمال الدين س 33.

وخطب في الصناعة خطبة، أحفظا عليه أعوان الجهل من رجال العلم وإخوان الضلال من شيوخ الدين. وتولى قيادة الإرجاف شيخ الإسلام لحاجة في نفسه، فافترى على الرجل الأباطيل، وبس حوالبه التمايم، فلم يجد الأفغاني بداً من النزوح إلى القاهرة.

وهنا وجد الصدر الأرحب في رياض باشا، فتجلت عبقريته في التعليم والتنبيه والتوجيه. وأوقد بالزيت المقدس شعلته الوهاجة في البيت وفي القهوة فعشا على ضوئها الهادي طلاب المعرفة وعشاق الحكمة من علماء وأدباء وساسة وقادة. ثم اتخذ من المحفل الماسوني الذي أنشأه منارة لهذه الشعلة، فقسم الإخوان العاملين فيه شعباً لكل وزارة من وزارات الدولة شعبة. فسبعة الحرية تنظر في ظلامة الضباط المصريين، وتنذر (ناظر الجهادية) أن ينصفهم من الضباط الجراكسة. وشعب الحقانية والمالية والأشغال تنذر وزراءها أن يساؤوا المصريين بغيرهم في العمل والمرتب. ورأى أولى الأمر ما قرأوا في تقارير الشعب، وما سمعوا من لغط الموظفين، وما رأوا من قلق المثقفين، فاستدعاه الخديوي توفيق وفاوضه في ذلك فقال له فيما قال: "إن سبيل الإصلاح أن يشترك الشعب في حكم البلاد عن طريق الشورى". ثم ازداد جمال الدين إمعاناً في حملته، وانقلب الأدب كله أصداء لأحاديثه وأبواقاً لدعوته، حتى انتهى الأمر - بعد جهاد ثماني سنوات إلى أن ضاق الإنجليز بسعة نفوذه، فزينوا للخديوي أن يخرج من مصر فأخرجه.

وانتقلت الشعلة إلى باريس، وسطعت في (العروة الوثقى)، وظلت ألسنتها ثمانية عشر شهراً تومض في جنبات الشرق كما تومض المنارة في ظلمات المحيط، حتى دلت على أوكار الطغيان ونمت بأسرار القرصنة، فاستقدمه شاه العجم واستوزره، فلما أشار عليه بالشورى أشاح بوجهه عنه. واستزاره قيصر الروس واستخبره، فلما نبأه بحديث الشورى نفر منه. واستدعاه خاقان الترك واستشاره، فلما نصح له بالشورى وتقسيم الإمبراطورية إلى عشر خديويات يتولاها أمراء عثمانيون زوي عبد الحميد ما بين عينه؛ ولكنه ألطف الجواب للحكيم الشجاع، وظل على إكرامه واحترامه أربع سنين حاول فيها أن يكبله بقيود المنصب والزواج فلم يستطع، ولكن الموت استطاع أن يكبل الشائر الحر

ليبلغ الاستبداد أجله المقدور فمرض بالسرطان في الآستانة وتوفى به اليوم التاسع من شهر مارس سنة 1867م.

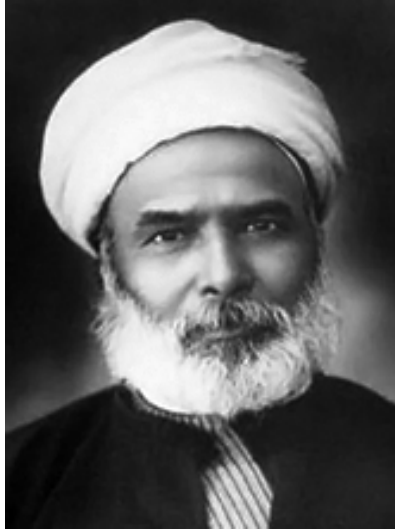
نموذج من نثره

كتب إلى عبد الله باشا فكري يعتبر عليه وقد بلغه أن رجلاً ذمه أمام الخديوي على مسمع منه، فسكت ولم يدافع عنه:

مولاي! إن نسبتي إلى هودة في الحق وأنت - تقدست جبلتك - فطرت عليه وتخوض الغمرات إليه، فقد يعت يقيني بالشك. وإن توهمت فيك حيدانا على الرشد، وجوراً عن القصد وأنا موقن أنك مازلت على السداد غير مفرط ولا مفرط فقد استبدلت علمي بالجهل. ولو قلت: إنك من الذين تأخذهم في الحق لومة لائم، وتصدهم عن الصدق خشية ظالم، وأنت تصدع به غير وان ولا ضجر، ولو ألب الباطل الكوارث المردية، وأجرى عليك الخطوب الموبقة لكذبت نفسي وكذبن من يسمع مقالتي، لأن العالم والجاهل والفظن والغبي كلهم قد أجمعوا على طهارة سجيته، ونقاوة سريرته، واتفقوا على أن الفضائل حيث أنت، والحق معك أينما كنت، لا تفارق المكارم ولو اضطرت وأنت مجبول على الخير لا يحوم حولك شر أبداً؛ ولا تصدر عنك نقيصة قصداً، ولا تهن في قضاء حق، ولا تني عن شهادة صدق - ومع ذا وهذا وذاك إنك مع علمك بواقع أمري، وعرفانك بسيررتي وسري، أراك ما ذدت عن حق كان واجباً عليك حمايته، ولا صنت عهداً كانت عليك رعايته، وكتمت الشهادة وأنت تعلم أنني ما أضمرت للخديوي ولا للمصريين شراً، ولا أسررت لأحد في خفيات ضميري ضراً. وتركتني وأنياب النذل اللئيم (فلان) حتى نهشني نهش السبع الهرم العظام، ضغينة منه على السيد إبراهيم اللقاني وإغراء من أعدائي أحزاب (فلان)! ما هكذا الظن بك، ولا المعروف من رشدك وسدادك؛ ولا يطاوعني لساني - وإن كان قلبي مدعناً بعظم منزلتك في الفضائل، مقرا بشرف مقامك في الكاملات - أن أقول: عفا الله عما سلف، إلا أن تصدع فالحق، وتقيم الصدق، وتظهر الشهادة إزاحة للشبهة، وإدحاضاً للباطل، وإخزاء للشر وأهله. وأظنك قد فعلت أداء لفريضة الحق والعدل. ثم إني يا مولاي أذهب الآن إلى لندن ومنها إلى باريس مسلماً عليكم، وداعياً لكم - والسلام عليكم وعلى أخي الفاضل البار أمين بك.

الأستاذ الإمام محمد عبده

(1266 – 1323 هـ (1905م))



نشأته وحياته

ولد محمد عبده ابن حسن خير الله بمحلة نصر من إقليم البحيرة بمصر ونشأ نشأة الأوساط من القرويين، فاستظهر القرآن في كتاب القرية، وأرسل في طلب العلم إلى الجامع الأحمدى فالأزهر الشريف، ولكنه مني في أول دراسته بمعلمين غير أكفاء لقنوه المسائل من غيرهم تفهيم فسئما وفر. فلما ذاق حلاوة العلم صبر على مرارة التعليم، واستغرق وسعه في الدرس حتى نال في قليل من الزمن كثيراً من العلم. ولم يكن منهاج التعليم الأزهرى في ذلك العهد كفيلاً بتخريج الطالب كما كان الإمام صحيح الحكم، وثيق الحجة، ساحر البيان، عزيز العلم، كريم الخلق، ثابت البصيرة؛ ولكن السيد جمال الدين الأفغانى حكيم الشرق وفيلسوف الإسلام هو الذي جملة بهذه الصفات وكملة بتلك العلوم. ورد ذلك الحكيم مصر في عهد إسماعيل فورد شرعته أذكاء الطلاب، فكانوا دعاة النهضة الحديثة وهداتها. وكان الإمام أثرهم عنده وأوفرهم حظاً منه، حتى قال فيه وهو مفارق مصر: "إنى خلفت في مصر خيراً كثيراً في علم الشيخ محمد عبده". فلما رحل عن مصر جمال الدين استأنف

الأستاذ النظر في العلوم واستقى الدين من مشاريعه الصافية حتى أصبح إماماً في العلوم العقلية والنقلية واللسانية، فنال درجة العالمية سنة 1294 هـ. ثم اختير مدرساً للأدب والتاريخ بدار العلوم ومدرسة الألسن، وأسندت إليه بعد ذلك رئاسة تحرير الوقائع الرسمية وإصلاح اللغة العربية.

ثم أخذت مبادئ الأفغاني تزكو في القلوب وتهفو بالنفوس، حتى أفضت إلى الثورة العربية، كان الأستاذ ممن شايع وباع وأفتى بخلع الخديوي توفيق فحكم عليه بالنفي. فقصد سورية ولبث فيها ست سنين شرح في أثنائها كتابي نهج البلاغة ومقامات البديع. ثم غادرها إلى باريس حيث كان جمال الدين، فأنشأ معاً جريدة (العروة الوثقى) ونشرا بها دعوة الدين والعلم الأدب والإصلاح، فاهتزت لها القلوب الطيبة في العالم الإسلامي، ولكنها لم تدم طويلاً. واستهوى الأستاذ ما رأى وسمع من حضارة الغرب وعلومه فطمعت نفسه إلى الأخذ منها بنصيب، فابتغى الوسيلة إلى ذلك بتعلم اللسان الفرنسي فتعلمه في بضعة أشهر. ثم شمله العفو الخديوي فعاد إلى وطنه نير القلب غزير العلم محنك السن، وعين مستشاراً في محكمة الاستئناف، وعنى بتدريس البيان وتفسير القرآن بالأزهر. فكان درسه مجمعاً لرجال القانون والأدب والصحافة والتعليم. وتولى منصب الإفتاء فظل فيه حتى توفاه الله بالسرطان في الإسكندرية ودفن بالقاهرة.

صفاته وأخلاقه

كان الأستاذ ربع القامة، أسمر اللون، قوي البنية، حاد البصر، بليغ العبادة، فصيح اللسان، ذكي القلب، شديد العارضة، قوي الحافظة. وكان أشبه بابن خلدون في كبر نفسه، وصفاء عقله، وبعد نظره، وقوة جأشه، وكرم خلقه، وصراحة قوله، حتى في خصوصية زيه. وقد كابد مثله في رضا الحق ومحاربة البدع سخط الخاصة وغضب العامة، شأن زعماء الإصلاح في كل أمه.

أثره في اللغة والأدب

كانت اللغة في عهده فريسة العجمة رهينة البلى فجاهد في إنقاذها وإحيائها حق جهاده: كان وهو يحرق الجريدة الرسمية يراقب ما ينشر في

الصحف ويكتب في الدواوين، ويدمج الفصول في نقد الأساليب وخطأ التراكيب، وينشر نماذج من تلك الكتابات السقيمة العقيمة ويدل على عيوبها، ويكتب غيرها في موضعها تعليماً للكتاب وتدريباً للناشئة. ثم سلك في التدريس غير سبيل الأزهرين، فقرأ كتابي عبد القاهرة في البلاغة بأسلوب يملك الأسماع والقلوب، وفسر كتاب الله بلسان رسوله. فكان في درسه خطيباً جزل المنطق قوى العارضة لا تدركه حبسه ولا يرهقه حصر. فأفاد الطلاب ببيانه مثل ما أفادهم بتبيينه. وهو الذي ساعد على إحياء الكتب العربية، وسن في الأزهر تدريس الأدب فاعتضد في الأول بالإمام محمد محمود الشنقيطي، واعتمد في الثاني على أستاذنا سيد بن علي المرصفي.

أثره في العلم والدين

غام أفق الدين بسحب البدع والأضاليل، فأطلع الأستاذ من فكره وعلمه نيراً بدد غيوم الباطل، وجدد رسوم الحق. ورأى العلم قد أخذ ينغص إلى الدين رأسه فوقف بينهما موقف المؤلف الموفق، كما فعل ابن سينا وابن رشد من قبل، وأخذ يفسر القرآن بلسان العلم والعقل، وكتب رسالته في التوحيد بقلم عبد القاهر فقرب العقائد من الإفهام، وحسر عنها ظلال الإبهام. وسمع السنة المبشرين والمستعمرين تمتد إلى جوهر الإسلام بالإفك فقطعها بالأدلة النواهض والحجج الملزمة. وكتاب (الإسلام والنصرانية) ورده على هانوتو الفرنسي من تلك الأسلحة التي أجهزت على تلك الشبه المدفوعة.

وجملة القول أن الإمام محمداً كان من أولئك الأعلام المجتهدين والعلماء المحققين الذين يصطفئهم الله من خلقه لنصرة حقه، فيجدد حبل الدين، ويشيدون أركان العلم، ويدفعون عن الأرض الفساد.

أسلوبه

للأستاذ في الترسل أسلوب خاص كأنه قطع الرياض، تقرأه في الردود والمقالات: وقد ينحو في رسائله نحو ابن العميد فيتكلف السجع ويكلف بالصنعة؛ ويقصد قصد الجاحظ في تأليفه، فتساقق أغراضه، وتتراصف فقره. فهو متصرف في أنواع الكلام يلبس كل معنى ما يلائمه من الأساليب. أما

الشعر فما علمناه يقرضه. ولكن الناس رويوا له أبياتاً قالها في سياق الموت وهي:

ولست أبالي أن يقال محمد أبل أو اكتظت عليه المآتم
ولكن ديناً قد أردت صلاحه أحاذر أن تقضي عليه العمائم
فيا رب إن قدرت رجعي قرية إلى عالم الأرواح وانفض خاتم
فبارك على الإسلام وأرزقه مرشداً رشيداً يضيء النهج والليل قائم

نموذج من نثره

كتب إلى بعض علماء الشام جواباً عن كتاب هنأه فيه بمنصب الإفتاء، وقد شكا فيه الإمام ما كابده من عنت الشيوخ في سبيل الإصلاح:

أنصفني قومك إذ سروا بنيلي الإفتاء، ولعل ذلك لشعورهم بأنني أغير الناس على دين الله، وأضرهم بالدفاع عن حماه، وأدراهم بوجوه الفرص عند سنوحها، وأحذقهم في انتهازها لإبلاغ الحق أمله، أو يبلغ الكتاب أجله. على أنهم مني بحيث لا يفسد نفوسهم الحسد، ولا يتقاذف اللدد. وكل ذي دين يشتهي أن يرى لدينه مثل ما أحلت إليه عزيمة، وأخلص له في العمل لتحقيقه نيتي، خصوصاً إن كفى فيه القتال، ولم يكلف بشد رحال ولا بذل أموال.

أما قومي فأبعدهم عني أشدهم قرباً مني. وما أبعد الأنصاف منهم! يظنون بي الظنون، بل يتربصون بي ريب المنون، تسرعاً منهم في الأحكام، وذهاباً مع الأوهام، وولعاً بكثرة الكلام، وتلذذاً بلك الملام. أقول فلا يسمعون، وأدعو فلا يستجيبون، وأعمل فلا يهتدون، وأريهم مصالحهم فلا يبصرون، وأضع أيديهم عليها فلا يحسون، بل يفرون إلى حيث يهلكون. شأنهم الصياح والعويل، والصخب والتهويل، حتى إذا جاء حين العمل صدق فيهم قول القائل في مثله:

لكن قومي وإن كانوا ذوي عدد ليسوا من الشر في شيء وإن هانا
وأقول ولا في الخير.

وإنما مثلي فيهم مثل أخ جهله إخوانه، أو أب عفته ذريته، أو ابن لم يحن عليه أبواه وعمومته، مع حاجة الجميع إليه، وقيام عمدهم عليه. يهمدون منافعهم بإيذائه، ولو شاءوا لاستبقوا باستبقائه، وهو يسعى ويدأب، ليطعم من يلهو ويلعب. على أنني أحمد الله على الصبر، وسعة الصدر، إذا ضاق الأمر، وقوة العزم، وثبات الحلم، وإن كنت في خوف من حلول الأجل، قبل بلوغ الأمل، خصوصاً عندما أرى العمل في أرض ميتة لو ذابت عليها السماء مطراً، لما أنبتت زرعاً ولا أطلعت شجراً. أفزع لذكرى ذلك وأجزع، ويكاد قلبي يتقطع. ثم أرجع إلى الله فأعلم أنه مع الصابرين، وأنه لا يضيع أجر العاملين، فيثلج صدري وأمضي في جهادي الدائم. ولعل الله يحدث بعد ذلك أمراً...

وليتني كنت أشكو إلى الله جهل العالمين وحمق المعلمين، في مثل هذه الجاهلية التي بعث النبي صلى الله عليه وسلم لمحو أحكامها، وإزالة أيامها. تلك جاهلية كان الضلال فيها بعيداً، ولكن كان فهم القوم حديداً لذلك عندما لاح لهم ضوء الهدى أبصروه، وعندما قرع أسماعهم صون الداعي أجابوه. كان القرآن يصدع أفئدتهم فيلين من شدتهم. ويفل من شرتهم، ويفجر من صخر القسوة ينابيع الحنان والرحمة. وما كان أهل العناد فيهم إلا قليلاً عرفوا الحق فأنكروه، وطائفة كانوا يفرون منه خوف أن يعرفوه. ولو سمعوا لفهموا، ثم لم يجدوا بداً من ينصروه وإن الجحود مع ألفهم كاليقين مع العلم، كلاهما قليل في بني آدم. أما اليوم فإنما أشكو من قلة الفهم، وضعف العقل، واختلال نظام الإدراك، وفساد الشعور عند الخاصة، فلا تجذبهم فصاحة ولا تبلغ منهم بلاغة. وغاية ما يطلبون أن يحملوا بما لم يفعلوا، وأن يوصفوا بالعلم وإن لم يعقلوا، وأن تقضي حاجاتهم إذا سألوا، وأن ترفع مكانتهم وإن نزلوا. وإن استعداد السامع للفهم يستدرك المقال، ويسدد الفكر للنضال في الجدل، أما عيشك فيمن لا يفهم فإنه ينضب منك ينبوع الكلام، ويطمس عين الفكر ويزهق روح العقل.

الشيخ علي يوسف

(1280 – 1331 هـ (1913م))



نشأته وحياته

ولد هذا السياسي النابه والصحفي النابغ في بلدة بلصفورة من أعمال مديرية جرجا من أسرة زكية المغرس رقيقة الحال، ولم يكن يحول على مولده الحول حتى فجعه الموت في أبيه، فارتحلت به أمه إلى أخواله في بني عدي من أعمال منفلوط حيث درج وشب وحفظ القرآن وشدا شيئاً من مبادئ العلوم. وفي عام 1299 هـ بعثوا به إلى الأزهر، فطلب العلم على طائفة من صفوة الأشياخ بضع سنين أَلِمَ فيها بالفقه والنحو والصرف والبلاغة والمنطق والتوحيد ومبادئ الفلسفة، إلا أنه أحس في نفسه السمو والطموح، ورأى في الأزهر الجمود والخمود، فصدف عن حياة الأزهرين ووصل أسبابه ببعض أبناء السراة يساهرهم ويسامرهم ويقول الشعر فيهم، حتى هبط مصر المرحوم أحمد فارس الشدياق صاحب الجوائب وأنشأ جريدة (القاهرة الحرة) فاتصل به الشيخ علي وأعانه على تحريرها فكسبه ذلك ملكة الذوق الكتابي، وأسرار الفن الصحافي، فأخرج صحيفة سماها (الآداب) ظلت تصدر حتى 1307 هـ. ويومئذ أراد الله لهذه النفس الغلبة والهمة الوثابة أن تحطم القيود وتتجاوز

الحدود وتتعجل القدر، فصحت عزيمة الشيخ على أن يصدر هو والشيخ أحمد ماضي أحد رفقاءه في الأزهر جريدة يومية سياسية دعواها " المؤيد " .

ظهر العدد الأول من هذه الصحيفة في ربيع الآخر سنة 1307 هـ أو في أول ديسمبر سنة 1889م ولا عدة لها من مال، ولا ناصر لها من حكومة، ولا عون لها من حزب، ولا مشجع لها من جمهور فلقي الرجل في سبيلها برحاً شديداً وجهداً باهراً حتى أسعفه الله حينئذ بصحبة المحامي المدرة سعد أفندي زغلول. والكاتب الألمعي إبراهيم اللقاني وأضرابهما، فأمدوه بالمال والكتابة؛ ولكن الخلاف دب دبيبه بين الشريكين فلم يتفقا إلا على أن يكون المؤيد خالصاً للشيخ علي إذا أدى لشريكه مائة جنيه عيناً. فكاد يصبح الأمر فوت يده لولا أن تلك اليد البيضاء يد سعد زغلول امتدت إليه ثانية في أحلك ساعات اليأس، فألقت إليه بصرة فيها المال كله. وسار المؤيد بعد ذلك في طريق النجاح مسدد الخطى مؤيد العزيمة يحدوه (رياض) رئيس الحكومة بنفوذه، ويمده أعيان البيان بالمقالات الممتعة، كسعد بك زغلول. والشيخ محمد عبده، والشيخ عبد الكريم سلمان، والسيد توفيق البكري، وفتحي بك زغلول، وإبراهيم بك المويلحي، وقاسم بك أمين، وإسماعيل باشا أباطة، ومصطفى لطفي المنفلوطي. فانتشر في العالم الإسلام انتشاراً لم تعرفه صحيفة قبله. وبلغ مت يطبع منه في اليوم، وعهده عهد أمية وجهالة، ثمانية آلاف نسخة، وأبلى في الدفاع عن الإسلام والذيد عن العرش بلاء أرضى عن صاحبه الخليفة والخديوي والأمة، فجملوا أسمه بالألقاب، وزينوا صدره بالأوسمة، وعطروا ذكره بالثناء. ولكن تجار الفساد أزهجوا بينه وبين الأجانب فرموه بالتعصب، واستعدوا عليه القناصل، فكان يتغلب على هذه العراquil والأباطيل بصدق عزيمة وقوة حزمه.

ثم أصهر إلى آل السادات من الصوفية فكان لهذا الصهر قضية وشهرة، ولكنه انتهى على ما عوده الله بالفلج والظفر فاسترد الزوجة، واغتصب السجادة الوفاية.

وعرف الشيخ علي بالولاء للقصر والإخلاص في خدمة العرش حتى حل من الخديوي عباس محل الناصح الأمين. وآل أمر صحيفته أن أصبحت من القصر سنانه المسلول ولسانه الناطق. وعاش هذا الرجل العصامي النابغ على كثرة حاسديه وقوة منافسيه ولد مخالفيه موفور الكرامة مرفوع المكانة جليل الخطر في نفوس الجميع حتى اختاره الله إلى جواره في يوم السبت 25 من أكتوبر سنة 1912م.

أخلاقه وفضله

كان الشيخ على حظ عظيم من نبل الخلق وفي ذلك سر نجاحه. كان دمث الطبع، متواضع النفس، رحب الصدر، جم المروءة، شديد الوفاء، مرهف الذهن، سريع الفطنة، شديد الاتكاء على نفسه؛ وكان بعيد الحور، فرماه خصومه، بالمكر واللدس، واسع الأناة في السياسة فرموه بالغلول والخيانة. وكان سباقاً إلى الفضل دعاء إلى الخير لا ينسى الناس له أثره في إنشاء الجمعية الخيرية الإسلامية، وجعل التعليم في المدارس باللغة العربية، ولا يزالون يذكرون في ذلك قوله: "إن تعليم الأمة بلغتها ينقل العلم إليها، أما تعليمها بلغة أخرى فإنما ينقل أفراداً إلى العلم".

أسلوبه وعلمه

لم يجز الشيخ في دراسته الأزهرية إلى الغاية، فلم يتعمق في علم، ولم يتبسط في أدب، ولم يبرز في فن من فنون الحياة، ولا في لغة من لغات الناس، ومع ذلك كان أكتب الصحفيين جميعاً! كان له أسلوب خاص لا تميزه صنعة، ولا تموهه صبغة، ولا يجمله وشى، وإنما يسحرك بلطف مدخله، وحسن ترسله، وسداد بحثه، ووثيق حجته، وقوة أسره، وكان من الكتاب الجدليين (Polemiete) الذين أوتوا قوة الحجاج وشدة العارضة وصدق النظر، ولكم وقف من الكتاب موقف جرير من الشعراء يجادلهم وحده حتى يقرعهم بالحق وقد عالج الشعر في صدر شبابه فلم تسترض له قوافيه، ولم يعد شأو الأزهرين فيه. وقد جمع ما نظمه في ديوان سماه نسمة السحر نشره سنة 1303 هـ.

نموذج من نشره

قال من رده على خطبة اللورد كرومر عميد الدولة البريطانية في مصر على عهده وهي التي ألقاها على مسرح الأوبرا في حفلة وداعه:
تقفون والملك المحرك دائر وتقذرون فتضحك الأقدار!

وقف الخطباء مساء السبت الماضي موقف الممثلين في دار التمثيل الكبرى (الأوبرا الخديوية) يحكمون على الماضي والمستقبل حكم الأقدار في الكائنات، ويرمون وينقضون، ويرفعون ويخفضون، والناس يسمعون مختارين أو مكرهين لأن فرسان ميدان الخطابة كانوا ثلاثة لا يزيدون ولا ينقصون، ولو أن الموقف كان حراً لكل قائل لسمعوا ما يكرهون كما قالوا ما يحبون.

قلنا إنهم وقفوا موقف الممثلين لأنهم كانوا كذلك في حقيقة الواقع. وقد مثلوا آخر فصل من رواية كثيرة الحوادث عديدة الفصول طويلة الزمان، بطل وقائعها وفارس معمعانها ذلك الذي كان آخر الخطباء في الحفلة كلاماً وأشدهم إيلاماً وكثرهم آلاماً.

وقف ليمثل آخر سلطة له في هذه الديار ولسان حاله يقول:

" ما في وقوفك ساعة من باس "

مثلها في مكان هو أليق ما كان عظة لقائل، ومظهراً لسلطان راحل، ومجد زائل، وأصدق ما ضرب له الأمثال: " لكل مقام مقال ".

ومنها: أما الاحتفال نفسه فلم يكن مظاهرة سياسية لإكرام الرجل عند رحيله كما أرادوا، ولكنه انقلب بما جرى فيه مظهراً عدائياً من اللورد لم ير الرءاؤون ولم يرو الرءاؤون مثله في مقام وداع كهذا المقام!.

دعنا من كون رئيس الاحتفال أخطأ في أنه لم يكن المتكلم الأول وما عرف حتى الآن أن رئيس احتفال ورئيس وزارة معاً يقدم عليه سواء في الكلام. ودعنا من كونه خطب بالفرنساوية ولم يجعل للغة البلاد نصيباً من كلامه في احتفال كهذا. ودعنا من زعمائه انه يمثل مع الحكومة في موقفه السواد الأعظم من الأمة المصرية، والسواد الأعظم يخالفه في الرأي والقول. ودعنا من قول

الكونت دي سريون إنه يتكلم عن فئة من الأوربيين بما تشعر من حسنات الاحتلال عليها، أو هو أراد إنجاح السفارة الإنكليزية بباريس في وساطة له لدى حكومة الجمهورية بعد ما حالت هذه الحكومة دون إنعام ملك أسبانيا وكل إنعام تلا من الدول الأجنبية عليه فهو ينتظر اللجيون دي تور بصبر نافذ. دعنا من كل هذا وانظر إلى خطبة اللورد السياسية التي جعلها بمثابة وصيته الأخيرة وخاتمة أعماله في مصر.

فبينما كانت الأمة المصرية واقفة الأمل منتظرة من ذلك الراحل العظيم والشيخ الحكيم أن يصلح ما فرط منه نحو الشريعة الإسلامية بما قضى عليها من الجمود الأبدي، ونحو الأمة المصرية بما وصفها له من العقم السرمدي؛ بينما هي ترجو من جنبه أن ينتهز هذه الفرصة السائحة لياسوا الجراح التي جرحها ويضمّد الكلوم التي فتحها في جسمها بما تقدم وبما أراد أن يجعل وطنيتها أعجوبة بين الوطنيات، وجامعتها كشكولا بين الجامعات. وبينما كان سمو أمير البلاد يتعطف ويتلطف ويبالغ في إكرام الراحل عند رحيله متناسياً الحزازات السياسية التي طالما كان اللورد مهاجماً فيها غير عادل ولا متلطف، وبينما كان كل هذا إذا بركان " البيروقراطية " التي نشأ عليها اللورد ومارسها كل حياته برز فيها أكثر من كل مبرز في تواريخ الحكومات المطلقة قد انفجر بركانه وقذف بلظاه على الأحياء والأموات.

وقف اللورد خطيباً وهو يدافع كيد السقام، ويجاذب داعي الخصام، فجال في خاطره أنه مفارق قصرراً تجري من تحته الأنهار، وملكاً خضع له فيه الليل والنهار، وتارك خصوصاً قد يتوهمون أنهم نازعوه فعلبوه، أو يتوهم هم أنه حالهم فأغضبه.

وقف اللورد وله نفسان: نفس نزاعة إلى حب البقاء، وأخرى تقول كيف البقاء بعد الاستعفاء؟.

وقد ذكر أصدقاء القليلين كما يعلم، وأعداءه الكثيرين كما يتوهم، فسر وساء، وترخص وتشدد، وعدد وندد، ووعد وتوعد، وأرغى وأزید، وحذر وأندر، وحكم وقدر.

ربما أخرج الحزين جوى الحزن إلى عير لائق بالسداد
مثلما فاتت الصلاة سليمان فأنحى على رقاب الجياد⁽¹⁾

(1) نشرت بالمؤيد في 7 مايو من سنة 1907 عدد 5175.

إبراهيم المويلحي

(1262 - 1313 هـ)

نشأته وحياته

ولد هذا الكاتب الكبير في بيت من بيوت التجارة الوطنية من أسرة ناعمة العيش واسعة الثروة موصولة الجاه بالأسرة الخديوية المالكة، فتدرب منذ إيفاعه على شئون التجارة وتمرس في فنونها، إلا أن طبعه القلق اللجوج، ونفسه المتوثبة الطموح، لم يطاوعاه على الرضا بالربح المشروع فقذف بماله في وجوه (المضاربات) فما ارتد إليه منه غير صفقة المغبون. فعاش عيشة الكفاف والتعفف حتى هبت عليه نفحة من جود إسماعيل فجعله قاضياً في محكمة الاستئناف. ولكنه اختلف هو ورئيسه اختلافاً لم ينته إلا باستقالته. فقلده الخديوي عملاً آخر فناله فيه ما ناله في التجارة والقضاء. وجاءت وزارة شريف تريد أن تضع الدستور الأول فكان المويلحي ممن اختيروا لوضع (اللائحة الوطنية)؛ ولكن آماله كانت تسفر له دائماً عن وجوه الفشل فابتغى الوسيلة إلى الرزق في الكتابة والنشر فأنشأ (جمعية المعارف) لطبع الكتب القيمة وإذاعتها في مطبعة اشتراها لنفسه. ثم اتفق مع المغفور له محمد بك عثمان جلال مترجم مولير وصاحب العيون اليواقظ على إنشاء جريدة (نزهة الأفكار)؛ ولكن الخديوي إسماعيل خشي شرها فألغاهها. فلما كانت سنة 1296 هـ وخرج الخديوي مخلوعاً من ملكه إلى إيطاليا أرسل في طلب إبراهيم ليتخذه كاتب رسائله، فقام له بهذا العمل بضع سنين أنشأ في خلالها وهو في إيطاليا جريدتي "الاتحاد" و"الأنباء" فلم تمتعاً بالحياة غير قليل. ثم رحل إلى الآستانة سنة 1304 فأكرم عبد الحميد وفادته وجعله عضواً في مجلس المعارف فلبث فيه تسع سنين اتصلت فيها أسبابه برجال (المابيين) ورؤساء الحكومة. ثم ارتد إلى مصر وقد خيط الشيب في رأسه، ونالت الأيام من جسمه، فأنشأ (مصباح الشرق) وهي صحيفة أسبوعية كان يدبجها باللفظ الرشيق والأسلوب الأنيق ويرسلها بالسهم النافذة في الاجتماع والنقد والسياسة. فقضت حاجة في نفوس الأدباء، ونهجت لهم الطريق السوي في

الإنشاء، ووطأت له هو أكناف الرؤساء والكبراء. واستمر على إصدارها حتى طويت صحيفة حياته.

أسلوبه

كانت الكتابة في عهد المويلحي لا تزال ترسف في أغلال الصنعة، وتكابد أعراض الوهن، فلم يستطع قلمه أن يخرج عن سلطان البديع، ولا أن يبرأ من تكلف الحلية الظاهرة. إلا أن تصرفه في الأمور، وتقلبه في البلاد، واختلاطه بألوان الناس، واتصاله برجال البلاد، ومغامراته في السياسة، وتمرسه في الصحافة، فتقت قريحته، وذلك معانيه، وسهلت أسلوبه وأمكنته من عنان البلاغة فصرفها حيث شاء ولاسيما في الرسائل، فقد تفنن في جميع ضرريها وأحسن في سائر مناحيها. والمويلحي على ما به من ضيق المضطرب في المعاني، وضعف السليقة في الابتكار، أشبه بالبارودي في الشعر: جدد ما درس من أساليب الكتابة؛ وبين ما طمس من معالم البيان، وكان ركناً شديداً من أركان هذه النهضة المباركة.

آثاره

جل ما أثر عنه مقالاته السياسية والاجتماعية التي نشرها فيما أنشأ من الصحف كنزها الأفكار والاتحاد والأنباء ومصباح الشرق، أو فيما أعان عليه منها كضيء الخافقين في إنجلترا والعروة الوثقى في فرنسا. وله غير ذلك كتاب "الفرج بعد الشدة" في وزارة رياض باشا، وكتاب "ما هنالك" وصف فيه حال الآستانة ورجال المايين قبل الدستور العثماني.

حفني ناصف (1272 - 1337 هـ)

نشأته وحياته

ولد محمد حفني ناصف ابن الشيخ إسماعيل ناصف عام 1272 للهجرة في ضاحية من ضواحي القاهرة تدعى بركة الحج يتيماً فقيراً، فكفله خاله وجدته لأبيه. ثم دخل كتاب القرية فتعلم مبادئ القراءة والكتابة وحفظ جزءاً من القرآن. ثم فر إلى الأزهر في الحادية عشرة من عمره فمكث فيه ثلاث عشرة سنة؛ ثم سلك نفسه في الداخلين (دار العلوم) فثقف علومها وعين أستاذاً للغة العربية في المدارس الأميرية. ثم اختير للتدريس في مدرسة الحقوق فوقع في نفسه أن يشرك طلبتها في دروسهم. فدرس القانون وترك التدريس وانتخب كاتب سر للنائب العمومي. ثم عين قاضياً سنة 1892م في المحاكم الأهلية. وبلغ من أمره في القضاء أن صار وكيلاً لمحكمة طنطا الأهلية. وفي غضون ذلك انتدب لتدريس الأدب العربي في الجامعة المصرية وهي أهلية، فألقى فيه محاضرات ممتعة جمعت في كتاب خاص. ولما أقعد الشيخ حمزة فتح الله مفتش اللغة العربية الأكبر في وزارة المعارف خلفه الأستاذ حفني بك، فأزهرت دولة الأدب واعتز جانب اللغة. وقضى هذه الفترة القصيرة في التنقيب والتنقيح حتى شارف الستين فأحيل على المعاش وما عمر بعد ذلك إلا ثلاث سنين. ثم وافاه أجله في أواخر نوفمبر من سنة 1919م ودفن في مقبرة الشافعي.

أخلاقه

كان رحمه الله فكه الحديث، مليح النادرة، حاضر البديهة، سريع الجواب، كثير الدعابة، رضي الخلق، مشاركاً في كل علم وفن، جارياً مع القديم والحديث.

نشره وشعره

حفني بك ناصف ركن من أركان النهضة الأدبية الحديثة. أحيها بأبحاثه ومؤلفاته، وقواها بقصائده ومقالاته. وهو ضليع في فنون اللغة، خبير بقواعد اللسان، بصير بأسرار الكلام ونقده. وأسلوبه في الرسائل يجري على منهج المتأخرين من كتاب العصر العباسي في الكلف بالسجع والقصد إلى البديع. وله أسلوب مرسل في المقالات يجرده من زخرف الصناعة فيسيل رقة وسلاسة. في شعره فنمط من الأسلوب الثري والمنظوم، تكثر فيه الملح والمحسنات اللفظية يظهر الضعف في تراكيبه أحياناً، إلا أنه على الجملة سلس مطبوع.

مؤلفاته

له مع غيره سلسلة في قواعد اللغة العربية كانت تدرس في المدارس المصرية، ككتاب (مميزات لغة العرب) قدمه إلى مؤتمر المستشرقين الذي أقيم في فينا 1886م وقد كان كاتب سر الوفد الذي مثل مصر في هذا المؤتمر، وكتاب (حياة اللغة العربية) وهو مجموع محاضراته التي ألقاها في الجامعة المصرية، وكتاب القطار السريع في علم البديع، ورسالة في البحث والمناظرة، وأخرى في المنطق، وكتاب الأمثال العامية، وبديع اللغة العامية. وأكثر كتبه غير مطبوع.

نموذج من شعره

قال يخاطب أحد الرؤساء:

أحييت آمالي وكنت أمتها	من طول ما لاقيت من إخواني
أدلي بإخلاصي لهم وأدود عن	أعراضهم بجواري ولساني
محضتهم ودي فلما أيسروا	كانت بداية أمرهم نسياني
حسبي من الدنيا صديق ثابت	فرد فكناه ولا احتياج لثان

وقال أيضاً:

أتقضي معي إن حان حَيَّني تجاربي وما نلتها إلا بطول عناء؟
ويحزُنُّني ألا أرى لي حيلةً لإعطائها من يستحقُّ عطائي
إذا ورث المِثرون أبناءهم غنيًّا وجاهاً، فما أشقى بني الحكماء

ومن نشره رسالة عزى بها الشيخ علي يوسف في ولده:

خفف الله لوعتك، وأراقا دمعتك، وجنبك الجزع، ووقاك الهلع، وألهمك الصبر، وأجزل لك الأجر، ورزقك من البنين، في مستقبل السنين، ما تقربه عيناك، ويقوى به عناك. وأنت والحمد لله في قوة، وبقية من الفتوة، تمكنك من الأبوة، لخير البنوة. على أن لك في عالم السياسة، وضروب الكياسة، في هذه البلاد، ألوانا من الأولاد، وآثاراً كبرى، تضمن لك الذكرى، وتجعل لك على مدى السنين، لسان صدق في الآخرين. والسلام عليك ورحمة الله.

باحثة البادية

(1883 - 1918م)

نشأتها وحياتها

هي السيدة الفاضلة ملك ناصف بنت الشاعر الكاتب حفني بك ناصف. ولدت بالقاهرة يوم الاثنين من شهر ديسمبر سن 1886 وتلقت مبادئ العلوم في مدارس أولية مختلفة. ثم دخلت المدرسة السنية في أكتوبر من سنة 1893م ونالت منها الشهادة الابتدائية سنة 1900م وهي أول سنة تقدمت فيها الفتيات المصريات إلى نيل هذه الشهادة. ثم انتقلت إلى قسم المعلمات من هذه المدرسة فنالت منها إجازة التدريس ومارست بعد ذلك التعليم في مدارس البنات الأميرية. وفي سنة 1907م بني بها عبد الستار الباسل وهو سري من سراة قبيلة الرماح باليوم، فتركت التدريس وعكفت على الكتابة والتأليف، وعاشت مع زوجها عيشة الزوجة المخلصة البرة حتى توفيت بالحمى الإسبانية في أكتوبر من سنة 1918م وهي في زهرة العمر ونضرة الشبية.

مكانتها في العلم والأدب

أظهر ما تدل عليه كتابة الباحثة من أخلاقها عذوبة الروح وسراوة الخلق وذكاء الطبع وصحة الدين والرغبة في الإصلاح. تعهدا والدها الكريم منذ طفولتها فغذاها بأدبه، ونفث فيها من روحه، فأخذت تعالج القريض وهي في الحادية عشرة من عمرها. ثم توافرت على صناعة الإنشاء فبلغت منها مكانة تحسدها عليها الرجال. عنيت بإنهاض المرأة المصرية بعد قاسم أمين، فكانت أول مصرية مسلمة جاهرت بالدعوة العامة إلى هذا العمل في بيئة لا تزال رجعية. ألقت في هذا الموضوع سلسلة من المحاضرات في إدارة الجريدة التي كان يصدرها حزب الأمة ويرأس تحريرها الأستاذ أحمد لطفي السيد، وكتبت عنه طائفة من المقالات في هذه الصحيفة بإمضاء "باحثة البادية" فصار لقباً غلب عليها.

جمعت هذه المقالات في كتاب عنوانه "النسائيات" ونشرت منه جزءه الأول. ثم شرعت في آخر حياتها تؤلف كتاباً مطولاً سمته "حقوق النساء" أنجزت منه ثلاث مقالات ثم حالت المنية عن إتمامه.

نموذج من كلامها

من قولها في كتاب النسائيات:

ما أنقى الهواء، وأعذب الماء، وأصفى السماء في القرى! وما أكذب الحياة وأقرب الوفاة في المدن! القرى جميلة لأنها على الفطرة. أما المدن فلا تعدم أثراً للتكلف والرياء. أين دوي الكهرباء، من خرير الماء، والدخان المتعاقد فوق المداخل، من جو لا ترى فيه إلا تحليق الصقور وإلا رءوس النخل الباسقات؟ وأين وحل الشارع وعثرتها من أرض كسيت ببساط النبات؟ وأين الرائحة المنبعثة من مقاذير المنازل وروث الدواب من شذى أزهار الحقول. بل ما أضل البصر يريد الجولان فيرده من هنا جدار ومن هناك سور، من نظر تسرحه حيث شئت فلا تجد إلا اللانهاية في الفضاء!.

ومن قصائدها في حال المرأة قصيدة مطلعها:

أعملت أفلامي وحيناً منطقي	في النصح والمأمول لم يتحقق
أيسوؤكم أن تسمعوا لبناتكم	صوتاً يهز صده عطف المشرق؟
أيسركم أن تستمر بناتكم	رهن الأسار ورهن جهل مطبق؟
هل تطلبون من الفتاة سفورها؟	حسن، ولكن أين بينكم التقى؟
لا تتقي الفتيات كشف وجوهها	لكن فساد الطبع منكم تتقي
تخشى الفتاة حباثلاً منصوبة	غشيتموها في الكلام برونق
لا تظفروا بل أصلحوا فتياتكم	وبناتكم وتسابقوا للأليق
ودعوا النساء وشأنهن فإنما	يدري الخلاص من الشقاوة من شقي
ليس السفور مع العفاف بضامائر	وبدوننه فرط التحجب لا يقني

مصطفى لطفي المنفلوطي

(1876 - 1924 م)



نشأته وحياته

ولد السيد مصطفى لطفي بمنفلوط من أعمال مديرية أسيوط سنة 1293 هـ - 1876 م ونشأ في بيت كريم بالدين جليل بالفقه توارث أهله قضاء الشريعة ونقابة الصوفية قرابة مائتي سنة. ونهج المنفلوطي سبيل آبائه في الثقافة فحفظ القرآن في المكتب. وتلقى العلم بالأزهر، ولكنه كان على الكره من روع قلبه ورعاية أبيه لا يلقي باله كثيراً لغير علوم اللسان وفنون الأدب. فهو يحفظ الأشعار ويتصيد الشوارد ويصوغ القريض وينشئ الرسائل، وتسير له شهرة في الأزهرين بذكاء القريحة وروعة الأسلوب فيقربه الأستاذ محمد عبده، ويرسم له الطريقة المثلى إلى الغاية من الأدب والحياة. ثم يستفيد المنفلوطي من قربه إلى الإمام صلته بسعد باشا زغلول، ومن زلفاه لدى هذين العظيمين تفوقه لدى صاحب (المؤيد)، وهؤلاء الثلاثة كانوا أقوى العناصر في تكوين المنفلوطي الأديب بعد استعداد فطرته وإرشاد والده. وفي أثناء طلبه في الأزهر نسب إليه أنه هجا الخديوي عباس حلمي الثاني بقصيدة نشرها في إحدى الصحف الأسبوعية فحكم عليه من أجلها بالحبس وقضى في السجن

مدة العقوبة. ولما قبض الله الإمام إلى رحمته جزع المنفلوطي فيه على رجائه وسنده. وارتد مقطوع الرجاء إلى بلده. ثم نعيش الله عاشر أمله بعد فترة من الزمن، فهب يبتغي في جريدة (المؤيد) الوسيلة والنجح. ثم صارت إلى سعد باشا وزارة المعارف فعينه محرراً عربياً لها. ولما تحول إلى وزارة الحقانية (العدل) حوله معه وولاه فيها مثل هذا المنصب. ثم انتقل الحكم إلى غير حزبه فنقل من عمله، حتى إذا قام البرلمان عينه سعد باشا في وظيفة كتابية بمجلس النواب ظل فيها حتى توفاه الله وهو في العقد الخامس من عمره.

أخلاقه

كان المنفلوطي قطعة موسيقية في ظاهره وباطنه؛ فهو مؤلف الخلق، متلائم الذوق، متناسق الفكر، متسق الأسلوب، منسجم الزى، لا تلمح في قوله ولا فعله شذوذ العبقرية ولا نشوز الفدامة. كان صحيح الفهم في بطن، سليم الفكر في جهد، دقيق الحس في سكون، هبوب اللسان في تحفظ. وهذه الخلل تظهر صاحبها للناس في مظهر الغبي الجاهل، فهو لذلك كان يتقي المجالس ويتجنب الجدل ويكره الخطابة: ثم هو ذلك رقيق القلب عف الضمير سليم الصدر صحيح العقيدة نفاح اليد موزع العقل والفضل والهوى بين أسرته ووطنيته وإنسانيته.

أسلوبه وأدبه

كان المنفلوطي أديباً موهوباً، حظ الطبع في أدبه أكثر من حظ الصنعة؛ لأن الصنعة لا تخلق أدباً مبتكراً ولا أديباً ممتازاً ولا طريقة مستقلة. وكان النثر الفني على عهده لوناً حائلاً من أدب القاضي الفاضل، أو أثراً ماثلاً لفن ابن خلدون؛ ولكنك لا تستطيع أن تقول إن أسلوبه كان مضروباً على أحد القالبين، إنما كان أسلوب المنفلوطي في عصره كأسلوب ابن خلدون في عصره، بديعاً أنشأه الطبع القوي على غير مثال.

عالج المنفلوطي الأقصوصة أول الناس وبلغ في إجادتها شأواً ما كان ينتظر ممن نشأ كشأته في جيل كجيله. وسر الذبوع في أدب المنفلوطي أنه ظهر على فترة من الأدب اللباب، فاجأ الناس بهذا القصص الرائع الذي يصف

الألم ويمثل العيوب في أسلوب ظلي وبيان عذب وسياق مطرد ولفظ مختار. أما صفة الخلود فيه فيمنع من تحقيقها أمران: ضعف الأداة وضيق الثقافة. أما ضعف الأداة فلأن المنفلوطي لم يكن واسع العلم بلغته ولا قوي البصر بأدبها. لذلك تجد في تعبيره الخطأ والفضول ووضع اللفظ في غير موضعه. وأما ضيق الثقافة فلأنه لم يتوفر على تحصيل علوم الشرق، ولم يتصل اتصالاً مباشراً بعلوم الغرب. لذلك تلمح في تفكيره السطحية والسذاجة والإحالة. وجملة القول أن المنفلوطي في الشر كان كالبارودي في الشعر: كلاهما أحياناً وجدد، ونهج وعبد، ونقل الأسلوب من حال إلى حال.

مؤلفاته ومترجماته

له كتاب (النظرات) في ثلاثة أجزاء جمع فيه ما نشره في المؤيد من الفصول في النقد والاجتماع والوصف والقصص. وكتاب (العبرات) وهو مجموعة من الأقاصيص المنقولة والموضوعة. ثم (مختارات المنفلوطي) من أشعار المتقدمين ومقالاتهم. وقد ترجم له بعض أصدقائه عن الفرنسية: تحت ظلال الزيزفون (مجدولين) لألفونس كار، وبول وفرجينى (الفضيلة) لبرناردي سان بيير، وسيرانو دبرجراك (الشاعر) لأدمون رستان، فصاغها بأسلوبه البليغ الرصين صياغة حرة لم يتقيد فيها بالأصل، فأضافت إلى ثراء الأدب العربي ثروة، وكانت للفن القصصي الحديث قوة وقدوة.

نموذج من نثره

الغني والفقير

مررت ليلة أمس برجل بائس، فرأيتُه واضعاً يده على بطنه كأنما يشكو ألماً، فرثيت لحاله، وسألته ماله، فشكا إلى ألم الجوع، ففتأتته عنه ببعض ما قدرت عليه، ثم تركته وذهبت إلى صديق لي من أرباب الثراء والنعمة فأدهشني أنني رأيتُه واضعاً يده على بطنه، وأنه يشكو من الألم ما يشكو ذلك البائس الفقير، فسألته عما به، فشكا إلى البطنة، فقالت "ياللعجب! لو أعطى ذلك الغني ذلك الفقير ما فضل عن حاجته من الطعام ما شكا واحد منهما سقماً ولا ألماً. لقد كان جديراً به أن يتناول من الطعام ما يشبع جوعته ويطفئ غلته؛

ولكنه كان محباً لنفسه مغالياً فضم إلى مائدته ما اختلسته من صحفة الفقير، فعاقبه الله على قسوته بالبطنة؛ حتى لا يهنئ للظالم ظلمه، ولا يطيب له عيشه، وهكذا يصدق المثل القائل. "بطنة الغني انتقام لجوع الفقير".

ما ضنت من السماء بمائها، ولا شحت الأرض بنباتها، ولكن حسد القوي الضعيف عليهما فزواهما عنه واحتجتهما دونه، فأصبح فقيراً معدماً شاكياً متظلماً، غرماؤه المياسر الأغنياء، لا الأرض والسماء.

ما أظلم الأقوياء من الإنسان، وما أقسى قلوبهم! ينام أحدهم ملء جفنيه على فراشه الوثير ولا يقلقه في مضجعه أنه يسمع أنين جاره، وهو يرعد برداً وقرأً؛ ويجلس أمام مائدة حافلة بصنوف الطعام، قديده وشوائه، حلوه وحامضه، ولا ينجص عليه شهواته علمه أن بين أقربائه وذوي رحمه من تتوالب أحشاؤه شوقاً إلى فئات تلك المائدة، ويسيل لعابه تلهفاً على فضلاتها؛ بل إن بينهم من لا تخالط الرحمة قلبه، ولا يعقد الحياء لسانه، فيظل يسرد على مسمع الفقير أحاديث نعمته، وربما استعان به على عد ما تشتمل عليه خزائنه من الذهب، وصناديقه من الجواهر، وغرفته من الأثاث والرياش، ليكسر قلبه وينغص عليه عيشه، ويبغض إليه حياته؛ وكأنه يقول في كل كلمة من كلماته وحركة من حركاته: "أنا سعيد لأنني غني. وأنت شقي لأنك فقير".

لا أستطيع أن أتصور أن الإنسان إنسان حتى أراه محسناً، لأنني لا أعتمد فضلاً صحيحاً بين الإنسان والحيوان إلا الإحسان. وإنني أرى الناس ثلاثة: رجل يحسن إلى غيره ليتخذ إحسانه إليه سبيلاً إلى الإحسان إلى نفسه، وهو المستبد الجبار الذي لا يفهم من الإحسان إلا أنه يستعبد الإنسان. ورجل يحسن إلى نفسه، ولا يحسن إلى غيره، وهذا الشره الذي لو علم أن الدم السائل يستحيل إلى ذهب جامد لذبح في سبيله الناس جميعاً، ورجل لا يحسن إلى نفسه ولا إلى غيره، وهذا البخيل الأحمق الذي يجيع بطنه ليشبع صندوقه.

أما الرابع الذي يحسن إلى غيره ويحسن إلى نفسه فلا أعلم له مكاناً، ولا أجد إليه سبيلاً. وأحسب أنه هو الذي كان يفتش عنه الفيلسوف اليوناني ديوجين الكلبى حينما سئل ما يصنع بمصاحبه وكان يدور به في بياض النهار فقال: "أفتش عن إنسان".

عبد العزيز شاويش

(المتوفى سنة 1929م)

نشأته وحياته

ولد عبد العزيز بن خليل شاويش في الإسكندرية من أسرة مغربية الأصل تشتغل بالتجارة. ثم تعلم مبادئ القراءة والكتابة وحفظ القرآن في أحد الكتاتيب، ثم طلب علوم الدين والعربية في جامع الشيخ بالإسكندرية فشدا شيئاً منها أهله إلى أن يفتد إلى القاهرة ويدخل الجامع الأزهر. وكان أذكى الأزهريين يومئذ يعدون أنفسهم إلى الدخول في (دار العلوم) لأنها كانت أقصر الطرق إلى التعليم والمحاماة، وأنجع الوسائل إلى التجدد والرفاهية، فدخلها الشيخ عبد العزيز، واشتهر بين لداته بالجد والاستقامة، والغيرة على الدين والكرامة. ولما نال إجازتها تولى التدريس في مدرسة الناصرية ردحاً من الدهر، ثم اختير في بعثة إلى إنجلترا ليتخصص في التربية والآداب، فتعلم اللغة الإنجليزية واطلع منها على الآداب الأوروبية فازداد علمه واكتمل بيانه وتنوعت ثقافته. ثم رجع إلى مصر فعين مفتشاً بوزارة المعارف. وعاد ثانية إلى إنجلترا ليعلم اللغة العربية في جامعة (أكسفورد) ثم انتهى أمره إلى أن يعود إلى مصر ويرجع إلى التفتيش وكان بينه وبين زميله المرحوم عاطف بركات منافسة في الطلب وفي الوظيفة؛ وكان بين عاطف بركات وبين وزير المعارف وهو يومئذ سعد باشا زغلول قرابة واشجة، فظن الشيخ عبد العزيز أن لهذه القرابة أثراً في تقديم منافسة عليه فاستقال من العمل في وزارة المعارف سنة 1908 وانضوى إلى لواء الحزب الوطني. ثم أصبح بعد موت الزعيم مصطفى كامل باشا رئيساً لتحرير (اللواء). ثم جرت عليه صراحته في التحرير وشجاعته في الحق وحماسه في السياسة، ومتاعب كثيرة منها الحكم عليه بالحبس ثلاثة أشهر من جرائم الرأي. فلما خلوا سبيله رحل إلى أوروبا. وشبت الحرب العالمية الأولى فشق عليه الرجوع فظل هناك يقاسي مكاره الغربة من فراق الأهل وإلحاح الفقر وخذلان الصديق، حتى وقفت رحا الحرب فعاد إلى وطنه مضطرب الآمال خائر القوى، فتجهمت له بعض الوجوه، وانقبضت عنه أكثر الأيدي، وحاول أن

يعود إلى السياسة من طريق البرلمان فلم يفلح، فانصرف إلى اكتساب الرزق من ناحية الصحافة حتى أدركته رعاية الملك فؤاد فعين مراقباً للتعليم الأولى في وزارة المعارف؛ فاضطلع بأعباء هذا المنصب المرهق بضع سنين. ثم أصابته علة القلب فتوفاه الله في يوم الجمعة الخامس والعشرين من شهر يناير من سنة 1929.

أخلاقه

كان رحمه الله جميل السمات حسن الشارة متواضع النفس خلو الحديث لطيف الروح شديد الحياء ندي الراحة، جزئياً في الدفاع عن دينه، شجاعاً في الزيادة عن وطنه، صريحاً في الإبانة عن رأيه. سابقاً إلى كريم المساعي، فشارك في كثير من الأعمال الخيرية كتأسيس جمعية المواساة الإسلامية بالإسكندرية، وإنشاء المدرسة الإعدادية الثانوية بالقاهرة. وقد كان في طبعه حدة تظهر على قلمه أو لسانه إذا أؤذي في كرامته أو وطنيته أو عقيدته.

أسلوبه

كان أسلوبه خطائياً يؤثر بالعاطفة أكثر مما يؤثر بالمنطق. وكان يجري فيه مجرى الأسلوب المنسوب إلى الإمام علي في نهج البلاغة. وهو من الكتاب القلائل الذين أطلعوا على أدب الفرنجة وتأثروا بها. وكانوا وسطاً بين المذهبين القديم والحديث. كان من علماء العربية وفقهاء الدين وأعلام الصحافة فعالج الموضوعات الدينية والسياسية بالأسلوب الجزل والصنعة المقبولة، إلا أنه كان كأكثر معاصريه قليل العناية باختيار اللفظة المناسبة والاختصار على الجملة الدالة.

مؤلفاته

من مؤلفاته التي نعرفها كتاب (غنية المؤدبين) في التربية العلمية والعملية؛ وكتاب (الإسلام دين الفطرة) في الدفاع عن الدين وبيان بعض أحكامه. وكتاب (أسرار القرآن) فسر فيه بعض آي الذكر الحكيم تفسيراً ملائماً لروح العصر.

نموذج من نشره

قال في فاتحة مقالاته في جريدة اللواء يوم استقال من وزارة المعارف:

" بعونك اللهم قد استدبرت حياة زادها الجبن وخور العزيمة، ومطيتها الدهان والتليس. في أسواقها النافقة تشتري النفوس، بزيوف الفلوس، وتباع الذمم والسرائر بالابتسام وهز الرءوس. وبيمينك اللهم استقبل فاتحة الحياة، حياة الصراحة في القول، حياة الجهر بالرأي، حياة الإرشاد العام، حياة الاستماتة في سبيل الدفاع عن البلاد العزيزة. أستقبل هذه الحياة بعد أن قضيت في سابقتها ثمانى حجج، بلغت فيها ذلك المنصب الذي كنت فيه ما بين محسود عليه ومرجو فيه. أستقبل هذه الحياة المحفوفة بالمخاطر، منبرياً في ميدانها، فإما إلى الصدر، وإما إلى القبر. موقناً بما أعد الله لعباده العاملين المخلصين، من الظفر والفتح المبين."

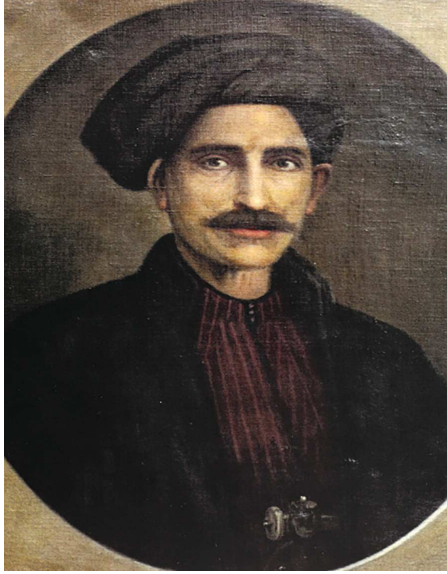
ومن مقاله بعنوان " مدرسو اللغة العربية المصريون في بلاد الإنجليز ":

" نصح إلى المستر دنلوب أيام سافرت إلى أكسفورد، أن اقتدى بما أراه من الأخلاق الفاضلة في تلك الأمة العظيمة، فماذا جرى؟ ذهبت إلى تلك الديار فوجدت الناس متمسكين بدينهم فزادوني تمسكا بديني. رأيتهم شديدي الحرص على لغتهم فزادوني حرصاً على لغتي. أبصرتهم يتفانون في الدفاع عن بلادهم ويحرمون على الأجانب الاستيلاء على بعض شئونهم أو التصرف في أموالهم ورقابهم فأخذت أحاكيمهم في هذه البلاد السيئة الحظ بالاحتلال وأشياعه. رأيتهم يحبون الصراحة، ولا يخشون معتبة، ولا يتهيبون متعبة، مادام الحق لهم فأخذت أحاكيمهم في تلك الفضائل التي نصح بها عميدهم بنظارة المعارف العمومية! أبصرتهم يحبون العمل ويكرهون الكسل، ويحضون على الفضيلة، فعدت إلى بلادي، ثم صرت أشغل بهممة لا تعرف الملل ولا الانقطاع، فكان حقاً على الإنجليز أن يرفعوا عقيرتهم، ويقوم خطباؤهم وشعراؤهم بالإضافة والإسهاب في مدح من نجح في تقليدهم ومحاكاتهم في فضائلهم، ممن يرحلون إلى بلادهم من المصريين! "

الأدباء

ناصر اليازجي

(1800 - 1871م)



نشأته وحياته

ولد ناصر بن عبد الله اليازجي بكفر شيما من قرى لبنان ونشأ في بيت فضل وعلم وأدب، وبدأ يتعلم الهجاء على أحد القساوسة، ومبادئ الطب على أبيه، وصبت نفسه إلى الآداب فطفق يطلبها ويحصلها، والكتب يومئذ نادرة وتجارتها بائرة ومطلبها بعيد. فكان إذا وقع في يده مخطوط حفظه أو نسخه أو لخصه، حتى غزرت مادته وكملت آتته، وبلغ حفظه من المنشور والمنظوم، فاستكتبه الأمير بشير الشهابي وهو في أوج عزه فكتب له ولزمه اثنتي عشرة سنة حتى أخرج من بلاده سنة 1840، فنزل الشيخ بأهله إلى بيروت وانقطع إلى المطالعة والتأليف والتدريس ومراسلة الأدباء ومساجلة الشعراء حتى منى في أعقاب عمره بفالج نصفي عطل شطره الأيسر. ثم فجع في بكر أولاده الشيخ حبيب، فضعضت هذه الفاجعة قواه وهدت ركنه ولم يعيش بعده إلا يسيراً.

نشره وشعره

ترسم الشيخ خطوات الحريري وانتهج نهجه، فأولع بالبديع، وأفتن في الصناعة، وكلف بالغريب. وعالج المقامات فأنشأ منها ستين مقامة أجاد فيها التقليد وأتقن الاحتذاء وبلغ من الحلية اللفظية الغاية. وأعجب بالمتنبى في الشعر كما أعجب بالحريري في النثر، ولكن تقليده لأبي الطيب كان أضعف، وتخلفه عن مجاراته كان أظهر. فجاء شعره على طول معالجته له وقوة طبعه فيه أشبه بشعر الحريري وأضرابه، وبخاصة تلك القصائد التي كلف فيها التاريخ الشعري، فقد غالى في ذلك وأسرف حتى كان يضمن البيتين ثمانية وعشرين تاريخاً! أو ينظم القصيدة فيلتزم في كل شطرة من شطراتها تاريخاً كقصيدة في تهنئة إبراهيم باشا بفتح عكا، أو ينظم القصيدة كلها من الحروف المهمة كقوله:

حـــــول در حـــــل وُرد هـــــل لـــــه للحرر وُرد

على أن له قصائد تهب عليك من خلال أبياتها نفحات أبي الطيب فيجزل لفظها ويقوي أسلوبها وتفيض بالمعاني المبتكرة والحكم البالغة والأمثال السائرة.

علمه ومؤلفاته

آثار اليازجي تدل على مادة غزيرة في اللغة، واطلاع واسع في الأدب، وإتقان عجيب لعلوم اللسان. فله كتاب مجمع البحرين وهو مجموع مقاماته الستين التي قلدها الحريري. وله (الجمانة) (وجوف الفرا) وهما أرجوزتان أولاهما في الصرف وآخرهما في النحر، و (فصل الخطاب) وهو مختصر في النحو والصرف (وعقد الجمان) في علم البيان، (ونقطة الدائرة) في العروض والقوافي، (وقطب الصناعة) في المنطق. ثم دواوين شعره وهي (نفحة الريحان) و (فاكهة الندماء في مراسلة الأدباء) و (ثالث القمرين). وأكثر كتبه مؤلف على نمط مدرسي ولا تزال تدرس في معظم المدارس اللبنانية المسيحية.

نموذج من كلامه

قال من قصيدة يمدح بها أسعد باشا قائد جيش البلاد العربية:

بناء العلى بين القنا والبوارق	على صهوات الخيل تحت البوارق
ولله سرف في العباد وإنما	قليل محل السر بين الخلائق
بقلب هذا الدهر أحوالنا كما	تقلب فينا لاحقاً إثر سابق
ولولا اختيار الدولة ابن سريرها	لما اعتمدته في المعاني الدقائق
كريم تولى الأمر يصلح أمره	كفتق تولته أنامل راتق
أقام السرايا ينفر الموج خيلها	بكل لواء فوق بنان خافق
يحدث أهل الغرب في كل ليلة	بما فعلت غاراته في المشارق
فيعجب من أفعاله كل عاقل	ويثني على أفضاله كل ناطق
تضيق بحار الشعر عنه وتستحي	يبحر لها في بحر كفية غارق

أحمد فارس الشدياق

(1804 - 1887م)



نشأته وحياته

ولد هذا الكاتب اللغوي في عشقوت من أعمال لبنان من أسرة ماررونية ثم دخل مدرسة عين ورقة فتلقى مبادئ القراءة، وشدا شيئاً من اللغة والنحو على أخيه أسعد. وبدأ يقرض الشعر وهو في العاشرة من عمره. وصغت نفسه منذ طفولتها إلى حفظ المفردات والمترادفات فحصل منها قسطاً وثيراً ظهر أثره بعد في خطبه وكنبه. وحدث أن أخاه أسعد وهو وليه وصفه ترك مذهب والديه واعتقد المذهب الإنجيلي فاضطهدته عشيرته وكهنته حتى مات مقهوراً في محبسه. فشق ذلك على فارس فخرج مغاضباً إلى مصر تحت حماية المرسلين الأمريكيان ورعايتهم، ف قضى بها حقبة من الدهر بين تعلم وتعليم. ثم بعث به الأمريكيان سنة 1834 إلى مالطة ليصحح ما تخرجه مطبعتهم فيها. وأرسلت في طلبه وهو هناك جمعية التوراة بلندن ليحرر ترجمتها العربية فرحل إليها وأقام بلندن ما أقام ثم انصرف عنها إلى باريس، وكان يزورها يومئذ أحمد باشا باي تونس فاتصل به الشدياق ومدحه فنفق لديه، وظاهر الأمير نعمه عليه، حتى قال الشاعر: " ما كنت أحسب أن الدهر ترك للشعر سوقاً ينفق فيها " ثم اعتقد الإسلام وهو في تونس وسمي نفسه أحمد. وظل يكتب في الرائد التونسي ويتقلب في نعمة الباي، وفضله يظهر وذكره يذيع حتى طلبته الصدارة العظمى فرحل إلى الآستانة وأنشأ جريدة " الجوائب " وأودع فيها من فنون

النثر وعيون الشعر وضروب السياسة ما رواه لسان الحمد، وتناقلته برد الشرق والغرب. وكان في سياسة الشرق مرجعاً وحجة. فسعى عليه المجد والثراء، وخطب وده الأمراء والعلماء، وكافأته الدولة العلية بالألقاب والأوسمة. ثم تخلى عن إدارة الجوائب لولده سليم وهو في أعقاب عمره، فمازالت تصدر عن براعة ولباقة وقوة حتى عطلت سنة 1884 على أثر الحوادث السودانية. ثم ورد الشدياق مصر وقد تنفس به العمر وخذد وجهه الكبير، فأحسن المصريون وأميرهم لقاءه ووفادته، وأكرموا مثواه وإقامته، ثم ارتد إلى الآستانة فوافته بها منيته.

نثره وشعره

كان الشدياق متضلعا من فنون الأدب، متصرفاً في فنون الإنشاء من هزل ومجون ووعظ وأدب وسياسة. حافظاً لمفردات اللسان، بصيراً بمذاهب البيان، يجيد النظم والنثر. وكان أسلوبه منسجم التراكيب، متساق المعاني، موفور الازدواج، شديد الإطناب، كثير الاستطراد، ظاهر المبالغة. أما شعره فأدنى رتبة وأقل جودة وأضعف ابتكاراً من نثره. فهو في النثر مجدد وفي النظم مقلد وفي كليهما بالنسبة إلى أهل عصره سابق مجيد.

مؤلفاته

له غير الفصول التي نشرها الجوائب في ثلاث وعشرين سنة كتب قيمة تدل على سعة طلاعه وطول باعه. وأشهرها:

كتاب (سر الليال في القلب والإبدال) وهو كتاب لغوي تحليلي يشتمل على سرد الفعال المتداولة والأسماء المستعملة واستدراك ما فات صاحب القاموس من لفظ أو مثل أو إيضاح عبارة أو تنسيق مادة. وقد طبع بالآستانة سنة 1284هـ ثم كتاب (الساق على الساق فيما هو الفاريق). والفاريق كلمة نحتها من فارس الشدياق وأطلقها على نفسه. أنشأ هذا الكتاب الضخم أثناء سياحته في أوربا فوصف فيه أسفاره وأخباره وما كابده في صدر حياته، وندد برجال الكنيسة أخذاً منهم بثأر أخيه. ثم أورد الألفاظ المترادفة في كل موضع على حدة كأصناف المأكول والمشروب والمشموم والحلي والجواهر، وذلك

أجل ما في الكتاب. وقد يؤخذ على المؤلف جرأته على الأدب وتطرفه في المجون واستعماله من الألفاظ ما لا يصدر عن مثله، ولا يليق بفضله.

ثم كتاب (الجاسوس على القاموس) جمع فيه المآخذ التي أخذها على قاموس الفيروزابادي. ثم (كشف المخبأ عن أوربا) وهو وصف شامل لسياحته في البلاد الأوربية.. و (الواسطة في أحوال مالطة) وهو وصف لهذه الجزيرة أراضيها وأهاليها وحاضرها وماضيها.

نموذج من كلامه

من الناس من يبالغ في مدح وطنه، ويحن إليه حنينه إلى سكنه، فيصف مروجيه ورياضه، وبروجه وحياضه، ووهاده وجباله، وتلاع وتلاله، وربوعه ودياره، ونباته وأشجاره، وبقوله وثماره، ودوحه وأطيّاره، وطيب هوائه، ولذّة مائه، ويزعم أن فصوله كلها كالربيع حسناً، وأن جميع أقطاره تتدفق بركة ويمناً، وأن شهراً فيه خير من ألف عام في غيره، وأن كل بلد مستمد من خيره، ومحتاج إلى مير، ثم يزفر زفير الهائم الحيران، ويصرخ صراخ الولهان: ألا إن حب الوطن من الإيمان. لقد جبت السهول والحزون، وركبت الذلول والأمون، وطوفت في الأمصار، وجولت في الأقطار؛ وضربت في مناكب الأرض مستقصياً، واختيرت أحوال من ليها مستفتياً؛ فلم أجد عيشاً هنيئاً إلا في بلادي. هي البلاد التي تغزلت بها الشعراء، فقال فيها فلان أبياتاً، وقال فيها فلان قصيدة غراء، واسمع ما قيل في جداولها ونواعيرها، وبلابلها وعصافيرها، وخمائلها وأزاهيرها، وصروحها وقصورها، ومصانعها ودورها، وظبائرها ومراتعها، وزكائها ومواقعها، وفي أريج آفاقها، وبهيج أشفاقها، ونصرة حدائقها، وبهجة شقائقها، فإذا قلت له: كيف جارك الأدنى؟ لعله كان لك عوناً وخذناً! قال: ويلي إنه شر جار، وهو على البلاد عار وشنار. فكيف جاره الذي يليه؟ عسى أنه ممن تؤالفه وتصافيه! قال ويلي إنه شر من أخيه. فكيف أهل الحارة طراً؟ قال: ويلي إنهم كانوا كلهم على شراً، ولم أجد منهم إلا ضراً. فكيف أهل المدن والأمصار؟ قال: ويلي إنهم أولو غبن وغش وتغريب وإخفار، ما تعامل منهم من أحد إلا ويمنيك بالكمد والنكد والخسار. هذه حال سكان

البلاد، الحاضر منهم والباد، فلا تكثرن من السؤال، ولا يخطرن ببالك غير هذه الحال. فإن شئت قلت له. ولكن كيف اشتملت بلادكم على تلك المحاسن، وأهلها على هذه المساوئ الشوائب؟ قال: إن أهلها الأولين كانوا من الخيرين، فحرثوا وزرعوها، وعمروها وأمرعوها، ثم فسد الزمان فجاءت خلفاتهم فاسدة، لكن بقيت تلك المحاسن فيها فائدة. ولكن ما معنى الزمان؟ وهو لم يكن صالحاً قط منذ خلق الإنسان، والتواريخ على ذلك شاهدة، ونصوصها عليه متساندة متعاضة. ثم فكيف فسدت الناس وأنت بقيت من بينهم صالحاً، ترى كل من سواك طالحاً، ولو كنت من الصالحين، لما رأيت في غيرك خلقاً يشين. وإنما ينظر في عيوب الناس من كان أسوأ منهم حالاً.

ومن يك ذا فم مر مريض يجد مرأً به الماء الزللاً

كذلك قال الشاعر الحكيم: فما أنت في طعنك عل جنسك إلا مليم. وإن امرأً يحسب جميع أهل بلاده دونه، لجدير بأن يشيعوا فتونه ويذيعوا جنونه.

بطرس البستاني

(1816 – 1883م)



نشأته وحياته

ولد العالم الضليع واللغوي المحقق بطرس ابن بولس الماروني بقرية من قرى لبنان تسمى الدبية على عهد الأمير بشير. ثم أدخل مدرسة عين ورقة فلبث فيها عشر سنين تعلم في أثنائها العربية والسريانية واللاتينية والإيطالية، وتفقه في الفلسفة واللاهوت والفقه، وتبحر في التاريخ والجغرافية والحساب؛ ووقع في نفسه أن يخدم الكنيسة، ولكن بدا له فأحجم وانصرف إلى التعليم. ثم وفد إلى بيروت واتصل بدعاة المذهب الإنجيلي من الأمريكان فدرس على بعض أساتذتهم الإنجليزية والعبرية واليونانية وبعض العلوم الحديثة، ثم دخل في نحلتههم ودعا بدعوتهم وساعدهم على ترجمة التوراة. ثم أنشأ في سنة 1863 مدرسة عالية سماها (المدرسة الوطنية) نالت بحسن إدارته وعظيم عنايته شهرة مستفيضة، فتقاطر إليها الناس من الشام ومصر والآستانة واليونان والعراق. ثم تخلى عن رياستها لابنه سليم البستاني وتفرغ هو للمطالعة والكتابة والتأليف، ففرغ في عام 1719 من تأليف معجمه المحيط. وفي سنة 1880 أنشأ مجلة علمية أدبية سياسية دعاها الجنان وعهد بإدارتها وكتابتها إلى ابنه سليم؛ ثم عززها بعد بصحيفة الجنة وجريدة الجنية. وشرع بعد ذلك في

وضع (دائرة المعارف) وهو عمل خطير يعجز الفرد وينوء بالجماعة في قبيل كقبيلة وجيل كجيله. ولكن حذقه لأشهر اللغات واعتصامه بالصبر والثبات، ذللاً له العقاب وسهلاً عليه الصعاب، فأصدر منها ستة مجلدات. ونزل به موت الفجاءة وهو يعمل في السابع فقام به من بعده بنوه وفقد الشرق بموته ركناً من أركان نهضته وعلماً من أعلام هداة.

علمه وفضله

نبغ البستاني في عصر فشت فيه الجهالة وغشي الناس الظلام فحمل المصباح وأنار الطريق، ونصب نفسه للهداية والدعاية فألف الكتب، وأصدر الصحف، وأنشأ المدارس، وملاً حياته النافعة بجليل الآثار وخطير الأعمال، وفي ذلك دليل على نفس عبقرية وعزيمة فتيّة وإرادة قوية. فمن تلك الآثار الخالدة: محيط المحيط، وهو معجم لغوي على النمط الحديث استوعب فيه قاموس الفيروزبادي وصحاح الجوهري فيه كثيراً من الكلمات العامية وما يقابلها من اللغة الفصيحة، وكشف عن أصول كثيرة من الكلمات الأعجمية التي لم تعرف من قبل، ووضع طائفة من المصطلحات للعلوم الحديثة. وقد استخرج منه لطلاب المدارس مختصراً سماه قطر المحيط. ومنها دائرة المعارف، وقد أصدر منها كما علمت ستة مجلدات وأتم ابنه سليم السابع والثامن وقضي نحبه في التاسع. - فأتته بنوه الباقون بمعونة ابن عمهم سليمان البستاني مترجم الإلياذة، ثم وقف عملهم عند ذلك. فلما وفد إلى القاهرة سليمان البستاني أراد أن يتم هذا العمل الجليل فأصدر هو ورجلان من بني عمومته الجزأين العاشر والحادي عشر، ثم حال نقص الأداة دون التمام. وللبستاني غير هذين الأثرين العظيمين كشف الحجاب في علم الحساب ومفتاح المصباح في الصرف والنحو، وعد عديد من المقالات والرسائل.

إبراهيم اليازجي

(1847 – 1906 هـ)



نشأته وحياته

ولد العلامة اللغوي الناقد الكاتب الشيخ إبراهيم بن ناصيف اليازجي ببيروت عام 1847م في بيت معمور بالفضل، مشهور بالأدب، وتلقى العلم عن أبيه الشيخ ناصيف عميد الأسرة اليازجية. ثم عكف على كتب اللغة والأدب، فأتقن علوم اللسان، وعرف مطارح الإساءة والإحسان، وحفظ كثيراً من جيد المشور والمنظوم. ثم قام بتدريس اللغة العربية في المدرسة البطريركية. حتى إذا قام الآباء اليسوعيون على ترجمة التوراة منافسة للترجمة الأمريكية التي قام بها المرسلون الأمريكيون عهدوا عليه بضبط ألفاظها وتنقيح عباراتها فقضى في هذا العمل تسع سنين كان في أثناءها يعالج النظم والنثر والبحث والنقد، وينشر ما يريد من ذلك في المجلات التي شارك في تحريرها كالمصباح والطبيب في بيروت. ثم هاجر إلى القاهرة في عام 1894م، وأنشأ مجلة البيان سنة 1897 مع الدكتور بشارة زلزل. ثم استقل بمجلة أخرى دعاها (الضياء) وظل يصدرها إلى أن انتقل إلى دار القرار سنة 1906.

أدبه وعلمه

كان الشيخ إبراهيم عليمًا بأسرار العربية، عارفاً بمفرداتها وفرائدها، حافظاً لنوادرها وشوادرها، واقفاً على صحيحها وفاسدها. فكان يتعقب الكتاب والشعراء في مجلتيه البيان والضياء، يدلهم على الخطأ ويرشدهم إلى الصواب وكثيراً ما كان يحتدم الجدل بينه في الضياء وبين الشنقيطي في مصباح الشرق، لتحرير لفظه، أو تصحيح رواية، أو تنقيح نص: وبفضل هذا التعقب شعر الأدباء بمراقبة النقد فأخذوا أنفسهم بالتدقيق والتروية والمراجعة. واستفاد المعلمون مما أحصاه من الأخطاء الشائعة في لغة الصحف والكتب، فأشاعوا تصويبها في مؤلفات الأساتذة وكراسات التلاميذ. ورأى اليازجي محصول المنشئين والصحفيين من اللغة قليلاً فاختار لهم طائفة من التعابير البليغة الماثورة في كتاب سماه (نجمة الرائد في المترادف والمتوارد) كما جمع ما أحصاه من الأغاليط المتداولة على ألسنة الأدباء في كتاب سماه (لغة الجرائد) والشيخ إبراهيم بعد ذلك طوبل الباع في الصناعتين، له شعر جزل محكم، ونشر مطبوع رائق.

نموذج من كلامه

كتب يعزي بعض أصدقائه:

من علم أن القضاء واقع، وأن الأعمار رهائن المصارع، فلم يصحب دهره على غرة، ولم يفتر من الأقدار بفترة؛ لم تكبر عليه الرزية إذا اغتالت، ولم يطمئن إلى السلامة وإن طالت، فإن الدهر رقدة وهبة، وإن الليالي كمنة ووثبة. ومثلك من أدرك مبادئ الأمور ومصايرها، وعرف موارد الحياة ومصادرها، وإنما الموت طور من أطوار الوجود، وآخر أعمال الحياة في الوجود. ولا أزيدك علماً بالكون وشرائعه؛ والكائن وطبائعه، إنما هي ذكرى لمن فجأه الرزء فشغله، وحل بساحته القضاء فأذهله. وحسبي من التعزية علمي بما عندك من موارد العلم المتاح، ومن التأسية ما تعلمه من حال مخاطبك وهو سائل الجراح. وما أخلقني بأن أقول: إن رزءك هذا قد زادني شجناً على أشجاني، ونكأ ما تماثل من فرحة أحزاني. ولكنني قد صيرني الدهر إلى حال، لا تعمل

فيها حال، ولا أبالي معها بسلم ولا قتال، فكأنما إياي عني أبو الطيب حيث قال:

رمانى الدهر بالأرزاء حتى فؤادي في غشاء من نبال
فصرت إذا أصابتني سهام تكسرت النصال على النصال

حمزة فتح الله

(1849 - 1918م)

نشأته وحياته

ولد الأستاذ اللغوي الشيخ حمزة فتح الله بالإسكندرية عام 1849 ونشأ بها نشأة الأوساط، فحفظ القرآن ودرس العلوم الشرعية واللسانية، ثم عزم الرحلة إلى تونس فلبث فيها بضع سنين حرر في أثنائها جريدة الرائد التونسي. ثم عاد إلى الإسكندرية واتصل بالخدوي توفيق، فأوحى إليه أن يحرر جريدة الاعتدال عام الثورة العرابية زيادا عن عرشه وتأييداً لسياسته، فما حال عليها الحول.

وفي سنة 1886 مثل الحكومة المصرية في مؤتمر المستشرقين الذي انعقد في فينا كما مثلها مرة أخرى في هذا المؤتمر نفسه حين اجتمع في استوكهلم سنة 1889. ثم رأى أن يزاول التعليم بعد الصحافة فعين سنة 1888 مدرساً بمدرسة الألسن فدار العلوم. ثم انتقل إلى التفتيش فمكث به إلى أن أحيل على المعاش سنة 1912م فعكف على البحث والقراءة حتى وافاه أجله في إبريل من سنة 1918م وقد كف بصره.

أخلاقه وعلمه

كان رحمه الله سليم الصدر، كريم الخلق، غيوراً على اللغة، ولوعاً بالأدب مغري بالبحث، فسرت هذه الصفات إلى أكثر تلاميذه، فرفعوا شأن اللغة، وأحيوا موات الأدب. ألف كتاب (المواهب الفتحية في علوم اللغة العربية) أثناء تدريسه بدار العلوم. ثم كانت له اليد الطولى في تنقيح كتب الدراسة بالمعارف.

علاج النظم على طريقة المتقدمين، والنشر على طريقة المتأخرين، فكان وسطاً في الحالين، كما يتضح لك ذلك من هذين النموذجين:

نموذج من كلامه

خير ما أثر عنه من الشعر قصيدة أنشدها في مؤتمر المستشرقين يقول في مطلعها:

حمد السرى يا أخى العود والنباب أنساك وعشاء إغباب وإخباب
ومنها في الحكم:

ومن يرد نيل مجد وهو في دعة فقد بغى من صفاة در أحلاب
والمرء في موطن كالدر في صدف والتبر في معدن والنبع في غاب
والسيف مثل العصا إن كان معتمداً وزامر الحي لا يحظى بإطراب
وأزهد الناس في علم وصاحبه أدنى الحبة من أهل وأصحاب

وكتب إلى السيد عبد الحميد البكري معترداً:

مولاي: أما الشوق إل رؤيتك فشديد، وسل فؤادك عن صديق حميم، وود صميم، وخلة لا يزيدنها تعاقب المَلَوَيْن، وتألّق النّيرين، إلا ونوقاً في الغُراء، وإحكاماً في البناء، ونماء في الغراس، وتشيداً في الدعائم. ولا يظنن سيدي أن عدم ازديادي ساحته الشريفة، واجتلائي طلعتة المنيفة، لتقاعس أو تقصير، فإن لي في ذلك معذرة اقتضت التأخير. والسد أطلال الله بقاءه أجدر من قبل معذرة صديقة، وأغضى عن ريث استدعته الضرورة. وبعد فرجائي من مقامكم السامي ألا تكون معذرتي هذه عائقاً لكم عن زيارتي، فكم مِنّة طوقتمونيها، ولكم فيها فلل البداءة وعلى دوام الشكران والسلام.

الخطابة والخطباء

ظلت الخطابة في أول هذا العصر على ما كانت عليه في آخر العصر العباسي لا تتعدى الجوامع والبيع، ولا يقوم بها إلا فئة جاهلة ناقلة. فلما دعا داعي الثورة العرابية ظهرت الخطابة السياسة على ألسنة زعمائها، وأشهرهم السيد عبد الله نديم والشيخ محمد عبده وأديب إسحاق واللقاني. ثم مرن عليها كثير من الوعاظ والأدباء وأقاموا المجامع الأسبوعية للخطابة في الأخلاق والدين والاجتماع والسياسة ولكن الخطابة لم تجل عنها اعقاب العلة المزمنة

إلا في عهد الزعيم الوطني الكبير مصطفى باشا كامل المتوفى سنة 1908م، فقد كانت له أمضى سلاح في جهاده. وأقوى معين في إيقاظ بلاده. ومنذ قيامه بالدعوة الوطنية، ونهوضه بالحركة الاستقلالية، أخذ شبانا ولاسيما المحامين يتدربون عليها حتى نبغ منهم الآن طائفة صالحة. ولعل الشرق لم يشهد في عصر من عصوره خطيباً حافل القريحة، قوى العارضة، جهوري الصوت، قبل المغفور له سعد باشا زغلول. وإننا لتتوقع للخطابة في عهد نظامنا الدستوري رقياً سريعاً؛ فإن الحرية السياسية، والمنافسات الحزبية، والمناقشات البرلمانية، من أبلغ العوامل أثراً في رقي الخطابة. ولولاها ما كان ديمستين في اليونان، ولا شيشرون في الرومان، ولا على في العرب.

عبد الله نديم

(المتوفى سنة 1896م)



نشأته وحياته

ولد السيد عبد الله بن مصباح بن إبراهيم في الإسكندرية، ونشأ لها نشأة الأوساط فتعلم مبادئ القراءة والكتابة وحفظ القرآن في الكتاب وهو يومئذ المدرسة الأولى لأبناء الشعب. ولما أيفع دخل معهد الإسكندرية في جامع الشيخ فأدرك قسطاً موفوراً من علوم الدين واللسان. وطغى ميله الأدبي على ميوله الأخرى فحفظ الأشعار وروى الأخبار وعالج النظم والشر. ثم داخل العلماء وطارح الأدباء حتى شغله ذلك عن العكوف على الدرس. وأعجله طلب الرزق عن متابعة الطلب في المعهد فنصرف عنه إلى تعلم فن البرق (التلغراف) فتعلمه وتكسب عن طريقه حيناً من الدهر في (تلغرافات الحكومة)، ثم فصل عن هذا العمل فتعاطى التجارة في مدينة المنصورة فلم تربح تجارتها ولم يسلم رأس ماله، فعاد إلى الإسكندرية وكان أولو الفضل قد أسسوا في ذلك الحين جمعية إسلامية خيرية لإنشاء المدارس للبنين والبنات فشارك النديم في هذا العمل وتولى نظارة المدرسة الأولى لهذه الجمعية. وأمدته الحكومة بالمكان والمال على ألا تكون مقصورة على المسلمين؛ ثم جعلها

الخدوي توفيق تحت رعايته. وكانت هذه الجمعية من المحاريب السياسية والاجتماعية يجتمع فيها الناس ليلاً ليسمعوا الخطب في مختلف الشئون من أمثال عبد الله نديم، وأحمد سمير، وأديب إسحاق، وإبراهيم اللقاني.

ثم ألف السيد عبد الله رواية تمثيلية عنوانها (مصر وطالع التوفيق) مثلها طلاب هذه المدرسة، كان مغزاها الأسى على تقهقر مصر وتحكم الأجنبي بها. ثم أخذت آراء الأفغاني تهفو بالنفوس وتعصف بالرءوس، فشغل النديم عن الجمعية والمدرسة وأنشأ جريدة (التنكيث والتبكيث) وهي أسبوعية كانت تلبى الجد ثوب الهزل. ثم استبدل بها (الطائف) فكانت بوقاً من أبواق الثورة العربية، وميداناً من ميادين الحركة الوطنية. وكان هو خطيب الثورة الصارم اللسان الجريء الجنان القوي الأثر. ولما خبت نارها وقبض مشعلوها اختفى عبد الله نديم عشر سنين قضاهما متنكراً في كل زي، متنقلاً في كل بلد، حتى قبض عليه فحبس أياماً وعفا عنه الخديوي على أن يخرج من مصر إلى حيث شاء. فأقام في فلسطين حقبة من الزمن بعدها إلى القاهرة مطلق السراح، فأنشأ بها مجلة أدبية سماها (الأستاذ) انتشرت في مختلف البيئات والجهات انتشاراً عجيباً أقض مضاجع الحكومة فنفته مرة أخرى من البلاد. فرحل إلى الآستانة ونفق عند السلطان فعين مفتشاً للمطبوعات في الباب العالي وظل في منصبه إلى أن قبضه الله إليه.

أخلاقه ومواهبه

كان السيد عبد الله نديم خطيباً موهوباً ذلق اللسان، فصيح العبارة، حاضر البديهة، سريع الناكثة، شديد التهكم، عاضه الله من قلة العلم وضيق الاطلاع سلامة الطبع في الأدب وسماحة القريحة في الكتابة وغزارة البحر في الخطابة. ثم تقلبت به الأحوال السياسية والاجتماعية فاتصلت أسبابه برجال الحكم، وطال اختلاطه بقيادة الشعب، وكثر اضطرابه في مختلف الأرض. وتخلل طبقات الناس فبلا أخلاقهم وسبر أهوائهم. وكان لذلك كله أثر بالغ في علمه بمخبات الضمائر، ومقتضيات الأحوال، وأخذ به بأعنة الكلام يصرفه في أي معنى شاء، حتى قال فيه السيد جمال الدين الأفغاني: "ما رأيت طول حياتي

مثل النديم في توقد الذهن وصفاء القريحة وشدة العارضة ووضوح الدليل ووضع الألفاظ وضعاً محكماً بإزاء معانيها إذا خطب أو كتب .

نموذج من كلامه

قال من رسالة له عمد فيها أن يقتبس الفاصلة الثانية من القرآن:

لا حول ولا قوة إلا بالله، اشتبه المراقب باللاه، واستبدال الحلو بالمر، وقدم الرقيق على الحر، وبيع الدر بالخزف والخز بالخشف، وأظهر كل لئيم كبره، إن في ذلك لعبرة. سمعاً سمعاً، فالوشاة إن سعوا لا يعلقوا، ويحبون أن يحمدوا بما لم يفعلوا، فكيف تشترون منهم القار في صفة العنبر، وقد بدت البغضاء من أفواههم وما تخفي صدورهم أكبر. عجب لهم وقد دخلوا دارنا وهم عنها معرضون. فلما أحسوا بأسنا إذا هم منها يركضون. وأنت يا عزيز العليا، ووحيد الدنيا، قد بينت لك فعلهم، فيما رحمة من الله لنت لهم. ولكنهم طمعوا في عميم طولك، ولو كنت فظا غليظ القلب لانفضوا من حولك.

مصطفى كامل

(1874 – 1908 م)



نشأته وحياته

ولد زعيم النهضة المصرية وموقف الروح الوطنية، مصطفى كامل بالقاهرة سنة 1874م في بيت اشتهر بكرم الأصل وعفة النفس وصح الدين، ثم تلقى دروسه الابتدائية والثانوية في المدارس المصرية، ثم دخل مدرسة الحقوق فنال إجازتها وسنه لم يتجاوز التاسعة عشرة. وكان في أثناء الطلب قد اشتهر بين الطلاب والكتاب بقوته في الكتابة وقدرته على الخطابة، فنشر كثيراً من المقالات السياسية في صحيفتي الأهرام والمؤيد، وأصدر مجلة أدبية شهرية سماها (مجلة المدرسة) أشرقت فيها نفسه الكريمة إشراق النفس الزعيمة، فتهافت على ضوئه طلاب المدارس العليا يؤيدون دعوته ويرددون لمتهم و يترسمون خطاه. ولما نال شهادة الحقوق لم يتجه إلى العمل في القضاء ولا في المحاماة، وإنما اتجه إلى خدمة وطنه من طريق السياسة والصحافة، فسافر إلى أوروبا مراراً يدعو إلى مصر بالكتابة في صحفها والخطابة في محافلها.

وداخل رجال السياسة في فرنسا وانجلترا يستمد منهم التوجيه والعون، ومن هؤلاء أمه الروحية السيدة جوليت آدم الفرنسية التي يقوله لها في بعض رسائله: "إنني لا أزال صغيراً، ولكن لي آملاً كبيراً. أريد أن أوقظ في مصر الشيخة مصر الفتاة. هم يقولون إن وطني لا وجود له وأنا أقول إنه موجود بدليل ما أشعر له في نفسي من الحب الشديد الذي سيتغلب على كل حب سواه".

ثم انشأ (اللواء) في ثلاث نسخ: بالعربية والإنجليزية والفرنسية، فدافع بها عن بلاده، وجاهد في سبيل حريتها حق جهاده، حتى أدرك، هو في طرأة الشباب زعامة الأمة وثقة العرش ورضا الخلافة وخصومة المحتل. وكان في مقدوره إذا شاء أن يستغل هذه القوى العظيمة في سبيل الثراء والحكم، ولكنه زهد في ذلك كله زهادة الحكيم، فعاش للمبدأ والفكرة، ومات للقدوة والعبرة. ولما بلغ هذا الجهاد المتصل وهذا الجهد المرهق من جسده الناحل ألف (الحزب الوطني) ليحمل عنه الأمانة ويبلغ بعده الرسالة؛ ولكن المنية لم تمهله بعد ذلك إلا أياماً فاخترمته رضي الله عنه وهو دون السابعة والثلاثين من عمره.

مصطفى كامل الخطيب

كان مصطفى كامل خطيباً طلق البديهة، رائق المنطق. ندى الصوت، عذب النبرة، أنيق اللهجة، لا يتلصق ولا يلحن ولا يتلعثم. وكان كاتباً حلو اللفظ رقيق الأسلوب، قوي الروح، صادق الفكرة، نبيل الغرض، وبهذه المزايا الموهوبة والمكسوبة، استطاع أن يحيى الموات، ويجمع الشتات، وينعش خمود الشعب بالآمال المطمعة، ويقارع طغيان المحتل بالحجج الملزمة.

نموذج من خطبه

قال من خطبة له ألقاها بالإسكندرية في 22 أكتوبر من سنة 1901:

بلادي! بلادي! لك حبي وفؤادي، لك حياتي ووجودي، لك دمي ونفسي! لك عقلي ولساني، لك لبي وجناني، فأنت أتت الحياة، ولا حياة إلا حياة إلا بك يا مصر! يقول الجهلاء والفقراء في الإدراك إنني متهور في حبها! وهل

يستطيع مصري ألا يتهور في حب مصر؟ إنه مهما أحبها، فلا يبلغ الدرجة التي يدعو إليها جمالها وجلالها وتاريخها والعظمة اللائقة بها.

ألا أيها اللائمون! أنظروها وتأملوها، وطوفوها، واقرأوا صحف ماضيها، واسألوا الزائرين لها من أطراف الأرض: هل خلق الله وطناً أعلى مقاماً، وأسمى شأنًا، وأجمل طبيعة، وأجل آثاراً، وأغنى تربة، وأصفى سماء، وأعذب ماء، وأدعى للحب والشغف من هذا الوطن العزيز؟.

اسألوا العالم كله يجبكم بصوت واحد: إن مصر جنة الدنيا، وإن شعبها الذي يسكنها ويتوارثها لأكرم الشعوب إذا أغزها، وأكبرها جناية عليها وعلى نفسه إذا تسامح في حقها، وسلم أزمته للأجنبي: إنني لو لم أولد مصرياً لوددت أن أكون مصرياً!.

سعد زغلول

(المتوفى ستة 1927م)



نشأته وحياته

ولد سعد زغلول في (إبيانة) من أعمال مديرية الغربية وتلقى في كتاب القرية مبادئ الثقافة العامة وأولها حفظ القرآن الكريم، ثم أرسله أبوه إلى الأزهر فدرس علوم الدين واللغة والمنطق ثم صارت له في الجدل والمناظرة شهرة. واتصل السيد جمال الدين الأفغاني حين هبط مصر فلزمه وأخذ عنه وتأثر به وكان سعد بفطرته مجبولا على مناصرة الحق ومجاهدة الباطل ومحاربة النقص. عين بعد أن ترك الأزهر محرراً في الوقائع المصرية مع أستاذه الإمام فكان يكتب في الاستبداد والشورى والأخلاق، وابتعد الأحكام التي كانت تصدرها يومئذ (المجالس الملغاة) ثم عين ناظراً لقلم قضايا الجيزة، وكان حكمه حكم القاضي الجزئي فنزل الحق من عدله وعقله في حمى أمين. ثم أصغى لقضية الحق في الثورة العرابية ففصل من وظيفته وسجن في (الضبطية) سبعة أشهر. ولما أطلق من سجنه زاول المحاماة، ولم يكن يشترك

في مزاولتها حينئذ إلا أداء امتحان في المحكمة فكان أول محام أقرته المحاكم الأهلية في مصر.

ثم اختير نائب قاض في محكمة الاستئناف. ويومئذ درس الفرنسية ونال إجازة الحقوق، فبرع القضاة الأوربيين بالذهن الغواص والدرس المحيط والاستنباط الدقيق والحكم الموفق. وفي سنة 1906م عين ناظراً للمعارف العمومية وكانت العلوم كلها تدرس في اللغة الإنجليزية فجعلها تدرس في اللغة العربية، وكان من ذلك أن ترجمت العلوم وألفت الكتب وانتعشت الثقافة. ثم عين ناظراً (للحقانية) فجد في إصلاح نظم القضاء وتنقيح مواد القوانين لتلاءم العصر وتسد الحاجة. ثم أقيل من الوزارة فانتخبته الأمة نائباً عنها في (الجمعية التشريعية) فكان بحججه الملزمة وأجوبته المفحمة رهبة الوزراء ودهشة النواب ومتجه الأفتدة.

ولما أعلنت الهدنة في الحرب العالمية الأولى ووضعت قضية العالم كله على مكاتب الغالبيين في (فرساي) تحركت مصر للمطالبة بحقوقها في تقرير مصيرها ووكلت عنها وفداً يقدم مطالبها ويحقق رغائبها برياسة سعد باشا زغلول، فنفته السلطة العسكرية الإنجليزية في نفر من صحبه إلى جزيرة مالطة، فثار الشعب المصري ثورته المعروفة سنة 1919. وكان من آثارها أن أطلق المعتقلون وخلق بينهم وبين مؤتمر الصلح في باريس.

وفي سنة 1920م دعت الحكومة البريطانية إلى لندن لتفاوضه الرأي في المطالب المصرية فشخص إليها مع بعض أعضاء الوفد. ولكن المفاوضات لم تسفر عن تحقيق الأماني القومية فقطعها وعاد إلى مصر فقابلته الأمة مقابلة الفاتح الظافر. واستأنف الجهاد على الخطة التي رسمها فأقض مضاجع الإنجليز فنفوه مرة أخرى إلى جزيرة سيشل مع نفر من أصحابه فلبثوا فيها مدة، ثم نقل هو جبل طارق. وأطلق سراحهم جميعاً بعد ذلك، فشخص سعد باشا إلى فرنسا من فوره فظل فيها حيناً ثم ارتد إلى مصر. وكانت الحكومة البريطانية قد أعلنت من جانبها تصريح 28 فبراير من سنة 1922 بتحفظاته الأربعة، فأعلن الملك فؤاد الأول استقلال البلاد وصادر الدستور في سنة

1923. وأسفر الانتخاب عن فوز الوفد بالكثرة فتولى رئاسة مجلس النواب وظل فيها حتى اختار الله له ما عنده.

منزلته في الخطابة

لم ير التاريخ المصري، بل الشرقي، قبل سعد خطيباً، بلبل اللسان، رفيع الصوت، حافل البديهة، دامج الحجة، أنيق اللهجة رائع البيان، حسن السميت، يزواج بين المنطق والشعر، ويعاقب بين الإقناع والإمتاع، ويرواح بين الجد والهزل، ويتصرف في فنون القول تصرف الشاعر برقة الأسلوب، والفيلسوف بدقة الفكر، والموسيقي بجمال الإيقاع.

ذلك لأن سعداً كان رجل جلال وجدل. تمرس منذ الحداثة بشدائد الحياة ومكاره العمل، وراض نفسه منذ الدراسة على أدبي اللسان والقلم، وتنفس به في ميادين الحق. فتكلمت عبقريته الموهوبة بالمعرفة، وثقفت بالتجربة، وتقوت بالمرانة، حتى كان منه ذلك الخطيب المرتجل الذي يهضب⁽¹⁾ بالكلام أربع ساعات متواليات، لا يتلكأ، ولا يتلجلج، ولا يتكثر بالغو، ولا يستعين بالتكرار، ولا يطرد نشاط السامع. وكان مع ذلك يخطب كما يكتب، ويكتب كما يخطب، متوحياً في الأمرين براعة التفكير، وبلاغة الأداء، وجمال الأخيلة وابتكار التعابير، وصحة الأقيسة، وقوة الأدلة.

نموذج من نثره

وجه رحمه الله هذا النداء إلى الأمة المصرية عقب عودته إلى مصر في صدر سنة 1921م:

رحبت الأمة بعودة نوابها ترحيباً فاق كل ترحيب، وأعجز وصف كل كاتب وخطيب، فقد أتى أفرادها من كل ناحية بدافع من ضمائرهم النيرة، وباعث من شعورهم الحي، ترتعش أعصابهم حماسة، وتخفق قلوبهم بالوطنية الصادقة، للالتفاف حول من اتخذوهم رمز أمانيتهم، عنوان مبادئهم. ولقد رأيت آيات الحكمة والكرامة والثبات تتجلى فيما استقبلنا به من مظاهر الفرح الباهر

(1) فلان يهضب بالشعر أو بالخطب: يسح بها سحاً.

- تلك الصفات التي تضمن للشعوب تقدمها وللأمم سعادتها. وشعرت من قبلات الترحيب التي غمرونا بها بحرارة قلب يخفق في جسم شعب عظيم. وقد اشترك الأموات والأحياء في أن يملوا على المجموع وكل فرد واجبة نحو الوطن العزيز، وأجمع الكل على مطالبتنا بمواصلة السير في الطريق الذي سنه الحق القويم. وإن الشرف والكرامة والإخلاص لوطننا المقدس لما يوجب علينا طاعة هذا الأمر الكريم، والتزام هذا الطريق المستقيم.

إننا نشكر البلاد جميعها، قربها وبعيدها، على حلة الثقة التي زيتتنا بها، ونقسم بالوطن وشعائره المقدسة - وشاركنا في هذا القسم العظيم أصحابنا المخلصون في جهادهم - إننا لا ندخر شيئاً من وسعنا لتحقيق هذه الثقة الغالية، ولا نتحول لحظة واحدة عن الغرض الذي وضعناه نصب عيوننا حتى نصل إليه.

إننا لم نعد إلا لنقوى بعزائم مواطنينا الكرام عزائمنا، ونشد أزرننا باتحادهم المتين، ونتمتع بمرآهم بعد طول هذه الغيبة، ونتأكد من أن الاشتراك في المفاوضات الرسمية التي دعتنا الوزارة الجديدة له متفق مع المبادئ التي وضعتها الأمة، وعاهدنا على احترامها، مع الخطة التي رسمتها وتعهدها بمتابعتها. ولا شيء أحب إلى قلوبنا من أن نخدم بلادنا بالاتفاق مع كل هيئة مستعدة لأن تسترشد بإرادة الأمة، وعاملة على تحقيق غايتها السامية.

لم يبق علينا إلا أن يعود كل منا إلى عمله، ويقبل على شأنه، فالتلميذ إلى مدرسته، والفلاح إلى مصنعه. والتاجر إلى متجره، والكاتب إلى مكتبه، والمرأة إلى إدارتها بيتها. وعلى الكل من غني وفقير أن يباشر عمله، مراقباً أعمالنا، واضعاً نصب عينيه المقصد الأسمى، وأن يعتقد أنه يزيد بما يعمل في كنوز الوطن كنزاً، ويضم إلى قواه قوة.

إلى العمل جميعاً، لنرفع منار الوطن، ونعلي كلمته، ولتحيا مصر!

الفصل الخامس

الشعر

لم ينل الأدب من عناية الأمراء العلويين ما نال العلم. فظل الشعر - على ندرته - كما كان في العصر الماضي أسير التقليد والصنعة. ثم أدركته نفحة من الهبة العامة في عهد الخديوي إسماعيل، فترد ذكره على ألسنة شعرائه وندمائهم، كالسيد علي أبي النصر⁽¹⁾ والشيخ علي الليثي⁽²⁾. أخذت هذه الحركة تطرد بالإقبال على أمهات كتب الأدب الباقية، والرجوع إلى منابع الشعر الصافية. وكان البارودي أول من أقام عمود الشعر وجدد دارس القريض، فترسم خطى الفحول من شعراء العباسيين، وحاكماء الناشئون من شعراء العصر، وابتغوا الوسيلة إلى ذلك بحفظ المختار من أشعار الجاهلين والإسلاميين، فأخصبت القرائح، وأدركت السلائق، وصحت الأذواق، وجرى الشعر جزل اللفظ، محكمة النسيج، متين القافية، مشرق المعاني، متخففاً من أثقال البديع وأوزار الصنعة. ثم نزع الشعراء إلى الاستقلال والحرية والتجديد بتأثير الحضارة الأوربية، وتعلم اللغات الأجنبية، ونشاط الحركة العلمية. وقصدوا إلى اكتناه النفوس وتحليل الأشخاص، وتعليل الأشياء، ومناجاة الطبيعة وحاد أكثرهم عن الأساليب العتيقة كالاستهلال بمقدمة خارجة عن الموضوع في الغزل أو غيره تحتاج إلى تخلص؛ ونظروا إلى القصيدة كلها كأنها كائن حي تساعد أجزأؤه على غرض معين؛ ونقروا من الأغراض القديمة كالمدح والفخر والهجاء والمجون، لتغير البيئة واختلاف التربية. وجرت ألسنتهم بالمعاني العامة، كراء مجد مفقود، وانتقاد عيب موجود، وطلب استقلال منشود. ولكن تقدم الشعر في الجملة كان أبطأ من تقدم النثر، لأن الثقافة العلمية في مصر

(1) ولد السيد علي أبو النصر في منفوط، ونبغ في عهد إسماعيل ن ونال الحظوة لديه وعاش على جوائزه، ورافقه في أسفاره. ثم كانت وفاته سنة 1880م وله ديوان شعر مطبوع بمصر.

(2) كان الشيخ علي الليثي لطيف المعاشرة فكه المحاضرة، خفيف الروح، فقربه الخديوي إسماعيل، وجعله شاعره ومسامره ومسايره. توفي سنة 1866م دون أن يدون شعره في كتاب.

أسبق من الثقافة الأدبية، ولأن الشعر لا يزال من ضروب الكمال التي لا تعد في وسائل الكسب ولا تدخل في صميم الحياة.

ومما يملأ النفس أسفاً ودهشة أن شعراء اليوم منوا بالجمود والأذهان ثائرة، وأصيبوا بالإصغاء وأسباب القول وافرة؛ فالشعب مضطرم الشعور نائر الفكر يجاهد في سبيل وجوده وحرية بدمه وماله، وهم قاعدون تحت الجدر يتشاءبون ويتمطون على دفء الشمس تاركين الجيش من غير موسيقى! اللهم إلا صدحات من أمير الشعراء شوقي وشاعر النيل حافظ، يرسلانها الحين بعد الحين فتجلو صدأ الخواطر، وتحى موات القلوب. فلما توفى الله في سنة 1922 حافظاً وشوقي، وكان أسماها علمين على الشعر في العهد الأخير، تسابقت القرائح الشابة إلى ملء مكانيهما، فنشط في مصر القريض. وتجاوبت الأفراخ النواهض بالأغاريد، وشرقت الصحف والمجلات بفيض هذه القرائح، ولكن أصواتها الناعمة الرخوة لم تملأ الأسماع ولم تطرد الوحشة. ولاحت في لبنان المهاجرة مواهب النبوغ ودلائل القيادة؛ ولكن البعد يبدد الصوت القوي، والاعتراب يوهن الجهد الجهيد. والزمن الذي يمحص الأشياء فينفى البهرج الزائف، ويثبت الحق الصريح، هو الذي يعرف مكان هذه الجهود، من عالم الفناء أو من عالم الخلود.

الشعراء

محمود سامي البارودي

(المتوفى - 1904م)



نشأته وحياته

هو ابن حسن بك حسني مدير دنقلة وبربر على عهد محمد علي باشا. ولد بالقاهرة وشبل في نعمة أبيه. ولم يكد يحبو للسابعة حتى فجعه الموت فيه بدنقلة فعنى بتأديبه بعض أهله: وأدخلوه المدرسة الحربية فتعلم الفنون العسكرية وخرج منها ضابطاً. وكان وهو غرض الحداثة مولعاً بحفظ الشعر وإنشاده، ولا نعلم مصدر هذا الميل فيه. فأخذ نفسه بدرس دواوين الفحول من شعراء العرب حتى شب فصيح اللسان، مطبوعاً على الإعراب دون علم بالنحو. ثم فاض ما حفظ على لسانه فانطلق برائق الشعر في الأغراض المختلفة. وسافر إلى الآستانة فدرس اللغتين التركية والفارسية، وتضلع من آدابها حتى عد من شعرائها. واتصل هناك بالخدويي إسماعيل عام 1279هـ، فألحقه بحاشيته وعاد به إلى مصر، فتدرج في الرتب الحربية حتى سما سنة 1294 هـ إلى (لواء). ورحل في أثناء ذلك إلى فرنسا وإنجلترا، فازداد قوة في أدبه، وخبرة في فنه. وكان أحد ضباط الحملة المصرية التي ساعدت الدولة

العلية أثناء ثورة البلقان وإقريطش، فأملى فيها بلاء حسناً. فلما عاد إلى مصر نقل إلى المناصب الإدارية فولى مديراً للشرقية ثم رئيساً للضبطية. وفي عهد توفيق تقلد نظارة الأوقاف ووصل إلى رتبة (فريق) وتولى نظارة الجهادية قبيل الثورة العربية. ورأس النظارة بعد شريف باشا، فما لبث غير قليل حتى ثار نقع الثورة واستطار شرر الفتنة. وأكثر الناس على أن البارودي أول من فتح بابها وتدرع جلابها، ولكن شعره يبرئه من ذلك كما سيجيء.

وسكتت الثورة باحتلال الإنجليز وادي النيل وقبض على مثيري الفتنة وحكم عليهم بالنفي إلى جزيرة سرنديب (سيلان) وفيهم الشاعر. فلبث في منفاه سبعة عشر عاماً وبعض عام تعلم في اثنائها اللغة الإنجليزية، ونظم بدائع شعره في العريية. ثم وسعته رحمة الخديوي عباس الثاني فعفا عنه سنة 1327 هـ ومنحه التمتع بالحقوق فلم يعيش بعدها إلا خمس سنين قضاها في سكون الشيخوخة وادعاً بين مطالعة الكتب، ومحادثة الصحب، ومعالجة القريض. وقد كف بصره قبيل موته.

شعره

إن كان لامرئ القيس فضل في تمهيد الشعر وتقصيده، وليشار في ترقيته وتجويده، فللبارودي كل الفضل في إحيائه وتجديده. كان الشعر في عهده صورة مشوهة من آثار القرون الأخيرة المظلمة؛ نظم مرتبك، ونكلف باد، وصناعة فاشية، ومعنى سقيم. فجلاه في خاطره وصقله على لسانه، فجاء منضد اللفظ نقيّ المستشف. تقصص البارودي شعر ابن المعتز وأبي فراس والرضى والطغرائي وأمثالهم من الفحول، فارتسم شعرهم على لوح قلبه، وانتقش في صفحة ذهنه؛ وصادف ذلك منه شعوراً فياضاً وذوقاً سليماً، فاستخرج من مجموع تلك الأساليب أسلوبه الرائق الفخم. لذلك تحس وأنت تقرأ قصيدة من نظمه أرواح أولئك الفحول تحوم حول روحه، وتحلق فوق أبياته⁽¹⁾.

(1) إشارة إلى أن البارودي كثيراً ما يقع على معاني هؤلاء الشعراء وألفاظهم دون أن يشعر لكثرة محفوظه.

ما كان البارودي مبتكر معان ولا مبتدع أساليب، ولكنه كان رائد فواف وصائغ قريض. قد كلف بالنغمة؛ وانصرف إلى الصنعة، فأثر المعنى الضئيل في اللفظ الجزل، على المعنى البليغ في اللفظ الغث، وقد أجاد وأبدع في الفخر والحماسة والوصف.

مؤلفاته

له كتاب (مختارات البارودي) في أربعة أجزاء وهو مجموع ما اختاره لثلاثين شاعراً من شعراء العصر العباسي في أغراض مختلفة. وقد نهج في اختياره طريقتيه في نظمته، فأثر حسن اللفظ والمعنى، وحسن اللفظ، على حسن المعنى وقبح المبني. وله (ديوان شعر) في جزأين قد طبع في مصر.

نموذج من شعره

قال في الحماسة والفخر:

ونقع كلج البحر خضت غماره	ولا معقل إلا المناصل والجرد
صبرت له والموت يحمر تارة	ويغفل طوراً في العجاج فيسود
فما كنت إلا الليث أنهضه الطوى	وما كنت إلا السيف فارقه الغمد
صؤول وللبطال همس من الونى	ضروب وقلب القرن في صدره يعدو
فما مهجة إلا ورمحي ضميرها	ولا لبة إلا وسيفي لها عقد

وقال يرثي زوجته:

لا لوعتي تدع الفؤاد ولا يدي	تقوى على رد الحبيب الغادي
يا دهر فيم فجعتني بحليلة	كانت خلاصة عدتي وعتادي؟
إن كنت لم ترحم ضناي لبعدها	أفلا رحمت من الأسى أولادي؟
ومن البلية أن يسم أخو الأسى	رعى التجلد وهو غير جماد
هيهات بعدك أن تقر جوانحي	أسفا لبعذك أو يلين مهادي
ولهي عليك مصاحب لمسيرتي	والدمع فيك ملازم لوسادي

فإذا انتهيت فانت أول ذكرتي وإذا أويت فأنت آخر زادي
وقال من قصيدة أخرى يتشوق:

ردوا على الصبي من عصري الخالي هل يعود سواد اللمة البالي!
من يدر من بات مسروراً بلذته أني بنار الأسى من هجره صالي
يا غاضبين علينا هل إلى عدة بالوصل يوم أناغي فيه أقبالي؟
غبتم فأظلم يومي بعد فرقتكم وساء صنع الليالي بعد إجمالي
فالיום لا رَسنى طوع القياد ولا قلبي إلى زهرة الدنيا بميال
أييت منفرداً في رأس شاهقة مثل القطامي فوق المربأ العالي
وقال يخاطب مؤججي الثورة العرابية:

نصحت قومي: قبت الحرب مفجعة وربما تاج أمر غير مظنون
فخالفوني وشيوها مكابرة وكان أولى بقومي لو أطاعوني
تأتي الأمور على ما ليس في خلد ويخطئ الظن في بعض الأحيان
حتى إذا لم يعد في الأمر منزعة وأصبح الشر أمراً غير مكنون
أجبت إذ هتفوا باسمي ومن شيمي صدق الولاء وتحقيق الأظانين

وقال من قصيدة بعد عودته من المنفي، ومروره بقصر الجزيرة فتذكر عهد
إسماعيل:

هل بالحمى عن سرير الملك من يزع هيهات قد ذهب المتبوع والتبع
هذى الجزيرة فانظر هل ترى أحداً ينأى به الخوف أو يدنو به الطمع
أضحت خلاء وكانت قبل منزلة للملك منها لو فد العز مرتبع
فلا مجيب يرد القول عن نبأ ولا سميع إذا ناديت يستمع
ومنها:

زالوا فما بكت الدنيا لفرقتهم ولا تعطلت الأعياد والجمع
والدهر كالبحر لا ينفك ذا كدر وإنما صفوه بين الورى لمع
لو كان للمرء فكر في عواقبه ما شاب أخلاقه حرص ولا طمع

إسماعيل صبري

(1854 – 1923 هـ)



نشأته وحياته

ولد هذا الشاعر الفنان ودرج على ضفاف النيل، وشب في عهد إسماعيل عهد الحضارة والعمارة والأدب، فأدخل المدارس النظامية الحديثة، وتنقل في مدارجها من (المبتديان) إلى (التجهيزية) إلى (مدرسة الإدارة) حتى شارف الثامنة عشرة من عمره. وكانت بواكير النهضة الأدبية قد بدت في (روضة المدارس) وهي مجلة للطلاب ينشئها صفوة الكتاب في ذلك العهد كرفاعة بك، والشيخ حسين المرصفي أستاذ البارودي، وعبد الله فكري، وصالح مجدي؛ وكانت تصدر مرتين في الشهر حافلة بمختلف الموضوعات والمنتخبات من نثر ونظم، فكان صبري يديم النظر فيها، ويحاول الاقتباس منها والاقتداء بها، وله من ذات نفسه ملكة قوية تدفعه، وقريحة سخية ترفده، وذوق سليم يرشده، فنظم بعض القصائد تهئة للخديوي نشرها في هذه المجلة وعمره إذ ذاك ستة عشر عاماً. ثم رحل إلى فرنسا مع البعثة المصرية يستكمل حظه من العلوم في جامعة "إكس" فنال منها إجازة الحقوق سنة 1878م، لابس أثناء ذلك الحضارة الأوروبية، وتذوق الآداب الفرنسية، وصادفت مواهبه الغريزية هناك ريا من الجمال والعلم والفن فازدادت نمواً وخصباً. فلما رجع إلى مصر أنسل في طريق القضاء فقطع مراحل واحد فواحدة حتى أشرف

منه على الغاية. فخرج إلى الإدارة فتولى محافظة الإسكندرية ثم نقل منها إلى وكالة الحقانية فشغلها حيناً من الدهر، ثم نفّض يده جملة من خدمة الحكومة سنة 1907م لبلوغه سن التقاعد. ولزم داره يدارس أصحابه الأدب ويساجلهم القريض، ويرسل عواطف قلبه وخواطر فكره أنغاماً موقعة على قيثارة شعره. وكانت داره امتدى للشعراء ومثابة للأدباء يفدون إليها للسمر فينشدون أشعارهم فينقدها نقد الصيرف ويهذبها تهذيب المعلم، حتى نعتوه بالأستاذية، وأقروا له بالأولية. وظل علة هذه الحال إلى أن منى بداء القلب، فغالبه بضع سنين ثم صرعه سنة 1923 وهو في التاسعة والستين من عمره.

شعره

عَهِدْنَا بالشعراء الوجدانيين ينبغون في زهرة الشباب وربيع العمر حين تكون العواطف مشبوبة، والمشاعر مضطربة، والآمال موفورة، والحياة منضورة؛ ولكن صبري وهو شاعر وجداني محض لم ينبغ إلا وهو آخذ بمخنق الأربعين. فلم تتدفق قريحته في صباه كالبارودي، وإنما حفلت على مرور الزمان وطول المرانة وإدمان النظر. لم يكن شعره في الشباب إلا تقليداً لم يحكم، وتفكيراً لم ينضج، ومحاولة لم تتم. ولكن الله قدر رزقه أذنأً موسيقية وذوقاً سليماً⁽¹⁾ وطبيعة ناقدة، فصاغه من الألفاظ المتخيرة. والمعاني المبكرة، وسار وراء البحري ينشد الحب والموت والجمال والصدقة، ويهزج بتلك المقطوعات الغنائية التي شفت عن روحه، وكشفت عن طبعه، وأحلتها من أنداده محل الزعيم. كان صبري كما قال مطران أكثر ما ينظم لخطرة تخطر على باله من مثل حادثة يشهدها، أو خبر ذي بال يسمعه، أو كتاب يطالعه. وكان شديد النقد لشعره، كثي التبديل والتحويل فيه، حتى إذا استقام على ما

(1) قال الأستاذ الراجعي في مجلة المقتطف: لم يكن في مصر ممن يحسن ذوق البيان ويميز أقدار الألفاظ بعضها من بعض وألوان دلالتها كالبارودي وصبري وإبراهيم المويلحي والشيخ محمد عبده رحمهم الله جميعاً، فالبارودي يذوق بالسليقة، وصبري بالعاطفة والمويلحي بالظرف والشيخ بالبصيرة النفاذة. وذلك شيء ركه الله في طبيعة صبري ولم يحصله بالدرس أكثر مما حصله بالحس، ومن أجله كان يفضل البحري على غيره."

يريده ذوقه السليم من رقة اللفظ وفصاحة الأسلوب أهمله ثم نسيه. وكان ينظم المعنى الذي يعرض له في بيتين عادة إلى أربعة إلى ستة. وقلما يزيد على هذا القدر إلا حيث يقصد قصيدته وهو نادر.

نموذج من شعره

قال في الغزل ويقال إنه في الأنسة (مي):

يا لواء الحسن، أحزاب الهوى	أيقظوا الفتنة في ظل اللواء
فرقتهم في الهوى ثاراتهم	فاجمعي الأمر وصوني الأبرياء
إن هذا الحسن كالماء الذي	فيه للأنفاس ري وشفاء
لا تذودي بعضنا عن ورده	دون بعض، واعدلي بين الظماء
أنت يم الحسن فيه ازدحمت	سفن الآمال يزجيها الرجاء
يقذف الشوق بها في مائج	بين لجين: عناء وشقاء
شدة تمضي وتأتي شدة	تقتفيها شدة، هل من رجاء
ساعني آمال أنضاء الهوى	بقبول من سجاياك رخاء
وتجلى واجعلي قوم الهوى	تحت عرض الشمس بالحكم سواء
أقبلني نستقبل الدنيا وما	ضمته من معدات الهناء
واسفري، تلك حلى ما خلقت	لتواري بلثام أو خباء
واخطري بين الندامى يحلقوا	أن روضاً راح في النادي وجاء
وانطقى، يثثر إذا حدثنا	ناثر الدر علينا ما نشاء
وابسمي، من كان هذا ثغره	يملاً الدنيا ابتساماً وازدهاء
لا تخافي شططا من أنفاس	تعثر الصبوة فيها بالحياء
راضت النخوة من أخلاقنا	وارتضى آدابنا صدق الولاء
فلو امتدت أمانينا إلى	ملك ما كدرت ذاك الصفاء

أنت روحانية، لا تدعى
وانزعي عن جسمك الثوب بين
وأرى الدنيا جناحي ملك
وقال في ساعة الوداع:

أترى أنت خاذلي ساعة التوديع
ويك! قل لي متى أراك بجنبي
ساعة البين قطعة أنت قدت
لا تحيني، روعي الفداء لما
وقال:

أقصر فؤادي فما الذكرى بنافعة
سلا الفؤاد الذي شاطرته زمناً
وقال:

تمسي تذكرونا الشباب وعهده
تثب القلوب إلى الرؤوس إذا بدت
وقال في الصداقة:

إذا خانني خل قديم وعقني
تعرض طيف الود بيني وبينه
وقال:

يا موت خذ ما أبقت ال
بينني وبينك خطوة
وقال يناجي الله:

أن هذا الشكل من طين وماء
للملا تكوين سكان السماء
خلف تمثال مصوغ من ضياء

يا قلب في غدم نصيري
راضياً عن مكانك المهجور
للمحبين من عذاب السعير
حيك غداً من صحيفة المقدور

ولا بشافعة في رد ما كانا
حمل الصبابة فاخفق وحدك الانا

هيفاء مرهفة القوام فتذكر
وتطل من حدق العيون وتنظر

وفوقت يوماً في مقاتله سهمي
فكسر سهمي فانشيت ولم أرم

أيام والساعات مني
إن تخطها فرجت عني

يا رب أين ترى تقام جهنم	للظالمين غداً وللأشرار
لم يبق عفوك في السموات العلى	والأرض شبراً خالياً للنار
يا ري أهلني لفضلك واكفني	شطط العقول وفتنة الأفكار
ومر الوجود يشف عنك لكي أرى	غضب اللطيف ورحمة الجبار
يا عالم الأسرار حسبي محنة	علمي بأنك عالم الأسرار
أخلق برحمتك التي تسع الورى	ألا تضيق بأعظم الأوزار

أحمد شوقي

(المتوفى سنة 1923 م)



نشأته وحياته

ولد أحمد شوقي بن أحمد شوقي بالقاهرة ونشأ بها. أما أصله فقد سمع أباه " يرده على الأكراد فالعرب ويقول إن والده قدم هذه الديار يافعاً يحمل وصاة من أحمد باشا الجزار إلى والي مصر محمد علي باشا فأدخله في معيته، وظل يتقلب في المناصب السامية حتى أقامه سعيد باشا أميناً للجمارك المصرية⁽¹⁾.

ولقد كان أبوه متلافاً فأهلك ما ورث عن أبيه فكفلته في المهد جدته لأمه وكانت إحدى وصائف القصر في عهد إسماعيل. ولما بلغ الرابعة من عمره، أدخل في مكتب الشيخ صالح في حي الحنفي. ثم تلقى بعد ذلك دروسه الابتدائية والثانوية وتقدم إلى مدرسة الحقوق في سن باكراً ف قضى بها عامين. ثم عدل إلى قسم الترجمة الذي أنشئ فيها ف قضى به عامين آخرين نال بعدهما شهادتها النهائية. ثم ضمه الخديوي توفيق إلى معيته وأشخصه إلى فرنسا على

(1) مقدمة الطبعة الأولى لديوان (الشوقيات)

نفقته ليدرس الحقوق والآداب فدرس عامين في (منبلييه) وعامين في باريس. ثم عاد إلى منصبه في المعية الخديوية. وظل يتدرج في المناصب حتى تولى رئاسة القلم الأفرنجي في عهد الخديوي عباس الثاني. ونفق لدى هذا الأمير حتى كانت شفاعته عند ذوي الحكم لا ترد وإشارته لا تخالف. ولما شبت الحرب العالمية الأولى خلعت انجلترا بقوة الاحتلال الخديوي عن عرش مصر. ورأى أولو الأمر يومئذ أن يغادر شوقي البلاد، فاختار برشلونة من أعمال أسبانيا مقراً له ولأسرته ولم يعد إلى مصر إلا بعد أن عاد السلام إلى العالم. ولكن صلته الوثيقة بالنظام القديم، ومدائحه المروية في الخديوي المنفي، مازالت توحي بينه وبين القصر أسباب الثقة والتقريب. فانصرف الشاعر بإلهامه وأنغامه إلى الشعب، يذود عن حوضه، ويهتف بمجده، ويعرب عن شعوره، وينقل عن طبعه، ويتغنّى بجهاده، حتى حمدت له مصر والعرب هذه اليد، فأقاموا له في دار الأوبرا الملكية مهرجاناً عاماً لتكريمه اشترك فيه رجال مصر وأقطاب الدول العربية برعاية صاحب الجلالة الملك فؤاد الأول. ولم يزل شوقي مبهط الوحي والإلهام. وموضع الإكبار والإكرام، حتى انتقل إلى جوار الله في سنة 1932، فأقامت له وزارة المعارف وطائفة من أعيان الفضل والأدب، حفلة تأبين بدار الأوبرا الملكية دعت إليها أقطاب العلم والأدب في الأقطار العربية ورعاها الملك بنائب عنه.

شوقي الشاعر

يكاد النقاد يجمعون على أن شوقي كان تعويضاً عادلاً عن عشرة قرون خلت من تاريخ العرب بعد المتنبي لم يظهر فيها شاعر موهوب يصل ما انقطع من وحي الشعر، ويجدد ما أندرس من نهج الأدب.

كان شوقي ينقل شعره عن طبع دقيق، وحس صادق، وذوق سليم، وروح قوي، فيأتي به مطرد السلك محكم السبك لا يشوبه ضعف ولا لغو ولا تجوز ولا قلق. وهو كالمتنبي في أنه تصرف بين الناس فلا بس أولياءهم، وخالط دهماءهم، حتى عرف كيف يصف طبائعهم، ويصور منازعهم. وهو مثله في إرسال البيت النادر، والمثل السائر، والحكمة العالية، مستخلصاً ذلك مما

يسوق من معاني المدح أو الوصف أو الرثاء، دون أن يتوخاه أو يقصد إليه - وهو كذلك مثله في أن بيته يفيض بالمعنى البعيد المبتكر فيضاً يغرق فيه الذهن أحياناً، فلا يصل إلى قاع، ولا يرسى إلى ساحل. أما معانيه فكثيرها مخلوق وقليلها مطروق. وأما ألفاظه فأنماط من القول تختلف مادة وصنعاً باختلاف المواقف، وأكثرها عليه رونق طبعه، وسمة ظرفه، وعذوبة روحه. وقد يعنى طبعه أحياناً فيرسل شعره كما يجيء فيأتي بما لا يتفق مع فضله.

وشوقي محافظ في دينه ولغته وفنه، يكثر التردد لأسماء الأنبياء والخلفاء والكتب المنزلة، والأماكن المقدسة، ويؤثر النسج على منوال الفحول من شعراء بني العباس، والنظم في البحور الطويلة. وقلما ينظم في الأوزان المستحدثة أو ينوع القافية في القصيدة. على أن هذه المحافظة لم تمنعه من تكميل نقص الشعر العربي، فقد ظل شعرنا إلى عهده غنائياً (Jyrique) يستمد الشاعر من طبعه، وينقله عن قلبه، حتى جاء هو فنظم ما يشبه الشعر القصصي (Epique) في طول النفس ووطنية الموضوع وعمومية الحادث، كأرجوزته (دول العرب) وقصيدته في (وادي النيل).

ثم عالج الشعر التمثيلي، فنظم رواياته المعروفة: مصرع كليوباترة، ومجنون ليلي، وقمبيز، وعلي الكبير، وعنترة، والست هدى، فكان بهذا التجديد الشاعر العربي الكامل. وقد جمع شعره في ديوان يقع في أربعة أجزاء. له غيره في الشعر كتاب (عظماء الإسلام) وجملة من القصائد للأطفال والأغاني.

ولشوقي نثر مسجوع لا يختلف عن الشعر إلا في الوزن، جمع طائفة كبيرة منه في كتاب سماه (أسواق الذهب). وله من النثر المرسل قصص منها: لاياس، وورقة الآس، ومذكرات بثناءور، وأميرة الأندلس:

نموذج من شعره

قال من قصيدة يصف فيها دمشق:

أمنت بالله واستثيت جتته دمشق روح وجنات وريحان

قال الرفاق وقد هبت خمائلها الأرض دار، لها (الفيحاء) بستان

جری وصفق یلقانا بها (بردی) كما تلقاك دون الخلد رضوان
 دخلتها وحواشيها زمردة والشمس فوق لجين الماء عقبان
 والخور في (دمر) أو حول (هامتها) حور كواشف عن ساق وولدان
 و (ربوة) الواد في جلباب راقصة الساق كاسية والنحر عريان
 والطير تصدح من خلف العيون بها وللعيون كما للطير ألحان
 وأقبلت بالنبات الرض مختلفاً أفوافه فهو أصباغ وألوان
 وقد صغى (بردی) للريح فابتردت لدى ستور حواشيهن أفنان
 ثم انثت لم يزل عنها البلال ولا جفت من الماء أذيال وأردان
 وقال يصف رحلته إلى الأندلس من قصيدة طويلة:

اختلاف النهار والليل ينسى إذ كرا لي الصبا وأيام أنسي
 وصفا لي ملاوة من شباب صورت من تصورات ومس
 عصفت كالصبا اللعوب ومرت سنة حلوة ولذة خاس
 وسلا مصر: هل سلا القلب عنها أو أسا جرحه الزمان المؤسي
 كلما مرت الليالي عليه رق والعهد في الليالي تقسي
 مستطار إذا البواخر رنت أول الليل أو عوت بعد جرس
 أحرام على بلبله الدوح حلال للطير من كل جنس
 ومنها:

كل دار أحق بالأهل إلا في خبيث من المذاهب رجس
 ومنها:

وطني لو شغلت بالخلد عنه نازعتني إليه في الخلد نفسي
 شهد الله لم يغب عن جفوني شخصه ساعة ولم يخل حسي

محمد حافظ إبراهيم

(1870 - 1932 م)



نشأته وحياته

ولد محمد حافظ إبراهيم في ديروط من أعمال مديرية أسيوط حوالي سنة 1870 إذ كان أبوه إبراهيم فهمي من المهندسين المشرفين على بناء قناطرها. ولما كان عمره ستين توفي أبوه فقيراً في ديروط فانتقلت به أمه إلى القاهرة فكفله خاله وأدخله (المدرسة الخيرية) فمدرسة المبتديان فالمدرسة الخديوية. ثم انتقل خاله إلى طنطا فنقله معه؛ ف قضى فيها بضع سنين متبطلا يزجى فراغه بالقراءة، ويدفع ملاله بالقريض.

ولم يستطع خاله لسبب ما أن يجلو عنه غمة اليأس وذلة اليتيم، فكان لا يفتأ متبرماً بالعيش، متأففاً بالناس، متجنباً على القدر، لا ينشئ الشعر إلا في ذلك. ثم دفعته الحاجة إلى مكاتب المحامين فتبلغ بالعمل فيها حيناً، حتى أسعفته الفرص فدخل المدرسة الحربية، وخرج منها ضابطاً بالجيش. ثم نقل إلى الشرطة، ثم أعيد إلى الجيش، وأشخص إلى السودان في الحملة المصرية

بقيادة كتشنر فبقى هناك زمنا كان لا ينفك فيه متبرما متمرداً، يلح في العودة إلى مصر. فلما أخفق مسعاه ثار مع فئة من الضباط سنة 1899، فحوكم وأحيل إلى الاستيداع، ومنه إلى المعاش.

عاد حافظ كما كان يضطرب في الحياة المبهمة، لا يستريض لعمل، ولا يستقر على أمر، ولا يتشوف إلى غاية، وإنما يضطرب نهاره من قهوة إلى قهوة، ويتقلب ليله من مجلس إلى مجلس، ويفيء إلى ظل الإمام محمد عبده فيتتبع بجاهه ويعيش على رفده، ويغشى مع ذلك أبهاء النعمة، يسامر أهلها بعذب حديثه، وينادهمم برقيق شعره. وفي سنة 1911 عينه أحمد حشمت باشا وزير المعارف يومئذ رئيساً للقسم الأدبي بدار الكتب المصرية، ثم وكيلاً للدار، وظل في هذا المنصب حتى خرج إلى التقاعد في صدر سنة 1932 وتوفي صيف السنة نفسها.

حافظ الأديب

عاش حافظ بحكم طفولته الشاردة المهملة عيش الكسل والتبطل، لا يمشل إلى عمل، ولا ينشط إلى عمل، كدأب الناس قديماً من أضراب مسلم ابن الوليد، وأبي نواس، ممن عاشوا صنائع للملوك، وحمائل على الجوائز، ووسائل للهو.

كان مبدأه الأدبي مبدأ اليوم، كما كانت حياته المادية حياة الساعة. رأى الآمال تتهافت حيناً من الدهر على أريكة الخديوية في مصر وعرش الخلافة في الآستانة، فجرى لسانه بالشعر المطبوع، في مدح عباس، وتمجيد عبد الحميد. ثم اتصل بالإمام محمد عبده وشيعته من سراة البلاد، وشيوخ الأمة، ولهم يومئذ في الإنجليز رجاء موصول وظن حسن، فصدرت عنه هذه الفترة قصائد في رثاء الملكة فيكتوريا، وتتويج الملك إدوارد السابع، ووداع اللورد كرومر، عبر بها عن الرأي الارستقراطي في ذلك الحين. ثم خلص للشعب. فلابس دهماءه، وخالط زعماءه، واندفع بقوة الوطنية الدافقة الشابة إلى لواء مصطفى كامل فمزح شكواه بشكوى البلاد، وضرب على أوتار القلوب أناشيد

الجهاد، ونظم أُماني الشباب من حبات قلبه، وترجم أحاديث النفوس ببيان شعره.

عكف منذ شب على دواوين الشعر، وأجزاء (الأغاني) يتحللها ويتمثلها ويعاود النظر فيها، حتى بلغ من مختار الرواية ومصطفى الكلام ما لا غاية بعده. ثم قنع من فروع الثقافة الأخرى بتتف من المسائل الأولية ينقلها عن السماع ويأخذها من الصحف إذا ظن أنها تدخل بوجه من الوجوه فيما يعينه من ابتكار الأسماء وصوغ القريض.

حافظ الشاعر

صياغة حافظ هي موهبته الأولى ومزيتة الظاهرة. وهو في ذلك ثاني الخمسة⁽¹⁾ الذين تيقظت على دعوتهم نهضة الشعر، وتجددت على صنعتهم بلاغة القصيد. ولعله انفرد عن هؤلاء جميعاً بالصدق في تعبيره عن هموم قلبه، وتفسيره لأُماني شعبه، وتصويره لمساوئ عصره. أما الروح والموضوع فأصداء منبعثة من الماضي في فريادته، وآراء مقتبسة من الحاضر في اجتماعياته، كان إذا تهيأ للشعر عمد إلى الآراء التي تحتاج حينئذ في النفوس، وتستفيض مع المجامع، وتتردد في الصحف، فيجمعها في بالع، ويديرها في خاطره، ثم يكون همه بعد ذلك أن يصوغها فيحسن الصوغ، ويسبكها فيجيد السبك، وتقرأ بعد ذلك أو تسمع فإذا نسق مطرد وأسلوب سائع، وشيء كأنك سمعته من قبل ولكن عليه طابع حافظ ووسمه⁽²⁾.

نموذج من شعره

قال على لسان اللغة العربية تنعي حظها بين أهلها:

رجعت لنفسي فاتهمت حصاتي وناديت قومي فاحتسبت حياتي
رموني بعقم في الشباب وليتني عقلت فلم أجزع لقول عداتي

(1) البارودي وصبري وشوقي وحافظ ومطران.

(2) راجع ما كتبناه عنه في وحي الرسالة الجزء الأول وفي أصول الأدب (شوقي وحافظ).

ولدت ولما لم أجد لعرائسي
وسعت كتاب الله لفظاً وغاية
فكيف أضيق اليوم عن وصف آله
أنا البحر في أحشائه الدر كامن
فيا ويحكم أبلى وتبلى محاسني
فلا تكلوني للزمان فإنني
أرى لرجال الغرب عزاً ومنعة
أتوا أهلهم بالمعجزات تفناً
ومن خمرياته:

أوشك الديك أن يصيح ونفسي
يا غلام! المدام والكاس والطاس
أطلق الشمس من غياهب هذا الدن
وأذن الصبح أن يلوح لعيني
وإدع ندمان خلوتي وائتناسي
واسقنا يا غلام حتى ترانا
خمرة قيل إنهم عصروها
وقال من قصيدة (غادة اليابان) :

صاح مني العزم والدهر أبى
أخطأ التوفيق فيما طلبا
كانت العلياء فيه السببا
أوثر الحسن عقت الأديبا
لا تلم كفي إذا السيف نبا
رب ساع مبصر في سعيه
مرحباً بالخطب يبلوني إذا
عقني الدهر ولولا أنني

إيه يا دنيا اعبسي أو فابسمي	لا أرى برقك إلا خلب
أنا لولا أن لي من أمتي	خاذلا ما بت أشكو النوبا
أمة قد فت في ساعدها	بعضها الأهل وحب الغربا
تعشق الألقاب في غير العلا	وتفدي بالنفوس الرتبا
وهي والأحداث تستهدفها	تعشق اللهو وتهوى الطربا
لا تبالي لعب القوم بها	أم بها صرف الليالي لعبا

جميل صدقي الزهاوي

(1862 - 1936 م)



نشأته وحياته

ولد جميل صدقي الزهاوي في يوم الأربعاء الثامن عشر من شهر يونيو سنة 1863م ببغداد لأبوين كرديين كريمين، ثم نشأ في أسرة تميزت بالدين والفقه والأدب. فقد كان أبوه محمد فيضي الزهاوي مفتياً لدار السلام وأخوه فقيهاً من فقهاءها. وكان أخوه - كما حدثني جميل - لا يتذوق الأدب، فكان يزوده عن رواية الشعر، ويصده عن دراسة اللغة، ويأبى عناده هو، وتسامح أبيه، إلا أن يديم النظر في الأدب، ويروض القريحة على القريض. كان هم أخيه وأمل أبيه أن يستقيم على عمود أسرته فيكون صاحب قضاء وفقه، ولكنه استقام على محتوم طريقته فكان صاحب شعر وفلسفة. وكان العراق أيام الزهاوي تركي السلطان سني الحكومة، فالتعليم الدني فيه كان تابعاً في لغته وطريقته وغايته لسياسة الأجنبي وهواه؛ فلم يخرج إلا رجال جيش أو رجال إدارة. أما التعليم الديني فظل في صحون الجوامع، عربي اللسان، حر النزعة، طليق الفكر، فتثقف الزهاوي بهذه الثقافة. تنفست على أعصابه الشاعرة أمواج العروبة ترسلها على بغداد البوادي الملهمة. ثم نزعته عرف العم والخال من الكردية فجاهد وجالد وغامر. ثم ابتلى وهو في الخامسة والعشرين من عمره

بداء النخاع الشوكي لازمه بقية حياته. ورمى بعد ذلك بالشلل في رجله فبرم واكتأب وتشاءم. ثم منى في عصره بفساد السلطان. واستطالة الجهل، وانحلال الخلق، فدفعته هذه العوامل كلها إلى مواقف المصلحين من الإنذار والنصيحة.

لم يخلد الزهاوي إلى التبطل كأكثر أهل الشعر، وإنما غامر في خطير الأمور، فعين في بغداد عضواً في مجلس المعارف، ثم مديراً لمطبعة الحكومة، ثم محرراً بالجريدة الرسمية، ثم انتخب عضواً في محكمة الاستئناف. ودعاه الخليفة حين نبه ذكره إلى الآستانة فحرك فيها لسان النقد وأقضى بها مضاجع التجسس، فانقض أمره وساء مقامه. ولما أعلن الدستور العثماني عين رئيساً لقسم الفلسفة الإسلامية في (المكتب الملكي) ثم مدرساً للأدب العربية في (دار الفنون)، ثم عاد إلى بغداد فعين أستاذاً للشريعة في مدرسة الحقوق. ثم انتخب نائباً عن العراق في (مجلس المبعوثان)، وهو في خلال ذلك كله لا يفتر ليلة عن الشعر والقراءة، ولا يكل نهاره عن الحديث والكتابة. حتى غلب الترك في الحرب العالمية الأولى وقام عرش فيصل في العراق فكان الشأن لأصحاب الجيش وأقطاب السياسة أما الزهاوي وأمثاله من رجال الفكر والشعر فاتخذوا طريقهم على الهامش، اللهم إلا زمناً يسيراً عينه فيه الملك فيصل الأول عضواً بمجلس الأعيان العراقي، ثم تخلص عنه لجرأة شعره وصراحة رأيه، فكان لا ينفك شاكياً ذلك الحرمان متحاملاً على نفسه مع انسراق القوى واستحكام العزل، حتى توفاه الله ببغداد في أواخر فبراير من عام 1936.

الزهاوي العالم

كان الزهاوي في صدر شبابه ينظر في العلوم الطبيعية والفلسفية، ووسيلته إلى ذلك ما ترجم من المقالات في الكتب والمجلات، لأنه لم يعرف من اللغات إلا العربية والفارسية والتركية والكردية، وكلها لا تصل فكر الإنسان بالثقافة الحديثة. ومع ذلك استبطن دوائل هذه العلوم بعقله النافذ حتى ألف كتاب (الكائنات) في الفلسفة، وكتاب (الغاذبية وتعليلها) في الطبيعة ذهب فيهما مذهباً خاصاً خالف به أقطاب العلم وجهابذة النظر كقوله: إن علة

الاجاذبية ليست جذب المادة للمادة، وإنما هي دفعها إياها بسبب ما تشعه من الالكترونات وسواء أنهض دليله أم دحض فإنه يدل على النظر الثاقب والفكر المستقل.

الزهاوي الشاعر

الزهاوي شاعر من شعراء الفكرة، له البصيرة الناقدة، والفتنة النافذة، وليس له الأذن التي تموسق، ولا القريحة التي تصنع. فاللفظ قد لا يختار، والوزن قد لا يتسق، والأسلوب قد لا ينسجم، ولكن الفكرة الحية الجريئة تعج بين الأبيات المتخاذلة عجيج الأمواج المزبدة بين الشواطئ المنهارة: وكان الزهاوي كشوقي حريصاً على متابعة العصر ومسايرة التطور. ومنشأ هذا الحرص فيهما طبع مرن يطلب التجدد، وحس مرهف يأنف التخلف. ويزيد الزهاوي أن الفخر يزهاه والته يذهب به فيحب الثناء ويبغض النقد، فهم لفرقة من صفة القدم يسبق الشباب إلى التجديد، ولنفوره من معرة الجمود يذهب بالرأي إلى التطرف، ولطمعه في نباهة الذكر يجاري ميول الخاصة ويعارض هوى العامة. ومن ثم كان أكثر شعره تشنيعاً على الاستبداد بمهاجمة أهل الحكم، وزرابة على الجمود بمحاربة أهل الدين، وتحقيراً للتأخر بمصادمة مألوف الأمة.

نموذج من شعره

قال من قصيدة بعنوان الجهل والعلم:

يريد أناس فرقة الشعب جهدهم	فلا عطست باليمن تلك المعاطس
ونحن الآلي ما فرق الدين بيننا	وإن كثرت بعض الأوان الدسائس
فعشنا وعاشت من عصور كثيرة	جوامعنا في جنبهن الكنائس
ولا يعدم الإنسان طول حياته	صديقاً يواسي أو عدواً يعاكس
ولكننا عشنا جميعين أعصرأ	كلانا أخو صدق كلانا مؤانس
وإننا سنجيا والعمائم عندنا	لها حرمة محمودة والقلانس

سنحيا نعم في وحدة عربية
وتغرس في قلب الشبيبة جرأة
نساعدنا فيما نحاول دولة
قول لشعري أيها الشعر صل وجل
أغاظك أن الجهل في الناس جاهر
يمارس شعري اليوم إصلاح أمة
ستحملك يا شعري فأنذر حكومة
حكومة عدل مهد الأرض حكمها
وليس لها في المغربين معارض
ومن خاطراته:

إن الصراحة تغني
أخو الحجا قبل أن
وعند من هو غر
كم جامع لكنوز
وقد تموت فتاة
لا تجبنن فليس الـ
إننا نعیش بعصر

ما ليس تغني الرموز
يحمل الأداة يـروز
يجوز ما لا يجوز
يفنى وتبقى الكنوز
ولا تموت عجوز
جبان شيئاً يجوز
فيه الجسور يفوز

* * * * *

لقد مشيت بليل
فما بعدت كثيراً
من لي بماء براد

داج بغير دليل
حتى ضللت سبيلي
به أبـل غليلي

طلبـت شـيئاً قـليلاً	فـلـم أفـز بالقـليل
وكم صـحـبـت خـليلاً	فـكـان غـيـر خـليـل
كـل الأـحـبـة أـعـدائـي	عـنـد خـطـب جـليـل
لا خـيـر لـي مـن بـلـادـي	وأـسـرـتـي وقـبـيـلـي

خاتمة

في الاستشراق والمستشرقين

يراد بالاستشراق اليوم دراسة الغربيين لتاريخ الشرق وأممه ولغاته وآدابه وعلومه وعاداته ومعتقداته وأساطيره؛ ولكنه في العصور الوسيطة كان يقصد به دراسة العبرية لصلتها بالدين، ودراسة العربية لعلاقتها بالعلم؛ إذ بينما كان الشرق من أدناه إلى أقصاه مغموراً بما تشعه منائر بغداد والقاهرة من أضواء المدينة والعلم؛ كان الغرب ممن بحره إلى محيطه يعمه في غياهب من الجهل الكثيف والبربرية الجموح، وكان حظه من الثقافة يومئذ ما تضمنه حصون الأمراء المتوحشين من الكتب، وما يعلمه بعض الرهبان المساكين من قشورهم العلم. وانقضى القرنان التاسع والعاشر للميلاد وأولئك الأمراء في قصورهم يتبجحون بالأمية ويرتعون في الدماء، وهؤلاء الرهبان في دورهم يمحون الكتابة من روائع الكتب لينسخوا على صفحاتها المحوكة كتب الدين. حتى أزال الله الغشاوة عن بعض العيون، فرأوا من وراء هذا الظلام الداجي بقعة من المغرب تسطع فيها شمس المشرق. فلما تبينوا أن البقعة هي جزء من أسبانيا، وأن النور قبس من نور بغداد، استيقظ في نفوسهم طموح الكمال الإنساني، فطلبوا العلم فلم يجدوه إلا عند العرب.

ففي سنة 1930م أنشئت في طليطلة مدرسة للترجمة تولاهها الأسقف ريموند، أخذت تنقل جلائل الأسفار العربية إلى اللاتينية، وأعانهم على ذلك اليهود، فبعثت هذه الترجمة في أوروبا الخامدة شعوراً لطيفاً، وروحاً طيبة. وتضافرت على هذا المجهود النبيل قواعد أخرى للترجمة طوال القرون الثاني عشر والثالث عشر والرابع عشر، حتى بلغ ما ترجموه من العربية يومئذ ثلاثمائة كتاب كما أحصاها الدكتور (لكلارك) في كتابة تاريخ الطب العربي، وأحصاها غير أربعمائة. وكان أكثر ما ترجم في هذه العهود كتب الرازي وأبي الزهراوي وابن رشد وابن سينا، وما نقل إلى العربية من اليونانية لجالينوس وأبقراط وأفلاطون وأرسطو وإقليدس الخ.. وظلت هذه الكتب المنقولة منهاجاً للتعليم

في جامعات أوروبا خمسة قرون أو ستة واحتفظ بعضها بقوته وقيمته حتى القرن التاسع عشر.

قال المؤرخ الإنجليزي ملر في كتابه فلسفة التاريخ: "إن مدارس العرب في أسبانيا كانت هي مصادر العلوم، وكان الطلاب الأوريون يهرعون إليها من كل قطر يتلقون فيها العلوم الطبيعية والرياضية وما وراء الطبيعة. وكذلك أصبح جنوبي إيطاليا منذ احتله العرب، واسطة لنقل الثقافة إلى أوروبا. وممن ورد تلك المناهل الراهب (جربرت الفرنسي)، فإنه بعد أن ثقف علوم اللاهوت في (أورباق) مسقط رأسه جاب عقاب البرانس والوادي الكبير حتى ورد إشبيلية، فدرس فيها وفي قرطبة الرياضيات والفلك ثلاث سنين. ثم ارتد إلى قومه ينشر فيهم نور الشرق وثقافة العرب فرموه بالسحر والكفر، ولكنه ارتقى إلى سدة البابوية سنة 999م باسم سلفستر الثاني. كذلك تخرج على علماء إيطاليا بالعربية، وعدوها لغة الأدب العالي، وأوصى قومه الراهب روجر بكون الإنجليز بتعلم اللغة العربية وقال: "إن الله يؤتي الحكمة من يشاء ولم يشأ أن يؤتيها اللاتين، إنما آتاها اليهود والإغريق والعرب".

على أن الاستشراق لم يبق محصوراً في دائرة الانتفاع بعلوم العرب ومدينة الشرق. وإنما خرج عنها إلى أغراض تجارية أو استعمارية أو دينية، فأقبلت الأمم الأوروبية القوية بحكم هذه الدوافع تتنافس في تعرف الشرق وارتياذ أقطاره، وكشف آثاره، وفتح كنوزه، وإحياء أدبه، وطبع كتبه، وإبراز فنه، ثم صار الاستشراق فناً قائماً بنفسه، يطلب به الوقوف على لغات الشرق ميتها وحيها، والاطلاع المباشر على آدابها وفنونها.

وفي سبيل ذلك أسسوا المطابع⁽¹⁾ وأنشئوا المكتبات⁽²⁾.

(1) من أول ما طبع في العربية (المجموع المبارك) والتاريخ لابن العميد المعروف بالمسكين، وكتاب (تاريخ الدول) لابن العبري و (نظم الجواهر) لسعيد بن البطريق، ثم تاريخ أبي الفداء ومقامات الحريري.

(2) كان في مكتبات أوروبا، مطلع القرن التاسع عشر، مائتان وخمسون ألف مجلد، موزعة في خزائن لينجراد وباريس وبرلين ولندن ولبرنج ومولخ وفينا وليدن واكسفورد وأدمبرج ودبلن وكمبرج والاسكوريال، وميلانو وروما، وبرستون الخ.

وألفوا الجمعيات⁽¹⁾ وأقاموا المؤتمرات⁽²⁾ وأصدروا المجلات، وجمعوا المخطوطات، ونشروا نفايس الكتب، وعلقوا عليها الحواشي وذيّلوها بالفهارس المختلفة للأسماء والموضوعات والأمكنة، ثم كتبوا البحوث القيمة في تحقيق الألفاظ، وتحرير الصول، وتصحيح الأخطاء، وكشف المجهول على الأسلوب العلمي الصحيح، والمنهاج المنطقي الحديث، فكانوا في ذلك قدوة لمعلمي اللغة ومؤرخي الأدب من العرب، في تحضير المادة، وتنظيم البحث، وتوخي الدقة، وتحري الصواب، وتقصي الفروع.

(1) هي الجمعيات الآسيوية وأقدمها الجمعية الآسيوية التي أنشئت في بنافيا عاصمة جاوة سنة 1781 ثم الجمعية الآسيوية البنغالية التي أسسها السير وليم جونز في كلكتا عام 1784 ونشرت بحوثاً من عشرين مجلداً ظهرت فيما بين سنة 1788، وسنة 1836، ولها (مجلة الجمعية الآسيوية للبنغال) صدر عددها الأول سنة 1832 ولا تزال تصدر.

وفي 15 من مارس ألفت في لندن لتشجيع الدراسات الشرقية يرعاها ملك إنجلترا. ومن أعضاءها النابيهين: مرجليوث، وبراون، ودنس روس، ونيكلسون، وجب، وفرمر. وفي سنة 1820 أنشأ المستشرقون الفرنسيون الجمعية الآسيوية تحت رعاية الدوق دورليان وسلفستر دساي واتخذوا لها مجلة عنوانها (الجريدة الآسيوية) Le Journal Asiatique نشرت فصلاً قيمة في العرب والعربية. وكذلك حذت أمريكا وروسيا والنمسا وإيطاليا وبلجيكا وهولندا والدنمارك وإنجلترا وفرنسا فأنشأوا الجمعيات وأصدروا المجلات، وتكاتفوا جميعاً على إظهار فضائل الإسلام وإعلان مفاخر العروبة راجع كتاب (المستشرقون) للأستاذ نجيب العقيلي.

(2) أقام المستشرقون تسعة عشر مؤتمراً في أمهات مدن الغرب أولها أقيم في باريس سنة 1873، وآخرها أقيم في باريس سنة 1908، وكانوا يدعون إلى كل مؤتمر أقطاب الآداب الشرقية في أقطار العالم يدلون فيها بما أعدوا من البحوث الأدبية والتاريخية والأثرية غيرها، وكان لمصر حظ موفور من جهود هذه المؤتمرات وجهودها.

أشهر المستشرقين

اشتهر من المستشرقين الفرنسيين:

فيتير Veter المتوفى 1967، وهو طبيب الدوق دورليان، نقل إلى الفرنسية تاريخ ابن المكين، وتيمور لنك لابن عريشاه، وعلم المنطق، والأمراض العقلية لابن سينا، واللامية للطغرائي.

وهربلو Herblot المتوفى سنة 1996 كان أميناً لسر لويس الرابع عشر وأستاذاً للعربية في معهد فرنسا، ألف (المكتبة الشرقية) وهو معجم جامع لما في الشرق من فلسفة وأدب واجتماع.

وسديو Sedillot. المتوفى 1832 كان متخصصاً في علم الفلك عند العرب وقد نشر نبذة في الهندسة لابن الهيثم 1824 و (علم الرياضيات وجامع المساوي والغايات) في الآداب الفلكية لأبي الحسن علي.

وكوسين دي برسفال deparceval المتوفى 1825 نقل تاريخ صقلية تحت حكم المسلمين، ونشر المعلقات السبع وأمثال لقمان. وطبع الجداول الفلكية من الزنج الحاكمي، ومقامات الحريري، وترجم الجزء الناقص من ترجمة جلان لألف ليلة وليلة.

وسلفستر دساسي المتوفى سنة 1838، برع في اللغتين العربية والفارسية وتخرج عليه فيهما طائفة من أعلام الاستشراق في الغرب. ألف في العربية كتاباً سماه (الأنيس المفيد للطلاب المستفيد) اختار فيه صفوة من المنظوم والمنثور، وكتب شرحاً وجيزاً على مقامات الحريري، ونشر كليلة ودمنة وألفية ابن مالك ورحلة عبد اللطيف البغدادي. ثم ألف ثلاث مذكرات قدمها إلى المجمع عن مصر الإسلامية إلى الاحتلال الفرنسي.

ومارسل: المتوفى سنة 1854 كان مترجم الحملة الفرنسية في مصر، ألف كتاباً في وصف مصر واختار طائفة من الشعر العربي، وله مقالات قيمة عن ابن ميمون، وابن سينا، والضامري، والقزويني. نشرها في المجلة الآسيوية.

وكرمير المتوفى سنة 1857 أخذ العربية عن دساس، وانتخب عضواً في المجمع اللغوي الفرنسي ثم محرراً في المجلة الآسيوية. نقل إلى فرنسا بعض

كتاب السلوك للمقريزي، ونشر مقدمة ابن خلدون في ستة أقسام فرنسية عربية. ومنتخبات من أمثال الميداني، وكتاب الروضتين لابن شامة. وله أبحاث في المجلة الآسيوية عن النبطيين والعباسيين والفاطميين. وكتاب الغاني، وذوق الشرقيين في الكتب، وحياة المسعودي وآثاره.

ومن أشهر المستشرقين الألمانين:

فربتاغ المتوفى سنة 1861 تلقى العربية عن دساسي، وعين أستاذا لها في كلية بونه. نقل ديوان الحماسة لأبي تمام بشرح التبريزي، وزيادة الطلب في تاريخ حلب لابن النديم، وفاكهة الخلفاء لابن عربشاه وقد وضع معجما عربياً لاتينياً في أربعة أجزاء.

وجوستاف فملوجل المتوفى سنة 1870 نشر كشف الظنون، والفهرست لابن النديم، ومؤنس الوحيد للثعالبي، وطبقات الحنفية لقطلوبغا، والقرآن. وفلبشرو المتوفى 1888، ألف في الآداب الشرقية كتباً كثيرة، ونشر تفسير البيضاوي والمفصل للزمخشري.

وفردنان وستفيلد المتوفى سنة 1890، نشر طبقات الحفاظ للذهبي، وسيرة ابن هشان، ووفيات الأعيان لابن خلكان، ومعجم البلدان لياقوت. ونلدكي المتوفى سنة 1931 ألف في الألمانية تاريخ القرآن، وتاريخ عروة ابن الورد، وبحثاً في الشعر الجاهلي، وبحثاً في المعلقات السبع وغير ذلك.

وممن اشتهر من الإنجليز:

أدوردين المتوفى سنة 1874 عاش بمصر صدر شبابه ثم وضع كتاباً في وصف مصر، وكتاباً آخر في عادات المصريين وشماثلهم ترجم أكثره في مجلة الرسالة وطبع مجموعاً في مطبعتها سنة 1949، ومعجماً عربياً إنجليزياً، ثم ترجم ألف ليلة وليلة إلى الإنجليزية. ووليم موير المتوفى سنة 1905 ومن مؤلفاته حياة النبي، والتاريخ الإسلامي، وتاريخ الخلافة؛ وهي من المراجع المعتمدة في الجامعات الإنجليزية والهندية.

وممن اشتهر من الإيطاليين:

دافيد ستتالانا المتوفى سنة 1931 ولد في تونس ودرس في روما، وكان له بالمذهب المالكي والشافعي سلم واسع. عين في سنة 1910 أستاذاً للفلسفة بالجامعة المصرية، فألقى بها محاضرات قيمة.

ونلبنو المتوفى سنة 1938، وقد دُعي في سنة 1909 لإلقاء محاضرات في تاريخ أدب اللغة العربية فأفاد بخبرته وطريقته كثيراً من الناس. وقد عنى بالمسائل الجغرافية والفلكية عند العرب.

واغناطيوس جويدي المتوفى سنة 1925 وقد انتدبته الجامعة المصرية كذلك سنة 1908 للتدريس فيها فألقى دروسه باللغة الفصحى.

وإذا أردت استقصاء هذا الموضوع فاقراً كتاب (المستشرقين) للأستاذ نجيب العقيقي فقد ألم بتاريخ الاستشراق إماماً ينقح الغلة ويغني عن المزيد.

فهرس

35	نماذج من النثر الجاهلي	5	مقدمة التحقيق
35	من الأمثال	8	ترجمة المؤلف
36	من الحكم	12	عملنا في الكتاب
36	الخطب	13	مقدمة
37	من الوصايا	14	أدب اللغة
39	الفصل الثالث: الشّعر	15	تاريخ الأدب
39	تعريفه وأوليته	16	فائدة تاريخ الأدب
41	الشعر والعرب	16	تقسيم تاريخ الأدب
42	أنواع الشعر وأغراضه	18	العرب ومواطنهم وطبقاتهم
44	مميزات الشعر الجاهلي		وقبائلهم المشهورة
44	الرواية والمعلقات	21	أحوال العرب الاجتماعية
46	نماذج من الشعر الجاهلي		والسياسية والدينية والعقلية في
57	الفصل الرابع: الشعراء الجاهليون		الجاهلية
	وطبقاتهم	25	الباب الأول: العصر الجاهلي
59	امرؤ القيس	25	الفصل الأول: نشأة اللغة العربية
59	نشأته وحياته	29	الفصل الثاني: النثر
60	شعره	30	مميزات النثر الجاهلي
61	نماذج من شعره	30	الخطابة
62	النابعة الذبياني	21	الخطباء
62	نشأته وحياته	21	قس بن ساعدة الإيادي
63	شعره	33	عمرو بن معد يكرب الزبيدي

80	نشأته وحياته	63	نموذج من شعره
80	شعره	65	زهير بن أبي سلمى
81	نموذج من شعره	65	نشأته وحياته
82	ليبد بن ربيعة	66	شعره
82	نشأته وحياته	66	تحليل موجز لمعلقته
83	شعره	69	الأعشى
83	نموذج من شعره	69	نشأته وحياته
85	حاتم الطائي	69	شعره
85	نشأته وحياته	70	نموذج من شعره
86	أخلاقه	71	عترة العبسي
87	شعره	71	نشأته وحياته
87	نموذج من شعره	71	شعره
89	أمية ابن أبي الصلت	72	نموذج من شعره
89	نشأته وحياته	74	طرفة بن العبد
89	شعره	74	نشأته وحياته
90	نموذج من شعره	74	شعره
91	نشأة الخط في بلاد العرب	75	تحليل موجز لمعلقته
93	الباب الثاني عصر صدر	77	عمرو بن كلثوم
	الإسلام والدولة الأموية	77	نشأته وحياته
93	الأدب الإسلامي	78	شعره
93	عوامله، مصادره، أنواعه، طبائعه	78	نموذج من شعره
99	مصادر الأدب الإسلامي	80	الحارث بن حلزة
99	1- القرآن الكريم		

566	تاريخ الأدب العربي	
أسلوبه	100	جرير:
إعجازه	102	مذهب الأخطل والفرزدق وجرير
لغته	102	في الهجاء:
أغراضه ومعانيه	103	شعر الشيعة:
تأثيره	103	شعر الخوارج:
قراءاته	104	نماذج من الشعر الأموي
جمعه وتدوينه	105	الشعراء وطبقاتهم
قبس من نوره	106	الشعراء المخضرمون
2 - الحديث	108	كعب بن زهير
أسلوب الحديث	110	نشأته وحياته:
3- الشعر الجاهلي	112	شعره:
4- الأدب الأجنبي	112	نموذج من شعره:
أنواع الأدب الإسلامي	115	الخنساء
الشعر	115	حياتها
الشعر في عهد الرسول:	115	شعرها
الشعر في عهد الراشدين:	116	نموذج من شعرها
نظرة عامة	120	حسان بن ثابت
في العراق:	120	نشأته وحياته
في الحجاز:	120	شعره
في الشام:	121	نموذج من شعره
خصائص الشعر في العراق	123	الحطيئة
الأخطل:	123	نشأته وحياته
الفرزدق:	124	شعره

189	الخطابة	168	نموذج من شعره
190	محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم	170	الشعراء الإسلاميون
190	مولده ونشأته وبعثته	170	عمر ابن أبي ربيعة
192	صفته	171	نشأته وحياته
192	فصاحته	171	شعره
193	أثر الحديث في اللغة والأدب	174	نموذج من شعره
194	عمر بن الخطاب	174	الأخطل
194	نشأته وحياته	175	نشأته وحياته
195	صفاته ومواهبه	175	شعره
196	نموذج من عهوده وخطبه	177	نموذج من شعره
197	ومن خطبة له رضي الله عنه:	177	الفرزدق
198	علي ابن أبي طالب	178	نشأته وحياته
198	أخلاقه ومواهبه	178	شعره
199	نموذج من كلامه	181	نموذج من شعره
200	ومن كلام له رضي الله عنه:	181	جربير
201	سحبان وائل	182	نشأته وحياته
201	نشأته وحياته	183	شعره
201	نموذج من خطبه	185	نموذج من شعره
202	زياد ابن أبيه	185	الطرماح بن حكيم
202	نشأته وحياته	187	نشأته وحياته
202	أخلاقه ومواهبه	187	شعره
203	نموذج من كلامه: خطبته البتراء	189	نموذج من شعره
			النثر

الحجاج بن يوسف	205	الفصل الأول: اللغة وأثر الفتوح	227
نشأته وحياته	205	والسياسة والحضارة فيها	
أخلاقه ومواهبه	205	الفصل الثاني: النشر	230
نموذج من خطبه	206	الكتابة	230
الكتابة	208	الخطابة	234
الكتاب	210	نماذج النشر	236
عبد الحميد بن يحيى	210	التوقيعات	236
نشأته وحياته	210	الخطب	237
أثره في الكتابة	211	الرسائل	239
أسلوبه	211	المقامات	240
نموذج من نشره	211	المقامة الحرزية لبديع الزمان	240
نماذج من النشر	213	الهمذاني	
الحكم	213	الفصل الثالث: الكتاب	242
الخطب	213	ابن المقفع	242
الرسائل	216	نشأته وحياته	242
الوصايا	217	أخلاقه وعلمه	243
اللحن ونشوء العامية	218	نشره وشعره	244
النحو	220	مترجماته ومؤلفاته	244
العلوم في العصر الأموي	221	نموذج من نشره	244
الخط بعد الإسلام	222	الجاحظ	246
الباب الثالث العصر العباسي	225	نشأته وحياته	246
خطره وأثره ومميزاته	225	صفاته وأخلاقه	246
		علمه وأدبه	247

262	نشأته وحياته	247	نثره وشعره
262	صفاته وأخلاقه	247	مؤلفاته
262	نثره وشعره	248	مثال من نثره
263	مؤلفاته	250	ابن العميد
263	مقاماته	250	نشأته وحياته
263	عيوبها	251	نثره وشعره
263	سبب وضعها	251	مختار من كلامه
264	مختار من كلامه	253	الصاحب بن عباد
265	القاضي الفاضل	253	نشأته وحياته
265	نشأته وحياته	253	نثره
265	منزلته في الكتابة	254	نموذج من كلامه
265	نموذج من كلامه	255	الخوارزمي
267	الفصل الرابع: الشعر وأثر السياسة	255	نشأته وحياته
	والحضارة فيه	255	منزلته في الأدب والكتابة
272	نماذج من الشعر العباسي	256	مختار من كلامه
272	الحماسة	258	بدیع الزمان الهمداني
272	المدح	258	نشأته وحياته
273	الرثاء	258	أخلاقه ومواهبه
274	الهجاء	259	نثره وشعره
275	الوصف	259	مقاماته
278	الحكم والأمثال	259	مختار من كلامه
280	الاعتذار والاستعطاف	262	الحريري
282	الفصل الخامس الشعراء المؤلّدون		

301	نشأته وحياته	283	شعراء بغداد
301	شعره	283	بشار بن بُرد
302	مؤلفاته	283	نشأته وحياته
302	نموذج من شعره	284	صفته وأخلاقه
306	الشريف الرضي	284	شعره
306	نشأته وحياته	285	عيوب شعره
306	صفته وأخلاقه	286	نموذج من شعره
306	شعره	288	أبو العتاهية
307	مؤلفاته	288	نشأته وحياته
307	نموذج من شعره	289	صفته وأخلاقه
309	الطغرائي	289	شعره
309	نشأته وحياته	290	درر من قلائده
309	شعره	292	أبو نواس
311	الشعر والشعراء في الشام	292	نشأته وحياته
312	أبو تمام	293	صفاته وأخلاقه
312	نشأته وحياته	293	منزلته في الشعر
312	صفاته وأخلاقه	294	درر من قلائده
313	شعره	296	ابن الرومي
314	نموذج من شعره	296	نشأته وحياته
316	البحثري	297	شعره
316	نشأته وحياته	299	نموذج من شعره
316	صفاته وأخلاقه	301	ابن المعتز
317	شعره		

347	نشأته وحياته	317	نموذج من شعره
347	شعره	319	المتنبي
348	العقد الفريد	319	نشأته وحياته
349	نموذج من شعره	321	شعره
350	ابن هاني الأندلسي	322	عيوب شعره
350	نشأته وحياته	323	نموذج من شعره
351	أخلاقه	325	أبو فراس الحمداني
351	شعره	325	نشأته وحياته
352	نموذج من شعره	326	صفاته وأخلاقه
356	ابن زيدون	326	شعره
356	نشأته وحياته	326	نموذج من شعره
357	شعره	328	أبو العلاء المعري
357	نثره	328	نشأته وحياته
358	نموذج من كلامه	329	مواهبه وعقيدته
359	نموذج من شعره	330	شعره
362	ابن حمديس الصقلي	331	نثره
362	نشأته وحياته	331	مؤلفاته
363	أخلاقه	333	نموذج من شعره
363	شعره	335	الشعر والشعراء في الأندلس
363	نموذج من شعره	340	نماذج من الشعر الأندلسي
367	ابن خفاجة الأندلسي	347	شعراء الأندلس
367	نشأته وحياته	347	ابن عبد ربه

389	الترجمة والتأليف	367	شعره
391	العلوم الأدبية	368	نموذج من شعره
391	علم الأدب	371	لسان الدين ابن الخطيب
392	الأدباء	371	نشأته وحياته
392	الأصمعي	371	منزلته في الكتابة
392	حياته وعلمه	382	نموذج من كلامه
393	مؤلفاته	375	الشعر والكتابة والعلوم والفنون
394	أبو الفرج الأصبهاني		في مصر على عهد الفاطميين
394	نشأته وحياته	378	الشعراء في مصر
394	أخلاقه وعلمه	379	كمال الدين ابن النبيه
394	كتاب الأغاني	379	نشأته وحياته
395	نموذج من شعره	379	شعره
396	علم النحو	380	نموذج من شعره
397	النحاة	383	ابن الفارض
397	سيبويه	383	نشأته وحياته
397	نشأته وحياته	383	صفاته
400	الكسائي	383	شعره
400	نشأته وحياته	384	نموذج من شعره
400	مؤلفاته	386	بهاء الدين زهير
401	الفراء	386	نشأته وحياته
401	نشأته وحياته	386	شعره
403	ابن الحاجب	387	نموذج من شعره
		389	الفصل السادس: العلوم

415	أبو حنيفة النعمان	403	نشأته وحياته
415	نشأته وحياته	403	مؤلفاته
415	صفته وأخلاقه	404	علم الفقه
415	علمه وأدبه	405	اللغويون
417	مالك بن أنس	405	الخليل بن أحمد
417	نشأته وحياته	405	نشأته وحياته
417	صفته وأخلاقه	405	علمه وعمله
417	علمه وفضله	406	مؤلفاته
418	محمد الشافعي	407	ابن دريد
418	نشأته وحياته	407	نشأته وحياته
418	صفته وأخلاقه	407	أخلاقه وعلمه
418	علمه وفضله	408	مؤلفاته
420	أحمد بن حنبل	409	علوم البيان
420	نشأته وحياته	410	التاريخ
421	العلوم العقلية	411	مذهب العرب في التاريخ
421	الفلسفة	412	العلوم الشرعية
413	الفلاسفة	412	علم الحديث
413	ابن سينا	413	المحدثون
413	نشأته وحياته	413	البخاري
424	علمه ومصنفاته	413	نشأته وحياته
425	حجة الإسلام الغزالي	413	مسلم بن الحجاج
425	نشأته وحياته	404	علم الفقه
		415	الفقهاء

446	أبو الفداء	425	مؤلفاته
446	نشأته وحياته	426	ابن رشد
446	مؤلفاته	426	نشأته وحياته
447	ابن خلدون	426	فلسفته وكتبه
447	نشأته وحياته	428	الفصل السابع القصص والمقامات
448	أخلاقه		في الأدب العربي
448	نثره وشعره	431	الحكايات
448	كتابه في التاريخ	431	ألف ليلة وليلة
450	السيدة عائشة الباعونية	432	الأمثال
450	نشأتها وحياتها	432	كلىة ودمنة
450	منزلتها في الشعر والكتابة	434	المقامات وكتابها
451	نموذج من كلامها	437	الباب الرابع بعد سقوط
453	الباب الخامس العصر الحديث		بغداد كيف خلفت القاهرة
453	الفصل الأول: نظرة عامة		بغداد وقرطبة؟
458	الفصل الثاني: وسائل النهضة	440	أعلام هذه المفازة
	الحديث	442	صفي الدين الحلي
458	1 - المدارس	442	نشأته وحياته
459	2 - الجامعة الأزهرية	442	شعره
461	3 - الجامعة المصرية	443	نموذج من شعره
462	4 - الطباعة	444	ابن منظور
463	5 - الصحافة	444	نشأته وحياته
464	6 - التمثيل	444	مؤلفاته
466	7 - المعامع الأدبية	444	لسان العرب
466	المجمع العلمي العربي بدمشق		

490	466	مجمع اللغة العربية بالقاهرة	نموذج من نشره
493	467	المجمع العلمي العراقي:	إبراهيم المويلحي
493	468	الفصل الثالث: النشر	نشأته وحياته
494	468	الكتابة	أسلوبه
494	471	الفن القصصي والروائي	آثاره
495	473	الفصل الرابع: أساطين النهضة	حفني ناصف
495		الحديث في مصر والشام والعراق	نشأته وحياته
495		والمغرب	أخلاقه
496	478	الكتاب	نشره وشعره
496	478	جمال الدين الأفغاني	مؤلفاته
496	478	حياته وأعماله	نموذج من شعره
498	481	نموذج من نشره	باحثة البادية
498	482	الأستاذ الإمام محمد عبده	نشأتها وحياتها
498	482	نشأته وحياته	مكانتها في العلم والأدب
499	483	صفاته وأخلاقه	نموذج من كلامها
500	483	أثره في اللغة والأدب	مصطفى لطفي المنفلوطي
500	484	أثره في العلم والدين	نشأته وحياته
501	484	أسلوبه	أخلاقه
501	485	نموذج من نشره	أسلوبه وأدبه
502	487	الشيخ علي يوسف	مؤلفاته ومترجماته
502	487	نشأته وحياته	نموذج من نشره
502	489	أخلاقه وفضله	الغني والفقير
502	489	أسلوبه وعلمه	

517	أدبه وعلمه	504	عبد العزيز شاويش
517	نموذج من كلامه	504	نشأته وحياته
519	حمزة فتح الله	505	أخلاقه
519	نشأته وحياته	505	أسلوبه
519	أخلاقه وعلمه	505	مؤلفاته
519	نموذج من كلامه	506	نموذج من نثره
520	الخطابة والخطباء	507	الأدباء
522	عبد الله نديم	507	ناصر اليازجي
522	نشأته وحياته	507	نشأته وحياته
523	أخلاقه ومواهبه	508	نثره وشعره
524	نموذج من كلامه	508	علمه ومؤلفاته
525	مصطفى كامل	509	نموذج من كلامه
525	نشأته وحياته	510	أحمد فارس الشدياق
526	مصطفى كامل الخطيب	510	نشأته وحياته
526	نموذج من خطبه	511	نثره وشعره
528	سعد زغلول	511	مؤلفاته
528	نشأته وحياته	512	نموذج من كلامه
530	منزلته في الخطابة	514	بطرس البستاني
530	نموذج من نثره	514	نشأته وحياته
532	الفصل الخامس	515	علمه وفضله
532	الشعر	516	إبراهيم اليازجي
534	الشعراء	516	نشأته وحياته

555	نموذج من شعره	534	محمود سامي البارودي
558	خاتمة في الاستشراق والمستشرقين	534	نشأته وحياته
561	أشهر المستشرقين	535	شعره
564	الفهرس	536	مؤلفاته
		536	نموذج من شعره
		539	إسماعيل صبري
		539	نشأته وحياته
		540	شعره
		541	نموذج من شعره
		544	أحمد شوقي
		544	نشأته وحياته
		545	شوقي الشاعر
		546	نموذج من شعره
		548	محمد حافظ إبراهيم
		548	نشأته وحياته
		549	حافظ الأديب
		550	حافظ الشاعر
		550	نموذج من شعره
		553	جميل صدقي الزهاوي
		553	نشأته وحياته
		554	الزهاوي العالم
		555	الزهاوي الشاعر